

دوستو یقیسکی

الأعمال
الأدبية
الكاملة

٤

مذلولون مهرانون

ترجمة: الدكتور سامي الدروبي

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العرب للطباعة والنشر

١٩٦٧

أعمال دوشونيفسكى الأدبية

٤

ترجمة

الدكتور سامى الدروبي



دوستويفسکی

مُذَلِّلُونَ مُرْهَافُونَ

«مذنون مهانون» Ounijennyié i oskorblennyié

كتب دوستويفسكى هذه الرواية سنة ١٨٦٠ -
١٨٦١ ، ونشرها في المجلة التى اصدرها مع اخيه وهى
مجلة « الزمان » فى الأعداد المتسلسل صدرها من كانون
الثانى (يناير) الى تموز (يوليو) ١٨٦١ ، وقد ظهرت
طبعة مستقلة لها فى نهاية ١٨٦١ ، ونشرت كاملة فى
جميع طبعات أعمال دوستويفسكى .

تقديم

كتب دوستوفسكى هذه الرواية عند عودته من السجن فى المنفى،
فىمكن القول انها جسر بين ما أنتجه من قصص فى أيام الشباب وبين
الأعمال الكبيرة التى كتبها فى سن النضج . وقد استقبل النقاد هذه
الرواية الحافلة الصاخبة ، استقبلوها عند ظهورها استقبالا متفاوتا اشد
التفاوت ، فمنهم من تحمس لها أكبر الحماسة ، ومنهم من ظلمها أكبر
الظلم . وكان دوستوفسكى نفسه بين الذين ظلموها . كتب يقول سنة
١٨٦٤ ، فى مجلة « العصر » :

« أنا أعلم حق العلم أن فى كتابى هذا دى كثيرة ليست كائنات
انسانية » وأضاف : « لم أدرك هذا طبعا حين كنت فى حمى العمل السريع
ولم أكد أشعر به . » ويردد دوستوفسكى ما قاله بعض النقاد فى
حق هذه الرواية من أنها بعيدة عن الواقع ، ومن أنها مفككة بعض التفكك،
فها هوذا يقول فى الاعتذار عن ذلك انه كتبها فى ظروف خاصة فرضت
عليه أن يسرع فى الكتابة ما أمكن الاسراع ، لأن المجلة الناشئة التى شرع
فى اصدارها أخوه ، وهى مجلة « الزمان » ، كانت فى حاجة الى رواية
تنشر فى أعدادها المتسلسلة تباعا ، فلم يتسع وقته لبناء روايته البناء
المحكم ، ولا لصلقلها الصقل الفنى الذى يرضى عنه . وعندنا أن
دوستوفسكى قد ظلم نفسه حين اعترف للظالمين من نقاده ببعض ما عابوه
على روايته . فالرواية ليست مفككة الا فى نظر من يقرأها قراءة عجل ،
فيتيه فى سراديبها دون أن يلاحظ ارتباط أجزائها بعضها ببعض ارتباطا
وثيقا ، ويصرفه الغوص فى أعماق النفس الانسانية عن رؤية الجمال

الشعري في صياغتها نفسها . وكان دوستويفسكى يدرك حتما أنه يظلم نفسه حين يعترف لنقاده الظالمين بما أخذوه على الرواية ، سواء أكان ذلك من قبيل المجازاة لهم والتقرب منهم أم كان من قبيل الشعور بأن عبقريته قادرة على ما هو خير من ذلك انسجاما وشاعرية ؛ فها هو ذا يستدرك قائلا : « ولكن اليكم ما كنت أعرفه حين شرعت في كتابتها : » ١ - أن روايتي هذه ستشتمل على شعر ولو لم تنجح ، ٢ - وأنها ستشتمل على فصول تفيض حرارة وقوة ؛ ٣ - وأنها ستشتمل على وصف صادق وفني لشخصيتين حيتين الى أبعد الحدود . وكانت هذه الثقة تكفيني . وقد خرجت الرواية غريبة بعض الغرابة ، غير أن فيها قرابة خمسين صفحة أعتر بها . »

والحق أن دوستويفسكى ، حتى في دفاعه هذا عن كتابه ، كان خجولا متهيبا مترددا ، فالشخصيات التي يصورها في هذه الرواية حية أصيلة صادقة كلها ، والحيط الذي ينظم أجزاء الرواية بعضها ببعض يربط هذا الأجزاء ربطا محكما قويا ، والشعر يترقرق في الرواية من أولها الى آخرها ، ولا شك أن دوستويفسكى كان حين استسلامه للالهام الحصب والوحى المتدفق أثناء كتابة الرواية أصدق نظرة وأصدق حكما منه حين نظر الى الرواية ناقدا بعد ذلك . أية شخصية في هذه الرواية يمكن أن توصف بأنها غير واقعية ؟ ان جميع الشخصيات التي يصورها واقعية مستمدة من الحياة ؛ لا من الحياة المرضية غير الطبيعية فحسب ، بل من الحياة السوية السلية أيضا . ان شخصوص هذه الرواية الذين قد يتراءى للنظرة السطحية الأولى أنهم مرضى ، ليسوا بمرضى في الواقع . وما أصدق ما قاله هنرى ترويا بهذا الصدد ! قال هنرى ترويا : « اننا لا نشعر ، في الوهلة الأولى ، بأن هناك أى شيء مشترك بيننا وبين أولئك الذين يصفهم دوستويفسكى من المتشردين ، والفوضويين ، والسكران ، والمدمنين ، وأشباه القديسين ، وقتلة آبائهم ، والمصابين بالهستيريا ... الخ . اننا لم نلتق بهم يوما في هذه الحياة . وسلوكنا المعتاد يختلف عن سلوكهم اختلافا كاملا . ومع ذلك فنحن نشعر بأنهم معروفون لنا ، مألوفون عندنا ، على نحو سرى عجيب . اننا نفهمهم واننا نحبههم . بل اننا نتعرف أنفسنا فيهم . فكيف يمكن تعليل هذا التجاوب وهذا التعاطف معهم ، ماداموا هم أشخاص مرضى ، وما دمنا نحن أفرادا أسوياء من حيث المبدأ ؟ من ذا الذى يستطيع أن يزعم أن

دوستويفسكى . كان يمكن أن يجتنب هذه الأعداد الكبيرة من جماهير القراء الذين ما ينفكون يتزايدون ، لو قد توفر على دراسة المجانين والمدمنين واضرابهم دون غيرهم ؟ الحقيقة هي أن مجانين دوستويفسكى ليسوا مجانين الى الحد الذي نتوهمه من أول وهلة . كل ما هنالك أنهم ما لا نجرو أن نكونه . انهم يعملون ويقولون مالا نجرو أن نعمله وأن نقوله . انهم يظهرون الى النور ما نكتبه نحن في ظلمات اللاشعور . انهم نحن ، اذا لوحظنا ورصدنا من داخل . هذه الطريقة في التقاط المناظر ، وهي أقرب ما تكون الى عمل الجراح ، تتناول ما هو مختبئ في أبعد الأغوار من أعماقنا . . . انه يصور عالمنا الداخلي المختفى ، أما العالم الخارجى فيبقى غامضا كأنه في حلم . ولئن كان دوستويفسكى يخضع أحيانا للاغراء الذى يغرى بالصاق عنوان طبى على مخلوقاته ، فهو انما يفعل ذلك ليبرر سلوكهم العجيب الشاذ ، وليبرر أقوالهم المتدفقة من تلقاء نفسها بما يشبه الوحي والالهام ، أمام قراء مفتونين بالكلام المنطقى والحديث المتسق . انهم ليسوا بمرضى ، ماداموا بغير أجسام ، أو قل ان أجسامهم ليست الا أفكارا . وكل من أدرك ذلك ، فسوف يقرأ دوستويفسكى ناسيا ما يتصف به أبطاله من طابع المرض ، فلا يرى فيهم الا الصراع الروحى الذى يمثلونه بغير أجساد وغير تعب .

« ومع ذلك ، اذا لم تكن شخصيات دوستويفسكى شخصيات مختلفة حقا ، فانه لم يستطع أن يصور هذه الشخصيات ذلك التصوير الدقيق كل الدقة ، ولا أن يبت فيها الحياة على هذه الصورة الرائعة ، الا لأنه كان هو نفسه يعانى بعض الاختلال . لقد كانت نوبات الصرعة تلقية ، باعترافه هو نفسه ، الى ملذات رهيبة . كان وهو فى ذروة هذا التوتر العصبى ، يعانى الموت حيا ، ويتصل بالوجه الآخر من هذا العالم الذى نعيش فيه ، فيفهم مالا سبيل الى فهمه ؛ ثم يعود الى الأرض بعد التشنج الأخير مبهورا مفتودا . فهذه القدرة على التحليق فوق الظرف الانسانى ، ثوانى أو دقائق ، تتيح له أن يؤكد وجود منطقة وسيطة لا هي الواقع ولا هي الحلم . فعلى مشارف هذه الحماسة ، تزدوج الشخصية ، ويسود الفكر ، ولا يبقى للجسد وزن ولا قوة ولا قيمة . . . وفى رخاب هذا الضياء الذى فوق الطبيعة ، لا تبقى فروق ألوان . . . ان السعادة ، عند دوستويفسكى وعند أبطاله ، هي الوجد . . . وإن الشقاء هو التلاشي . . . ان فى وسع كل انسان أن يقول مثله : « لم أزد خلال حياتى

كلها على أن أدفع الى النهاية القصوى ما لم تجرؤ أنت أن تدفعه الا الى منتصف الطريق . . . »

ومن أجل هذا فإن هذه الرواية التي قد يصفها ناقد سطحي بأنها « غريبة » أو بأنها « ملفقة » ، أو بأنها « مفككة » ، تؤثر في نفس القارئ الذي يتعاطف مع أبطالها ويستسلم كاستسلام المؤلف لحياتهم ومشاعرهم ، فاذا هي تنبض في نظره ، بل تنبض في قلبه وتهز أعماق أعماقه . وإن في هذه الرواية لكثيرا من حياة دوستويفسكى نفسه . إنها توحيك أن تكون اعترافات ، وأن تكون مرآة تعكس نظرتة البكر الى الحياة والوجود في هذه المرحلة من أيامه . ولا يصعب على القارئ أن يتعرف في سمات بطلها ايفان بتروفتش وفي ملامح روحه وفي أحداث حياته ، شخصية الكاتب نفسه . إن ايفان بتروفتش الذي يقص هذه الحكاية هو دوستويفسكى نفسه : عرف الفقر والبدايات الصعبة الشاقة والسند يحظى به من ناقد كبير هو بيلنسكى ، وعرف لحظة قصيرة من شهرة ومجد ، وهو يحمل في مزاجه التناقض بين فكر قوى جبار منظم ممتلئ رجولة ، وبين حساسية مفرطة ، وأعصاب مهتزة ، وصحة مهددة وروح مرهقة . غير أن بين المؤلف والبطل فرقا كبيرا ؛ فالمؤلف ، وقد بلغ الأربعين من عمره وأنضجته تجربة المعتقل بالنفى ، وعاش حياة مزروعة بالمكائد ، يبدأ الآن كتابة عمل ضخم جبار ، ويملك ناصية موهبته ويهتدى الى ينابيع الثرة أثناء ذلك بجهد شاق بطله ، أما بطله فهو يصل الى نهاية حياته ولما يزل شابا في مستقبل العمر . إنه يكتب ذكرياته في المستشفى منتظرا خاتمة المطاف من عمره القصير . ولا شك أن في ايفان بتروفتش هذا ، أحد أبطال « مذلون مهانون » ، شيئا كرهه دوستويفسكى في نفسه ونفر منه ، أعنى تلك الرومانسية العاطفية الانسانية التي عبر عنها في « الفقراء » وفي « الليالي البيضاء » . . . ولكن هذا لا ينفي أن ايفان بتروفتش يمتحن في هذه الرواية امتحانا قاسيا مر به دوستويفسكى نفسه في حياته ، حين عرف الكسندرا ديمتروفنا : فانه حين لم تقبله الكسندرا التي يحبها هو حبا عارما قويا ، لم يأخذ بتدب حظه ولا باظهار العذاب والألم ، بل وضع خير ما عنده في خدمة عواطف حبيبته - وهي تسمى في هذه الرواية ناتاشا - وفي خدمة علاقاتها بغريمه « السعيد » . وهذا الموقف كان بعينه موقف ذلك الموظف الصغير ماكار ديفوشكين ، أحد شخصيات روايته « الفقراء » ،

وكان موقف ذلك المتنزه الحالم الذى وصفه دوستويفسكى فى قصة « الليالى البيضاء » . يظهر أن هذا الموضوع كان يحاصر ذهن دوستويفسكى محاصرة قوية ، وذلك يتفق أيضا مع اهتماماته الأساسية فى الأعمال التى سسيكتبها فى المستقبل . فمن أعماق الاخفاق القاسى الذى يمنى به هؤلاء الشخصوس الثلاثة فى هذه الأعمال الثلاثة ، يكتشف هؤلاء الشخصوس فى أنفسهم طاقة جبارة تخلصهم من قوى اليأس المرير وندب الحظ العائر : هذه الطاقة الجبارة هى « الشفقة » هى « الرحمة » التى تكشف عن أنبل ما فى القلب ، وتجعل صاحبها يقبل التضحية ، فى ذات نفسه ، بما فى كل حب من توق الى الامتلاك . وهذا التأثير القوى الذى تؤثره الرحمة فى القلوب ، والذى هو أعمق من جميع أعماق الشر ، نحن نجده لدى جميع شخصوس « مذلون مهانون » تقريبا ، نجده فى هذا الحب الغريب الذى تحمله ناتاشا وكاتيا كلتاهما ، وهما الغريمتان المتنافستان ، للشباب الطائش الحفيف اليوشا : ان ايمان بتروفتش يتساءل فى بعض اللحظات ، ويتساءل معه القارىء أيضا ، كيف أمكن أن تفتتن فتاة مثل ناتاشا طهارة وحرارة وعقلا ، بشاب يبلغ ما يبلغه اليوشا من تفاهة و « فراغ » وتردد وأثرة ، وكيف أمكنها أن تتوله بحبه! وها هو ذا دوستويفسكى يجيب على هذا التساؤل بعبارات عنيفة قوية تعرى ما يتصف به الحب الجارف من « التباس » و « تناقضات » . ان ناتاشا ، حين تنظر الى حبها ، تدرك فى قرارة نفسها أن حبها انما تداخله شفقة و « رحمة » ، وكذلك كاتيا . فهى رغم ما يتصف به اليوشا من ضعف وتفاهة انما تحبه كما تحب أم ابنها . وهى تفصح عن هذه الحقيقة بلسانها نفسه : انها تشعر نحوه أحيانا بشفقة . انها حين تنظر الى ما فيه من خفة ساحرة ، ومن ثرثرة مثالية ، ومن تناقض وتفكك وتذبذب ، ترى فيه « انسانا مسكينا » ، فتشفق عليه ، بل انها لتبلغ من ذلك حدا لا يكاد يصدق العقل فهى تحب حتى خيائته لها مع نساء بغايا . . . ذلك أنها تريد أن ترى أنه « رجل » ، وتحب أن تغفر له ، أن تصفح عنه ، تحب أن تسامح وتعفو . . . ان حبها مزيج من حب وشفقة . . . بل ان فى حبها شيئا من « الاحسان » بالمعنى المسيحى . . . واذا كان الهوى يصطرع مع هذا « الاحسان » ، فان « الاحسان » هو الذى يكتب له النصر ، وان الهوى هو الذى يمنى بالهزيمة . ان دوستويفسكى يرينا وراء اخفاق الحب انتصار الانسان . . . لقد قبلت ناتاشا القطيعة ؛

وارتضت أن ترى غريمتها وأن تناقشها • وها هي ذى تتنازل لها عن حبيبها ، بل وتسألها أن تحقق للشباب سعادته •

ومن شأن تغفل الشفقة في ملكوت الحب أن يخرب النفوس - ذلك الجنون • تلك لحظة من لحظات الصراع ، في نظر دوستويفسكى ، بين قوى ما سيحدث للأمير ميشكين في رواية « الأهل » - وأن ترمى بها الى الخير وقوى الشر في كل انسان • ويكتسى الحب المخفق ، عند دوستويفسكى ، دلالة خاصة ، فهو كالادمان والشهوة يكشف لنا عن انفسنا على حقيقتها ، وينير بضيائه بنية شخصيتنا ، ويكون مرآة لكياننا النفسى الداخلى •

فاذا نظرنا الى هذا العالم الذى تدور فيه أحداث الرواية ويضطرب فيه شخصوها ، اذا نظرنا الى هذا العالم من خارج ، رأينا عالم جريمة واستحالة • فالبشر الشرفاء النبلاء أصحاب العواطف القوية ، والمبادئ الثابتة - مثل ايفان بتروفتش ، وناتاشا ، والصغيرة نللى - يخفون ، على حين أن اليوشا الضعيف ، وكاتيا الطفلة فى أنانيتها سيعرفان شيئا من سعادة ، ولن يضيعا على كل حال ؛ كما أن سميث والعجوز اخمينيف ، وهما انسانان مستيقمان ولكنهما فى استقامتهما شديدا العزة والكبرياء ، سيكونان السبب فى شقاء ذويهم ، على حين أن الظافر الاكبر والمنتصر الأعظم انما هو ذلك الوغد الحقير اللئيم الذى لا يتورع عن شيء ولا يحجم عن شر : الأمير فالكوفسكى : فله النساء ، وله المال ، وله الاعتبار والجاه ، وله كل قوى هذا العالم • ذلك ما نراه فى هذا العالم : « الشر قوى على هذه الأرض ، فان لم تقف فى مواجهته الا فضائل صغيرة ، فلواء النصر معقود له • ولعل هذه النتيجة هى التى خلص اليها دوستويفسكى » • ذلك ما قاله بيير باسكال فى كلام له عن دوستويفسكى • ان دوستويفسكى يطرح مشكلة الشر فى هذه الرواية العنيفة طرحا خفيا ، وسيزيد طرحه لها قوة وسيجسدها مزيدا من التجسيد فى أعماله المقبلة التى ستدور فى الواقع حول هذا الموضوع : كيف تكافح قوى الشر التى هى فى الانسان جزء من ظروف وجوده • صحيح أن دوستويفسكى لم « يعالج » شيئا من هذا بدراسة صريحة فى « مذلولون مهانون » • وهذه الرواية المعقدة الغنية شعرا ، شعرا قاتما مظلما ، تسطع بألف لون من ألوان الجمال •• ولكن قاعها يظل مظلما مظلما الى أبعد حدود الاطلام ••

قال جورج هالداس : « ان هذا القاع المظلم ، هذا القاع المؤلف من خوف وقلق ، وبؤس واختلال عصبي ، يذكرنا ببودلير « سام باريس » (وقد ولد الشاعر الفرنسي والروائي الروسي فى سنة واحدة : ١٨٢١) . فالكاتبان ، على اختلاف عبقريتهما ، يتشابهان أكبر التشابه فى ادراك الخطر الذى يهدد عافية البشر النفسية ، ويحسان « الشر » احساسا واحدا من حيث هو أساس الوجود ، ويحسان « الخطيئة » هذا الاحساس نفسه تبعاً لذلك . وهما قادران قدرة واحدة على أن يكتفا مصير انسان فى بضع كلمات ، ويعرفان معرفة واحدة كيف يضعانه فى موضعه من الوجود ، وكيف يرسمان نظرة واحدة من نظراته الى واحدة من مضيئات ذكريات طفولته ، فاذا هى أشبه بقوس قزح فوق حياته الحزبة ؛ وهما أخيراً يملكان احساساً واحداً بجحيم العواصم التى يترسب فيها الشقاء . وحسبك أن تقرأ هذه الفقرة من فقرات هذه الرواية القائمة المظلمة المتحركة « مذلون مهانون » حتى ترى فى هذه الفقرة بذرة الرواية كلها ، قصيدة شعرية تجمعها وتلخصها : « انها قصة رهيبة : قصة امرأة هجرها صاحبها وما يزال يعيش على أنقاض سعادتها ، قصة امرأة مريضة هدها الألم وانصرف عنها جميع الناس ، وأنكرها الانسان الذى أساءت اليه فى الماضى وفقد عقله هو الآخر تحت وطأة انواع العذاب والذل التى لا يمكن أن يحتملها بشر ، قصة امرأة استبد بها الياس فأخذت تطوف فى شوارع بطرسبرج الباردة القذرة ، تطلب الصدقات من الناس مع ابنتها التى ترى أنها ما تزال طفلة صغيرة ، قصة امرأة فنيت بعد ذلك خلال شهور فى قبو رطب ، ورفض أبوها أن يمن عليها بغفرانه الى آخر لحظة من حياتها ، حتى إذا تاب الى صوابه فهرع اليها ليغفر لها لم يجد فى مكان ابنته الا جثة باردة . انها قصة غريبة ، قصة علاقات عجيبة لا يكاد يفهما المرء . بين شيخ هرم ارتد الى الطفولة وبين حفيدة له كانت تفهمه على صغر سنها ، وكان لها من نفاذ الفكر ما لا يصل اليه كثير من الناس خلال حياتهم الهادئة الرخية . انها قصة مظلمة ، قصة من تلك القصص السوداء الأليمة التى كثيرا ما تجرى دون أن يلمحها أحد ، كأنها أسرار خفية ، تحت سماء بطرسبرج الثقيلة ، فى الزوايا المعتمة المستسرة من المدينة الكبيرة ، وسط اصطخاب الحياة والأناية الضاربة والمصالح المصطرعة والفجور الكالح والجرائم الخبيثة ، فى كل هذا الجحيم من الحياة المجنونة الشاذة . »

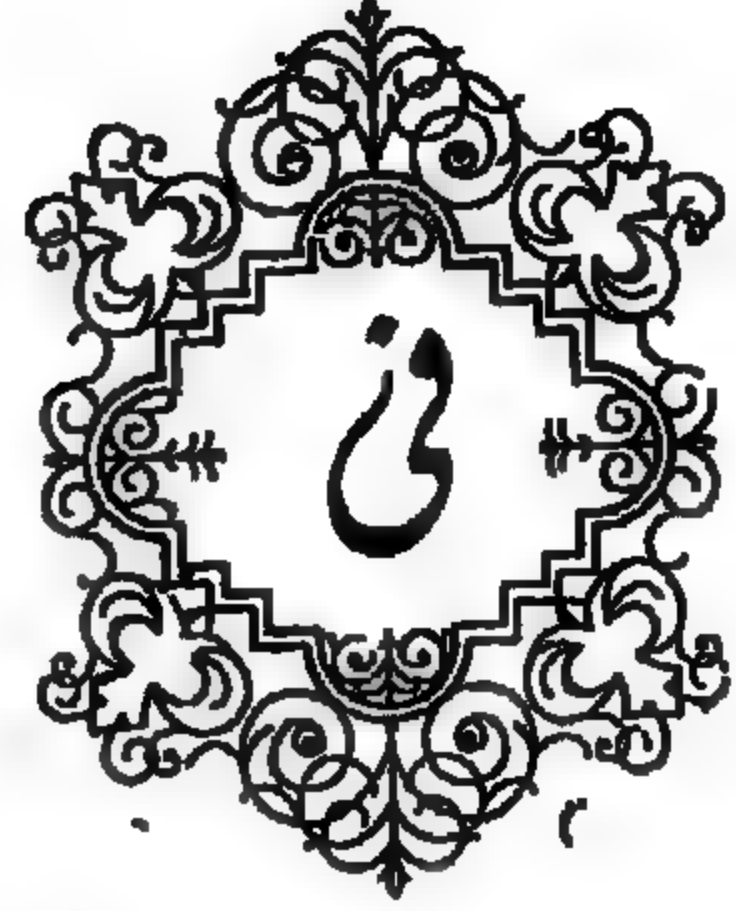
ويختتم جورج هالداس كلامه بقوله : « ذلك ، بقلم المؤلف نفسه ،
مدخل جيد الى متاهة دوستويفسكى التى لا تشكل روايته « مذلون
مهانون » الا مرحلة أولى منها » .

وعبث ، بعد ذلك ، أن نحاول تلخيص أحداث هذه الرواية المتشابكة
المتداخلة الأجزاء والفصول .

س . د .

الجزء
الأول

الفصل الأول



الثاني والعشرين من شهر مارس (آذار) من العام
الماضي وقع لي حادث من أغرب مايقع من حوادث
•• كنت قد قضيت النهار كله أبحث عن منزل
أستأجره • فقد كان بيتي القديم رطباً جداً وكنت
في ذلك الوقت أعاني سعالاً شديداً • كنت منذ الخريف أود أن أترك
هذا البيت ، إلا أنني سوتت حتى الربيع • انقضى النهار دون أن أجده
ما يرضيني • فقد كنت أريد أن يكون البيت مستقلاً لا جيران لي فيه ،
وكان يمكن أن أكتفى بغرفة ، ولكن لا بد أن تكون الغرفة واسعة (وكان
لا بد طبعاً أن يكون أجراها زهيداً) ، فقد لاحظت أن الغرفة الصغيرة
تضيق الخناق على الأفكار نفسها ، وكنت أحب دائماً ، حين أفكر فيما
سأكتب من قصص ، أن أسير في الغرفة جيئة وذهاباً • وأذكر في هذه
المناسبة أن التفكير في مؤلفاتي والتأمل فيما سأعتمد اليه من أسلوب في
تأليفها كانا دائماً أحبَّ إلى نفسي من كتابتها • وصدقوني إذا قلت لكم ان
ذلك لا يرجع الى الكسل •• لكنني لا أدري له سبباً ••

ولقد كنت ، منذ الصباح ، أشعر بشيء من الالقاء ، فلما جاء الغروب
شعرت بأنني مريض ، وانتابني نوع من الحمى • ثم اني قد ظللت على
قدميَّ النهار كله ، وأخذتني التعب مأخذة • وفي المساء ، قيل الشفق ،
مررت بشارع «الصعود» • اني أحب شمس مارس (آذار) في بطرسبرج ،
وأحب الغروب خاصة حين يكون النهار بارداً نيراً • ان الشارع كله يضيء

فجأة ويفرق في أنوار جميلة • أخذت البيوت كلها تتألق ، فاذا ألوانها
الشهباء أو الصفراء أو الخضراء الكابية تفقد منظرها المتجهيم في طرفة عين •
وشعرت كأن نفسى تشرق ، وشعرت كأن رعشة تسرى فى جوانحتى :
نظرة جديدة ، ومعان جديدة ! ما أعجب ما يستطيع أن يفعله فى نفس
انسان شعاع من شمس ! ...

ولكن شعاع الشمس غاب ، واشتد البرد ، وأخذ ينقر الأنوف ...
وتكاثف الظلام ، وأخذت مصابيح الغاز تتألا فى المخازن والحوانيت • فلما
وصلت الى مستوى مقهى مولر على الطرف الثانى من الشارع ، رأيتى
أتسمر فى مكاني ، ورأيتى أنظر الى الطرف الآخر ، كأنما أوجست أن
أمرا خارقا سيقع لى على الفور • وفى هذه اللحظة تماما أبصرت على ذلك
الطرف الآخر رجلا عجوزاً وراءه كلبه • انى لأتذكر الآن أن صدرى
انقبض فى تلك اللحظة انقباضا شديدا ، تحت وطأة احساس مزعج لم
أستطع أنا نفسى أن أعرف كنهه •

لست بالانسان المتطير ، ولا أكاد أؤمن بمشاعر التنبؤ • ومع ذلك
فقد وقعت لى فى حياتى حوادث كثيرة لا يمكن تعليلها ، كما وقع ذلك
لجميع الناس فيما أظن • مثال ذلك هذا العجوز الذى رأيت : لماذا شعرت
فورا ، حين أبصرته ، ان شيئا غير عادى سيقع لى فى المساء ؟ على أننى
كنت مريضا ، والمشاعر المرضية تكاد تكون دائما خداعة •

كان العجوز يقترب من المقهى بخطوات بطيئة متقلقلة ، يقدم رجله
كأنهما عصوان ، لا يكاد يتشيها ، وقد تقوس ظهره ، وأخذ يضرب بعصاه
بلاط الرصيف • لم أر فى حياتى شكلا أعجب ولا أغرب من شكل هذا
العجوز •

لقد كان يؤلمنى منظره دائما حين كنت ألقاه فى مقهى مولر • ان

فاتمة الطويلة ، وظهره المحدود ، ووجهه الذى لاح فيه فناء ابن الثمانين ، وسرواله العتيق المتفتق ، وقبعته المدورة المشوكة التى يرجع عهدا الى عشرين عاما خلت والتى تغطى جمجمة عارية الا من كشة صغيرة من الشعر على النقرة تماما ، كشه صفراء لا بيضاء ، وحركاته التى تبدو خالية من المعنى حتى لكأنها حركات نابض الى ، كل ذلك كان يفجأ حتما نظر من يراه لأول مرة • وانه لغريب حقا ان يرى المرء عجوزا فى هذه السن ، وحيدا ، لا يلاحظه أحد ، لا سيما وانه يبدو كمجنون أفلت من قبضة حراسه • وقد فجأ نظرى نحوه الشديد • هذا انسان لا يكاد يكون له جسم • انه عظم وجلد • وكانت عيناه كبيرتين ، ولكن منطقتين ، تحف بهما هالة زرقاء فاتمة ، وكأنا تنظران الى أمام دائما ، لا تتحرفان يمنة ولا يسرة قط ، ويقينى انهما ما كاتا تريان شيئا البتة • تراه ينظر اليك ، ولكنه يسير نحوك كأن أمامه فضاء • لقد لاحظته عدة مرات ، حين ظهر فى مقهى مولر منذ مدة يسيرة ، لم يعرف أحد من أين أتى ، وكان يصحبه كلبه دائما • وما ارتأى أحد من زبائن المقهى يوما أن يتجه اليه بكلمة ، ولا فكر هو أن يتجه الى أحد من رواد المقهى يوما بكلمة •

قلت فى نفسى وقد تسمرت فى مكانى على الطرف الثانى من الشارع ، وأخذت أتابعه بنظرى متابعة لا حيلة لي فى دفعها : • لماذا يجر نفسه الى مقهى مولر ، ماله ولهذا المقهى ؟ •

وأخذ يغلى فى نفسى اضطراب شديد ، نتيجةً للمرض والتعب • ثم تابعت أسائل نفسى : • بماذا يفكر هذا الرجل ؟ ماذا يدور فى رأسه ؟ ألا يزال قادراً على أن يفكر فى أى أمرٍ من الأمور ؟ ان وجهه ميت لا يعبر عن شيء البتة • ثم أين عثر على هذا الكلب الكريه الذى لا يفارقه لحظة ، كأنه جزء منه لا ينفصل عنه ، والذى يشبهه هذا الشبه العظيم ؟ •

لقد كان الكلب يبدو فى الثمانين من العمر هو أيضا • نعم ، لا بد

انه كان فى الثمانين . . . انه يبدو أكبر سنًا من أى كلب فى العالم ؛ حين رأيته أول مرة ، تراءى لى على الفور ان هذا الكلب لا يمكن أن يكون كسائر الكلاب ؛ انه كلب خارق ؛ انه ينطوى ولا شك على شيء عجيب سحرى ؛ لا بد أن يكون جنياً فى هيئة كلب ، ولا بد أن مصيره قد ارتبط بمصير صاحبه بروابط سرية مجهولة . . . انك حين تراه توافق فوراً على أن آخر مرة ذاق فيها الطعام ترجع الى عشرين سنة خلت . انه نحيل كهيكل عظمى ، بل قل كصاحبه ، وقد سقط كل شعره تقريباً ، حتى عن ذنبه الذى كان يضعه دائماً بين ساقيه ، والذى يبس كأنه عصي . وكانت أذناه الطويلتان تتدليان حزيتين . أقسم ما رأيت فى حياتى كلباً أبغض بيوزه حوافى معطف صاحبه كأنه مربوط به ، كانت مشيتهما بل كان الى النفس من هذا الكلب ، ولا أدعى الى النفرة . وحين كان الاثنان يسيران فى الشارع ، العجوز من أمام والكلب من خلف ، وهو يمس منظرهما كله كأنما يصرخ فى كل خطوة قائلاً : « نحن عجوزان ، نعم نحن عجوزان . » ولا أنسى انه تراءى لى أيضاً ذات يوم ان العجوز وصاحبه قد فرا من صفحة من صفحات كتاب هوفمان الذى صوره جافارنى ، وانهما يطوفان فى أرجاء العالم اعلاناً متجولاً عن هذا الكتاب . واجتزت الشارع ، ودخلت الى المقهى وراء العجوز . كان سلوك العجوز فى المقهى غريباً جداً ؛ حتى ان مولر الذى يقف فى صدر المقهى وراء البسطة أخذت تظهر على وجهه ، فى الأيام الأخيرة ، علائم التملل من هذا الزائر المزعج . لم يكن هذا الزبون يطلب شيئاً قط . وكان فى كل مرة يتجه قدماً نحو المدفأة ، ويجلس على مقعد الى جانبها . فاذا لم يجد ذلك المقعد خالياً ظل خلال لحظة من الوقت واقفاً فى حيرة غبية أمام الشخص الذى احتل مكانه ، ثم أسرع كالشده الى الطرف الآخر قرب النفذة . وهناك يختار أحد المقاعد يجلس عليه ببطء ، ويرفع قبعته ، ثم

يلقى بنفسه الى وراء مستندا على ظهر الكرسي ، ويظل ساكنا هكذا ثلاث ساعات أو أربعاً • لم يتناول جريدة في يوم من الأيام ، ولا نطق بكلمة ، ولا سمع أحد صوته • كان يكتفى بأن يظل جالسا يحملك أمامه •• الا ان نظرتة مشدوهة خالية من الحياة بحيث يصح أن يراهن المرء على انه لا يرى شيئا مما يدور حوله ، ولا يسمع شيئا • اما اللب فانه بعد أن يدور مرتين أو ثلاثا في مكانه ، يقعو حزينا بين قدمي سيده ، ويدس بوزه بين حذائيه ، ويزفر زفرة عميقة ، ثم يتمدد بكامل جسمه على الأرض ، ويظل ساكنا هو الآخر خلال السهرة كلها ، كما لو كان يموت أثناء ذلك • ان المرء ليستطيع أن يتصور ان هذين الكائنين كانا يقبعان متين في مكان ما ، خلال النهار كله ، حتى اذا غابت الشمس بُعثا من الموت على حين غرة ، لا لشيء الا ليأتيا الى مقهى مولر فيقوما هكذا بواجب سرى يجهله جميع الناس • وكان العجوز بعد أن يظل جالسا ثلاث ساعات أو أربعاً ، ينهض من مكانه ، ويتناول قبعته ويمضي الى بيته ؛ كان الكلب ينهض هو الآخر ، ويتبع صاحبه ذاهلا ، بخطى بطيئة كخطاه ، جاعلا ذنبه بين قائمتيه ، خافضاً رأسه • كان رواد المقهى في المدة الأخيرة يتحاشون العجوز بشتى الصور ، ويمتنعون حتى عن الجلوس قربه ، كأنهم يشمرون منه • أما هو فكأنه لا يلاحظ شيئا من ذلك البتة •

كان معظم رواد هذا المقهى من الألمان ، يفدون اليه من أرجاء شارع « الصعود » ، وكانوا جميعا من أصحاب الحوانيت : بقالين ، خبازين ، صباغين ، صانعي قبعات ، سراجين ، الخ •• وكان صاحب المقهى كثيرا ما ينضم الى حلقاتهم، يجلس الى موائدهم ، ويشرب معهم • وكانت كلاب صاحب المقهى وأطفاله تأتي كذلك الى الزبائن ، فكان الزبائن يداعبون الكلاب والأطفال جميعا • وكان جميع الزبائن يعرف بعضهم بعضا ، ويقدر بعضهم بعضا • وبينما يستغرق الزبائن في قراءة الصحف الألمانية ، كنت

تسمع من وراء الباب ، فى منزل صاحب المقهى ، أغنية «حبيبى أوغسطين» ، تعزفها على البيانو ، بنغمات رقيقة ، الابنة الكبرى لصاحب المقهى ، وهى ألمانية قصيرة شقراء الضفائر ، ما أشبهها بفأرة بيضاء • كان جميع الناس يرتاحون الى سماع أنغام الفالس • وكنت أذهب الى مقهى مولر فى الايام الأولى من كل شهر أقرأ الصحف الروسية •

حين دخلت الى المقهى رأيت العجوز قد جلس قريبا من النافذة ، ورأيت للبا ممددا بين رجلية على عادته • فجلست فى أحد أركان المقهى دون ان أقول شيئا ، وطرحت على نفسى هذا السؤال : « لماذا دخلت الى هنا ، مع اننى لست فى حاجة الى ذلك قط ، ومع اننى مريض ، أحوج الى الذهاب الى البيت لأحتسى قليلا من الشاي وانام ؟ » وانتابنى شعور بالانقباض • قلت فى نفسى وأنا أتذكر ذلك الاحساس الغريب المرضى الذى شعرت به حين أبصرت الرجل فى الشارع : « مالى ولهذا الرجل ؟ لماذا أهتم بأمره ؟ بل مالى ولهؤلاء الألمان المملين جميعا ؟ علام هذا القلق السخيف لترهات لا قيمة لها ؟ هذا القلق الذى ألاحظه على نفسى فى الأيام الأخيرة ، والذى يمنعنى من أن أحيا ، وأن ألقى على الحياة نظرة واضحة ، كما أشار الى ذلك ناقد عميق نافذ البصيرة فى نقده المرن لقصتى الأخيرة ؟ » على اننى رغم التردد والحزن ، ظللت فى مكاني لم أبرحه ، وكان شعورى بالمرض يتفاقم أثناء ذلك ، حتى بدا لى انه ليس يحسن أن أترك هذا الجو المعتدل اللطيف فى المقهى ، فتناولت جريدة « فرانكفورت » ، وما قرأت منها سطرين حتى أخذنى الكرى • ان هؤلاء الألمان لا يزعجوننى : انهم يقرأون ويدخنون ، ومن حين الى حين ، فى كل نصف ساعة تقريبا ، يفضى بعضهم الى بعض ، فى صوت خفيض ، نبأ من أنباء فرانكفورت ، أو يروى بعضهم لبعض قولا أو نكتة للفكاهى .

الألماني الشهير « زافير » ، ثم يعودون يستغرقون في قراءتهم ، وقد ازدادوا بقوميتهم زهوا •

غفوت ما يقرب من نصف ساعة ، ثم استيقظت على رعشة قوية •
 كان لا بد ان أعود الى بيتي حتما • ولكن ، في هذه اللحظة ، وقع بصرد
 على مشهد صامت في المقهى ، منغنى من الخروج مرة أخرى • سبق
 ان قلت ان العجوز متى جلس على كرسيه وجه نظره الى ناحية من
 النواحي لا يحوله عنها أبدا خلال السهرة كلها • وقد انفق غير مرة ان
 كنت أنا هدف هذه النظرة العنيدة السخيفة التي لا ترى شيئا ولا تميز
 شيئا ، فكنت أشعر بامتعاض شديد لا يحتمل ، وكنت أنتقل الى مكان آخر
 بأقصى سرعة • أما في هذه اللحظة فان نظرة العجوز قد وقعت على ضحية
 أخرى ، هي رجل ألماني قصير بدين ، مفرط العناية بهندامه ، ذو ياقة
 منشاة قاسية ، وجه أحمر صارخ الحمرة • كان هذا الرجل زبونا عابرا ،
 هو تاجر في ريفاء اسمه آدم ايفاتش شولتس ، كما عرفت ذلك فيما بعد ،
 وكان صديقا حميما لصاحب المقهى ، الا انه لم يكن يعرف العجوز ولا عددا
 كبيرا من رواد المقهى • كان يقرأ في جريدة دورفبارير (حلاق القرية) ،
 ويحتسى كأسه جرعات صغيرة ، حين رفع رأسه فجأة فرأى العجوز يحدق
 فيه • فشده من ذلك واضطرب • ان آدم ايفاتش رجل سريع التأذى
 شديد الاحتياج ، شأنه في ذلك شأن جميع الألمان « النبلاء » • لقد بدا له
 غريبا ومهينا أن يتفرس فيه هذا العجوز بمثل هذا اللاحاح والبرود وقلة
 الاكتراث • ولكنه كظم غظه ، وحول نظره عن هذا الزبون الفج ، ودمدم
 في لحيته ببضع كلمات ، ثم اختبأ وراء جريدته دون أن يقول شيئا • غير
 انه لم يستطع أن يظل على هذه الحال ، فما هي الا دقائق حتى ألقى من
 وراء جريدته نظرة مرتابة ، فلاحظ تلك النظرة العنيدة عينها وذلك
 التحديق الأبله نفسه • وسكت آدم ايفاتش هذه المرة أيضا ، ولكن

حين حصل هذا الأمر مرة ثالثة انفجر غيظه ورأى ان من واجبه أن يدافع عن نبأته ، وأن لا يدع أحدا يسىء أمام حفل من الناس الى نبيل المدينة الجميلة ، مدينة ريفا ، التي لعله كان يعد نفسه ممثلاً لها ، فإذا هو ، فى حركة من عيل صبره ، يرمى بجريدته على المنضدة ، بل يضرب المنضدة بعصا الجريدة فى قوة ، ويلتهب وجهه كبراً وخيلاً ، وقد احمر من الخمرة والشجاعة جميعاً ، ويأخذ يحدق بعينه الصغيرتين المشتعلتين الى العجوز المير . من ينظر الى هذين الشخصين ، الألمانى وخصمه ، فى تلك اللحظة يخيل اليه ان كلا منهما يريد أن يهلك الآخر بما فى نظرتيه من قوة مغناطيسية ، وينتظر أن يضعف خصمه فيخفض بصره . وقد أثار صوت العصا ووضع ايفانتش العجيب ، انتباه جميع الحاضرين . فإذا هم يرجئون ما هم فيه من مشاغل ليراقبوا الخصمين باهتمام خطير صامت . وأصبح المشهد مضحكاً ، الا أن مغناطيسية العينين الصغيرتين المتحديتين ، عيني آدم ايفانتش القرمزى ، لم تؤثر أى تأثير ، فكان العجوز يتابع تحديقه الجرىء فى السيد شولتس ، دون أن يتنبه الى شىء ، وكان شولتس يستشيط غيظاً حتى ليكاد يجن ، ولم يلاحظ العجوز حتماً انه أصبح هدف نظرات جميع الناس . لكأنه فى القمر لا فى الأرض . وأخيراً نفذ صبر آدم ايفانتش ، فانفجر :

صرخ بالألمانية فى صوت خشن حاد ، وهيئة مهددة متوعدة :

— لماذا تنظر الىّ هكذا ؟

غير أن خصمه ظل على صمته ، كأنه لم يفهم السؤال ولا سمعه . فقرر آدم ايفانتش أن يتكلم بالروسية :

— أسألك لماذا تنظر الىّ هكذا ؟

قال ذلك وقد زاد سخطه وحنقه ، ثم أردف يقول فجأة :

— أنا معروف في البلاط ، بينما انت غير معروف •

ولم تطرف عين العجوز • وركضت بين الألمان ضجة استياء ، حتى سمع مولر نفسه الضجة ، فدخل الى حجرة المقهى ، فلما أطلعوه على الأمر ، تراءى له أن العجوز أصم ، فانحنى على أذنه ، وقال له بأعلى صوته ، وهو يتفرس في عيني هذا الزائر العجيب :

— ان السيد شولتس يطلب اليك ان لا تنظر اليه هكذا •

فاذا بالعجوز يلقي نظرة على مولر ، بلا شعور ، ثم اذا بوجهه الذي ظل الى ذلك الحين ساكنا هادئا يسفر فجأة عن علائم خوف وامارات اضطراب قلق • وأخذ يتحرك ، فانحنى نحو قبعته وهو يشن أنه خافته ، وأسرع فتناولها ، وتناول عصاه ، ثم نهض يتهيا لترك القاعة وقد لاحت على فمه ابتسامة حزينة ، هي الابتسامة الذليلة على فم الفقير البائس يطرد من مكان احتله خطأ • هذه السرعة الطيبة الذليلة التي ظهرت على العجوز البائس المرتعد أثارت الشفقة ، وأثارت ذلك الشعور الذي يجمد القلب في الصدر ، فاذا بالحضور جميعا وعلى رأسهم آدم ايفانتش ينظرون الى الأمر الآن نظرة أخرى • كان واضحا أن العجوز لا يمكن أن يقصد الاساءة الى أحد ، وانه على العكس يشعر في كل لحظة بأن في وسع الآخرين أن يطردوه من كل مكان ، طرد المتسولين •

وكان مولر رجلا طيبا عطوفا ، فقال له وهو يربت على كتفه مواسيا :

— لا ، لا ، اجلس • ان السيد شولتس يرجوك أن لا تحقق فيه هذا التحديق • انه رجل معروف في البلاط •

غير ان العجوز البائس لم يزدد فهما للأمر ، بل اشتد اضطرابه ، وانحنى على الأرض يتناول منديله ، وهو منديل أزرق قائم تملؤه الثقوب ،

كان قد سقط من قبعتة • وأخذ ينادى كلبه المتمد على الأرض بلا حراك،
كأنه غارق في نوم عميق ، داساً بوزة بين رجلية • نادى كلبه بصوت هرم
يرتجف :

— آزور ، آزور •

الا ان آزور لم يتحرك •

فكرر العجوز نداءه بلهجة خائفة :

— آزور ، آزور •

ثم هز الكلب بعصاه ، ولكن الكلب ظل على وضعه لم يتحرك ،
وسقطت العصا من بين يدي العجوز فمال على الأرض ، وجثا على ركبتيه ،
وأنهض بيديه رأس آزور • مسكين آزور ! لقد مات : لفظ أنفاسه الأخيرة
بلا ضوضاء ولا جلبة بين قدمي سيده ، لفظها عن شيخوخة أو عن جوع ،
من يدرى ؟ ونظر اليه العجوز لحظة في ذهول ، كأنه لم يفهم أن آزور
قد مات • ثم انحنى في رفق نحو هذا الذي كان خادمه وصديقه ، فوضع
وجهه الشاحب على رأسه الساكن • وساد الصمت لحظة من الوقت •
ورانت علينا جميعا عاطفة التأثر والحزن • وأخيرا ، نهض البائس ، وقد
هرب الدم من جسمه ، مرتعشا كمن اتابته حمى •

فقال مولر الرموف يريد أن يواسي العجوز :

— يمكن أن نحنطه • نعم يمكن أن نحنطه ، ان فيدور كارلوفيتش
كروجر يجيد التحنيط •

ثم أضاف مؤكداً ، وهو يتناول العصا من الأرض ويمدها الى
العجوز :

— ان فيدور كارلوفيتش كروجر فنان عظيم •

فقال السيد كروجر يؤيد هذا الكلام فى تواضع وهو يتقدم الى
الأمام :

- نعم انتى أجيد التحنيط اعادة عظيمة •

والسيد كروجر هذا ، ألماني فاضل ، نحيل ، مترنح ، أحمر
الشعر ، على أنفه المعقوف نظارتان •

وأضاف مولر يقول وقد أخذت نظرتة تلتهب حماسة :

- ان فيدور كارلوفتش كروجر موهوب فى تحنيط جميع أنواع
الحيوانات تحنيطا ممتازاً •

فانبرى السيد كروجر يدعم قول صاحبه :

- نعم انتى موهوب فى تحنيط جميع أنواع الحيوانات •

ثم أضاف يقول فى وثبة من السخاء العظيم :

- وسأحنط لك كلبك مجاناً •

فصرخ ايفانوفتش شولتس بلمهجة كاسرة :

- لا ، سأدفع لك أنا أجر تحنيط الكلب •

قال ذلك وقد تضاعفت حمرة وجهه ، والتهب هو الآخر كرماً
وسماحة ، وحسب نفسه سبب هذه الكوارث كلها •

كان واضحاً ان العجوز يصغى الى هذا كله دون أن يفهم شيئاً ،
وكان جسمه ما يزال يختلج ويضطرب •

وهتف مولر حين رأى الزائر العجيب يريد أن يذهب :

- انتظر ! اشرب قدحاً من الكونياك •

وقدم له قدح الكونياك فتناول العجوز القدح بلا شعور ، الا أن يديه كاتتا تضطربان فما وصل القدح الى شفتيه الا وكان نصف الشراب قد سُفح ، حتى اذا وضع القدح على شفتيه ، عاد فردّه الى الطبق دون أن يذوق قطرة واحدة ، ثم ارتسمت على وجهه ابتسامة غريبة لا تتفق وهذا الجوّ ، وخرج من المقهى بخطى سريعة متقطعة تاركا آزور • ظل جميع الناس واقفين مشدوهين تنطلق من صدورهم صيحات الدهشة والأسف ، ويقول بعضهم لبعض ، بالألمانية ، • حملقا :

— قصة عجيبة •

وهرعت في اثر العجوز •

على خطوات من المقهى ، حين تلتفت الى اليمين ، تجد شائعا ضيقا مظلما يزدحم بيوت ضخمة • ألهمني قلبي أن العجوز قد دار سائرا في هذا الشارع الضيق • وكان البيت الثاني من ناحية اليمين في هذا الشارع بسيل البناء ، تغطية السقالات ، وكان الحاجز الذي يحف بالبيت يجور على الرصيف ويبلغ وسط الشارع الضيق ، وقد ألصق به رصيف خشبي للمارة • في ركن قائم وراء هذا الحاجز وجدت العجوز • كان جالسا على حافة الرصيف وقد وضع رأسه في كفيه وأسد ذراعيه الى ركبتيه ، فجلست الى جانبه •

قلت وأنا لا أكاد أدري كيف أبدا :

— لا تحزن على آزور • تعال ، سأوصلك الى بيتك • هدى روعك • سأمضي على الفور أبحث عن عربة • أين تسكن ؟

ولم يجب العجوز ، ولم أدر ماذا أعمل •

لم يكن في الشارع مارة • وفجأة أمسك العجوز بيدي ، وقال بصوت أجش ، لا يكاد يدرك :

— اتنى أحتق ، أحتق •

فهتفت وأنا أنهض ، وأنهضه فى مشقة وعناء :

— ستمضى الآن الى بيتك ، تحتسى قليلا من الشاي وتنام • سأذهب بك الى بيتك فى عربة • هيا حالا • وسأستدعى لك طيبيا ، اتنى أعرف طيبيا ••

ولا أتذكر الآن ما الذى قلته أيضا • وأراد أن ينهض ، فتحامل على نفسه لحظة ، ولكنه ما لبث أن سقط ، وعاد يدمدم بصوت أجش له صغير • فانعطفت لأزداد اقترابا منه ، وأصغيت ، فاذا هو يحشرج :

— فاسيلي أوستروف ، الشارع السادس ••• الشارع السادس ••

وصمت •

— أتسكن فى فاسيلي أوستروف ؟ ولكنك لم تكن ذاهبا الى هناك • والا كان يجب أن تمضى الى الشمال لا الى اليمين • سأذهب بك الى هناك حالا •

ولم يتحرك العجوز ، فتناولت يده ، ولكن اليد سقطت كأنها لا حياة فيها ، فنظرت الى وجهه ولمسته ، فعرفت انه مات • خيّل الىّ ان كل هذه الأمور قد وقعت لى فى حلم •

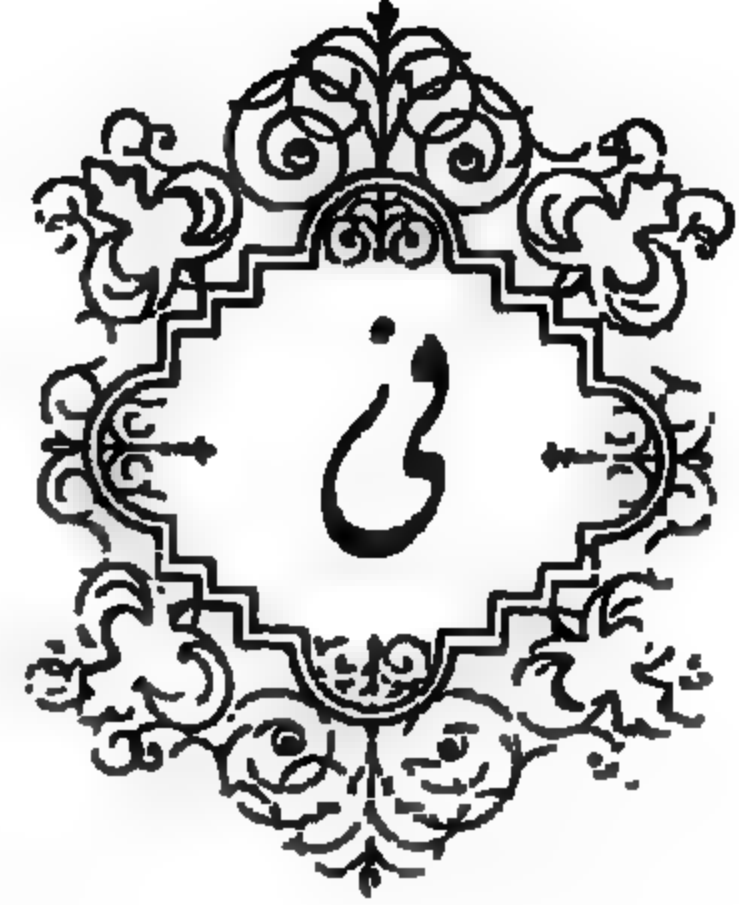
وقد كلفتنى هذه المغامرة كثيرا من المتاعب والمساعى • لقد اكتشفت منزل العجوز ، وظهر انه لا يقيم فى فاسيلي أوستروف ، وانما يقطن على بعد خطوتين من المكان الذى مات فيه ، فى الطابق الخامس تحت السقف من منزل كلوجى ، فى مسكن مستقل يشتمل على مدخل صغير ، وحجرة واسعة ، منخفض سقفها ، ذات فجوات ثلاث بمثابة النوافذ • كان يعيش حياة بائسة • كان بيته لا يحتوى من الأثاث الا على منضدة ، وكرسيين ،

« وديوان ، عتيق عتيق ، صلب كأنه من حجر ، مهترىء يخرج القش من جميع جوانبه • وحتى هذا « الديوان » كأن ملك صاحب البيت • ان الداخل الى هذا البيت يدرك انه ما اشتعلت فيه نار منذ أمد طويل ، ويلاحظ كذلك ان ليس فيه شموع • وأنا الآن مقتنع بأن العجوز ما كان يذهب الى مقهى مولر الا تشدانا للضوء والدفء • وقد وجدنا على منضدته ابريقا من الأجر فارغا ، وقطعة من الخبز يابسة ، ولم نجد فى بيته قرشا واحدا ، بل لم نجد لدفنه ملابس غير التى كأن يلبسها فاضطر أحدهم أن يتبرع لثمنانه بقميص • كان واضحا انه لا يعيش فى وحدة تامة • وان ثمة شخصا كان يأتى اليه ، ولو من حين الى حين ، ووجدنا فى درج المنضدة جواز سفر • فلقد كان المتوفى أجنبيا ، الا أنه من الرعايا الروس ، وكان اسمه جرمى سميث ، وكان ميكانيكا ، وله من العمر ثمان وسبعون سنة • ووجدنا على المنضدة كتابين : الأول موجز فى الجغرافيا ، والثانى انجيل باللغة الروسية على هامشه اشارات كتبت بالقلم الرصاص • فاشتريت الكتابين • وسألنا سكان البيت وصاحب البيت عن الرجل فتبين أنهم لا يعرفون من أمره شيئا • وكان البيت يضم عددا كبيرا من السكان ، كلهم من أصحاب المهن ومن النساء الألمانيات اللواتى يستخدمن بعض الخدم ويؤجرن فى دورهن غرفا • ولم يستطع مدير البيت ، وهو من طبقة النبلاء ، أن يقول كذلك الا القليل عن هذا المستأجر القديم • قال انه كان يتقاضى أجر سكنه ستة روبلات فى الشهر ، وان المتوفى قد مكث أربعة أشهر ، الا انه فى الشهرين الأخيرين لم يدفع قرشا واحدا ، فكان لا بد من اخراجه من المنزل • وسألناه هل كان يأتى لزيارته زائر ، فلم يستطع أن يجيب على هذا السؤال اجابة شافية • ذلك أن البيت كان كبيرا والناس يذهبون ويجيئون كثرة ، ولا يمكن أن يتذكر المرء جميع من يجيئون ويذهبون • وكان البواب فى اجازة ببلده • وهو

يقوم بالخدمة فى هذا البيت منذ أربع سنين أو خمس ، ولعله كان يمكن أن يوضح لنا بعض الأمور ، إلا أنه قد سافر الى بلده منذ خمسة عشر يوما ، وترك ابن أخيه ينوب عنه فى عمله ، وهو شاب صغير لمّا يعرف بعد نصف المستأجرين معرفة شخصية . ولا أدري على وجه الدقة كيف انتهى هذا التحقيق ، إلا أننا أخيراً دفنا العجوز . وكان مما كلفت به نفسى من أعمال ومساع أن ذهبت أثناء تلك الأيام الى فاسيلي أوستروف ، الشارع السادس ، وما ضحككت من نفسى إلا حين وصلت الى هناك ! ما عسى أن أرى فى الشارع السادس غير صفوف من بيوت ؟ ولكننى تساءلت : ترى لماذا ذكر العجوز ، وهو يموت ، الشارع السادس وفاسيلي أوستروف ؟ أتراه كان يهذى ؟

وزرت مسكن سميت خاليا فأعجبني ، فحجزته ، ذلك أنه يتوفر فيه شيء هام ، هو ان الغرفة واسعة ، وان كانت واطئة جدا . كان يتراءى لى فى الأيام الأولى ان رأسى سيصطدم بالسقف فى كل لحظة . إلا أننى سرعان ما تعودت . والحق انه ما كان لى أن أجد مسكنا أحسن من هذا المسكن بعشرة روبلات فى الشهر . كان يسكرنى طربا أن أشعر أننى فى بيتى . ولم يبق إلا أن أهتم بأمر الخدمة ، ذلك انه كان من المستحيل أن يعيش المرء فى هذا المسكن دون أن يخدمه أحد قط ، ووعدنى البواب أن يمر بى مرة كل يوم ، فى المدة الأولى على الأقل . وقلت لنفسى : من يدري ! فلعل أحداً يأتى مستفسرا عن العجوز . وانقضى على موته مع ذلك خمسة أيام دون أن يأتى أحد .

الفصل الثانى



ذلك الوقت ، أى منذ سنة تماما ، كنت أساهم فى
تحرير بعض الصحف ، وأكتب مقالات قصيرة ،
وأؤمن ايمانا قاطعا بأننى سأتوصل الى كتابة شىء
عظيم جميل • وكنت قد شرعت فى كتابة رواية
كبيرة ••• المهم فى الأمر أن نتيجة ذلك كله هو اننى الآن فى المستشفى
واننى قد أموت عما قريب • واذا كنت سأموت عما قريب ، فلا معنى لكتابة
يوميات •

ولكن هذه السنة الأخيرة الشاقة من حياتى تعود الى ذاكرتى رغم
ارادتى بغير انقطاع • وأحب الآن أن أسجل كل شىء ، ولولا اننى خلقت
لنفسى هذا الشاغل ، لمتُ ضجرا وسامة فيما أعتقد • ان تلك المشاعر
الماضية تقلقنى الى حد العذاب ، العذاب الكاوى • فاذا جرى بها قلبنى
على الورق ترتبت وتطامنت وأصبحت أقل شبيهاً بالهذيان منها الآن • وان
للكتابة نفسها قيمتها ، فهى تهدئنى وتقع برداً وسلاماً على قلبى ، وتوقظ
عادتى القديمة ، عادات الكاتب ، وتوجه ذكرياتى وأحلامى نحو العمل ،
نحو الفعل ••• أجل ، انها لفكرة حسنة هذه الفكرة •• ثم اننى أستطيع
أن أوثق هذه الأوراق للخادم : انه على الأقل سيلصقها حول النوافذ
حين يضع أطر الشتاء •

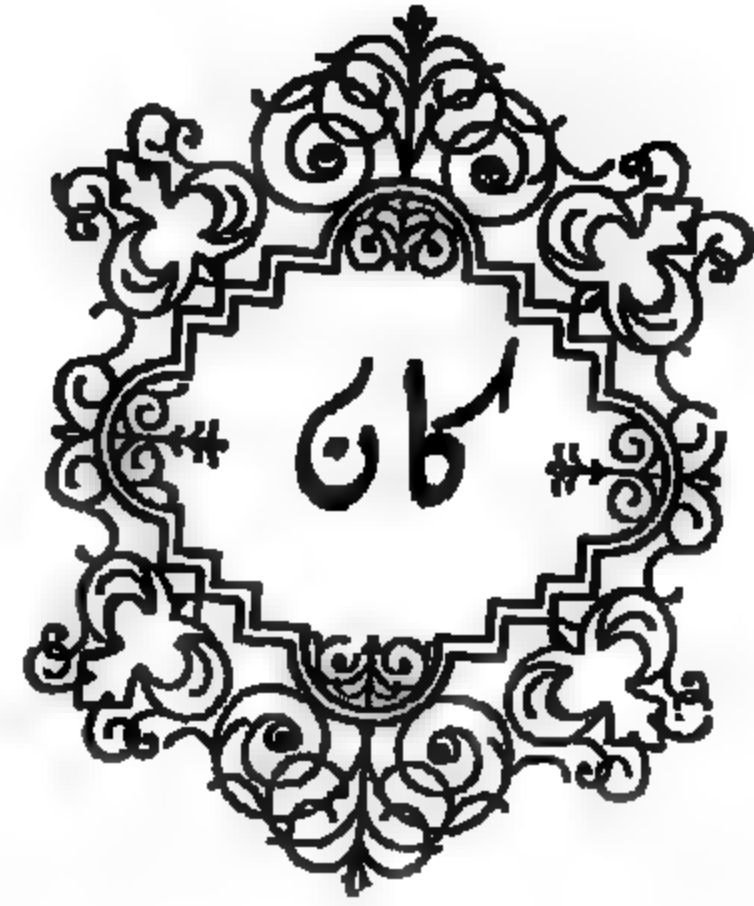
لقد بدأت قصتى من منتصفها ، لا أدري لماذا ! واذا كنت أريد حقا

أن أكتب ، فينبغى أن أبدأ من البداية • فهيا بنا الى البداية • ان قصة حياتى التى سأرويها لن تكون طويلة على كل حال •

لم أولد هنا ، وانما ولدت فى مقاطعة ن ••• البعيدة • يجب أن نفترض ان أهلى كانوا أناسا محترمين ، الا انهم تركونى يتيما منذ الطفولة ، فشأت فى بيت نيقولا سرجتش اخمينف ، وهو رجل من صغار الملاكين ، كفلنى بدافع الشفقة ، ولم يكن له من الأولاد الا ابنة وحيدة ، هى ناتاشا ، تصغرنى بثلاث سنين • فشأنا معا كما ينشأ اخوان • آه ياطفولتى العزيزة ! ما أبله ان أتحسر عليك وأنا فى الخامسة والعشرين من العمر ، وألا أحتفظ منك قبيل موتى الا بذكرى تفيض حماسة وحرارة واحتراما ! كانت الشمس فى تلك الأيام مشرقة متألقة ، تختلف عن شمس بطرسبرج ، وكانت قلوبنا الصغيرة تخفق بكثير من الحمية والنشوة والفرح ! وفى تلك الأيام كانت تحيط بنا ، من حولنا ، حقولٌ وغابات ، لا كتلٌ من أحجار مية كالتى تحيط بنا اليوم • ما أجمل حديقة فاسيلوفسكوئى التى كان نيقولا سرجتش مديرها • فى تلك الحديقة كنا نتره ، أنا وناتاشا ؛ وكانت هناك ، بعد الحديقة ، غابة كبيرة رطبة ، تهنا فيها ذات يوم من أيام الطفولة ••• ما أجمل ذلك العهد ! ما أروع ! كانت الحياة تكشف لنا عن نفسها لأول مرة ، فتانة ساحرة ، وكانت روحنا تمتلئ بنشوةٍ بمعرفتها ! لكأن وراء كل شجرة ، وكل دغل ، كأننا يحيا حياة مجهولة • كان هذا العالم الخيالى يختلط فى ذهننا بالعالم الواقعى • حتى اذا تكاثف ضباب المساء فى الوديان العميقة ، وعلق الأدغال خصلات بيضاء كالسباثج ، والتصق بأغوار وادينا الكبير ، كنا ، أنا وناتاشا ، نلقى على الوهدة نظرات مستطلعة خائفة ، وقد أمسك كل منا بيد الآخر ، تتوقع أن ينبجس منه أحد على حين غرة ، ينادينا من قلب الضباب فى قرارة الوادى ؛ وكانت حكايات خادمتنا العجوز تصبح فى نظرنا هى الحقيقة عينها • فى ذات مرة ،

بعد مدة طويلة من ذلك ، تذكرت ناتاشا اننا وجدنا في أحد الايام كتاب « قراءة الطفل » ، فهربنا فوراً الى الحديقة من ناحية الغدير ، وجلسنا على مقعدنا المفضل الذي كان يقع تحت شجرة كثيفة من أشجار الجميز ، وبدأنا هنالك نقرأ أسطورة « الفونس ودالد » . حتى الآن لا أستطيع أن أتذكر تلك الحكاية دون أن تقوم في نفسي ثورة داخلية غريبة . وحين ذكرتُ ناتاشا ، بعد ذلك بسنين ، بالسطرين الأولين من هذه الحكاية : « ولد الفونس ، بطل القصة ، في البرتغال ، أما أبوه دون رامير . . . » النخ ، كدت أنفجر باكياً . لا شك أن ذلك بدا مضحكا الى أبعد الحدود ، ولعل هذا هو الذي جعل ناتاشا تبسم لحماستي تلك ابتسامة غريبة جدا . على أن ناتاشا ما لبثت أن آبت الى نفسها (أذكر ذلك) وأخذت هي ذاتها تذكرني بالماضي رجاء أن تواسيني ، حتى انها شعرت بالتأثر هي الأخرى . كانت ليلة رائعة ! واليوم الذي أرسلت فيه الى مدرسة داخلية في مركز المقاطعة (يا الهى ما أكثر ما بكيت في ذلك اليوم !) ثم فراقنا الأخير ، يوم ودعت فاسيليفسكوئي الوداع الأخير ! كنت قد أنهيت دراستي في المدرسة الداخلية ، وكنت ذاهبا الى بطرسبرج لأدخل الجامعة . كنت يومئذ في السابعة عشرة من عمري ، وكانت هي في الخامسة عشرة . تقول ناتاشا اننى كنت يومئذ من الحراقة بحيث لا يسع من يرانى الا أن يضحك . وفي لحظة الوداع ، مضيت بها الى ركن بعيد ، لأفضى اليها بأمر خطير الى أقصى حدود الخطورة . الا أن لسانى جمد على حين غرة وخرس ، واعترانى ارتباك . انها تتذكر اننى كنت في اضطراب عظيم . واضح أن الحديث لم يبدأ . كنت لا أدري ماذا أقول ، ولعلها ما كان لها أن تفهم ما أقول لو قلت شيئا . وأخذت أبكى بكاء مرأ ، وذهبت دون أن أنبس بكلمة . ولم نلتق مرة أخرى الا بعد ذلك بمدة طويلة ، في بطرسبرج . فمئذ سنتين جاء اخمينيف العجوز الى بطرسبرج لبعض أمره ، وكنت قد سرت في طريق الأدب منذ قليل .

الفصل الثالث



يقولا سرجتش اخمينف سليل عائلة نبيلة ،
انهارت منذ زمن طويل ، ولكنه ورث عن أبويه
أرضا واسعة ، ومائة وخمسين نفسا • وفي الحادية
والعشرين من عمره اتسمى الى سلاح الفرسان •
كانت حياته تسير على أحسن حال ، الى أن اتفق في ذات مساء شقى ، بعد
ست سنين من الخدمة ، أن فقد في القمار كل ما يملك • فلم يجد سيلا
الى النوم في ليلته تلك كلها • وفي مساء غد ، ظهر مرة أخرى في قاعة
اللعب ، وقامر على حصانه ، وهو آخر شيء بقي له ، فربح ، وما فتىء
يراهن مرة بعد مرة حتى استرد ، بعد نصف ساعة ، إحدى قراه ، وهي
قرية صغيرة تدعى اخمينفكا ، عدد سكانها خمسون نسمة في الاجزاء
الأخير ؛ فلما ربح هذه القرية توقف عن اللعب ، حتى اذا جاء الغد ، طلب
احالته على المعاش ، وهكذا فقد مائة نفس بلا رجعة • وبعد شهرين أحيل
على المعاش برتبة ملازم أول ، فمضى الى قريته الصغيرة ، ولم يتحدث منذ
ذلك اليوم خلال حياته كلها عن تلك الخسارة التي منى بها في اللعب ،
وكان قادرا رغم ما عرف عنه من طيب القلب أن يتشاجر مع كل من تسول
له نفسه التحدث عن تلك الخسارة • وفي قريته انصرف الى ادارة أملاكه
في همة ونشاط ، حتى اذا بلغ الخامسة والثلاثين من عمره ، تزوج فتاة
نبيلة فقيرة ، هي آنا آندريفنا خوميلوف التي لم تكن تملك أية بائنة ،

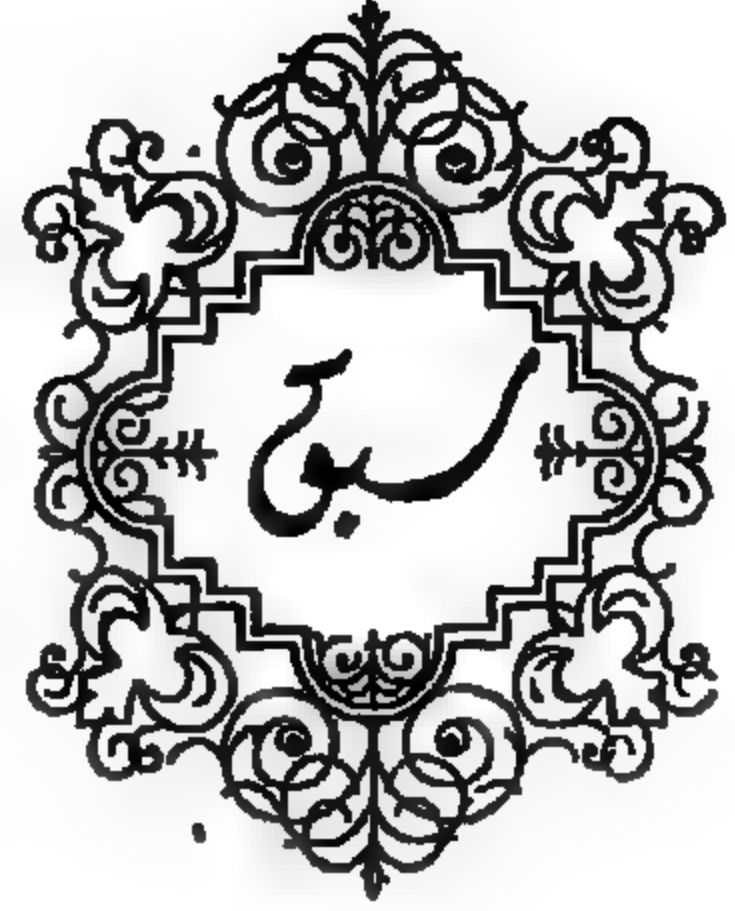
ولكنها تلقت تعليمها فى مدرسة نبيلة بمركز المقاطعة ، هى مدرسة مون روفيش ، وكانت تتباهى طوال حياتها بانها تربت فى تلك المدرسة، رغم انه ما كان لأحد أن يعرف ماذا كانت تلك التربية على وجه الدقة . وبرهن نيقولا سرجتش على انه مدير ممتاز، فكان المالكون من جيرانه يتعلمون منه كيف تدار الاملاك . وكانت قد انقضت على ذلك سنون عديدة ، حين وصل من بطرسبرج فجأة ، الى الأرض المجاورة لارضه ، الى قرية فاسيليفسكونى التى يبلغ عدد سكانها تسعمائة نسمة، صاحبها الأمير بطرس السندروفتش فاسيليفسكى، فآثار وصوله جلبه كيرة فى جميع الاراضى المجاورة . كان الأمير ما يزال شابا وان لم يكن فى ريعان الشباب . وكان فى رتبة عالية ، وكان على صلات بالمقامات العليا ، وكان رجلا جميلا ، وغنيا ، وكان بعد هذا كله أرمل ، وهذا أمر يهم سيدات المنطقة وفتياتها كثيرا من غير شك . وتناقل الناس حديث الحفاوة البالغة التى استقبله بها حاكم المنطقة ، وهو يمت اليه ببعض القربى ، وقالوا « انه من لطفه ورقته قد التفت يحيى جميع سيدات القرية » النخ النخ . وصفوة القول ان الأمير كان من ألمع شخصيات المجتمع الراقى فى بطرسبرج ، هذه الشخصيات التى قلما تظهر فى الأقاليم ، والتى اذا جاءت الى الأقاليم ، أحدث مجيئها جلبه وكثيرا من الاهتمام . على ان الأمير لم يكن فى الواقع لطيفا رقيق الحاشية ، ولا سيما مع أولئك الذين ليس فى حاجة اليهم، والذين يرى انهم دونه ولو بقليل ؛ حتى انه لم يتنازل أن يتعرف الى جيرانه من الملاكين، وسرعان ما نشأ عن ذلك أن أصبح له أعداء كثيرون . وما أشد ما دهش الناس حين عنَّ له فجأة أن يزور نيقولا سرجتش . والواقع ان نيقولا سرجتش هو من أقرب جيرانه اليه . استقبل الأمير فى منزل اخمينيف استقبالا حافلا ، وافتن به الزوجان كلاهما ، وخاصة آنا أندريفنا التى تحمست لزيارته كثيرا . وما هى الا مدة يسيرة حتى أصبح الأمير من أصدقائهما الحميمين،

فكان يأتي لزيارتهما كلَّ يوم ، ويدعوهما الى منزله ، ويروى لهما النوادر والملح ، ويعزف على البيانو السىء الذى يملكانه . ودهش الزوجان اشد الدهشة : كيف يمكن أن يقال عن رجل مثله رقيق الحاشية لطيف محبب انه صلف متعجرف قاس أنانى ، كما كان يجمع على ادعاء ذلك كل الجيران ؟ يجب أن نعتقد على كل حال ان الامير قد استلطف نيقولا سرجتش ، هذا الرجل الغر البسيط المستقيم النزيه النيل . ثم ان كل شىء قد اتضح بعد ذلك . لقد جاء الأمير الى فاسيليفسكوئى لكى يطرد وكيله ، وهو رجل ألمانى مستهتر ، طماع ، صاحب نظريات فى الزراعة ، وشعرٍ أبيض جليل محترم ، ونظارتين ، وأنفٍ أقنى ، ولكنه رغم كل هذه المزايا كان يسرق بلا حياء ولا اعتدال ، وكان فوق ذلك قد قتل باجلد عدة فلاحين . وقد عرف ايفان كارلوفتش أخيرا على حقيقته ، فأخذ يتعاطم ويتحدث عن الأمانة الألمانية ، ومع ذلك لم يسع الأمير الا أن يطرده ، بل لقد طرده شر طردة . وكان الامير فى حاجة الى وكيل ، فوقع اختياره على نيقولا سرجتش ، وهو مدير ممتاز ، وأشرف الناس طراً ، ما فى ذلك شك . ولعل الأمير كان يتمنى كثيراً أن يتقدم نيقولا سرجتش من تلقاء نفسه ، يقترح أن يكون مديراً للأملاك الأمير . الا ان هذا لم يقع . وفى ذات صباح تقدم الأمير بهذا العرض ، فى كثير من الاحترام والمودة . فرفض اخمينيف فى أول الامر ، الا أن ضخامة الراتب قد أغرت آناً أندريفنا ، كما ان الأمير قد ضاعف لطفه ورقته وتودده ، فبدد ذلك تردد اخمينيف ، وبلغ الأمير هدفه . يجب أن نعتقد ان الأمير يعرف الناس خير معرفة . وقد أدرك حق الادراك ، خلال هذه الفترة القصيرة التى انعقدت فيها الصلات بينه وبين أسرة اخمينيف ، انه ازاء رجل ممتاز ، وفهم أن عليه أن يستميل اخمينيف بمظاهر المودة والصداقة ، وأن يشده اليه من القلب ، والا فليس للمال من وزن لدى اخمينيف . ثم ان الأمير فى

حاجة الى وكيل يستطيع أن يثق به ثقة عمياء وأن يطمئن اليه اطمئنانا مطلقا الى الأبد ، حتى لا يحتاج الى وضع قدميه مرة أخرى في فاسيلفسكوئى ، فعلى هذا انعقدت نيته • وقد بلغ من افتتان اخمينيف به أن هذا الأخير قد آمن حقا بصداقته • ان يقولوا سرجتش واحد من أولئك الرجال الممتازين ، الحالمين ، السذج ، الذين تعج بهم بلادنا ، روسيا ، أولئك الرجال الطيبين الذين متى أحبوا أحداً (يعلم الله لماذا) محضوه الحب خالصا ونذروا أنفسهم له ، ومضوا فى تعلقهم به أحيانا الى حد يبعث على الضحك •

وانقضت على ذلك سنون • وازدهرت أملاك الأمير ازدهارا عظيما • وظلت علاقات المالك بوكيله صافية لم يعكرها أحد من الطرفين ، ولكنها كانت تقتصر على مراسلات عادية جافة تتعلق بالاعمال • وكان الامير لا يتدخل فى أمور الادارة التى تولاها يقولوا سرجتش ، غير أنه كان يسدى اليه أحيانا ببعض النصائح ، فكانت هذه النصائح تلقى من يقولوا سرجتش الدهشة والاعجاب ، لما تشتمل عليه من روح عملية واقعية • كان واضحا أن الامير لا يكره النفقات الكثيرة فحسب ، بل يعرف كذلك كيف يحصل المال ، ويعرف من أين تؤكل الكتف • وبعد خمس سنين أو ست من زيارته فاسيلفسكوئى أرسل الى يقولوا سرجتش وكالة تخوله شراء أرض ممتازة من هذه المنطقة نفسها ، يسكنها أربعمائة نفس • وطار لب يقولوا سرجتش فرحاً • لقد كان يتابع نجاح الامير وتقدمه كأنه أخوه • الا أن فرحته بلغت أقصاها حين بعث اليه الأمير ذات يوم ببرهان جديد رائع على ثقته به ، واليكم كيف تم ذلك • • • غير اننى أرى أنه لا مندوحة لى من ذكر بعض خصائص حياة هذا الامير فالكوفسكى ، الذى هو احدى الشخصيات الرئيسية فى قصتى هذه :

الفصل الرابع



أن قلت انه أرمل • كان قد تزوج في ريعان شبابه ، وكان زواجه قائما على الطمع في المال • لم يكن قد ورث عن أبويه اللذين فقدا كل ثروتهما في موسكو ، أى شيء تقريبا وكانت فاسيلفسكوئي قد 'حجزت' • وكان الامير مديناً بأموال طائلة • وفي الثانية والعشرين من عمره ، اضطر الى العمل في احدى الوزارات بموسكو ، وكان لا يملك شروى نقيير ، فدخل الحياة أشبه « بشحاذ سليل أسرة عريقة » ، الا انه تزوج بابنة أحد تجار الخمر ، وهي ابنة متقدمة في السن ، فأثقله زواجه هذا مما كان فيه من فقر وعوز • وقد خدعه حموه في أمر البائنة ، ومع ذلك استطاع بفضل مال امرأته أن يسترد أرض أسرته وأن يعيدها الى حالها • وكانت ابنة البائع هذه التي كتب عليه أن يتزوجها لا تكاد تعرف الكتابة ، ولا تجيد أن تضم كلمتين احديهما الى الأخرى ، وكانت دميعة ، وكانت لا تملك الا مزينة هامة واحدة ، هي انها طيبة القلب مطواعة • وقد استقل الامير هذه المزينة أحسن استغلال • وترك الامير زوجته بعد سنة من زواجهما ، وكانت قد أنجبت له ولداً ، تركها هي والولد لأبيه بموسكو ، وسافر هو يعمل في مقاطعة س • • • حيث استطاع بالمكائد والمؤامرات ، وبفضل قريب له شهير ببطر سبرج ، أن يحصل على وظيفة مرموقة • كانت نفسه ظمأى الى المنزلة العالية والتقدم والحياة الراقية ، واذ أدرك أنه لا يستطيع أن يعيش

مع امرأته فى بطرسبرج أو فى موسكو ، قرر أن يبدأ فى الأقاليم ، بانتظار أن يحقق ما هو أحسن من ذلك • ويقال انه منذ السنة الأولى من حياته مع امرأته كاد يقتلها بغلاظته وفظاظته • وكانت هذه الشائعة تثير حنق نيقولا سرجتش دائما ، فكان يدافع عن الامير فى حرارة وحماسة ، مؤكدا ان الامير لا يمكن ان يقترب أمرا شائنا • وبعد سبع سنين أو ثمان ماتت الاميرة ، فما لبث زوجها الذى ظل ارملا ، ان مضى يقيم فى بطرسبرج • وحتى فى بطرسبرج كان ظهوره امرا يثير الانتباه • انه ما يزال شابا ، وهو وسيم الطلعة ، ثرى ، أوتى مزايا بارعة ، وذكاء لا ينكر ، وذوقا ، ومرحالا ينضب معينه ، وكان يبدو انه لا ينشد السعادة ولا الحماية ، وانما يطلب الدعة والاستقلال • وتحدث عنه جميع الناس فقالوا ان فيه ما يفتن ويسحر ويسيطر • واعجبت به النساء ايما اعجاب ، وانعقدت بينه وبين احدى ربات الجمال فى المجتمع الراقى علاقة افتضح امرها ، فزاده ذلك نجاها مع السيدات • وكان يبذل المال سخيا ، رغم احساسه القوى الفطرى بالاقتصاد الذى يبلغ احيانا حد البخل ، وكان يخسر أموالا طائلة على موائد القمار حين يجب ذلك ، دون ان يتحرك حاجباه بتقطيب يسير • الا انه لم يأت الى بطرسبرج نشدانا للهو ، وانما كان عليه ان يسير فى طريقه ، وان يعزز مركزه • وتوصل الامير الى اهدافه • ان الكونت ناينسكى ، قريبه الشهير ، الذى ما كان ليلتفت اليه لو قد جاء الى بطرسبرج رجلا عاديا ، قد اذهله ما احرز من نجاح فى المجتمع ، فرأى ان من الممكن ومن الضرورى ان يلتفت اليه التفاتا خاصا ، حتى لقد رضى ان يأخذ الى بيته ابنه الصغير الذى يبلغ من العمر سبع سنين ، ليتولى تربيته • وفى هذه الفترة انما تقع رحلة الامير الى فاسيلفسكوئى ، وصادقه مع اسرة اخمينف • وحصل أخيرا بواسطة الكونت على وظيفة هامة فى احدى كبريات سفاراتنا ، فسافر الى الخارج •

وبعد ذلك أصبحت الشائعات التي سارت بين الناس بصده غامضة بعض الغموض : قيل فيما قيل انه قد وقعت له في الخارج مغامرة مزعجة ، ولكن لم يستطع احد ان يعرف شيئاً عن حقيقة هذه المغامرة . ولم يعرف الناس الا انه استطاع ان يزيد املاكه اربعمائة نفس ، كما اشرت الى ذلك فيما سبق . ثم لم يعد من الخارج الا بعد عدة سنين ، وكانت رتبته قد علت ، وعين فوراً لوظيفة هامة في بترسبرج . وقال الناس في اخمينفكا انه على وشك الزواج بفتاة من اسرة عريقة غنية شهيرة . وقال نيقولا سرجتش وهو يفرك يديه سروراً : « هذا سيد عظيم » . وكنت ايامئذ في الجامعة ببترسبرج ، وأذكر ان اخمينف كتب الى ذات يوم يطلب مني ان افهم هل لهذه الشائعة ما يبررها ، وكتب الى الامير يسأله ان يشملني بحمايته ورعايته ، الا ان الامير لم يجبه على رسالته . ولم استطع الا ان اعلم ان ابن الامير الذي تربى اولاً في منزل الكونت ، ثم في المدرسة الثانوية ، قد اتى الى بترسبرج يتم دراسته في العلوم ، وهو في الثامنة عشرة من عمره . فكتبت الى اخمينف في ذلك وذكرت له ان الامير يحب ابنه كثيراً ، ويحيطه بجميع ضروب العناية والتدليل ، ويفكر في مستقبله منذ الآن . وكنت قد علمت ذلك كله من الطلاب رفاق الامير الشاب . وفي تلك البرهة انما تلقى نيقولا سرجتش من الامير ، ذات صباح ، رسالة صعقته من الدهشة .

ان الامير الذي اقتصر حتى ذلك الحين في علاقاته بنيقولا سرجتش على مراسلات جافة تتعلق بالأعمال ، كما اشرت الى ذلك من قبل ، يصف له الآن في رسالته تلك حياته العائلية تفصيلاً ، بلهجة ودية لا تحفظ فيها ولا كلفة . انه يشتكى من ابنه ، ويقول ان سلوكه السيء يحز في نفسه ، وانه وان كان لا ينبغي ان نسرف في النظر الى طيش طفل مثله نظيرة الجد والاسي . (كان واضحاً انه يحاول ان يبرئه) ، قد قرر ان يرسله الى

الريف يقضى فترة من الوقت تحت اشراف اخنيف . وقال الامير في رسالته انه « يعتمد اعتمادا كاملا على صديقه الممتاز النيل يقولون سرجتش ، وعلى آنا اندريفنا بوجه خاص » ، فهو يرجوهما ان يقبلا ولده الطائش فى بيتهما ، وان يرداه الى الصواب فى العزلة ، وأن يصلحا من طبعه العاثر خاصة ، « وان يثا فيه المبادئ السليمة القاسية ، هذه المبادئ التى لا غنى عنها فى الحياة » . وبديهي ان اخنيف العجوز قد قبل هذه المهمة بفرح عظيم . وصل الامير الشاب ، فاستقبلته اسرة اخنيف كأنه ابنها . وما هى الا برهة قصيرة حتى احبه يقولون سرجتش حبا جامحا شديدا كما كان يحب ابنته ناتاشا . وحتى بعد القطيعة النهائية التى وقعت بين الامير واسرة اخنيف ظل العجوز يتحدث احيانا فى صفاء ومرح عن أليوشا ، وهو الاسم الذى تعود ان ينادى به الامير الصغير الكسى بتروفتش . والحق ان الامير الصغير كان فتى رائعا : كان فتى جميلا ، ضعيفا ، عصيا كامرأة ، ولكنه مرح بسيط ، اوتى نفسا كريمة قادرة على الاحساس بانبل المشاعر ، وقلبا محبا مستقيما يعرف الجميل . وقد اصبح معبود اسرة اخنيف ، وكان لا يزال طفلا رغم أنه فى الثامنة عشرة من عمره . كن من الصعب على المرء ان يتصور الاسباب التى حملت اياه على ابعاده هذا الابعاد ، رغم انه يحبه كثيرا فيما يقولون . وقيل فيما قيل ان الفتى كان يعيش فى بطرسبرج حياة فراغ وطيش ، وانه كان لا يحب ان يعمل ، وانه كان لذلك يؤلم والده اشد الالام . ولم يتجه يقولون سرجتش الى اليوشا بسؤال ، لان الامير بطرس الكسندروفتش قد اخفى فى رسالته السبب الذى حمله على ابعاد ولده . وتحدث الناس كذلك عن حماقة لا تغفر ارتكبها اليوشا ، عن علاقة له بسيدة ، وعن دعوة الى مبارزة ، وعن خسارة فادحة فى القمار . بل لقد المعوا الى اموال اوتمن عليها فأنفقها . وسرت كذلك شائعة تقول ان الامير قرر ابعاد ابنه لا لخطيئة

ارتكبها الابن ، بل لأنانية في نفس الاب . وكان نقيولا سرجتش يدفع هذه الشائعات في قوة ، ويستاء منها أشد الاستياء ، لا سيما وأنه لاحظ أن أليوشا يحب أباه حبا لا حدود له ، ويتحدث عنه في كثير من الحماسة والحميا ، وكان واضحا أن الابن خاضع لتأثير أبيه خضوعا تاما . وكان اليوشا يشير في بعض الأحيان الى كوتيسة غازلها هو وأبوه في آن واحد ، والى انه غلب أباه ، فغضب أبوه غضبا شديدا : كان يروى هذه الحادثة دائما في ضحكة مرحة ذات رنين . الا أن نيقولا سرجتش سرعان ما كان يوقفه عن الكلام . وكان ألكسى يؤيد كذلك الشائعة القائلة ان أباه يحب أن يتزوج مرة أخرى .

انقضى على الابن في منفاه ما يقرب من سنة . وكان يبحث الى أبيه ، في مواعيد محددة ، برسائل مترنة رصينة ، وبلغ من تألفه أخيرا مع فاسيلفسكوئي انه حين أتى أبوه الى الريف في الصيف (وكان قد اخبر بذلك أسرة اخنيف مقدا) طلب اليه هو نفسه ان يسمح له بالبقاء أطول مدة ممكنة في فاسيلفسكوئي ، مؤكدا ان الحياة بالريف هي الحياة التي تناسبه . كانت قرارات اليوشا تصدر كلها عن فرط حساسيته العصبية ، وعن قلبه الحار العنيف ، وعن خفته التي تبلغ أحيانا حدأ غريبا ، وعن استعداده النادر للتأثر بأي مؤثر ، وعن فقدان الارادة فقدانا تاما . ونظر الامير الى طلبه هذا نظرة ارتياب . . ومهما يكن من أمر ، فان نيقولا سرجتش قد أنكر «صديقه» القديم : لقد تغير الامير بطرس الكسندروفتش تغيرا هائلا . وأصبح يشاكس نيقولا سرجتش ويعانده معاندة شديدة على حين فجأة . ويوم راجع حساب الارض أظهر شراة كريهة وبخلا شنيعا وريبة لا تفهم . وقد أحزن ذلك اخنيف الممتاز الى أعماق نفسه ، وظل مدة طويلة يحاول ان لا يصدق عينيه . لقد جرى كل شيء في هذه المرة على خلاف ما جرى في المرة الاولى حين زار الامير فاسيلفسكوئي منذ

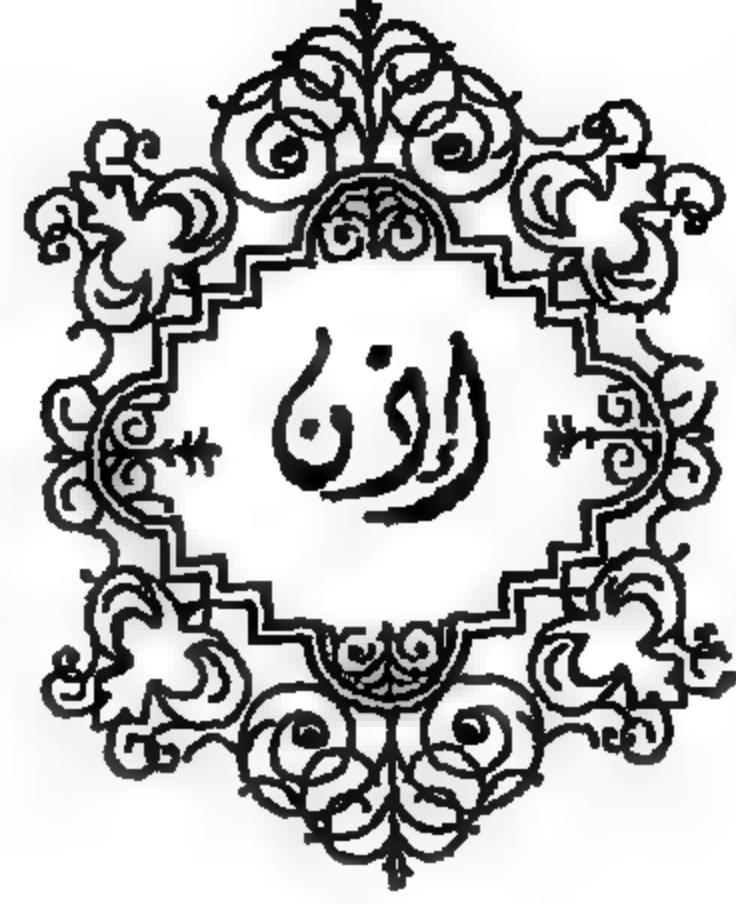
أربع عشرة سنة . وقد حرص الأمير على ان يتعرف الى جميع الجيران ، من ذوى المكانة طبعا . ولكنه أصبح لا يذهب لزيارة نيقولا سرجتش ، وأصبح يعامله معاملة رئيس لمروس ، وفجأة وقع حادث لا يفهم : وقعت قطعة عذيفة بين الأمير ونيقولا سرجتش ، ليس لها سبب ظاهر . وصار الناس يسمعون من كلا الطرفين شتائم فى حق الآخر . واستاء اخنيفة استياء شديدا فترك فاسيلفسكوئى ، الا ان الامر لم يقف عند هذا الحد ، اذ انتشرت فى جميع ضواحي المنطقة ، على حين غرة ، وشايات مشينة . قالوا فيما قالوا ان نيقولا سرجتش ، وقد عرف طبع الأمير الصغير ، حاول ان يستغل جميع عيوبه لمصلحته ، وان ابنته ناتاشا (وكانت فى السابعة عشرة من عمرها) عرفت كيف توقع الفتى فى حبائل حبها ، وان الاب والام يرعيان هذا الحب ، وان تظاهرا بأنهما لا يلاحظان شيئا ، وان ناتاشا هذه الفتاة الماكرة التى « لا خلاق لها » ، قد سحرت لب الفتى تماما ، وبلغت من تأثيرها فيه أنه ظل سنة كاملة لا يكاد يرى اية فتاة من الفتيات النيلات ، صادقات النبالة ، اللواتى تعج بهن البيوت الشريفة فى الاراضى المجاورة . وقالوا ان العشيقين قد عزموا أمرهما على الزواج ، فى قرية جريجورييفو الواقعة على بعد خمسة عشر فرسخا من فاسيلفسكوئى ، على غير علم من أبوى ناتاشا ، فى الظاهر ، وعلى علم منهما فى الواقع ، فهما يعرفان تفاصيل الامر ، وهما اللذان دربا ابنتهما وقادا خطواتها الى ذاك . وصفوة القول : ما من كتاب برمته يمكن أن يستوعب كل ما لفقه الثرثارون من الجنسين فى المنطقة بهذا الصدد . ولكن الاعجب من هذا كله ان الأمير صدق هذا الكلام ، حتى لقد جاء الى فاسيلفسكوئى لهذا الغرض ، على اثر وشاية بعث بها صاحبها الى الأمير فى رسالة لم يذيلها بتوقيع . وبديهي أنه ما كان لا أحد يعرف نيقولا سرجتش ولو قليلا ، ان يصدق كلمة واحدة من هذه الاتهامات التى الصقت به ، ومع ذلك

فان جميع الناس قد اضطربوا ، وثرثروا ، وتقذروا ، وهزوا الرعوس • •
 وأدانوه اداة قاطعة • وكان اخمينف أصلف من ان يرى ابتته أمام
 المرجفين • منع امرأته منعا باتا من الدخول مع الجيران في أية مناقشة أو
 توضيح • أما ناتاشا التي قالوا في حقها هذه الأقاويل كلها فتتها حتى بعد
 انقضاء سنة كاملة على ذلك لم تعرف من أمر هذه الاقويل شيئا ، فقد
 كتموا عنها هذه القصة في كثير من الحذر ، فكانت خلال ذلك كله مرحلة
 بريئة ، كطفلة في الثانية عشرة من العمر •

وفي اثناء ذلك كانت الخصومة تتفاقم • ولم يهدأ روع السعاة •
 حتى لقد ظهر واشون وشهود استطاعوا ان يقنعوا الامير بأن هذه الادارة
 الطويلة التي تولاهم يقولوا سرجتش لم تكن مثال الامانة والنزاهة • بل
 زعموا أكثر من ذلك : قالوا ان يقولوا سرجتش قد أخفى عن الأمير ،
 منذ ثلاث سنين ، اثناء بيع غابة صغيرة ، اثني عشر ألف روبل فضة ،
 وانهم يستطيعون ان يثبتوا ذلك اثباتا واضحا شرعيا أمام القاضي ، لا سيما
 وان بيع هذه الغابة قد تم بدون وكالة من الامير ، وان يقولوا قد تصرف
 في هذا الامر على هواه ، وانه لم يقنع الامير بضرورة البيع الا بعد انقضاء
 مدة على البيع ، وانه دفع للامير ، ثمنا للغابة ، مبلغا يقل كثيرا عن المبلغ
 الذي تقاضاه فعلا • وواضح أن هذا كله كان محض افتراء ، وقد ثبت
 ذلك فيما بعد ، غير أن الامير قد صدق كل شيء ، ونعت يقولوا سرجتش
 على رعوس الأشهاد بأنه لص • ولم يحتمل اخمينف هذه الشبهة ، فرد
 عليها بمثلها • وتبع ذلك شجار فظيع • واقامت الدعوى على الفور •
 وسرعان ما خسر يقولوا سرجتش الدعوى ، اذ اعوزته بعض الوثائق ،
 ولأنه ما من أحد يحميه ، وما من سابق خبرة له فيما ينبغي عمله في مثل
 هذه الشؤون • وحجزت أملاكه • جن جنون العجوز • فترك كل شيء ،

وقرر ان يقيم فى بطرسبرج ليلاحق قضيته بنفسه تاركاً فى الريف رجلاً
مجبوراً يثق به • ولعل الامير أدرك انه قد اساء الى الرجل فى غير حق •
غير أن الاهانة التى وجهها كل من الطرفين الى الآخر كانت فادحة جداً ،
حتى لم يبق محل لصلح • وقد بذل الامير الحائق قصاره ليحول الدعوى
فى الوجهة التى تتفق ومصلحته ، أى حاول جهده ان يغتصب من وكيله
السابق آخر لقمة يسد بها رمقه •

الفصل الخامس



لقد أتت أسرة اخمينف الى بطرسبرج تستقر فيها • ولن أصف لقائي مع ناتاشا بعد طول البعاد • حسبى أن أذكر انها خلال هذه السنين الاربع لم تبرح مخيلتي قط • صحيح اننى لا أتذكر على وجه الدقة العاطفة التى كانت تقوم فى نفسى حين كنت أفكر فيها ، غير اننى سرعان ما أدركت حين لقيتها ان القدر قد وعدنى بها ، وفى أول الأمر ، فى الأيام التى أعقبت وصولها ، تراءى لى أنها لم تكبر خلال هذه السنين ، لكأنها ما تغيرت أبداً ، لكأنها ما تزال تلك الطفلة الصغيرة التى عرفتها • الا اننى بعد ذلك كنت أكتشف لديها فى كل يوم صفة جديدة أجهلها ، صفة جديدة كأنها أخفيت عنى على قصد ، وما كان أسعدنى بهذا الاكتشاف! وكان العجز فى المدة الاولى من اقامته ببطرسبرج عصياً مضطرباً عنيفاً • كانت قضيته تسيّر سيرا سيئاً : فكان يتألم ويحنق ويخرج عن طوره ولا يننى ينظر فى أوراقه وملفاته ، لا يتسع وقته للالتفات إلينا • أما أنا آندريفسا فكانت كمن طاش صوابه ، وكانت فى أول الأمر لا همّ لها الا التفكير • وكانت بطرسبرج تخيفها • فكانت تتأوه وترتجف وتبكي حسرة على حياتها السابقة ، وعلى اخمينفكا ، وعلى أن ناتاشا فى سن الزواج وليس هناك من يفكر فيها ، وكانت تسترسل فى الافضاء الى لعدم وجود سامع آخر أخلق منى بهذه المسارات الحميمية •

وفى تلك اللحظة على وجه الدقة ، اى بعد وصولهم بمدة قليلة ،

كنت قد فرغت من كتابة روايتى الاولى التى استهلكت بها حياتى الادبية . وكنت فى حيرة من أمرى لا أدري كيف أصرف الرواية • ولم أكن قد تحدثت عنها الى اسرة اخنيفة . وكانوا قد اتبونى على انى اعيش بغير عمل ، لا التحق بخدمة ولا احاول ان اجد وظيفة • وكان العجوز يوجه الىّ نقدا مرا لاذعا ؟ يفعل ذلك طبعاً بدافع ما يحمل لى فى نفسه من حب الاب لابنه . وكنت من جهتى استحى ان احديثهم عن العمل الذى اقوم به • ثم كيف أبلغهم وجها لوجه انى لا أنوى أن أجد وظيفة بل أحب ان اكتب روايات ؟ لهذا كذبت عليهم حتى ذلك الحين ، فرعمت انى لم اجد عملاً ، وانى بصدد البحث عن عمل . ولم يكن وقت نيقولا سرجتش بمتسع للتحقيق فى صدق هذه المزاعم . واذكر ان ناتاشا التى كانت تستمع الى احاديثنا جرتى ذات يوم الى ركن منزل ، وقد لاح فى وجهها معنى غريب • وتضرعت الىّ باكية أن أفكر فى مستقبلى ، ثم طرحت علىّ بعض الأسئلة ، محاولة أن تعرف ماذا أعمل على وجه الدقة ، ولكنى لم افض اليها بشيء ، فحملتنى على ان اعاهدها ان لا اضيع نفسى فى حياة الفراغ والكسل . صحيح انه ما كان لى ان اعترف لها بمشاغلى ، ولكنى اذكر انى كنت أوتر على جميع ما قاله النقاد فى روايتى من تقرير عظيم ، وعلى جميع المديح الذى سمعته بعد ذلك ، كنت اوتر على هذا كله كلمة واحدة من التشجيع تخرج من بين شفتى ناتاشا • وظهرت روايتى اخيراً . وكانت قد احدثت ضجة فى عالم الادب قبل ان تظهر بمدة طويلة . ما كان اشد فرحة ب • • • حين قرأها مخطوطة • • لقد فرح كطفل • اما انا فان سعادتى لم تشرق فى تلك الدقائق الاولى المسكرة التى ترافق النجاح ، بل حين لم اكن قد قرأت الرواية لأحد ولا عرضتها على احد : فى تلك الليالى الطويلة التى ملأتها حمياً الامل ، وطيوف الاحلام ، والانكفاء الجامح على العمل ، فى تلك الساعات التى

عشت فيها مع خيالى ، مع الشخصوس التى خلقتها كائنات حقيقية لا وهمية كأنها من اقربائى • كنت احب هذه الشخصوس ، افرح معها واحزن معها ، وكثيرا ما أذرف الدموع صادقة سخية من الحزن على بطل الشاحب • لا استطيع ان اصف الفرح الذى شاع فى وجه العجوزين لما احرزت من نجاح • لقد دهشا فى أول الامر دهشة عظيمة ، وبدا لهما ذلك غريبا الى أبعد حدود الغرابة • أما أنا أندريفتنا فانها لم تستطع أن تصدق ان الكاتب الجديد الذى يحتفل به الجميع ويقرظه الجميع ، هو فانيا عينه ، فانيا الذى • • الخ الخ • فكانت تهز رأسها استغرابا •

على ان العجوز ظل مدة طويلة فى غير اطمئنان ، بل لقد اصبح فى رعب ، واخذ يأسف على تضييع حياة الوظيفة ، ويتحدث عن الحياة المضطربة المستهترة التى يحياها الكتاب بوجه عام • الا ان استمرار حديث الناس عنها ، وما كانت تنتشره الصحف من ملاحظات ، وكلمات الاطراء التى سمعها من شخصيات يؤمن بصدقها واخلاصها ، كل ذلك حمله على تغيير رأيه • حتى اذا رأى اى مبلغ من المال يمكن ان يربحه المرء من عمل ادبى ، زال تردده نهائيا ، وانتقل من الشك الى ايمان مطلق حار ، وسر لسعادتى كما يسر طفل ، وسرعان ما استسلم لآمال عريضة مجنونة ، وأحلام ساطعة باهرة فيما يتعلق بمستقبلى ، فكان يتصور لى مشاريع جديدة فى كل يوم ، وما كئى أكثر مشاريعه ! وأصبح ينظر الى بشىء من الاعتبار لم اعهد فيه من قبل • على اننى اذكر ان شكوكه كانت تعاوده من حين الى حين ، وتصيب القلب من احلامه وآماله ، وتشيع فيه القلق من جديد •

«كاتب ، شاعر • • • هذا شىء مضحك • • متى استطاع شاعر أن يشق طريقه ، وأن يحتل منزلة عالية ؟ كل هؤلاء الناس غاوون مغرورون لا يصلحون لشيء • • وقد لاحظت ان هذه الشكوك والامثلة الشائكة

كانت تتوارد الى ذهنه فى الغالب الاعم حين هبوط الغسق • كان صاحبنا العجوز يصبح عند المساء اكثر عصيية واهتياجا وارتيابا • وكنا ، انا وناشاشا ، نعرف ذلك ، ونتنظره ضاحكين منه • وأذكر أتنى كنت أرفه عن العجوز بأن أقص عليه نوادر عن سوماروكوف الذى عين جنرالاً ، وعن درجايفين الذى أهديت اليه علبة ملأى بالذهب ، وعن الزيارة التى قامت بها الامبراطورة للومونوسوف • • وكنت أحدثه عن بوشكين وجوجل •

فكان ، ولعله يسمع هذه الاقاصيص لأول مرة ، يرد على بقوله :
- أعرف هذا أيها الاخ ، أعرف كل هذا • اسمع يا فانيا ! يسرنى على كل حال ان طعامك ليس من شعر • الاشعار ، يا عزيزى ، خزعبلات • لا تنافشنى ، ولا تعاندنى ، صدق هذا العجوز الذى يتحدث اليك • أنا لا اريد لك الا الخير • الشعر خزعبلات وترهات باطلة وعمل لا يجدى ! حسن أن ينظم الشعر طلاب المدارس الثانوية ، أما أتم الشباب فالشعر يقودكم الى مستشفى المجانين • لنسلم بأن بوشكين كان رجلاً عظيماً ، ثم ماذا ؟ اشعار ، لا اكثر ! • • اشياء زائلة • • على اتنى لم أقرأ له الا قليلاً • • أما النثر فشئ آخر ! فى النثر يستطيع الكاتب أن يثقف الناس • أن يتحدث عن حب الوطن ، أو عن النضال بوجه عام • • نعم ! أنا لا أحسن التعبير عن أفكارى يا عزيزى ، ولكنك تفهم ما أريد أن أقوله • • • وما كنت لأقوله لولا أتنى أحبك •

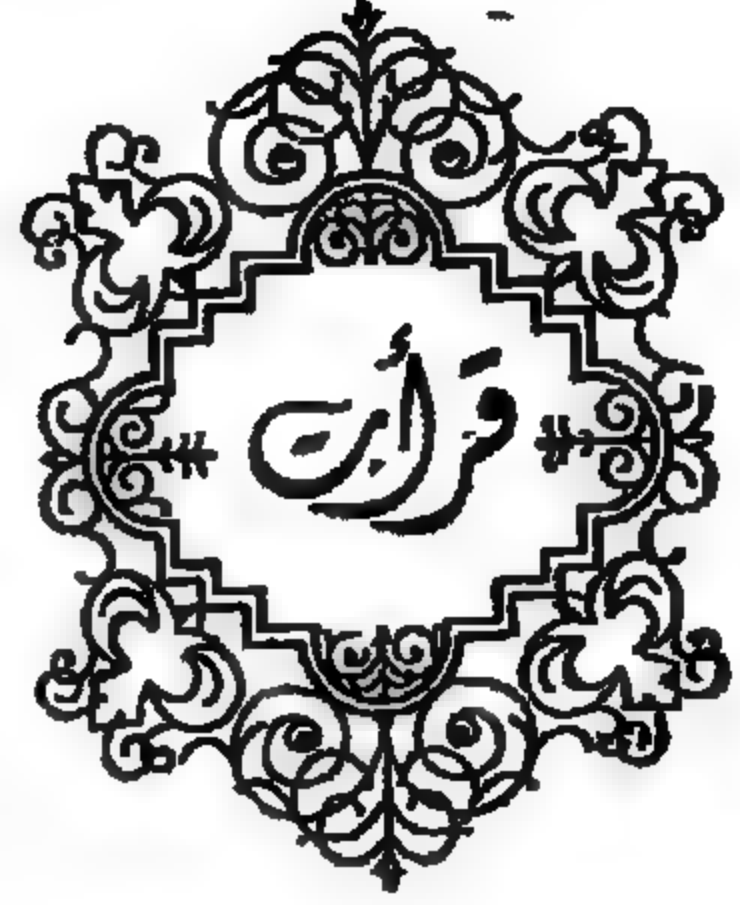
وفيما هو يقول هذا الكلام أتيت بكتابى وجلسنا جميعاً نتناول الشاي حول المائدة المستديرة • فأردف العجوز يقول بلهجة من يشعر أنه يرعانى ويحمينى :

- نعم ، نعم ، أقرأ لنا هذا ، أقرأ لنا ما كتبت هاهنا • ان الناس يتحدثون عنك كثيراً • سرنى ، سرنى •

فتحت الكتاب وتهيأت للقراءة • وكانت روايتي قد خرجت من المطبعة في ذلك المساء نفسه ، فما ان حصلت على نسخة منها حتى هرعت الى منزل أسرة اخنيف لأقرأها •

كان يؤسفني جدا أنني لم أستطع أن أقرأها لهم قبل ذلك في المخطوطة التي كانت بين يدي الناشر ! لقد بكت ناتاشا ألماً ، وأنبتني وقرعتني على ان غيرها يطلع على آثارى قبل أن تطلع عليها هي • ولكن هاتجن أولاء جالسون حول المنضدة المستديرة • واصطنع العجوز هيئة جادة ناقدة • كان يريد أن يصدر حكمه في قسوة ، وان « يكون رأيه بنفسه » • والعجوزة كذلك اصطنعت هيئة وقورة جليلة ، حتى لتوشك أن ترتدى قبعها الجديدة احتفالاً بهذا الاجتماع الذي تحلقنا فيه للقراءة • كانت قد لاحظت منذ زمن طويل أنني أنظر الى ابنتها الفاتنة ناتاشا نظرة حب عميق ، وان فكرى يتقد حين أراها ، وان نظرى يضطرب حين أتوجه اليها بكلام ، وان ناتاشا ، هي الأخرى ، أصبحت تلقى على نظرات أحد من نظراتها السابقة • نعم ! جاءت أخيراً هذه اللحظة ، جاءت في برهة نجاح وآمال واسعة ، وفي قلب السعادة المطلقة • جاء كل شيء في آن واحدة دفعة واحدة • وكانت العجوز قد لاحظت أيضاً أن زوجها أخذ يطربني ويشئني على كثير ، وينظر إلينا أنا وناتاشا نظرة خاصة • وفجأة يخامر العجوز خوف : رغم كل شيء لست كوتناً ولا أميراً ، حتى ولا موظفاً كبيراً في كلية الحقوق ؛ لست الا شاباً ذكياً جميلاً ! ان أنا اندريفنا لا ترغب نصف رغبة • كانت تقول لنفسها عني : « ان الناس يضبطونه ، لا أدري لماذا ! كاتب ، شاعر • • وماذا أن يكون امرؤ كاتباً ؟ » •

- الفصل السادس -



لهم روائقي في جلسة واحدة • بدأنا بعد احتساء الشاي وسهرنا حتى الساعة الثانية من الصباح • في أول الأمر كان العجوز يقطب ما بين حاجبيه • كان ينتظر أن يسمع شيئاً قد لا يفهمه ولكنه رفيع، فإذا هو، بدلاً من ذلك، لا يسمع إلا وقائع يومية مبتذلة معروفة هي ما يقع حولنا في كل يوم • كان ينبغي أن يكون البطل شخصاً عظيماً، أو شخصاً طريفاً، أو رجلاً من رجال التاريخ، على طراز روسلافيف أو يوري ميلوسلافسكي • وها هو ذا يرى أن البطل في قصتي موظف صغير هين الشأن بل غبي بعض الغباء، لم يبق على مترته أضرار • وأنا أروي قصته بأسلوب بسيط، بسيط جداً، لا يزيد ولا ينقص عن اللغة التي يتخاطب بها الناس كل يوم • • شيء غريب! • • وكانت العجوز تلقى على نيقولا سرجتش نظرات حائرة مستفهمة، بل كانت تصعّر خدها كأن شيئاً قد أزعجها • كنت أقرأ في وجهها: « هل يستحق هذا الكلام أن يطبع في كتاب، وهل تستحق هذه السخافات أن تسمع وأن يدفع ثمنها مال؟ » أما ناتاشا فكانت تصغي اصغاء شديداً، وتلقف الكلام في سראה واضحة، ولا تحول بصرها عني أبداً، وتتنظر إلى شفتي كيف تلفظان كل كلمة من الكلمات بل كانت شفثاها الجميلتان تتحركان مع شفتي • والآن هل تصدقون؟ انتهى قبل أن أنهى قراءة نصف الكتاب.

كانت الدموع تنهمر من أعين جميع مستمعي • كانت آنا اندريفنا تبكي بكاء صادقاً ، وتشارك بطلي الامة ، وتتمنى مخلصاً لو تستطيع أن تعينه في شقائه (فهمت ذلك من تأوهاتهما وحركاتهما) • أما العجوز فقد ترك جميع أحلام العظمة والرفعة وقال : « يرى المرء في البداية ان القصة ليست ذات بال •• الا انها تأسر اللب • انها تفهم المرء ما يدور حوله ، وتذكره به ، فيشعر أن كل انسان ، مهما يكن خامل الذكر ، فهو انسان ، وهو أخ • » وكانت ناتاشا تصغي الى القصة ، فتنهمر الدموع من عينيها ، وتشد على يدي من تحت المنضدة خلسة ، بقوة ؛ حتى اذا انتهت القصة ، ونهضت من مكانها ، كانت خذاها ملتهبتين كالجمر احمراراً ، وكانت تترقق في مآقيها دموع صغيرة • وفجأة ، أمسكت بيدي فقبلتها ، وتركت الغرفة راكضة • فتبادل أبوها وأمها نظرة صامتة • قال العجوز وقد شدهته حركة ابنته :

— هم •• انها شديدة الحماسة ! لا بأس مع ذلك ، لا بأس ، هذه حماسة كريمة نبيلة •

ثم دمدم وهو يسحب نظرتة نحو امرأته :

— انها ابنة طيبة ••

كان يريد أن يبريء ابنته ، ويريد في الوقت نفسه أن يبرئني • وما لبثت ناتاشا ان عادت مريحة سعيدة ، فلما مرت بجانبى ، قرصتني دون أن تقول كلمة واحدة • كان العجوز يهم ان يبدأ اعلان رأيه « الجدى ، في قصتي ، الا انه لفرحه لم يستطع أن يكبح جماح نفسه ، فاسترسل في حماسة يقول :

— قصتك جميلة يا عزيزى فانيا ، قصتك جميلة يا صديقى • لقد سررت بها ، سررت بها جداً •• لم أكن أتوقع هذا • صحيح انها

لا تتناول موضوعاً عظيماً ، لا تتناول موضوعاً رفيعاً .. هذا واضح . ففي غيرها من القصص يتحدثون عن « تحرير موسكو » ، ويصفون موسكو نفسها ، فمتى قرأ المرء السطر الاول من تلك القصص شعر انه يحلق في الفضاءات العلى ، كالنسر ان صح التعبير . ولكن الامر في قصتك ، يا عزيزى ، أبسط من ذلك ، وأقرب الى الافهام . ولهذا السبب نفسه انما تعجبني قصتك . ان المرء يفهمها فى يسر ! انها أقرب الى النفس ان صح التعبير .. كأن كل ما تحدث عنه قد وقع لى أنا نفسى ! ما قيمة تلك الموضوعات النيلة التى لانفهم منها شيئاً ؟ غير اننى لو كنت فى مكانك ، لغيت بالاسلوب أكثر من ذلك .. انت ترى اننى أطرى قصتك ، ولكن مهما يكن من أمر فان قصتك تعوزها الرفعة ... على كل حال ، لا بأس ، الآن فات الاوان ... فقد طبع الكتاب وانتهى الامر .. ولكن ربما فى الطبعة الثانية ؟ سيطلع الكتاب طبعة ثانية ، فيما أغن ؟ وسيدر عليك ملا جديداً ، هم ؟

قالت آنا اندريفنا :

— هل يُعقل ان تكون قد ربحت كل هذا المال ؟ ان المرء لينظر اليك فما يكاد يصدق ! آه يا الهى ، فى أى وجه تنفق نحن مالنا الآن ! ..

وتابع العجوز كلامه ، وقد ازداد حماسة :

— صحيح ، يا فانيا ، أن عملك هذا ليس وظيفة ، الا انه مهنة على كل حال . سيقراً قصتك كثير من كبار الشخصيات . ثم لقد ذكرت لى ان جوجول كان يتقاضى راتباً من الحكومة فى كل سنة ، وانهم أوفدوه الى الخارج . ليتهم يفعلون هذا لك أيضاً ؟ هذا ممكن ، أليس كذلك ؟ ولكن لعل الاوان لم يحن بعد ! يجب أن تكتب أشياء أخرى أيضاً ،

أليس كذلك ؟ اذن أكتب يا عزيزى ، أكتب بلا إبطاء ! لا تتهاون فى الكتابة ! يجب ألا ينام المرء عن العمل !

قال ذلك قولة من لا يخامره ريب ، فى نبل لم يسعنى معه ان أوقفه عن الاسترسال فى الاحلام ، وان أبرد خياله • واستأنف يقول :

— ثم ان من الممكن مثلاً أن يهدوا اليك علبة ملأى بالذهب • • لم لا ؟ ليس للهبات حدود ولا قواعد • قد يحبون أن يشجعوك فى عملك •

ثم أضاف بصوت منخفض ولهجة رصينة وهو يغمز بعينه اليسرى :

— ومن يدري ، فقد تُستقبل فى البلاط ! أم لا ؟ لعل الوقت لم يحن بعد ؟

وقالت آنا اندريفنا فيما يشبه التحبير :

— فى البلاط !

فأجبت وأنا أضحك ملء قلبى :

— لم يبق الا أن تجعلونى جنرالاً •

وأخذ العجوز نفسه يضحك • لقد كان راضياً كل الرضى ، مرتاحاً كل الارتياح !

وكانت ناتاشا تهيب لنا العشاء أثناء ذلك ، فهتفت تقول :

— هلا تفضل صاحب المعالي بالنهوض الى المائدة !

وانفجرت ضاحكة ، وركضت نحو أبيها ، فعانقته بذراعيها الملتهبتين عناقاً قوياً ، وهى تقول :

— أبت ، أبت العزيز •

وتأثر العجوز ، فربت على خد ناتاشا الذى أصبح بلون الارجوان ، كأنه كان ينتظر أن يفعل ذلك لدى أول فرصة تسنح ، وقال :

— هيا ، هيا • أنت تعلم اننى أقول هذا بلا تفكير • سيان أن تكون جنرالاً وأن لا تكون ! هيا بنا الآن الى العشاء • اسمع يا فانيا : اننى قلت ذلك لأننى أحبك • ولئن لم نكر جنرالاً (وهيهات !) لأنت على كل حال شخصية شهيرة ، أنت مؤلف !

فاعترضت ناتاشا تقول :

— يقولون الآن « كاتب » ، يا أبى •

— ولا يقولون « مؤلف » ؟ لم أكن أعرف ذلك • اذن فلنقل « كاتب » • هذا ما أردت أن أقوله على كل حال • طبعاً لن يسموك رئيس البلاط لأنك كتبت قصة ، وما ينبغى أن تفكر فى هذا ، ولكن فى وسعت أن تشق طريقك : أن تصبح « ملحقاً » فى إحدى السفارات مثلاً • يمكن أن ترسل الى الخارج ، الى ايطاليا ، لتسرد صحتك ، أو الى مكان آخر ، لتنتهى دراستك • هذا ممكن ، من يدرى ! وقد يقدمون لك مساعدات مالية • طبعاً ينبغى لك ، من جهتك ، ان تسلك سلوكاً نبيلاً ، أن يكون ذلك مكافأة لك على عملك ، يجب أن تنال المال واللقاب جزاء عمل حقيقى تقوم به ، لا كيفما اتفق على سبيل الحماية والرعاية !

فأضافت آنا اندريفنا وهى تضحك :

— ولكن عليك ألا تكون عندئذ صلفاً متكبراً !

وقالت ناتاشا :

— ويجب ، خاصة ، يا أبت ، أن يُمنح وساماً ، والا فما قيمة هذا

كله ؟

قالت ذلك وقرصتني في ذراعي مرة أخرى •

ونظر العجوز الى ناتاشا مزهواً ، وكان خداها ملتھمين ، وكانت عيناها الصغيرتان تلمعان في مرح كجميتين ، وقال :

— انها تسخر مني دائماً •• ربما أكون قد أسرفت في الخيال كثيراً يا أولادى • ولكن هذا شأنى دائماً • كذلك كنت في حياتى كلها ••• ولكن ، يا فانيا ، حين أنظر اليك أرى انك بسيط جداً ••

— أوه ، أبت ، كيف تريد له أن يكون !

— لا • ليس هذا ما أردت أن أقوله • مع ذلك ، يا فانيا •• ان وجهك ليس وجه شاعر • يقولون عن الشعراء ان وجههم شاحبة ، وان شعرهم طويل ، وان فى عيونهم شيئاً •• مثال ذلك جوته وغيره • لقد قرأت هذا فى كتاب « آبادونا » •• ماذا ؟ هل قلت سخافة جديدة ؟ ماهذه البنت التى تفهقه ضاحكة على ؟ انا ، يا أصدقائى ، لست منقفاً ، ولكتنى أستطيع أن أحس وأن أشعر • على كل حال دعونا من الوجه ، ليس هذا بالمصيبة الكبرى • أنا أرى وجهك جميلاً ، انه يعجبني كثيراً • ليس هذا ما أردت أن أقوله •• ولكن يجب أن تكون شريفاً ، يا فانيا ، يجب أن تكون رجلاً شريفاً • هذا هو الشيء الاساسى • يجب أن تعيش حياة شريفة ، وألا تسرف فى حسن الظن بنفسك • ان الطريق واسعة أمامك • قم بعملك فى اخلاص • ذلك ما أردت أن أقوله ، ذلك على وجه الدقة ما أردت أن أقوله •

ياله من عهد جميل ! كنت أقضى فى منزلهم جميع ساعات فراغى ، جميع سهراتى • وكنت أحمل الى العجوز أنباء العالم الادبى ، وأنباء الادباء الذين أخذ على حين غرة — يعلم الله لماذا — يعنى بأمرهم فى شغف قوى ، حتى لقد أخذ يقرأ مقالات النقد التى يكتبها ب •• كنت قد حدثته

عنه كثيراً ، وكان هو لا يكاد يفهمه ، الا انه كان يطريه في حماسة ويشكو شكوى مرة من خصومه الذين يكتبون في « جريدة الشمال » . وكانت العجوز تراقبنا ، أنا وناتاشا ، في يقظة تامة . الا انها لم تفاجئنا يوماً ! كنا قد تبادلنا أنا وناتاشا كلمة : ألقيت عليها سؤالاً ، فخفضت رأسها ودمدمت بصوت خافت تقول : نعم . ولكن العجوزين قد عرفا الأمر كذلك . لقد حزرا ، وفكرا ، وظلت أنا اندريفنا مدة طويلة تهز رأسها . كان ذلك يبدو لها غريباً . لم تكن تتق بى . فكانت تقول :

— لقد وفقت الى الآن يا ايفان بتروفتش ، وطار صيتك بين الناس ، ولكن هبك لم توفق في المستقبل ، فما عسى أن يقع حينذاك ؟ أليس من الافضل أن تجد لك وظيفة ؟

وعزم العجوز أمره ، بعد أن فكر مدة طويلة ، فقال ذات يوم : — اسمع ما سأقوله لك يا فانيا : لقد رأيت ، ولاحظت . . . واعترف لك انه يسرنى أن تكونا انت وناتاشا . . . فلا بأس في هذا الامر أبداً . ولكنكما يا فانيا ما زلتما كلاكما صغيرين ، وأرى ان أنا اندريفنا على حق . يحسن أن تترى . انك تنعم بموهبة ممتازة . . . ولكن الموهبة شيء والعبقرية شيء آخر . . . انك لاتنعم بعبقرية كما زعموا ذلك من قبل ، وانما تنعم بموهبة لا أكثر (بالامس كنت أقرأ النقد الذي كتبوه عنك في « جريدة الشمال » ، ولقد نعتوك نعتاً سيئاً ، ولكن لا قيمة لهذه الجريدة) . نعم ، ان الامر على ما ترى : الموهبة ليست بالثروة الطائلة . وأنتما فقيران كلاكما . لنتظر سنة ونصف سنة ، أو لنتظر سنة على أقل تقدير ، فاذا سارت الاحوال على مايرام ، ورسخت قدمك في هذا الطريق ، كانت ناتاشا لك . أما اذا لم توفق ، فانتى أترك البت في الامر لك . انت رجل شريف ، فكر في الامر .

ووقفت المسألة عند هذا الخد • واليكم ما حدث بعد سنة :

نعم ، كان ذلك بعد سنة على وجه الدقة تقريباً • فى يوم صبح من أيام سبتمبر (أينول) ، دخلت على العجوزين فى المساء ، مريضاً ، مرهق الروح ، ونهالكت على كرمى كمن أغمى عليه ، حتى راودهما خوف حين رأيانى على هذه الحال • ولكن لئن أخذ رأسى يدور حينذاك ، ولئن كان قلبى من شدة الحزن بحيث اقتربت من باب البيت عشر مرات ، وعشر مرات ارتددت عنه دون أن أدخل ، فما ذلك لانتى لم أوفق فى مهتى ؟ ولا لانتى لم أحصل بعد على المجد ولا على المال ؟ ولا لانتى لم أعين بعد ملحقاً ولا أرسلت الى ايطاليا لاسترد صحتى ، بل لان الانسان يمكن أن يعيش عشر سنين فى سنة ، ولان ناتاشا قد عاشت خلال هذه السنة ، عشر سنين ، هى الاخرى • كان ثمة « لا نهاية » تفصل بيننا الآن •

هأنذا جالس أمام العجوز ، صامتاً ، أعجن حوافى قبعتى المشوهة ، بيد ذاهلة • كنت جالساً أنتظر أن تدخل ناتاشا ، لا أدري لماذا ؟ كانت ملابسى فقيرة خلفة ، وكنت أشعر بأننى مريض • كنت قد نحلت وهزلت وجهاً وجسماً • كنت قد أصبحت شاحباً ، ولكن هيهات أن يشبه وجهى فى شحوبه وجه شاعر ، وفى عينيّ ما كنت تلتمع تلك الروعة وتلك العظمة التى طالما فكر فيهما الطيب نيقولا سرجتش • وكانت العجوز تنظر الى فى شفقة غير متكلفة ، كأنها تفكر بينها وبين نفسها قائلة : « أهذا هو الذى أوشك أن يكون خطيب ناتاشا • • اللهم مغفرتك وعونك ! » • سألتنى فى صوت متأوه ما زال يرن فى أذنى الى الآن :

— هل لك بقليل من الشاي يا ايفان بتروفتش ؟ (وكان السماور يغلى فوق المائدة) • كيف حالك يا عزيزى ؟ انك تبدو مريضاً •

مازلت أراها كأنها أمامى • انها تكلمنى وفى عينيها يلوح هم آخر •

هو ذلك الهم نفسه الذي جعل نظرة زوجها في هذه اللحظة مظلمة قاتمة وهو جالس أمام فتجان الشاي غارق في أفكاره وتأملاته • كنت أعلم ان قضيتهم مع الامير لم تسر وفق مصلحتهم ، وانهم في هذه اللحظة مهتمون بها كثيرا ، وان ثمة مزعجات أخرى قد وقعت لهم • فالامير الصغير الذي هو أصل هذه الدعوى كلها ، قد انتهز الفرصة منذ خمسة أشهر أو ستة ، فزار أسرة اخمينف فاستقبله العجوز ، الذي كان يحب « عزيزه » اليوشا كأنه ولده ، ويأتى على ذكره كل يوم تقريباً ، استقبله في فرح ، أما أنا اندريغنا فتذكرت عندئذ فاسيلفسكوئي فامتألت عيناها بالدموع • وأخذ اليوشا يتردد اليهم ، وزادت زيارته لهم ، على غير علم من أبيه ، ورفض يقول سرجتش ، في استياء ، أن يحتاط للأمر ، لانه رجل شريف صريح مستقيم • انه ، لابائه ونبله ، لم يشأ حتى أن يفكر فيما عسى أن يقوله الامير لو عرف ان ابنه عاد يُستقبل في بيت اخمينف ؟ وكان في دخيلة نفسه يحتقر كل هذه الشكوك • ولكن العجوز لم يكن يعلم هل يملك من القوة مايمكنه من احتمال اهانات جديدة • وأصبح الامير الصغير يزورهم كل يوم تقريباً ، وكان العجوزان يقضيان معه أوقاتاً طويلة ممتعة ، وكان يبقى في المنزل سهرات بكاملها ، الى مابعد منتصف الليل في كثير من الاحيان • وطبعي أن يحيط الاب علماً بكل شيء في آخر الامر • وقد فسح ذلك مجالا لاشنع الاقاويل والتخرصات • فأرسل الامير الى نيقولا سرجتش رسالة مهينة فظيعة تحمل ذلك الاتهام القديم نفسه • وحظر على ابنه حظراً قاطعاً أن يزور أسرة اخمينف • وقع هذا قبل زيارتي بخمسة عشر يوماً • كان العجوز قد انحدر الى حزن عميق • كيف ؟ أتقحم ابنته الحبيبة ناتاشا ، مرة أخرى ، في افتراءات حقيرة صافلة كهذه ؟ وهل يترك هو هذا كله دون أن يطلب تسوية كريمة ! هوأصابه المرض من شدة الالم حتى لازم فراشه في الايام الاولى من ذلك •

كنت أعلم هذا كله • فقد وصلتني القصة جملة وتفصيلا ، رغم اننى فى المدة الاخيرة ، منذ مايقرب من ثلاثة أسابيع ، كنت مريضا مرهقا ، فلزمت سريرى فى بيتى ولم أجيء الى زيارتهم قط • ولكننى كنت أعلم أيضا • • كلا ، بل كنت أقدر ، أو أعلم على غير يقين ان هنالك شيئا آخر ، غير هذه القصة ، يقلقهم أكثر من أى شىء آخر فى العالم • كنت ألاحظهم فى قلق معذب وخوف رهيب • نعم ، كنت خائفاً معذبا • كنت خائفاً ان أحزر الحقيقة ، كنت خائفاً من تصديق الامر الواقع ، كنت أتمنى بكل قوى أن أبعد الدقيقة الحاسمة • ومع ذلك ماجئت اليهم الا لهذا الغرض • كنت فى ذلك مدفوعا اليهم دفعا لا حيلة لى فى رده •

سألنى العجوز فجأة ، كأنه يسترد صوابه :

— نعم يا فانيا ، ألم تكن مريضا ؟ لماذا لم تأت إلينا خلال هذه المدة كلها ؟ اننى مقصر فى حقك : وقد هممت غير مرة أن أذهب اليك أزورك ، فكان يحول بينى وبين ذلك طارىء •

وعاد العجوز يفكر • • أجبته :

— كنت مريضا •

فأجاب بعد خمس دقائق :

— ها ! لا أستغرب هذا ! لقد نصحتك فى ذلك اليوم ، وحذرتك فلم تصغ الى كلامى • هم ! لا يا عزيزى فانيا ، لقد عاشت الهة الفن دائما جائعة ، فى كوخ متداع ، وستظل كذلك • • نعم •

لا ! ما كان العجوز خلى البال مشرق المزاج ، ولو لم يكن مجروح القلب لما حدثنى عن الهة الفن الجائعة • ونظرت الى وجهه ، فاذا هو شاحب شديد الشحوب ، وفى عينيه قلق وحيرة وفكرة اتخذت صورة سؤال لا قبل له بحله • كان غنيفا قارصا ، على خلاف عادته • وكانت امرأته تنظر اليه فى قلق ، وتهز رأسها من حين الى حين ، حتى اذا حول

نظروا عنا لحظة من اللحظات نظرت الى مشيرة اليه خلسة بحركة من رأسها •

سألت 'آنا اندريفنا التي بدا الهم جائئاً على صدرها خائفاً :

— كيف حال ناتاليا نيقولايفنا ؟ أهى فى البيت ؟

فأجابت تقول ، وكأن سؤالى هذا قد أربكها :

— نعم •• نعم •• يا عزيزى •• ستأتى على الفور •• اثلاثة أسابيع

لا نراك ؟ لا ، هذا كثير • مسكينة هذه البنت ، لقد أصبح غريباً أمرها •

لا يستطيع المرء أن يعرف أهى مريضة أم غير مريضة • الله يحميها !

ونظرت الى زوجها وجلة ؟ فأجاب نيقولا سرجتش متكلفاً وهو

يغص بكلامه :

— ماذا تقولين ؟ ليس بها شيء • ان البنت تكبر ، ولم تعد طفلة

صغيرة • هذا كل مافى الامر • منذ الذى يستطيع أن يفهم أحزان

الفتيات ونزواتهن ؟

فقلت انا اندريفنا فى لهجة مرة :

— نعم •• نزوات !

وسكت العجوز ، وأخذ ينقر بأصابعه على المنضدة •

سألت نفسى وأنا أوجس شراً مستطيراً : « رباه ! أياكون قد وقع

بينهما شيء ؟ » •

واستأنف العجوز يسألنى :

— وكيف الحال عندكم هناك ؟ ألا يزال ب ••• يكتب نقداً ؟

قلت :

— نعم •

قال فى غير مبالاة :

— نقد ! هه ! ماقيمة هذه الاشياء كلها ؟! ••

الفصل السابع



تحمل قبعتها بيسدها ، فلما دخلت وضعتها على
اليانو ، ثم اقتربت ومدت الي يدها صامته • كانت
شفقتها تختلجان اختلاجا خفيفا ، كأنما هي تريد
أن تقول بضع كلمات على سبيل الترحيب ، غير

انها لم تقل شيئا •

لم أكن رأيتها منذ ثلاثة أسابيع • وأخذت أنظر اليها الآن في حيرة
ورعب • ما أشد ما تغيرت خلال هذه الاسابيع الثلاثة ! وانهد قلبي ألما حين
رأيت خديها شاحين ، وشفقتها يابستين كأن قد جفتها حمى ، وحين
رأيت عينيها تتقدان تحت أهدابهما الطويلة بنار متأججة وعزيمة كاسرة •

ولكن ، يا الهى ، ما كان أروع جمالها فى تلك اللحظة ! مارأيتها
فى حياتى ، لا قبل ذلك اليوم المشؤم ، ولا بعده ، فى مثل هذا الجمال
القاتن ! أهذه هى ناتاشا ، أهذه هى بعينها تلك البنت الصغيرة التى كانت
منذ سنة ، تصفى الى وأنا أقرأ قصتى ، لا تحوّل عنى بصرها ، وتحرك
شفقتها كأنها تقرأ معى ، وتضحك ذلك الضحك المرح كضحك الاطفال ،
وتمزح فى ذلك المساء مع أبيها ومعى أثناء تناول طعام العشاء ؟ أهذه هى
بعينها ناتاشا التى قالت يومئذ فى هذه الغرفة ، وقد انخفض رأسها واصطبغ
وجهها بحمرة قانية : نعم ؟

ودوى صوت ناقوس أصم يدعو الى صلاة المساء ، فارتجفت ناتاشا

ورسمت العجوز اشارة الصليب •

— كنت تنوين الذهاب الى صلاة المساء يا ناتاشا ، وهاهو ذا الناقوس يبدق • هيا اذهبي يا صغيرتى ، هيا اذهبي يا صغيرتى ، هيا اذهبي الى الصلاة ، الحمد لله على ان الكنيسة غير بعيدة ! وبذهابك الى الصلاة تقومين بنزهة صغيرة ! لماذا تحبين نفسك فى البيت ؟ أنظري كم أنت شاحبة ! لكأنك يابنتى قد أصابتك عين •

قالت ناتاشا ببطء وبما يشبه الهمس :

— قد •• لا •• أذهب •• اليوم ••

ثم أضافت وقد ازداد شحوب وجهها :

— أشعر بأثنى مريضة •

— بل الأحسن أن تذهبي يا ناتاشا •• كنت تريدان الخروج منذ هنيهة ، حتى لقد جئت بقبعتك • اذهبي الى الصلاة يا بنيتى ، اذهبي الى الصلاة ، عسى ربك أن يرد اليك عافيتك •

قالت آنا اندريفنا ذلك تشجع ابنتها ، وهى تنظر اليها وجلة كأنما هى تخشاها •

— نعم نعم •• اذهبي الى الصلاة يا ناتاشا ، وسيكون لك من ذلك نزهة قصيرة • ان أملك على حق فيما تقول •• وسيصحبك فانيا •

ترأعت لى بسمة مرة تطوف فى شفتى ناتاشا • واقتربت ناتاشا من البيانو ، فتناولت قبعتها ، ووضعتها على رأسها ، ويدها ترتجفان ••

كانت كأنها تتحرك بلا شعور ، كأنها لاتفهم شيئاً مما تعمل • وكان أبواها يتابعان حركاتها فى انتباه شديد •

قالت بصوت خافت لا يكاد يُسمع :

— وداعاً •

— علام الوداع يا ملاكى ! انك غير ذاهبة الى بعيد ! على ان هدم
النزهة القصيرة ستفيدك كثيراً ، ستتشقن الهواء النقى • أنظري كم أنت
شاحبة • ها ! نسيت (اننى أنسى كل شيء) ، لقد فرغت من صنع التيممة •
خطتها منذ لحظة على دعاء مستجاب يا ملاكى ، احملها يا ناتاشا • اسأل
الله أن يمن عليك بالصحة • • ليس لنا غيرك يا بنيتى •

قالت العجوز ذلك وأخرجت من منضدة شغلها الصليب الصغير ،
صليب تعميد ناتاشا ، وقد علقت فى سلكه تيممة منذ قليل :
صليب تعميد ناتاشا ، وقد علقت فى سلكه تيممة منذ قليل •

— احمليه يا بنيتى ، فيه البركة والعافية • فى الماضى ، كنت أرسم
لك اشارة الصليب هكذا كل مساء ، قبل أن تنامى ، وكنت أدعو لك •
وكنت تردددين معى الدعاء • أما الآن فقد تغيرت يا ناتاشا ! أصبحت صلوات
أملك نفسها لا تخفف عنك !

وغرقت العجوز فى دموعها •

قبلت ناتاشا يدها دون أن تقول كلمة ، واتجهت نحو الباب •
ولكنها تراجعت فجأة ، واقتربت من أبيها • كان صدرها يرتجف من
شدة الانفعال • وقالت بصوت مختنق وهى تتهالك على ركبتيها أمامه :

— صلب أنت أيضاً يا أبت •

وظللنا جميعا واقفين ، مضطربين لهذه الحركة المفاجئة • وظل
أبوها ينظر اليها لحظات ، حائراً لا يفهم ، ثم صاح والدموع تتفجر من
عينيه :

— حييتى ناتاشا ، بنيتى الصغيرة ، عزيزتى ، ماذا بك ؟ ما الذى
يعذبك ؟ لماذا تبكين ليل نهار ؟ اننى أرى كل شيء يا بنيتى ، وانهر من

فراشى كل ليلة ، فأمضى الى باب مخدعك أستمع الى بكائك • انتى لأنام الليل • قولى لأبيك كل شيء يا ناتاشا • اسرى الى أبيك بكل شيء يا ناتاشا، ونحن ..

ولم يتم كلامه ، بل أنهضها ، وضماها الى صدره ، فشدت جسمها اليه شداً قوياً ، وأخفت رأسها فى كفه ، وأجابت وهى تفص بدموع خفية مخنوقة :

— لا شيء .. لا شيء .. كل ما هنالك انتى أشعر بأعياء •

قال الاب :

— اسأل الله لك الرضى يا بنيتى الغالية • أسأله لك طمأنينة الروح، وأن يحميك من كل سوء • ادعى الله يا حبيبتى ، وعسى أن ترقى اليه دعوات هذا الخاطى ، انا •

وأضافت العجوز :

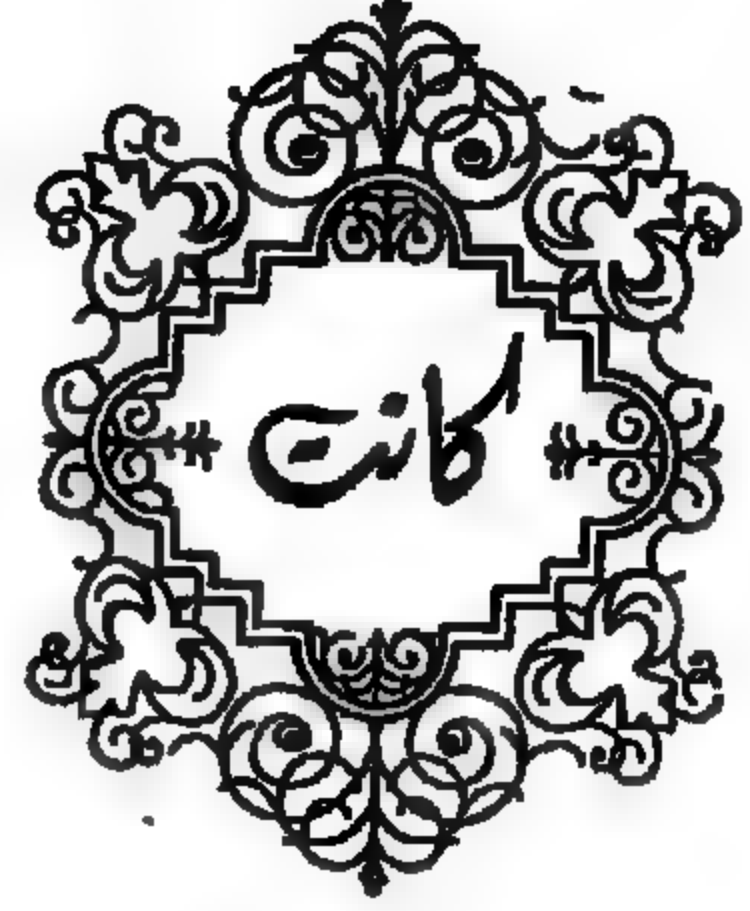
— وأنا كذلك أسأل الله لك الرضى •

ودمدت ناتاشا تقول :

— وداعاً •

وتوقفت قرب الباب لحظة ، وألقت على أبويها نظرة أخيرة ، وأرادت أن تقول شيئاً ، ولكنها لم تستطع ، فخرجت من الغرفة بسرعة ، وهرعت أنا فى اثرها أوجس شراً •

الفصل الثامن



تسير صامتة ، خافضة الرأس ، لا تنظر الى •
ولكنها حين وصلت الى آخر الشارع ودخلت
الرصيف ، توقفت فجأة وأمسكت بيدي •• قالت
بصوت منخفض :

– اننى أحتق ! ان كابوسا يبحم على صدرى ، اننى أحتق •
فصرخت جزعاً أقول :

– عودى يا ناتاشا •

فقالت وهى تنظر الى فى حزن لا يمكن وصفه :

– ألسنت ترى يا فانيا اننى مضيت الى الأبد ، واتى تركتهم الى غير

رجعة ؟

شعرت كأن قلبى قد تحطم • كنت أوجس هذا كله حين مضيت
الى زيارتهم • كأن كل هذا قد عرض لخيالى فى مثل الضباب ، بل لعله
عرض لخيالى قبل ذلك اليوم بزمان طويل ، الا أن كلامها ، فى هذه
اللحظة ، وقع فى نفسى موقع الصاعقة •

وسرنا على الرصيف فى حزن • كنت لا أستطيع الكلام ، كنت
أتخيل وأتأمل •• كنت طائش اللب تماماً •• وأخذنى دوار •• كان هذا
يبدو لى أمراً جنونياً ، أمراً مستحيلاً !

قالت أخيراً :

— لا شك أنك تعدني مجرمة يا فانيا !

فأجبت دون أن أعي ما أقول :

— لا .. ولكن .. ولكن لا أصدق .. هذا غير ممكن !

— بل هو ممكن يا فانيا ، هذا ما وقع فعلاً ! لقد تركتهم ، ولا أدري
ماذا ينتظرهم من مصير ، بل لا أدري ماذا ينتظرني أنا من مصير .

— أأنت ذاهبة اليه يا ناتاشا ؟ نعم ؟

— نعم .

فصرخت في حماسة :

— ولكن هذا مستحيل يا عزيزتي المسكينة ناتاشا ! هذا جنون !
مستقليهم قتلًا .. مستقلين نفسك .. هل تعلمين هذا يا ناتاشا ؟

— أعلمه .. ولكن ماذا أستطيع أن أفعل ؟ أصبحت لا أملك من
شأني شيئاً .

قالت ذلك وفي كلامها يأس هائل كأنها ذاهبة الى العذاب .

فقلت متوسلاً :

— عودي يا ناتاشا ، عودي قبل أن يفوت الاوان .

وكنت كلما ازددت حماسة والحاحاً في التوسل اليها ، ازدادت
شعوراً بأن توسلاتي في هذه اللحظة ذاهبة أدراج الرياح ، وأنها عبث
بلا طائل تحته .

— أفاهمة أنت يا ناتاشا ماذا تصنعين بأبيك ؟ هل فكرت في هذا ؟
فأنت تعلمين ان أباه عدو أبيك ! أنت تعلمين ان الامير قد أهان أباك ، وانه

لأنهم بالاختلاس ، وأسماء لصاً • • وانت تعلمين ان بينهما الآن دعوى • •
ثم ، يا ناتاشا ، هذا كله بسيط اذا قيس بغيره • هل تعلمين يا ناتاشا
(رباه ! انك تعلمين هذا كله) ان الامير قد اتهم أبويك بأنهما هما اللذان
حاولا ، عمداً ، أن يربطا بينك وبين اليوشا ، حين كان يعيش اليوشا
عندكم في الريف ؟ فكرى فى الامر يا ناتاشا ، وحسبك أن تتصورى
مدى الآلام التى عاناها أبوك حين طرقت سمعه هذه الفرية • لقد غدا
شعره كله أبيض فى هاتين السنتين الاخيرتين • أنظرى اليه • لاسيما • •
ولكنك تعلمين هذا كله ياناتاشا ! آه ، يا الهى ، يارب السموات • لست
أتكلم عن الكارثة التى تحل بهما اذا هما فقداك الى الابد • انت ثروتهما ،
انت كل ما بقى لهما فى شيخوختهما ! لست أتكلم عن هذا ، ولا أريد
أن أتكلم عنه ، فينبغى أن تعرفيه بنفسك • ولكن تذكرى ان أباك
يرى ان هؤلاء الناس المتعجرفين قد افتروا عليك ظلماً وعدواناً ، وانهم
أهانوك ، وان عليه أن ينتقم لك • والآن ، الآن خاصة ، يستيقظ هذا
كله ، وتتبعث هذه العداوة كلها ، لانكم استقبلتم اليوشا • وقد أهان
الامير أباك مرة أخرى ، ومازال العجوز يغلى حقاً من هذه الاهانة
الجديدة ، فاذا بكل هذه الاتهامات تبدو فجأة صادقة ! ان جميع الذين
يعرفون القضية سيقولون ان الامير كان على حق ، وسيتهمونك وأباك !
وما عسى أن يصبح أبوك من هذا كله ؟ سيقتله العار والشنار ! ومن تأتبه
هذه الصدمة الفظيعة ؟ منك انت ، انت ابنته الوحيدة ، طفلة الغالية !
وأأمك ؟ لن تعيش بعد زوجها العجوز لحظة واحدة • • ناتاشا ، ناتاشا ،
ماذا تفعلين ؟ عودى يا ناتاشا ، كونى عاقلة !

كانت صامته • وأخيراً ألقت على نظرة كأنها تحمل معنى اللوم •
وكن فى هذه النظرة من الألم الحاد ، والعذاب الشديد ، ما أفهمنى أن
قلبها فى هذه اللحظة ينزف • فهمت مدى ما كلفها قرارها هذا من ألم ،

وفهمت انتی بما أقول من كلام أعذبها وأمزقها دون طائل ، فهمت هذا كله ، ومع ذلك لم أستطع أن ألجم نفسي عن الكلام ؟ وتابعت أقول :

— ثم لقد قلت ، منذ لحظة ، لآنا اندريفنا انك قد لا تخرجين الى الصلاة • معنى هذا انك كنت تريدین البقاء •• وانك لم تعزمی أمرک عزماً قاطعاً ، فما الذي جدَّ اذن ؟

لم تجب ناتاشا على هذا كله الا ببسمة مرة • ولماذا سألتها عن هذا كله ؟ كان في وسعی أن أفهم انها قد عزمت أمرها ، وانها لن تعدل عن قرارها • ولكنني كنت أنا نفسي خارجاً عن طوري •

— هل يُعقل أن تحييه الى هذا الحد ؟

قلت ذلك وأنا أنظر اليها منقبض الصدر ، ولا أكاد أفهم ما أقول • فأجابت وعلى شفيتها تلك البسمة المرة نفسها :

— بم تريد أن أجيبك يا فانيا ؟ انك ترى : لقد أمرني ان آتي • وهاءنا ذا أنتظر •

فعدت أتوسل اليها ، كالغريق الذي يتعلق بقشة !

— ولكن اسمعيني يا ناتاشا ، اسمعيني • مازلنا نستطيع أن نتدبر الامر ، وان نخرج منه على نحو آخر ، ولن يكون عليك الا أن تلزمي بيتك لاتبارحينه • وسأقول لك كل ما يجب عليك أن تفعله يا صغيرتي العزيزة ، ياناتاشا • سأتولى تدبير الأمور : المواعيد •• وكل شيء • كل ما أطلبه اليك هو ألا تخرجي من البيت بعد الآن ؟ سأتي اليك برسائله ، لم لا ؟ هذا أفضل مما يقع الآن • سأعرف كيف أفعل ذلك • سأخدمكما كليكما • سترين •• ولن تضيعي نفسك كما تفعلين الآن ، يا عزيزتي الصغيرة ناتاشا •• انك تضيعين نفسك تماماً يا ناتاشا ، تماماً تماماً ••

اقبلى رجائى : سيسير كل شىء على ماتريدين ، ستحيينه وسيحبك ما شاء
لكم الحب .. ومتى انتهى أبواكما من التخاصم (وسيتهيان من التخاصم
حتما) ، فعندئذ ..

قالت وهى تضغط يدي بقوة ، وتبتسم من خلال الدموع :
— حسبك يا فانيا ، أسكت يا فانيا ، يا فانيا الطيب النيل • انك
رجل شهم شريف • أما من كلمة سيئة تقولها لى ؟ لقد بدأت أنا بهجرتك ،
وهاءنت ذا تغفر لى كل شىء ، ولا تفكر الا فى سعادتى ! تريد أن تنقل
رسائلنا !

وانفجرت باكية •

— أعرف كم أحببتى ، يا فانيا ، وكم تحببى الآن • ومع ذلك لم
توجه الى كلمة لائمة أو كلمة مرة خلال هذه المدة كلها ! وأنا ، أنا ،
كم أنا مجرمة فى حقك يا فانيا ! أتذكر الوقت الذى قضيناه معاً ؟ أوام !
كان الافضل ألا أعرفه ، ألا ألقاه أبداً ! كان ينبغى أن أعيش معك ،
يا فانيا ، يا صديقى العزيز ! لا ، اننى لا أستحقك ! انك ترى كيف أنا :
فى لحظة كهذه أحدثك عن سعادتنا الماضية ، مع انك تتألم بدون أن
أحدثك عن ذلك ! ها قد انقضت أسابيع ثلاثة لم نزرنا خلالها : أقسم
لك ، يا فانيا ، انه لم يخطر على بالى مرة واحدة انك حققت على أو
كرهتني • أنا أعلم لماذا ذهبت : لقد أردت أن لا تزعبنا ، ألا تكون بيتنا
بمثابة لوم حى • ما كان أشق عليك أن ترانا ! لطالما انتظرتك يا فانيا ،
لطالما انتظرتك ! اسمع يا فانيا ، لئن كنت أحب أليوشا كمن جئت ،
كمن فقدت صوابها ، فلعلنى أحبك أنت أكثر مما أحبه هو • بل اننى
لأشعر وأعرف اننى لا أستطيع أن أعيش بدونك • لا غنى لى عنك • أنا
فى حاجة الى روحك ، الى قلبك الذهبى • أسفاً يا فانيا ، ما أمر وما
أقسى هذا الوقت الذى نعيشه !

أغرقتها الدموع • نعم ، انها شقية ! وتابعت كلامها ، بعد أن خنقت
عبراتها :

— آه يا فانيا ، ما كان أشد شوقى الى رؤيتك ! لقد نحلت كثيراً
يا فانيا ، وفى وجهك تبدو علامات المرض ، انك شاحب جداً • هل كنت
مريضاً حقاً يا فانيا ؟ آه ما أسوأنى ، لم أفطن الى هذا ولا خطر لى على
بال • وهاءنا ذا أتكلم عن نفسى طوال الوقت • ماذا يكتب الصحفيون
الآن ؟ وروايتك الجديدة ، هل قطعت فى كتابتها أسواطاً جديدة ؟
— مالنا وللروايات ؟ مالنا ولأُمُورى الخاصة الآن يا ناتاشا ؟ دعينا
منها الآن ، ولتذهب الى الشيطان ! قولى لى يا ناتاشا : أهو الذى أصر على
أن تأتى اليه ؟

— لا • • لم يطلب ذلك وحده ، والأصح اننى أنا الذى طلبت ذلك •
صحيح انه قاله ، ولكننى أنا أيضاً • • اسمع يا صديقى ، سأقص عليك
كل شيء • لقد وجدوا له فتاة غنية ، ذات مكانة مرموقة ، ومن أسرة
عظيمة • ويصر أبوه اصراراً قاطعاً على أن يزوجه اياها ، وانت تعلم ان
أباه رجل مكر ، خراج ولاج ! لقد دبر الامر تدييراً محكماً ، وفى رأيه
ان مثل هذه الفرصة لن تعرض خلال عشر سنين : علاقات ، مال ، الخ •
ثم ان الفتاة جميلة جداً على ما يقال ، وهى مثقفة ورقيقة • انها حسنة
من جميع الوجوه • حتى ان اليوشا نفسه مفتون بها • وأكثر من هذا ان
أباه يريد أن يتخلص منه بأقصى سرعة ، ليستطيع أن يتزوج هو أيضاً ،
لذلك أخذ على نفسه أن يقطع صلاتنا على أى وجه ! انه يخاف منى ،
ومن تأثيرى فى اليوشا • •

فقاطعتها دهشاً :

— ولكن هل يعرف الامير حبكما ؟ أظن انه كان يشتبه اشتباهاً ،
بل لست واثقاً من انه كان يشتبه !

— بل هو يعرف كل شيء ، كل شيء •

— من أنبأه ؟

— اليوشا هو الذى قص عليه كل شيء فى المدة الاخيرة • قال لى
هو نفسه انه قص على أبيه كل شيء •

— يا الهى ! ولكن ما هذه الحكاية ! يروى لأبيه كل شيء ، فى مثل
هذه اللحظة !

فقاطعتنى ناتاشا تقول :

— لا تؤاخذ ، يا فانيا ، ولا تسخر منه ! يجب ألا تحكم عليه حكمك
على غيره من الناس • كن عادلا • انه ليس مثلك ولا مثلى ، انه طفل ، لم
يربوه كما يجب أن يربى ، انه لا يفهم مايفعل • فى وسع أول تأثر جديد
أن ينتزعه من كل ماعاهد عليه نفسه منذ لحظة • ليس له ارادة ، قد يقطع
لك عهداً ، ثم اذا هو فى اليوم نفسه يقطع عهداً آخر ، وهو فى كلا
العهدين صادق • انه قادر على اقرار أى عمل سيئ ، ولكن ماينبغى
أن تؤاخذ على انه اقرار عملاً سيئاً ، وانما ينبغى أن ترثى لحاله ! وهو
قادر كذلك على التضحية ، أية تضحية ! ولكن فى لحظة أولى ، ثم ينسى
كل شيء فى لحظة أخرى ! انه قادر على أن ينسانى أنا ، اذا لم أكن الى
جانبه دائماً • هذا هو اليوشا •

— ولكن يا ناتاشا ، لعل هذا كله أقاويل واشاعات • هل يستطيع
اليوشا أن يتزوج ؟ انه طفل !

— قلت ان لايه خطة واضحة !

— وكيف عرفت ان خطيته جميلة ، وانه مقتون بها !

— قال لى ذلك هو نفسه •

— كيف ؟ يقول لك هو نفسه انه قادر على أن يحب امرأة غيرك ،
ثم يطلب اليك مثل هذه التوضيحية ؟

— لا ، يا فانيا ، لا • انك لا تعرفه • انك لم تره الا قليلا • ولا بد
أن تعرفه معرفة أوثق حتى تستطيع أن تقطع فيه برأى • ليس فى الدنيا
قلب أنبل ولا أنقى من قلبه ! وهل كان الافضل أن يكذب على ؟ اما عن
النسيان واستسلامه فيكفى أن ابتعد عنه أسبوعاً واحداً حتى ينساني ويحب
امرأة أخرى • ولكنه متى عاد فلقينى ارتدى على قدمى مرة أخرى • ومن
حسن الحظ أننى أعرف انه لم يكتف عني شيئاً ، ولولا هذا لقتلتنى
الشكوك • نعم يا فانيا ، لقد عذمت أمرى : اذا لم أكن الى جانبه دائماً ،
فى كل لحظة ، انتهى حبه ، فنسينى ، وهجرنى • هكذا خلق • تستطيع
أية امرأة أخرى أن تجذبه وأن تقوده • وما عسانى فاعلة يومئذ ؟
سأموت من غير شك • • وما الموت ؟ ليتنى أموت الآن • • اما أن أعيش
بدونه فهذا ما لا أطيقه : ان ذلك لاسوأ من الموت ، وأقسى من كل أنواع
العذاب ! آه يا فانيا ، يا فانيا ، هين علىّ انى هجرت أبى وأمى فى سبيله !
دعك من المواعظ والاخلاق ! لقد قررت كل شيء • يجب أن أكون الى
جانبه فى كل ساعة ، فى كل لحظة • ليس فى وسعى أن أراجع •
أعرف اننى أضيع نفسى ، واننى أضيع معى آخرين • •

قالت ذلك ثم صرخت فجأة وهى ترتعد من أخمص قدميها الى قمة
رأسها :

— آه يا فانيا • • ماذا يكون من أمرى اذا صح انه لا يحبني ، اذا
صدق ماقلته لى منذ لحظة (الواقع اننى لم أقل ذلك) ، اذا كان يغشنى ،
اذا كان ظاهره الاستقامة والصدق ، وباطنه الحبث والغرور ! اننى أدافع
عنه الآن أمامك ، وربما كئن هو فى هذه اللحظة يضحك من أعماق

نفسه مع امرأة أخرى ؟ وأنا ، أنا المخلوقة المردولة ، أترك كل شيء ، وأسعى في الشوارع أبحث عنه ! آه ، فانيا •

وانطلقت من صدرها آهة أليمة انفرط لها قلبى هلعاً • وفهمت ان ناتاشا قد فقدت آخر رمق من سيطرتها على نفسها • وانه ما كان لغير غيرة جنونية بالغة أوجها أن تسوقها الى قرار أحرق هذا الحق • وتأججت في نفسى كذلك غيرة طافحة ، ولم أستمع أن أصمد أكثر مما صمدت ، وطفنى على شعور سيىء ، فقلت :

— ناتاشا ، شيء واحد لا أفهمه : كيف تستطيعين أن تحييه بعد الذى قلته عنه ؟ انك لا تحترمينه ، بل انك لا تثقين بحبه ، ومع ذلك تمضين اليه بلا رجعة ، وتفقدينا جميعاً من أجله ! ما معنى هذا ؟ سيعذبك طوال حياتك ، وستعذبنه أيضاً • انك تحيينه أكثر مما يستحق يا ناتاشا ، نعم تحيينه أكثر مما يجدر بك أن تحييه • اننى لا أفهم مثل هذا الحب •

فأجابت وقد امتقع لونها كأنما بتأثير ألم جسمى :

— نعم ، أحبه كمجنونة • ولم أحبك يوماً مثل هذا الحب ، يافانيا • أنا أعرف اننى فقدت صوابى ، واننى لا أحبه كما ينبغى أن يكون الحب • اسمع يا فانيا : هل تعلم اننى ، حتى قبل هذا الوقت ، وفى أسعد لحظاتها ، كنت أشعر انه لن يأتينى بغير العذاب ؟ نعم كنت أشعر بذلك ، ولكن ماعسانى أفعل ، والعذاب الذى يسييه لى هو عينه سعادة ! هل ترانى أبحث عن الفرح اذ أمضى اليه ؟ ألسنت أعلم منذ الآن ما ينتظرنى معه ، وما سأحتمله منه ؟ اسمع ، لقد أقسم انه يحبنى ، وقطع لى جميع أنواع العهود ، وأنا لا أصدق من وعوده شيئاً ، ولا أقيم لها وزناً قط ، ومع ذلك كنت أعلم انه لا يكذبنى ، وانه لا يستطيع أن يكذبنى • وقد قلت

له ، أنا نفسي ، اننى لا أريد أن أربطه بشيء ، وهذا أفضل ، فما من أحد يحب أن يُربط ، وأنا فى طبيعة من لا يحبون ذلك ، على أننى سعيدة بأن أحتمل كل شيء ، كل شيء • ولست أطمع الا فى أن يكون معى ، فى أن أنظر اليه ! فى وسعه أن يحب غيرى ، وانى لا قبل ذلك ، شريطة أن أكون أنا أيضاً الى جانبه • • أهذه حقارة يا فانيا ؟

سألتى هذا السؤال فجأة وهى ترفع الى نظرة ملتبهة • وأيقنت ، لحظةً ، انها تهذى • وأردفت تقول :

— انها حقارة أن أتمنى هذه الامور ، أليس كذلك ؟ نعم ! اننى أعترف أنا نفسي بأن هذه حقارة ! واذا هجرنى فسأجرى وراءه الى آخر الدنيا ، ولو صدقنى ، ولو طردنى شرّاً طردة • اسمع ! انك تنصحنى الآن بالعودة الى المنزل ، ولكن ماعسى أن تكون نتيجة ذلك ؟ ان عدت الى المنزل ، فسأخرج منه فى الغد • يكفى أن يصدر الى أمره بالخروج حتى أخرج • يكفى أن ينادينى بصفرة ، يكفى أن ينادينى كما ينادى كلب صغير حتى أجرى وراءه • • لا تحدثنى عن العذاب • اننى لا أخشى عذابا هو مصدره • سأعرف ان عذابى هو مصدره • وحسبى ذلك حتى أكون سعيدة • • ولكن يا فانيا ، لاتحدث أحداً بهذا •

سألت نفسي : « وأبوها ؟ وأمها ؟ ، وبدا لى انها نسيتهما نسياناً تاماً !

قلت :

— وعلى هذا لن يتزوجك يا ناتاشا !

— بلى ، لقد وعدنى بذلك ، وعدنى بكل شيء • ومن أجل هذا يستدعينى الآن ، من أجل أن تتزوج خفية فى الريف • ولكنه لا يدري ماذا يفعل ، ولعله لا يعرف كيف يتم الزواج • أهذا زوج ؟ حقاً ان

الأمر لمضحك وإذا تزوج فسيكون شقياً ، وسيأخذ يصب على ضروب اللوم ، وأنا لا أريد أن يلومني يوماً . . سأترك له اذن حرية التصرف ، ولن أطلبه بشيء . . وإذا شقى بعد الزواج ؟ لماذا أجعله شقياً ؟

— ناتاشا ! أتحملين ؟ أنت اذن ماضية اليه الآن رأساً ؟

— لا ، لقد وعدني بأن يجيء الى هنا ليأخذني ، اتفقنا .

ونظرت الى بعيد في لهفة ، ولكنها لم تر أحداً . هتفت في

استياء :

— ولكنه لم يجيء بعد ، أتصلين أنت قبله ؟

وكان ناتاشا ترنحت من هول الضربة وتصغر وجهها . . . قالت

في ضحكة صغيرة مرة :

— وقد لا يأتي أبداً . أول أمس كتب الى يقول : ان لم أعده

بالمجيء ، فسيكون مضطراً الى ارجاء عزمه على السفر معي والزواج بي ،

وسيمضي به أبوه الى خطيبته . كتب الى ذلك ببساطة كأن ليس في هذا

شيء ذو بال . . وماذا اذا ذهب اليها يا فانيا ؟

لم أجب . وضغطت يدي بقوة ، وأخذت عينها تلتهمان . . . قالت

يصوت لا يكاد يسمع :

— انه عندها . . كان يأمل ألا آتي ، حتى يتعب اليها ، وحتى يقول

بعد ذلك انه كان على حق ، وانه أنذرنى فلم آت ، وقد أعذر من أنذر .

انه يملني ويهجرني ، آه ، يا الهى ، اننى مجنونة . ألم يقل لى فى المرة

الماضية اننى أضجره ؟ ماذا أنتظر اذن ؟

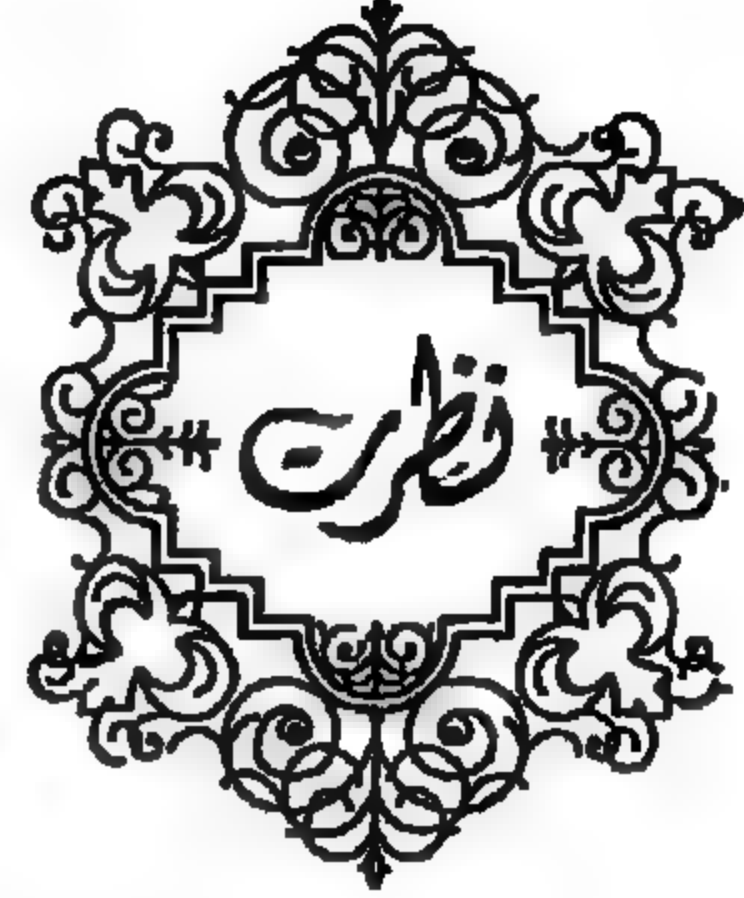
— هذا هو !

ذلك ما هتفت به ، اذ لمحتة على الرصيف من بعيد • وارتجفت ناتاشا ، وأطلقت من صدرها صرخة ، وثبتت نظرتها على اليوشا الذى كان يقترب ، وفجأة تركت يدي ، وهرعت نحوه • وحث خطاه هو أيضاً ، وما هى الا دقيقة واحدة حتى كانت فى ذراعيه •

لم يكن فى الشارع أحد سوانا • تعانق الحبيبان وأخذا يتباوسان ويضحكان • كانت ناتاشا تضحك وبكى فى آن واحد ، كأنهما الثقيل بعد فراق طويل • كان الدم قد صعد الى خديها الشاحبتين • كأنها أصبحت فى طور آخر •

• • ولمحنى أليوشا ، فما لبث أن اتجه نحوى •

الفصل التاسع



إليه نظرة فاحصة ، رغم أنني رأيته كثيراً قبل
هذه اللحظة وحدثت في عيني ، كأن نظرتة تستطيع
أن تحل جميع شكوكي ، وأن تفهمني كيف
استطاع هذا الطفل أن يسحر ناتاشا ، وأن يبعث
في قلبها حبا كهذا الحب المجنون ، الذي ينسيها حتى واجبها الأول ،
ويحملها على التضحية الهوجاء بما كان إلى الآن أقدس شيء عندها ، وتناول
الأمير يدي كليهما ، وضغطهما بقوة ، واخترقت نظرتة الرقيقة الصافية
قلبي •

شعرت أنني قد أكون مخطئا في حكمي عليه ، لأنه غريمي • والحق
أنني لم أكن أحبه ، ولعلني الشخص الوحيد الذي ما أحبه يوما ، من بين
جميع الذين عرفوه • كثير من الأمور كانت تنفرني منه حتماً ، حتى ملبسه
الأنيق ، ولعل ملبسه كان ينفرني لأنه أنيق مسرف في الأناقة • وقد
أدركت ، فيما بعد ، أنني كنت حتى في هذه الناحية متحيزاً غير منصف
في الحكم عليه • كان فارغ القامة ، حسن البنية ، رقيقاً ناعماً • وكان
وجهه اليبضاوي دائم الشحوب • وكان شعره أشقر ذهبياً ، وعيناه
زرقاوين واسعتين ، رقيقتين ساجتتين ، يلتصق فيهما على حين غرة ، في
بعض الأحيان ، مرح كمرح الطفولة بريء ، وكانت شفاه رقيقتين بلون
الياقوت ، رُسمتا أروع رسم ، وأطبقتا على معنى الجد في دائم الأحوال
تقريباً ، وذلك يجعل ابتسامته البريئة الساذجة ، حين يتسم فجأة ، أمراً

غير متوقع ، ويزيد في سحرها ، فاذا أنت حين تراها لا تلبث مهما تكن حالتك النفسية ، أن تشعر فوراً بالحاجة الى أن ترد عليها بابتسامة مثلها تماماً • كان ملبسه أنيقاً ، ولكن على غير تكلف • كان واضحاً أن هذه الاناقة في أدق التفاصيل لا تكلفه أى جهد ، كأنه قد فطر عليها • صحيح ان له بعض العادات السيئة التي يؤسف لها ، كالخفة ، والغرور ، والاستهانة • الا انه ساذج مسرف في السذاجة ، برىء الى أقصى حدود البراءة ، فاذا ارتكب بعض الاخطاء كان أول من يعترف بها وهو يضحك • أعتقد ان هذا الطفل ما كان له أن يكذب يوماً على سبيل المزاح ، وانه اذا كذب ، كذب دون أن يصرى في كذبه أى شيء سيئ • حتى أنانيته جذابة ، لا شيء الا لأنها صريحة لا تستر ولا تتخفى • كان ضعيفاً ، خجولاً ، يثق بالناس ، وليس له من ارادة البتة • ان الاساءة اليه ومخادعته لا تقلان سوءاً عن الاساءة الى طفل ومخادعته • انه برىء أكثر مما ينبغي لمثل سنه من براءة ، وهو لا يكاد يفهم من الحياة الواقعية شيئاً ، وسيظل كذلك حتى حين يبلغ من عمره الأربعين عاماً : كأن مثل هؤلاء الأشخاص قد قضى عليهم أن يظلوا قصرًا الى الابد • أعتقد أنه ما من أحد كان يستطيع أن لا يحبه • انه يداعبك كالطفل • صدقت ناتاشا : قد يرتكب عملاً سيئاً ، اذا سيق الى ارتكابه سوقاً ، ولكنى أعتقد أنه متى أدرك النتائج المترتبة على هذا العمل ، مات ندامة • ولقد كانت ناتاشا تدرك انها ستهيمن عليه ، وانه سيكون ضحيتها ، وكانت تتذوق منذ الآن لذة الحب الجنونى ولذة تعذيب المحبوب ، ولعلها من أجل هذا انما سارعت فسبقته الى التضحية بنفسها في سيله • ولكنه كان يحبها هو أيضاً حباً عنيفاً ، كان هذا ظاهراً في نظراته الملتهية • لقد كان يتأملها في وجد وثشوة عظيمة • وألقت على ناتاشا نظرة اتصار • كانت في هذه اللحظة قد نسيت كل شيء : أهلها ، والوداع ، والوساوس • • كانت سعيدة •

وهتفت تقول :

— فانيا ، لقد أذنت في حقه ، والبيت جديدة به • اعتقدت يا أليوشا
أنك لن تأتي • انيس هواجسي السيئة هذه يا فانيا • سامحو هذه الهواجس
للسيئة •

قالت ذلك وهي تنظر اليه في حب لا نهاية له • وابتسم أليوشا ،
وقبل يدها ، وقال ملتفتاً الى دون أن يدع تلك اليد :

— وانت ، لا تهمني كذلك • لطالما وددت ان أقبلك كأخ • لقد
حدثتني عنك كثيراً • حتي الآن لم نكد نتعارف ، وكنا على غير تفاهم
تام •

ثم أضاف بصوت منخفض ، وقد احمر وجهه قليلا ، وطافت في
شفتيه ابتسامة جميلة لم يسعني الا أن أستجيب لها بإبتسامة مثلها ، قال :

— سنكون صديقين ، و • • • سامحني •

وأيدته فاتاشا بقولها :

— نعم نعم يا أليوشا ، انه منا ، انه أخونا ، ولقد سامحنا ، وبدونه لن
نكون سعيدين • سبق أن قلت لك ذلك • آه يا أليوشا ، اتنا طفلان
قاسيان ! ولكننا سنعيش نحن الثلاثة معاً • •

وتابعت كلامها متجهة الي ، وقد أخذت شفتها وترتجفان :

— ستعود الآن اليهم ، الي البيت • انك انسيان نيل ، واذا لم يغفرا
لي ، فلعلهم يلينون بعض اللين ، حين يرون انك قد سامحتني • حدثهم
عن كل شيء بالكلمات التي تخرج من قلبك • يستجد الكلمات المناسبة
• • دافع عني ، اتقذني • اشرح لهم جميع الدواعي ، أفهمهم كل ما فهمته
انت • هل تعلم يا فانيا أنني ربما ما كنت لأعزم أمري على هذا لولا انك

كنت اليوم معى • لقد كان مجيئك مجيئ السلام الى قلبى ، فما ان رأيتك حتى آملت أن تعرف كيف تنقل اليهما النبأ ، أو على الأقل أن تلتطف وقع الصدمة على قلوبهما فى أول الامر • آه يارب ، يارب • قل لهما يا فانيا ، على لسانى ، اننى أعرف انه يستحيل أن يغفرا لى الآن ، وان غفرا لى ، فلن يغفر الله لى • ولكن قل لهما أيضاً اننى سأظل أباركهما وأدعو لهما الله طوال حياتى ، ولو لعنائى • ان قلبى كله معهما ! آه ، يارب ! لماذا لا نكون جميعاً سعداء ! لماذا ، لماذا ؟

ثم هتفت فجأة ، كأنها تعود الى نفسها ، وهى ترتجف من الخوف ، وتعطى وجهها بيديها :

— يا الهى ، ماذا فعلت ؟

وأمسك اليوشا بذراعيها ، وشدها اليه دون أن يقول شيئاً • وانقضت بضع دقائق فى صمت •

قلت وأنا أنظر اليه نظرة عتب :

— كيف أمكنك أن تطلب اليها مثل هذه التضحية !

— لا تهمنى • ثق ان هذه الآلام جميعها ، على قسوتها ، لن تدوم طويلاً • انى لعلى قناعة بهذا مطلقة • وانما نحن فى حاجة الى القدرة على احتمال هذه الدقيقة • وقد قلت لى هى هذا الشئ نفسه • انت تعلم ان سبب كل شئ هو هذا الصلف العائلى ، هذه الخصومات السخيفة ، ولا سيما هذه الدعاوى ! ولكن (كن واثقاً اننى فكرت فى هذا طويلاً) لا بد لهذه الامور كلها أن تنتهى ذات يوم • سيلتئم شملنا من جديد ، وسنكون عندئذ سعداء كل السعادة • سيتصالح أهلنا متى رأوا سعادتنا • ومن يدرى فلعل زواجنا أن يكون هو أساس الصلح • أعتقد أن الامر لا يمكن أن يكون على غير هذا النحو ، ما رأيك انت ؟

فسألته وأنا ألقى نظرة على ناتاشا :

— انك تتحدث عن الزواج ، فمتى تتزوجان ؟

— غداً أو بعد غد • بعد غد على أبعد تقدير ، هذا مؤكد • الحق ناتى لا أدري بعد ، واذا شئت الصديق قلت اننى لمّا أتخذ أى قرار • كنت أظن ان ناتاشا لن تأتى • وكان أبى يريد جازماً أن يذهب بى الى خطيبتى (لعلك تعلم انه يريد أن يزوجنى باحدى الفتيات ، لقد حدثتك ناتاشا عن هذا ، أليس كذلك؟ ولكننى أنا لا أريد) لهذا لم أستطع أن أعزم أمري على قرار حاسم بعد • ولكننا سنتزوج بعد غد حتماً ، رغم كل شيء • أو هذا على الأقل ما يترأى لى الآن ، لأن الأمر لا يمكن أن يكون على غير هذا النحو • سنسافر ، منذ الغد ، الى بسكوف • لى هنالك صديق من رفاق المدرسة ، شاب شهيم ، يسكن بسكوف ، غير بعيد من هنا ، فى الريف • قد أقدمه اليك فتعرفه • وفى القرية كاهن ، بل لا أدري هل فى هذه القرية كاهن أو لا • كان ينبغي أن نستعلم عن هذا قبل الآن ، ولكن الوقت لم يتسع • على كل حال • هذه الأمور كلها سفايف فى الواقع ، مادام الشيء الاساسى مقررأ • نستطيع أن ندعو كاهنا من قرية مجاورة ، ما رأيك ؟ هناك قرى كثيرة حول هذه القرية ! والشيء الوحيد الذى يؤسف له ان وقتى لم يتسع لكتابة كلمة الى صديقى ، كان ينبغي أن أنبئه بقدومى ، فقد لا يكون فى قريته الآن • على كل حال ليس هذا أهم شيء • فمتى عزم المراء ، تهيأت الامور من تلقاء نفسها ، أليس كذلك ؟ والى أن تهيأ الامور ، أى الى غد أو الى بعد غد اذا اقتضى الامر ، ستبقى ناتاشا هنا فى بيتى • لقد استأجرت بيتاً مستقلاً نستطيع ان نقيم فيه متى عدنا • لا أستطيع بعد الآن ان اعيش فى منزل ابى ، أليس كذلك ؟ وستأتى أنت لزيارتنا ، والبيت جميل لطيف • وسيأتى أصدقاؤى ، بأصدقاء المدرسة ، لزيارتى • ومنقيم حفلات ساهرة ••

نظرت اليه في غم مضطرب • وكانت ناتاشا تنظر الى نظرة من يتوسل ان لا افسو في الحكم عليه وان اكون متساحاً • كانت تصغي الى كلامه • وعلى شفقتها ابتسامة حزينة • كأنها في الوقت نفسه تعجب به • تماماً كما يعجب المرء بطفل لطيف مرح • حين يسمع ثرثرته فارغة ولكن لطيفة • فألقيت عليها نظرة عتب • وأخذت أشعر بانزعاج لا يحتمل •

سألته :

- وأبوك ؟ أنت واثق انه سيفقر لك ؟

- حتماً • وماذا يستطيع أن يفعل ؟ طبعا سيستاء في أول الامر • وسيلعننى • هذا لا أشك فيه • هكذا طبعه • انه قاس جداً معى • وقد يشكونى أيضاً الى آخر • سيستعمل سلطته الابوية على وجه الاجمال • ولكن ليس لهذا كله كبير شأن • انه يحبنى حباً جامحاً • سيفضب • ولكنه سيفقر لى آخر الامر • ويومئذ يتصالح الجميع ونصبح كلنا سعداء • وأبوها كذلك •

- واذا لم يفقر لك ؟ هل فكرت فى هذا ؟

- سيفقر لى حتماً • ولكن قد لا يفقر لى بسرعة • على كل حال • سأبرهن على اننى ذو ارادة قوية • انه يشاجرنى دائماً لاننى ضعيف الارادة • خفيف • سبرى الآن هل أنا خفيف حقاً • • سأتحمل بعد اليوم تبعه أسرة • وليس هذا بالامر الهين • لن أكون بعد الآن طفلاً • سأكون كغيرى من الناس • كأولئك الذين ينهضون باعباء أسرة • سأعيش من عملى • وناتاشا تقول ان هذا خير ألف مرة من أن يعيش المرء عالة على غيره • كما تفعل جميعاً الآن • لبتك تعرف كل ما قالته من كلام جميل واثق • ما كان لى أن أتخيله أنا نفسى • لم أترعرع بين مثل هذه الافكار • لم يربوتنى هذا النوع من التربية ! أنا نفسى أعرف أننى خفيف • واتى

لا أكاد أصلح لشيء ، ولكن هل تعلم ؟ لقد راودتني أول أمس فكرة مدهشة • سأقولها لك ، وان لم يكن هذا أوانها ، اذ يجب أن تعرفها ناتاشا ، وأن تسدي إلينا أنت بنصيحتك •

إليك الفكرة : سأكتب أقاصيص أبيعها للجرائد ، مثلك • متساعدني لدى الصحفيين ، أليس كذلك ؟ اني أعتمد عليك ، وقد قضيت الليلة البارحة كلها أتخيل رواية ، هكذا ، على سبيل التجربة ، ومن الممكن أن يخرج من ذلك شيء جميل جداً ، هل تعلم ؟ لقد اقتبست الموضوع من ملهاة سكريب •• ولكن دعنا من هذا الآن ، سأقص عليك ذلك فيما بعد • المهم هو أن يدفعوا ثمن الرواية مالا وافرا • هل يدفعون لك مبالغ كبيرة ؟

لم أستطع أن أحبس ضحكة صغيرة ارتسمت على شفتي •
فقال مبتسماً هو الآخر :
- انك تضحك •

ثم أضاف في سداجة لا يمكن تصورها :

- لا •• اسمع •• لاتحكم عليّ بالظواهر •• انني أملك كثيرا من روح الملاحظة حقاً • ستري ذلك انت نفسك • لماذا لا أحاول ؟ قد يخرج من ذلك شيء •• على انك قد تكون على حق •• انني لا أعرف شيئاً من الحياة الواقعية •• وهذا ماتقوله لي ناتاشا أيضاً ، بل هذا مايقوله لي جميع الناس • فأى كاتب يمكن أن أكون ؟ اضحك ، اضحك ، صحيح آرائي • انك من أجلها انما تفعل ذلك ، لانك تحبها • سأقول لك الحقيقة •: انني لا أستحقها • أنا أشعر بذلك • وهذا قاس على جداً ، ولست أدري كيف تستطيع ناتاشا أن تحبني كل هذا الحب • واعتقد انني قادر على التضحية بحياتي في سبيلها ! الحق انني لم أكن أخشى

شيئاً حتى هذه اللحظة ، ولكننى الآن خائف • لست أدري فى أى طريق نقذف بأنفسنا ! رباه ، كيف يصح لانسان مخلص لواجبه أن تعوزه القدرة والقوة على تحقيق هذا الواجب ؟ ساعدنا انت على الاقل يا صديقنا ! انت الصديق الوحيد الذى بقى لنا ! لا تؤاخذنى اذا أنا اعتمدت عليك هذا الاعتماد كله • انتى أعتبرك رجلاً نبلاً الى أقصى حدود النبيل ، أفضل منى ألف مرة • ولكننى سأصلح من أمرى ، كن على ثقة من هذا ، وسأكون جديراً بكما •

وضغط يدي مرة أخرى ، وفى عينيه أشرقت عاطفة طيبة كريمة • كان يمد الى يده فى كثير من الثقة ، ويعتقد اعتقاداً راسخاً بأننى صديقه !

وتابع كلامه يقول :

— وستساعدنى هى على اصلاح أمرى • ثم انه لا ينبغي أن يكون رأيك فينا شيئاً جدياً ، ولا تسرف فى الحزن علينا • فان أملى كبير رغم كل شيء ، وستتحرر من كل الهموم المادية • مثلاً ، اذا لم تنجح روايتى (ولا أكتمك أنه خطر على بالى أن هذه الرواية سخيفة ، وانما حدثتك عنها الآن لأعرف رأيك لا أكثر) أقول اذا لم تنجح روايتى فأنى أستطيع ، اذا اقضى الأمر ، أن أعطى دروساً فى الموسيقى • أنت لاتعلم انتى قدير فى الموسيقى ، فاعلم الآن ذلك • ولن أستحي أن أعيش من هذا العمل ، ان آرائى بهذا الصدد « عصرية » جداً • أضف الى هذا أننى أملك كثيراً من التحف الثمينة وأدوات الزينة وهى لا تفيدنى فى شيء فسأبيعها ، ومنستطيع أن نعيش بثمرتها مدة طويلة • ثم انتى فى أسوأ الاحتمالات ، أستطيع أن أعين لوظيفة فى الدولة ، وسيُسر أبى لهذا سروراً عظيماً ، فهو يحضنى دائماً على الانتماء الى وظيفة من الوظائف ، وأنا أرفض بدعوى ان حالتى الصحية لا تساعدنى على ذلك (وقد تقدمت

فعلاً بطلب) • فاذا رأى ان الزواج قد أقادني ، وجعلني عاقلاً رصيناً ،
وادخلني الوظيفة ، سره ذلك ، فغفر لي •

- ولكن ، يا ألكسى بتروفتش ، هل فكرت في القضية القائمة الآن
بين أبيك وأبيها ؟ ثم هل فكرت فيما سيجري هذا المساء في بيت أهلها ؟
قلت ذلك وأنا أومىء الى ناتاشا التي امتنع لونها عند سماع هذا
الكلام حتى وكأنها ميتة • كنت بلا شفقة ولا رحمة •

- نعم نعم ، انك على حق • الامر فظيع • لقد فكرت في هذا قبل
الآن ، وتأملت كثيراً ، وعذبنى ضميري • ولكن ما العمل ؟ انك على حق ،
ليت أبويها ، على الاقل ، يفران لنا ! آه لو تعلم كم أحبهما ! انهما لي
بمشابة الأهل ، وانظر كيف أكافهم ! آه من هذه الدعاوى
وهذه القضايا ! لا تستطيع أن تتصور قسوة هذه الأمور علينا
الآن ! ولماذا يتخاصمون ! اتنا متحابون جميعاً ، ومع ذلك تتخاصم ! ينبغي
أن تتصالح ، وألا نعود الى ذكر هذا الموضوع أبداً ! هذا ماكنت أفعله
لو كنت في مكانهم • ان ماتقوله يخيفني • ناتاشا ، انها فظيعة هذه المؤامرة
التي تدبرها ، وقد قلت لك ذلك من قبل ، وانت التي تلحين وتصرفين :
ولكن اسمع يا ايفان بتروفتش ، لعل هذه الامور جميعها أن تنحل على
خير مانحب • ما رأيك ؟ سوف يتصالحون أخيراً ! ونحن الذين سنعمل
لذلك • هذا ماسيحدث حتماً ! لن يقاوموا طويلاً ازاء حبنا • قد يلغوننا
الآن ، ولكننا ، نحن ، سنظل نحبهم ، ولن تطول مقاومتهم بعد ذلك •
ان أبى ذو قلب طيب في بعض الاحيان ، لا يستطيع أن تتصور الى أى
حد ! وهو في بعض الظروف يقدر الامور قدرها ، رغم مظهره القاسي •
ليتك رأيته اليوم وهو يخاطبني ويسدى الى نصائحه ، اذن لعرفت مدى
رقته ونعومته • وههنا ذا في هذا اليوم نفسه أعصى ارادته ! لشد مايؤلني
هذا ! وما السبب في هذا كله ؟ أفكار خاطئة استقرت في ذهنه • جنون •

لمو قد نظر الى ناتاشا مرة واحدة ، وجالسها نصف ساعة ، اذن لوافق على
زواجنا موافقة تامة •

قال أليوشا ذلك وهو يلقي على ناتاشا نظرة حب رقيق ملتهب •

وتابع يقول :

— طالما تخيلت ، فى لذة ونشوة ، انه متى رآها أحبها ، وانها
ستقتنهم جميعاً بلا استثناء • ما من أحد منهم رأى فتاة مثلها فى حياته •
ان أبى يظن أنها بنت مأكرة متلاعب • • على أنا ان أرد اليها اعتبارها ،
وسأفعل ذلك ! آه يا ناتاشا ، ان كل الناس يحبونك ، كل الناس ، وليس
هناك أحد يستطيع أن لا يحبك • • أحيينى أنت يا ناتاشا ، رغم اننى
لا أستحقك ، انت تعرفين من أنا على كل حال • ناتاشا ، ليس بيننا وبين
السعادة الا قليل • لا ، لا ، اعتقد ان هذا المساء سيجلب ، لنا جميعاً ،
السعادة والسلام والوئام ! بورك هذا المساء ! أليس كذلك يا ناتاشا ؟
ولكن ماذا دهاك يا ناتاشا ؟ رياه ، ما بك يا ناتاشا ؟

كانت شاحبة شحوب الاموات • كانت تحديق فى أليوشا طوال
الوقت ، وهو يتحدث ويطنب فى الحديث • كانت نظرتها تزداد قلقاً
وسكوناً ، وكان وجهها يزداد شحوباً واصفراراً • حتى لقد تراءى لى انها
أصبحت فى آخر الامر لا تصغى الى الحديث ، كأنها فى غيبوبة • فلما
صاح بها أليوشا كانت كمن يصحو من غيبوبة على حين فجأة ، فاذا هى
تعود الى نفسها ، وتتنظر حولها ، ثم تهرع نحوى بقعة ، وتخرج من
جيبها رسالة تمدّها الى ، كأنها تحاول أن تخفى ذلك عن أليوشا • كانت
الرسالة بعنوان أهلها ، مؤرخة بتاريخ الامس ، وقد نظرت الى ، وهى
تناولنى الرسالة ، نظرة ملحاحاً ، كأنها تحاول بهذه النظرة أن تتعلق
بى : كان فى وجهها يأس هائل ، لن أنسى فى حياتى هذه النظرة

الفضيحة • واستبد بي الخوف أنا أيضاً ، ورأيت انها في هذه اللحظة انما
تشر بهول ما أقدمت عليه • وحاولت أن تقول لى شيئاً ، بل لقد بدأت
بالكلام ، ولكنها أغمى عليها فجأة ، واستطعت أن أمسك بها قبل أن تقع ،
وامتقع لون أليوشا رعباً ، وأخذ يحك صدغها ، ويقبل يديها وشفتيها •
وبعد دقيقتين أو ثلاث دقائق عادت الى شعورها • كانت العربية التي جاء
بها أليوشا تقف غير بعيد منا ، فنادها أليوشا ، فلما استقرت نأشاً في
العربة ، تناولت يدي كالمجنونة وسقطت على أصابعي من عينيها دمعة
محركة • وتحركت العربية • ظلت في مكاني مدة طويلة أتابع العربية
حتى غابت عن نظري • في هذه اللحظة ماتت سعادتي كلها ، وتحطمت
حياتي • شعرت بذلك في ألم حاد • • وعدت ادراجي ببطء ، الى
العجوزين • كنت لا أعلم ماذا سأقول لهما ، ولا كيف أدخل عليهما •
كان فكري مخدراً ، وكانت ساقاي تترنجان تحتى •
تلكم هي قصة سعادتي كلها • هكذا انتهى حبي • وسأعود الآن
اكمل قصتي التي قطعنها •

الفصل العاشر



موت سميث بأربعة أيام أو خمسة ، ذهبت الى
غرفته أسكنها • كنت قد شعرت خلال ذلك
النهار كله بحزن لا يطاق • كان الجو قائماً بارداً •
وكان يهطل ثلج رطب يمازجه مطر • وفي المساء
فحسب ، ظهرت الشمس في طرفة عين ، وانسل أحد أشعتها الى غرفتي
انسلا لا يحدوه حب الاستطلاع من غير شك • وبدأت أندم على اني
هجرت منزلي • كانت الغرفة مع ذلك واسعة ، ولكنها واطئة ، مدخنة ،
تفوح فيها رائحة الهواء الفاسد ، وكانت فارغة فراغا مزعجاً ، رغم وجود
بعض الأثاث • منذ تلك اللحظة شعرت اني سأفقد في هذا المنزل ما بقي
لي من عافية • وقد تحقق ذلك •

قضيت الصباح كله في عراك مع أوراقى أصنفها وأرتبها • وكنت قد
نقلتها في كيس الوسادة لأننى لا أملك حقيرة ، فتكومت واختلطت • حتى
اذا انتهيت من ترتيبها جلست للكتابة • كنت في ذلك الوقت ما أزال
بسيل كتابة روايتى الكبيرة • الا اننى لم أجد فى نفسى ميلاً الى العمل •
كان ثمة هموم أخرى تتزاحم فى فكرى •••

رمى القلم ، وجلست قريباً من النافذة • كان المساء يهبط ،
وازداد شعورى بالحزن • وهاجمتى أفكار سود شتى • لقد تراءى لى
دائماً أننى سأنتهى فى بطرمبرج الى القناء ، وكان الربيع يقترب ، فبدأ
لى أننى سأتعش وأحيا من جديد منى خرجت من هذه القوقعة الى الهواء

الطلق ، متى تشقت الرائحة الطرية ، رائحة الحقول والغابات • اننى لم أر الحقول والغابات منذ مدة طويلة ! وخطر على بالى ، فيما خطر ، أن من الافضل أن أنسى نسياناً تاماً كل ما كان ، وكل ما عشته فى هذه السنين الاخيرة •• أن أنسى كل شىء ، أن أجدد روحى ، وأستأنف حياتى بقوى جديدة • كنت أحلم بهذا ، وأتظر أن أبعث بعثاً جديداً • قلت فى نفسى « أذهب الى مستشفى من مستشفيات المجانين عند الاقتضاء ، حتى يتحرك كل شىء فى الدماغ ويعود الى مكانه ، ثم أشفى • » كان بى ظمأ الى الحياة ، وكنت أوّمن بالحياة • ولكننى أتذكر الآن اننى ماكدت أفكر فى هذا حتى أخذت أضحك ، وسألت نفسى : وبعد خروجى من مستشفى المجانين ، ماعسانى فاعلاً ؟ أليس كتابة روايات ، دائماً •

هكذا كنت أحلم وأتألم ، وكان الوقت أثناء ذلك ينقضى • وكان الليل يهبط • ولقد كنت فى ذلك المساء على موعد مع ناتاشا • لقد أرسلت الى الليلة البارحة بطاقة تدعونى فيها الى المجيء اليها • فلما تذكرت ذلك قفزت من مكانى ، وأخذت أهيب نفسى • كان بى على كل حال رغبة ملحة فى أن أتزع نفسى من هذا المنزل بأقصى سرعة ممكنة ، ولو الى أى مكان ، تحت المطر ، فى الثلج الموحل •

وكنت كلما تكاثفت الظلمة أشعر أن غرقتى تزداد اتساعاً • وتخيلت اننى ، فى كل ليلة ، فى هذا الركن ، سأرى سميث : أنه سيكون جالساً يحدق فىّ كما كان يحدق فى آدم ايفانوفتش ، بالمقهى ، وآزور بين قدميه • وفى هذه اللحظة تماماً ، وقع حادث هزنى هزاً قوياً •

ينبغى أن أكون صريحا على كل حال : لعل هذا أن يكون راجعاً الى احتياج أعصابى ، الى هذه الاحساسات الجديدة فى المسكن الجديد ، الى هذه الكتابة الاخيرة ؟ المهم على كل حال اننى قد أخذت أعانى متى

اقرب المساء هذه الحالة النفسية التي تعشاني كثيراً في الليل ، في أيام مرضى هذه ، هذه الحالة التي أسميها « ذعراً غيبياً » . انها أضنى أنواع الخوف وأكثرها تعذيباً للنفس . هي خوف من خطر لا أستطيع أن أحده أنا نفسي ، من هلاك لا يمكن تصوره ، ولا وجود له في طبيعة الاشياء ، لكنه قد ينتصب أمامي الآن ، في هذه اللحظة نفسها ، مستهتراً بجميع حجج العقل ، كواقع لا يمكن دفعه ، مخيف جهنمي فظيع . هذا الخوف يشتد ويقوى في العادة شيئاً بعد شيء رغم جميع ما يخلص اليه العقل من نتائج ، حتى ان الفكر ينتهي اخيراً ، مع انه في مثل هذه اللحظات قد يكتسب مزيداً من الصفاء والوضوح ، الى ان يفقد كل قدرة على معارضة الاحساسات ومقاومتها ، فاذا المرء لا يصفى اليه واذا الفكر عاجز . وهذا الازدواج يزيد ما يشعر به المرء من قلق مذعور يتوقع شيئاً رهيباً . اغلب ظني ان هذه الاحوال هي بعض ما يشعر به اولئك الذين يخشون عودة الموتى . الا ان غموض الخطر كان يقوّى عذابى وانا فيما انا فيه من قلق .

اذكر اننى كنت ملتفتاً الى الحائط اتناول قبعتي من على المنضدة ، حين خطر على بالى ، فجأة ، في تلك اللحظة تماماً ، اننى متى التفت الى الوراء فسأرى سميت حتماً ؛ انه سيفتح الباب اولا في رفق ، وسيظل في العتبة يجيل النظر في الغرفة ، وانه سيدخل بعد ذلك صامتاً في هدوء ، خافض الرأس ، وسيقف أمامي يتفرسنى بعينيه القلقتين ، ثم يأخذ يضحك منى ، على حين بغتة ، ضحكة صامتة طويلة ، مكشراً عن لثة ليس فيها اسنان ، وان جسمه سيهتز من هذه الضحكة اهتزازاً يستمر مدة طويلة .

وارتسم هذا المشهد في خيالى ، على حين فجأة ، صورة واضحة دقيقة الى اقصى حدود الوضوح والدقة ؛ وفي الوقت نفسه رسخ في نفسي

اعتقاد لا يتزعزع ، اعتقاد جازم مطلق بأن هذا كله سيتحقق حتماً ،
 وانه واقع لا محالة ، بل انه قد حصل فعلاً ، ولكننى لا اراه لائى
 ملتفت الى الحائط ، وربما كان الباب 'يفتح الآن' . والتفت بسرعة : فاذا
 الباب يفتح فعلاً ، فى رفق ، وهدوء ، تماماً كما تصورت قبل لحظة .
 صرخت . ومضت مدة طويلة دون ان يظهر احد ، كأن الباب قد فتح
 من تلقاء نفسه . وفجأة ظهر فى العتبة مخلوق غريب : بدا لى فى هذه
 العتمة ان عينيه تحدقان فىّ بالحاح ولجاجة ، فسرت فى جسمى كله
 قشعريرة باردة . وفيما انا فى هذا الذعر الهائل رأيت ان الزائر طفلة ،
 طفلة صغيرة ، ولو كان الزائر سميت نفسه فلعلنى ما كنت لأذعر كل هذا
 الذعر الذى اتبأبنى لدى ظهور هذه الطفلة هذا الظهور الغريب فى
 غرفتى ، فى هذه الساعة ، فى مثل هذه اللحظة .

قلت انها فتحت الباب بهدوء كبير ، وببطء كبير ، كأنها تخاف ان
 تدخل . وبعد ان دخلت وقفت فى العتبة ، وتفرستنى طويلاً كأنها مصعوقة
 من فرط الدهشة ، واخيراً خطت نحوى خطوتين ، ووقفت امامى ، دون
 ان تبس بكلمة . وتأملتها من كتب . انها طفلة فى الثانية عشرة او الثالثة
 عشرة من عمرها قصيرة القامة ، نحيلة شاحبة كأنها ناهضة من مرض
 خطير ، وعيناها تلتزمان ببريق قوى . كانت تشد الى صدرها ، بيدها
 اليسرى ، « شالاً » مهترئاً مثقباً يغطى صدرها ، وهى ترتعد من برد
 المساء . كانت ملابسها مما يمكن أن يوصف حقاً بأنه أسمال خلقة .
 وكان شعرها الاسود الكثيف المنفوش يتهدل على كتفها خصلاً . وبقينا
 هكذا متسمرين ، دقيقتين أو ثلاث دقائق ، يتفرس كل منا الآخر .

سألتنى بصوت اجش لا يكاد يُسمع ، كأن صدرها او حلقها يؤلمها:

— اين جدى ؟

فتبدد ، لدى هذا السؤال ، كل الذعر الغيبي الذي كنت اشعر به •
انها تسأل عن سميت • ما هي اذن آثاره تظهر •

— جدك ؟ مات منذ مدة !

قلت ذلك دون تبصر ، وسرعان ما ندمت على هذا الجواب • ظلت واقفة على وضعها نفسه مدة دقيقة تقريبا ، ثم اذا هي ، فجأة ، تأخذ ترتعد من قمة رأسها الى اخمص قدميها ارتعاداً قويا عنيفا كأنها على ابواب نوبة • فأمسكتها لأمنعها من السقوط • وبعد بضع دقائق تحسنت حالها ، ورأيت انها تبذل جهداً فوق طاقة البشر لتخفى عني اضطرابها • قلت :

— سامحني ، سامحني ، يا بنتي • لقد ابلغتكم الخبر بقسوة •• وقد لا يكون هذا الخبر صحيحا يا بنتي المسكينة !•• عمن تبحثين ؟ عن العجوز الذي كان يسكن في هذا المنزل ؟

فدمدمت تقول في جهد ، وهي تنظر الى قلقة :

— نـنـنـنـنـنـن •

— اذن هو •• هو الذي مات •• ولكن لاتحزني يا صغيرتي • لماذا لم تجيئي قبل هذا الوقت ؟ ومن اين تجيئين الآن ؟ لقد دفنوه امس ••• لقد مات فجأة ، بغتة •• انت اذن حفيدته ؟

لم تجب البنت على اسئلتى هذه المضطربة السريعة ، بل دارت دون ان تنبس بكلمة ، وخرجت من الغرفة بهدوء • كنت من فرط الاضطراب بحيث لم أمنعها من الخروج ، ولم أطرح عليها أسئلة أخرى • وتوقفت مرة اخيرة في العتبة ، والتفتت نحوي نصف التفاته لتقول :

— وآزور ايضاً مات ؟

— نعم ، آزور ايضاً مات •

وبدا لى سؤالها عجيبياً ، لكأنها مقتنعة بأن آزور لا بد ان يموت هو
والعجوز فى وقت واحد • وبعد ان سمعت جوابى ، خرجت من الغرفة
دون ضجة ، واغلقت وراءها الباب فى كثير من الهدوء •

وبعد دقيقة ، هزعت وراءها ، وأنا ألوم نفسى على اننى تركتها تمضى ،
كانت قد خرجت فى سكون تام ، حتى اننى لم اسمع فتح الباب الثانى المثل
على السلم ، فقدرت انها لم تخرج بعد ، فوقفت عند المدخل اصيح
بسمعى • ولكن كل شىء كان هادئاً ، وما من صوت يسمع ، الا صرير
باب يخلق فى الطابق الأسفل ، ثم يعود كل شىء الى الصمت •

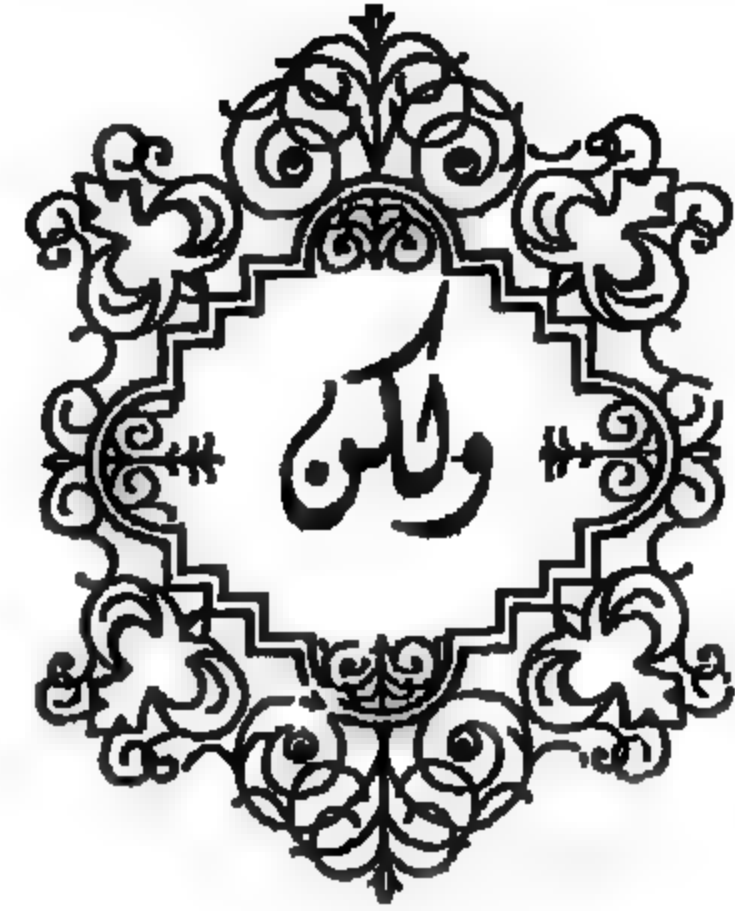
وهبطت على السلم بسرعة • كان السلم بين الدور الخامس والدور
الرابع يدور حلزونياً ، ثم يمضى بعد ذلك مستقيماً • وكان مظلماً قذراً ،
أسود ، كسائر السلالم التى نراها فى هذه العمارات من العاصمة ، هذه
العمارات المقسمة الى منازل صغيرة • وكان فى هذه اللحظة مظلماً ظلمة
تامة ، فلما وصلت الى الدور الرابع وانا اتلمس طريقى تلمساً ، توقفت
كأنما اعتقدت فجأة ان هاهنا ، عند المدخل ، شخصاً يختبئ عني ، فأخذت
أتقراه بيدي • كانت البنت هنالك فعلاً ، فى الركن تماماً ، مسندة وجهها
الى الحائط ، تبكى فى صمت •

— اسمعى ، ما الذى يخيفك؟ هل أخفتك الى هذا الحد؟ انها غلطى •
لقد تكلمت عنك جدك وهو يموت • • كانت آخر كلماته عنك • • ثم لقد
بقيت كتبه عندي • انها لك طبعاً • ما اسمك يا بنيتى؟ أين تسكنين؟
الشارع السادس • •

ولكنى لم أتم كلامى ، فقد انطلقت من صدرها صرخة مذعورة ،

كأنها خافت ان اعرف أين تسكن ، ودفعتنى بيدها الصغيرة النحيلة
المعروقة ، وأسرعت تهبط السلم . وتبعتها . كنت لا أزال أسمع وقع
أقدامها تحت . . وفجأة لم أعد أسمع وقع أقدام . وحين ففزت الى
الشارع ، لم تكن هنالك . وبعد ان ركضت بسرعة حتى « شارع
الصعود ، أدركت أن البحث عنها عبث : لقد اختفت . قلت فى نفسى لعلها
إختبأت فى مكان ما وهى تهبط السلم .

الفصل الحادى عشر



يا ان وضعت قدمى على رصيف الشارع القذر ،
حتى اصطدمت فجأة برجل مستغرق فى حلم
عميق ، يسير مطرق الرأس بخطى سريعة •
فما كان أشد دهشتى حين نظرت اليه فاذا هو
العجوز اخمينيف • كان هذا المساء مساء المصادفات العجيبة • كنت أعرف
أن العجوز كان قبل ذلك بثلاثة أيام يعاني مرضاً ، وهأنذا ألقاه فجأة فى
الشارع ، فى مثل هذا الجو الرطب ! ثم انه لا يكاد يخرج أبداً فى
المساء ؛ ومنذ ذهبت ناتاشا ، أى منذ ستة أشهر تقريباً ، أصبح حبيس
البيت لا يبرحه أبداً ، وسراً بلقائى أكثر مما عهدت فيه من سرور حين
يلقائى ، سراً سروراً من عشر أخيراً على صديق يستطيع أن يشاركه
أفكاره • تناول يدي ، وضغطها بقوة ، وجرنى فى اتجاهه دون أن
يسألنى الى أين أنا ذاهب • كان ثمة شيء يشغل باله ، وكان مستعجلاً
قلقاً • قلت لنفسى : ترى أين يذهب ؟ وكان من الخطل أن أطرح عليه
هذا السؤال • فلقد أصبح شكاكاً الى أبعد حدود الشك ، حتى لقد يرى
فى أبسط سؤال أو ملاحظة غمزا مهيناً أو اساءة خطيرة •

ونظرت اليه بطرف العين : كان وجهه وجه مريض • لقد نحل
فى المدة الاخيرة نحولاً شديداً • ولاحظت انه لم يحلق ذقنه منذ ما يقرب
من اسبوع • كان شعره الذى ابيض تماماً ، يخرج من تحت قبعته

المشوهة فوضى ، ويتدلى خصلا طويلة على ياقة معطفه العتيق البالي •
و كنت قد لاحظت ان له لحظات غيبوبة : من ذلك أن ينسى في بعض
الاحيان انه ليس وحده في الغرفة ، فيأخذ يكلم نفسه ، ويحرك يديه
ببعض الاشارات • كان منظره اذ ذاك مؤلماً •

- قل لي يا فانيا • ماذا ورامك ؟ الى اين كنت ذاهباً ؟ اما انا فقد
خرجت لبعض الاعمال • كيف حالك ؟

- وأنت كيف حالك ؟ كيف تخرج وقد كنت مريضاً منذ زمن
قصير ؟

لم يجب العجوز على سؤالي ، وبدأ لي انه لم يسمنى •
- كيف حال آنا أندريفنا ؟

- بخير ، بخير •• ثم انها مريضة هي ايضاً •• لا ادرى ماذا بها ••
لقد اصبحت حزينة •• وهي تذكرك وتحدث عنك كثيراً • لماذا لا تأتي
الينا يا فانيا ؟ لعلك كنت آتياً الينا الآن ؟

ولكنه سألتني فجأة وهو يلقي على نظرة شك وحذر :
- ربما كان وجودي يزعجك ؟

كان العجوز قد بلغ من فرط الحساسية وسرعة التهيج انه لو جاءه
جوابي بأنني غير ذاهب اليهم الآن ، لعد الجواب اهانة فتركني على جفاء
حتما • فأسرعت أقول انني ذاهب اليهم حقاً ، لأزور آنا أندريفنا (كنت
اعلم مع ذلك انني متأخر ، وان وقتي قد لا يتسع للمذهب الى ناتاشا) •

- هذا حسن •• حسن جدا •

قال العجوز ذلك مطمئناً • وفجأة سكت وأخذ يفكر ، كأنه لم يتم
ما اراد قوله •

وبعد ذلك بأربع أو خمس دقائق كرر يقول :

— نعم هذا حسن •

قال ذلك على نحو آلى ، كمن يستيقظ من حلم عميق •

ثم اردف :

— هل تعلم يا فانيا ؟ لقد كنت لنا دائماً بمثابة ابن • لم يرزقنا الله ابناً ، انا وآنا آندريفنا ، فأرسلك إلينا لتكون لنا بمنزلة الابن • هذا ماخطر على بالي دائماً • • نعم • ولقد كان سلوكك معنا دائماً سلوك الابن البار الذى يحترم ابويه ويحبهما • رضى الله عنك يا فانيا كما نرضى عنك كلانا ، وكما نحبك • • نعم !

واخذ صوته يرتجف ، وانتظر ما يقرب من دقيقة •

— نعم • • • هل كنت مريضاً يا فانيا ؟ لماذا لم تأت إلينا طوال

هذه المدة ؟

فقصصت عليه قصة سميت ، وقلت ، على سبيل الاعتذار ، ان هذه المسألة هي التى شغلتنى ، واننى عدا ذلك كنت على وشك ان أمرض ، وان هذه المتاعب كلها هي التى حالت بينى وبين قطع هذه المسافة البعيدة الى فاسيلي اوستروف لزيارتهم (فى فاسيلي اوستروف انما كانوا يسكنون فى ذلك الوقت) • وكاد يفلت من لسانى أننى قد اتيج لى مع ذلك ان أزور ناتاشا ، لكننى فطنت فتوقفت •

وقد اهتم العجوز كثيراً بقصة سميت ، واصفى إليها باهتمام شديد • ولما علم ان مسكنى الجديد أرطب من مسكنى القديم وربما كان أسوأ منه أيضاً ، وان أجرته ستة روبلات ، غضب غضباً شديداً • لقد أصبح سريع الغضب نافد الصبر • وكانت أنا آندريفنا هي الوحيدة التى تستطيع أن تهدىء من روعه ، فى بعض الأحيان لا فى جميع الأحيان •

صرخ فيما يشبه الكره :

— هم .. هل هذا من الأدب يا فانيا .. لقد أوصلك أدبك الى هذا المسكن الحقير ، وسيوصلك يوماً الى المقبرة .. قلت لك هذا منذ زمان ، تنبأت به منذ مدة طويلة ! وماذا جرى لصاحبك ب .. أما يزال يكتب نقداً ؟

— لقد مات مصدوراً .. تعرف ذلك .. اظن اننى ذكرت لك هذا الامر ..

— مات .. هم .. مات .. هذا طبعى .. هل ترك شيئاً لامرأته وأولاده ؟ لقد ذكرت لى انه كان متزوجاً .. لماذا يتزوج مثل هؤلاء الناس ؟

— كلا ، لم يترك شيئاً

فهتف فى حنق كأن الامر يتصل به اتصالاً وثيقاً ، كأن المتوفى ب .. اخوه :

— طبعى .. لم يترك شيئاً ، لم يترك شيئاً أبداً .. هل تعلم يا فانيا أننى أدركت منذ زمان ، منذ الوقت الذى كنت لا تكل فيه عن كيل الثناء له ، انه سينتهى الى هذا المصير ؟ هل تتذكر ؟ لم يترك شيئاً البتة ! الكلام سهل ! هم .. لقد نال المجد ، بل لعله نال مجداً خالداً ، ولكن المجد لا يطعم خبزاً يا بنى .. منذ ذلك الوقت تنبأت بكل هذا لك انت ايضاً يا عزيزى .. كنت اهتمك على نجاحك فى الادب ، ولكننى كنت بينى وبين نفسى اوجس شراً .. اذن لقد مات ب ..؟ وكيف لا يموت ؟ ان الحياة جميلة ، وهذا المكان جميل .. انظر !

قال ذلك وأشار بحركة من يده سريعة غير مقصودة ، الى فضاء الشارع يملؤه الضباب، وتيره اشعة القناديل ضعيفة مهتزة ، والى البيوت القذرة ، والى بلاط الارصفة يلتصق من الرطوبة ، والى المارة النائمة

عظامهم من فرط النحول المتقلصة وجوههم من شدة الهم ، الى كل هذه اللوحة التي تلفها سماء بطرسبرج قبة قائمة ملطخة بجبر اسود . وشارفنا الميدان . فأمامنا في الظلام يتصب تمثال نيقولا الاول ، تضيئه من الاسفل مصابيح الغاز ، وتقوم وراءه كاتدرائية القديس اسحاق كتلة كبيرة قائمة تخترق السماء المظلمة .

— قلت لي يا فانيا ان هذا الرجل كان رجلاً طيباً ، نظيفاً ، شريفاً ، ذا قلب نيل . هم . . انهم جميعاً هكذا ، هؤلاء الناس ذوو القلوب النيلة ، لا يجيدون الا أن يزيدوا عدد اليتامى ! ويخيل الى انه كان فرحاً بالموت . هه هه . . فرحاً بالذهاب الى أى مكان بعيد ، ولو الى سيريا . ماذا تريدان أيتها الصغيرة ؟

قال هذه العبارة الاخيرة فجأة اذ بصر على الرصيف بطفلة تطلب صدقة .

هي طفلة صغيرة نحيلة ، فى السابعة من عمرها ، او فى الثامنة على اكثر تقدير ترتدى اسمالا قدرة . كانت قدماها عاريتين فى حذاء مثقب ، وكانت تحاول ان تغطى جسمها الصغير المرتعش من شدة البرد بما يشبه معطفاً صغيراً مهترئاً اصبح منذ مدة طويلة قصيراً عليها . وكان وجهها النحيل ، المريض الشاحب ، ملتفتاً نحونا . كانت تنظر الينا خجلى لاتقول شيئاً ، وتمد يدها المرتعشة بنوع من الخوف والتردد . وحين رآها العجوز اخذ يرتعش من قمة رأسه الى اخمص قدميه ، واستدار نحوها مسرعاً ، حتى انها من فرط سرعته خافت ، فارتعدت ، وابتعدت .

— ماذا تريدان يا صغيرتي ؟ ماذا تريدان ؟ تريدان احساناً ! خذى ! خذى هذا لك .

قال ذلك وأخذ يبحث فى جيبه مرتجفاً من شدة الانفعال ، فأخرج

منها قطعتين من النقود أو ثلاثا ، الا انه رأى ذلك قليلا ، فأخرج محفظته وسحب منها ورقة روبل (هى كل ما وجدته) ووضع الورقة والنقود جميعاً فى يد السائلة الصغيرة •

— المسيح يحميك يا صغيرتى ، يا بنيتى !

ورسم اشارة الصليب عدة مرات على الطفلة البائسة ، بيد مرتعشة • ولكنه انتبه الى وجودى فجأة ، ولاحظ اننى انظر اليه ، فقطب حاجبيه ، وسار بخطى سريعة •

واستأنف يقول بعد فترة طويلة من صمت غاضب :

— اننى لا استطيع يا فانيا ان احتمل منظر هذه المخلوقات الصغيرة البريئة ترتجف من البرد فى الشارع بسبب آباتها العلونين • ولكن أية أم ترضى لطفلتها مثل هذه الكريهة ان لم تكن هى نفسها بائسة ! لا شك ان هنالك ، فى الركن ، يتامى آخر ، ولعل هذه الطفلة كبراهم ، ولعل الأم مريضة هى نفسها • • هم • •

ليس هؤلاء الاطفال ابناء امير • • فى الارض يا فانيا أطفال كثيرون ليسوا ابناء امراء ! هم !

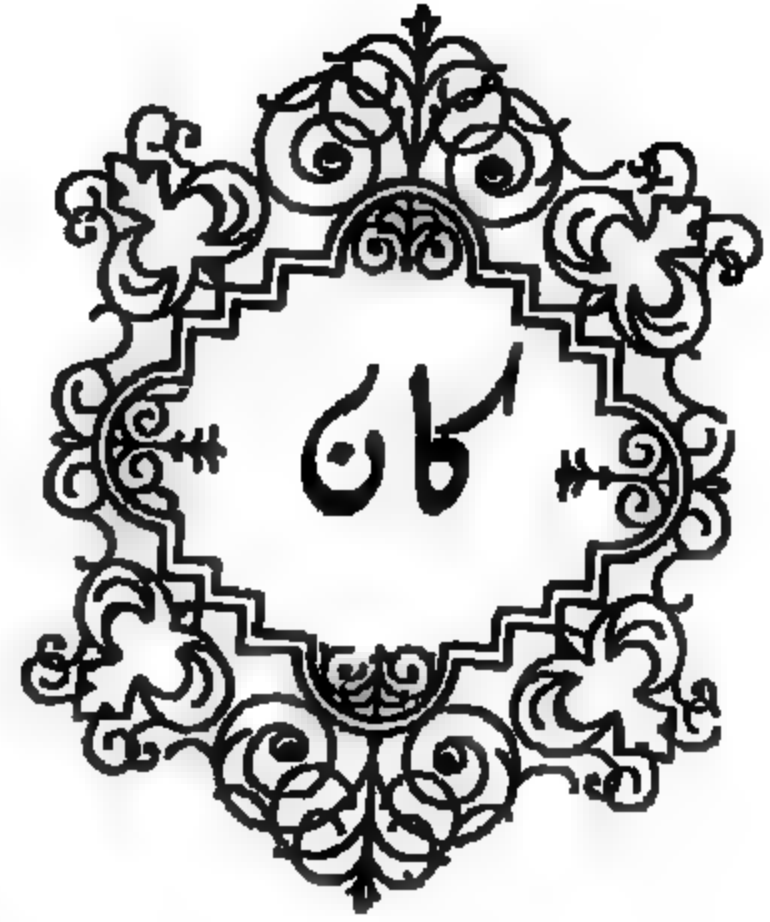
وصمت دقيقة ، كأنما اوقفه عن الكلام امر ما • ثم استأنف يقول مرتبكا بعض الارتباك :

— اسمع يا فانيا ، لقد وعدت آنا آندريفنا • • اعنى اتفقنا على أن تتبنى يتيمة • • اى يتيمة ، ولكن يجب ان تكون فقيرة طبعاً ، وان تكون صغيرة ايضاً ، تنبناها فتكون لنا • • فهمت ؟ والا قتلنا الضجر • • عجوزان يعيشان وحيدين • • هم • • ولكن اسمع : لقد عارضت آنا آندريفنا قليلا

فى هذا • كلمها أنت اذن فى الموضوع ، لا على لسانى طبعاً ، بل كأن الاقتراح يأتى منك على غير سابق علم لك بالامر • • برهن لها على ضرورة هذا • هل تفهم ؟ كنت اريد ان ارجوك فى هذا الامر منذ مدة طويلة ، عسى أن تقنعها ، اذ يؤمنى ان اطلب اليها ذلك بنفسى • ولكن حسبى سخافات ! مالى ولهذا كله ؟ ما شأنى وشأن ابنة صغيرة ! ما أنا فى حاجة الى هذا ولكننى قصدت من ذلك الى التسلى ، الى ان اسمع صوت طفل • ثم انتى ، والحق يقال ، انما اريد ذلك من اجل عجوزتى • فلأن يكون معنا طفلة صغيرة فذلك ادعى الى مرحها من ان تعيش معى وحدى • وتلك كلها تغاهات على كل حال • اسمع يا فاتيا ، لن نصل أبدا اذا نحن سرنا سيرنا هذا • فلنركب عربة • يجب ان لا نبتعد • ان آنا آندريقنا تنتظرنا •

وحين وصلنا الى آنا آندريقنا كانت الساعة قد بلغت السابعة والنصف •

الفصل الثاني عشر



الزوجان العجوزان يحب كل منهما الآخر حباً عظيماً • لقد ربط الحب وربطت الألفة الطويلة بينهما برباط لا ينفصم • على أن يقولوا سرجتش، في هذه المدة الأخيرة ، بل قبل ذلك في أسعد أيامه ، كان لا يظهر لآنا آندريفنا عاطفته كثيراً ، حتى لقد كان يعاملها أحياناً في خشونة ، ولا سيما أمام الآخرين • ان في أصحاب النفوس الحساسة ، المرفهة ، الرقيقة ، نوعاً من العناد في بعض الأحيان ، فترى أحدهم يأبى أن يعبر للشخص الذي يحبه عن حبه ، لا بين الناس فحسب ، بل وفي الخلوة أكثر مما بين الناس ، ويندر أن تفلت منه ملاطفة ، ولكنها ان افلتت كانت عنيفة قوية عارمة ، على قدر انحباسها مدة طويلة من الزمان • هكذا كان سلوك العجوز اخمينف مع عزيزته آنا آندريفنا منذ أيام الصبا • كان يحترمها ويحبها الى غير حد ، وكانت هي امرأة نبيلة القب تفيض شهامة ولا تعرف شيئاً غير أن تحب ، وكان يفضيه منها في بعض الأحيان أنها تسرف في التعبير له عن حبها • ولكن بعد ذهاب ناتاشا أصبح العجوزان كلاهما أرق مما كانا من قبل • أصبحتا يشعران ، والالام يحز في نفسيهما انهما الآن وحيدان في هذا العالم • ومع ان يقولوا سرجتش أصبح في بعض الأحيان مظلم النفس الى أبعد حد ، فانهما لا يستطيعان الآن أن يفترقا ، ولو ساعتين ، دون أن يشعرا بقلق وألم •

وقد اتفقا ضمناً على أن لا يتحدثا عن ناتاشا أبداً ، كأنها لم تكن ، حتى لقد كانت آنا آندريفنا لا تجرؤ أن تذكر ناتاشا أمام زوجها بكلمة ، رغم أن ذلك كان يؤلمها . انها في أعماق قلبها قد غمرت لناتاشا منذ مدة طويلة . وقام بينى وبينها نوع من الاتفاق : أن أقل انها أخبار ابنتها الغالية كلما زرتها .

كانت العجوز تمرض حين تنقطع عنها أخبار ناتاشا مدة طويلة ، حتى اذا جثتها ببعض الأنباء ، اهتمت بادق التفاصيل ، واخذت تمطرني بوابل من الاسئلة ، فكانت صحتها تتعش حيثئذ وتتحسن ؛ وفي ذات مرة كادت تموت رعباً حين علمت ان ناتاشا مريضة ، وأوشكت ان تذهب اليها لتعودها . الا ان ذلك صعب جداً . كانت في اول الامر ، حتى امامى ، تأبى ان تعبر عن رغبتها في رؤية ابنتها ، وكانت دائماً ، بعد احاديثنا عن ناتاشا ، وبعد ان تحصل منى على جميع الانبياء التى تريد معرفتها ، لا تنسى ان تحاول ضبط عواطفها ، فتزعم انها على اهتمامها بمصير ابنتها ، تعتبر جريمتها جريمة نكراء لا يمكن ان تغتفر . ولكن هذا كله كان تصنعاً . وكانت تبلغ من شدة القلق في بعض الأحيان أنها تأخذ تبكى ، مغدقة على ناتاشا أمامى أحراراً العواطف ، مطلقة عليها أعذب الاسماء ، شاكيةً يقولوا سرجشش مرراً الشكوى ، حتى لقد اخذت على مسمع منه تغمز ، في زفق وأناة ، من كبرياء الناس شاكيةً فسوة قلوبهم ، قائلة اننا لا نغفر الاساءات ، وان الله لا يغفر لمن لا يغفرون . الا انها لم تكن تذهب الى ابعد من هذا امامه . وفي تلك اللحظات ما يلبث العجوز ان يقسو ويظلم وجهه ، ويصمت مقطباً حاجبيه ، او يأخذ على حين فجأة يتحدث بصوت عال جداً وفي غير لباقة عن اشياء اخرى ، او يتركنا وحدنا ويذهب الى غرفته ، ويدع بذلك لآنا آندريفنا ان تسكب همها كله في صدرى دموعاً وتفجأً . وكان يذهب الى غرفته أيضاً عند كل زيارة من

زياراتي ، منذ يحييني ، ليتسع لي أن انقل الى آنا آندريفنا كل ما حمل من أنباء جديدة عن ناتاشا • وهذا ما فعله في ذلك اليوم ، فما ان دخلنا على آنا آندريفنا حتى قال :

— انا ذاهب الى غرفتي يا فانيا ، لاني مبلل اريد ان اغير ملابسي •
ابق انت هنا يا فانيا • لقد وقع له جادث في منزله ؛ قصّ عليها هذا الحادث • سأعود بعد قليل ••

وخرج مسرعاً ، يحاول ألا ينظر اليها ، كأنما يؤنبه ضميره على انه جمعتها • وفي مثل هذه الحالات ، لا سيما حين يعود اليها ، كان يبدو خشناً معي ومع آنا آندريفنا ، بل فظاً مزعجاً ، كأنه يلوم نفسه ويقرعها على ضعفها وتهاونها •

وقد أصبحت آنا آندريفنا في المدة الاخيرة لا تخفي عني شيئاً ولا تتصنع ولا تتكلف ، فلما خرج زوجها قالت :

— أرايت ؟ انه دائماً هكذا معي • وهو يعلم مع ذلك اننا ندرك كل حيله • لماذا يتكلف امامي ؟ أأنا غريبة عنه ؟ ولقد كان كذلك مع ابنته • ان في وسعه ان يغفر لها ، ومن يدرى ! فلعله يريد ان يغفر لها • انه يبكي في الليل • لقد سمعته باذني • لكنه يحافظ على مظهر الصلابة والقسوة • ولقد افقده الضعف صوابه •• قل لي يا عزيزي ، يا ايفان بتروفتش ، قل لي حالا : الى أين ذهب ؟

— من ؟ نيقولا سرجتش ؟ لا أدري : هذا ما كنت أريد أن أسألك

عنه •

— لقد ذعرت حين رأيته يخرج وهو مريض ، في هذا الجو السيء ليلاً •• قلت لنفسى لا بد انه خارج لأمر خطير • وهل ثمة ما هو أخطر من القضية التي تعرفها ؟ قلت ذلك لنفسى ولكنى لم اجرؤ ان أسأله •

لقد أصبحت لا أجرؤ ان أسأله عن شيء • يا الهى ، أصبحت بسببه ، وبسببها ، طائشة اللب • قلت لنفسى : لعله ذاهب اليها ، لعله قرر أن يصفح عنها • ذلك انه يعرف كل شيء ؛ انه على علم بكل ما يتعلق بها ، على علم حتى بأخر أنبائها • أنا مقتنعة بأنه يعرف جميع أخبارها ، رغم اننى لا افهم من اين يأتى بهذه الأخبار • كان فى مساء امس قلقاً جداً ، وما يزال كذلك الى اليوم • ولكن لماذا لا تقول شيئاً ؟ تكلم يا عزيزى • ماذا حدث ؟ لقد انتظرتك انتظار المهدى ، وترقبت حضورك من لحظة الى اخرى • اذن لقد هجر هذا الحقير ناتاشا ؟

قصصت على آنا أندريفنا كل ما اعرفه • لقد كنت صريحاً معها دائماً • أبلغتها ان ناتاشا وأليوشا سائران الى الانفصال حقا ، وان الامر فى هذه المرة أخطر من جميع الخلافات التى وقعت بينهما قبل ذلك • وذكرت لها ان ناتاشا أرسلت الى أمس رسالة تسألتنى فيها ان آتى اليها هذا المساء ، فى الساعة التاسعة ، واننى لهذا السبب لم أفكر فى المجيء اليهم اليوم ، وان نيقولا سرجتش هو الذى قادنى على غير ارادة منى ، وشرحت لها ، بتفصيل ، ان الموقف الآن حرج ، وان ابا اليوشا ، وقد عاد منذ خمسة عشر يوماً تقريباً ، لا يريد أن يسمع شيئاً ، وانه قرع اليوشا تقريباً عنيفا قاسياً ، وان الاخطر من هذا كله ان اليوشا لا يأخذ على خطيته شيئاً ، بل انه ، فيما يقال ، مغرم بها • واضفت ان ناتاشا ، فيما أقدر ، قد كتبت رسالتها الى وهى فى حالة اضطراب شديد ؛ فهى تقول فى رسالتها ان كل شيء مستقر هذا المساء ، والغريب ان تكتب الى أمس ترجونى ان احضر اليوم ، فى ساعة معينة هى التاسعة • لذلك لا بد لى ، حقا ، من الذهاب بأقصى سرعة •

اخذت العجوز تقول مضطربة :

— اذهب اليها يا عزيزى ، اذهب اليها • ستتاول قليلا من الشاى

متى عاد • آه اين السماور ؟ نعم سوف تناول قليلا من الشاي ، ثم
تنتحل عذراً مقبولا لتذهب • وغدا تعود حتما لتقص على كل شيء •
وارجوك أن تبكر • يا الهى ! أتكون هنالك مصيبة جديدة أسوأ من المصائب
السابقة ! قلبى يحدثنى بأن يقولوا مرجتش على علم بكل شيء • أنا
شخصيا اطلع على أشياء كثيرة بواسطة ماتريونا ، وماتريونا تطلع على هذه
الاشياء بواسطة آجاتى ، وآجاتى قرية مارى فاسلفنا التى تسكن
فى بيت الامير • • ولكنك تعرف كل هذا • لقد كان يقولوا فى
حالة غضب هائل ، حتى كاد ينفجر صارخا فى وجهى ، الا انه ندم على
فعلته ، فأبلغنى انه فى ضيق مالى • • كأنما ليزعم انه انما يصرخ لانه فى
ضيق مالى • ولكنك تعلم حالتنا المالية • وبعد الغداء ذهب لينام فالقيت
نظرة من خلال الشق (ان فى باب غرفته شقا لا يعرفه) ، فرأيت راکما ،
يا صديقى ، أمام صور القديسين يصلى • فحين رأيت ذلك خارت قواى
واصطكت ركبتى • لم يشرب قدح الشاي الذى اعتاد أن يشربه ، ولا تام
بعد الظهيرة على عادته ، بل تناول قبعته وخرج • وفى الساعة الخامسة لم
اجرؤ ان اطرح عليه اى سؤال ؟ ولو قد سألته عن شيء لصرخ فى
وجهى • لقد اعتاد أن يصرخ فى وجه ماتريونا غالبا ، وفى وجهى أنا
أحيانا • ومتى بدأ يصرخ تعطل ساقاى وأشعر كأن شيئا من قلبى يتزع •
شيء فظيع • وحين خرج ظلمت أصلى ، وأدعو الله ، ساعة كاملة ، أن
يلهمه الرشده وأن يرده الى الصواب • ولكن اين رسالة ناتاشا ، ارنيتها !

اريتها الرسالة • وكنت اعلم ان املها الحفى المفضل هو ان يرضى
اليوشا ، الذى تنعته تارة بالحقارة ، وتارة بأنه صبي ارعن غير ذى شعور ،
أن يتزوج ناتاشا ، وان يوافق أبوه ، الأمير بطرس الكسندروفتش ، على
هذا الزواج • وقد زلّ لسانها مرة امامى ، فأفصحت عن املها هذا ، وان
عادت عن كلامها بعد ذلك ، نادمة على انها قالت • ولكن ما كان لها ان

تجرو يوماً على اعلان أملها هذا أمام نيقولا سرجتش ، رغم انها تعلم ان العجز يشبه في ذلك ، حتى لقد لامها عليه ، في ذات مرة ، لوماً غير مباشر . اعتقد انه لو أيقن بأن هذا الزواج ممكن . . . للعن ناتاشا الى الأبد ، ولا تزورها من قلبه الى غير رجعة .

هذا ما كنا نعتقد به جميعاً : لقد كان ينتظر ان تعود اليه ابنته ، ويتمنى ذلك من أعماق قلبه ، ولكنه ينتظر ان تعود وحدها ، نادمةً على فعلتها ، نازعة من قلبها ذكرى اليوشا . كان ذلك هو الشرط الوحيد الذى يشترطه للصفح عنها ، وهو شرط لم يعلن عنه ، ولكنه في نظره شرط معقول ، ولا بد منه .

— انه ضعيف الإرادة ، هذا الصبي ، ضعيف الإرادة ، وضعيف الشعور . لقد قلت دائماً انهم لم يحسنوا تربيته ، ولد طائش . أيتها من اجل هذا الحب ؟ يا الهى ! ما عسى ان يكون مصير هذه المسكينة ! وماذا أحب في الأخرى ؟ اننى لا أفهم ؟

— سمعت من يقول انها فتاة فاتنة . ثم ان ناتاليا نيقولايفنا تقول هذا نفسه .

— لا تصدق ، انكم أيها الرجال الطائشون تفتشون بكل فتاة ، ولئن أطرت ناتاشا جمالها فما ذلك الا كرم منها وسماحة ، انها لا تعرف كيف تحتفظ باليوشا فتغفر له كل شيء ، ولكنها تتألم ! كم مرة خانها ، هذا اللص ، هذا المجرم ! آه يا ايفان بتروفتش ، لقد أطاش الصلف صوابهم جميعاً ! ليت عجوزى على الاقل يهدى من روعه ، ويصفح عن صغيرتى الحبيبة ويردها الى هنا ، فأستطيع أن أقبلها ، أن أنظر فى وجهها . هل نحلّت ؟

— نعم ، يا آنا أندريفنا .

- آه يا صديقي ! وقد نزلت بي نازلة يا ايفان بتروفتش ، بكيت طوال الليل وطوال النهار .. ولكتنى سأقص عليك ذلك فيما بعد ! كم مرة أوشكت ان اسأله ان يغفر لها ! ولكتنى لا اجرؤ على مكاشفته بذلك صراحة ، فألمت الماعا خفيا بعيداً . لقد خاتنى الجرأة ، مخافة أن يغضب فيلعنها الى الابد .. وانه لم يلغنها الى الآن ، واذا كنت أخشى شيئاً فهو أن يفعل ذلك . ويا ويلى اذا لعنها ! اذا لعن الاب ، فان الله يجازى . وهكذا أعيش كل يوم فى رعب دائم . وانت يا ايفان بتروفتش ، ألا تستحى ؟ نشأت فى بيتنا ، ودللنا تدليل الأبوين ولدهما ، ثم تتوهم انها فتاة فتاة ! ماذا أصاب عقلك ؟ فتاة ! وهذه ماريا فاسيلفنا تشتط أكثر من ذلك .. لقد أخطأت فدعوته مرة الى تناول القهوة أثناء غياب زوجى لأعماله طوال الصباح ، فقصت على جميع خفايا المسألة . ان الامير ، ابا اليوشا ، على علاقة أئيمة بكوتيسية . ويقال ان الكوتيسية تلومه منذ مدة طويلة على انه لم يتزوجها ، اما هو فيؤجل دائماً . وهذه الكوتيسية معروفة بسوء سلوكها ، منذ كان زوجها على قيد الحياة ، وحين مات زوجها سافرت الى الخارج وعاشت ايطالين وفرنسين ! ووجدت بعض البارونات ؟ وهنالك انما اصطادت أيضاً الامير بطرس الكسندروفتش ، وفى أثناء ذلك كانت تكبر ابنة زوجها ، زوجها الاول ، أحد تجار الخمور . وكانت الكوتيسية تبذر أموالها يمناً ويسرة ، وكانت كاترين فيدوروفنا يشتد ساعدها أثناء ذلك ، والمليونان اللذان خلفهما لها أبوها كانا يزيدان ، ويقال انها تملك الآن ثلاثة ملايين . قال الامير لنفسه على الفور : « هذه فرصة لتزويج أليوشا ، (انه ثاقب البصر ، ولا يدع الفرصة تفلت منه) . اما قريبها الكونت ، وهو رجل رفيع المنزلة يستقبل فى البلاط ، فهو كذلك موافق . ثلاثة ملايين ، ليست مزحة . بقى أن توافق الكوتيسية . ومضى الامير الى الكوتيسية يبلغها رغبته . وتدللت الكوتيسية وتمنعت .

هذه امرأة لا مبادئ لها ، فيما يقولون ، وهى وقحة • وقد سمعت ان الناس هنا لا يقبلون زيارتها فى بيوتهم • هنا شيء ، وفى البلاد الاجنبية شيء آخر • قالت : « كلا ، يا أمير ، أنت تتزوجنى ، اما ابنة زوجى فلن تكون امرأة أليوشا » • ويقال ان الفتاة تحب امرأة أبيها حبا عظيما ؛ انها تعبد لها عبادة ، وتطيعها فى كل أمر • يظهر أنها لطيفة ، انها ملاك ! ويعرف الامير كيف يخاطب الكوتيسية وكيف يؤثر فيها • قال لها : « اسمعى يا كوتيسية ، لقد أنفقت انت جميع اموالك ، وغرقت فى الديون ، فاذا تزوجت ابنة زوجك بأليوشا ، وكلاهما غر ساذج ، استطعنا أن نسيطر عليهما وان نجعلهما تحت وصايتنا ، فتحصلين على المال انت ايضا • مالك وللزواج بى ! ، • انه امرؤ مكر محتال ! • • ماسونى ! جرى هذا منذ ستة اشهر ، ولم تعزم الكوتيسية أمرها ، ولكن يقال الآن انهما سافرا الى فارصوفيا ، وانهما اتفقا هنالك • ذلك ما قيل لى • ان ماريا فاسيلفنا هى التى قصت على ذلك كله ، من البداية الى النهاية • وقد سمعته هى من مصدر موثوق • هذه هى المسألة اذن : مسألة مال ، مسألة ملايين ، أما ان تقول ان الفتاة فاتنة • • • فهذا ما لا أريد ان اسمعه !

أدهشنى ما روته آنا أندريفنا • انه عين ما سمعته من اليوشا نفسه منذ مدة قصيرة • وقد حلف وهو يقص على هذا انه لن يرضى لنفسه ، ما عاش ، ان يتزوج فى سبيل مال • لكنه قال ان كاترين فيدوروفنا قد أثرت فيه تأثيراً كبيراً • وقال ربما تزوج ابوه ايضا ، رغم تكذيبه الاشاعات ، خشية اغصاب الكوتيسية • وقد سبق أن قلت ان اليوشا يحب أباه كثيرا : كان يعجب به أشد الاعجاب ، وكان يعتز به أكبر الاعتزاز ، ويرى فيه عرافة بل نبياً •

وتابعت آنا أندريفنا تقول وقد ازداد استياؤها مما قلت فى حق خطية الامير الشاب المقبلة من ثناء :

- وليست هي من اسرة نبيلة ! ان ناتاشا ألق به منها • هي ابنة تاجر خمور ، وناتاشا من سلالة عريقة في حلبة النيل • ان عجوزي قد فتح بالامس (نسيت ان اقول لك ذلك) صندوقه الصغير وظل طوال السهرة جالساً امامي يقلب الاوراق القديمة التي تضم تاريخ اسرتنا العريقة •• كان في وجهه اهتمام وجد • وكنت مشغولة بحياكة الجرابات، لا اجرؤ على النظر اليه ؛ ولاحظ انني صامته فغضب ، ثم دعاني اليه وظل طوال الليل يشرح لي نسب الاسرة ، فاتضح اننا ، نحن اسرة اخنيف ، كنا من النبلاء منذ عهد ايفان الرهيب ، وان أهلي انا ، اسرة شوميلوف ، كانوا معروفين منذ أيام الكسي ميخائيلوفتش • والوثائق متوفرة لدينا ، ويشير الى ذلك تاريخ كرامازين • ترى من هذا ، يا عزيزي ، اننا لا نقل عن غيرنا من هذه الناحية • وحين اخذ العجوز يشرح لي ، فهمت على الفور ما يدور في رأسه • هو ايضا يجرحه ان يحتقروا ناتاشا • ليس لهم من فضل علينا الا الغنى • ليستهر هذا اللص ، بطرس الكسندروفتش ، في سبيل الثروة ما شاء له الاستهتار : ان جميع الناس يعرفون انه امرؤ قاس بشع كريبه • ويقال انه دخل اليسوعية سرا بفارصوفيا ، هل هذا صحيح ؟

- سخافات !

قلت ذلك وقد شاقني هذه الاشاعة بالرغم مني ، وشاقني اكثر من ذلك ان اعلم أن نيقولا سرجتش. قد قلب أوراق أسرته ، مع انه ما كان يتباهى بمحتده قبل ذلك ابدا •

وتابعت آنا اندريفنا تقول :

- انهم جميعاً حقراء ، ليس لهم قلوب • ولكن قل لي يا عزيزي ، كيف حالها هي ، حماتي ؟ أهى حزينة ؟ هل تبكي ؟ لقد حان موعد ذهابك

اليها ، ماتريونا ، ماتريونا ، يا بنت ال . . ! قل لى يا عزيزى : هل أهانوها؟
قل يا فانيا ، تكلم .

هل كان فى وسعى أن أقول شيئاً ؟ لقد انفجرت العجوز باكية
منتحبة . سألتها ما هى المصيبة الجديدة التى كانت تريد أن تقصها على منذ
قليل .

— آه يا عزيزى ، ما كفانا الذى نحن فيه من مصائب ، كأننا لم
نشرب الكأس حتى الثمالة ! لعلك تذكر ، يا صديقى ، او لعلك لا تذكر
أنه كان عندى نيشان ذهبى وضعت فيه صورة صغيرة لعزىزتى ناتاشا يوم
كانت هذه الملاك فى الثانية من عمرها . وقد عهدنا برسم هذه الصورة ،
أنا ونيقولا سرجتش ، الى رسام مرّ بالبلدة عرضاً . . أرى انك قد
نسيت ! وكان الرسام بارعا ، غنى برسم الصورة ، ووضع فيها كل حبه
وقلبه . كان لناتاشا يومئذ شعر ذهبى كأنه الزيد نعومة . وقد رسمها
مرتدية غلالة شفافة يرى من ورائها جسمها الصغير : كانت جميلة جمالا
لا يكمل المرء من النظر اليه . وقد طلبت الى الرسام يومئذ أن يضيف
اليها جناحين ، ولكنه أبى . هذا النيشان ، أخرجته من صندوقى ، بعد
هذه المشاكل الفظيعة التى مرت بنا ، وعلقته الى عنقى بحبل ، وصرت
أحمله مع صليبي ، وأخاف ان يبصره زوجى ، لانه كان قد أمر بأن
ترمى او تحرق جميع الاشياء التى يمكن ان تذكر بناتاشا . ولكن كان
لابد لى ، أنا ، من ان استطيع رؤية صورتها ، فكنت انظر اليها من حين
الى حين ، فأبكى ، وكان هذا البكاء يسرى غنى ، وكنت فى بعض الأحيان ،
حين اخلو الى نفسى ، التهم الصورة بالقبل التهاماً ، كأنما انا اقبل ناتاشا
نفسها ، وكنت اناديها بأرق الاسماء ، وارسم عليها اشارة الصليب فى كل
ليلة . كنت أتحدث اليها بصوت عال ، حين أكون وحدى ، وأطرح عليها
سؤالا فأخيل أنها تحيىنى ، فأطرح عليها سؤالا اخر . آه يا فانيا ، لشد

ما يؤسفني ان اقصر عليك باقى الحكاية • كان يسعدني انه لا يعرف من أمر النيشان شيئاً ولا لاحظ شيئاً • ولكتني تفقدت النيشان صباح الامس فلم أجده ! لم يبق الا الحبل معلقاً فى عنقي • كان النيشان قد انفصل عن الحبل ، ولا شك انه سقط • حزنت لهذا أشد الحزن ، وأخذت أبحث وأبحث ، ولكن دون جدوى • غاب النيشان ولم أعثر له على أثر • تساءلت أين عساه اندس ؟ وقلت لنفسى : لا شك انه سقط فى سريري ، فغاب بين ثيابه • ونبشت السرير وقلبه رأساً على عقب ، فلم أجده شيئاً ، وقلت : اذا كان قد سقط فى مكان ما ، فلا بد أن يعثر به أحد • ومن عسى يعثر به غيره هو ، وغير ماتريونا ؟ أما ماتريونا ، فلا ، لأنها مخصصة لى كل الاخلاص • • ماتريونا ، هلاً أتيت بالسماور ؟ قلت : واذا كان هو قد وجده ، فما عسى أن يقع ؟ وظللت لا أعمل شيئاً غير الانتحاب والبكاء ، ولا أستطيع أن أحبس دموعى • وأصبح نيقولا سرجتش أكثر رقة ولطفا فى معاملتى ، وأصبح الحزن يفيض فى وجهه حين ينظر الى ، كأنه يعرف لماذا أبكى ، فيرثى لحالى • عندئذ قلت لنفسى : كيف يمكنه أن يعلم ذلك ؟ لعله اذن قد عثر على النيشان فعلا فرماه من النافذة ؟ انه لا يتورع عن هذا • لا شك انه رماه ، وانه الآن حزين ندماً على انه رماه • عندئذ ذهبت الى فناء البيت أبحث عن النيشان مع ماتريونا ، ولكننا لم نجد شيئاً • لقد غاب النيشان تماماً • وقضيت الليلة كلها أبكى وأنتحب • كانت تلك هى الليلة الاولى التى لا أرسم فيها على ابنتى اشارة الصليب • آه يا عزيزى ! ان هذا نذير شؤم • وقد قضيت النهار كله أبكى بلا انقطاع • وكنت أنتظر وصولك كأنك رسول من السماء ، لعلك تواسينى على الاقل •

وأخذت العجوز تبكى بكاء مرأ •

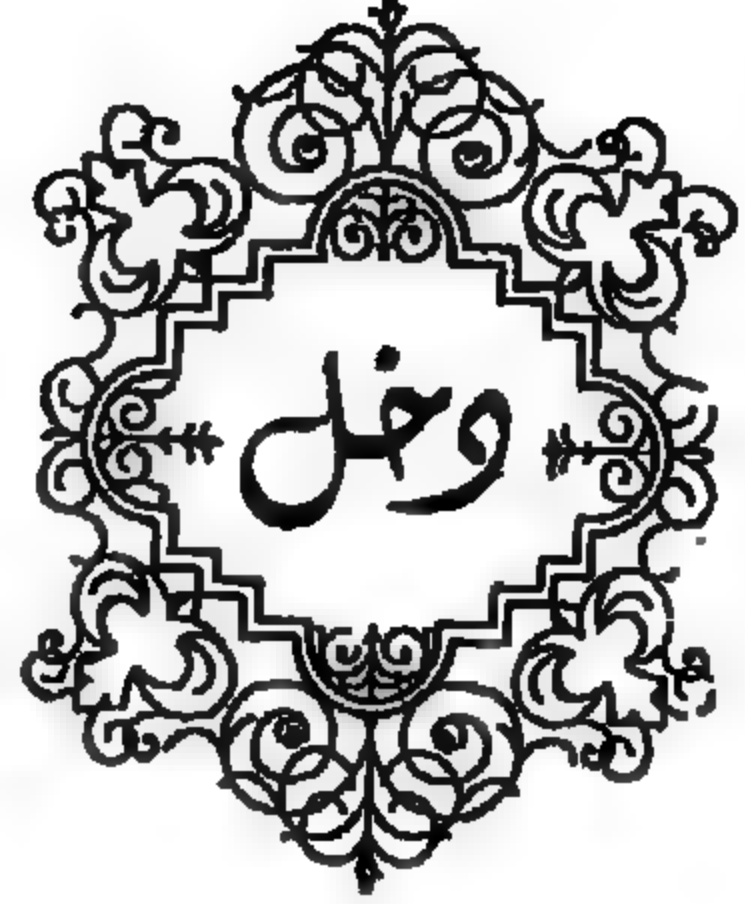
ثم استأنفت فجأة تقول ، وقد أشرقت فى وجهها سعادة :

— ها • • نست أن أقول لك : هل حدثك عن اليتيمة ؟

— نعم ، يا آنا آندريفنا • قال لى انكما فكرتما فى الامر طويلا ،
وانك وافقت على تبنى طفلة يتيمه ليس لها ابوان • هل هذا صحيح ؟

— انا لم افكر فى هذا ابدآ يا صديقى ، وانا لا اريد ايه يتيمه • •
لانهما ستذكرنا بحظنا التيس ، بشقاءنا • لا اريد احداً غير ناتاشا • ليس
لى الا ابنة واحدة ، ولن يكون لى غير ابنة واحدة • ولكن قل لى يا فانيا :
ترى ما معنى تفكيره فى تبنى طفلة يتيمه ؟ أترأه فكر فى ذلك ، مواساةً
لى ، لانه يرى دموعى ، أم ليطرد ذكرى ابنته من خياله طرداً تاما ويتعلق
بطفلة اخرى ؟ ماذا قال لك عنى ؟ كيف بدا لك ؟ قاتم الوجه غاضباً ؟
'هس • ها هو ذا يعود • • ستقول لى فيما بعد • لا تنس ان تعود غداً •

الفصل الثالث عشر -



العجوز ، فلقنا بنظرة مستطلعة ، كأنه كان خجلاً
من أمر من الأمور ، فقطب حاجبيه واقترب من
المائدة :

ـ أين السماور ؟ ألم يؤت بالسماور ؟

ـ بل ها هو ذا ، ها هو ذا •

لقد جاءت ماتريونا بالسماور منذ رأت نيقولا سرجتش يدخل عليها،
كأنها كانت تنتظر دخول سيدها حتى تضع السماور على المائدة • انها
خادمة عجوز مخلصه ، لكنها أكثر خادمت الأرض نزوات وانتقادات
وعناداً • كانت تخشى نيقولا سرجتش فتجسس لسانها امامه ، لكنها
لا تتخرج مع آنا أندريفنا ، بل تعاملها معاملة خشنة ، ولا تتورع من
اظهار طمعها في السيطرة على سيدتها ، منع كونها تحمل لها ولناتاشا حبا
عميقا صادقا • وكنت قد تعرفت الى ماتريونا هذه في اخمينفكا •

دمدم العجوز يقول بصوت خافت :

ـ كأنما ليس يكفي أن تكون ثياب المرء مبللة ، فيضنون عليه

بالشاي •

وما لبثت آنا أندريفنا ان غمزتني بعينها • كان العجوز لا يحتمل
غمزات الأعين هذه المختلصة ؛ ومع انه في هذه اللحظة حاول ان لا ينظر
اليها ، فقد كان واضحاً في وجهه انه ادرك ان آنا أندريفنا قد غمزتني في
هذه اللحظة •

وبداً فجأة يقول :

- لقد خرجت لبعض الشئون .. خرجت لمشكلة من هذه المشاكل السخيفة القدرة .. هل قلت لك انهم حكموا على ؟ ليس لدى أدلة ، فالأوراق اللازمة تعوزنى ، وقد جرى التحقيق بغير عدل ...

انه يتحدث عن القضية التى بينه وبين الامير . لقد كانت هذه القضية تسير ببطء ، وكانت تتطور الى غير مصلحة نيقولا سرجتش . وسكت لا أدرى بم أجيب ، فنظر المعجوز الى نظرة ارتياب . واستأنف يقول كأنما أغضبه سكوتنا :

- ثم ماذا ؟ الافضل ان تنتهى هذه القضية بسرعة . لن يجعلونى حقيراً ولو حكموا على بالمصاريف . ان ضميرى مرتاح ، وليقضوا بعد ذلك بما يشاءون ! على الأقل سأكون قد نفذت يدى من هذه القضية . قد يدمروننى ولكنهم ستركوتنى بعد ذلك وشأنى .. سأدع كل شيء ، واسافر الى سيبيريا .

لم تستطع آنا أندريفنا ان تحبس لسانها فاسرعت تقول :

- ولكن لماذا كل هذا البعد ؟

فأجاب المعجوز فى غلظة كأنما ساءه جوابها :

- ومم ؟ نحن هنا قريبون ؟

فقالت آنا أندريفنا وهى تلقى على نظرة قلقة :

- على كل حال .. من الناس ..

فصرخ وهو يلقي على وعلى زوجه نظرتة الغضبى :

- أى ناس ؟ اللصوص ؟ المتخربين ؟ الخونة ؟ هؤلاء يوجد منهم

فى كل مكان • لا تخافى • منجد منهم فى سيريا أيضاً • واذا شئت
ألا تأتى معى ، ففى وسعك أن تبقى هنا • لن أجبرك على شيء •
فهتفت المسكينة آنا أندريفنا :

— نيقولا سرجتش ، عزيزى ، أبقى هنا بدونك ؟ انت تعلم ان ليس
غيرك فى هذا العالم أح •••

وارتبكت ، فصمت ، وأدارت نحوى نظرة مذعورة ، كأنها تتوسل
إلى أن ادخل ، ان اسعفها ؛ وكان العجوز مهتاجا يخلج كل عضو من
أعضائه •

كان يستحيل ان يعارض • قلت :

— هذه فكرة جسنة يا آنا أندريفنا • ان الحياة فى سيريا ليست
سيئة الى الحد الذى يتصوره الناس • اذا نزلت المصيبة ، وكان لا بد لكم
من بيع اخنيكا ، فان مشروع نيقولا سرجتش يكون مشروعاً رائعاً ، انه
يستطيع ان يجد فى سيريا عملاً ممتازاً ، وعندئذ •••

— انت على الأقل يا ايفان تقول قولاً رصيناً • لقد فكرت فى الامر
طويلاً • سأترك كل شيء واسافر •

هنا صرخت آنا أندريفنا وهى تضرب كفاً بكف :

— هذا ما لم أكن اتوقعه • أأنت تقول مثله ايضاً يافانيا ؟ هذا ما لم
أكن اتوقعه منك انت ايضاً يا ايفان بتروفتش ••• لم تلق منا الا المحبة ،
والآن •••

— ها ها ها ! وماذا كنت تظنين اذن ؟ مم كنت تحسبين أن نعيش ؟
فكرى قليلاً ! لقد تبدد ما لنا ، وأوشك ان ينفد آخر كوبك نملكه ! ام
تراك ستطلين الى ان اذهب الى الامير بطرس الكسندروفتش اسأله العفو
والصفح ؟

فما ان سمعت العجوز اسم الامير حتى اخذت ترتجف ذعراً ، واذا بملعقتها التى كانت بيدها تسقط على صحنها فتحدث رنيناً •

وشعر اخنيف بحماسة ، وبفرح شرير عنيد ، فأخذ يقول :

— حقا هذا ما يجب أن أفعله ! أليس كذلك يا فانيا ؟ ألا يجب على
ان اذهب الى الامير ؟ لماذا السفر الى سيريا ؟ أليس من الأفضل ، منذ
الغد ، ان أرتدى أحسن ما عندى من ثياب ، وأن أصف شعرى ، وأن
أظهر فى أجمل حلة : تهىء لى آنا أندريفنا قميصاً جديداً (لا بد من
هذا حين يذهب المرء الى شخص عظيم كالأمير !) واشترى قفازات حتى
أكون فى أبهى زى ، وأمضى الى صاحب السمو أقول له : « سىدى الامير ،
يامن أحسنت الىّ وكنت لى خير سند وعضد ، يا أبت الرؤوف ، اغفر لى ،
واشفق على ، وهب لى من لدنك كسرة خبز ، لأن لى امرأة وأطفالاً
صغاراً ! ، أليس كذلك يا آنا أندريفنا ؟ أهذا ما تريدينه ؟

فقلت وقد ازداد ارتجافها :

— اه لا أريد شيئاً يا عزيزى • • وقد قلت ما قلت حماقةً وطيشاً •
عفوك اذا كنت قد أزعجتك • • ولكن لا تصرخ • •

يقينى أنه كان حين يرى دموع زوجه المسكينه وذعرها يحزن حزناً
شديداً ويتأثر أعظم التأثر ، ويقينى أنه كان أكثر تألماً منها ، الا أنه ما كان
يستطيع ان يملك زمام نفسه • وهذا ما يتفق فى بعض الاحيان لاشخاص
اوتوا نبل القلب وكرم النفس ، الا انهم عصيون ، فهم رغم كل ما فى
قلوبهم من نبل وكرم ينساقون مع حزنهم وغضبهم الى حد التلذذ بالحزن
والغضب ، محاولين ان ينفضوا ما فى نفوسهم مهما كلف الامر ، ولو
بالاساءة الى شخص برىء ، بل انهم ليفضلون ان يكون هذا الشخص
أقرب الناس اليهم • فالمرأة مثلاً تحتاج أحياناً الى الشعور بأنها شقية مذلة •

ولو لم يكن هنالك شقاء ولا اذلال • وهنالك كثير من الرجال يشبهون النساء في هذا ، ولو لم يكونوا من ضعاف الرجال ، ولا ممن يشبهون المرأة شبها كبيرا • ولقد كان العجوز يشعر بالحاجة الى التشاجر ، وان كان هذا يؤلمه أول من يؤلم •

اذكر ان فكرة خطرت على بالي حيث • تساءلت : ترى أليس من الممكن أن يكون منذ قليل قد قام بمحاولة من النوع الذي دار في خلد أنا أندريفنا ؟ من يدري ؟ لعل الله قد اوحى اليه بهذه الحطة ، فكان ذاهباً الى ناتاشا ، ثم عدل عن ذلك في الطريق ، أو لعل شيئاً قد وقع ، فتزعزع قراره ، فعاد الى بيته غاضباً ، مهاناً ، خجلاً مما شرع فيه ، ومما خالجه من عواطف ، يبحث عن شخص يصب على رأسه الغضب الذي ايقظه فيه ضعفه ، ويختار لهذا الغرض أولئك الذين يقدر انهم يشعرون بهذه الرغبات عينها ، وبهذه العواطف نفسها ، أو لعله ، وقد أراد أن يخفر لابنته ، قد تصور ماسيحيش في نفس عجوزته المسكينة من حماسة وفرح ، فلما أخفق في مشروعه كانت عجوزة أول من يتحمل نتائج هذا الاخفاق •

وحين رآها حزينة محطمة ، ترتعد أمامه حزناً ، تأثر تأثراً شديداً • وكأنه خجل من ثورته ، فكظم غيظه لحظة • وصمتا جميعاً ، وحاول ألا أنظر اليه • لم تدم هذه اللحظة طويلاً • فلقد كان لا بد له ان يتكلم مهما كلف الامر ، ولو بانفجار ، ولو بلعنات • فقال فجأة :

— اسمع يا فانيا • ان ما سأقوله يؤلمني ، وما كنت لأحب أن أقوله • ينبغي ان اتكلم بصراحة ، بلا لف ولا دوران ، كما يليق بكل رجل شريف مستقيم • هل تفهمني يا فانيا ؟ يسرنى ان تكون الآن هنا ، ولهذا اريد ان اتحدث بصراحة ، وذلك حتى يفهم الآخرون ان جميع هذه السخافات ، وهذه الدموع ، وهذه التهديدات ، وهذه الآلام ، تزعجنى

اخيراً • ان الشخص الذى انتزعته من قلبى ، ولعلنى اذ فعلت ذلك قد آلمت قلبى وأدميته ، لن يعود الى قلبى ابداً • نعم ، سأفعل ما قلته • اننى اتحدث الآن عما وقع منذ ستة اشهر ، هل تفهمنى يا فانيا ؛ ولئن كنت اتحدث عن ذلك الآن بمثل هذه الصراحة ، فلكى لا تخطئ التقدير يوماً فتسىء فهم كلامى (قال ذلك وهو يثبت فى نظراته الملهبة ويتحاشى نظرات زوجته المذعورة) • أعود فأقول : لا أريد بعد الآن هذه السخافات • ان الامر الذى يفضينى اكثر من كل شئ ، ويثير أعصابى هو ان الجميع يظنون ان من الممكن ان تخامرنى عواطف حقيرة مسكينة الى هذا الحد ، كاننى امرؤ غيبى تافه • • يظنون اننى اجن الآن المأ • كل هذا سخف • لقد انتزعت عواطفى القديمة ونسيتها الى الأبد • لم يبق لى من ذكريات ، كلا ثم كلا ثم كلا ! •

ونهض فجأة ، وضرب بيده على المنضدة ، فأخذت الاقداح ترن •
- نيقولا سرجتش ، الا ترحم آنا أندريفنا ؟ انظر ماذا تفعل بها •
قلت ذلك وقد نفذ صبرى ، ونظرت اليه فيما يشبه الاستياء • الا اننى ما زدت بهذا على ان اصب فوق النار زيتاً ، فانه ما ان سمع كلامى حتى قال وهو يرتجف ويمتقع لونه :

- لا ! لست ارحم احداً ، اذ ليس يرحمنى احد • لا ارحم احداً ، لانهم فى بيتى يحيكون المؤامرات على ، انا الذى تلوث شرفى ، فى سيل ابنة فاجرة ، خليفة بكل انواع العقاب واللعن •

- نيقولا سرجتش ، يا عزيزى ، لا تلعنها ! • • اعمل ما تشاء ، ولكن لا تلعنها !

فصرخ العجوز بصوت أقوى :

- بل سأل عنها ، لأنتى أنا الذى أٌهنت وتطلبون منى فوق ذلك أن .
 اذهب الى هذه الملعونة اطلب منها العفو والمغفرة ! نعم ، نعم ، هذا ما يُراد
 منى • انكم تعذبوننى بهذا كل يوم ، ليل نهار ، فى عقر بيتى ، بالدموع
 والاهانات والتلميحات السخيفة ! تريدون أن يرق قلبى ... اسمع
 يا فانيا : (قال هذا متوجهاً الىّ وهو يسارع فيسحب من جيبه ، بيد
 مرتعشة ، أوراقاً) . هذه خلاصات من الملف • انتى أنتى باننى لص ،
 محتال ، باننى سرقت الرجل الذى أحسن الىّ ! لقد 'نلم شرفى بسببها •
 خذ • أنظر أنظر ! •

وأخذ يسلف من جيب سترته أوراقاً شتى يرميها على المنضدة واحدة .
 بعد واحدة ، محاولاً أن يعثر بينها ، وهو يرتجف ويهتز ، على الورقة
 التى كان يريد أن يطلعنى عليها • غير أنه لم يجدها ، فنقد صبره ،
 فانتزع من جيبه كل ما وجدته فيها يده ، فاذا نحن نسمع ، فجأة ، رنين
 شيء ثقيل يسقط على المنضدة • فانطلقت من صدر آنا آندريفنا صرخة •
 كان ذلك الشيء هو النيشان الذى فقدته •

ما كدت أصدق عينى • وصعد الدم الى رأس العجوز ، فاحمر
 وجهه حتى صار كالارجوان • وارتعش • فوقفت آنا آندريفنا ، مكتفة
 ذراعيها ، وألقت على زوجها نظرة توسل وضراعة • كأن وجهها يشرق
 بأمل مشع • ما هذا الاحمرار الذى يصبغ وجه العجوز ، ما هذا
 الاضطراب ؟ لا ، انها لم تخطئ • لقد فهمت الآن كيف ضاع النيشان •

فهمت أن زوجها هو الذى وجده ، وأنه سرّ به ، وأنه لعله ارتعش
 فرحاً ، فأخفاه عن جميع الانظار ، وأنه خلا اليه خفية يتأمل وجه ابنته
 الحبيبة فى حب لا حد له دون أن يرتوى من النظر فيه ؟ وأنه لعله فعل
 ما فعلته الأم المسكينة ، فحبس نفسه يتحدث مع عزيزته ناتاشا ، ويتخيل

أجوبتها ، ويجيب عليها ، وانه ، فى الليل ، وقد أمضه القلق ، خنق تنهداته فى صدره ، وداعب الصورة المحبوبة وأغرقها بالقبل ، ودعا بالغفران لتلك التى يأبى أمام الجميع ان يراها ، ويصر على ان يلغنها •

— اذن ما زلت تحبها يا عزيزى !

بهذا هتفت أنا أندريفنا ، دون أن تستطيع كبح جماحها أمام هذا الاب الصارم الذى كان منذ دقيقة يلعن ناتاشا •

ولكنه ما ان سمع صرختها حتى لمع فى عينه غضب مجنون • فتناول النيشان ورماء بقوة على الارض ، واخذ يدوسه برجليه فى خنق محموم •

قال وهو يلهث لهاث من انقطعت انفاسه :

— لعنها الله ، لعنها الله لعنة أبدية ، أبدية ، أبدية •

فهتفت العجوز الطيبة تقول :

— يا الهى • يدوس ناتاشا ، ناتاشا ، يدوس وجهها الصغير ، يدوسه • طاغية ، صلب ، قاسى القلب ، مغرور !

فلما سمع العجوز امرأته ، توقف كالمجنون ، مذعورا مما فعله • وفجأة تناول النيشان من الارض ، وهرع يخرج من الغرفة • ولكنه ما ان سار بضع خطوات حتى سقط على ركبته ، واستند بيده الى أريكة امامه ، ثم أسقط عليها رأسه خائر القوى محطما •

كان ينتحب كطفل ، كامرأة • النجيب يكاد يشق صدره • لقد اصبح العجوز الرهيب ، فى طرفة عين ، أضعف من طفل • أصبح الآن عاجزاً عن اللعن ، وأصبح لا يستحي من أحد ؛ وها هو ذا ينفجر حباً ، فيغرق بالقبل ، على مرأى منا ، الصورة التى كان يدوسها برجليه منذ

دقيقة • ان الحب العنيف الذى يحمله لابتته والذى كظمه طوال هذه
المدة ينفلت الآن فى قوة لا تقاوم ، ويحطم كيانه كله •

هتفت أنا أندريفا تقول وهى تبكى ، وتنحنى على زوجها وتقبله :

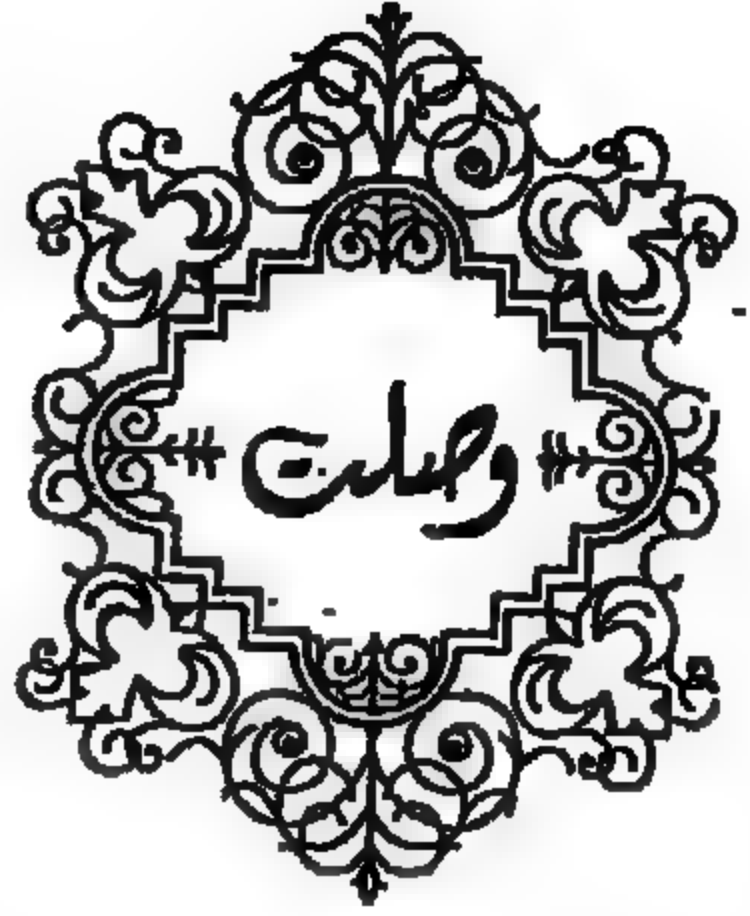
— اغفر لها ، اغفر لها ، ردها الى بيت ابويها يا عزيزى • وسيجزيك

الله فى يوم الحساب خير جزاء على تواضعك وتسامحك !

فصرخ بصوت أجش محتقن :

— مستحيل ، مستحيل • لن يكون هذا أبداً • لن يكون أبداً •

الفصل الرابع عشر



الى ناتاشا متأخراً ، فى الساعة العاشرة • كانت .
يومئذ فى فوتانكا قريب جسر سيمونوفسكى ، فى
الطابق الرابع من عمارة حقيرة يملكها التاجر .
كولوتوشكين • وكانت فى المدة الأولى التى أعقبت
ذهابها تسكن مع أليوشا فى منزل جميل ، صغير ، لكنه أنيق مريح ، غير
أن موارد الأمير الصغير مالبت أن نصبت ، فانه لم يعمل أستاذا للموسيقى ،
بل أخذ يقترض ، وأغرق نفسه فى ديون ثقيلة باهظة • وأنفق المال فى
تزيين منزله ، وفى تقديم الهدايا لناتاشا ؟ وكانت ناتاشا تحتاج على هذا
التبذير ، وتؤنبه ، وتبكي • وكان اليوشا ، العاطفى ، يقضى فى بعض
الأحيان أسبوعاً برمته يحلم فى الهدية التى سيقدمها لناتاشا ، ويتخيل
وقعها فى نفسها • كان يجعل من ذلك عيداً ، وينبشنى فى حماسة بما
سي عمله وبما يحلم به • وكان ازاء تقريع ناتاشا وبكائها يفرق فى كآبة
تبعث على الشفقة ، وكانا بعد ذلك يتخذان من هذه الهدايا موضوع ملامات
وأحزان ومشاجرات • ثم انه كان ينفق كثيراً من المال بغير علم ناتاشا ،
فقد كان رفاق السوء يجرونه الى أماكن مشبوهة يخون فيها ناتاشا مع
نساء بغايا • غير انه كان لا يزال يحب ناتاشا كثيراً ، بل لقد كان يحبها
حباً معذباً ، وكثيراً ما كان يأتى اليها مهدماً حزيناً يعلن انه لا يستحق
أصبح ناتاشا الصغير ، وانه فظ شرير ، وانه عاجز عن فهمها وأنه غير
جدير بحبها • صدق أليوشا • لقد كان بين الاثنين تفاوت عظيم • كان
هو يشعر أمامها بأنه طفل ، وكانت هى تعامله دائماً على انه طفل • كان

يأتى الىّ فى بعض الأحيان باكياً منتحباً يعترف لى بعلاقاته مع هذه الفتاة أو تلك من النساء ، ويتوسل الىّ فى الوقت نفسه ألا أبوح بشيء من هذا لناتاشا : فاذا عاد اليها بعد كل هذه الاعترافات ، وجلاً مرتجفاً (وكان لا بد أن يصحبنى فى مثل هذه الاحوال ، قائلاً انه لا يستطيع أن يقع بصره عليها بعد ارتكابه جريمته ، وائنى الشخص الوحيد الذى يستطيع أن يثبت جنانه) أدركت ناتاشا بنظرة واحدة انه عائد من جريمة . وكانت ناتاشا غيورة جداً ، ولكنها ، لا أدري كيف ، كانت تغفر له هذه الحماقات دائماً . وكان الامر يتم فى العادة على النحو التالى : يدخل أليوشا معى ويتوجه اليها بالكلام خجلاً ويلقى عليها نظرات وجلة ، فتحزر فوراً انه أثم ، ولكنها لا تدع قناعتها تظهر فى وجهها ، ولا تبدأ الحديث عن ذلك قط ، ولا تطرح على أليوشا أى سؤال ، بل تزداد مداعباتها له ، ويزداد لطفها ومرحها ، ولم يكن ذلك منها لعباً ولا مكرأ . ان هذه المخلوقة الرائعة تجد فى الصفح لذة لا نهاية لها ، فكانها ترى فى العفو نفسه فتنة حادة ما لها نظير . والحق ان أليوشا لم يكن له علاقة حتى ذلك الحين الا بامرأة تدعى جوزيفين . فاذا رأى لطف ناتاشا وتسامحها لم يسعه الا أن يعترف لها بكل شيء من تلقاء نفسه ، ليتخفف من ذنبه «وليعود كما كان» على حد تعبيره . حتى اذا نال منها الصفح والمغفرة ، التهب حماسة ، وأخذ فى بعض الأحيان يبكى فرحاً وحباً ، ويضمها بين ذراعيه يفرقها بالقبل ، ثم يسيطر عليه الفرح ، فيطفق يقص ، فى براعة الطفل ، تفاصيل مغامراته مع جوزيفين ، ويضحك ملء شديقه ، ويكيل المديح والاطراء لناتاشا . وكانت السهرة تنتهى هكذا فى مرح . وحين نفذ ماله أخذ يبيع من أشياء البيت ، وبتأثير الحاح ناتاشا وجد بيتاً صغيراً فى فوتاكا اكتره بأجر دون أجر البيت الاول . واستمر على بيع ما يملكان من تحف ، حتى أن ناتاشا باعت ملابسها ، ثم وجدت عملاً ، فلما علم أليوشا بذلك هوى الى حضيض

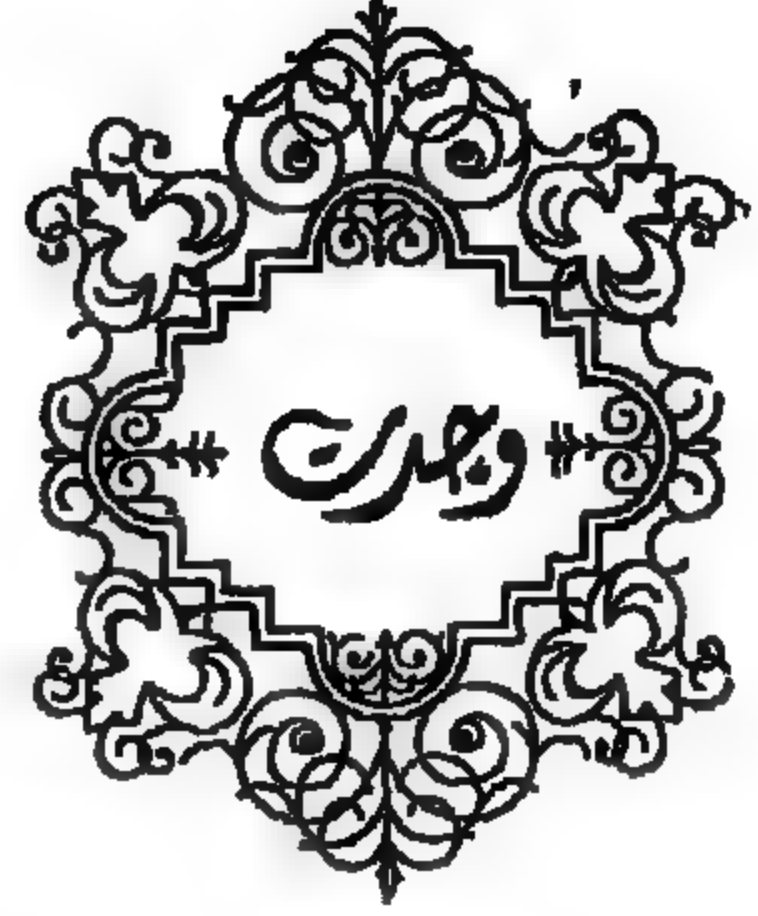
اليأس ، وأخذ يلعن نفسه ، ويصرخ انه يحتقر ذاته ، غير انه لم يعمل شيئاً من شأنه أن يصلح هذه الحال • وقد نضبت الآن هذه الموارد الاخيرة ذاتها ، ولم يبق الا عمل ناتاشا ، غير ان الاجر الذى كانت تتقاضاه زهيد لا يغنى ولا يسمن من جوع •

وفى أول الامر ، حين كانا لا يزالان يسكنان معاً ، قمت بين اليوشا وبين أبيه مشاجرة عنيفة • كانت نية الامير فى تزويج ابنه من كاترين فيدوروفنا فيليمونوفنا ، ابنة زوج الكوتيسية ، مائزال فى حيز التفكير ، الا ان الامير كان يحرص على تحقيق هذه الفكرة حرصاً شديداً ، فكان يأخذ ابنه الى بيت خطيبته المقبلة ، ويشجعه على الاعجاب بها ، ويحاول أن يقنعه بقبول الفكرة بالقسوة تارة وبالعقل تارة أخرى • الا ان المشروع أخفق بسبب الكوتيسية ؛ عندئذ غض الأمير طرفه عن علاقة ابنه بناتاشا ، وترك الامر للزمن ؛ فقد كان يأمل ، لعلمه بخفة ابنه وطيشه ، ان هذا الحب سيزول فى القريب • حتى لقد أصبح فى الايام الاخيرة لا يخشى أن يتزوج ابنه ناتاشا ، وأصبح على مثل اليقين من أنه لن يتزوجها • وأما العشيقان فقد أجلا تحقيق هذه الفكرة الى أن يتم الصلح بينهما وبين أبى ناتاشا ، أى الى أن تتغير الظروف تغيراً تاماً ، وكان واضحاً من جهة أخرى ان ناتاشا لاتحب أن يدور الكلام حول هذا الموضوع • وقد زل لسان اليوشا مرة أمامى فقال ان أباه مسرور من هذه العلاقة ، وان الامر الذى يعجبه فى هذا كله هو اذلال اخمينيف وتحقيره • وكان مع ذلك ، 'محافظة' منه على المظاهر ، يستمر على ابداء استيائه من ابنه ، حتى لقد طفف المساعدات التى يتفضل بها عليه ، وهى قليلة قبل ذلك ، (كان الامير بخيلاً جداً على ابنه) ، وهدده بأن يمنع عنه حتى هذه المساعدات الطفيفة • ولكن بعد ذلك بقليل ، سافر الامير مع الكوتيسية الى بولونيا ، لاعمال تتعلق بالكوتيسية • والحق ان اليوشا كان أصغر من أن يتزوج ،

الا ان الخطيئة كانت من الغنى بحيث يستحيل على الامير أن يدع الفرصة تفلت منه • ووصل الامير أخيراً الى هدفه ، وبلغ الى أسماعنا ان مسألة الخطوبة قد سويت ؟ وفي هذا الوقت الذى أصفه كان الامير قد عاد الى بطرسبرج ، واستقبل ابنه فى حب وحرارة ، الا ان استمرار علاقته بناتاشا قد أدهشه وساء ، فأخذ يشك ، ويرتجف ، وطلب الى ابنه بلهجة قاسية صارمة أن يقطع علاقته بناتاشا ، ثم ارتأى أن يعمد الى وسيلة أفضل من هذه الوسيلة ، فقاد ابنه الى منزل الكونتيسة • كانت ابنة زوج الكونتيسة فتاة جميلة ، وان كانت ماتزال أشبه بطفلة ، وكان لها قلب طيب رقيق ، وروح صافية بريئة ، وكانت مريحة ، خفيفة الظل ، رقيقة الشعور • كان الامير يقدر ان هذه الشهور الستة قد فعلت فعلها فى ابنه ، وان ناتاشا لم يبق لها فى نظره ما كان لها من سحر ، وانه لن ينظر الآن الى خطيئته المقبلة نظره اليها منذ ستة أشهر • وكان تقدير الامير صحيحاً بعض الصحة فحسب • • لقد افتن ألوشا حقاً • ويجب أن أضيف الى ذلك ان الاب أصبح يتطلف مع ابنه فجأة (مع امتناعه عن اعطائه المال) • وشعر ألوشا ان هذا التجب يخفى وراءه قراراً حاسماً لا يتزعزع ، فكان يشكو من ذلك ، ولكن أقل مما كان يمكن أن يشكو لو انه لا يرى كاترين فيدوروفنا كل يوم •

كنت أعلم ان ألوشا لم يزر ناتاشا منذ أربعة أيام • وحين مضيت اليها بعد أن تركت منزل اخمينيف كنت أتساءل قلقلًا عما عسى أن تبثني به • ولمحت ، من بعيد ، نوراً فى النافذة • كنا قد اتفقنا فيما بيننا على ان نضع شمعة على مسند النافذة حين تكون فى حاجة ملحة الى رؤيتي ، حتى اذا اتفق لى أن مررت قريباً من بيتها (وكان يتفق لى ذلك فى كل مساء تقريباً) أدركت من هذا النور الذى لاتضعه الا فى بعض الأحوال ، أنها تنتظرني ، وأنها فى حاجة الى • • ولقد أصبحت فى هذه الأيام الأخيرة تكثر من وضع الشمعة • •

الفصل الخامس عشر



ناتاشا وحدها • كانت تذرع الغرفة بخطى بطيئة،
وقد كتفت ذراعيها ، وغرقت في تفكير عميق •
وكان على المنضدة مسمار منطقي • ينتظرنى منذ
مدة طويلة • فلما رأتنى قدمت الى يدها مبتسمة،
دون أن تنبس بكلمة • كان وجهها شاحباً ، ينضح بمعانى الألم •

كان فى ابتسامتها عذاب ، ورقة ، واذعان •

وقد ازداد ظل عينيها الزرقاوين الصافيتين ظلاماً ، وازداد شعرها
كثافة ، نتيجة تحولها ومرضها •

قالت وهى تمد يدها :

- ظننت انك لن تجيء ، حتى لقد بدا لى أن أبعث مافرا لتأيننى
يأتبائك ، وقلت لنفسى لعل المرض قد عاوده ثانية •

- ليس الامر كذلك ، وانما حُجزت • سأقص عليك كل شيء •
ولكن انبئينى أولاً بما بك يا ناتاشا ! ما الذى حدث ؟

فقال مستغربة :

- لا شيء • • لماذا هذا السؤال ؟

- ولكنك كتبت الى • • كتبت الى أمس أن أجيء ، حتى لقد حددت

لمجيئى ساعة معينة لا أستقدمها ولا أستأخرها • وهذا شيء جديد لا عهد لى بمثله من قبل •

— ها • • نعم • • لقد كنت أنتظره أمس •

— ولم يجرى بعد ؟

— لم يجرى •

وصمتت لحظة ، ثم أضافت :

— قلت لنفسى : ان لم يجرى فلا بد لى من حديث معك •

— وهذا المساء ، هل كنت تنتظرينه ؟

— لا • انه فى هذا المساء هناك •

— هل تعتقدين انه لن يأتى بعد الآن أبداً ؟

أجابت وهى تنظر الى نظرة جادة خطيرة :

— ليست هذه هى المسألة • سيعود •

كان واضحاً ان سرعة أسئلتى تزعجها • وصمتنا ، نظوف فى
الغرفة طويلاً وعرضاً •

واستأنفت بعد مدة تقول مبتسمة :

— انتظرتك مدة طويلة جداً يا فانيا • هل تعلم ماذا كنت أفعل ؟

كنت أذهب وأجىء وأنا أنشد بعض القصائد • هل تتذكر : الناقوس
الصغير ، الطريق تحت الثلج : « السماور يغلى على المائدة المصنوعة من
شجر السنديان • » لقد قرأنا هذه القصيدة معاً :

« هدأت العاصفة ، والقمر يضىء السماء • »

« والليل ينظر الى الارض بالملايين من عيونه الكابية »
ثم :

« وفجأة خيل الى اتنى أسمع صوتاً يجيش بعاطفة حارة ،
« ويتحد برنين الناقوس الصغير ، ويقول :

« سيأتى يوم يلقى فيه صديقى برأسه على صدرى »
« الحياة فى منزلى ناعمة رخية !

« ما يكاد الفجر يداعب جليد نافذتى
« حتى يغلى السماور على مائدتى المصنوعة من خشب السنديان ،
« وحتى تتراقص النيران فى مدفأتى ،
« وترسل أضواءها الحمر الى السرير ، فى الركن ،
« تحت الستارة ذات الازهار .. »

انه لشعر جميل يا فانيا ، شعر يؤثر فى القلب تأثيراً قوياً . يا لها
من لوحة واسعة غنية ! ليس فى اللوحة الا خطوط قليلة ، ولكنك
تستطيع أن تسجج حولها ما تشاء . هناك شيئان أساسيان : هذا السماور ،
وهذه الستارة ذات الازهار . هذا كله مألوف ، تراه فى البيوت
البورجوازية من مدينتنا الصغيرة ، حتى لكأنتى أرى البيت نفسه : منزل
جديد ، ماتزال تحف به سلالم الخشب ، لم يتم طلاؤه بعد .

وهذه لوحة أخرى :

ثم سمعت هذا الهاتف نفسه يقول ،
حزينا كصوت الناقوس الصغير :

« أين صديقى القديم ؟

« أخشى أن يدخل ، وان يغرقنى بالقبل والدغدغات !

« ما هذه الحياة التى أحيانا !

• مسكنى كله حجرة مظلمة حزينة •

• الريح تعوى •••

• وثمة شجرة وحيدة ، شجرة كرز ، أمام نافذتى •

• الا ان الجليد يحجبها عن نظرى •

• ولعلها ماتت منذ زمان بعيد •

« ماهذه الحياة التى أحيانا ؟

• لقد ذبلت ستارتى •

• وهاءنا ذا أضرب فى غرفتى ، مريضة ، لا أعرف أهلى •

• لا أحد هنالك يؤنبنى : ليس لى أصدقاء •

• ما أنا ، بعد ، الا ترثارة عجوز ••• ،

• أضرب فى غرفتى مريضة ••• ، ما أجمل كلمة « مريضة » فى

هذا الموضع ! لا أحد هنا يؤنبنى : ما أكثر ما فى هذا البيت من عاطفة ،

وحنين ! ما أكثر ما فيه من ألم ، ألم الذكرى •• يا الهى ! ما أجمل هذا

الشعر ، ما أصدق هذا الشعر !

وصمت ، كأنما هى تخلق اختناقاً ألت بحلقها • وقالت بعد

دقيقة :

— عزيزى فانيا •

ثم صمتت مرة أخرى ، كأنها نسيت ما كانت تريد أن تقوله ، أو

كأنها قالت ماقالته دون تفكير ، بدافع من تأثير سريع •

وكنا أثناء ذلك ما نزال نذرع الغرفة • وأمام الأيقونة ، كان هنالك

قنديل يشتعل • كانت ناتاشا ، فى المدة الاخيرة ، تزداد تقى وتمسكاً
بالعبادة يوماً بعد يوم ، ولا تحب أن تتحدث فى هذا •

— أهدأ عيد ؟ أرى قنديلك مشتعلًا •

— لا ••• ولكن اجلس يا فانيا ، لابد انك تعبت • هل تريد قليلاً
من الشاي ؟ لم تحتس شيئاً من الشاي بعد ؟

— لنجلس يا ناتاشا ، لقد شربت نصيبى من الشاي •

— من أين انت الآن آت ؟

— من عندهم (هكذا كنا نسمى أبويها) •

— من عندهم ؟ كيف اتسع وقتك ؟ أذهبت اليهم من تلقاء نفسك ،
أم انهم دعوك ؟

وأمرتني بوابل من الأسئلة • وامتقع لونها بتأثير انفعالها •

قصصت عليها بالتفصيل لقائى مع أمها ، وحكاية النيشان ، قصصت
عليها ذلك كله بدقة ، دون أن أخفى عنها شيئاً ، وكانت تصنى الى
بشراة ، وتلتهم كل كلمة من كلماتى التهاماً ، والتمعت فى عينيها
دموع ؟ وحين قصصت عليها حكاية النيشان اضطربت اضطراباً شديداً ،
فكانت كثيراً ما تقاطعنى قائلة :

— انتظر يا فانيا ، انتظر : فصّل أكثر من ذلك ، انك تسرف فى

الاجمال والايجاز ! ••

فكنت أكرر الشئ مرتين وثلاثاً ، وأجيب على كل سؤال من
أسئلتها التى لاتقطع •

— هل تعتقد حقاً انه كان آتياً لرؤيتى ؟

— لا أدري يا ناتاشا ، بل اننى لا أستطيع أن أتصور ذلك • اما انه يتألم لغيابك ، وانه يحبك ، فهذا واضح • واما انه كان ذاهباً اليك ، فهذا ، هذا •••

— وقد قبَّل النيشان ، أليس كذلك ؟ وماذا قال وهو يقبله ؟
— كلاماً كثيراً •• كان يطلق عليك أرق الاسماء ، وكان يناديك ••
— نادانى ؟

— نعم •

وأخذت تبكى فى صمت •

— مساكين !

ثم أضافت بعد لحظة :

— لا أستغرب أن يكون على علم بكل شيء • انه كذلك على علم بأمور والد اليوشا •

قلت لها وجلاً :

— ناتاشا ، يجب أن نذهب اليهم ••

فسألتنى ، وهى تصفر وتهض عن مقعدها قليلاً :

— متى ؟

كانت تظن اننى أقترح عليها أن نذهب اليهم فوراً •

ثم استدركت وهى تضع يديها على كتفيها وتبتسم ابتسامة حزينة :

— كلا يا فانيا ، كلا يا صديقى ، انك تعود دائماً الى هذا •• الاحسن

ألا تحدثنى عن هذا الامر بعد الآن •

فهتفت فى حزن شديد :

— هذه الحصومة الكريهة ، أليس لها اذن من نهاية أبداً ؟ أبداً ؟

أنت من الكبرياء والصلف بحيث لا تريد أن تقومي بالخطوة الأولى ؟
عليك أنت أن تضربي المثل ، ان تكوني القدوة • لعل أباك لا ينتظر غير
هذا ليغفر لك • • انه أبوك ، وانت التي أسأت إليه • احترمي كبرياءه :
انها مشروعة طبيعية • يجب عليك أن تذهبي إليه ، وأنا واثق انه سيفرح
عنك بلا قيد ولا شرط •

— بلا قيد ولا شرط ! مستحيل • لا تلمني يا فانيا ، عبث • لقد
فكرت في الامر ، واني لأفكر فيه ليل نهار • ما انقطعت عن التفكير فيه
ساعة واحدة منذ تركته • وكم مرة تحدثنا فيه معا ! انت نفسك تعلم ان
هذا مستحيل !

— حاولي •

— كلا يا صديقي ، لا أريد • اذا حاولت ذلك زدت حنقه علي •
ما فات لن يعود ، وانت تعلم انه يستحيل أن يعود • لن أستطيع ان أحيي
تلك الايام السعيدة ، أيام طفولتي التي قضيتها معهم ! وهب أبي غفر لي ،
فانه لن يجد فيّ بعد الآن ابنته ناتاشا • انه ما يزال يحب فيّ البنت
الصغيرة ، الطفلة ، التي كان يدللها ويدغدغ رأسها على نحو ما كان يفعل
أيام كنت في السابعة من عمري أجلس على ركبتيه وأمشده أغاني
الصغيرة • ومنذ طفولتي الى آخر يوم ، كان يأتي الى سريري كل مساء
يرسم عليّ اشارة الصليب قبل أن أنام • وقبل المصيبة بشهر واحد، اشترى
لي قرطاً ، دون أن يحدثني عنه قبل أن يشتريه ، (وكنت أعلم كل شيء) ،
وكان يفرح فرح الطفل حين يتصور فرحتي بهديته • وقد ثار على الجميع ،
وثار عليّ قبل الجميع ، حين عرف ، مني ، انني كنت على علم بأنه اشترى
القرط منذ مدة طويلة • وقبل خروجي من البيت بثلاثة أيام لاحظ انني
حزينة ، فما لبث أن قلق أشد القلق حتى مرض ، بل لقد فكر — هل
تصدق ذلك ؟ — ليسرني عني ، في أن يأخذني الى المسرح • حقا ، كان

يريد أن يشفينى بهذه الوسيلة ! أعود فأقول لك ان البنت الصغيرة هي التي كان يعرفها فيَّ ويحبها ، وما كان يريد أن يتصور اننى سأصبح ذات يوم امرأة ... ما كان هذا يدور في خلده • فاذا عدت الآن أنكرنى ولم يعرفنى ، وان صفح عني • لست الآن عين الشخص الذي أحبه ، لست الآن طفلة ، لقد عشت كثيراً • وان رضى بى كما أنا ، تنهد رغم ذلك أسفاً على السعادة الماضية ، وحزن على اننى لست ماكنته في الماضي ، حين كان ييجبنى طفلة • وما مضى يبدو دائماً أفضل ! يا له من عذاب ، تذكر الماضي !

وكانما صعد الدم الى رأسها فصرخت تقطع حديثها بهذا الهمتاف الذي يخرج من قلبها :

— آه يا فانيا ، ما أجمل الماضي ! ..

قلت :

— كل ما تقولينه صحيح يا ناتاشا • وانما ينبغي له الآن اذن أن يتعلم كيف يحبك وكيف يعرفك مرة أخرى ، وخاصةً كيف يعرفك ؛ ومتى عرفك أحبك ، ما في ذلك ريب • وأرجو ألا يذهب بك الظن الى انه لا يستطيع أن يعرفك وأن يفهمك ، هو ، هذا القلب النيل •

— أواه يا فانيا ، لا تكن ظالماً • ماذا هنالك من أمور كثيرة يجب أن تفهم فيَّ ؟ ليس هذا ما أردت أن أقوله • هناك شيء آخر ، اسمع يا فانيا : ان حب الأب ، هو أيضاً ، حب غيور • ان الذي يجرجه هو ان كل شيء بدأ وانتهى مع اليوشا بدون ، بدون أن يرى شيئاً ، بدون أن يحزر شيئاً • وهو يعرف ان ذلك كله لم يدر في خلده قبل وقوعه ، وهو يرى ان ما انتهى اليه حبنا من نتائج شقية يرجع الى «نفاقى» السفية • لم أذهب اليه منذ بداية حبنى ، ولم أعترف له بعد ذلك بكل خلجة من

خلجات قلبي ؛ بالعكس ، أخفيت كل شيء في نفسي ، تواريت عن أبي ؛
وأؤكد لك ، يا فانيا ، انه في قرارة نفسه يجد في هذا من الالهانة أكثر
مما يجده منها في نتائج حبنا ، في هربي من منزلنا ، في استسلامي
لحشيقى • وهبه استقبلنى الآن كآب ، في حرارة وعاطفة رقيقة ، فان
يذرة العداوة ستبقى • وغداً أو بعد غد ، تبدأ الشكوك ويعود التأنيب •
ثم انه لن يغفر لى بلا قيد ولا شرط • لنسلم اننى قلت له الحقيقة مخلصه
من أعماق قلبي ، لنسلم اننى اعترفت له صادقة بأننى أفهم مدى إساءتى
اليه واجرامى في حقه • وهبنى ، اذا لم يشأ أن يفهم ما كلفتنى هذه
السعادة مع اليوشا من آلام وما احتملت في سبيلها من عذاب ، هبنى
أخرست ألى من ذلك ، واحتملت كل هذا : انه لن يكتفى • لسوف يطلب
جنى تكفيراً مستحيلاً : سوف يسألنى أن ألعن ماضى ، أن ألعن اليوشا ،
وأن أندم على ما محضته من حب • سيطلب المستحيل : أن أستعرض
الماضى ، فأحذف من حياتنا هذه الأشهر الستة الأخيرة • ولكتنى لن
ألعن أحداً ، ولا أريد أن أندم • ما وقع كان لا بد أن يقع • لا يافانيا ،
هذا الآن مستحيل • لم يحن الوقت بعد •

- ومتى يحين ؟

- لا أدري ، لابد أن تتألم حتى النهاية في سبيل سعادتنا المقبلة ،
يجب أن نشترىها بالآلام جديدة • ان الإلم يطهر كل شيء • آه يا فانيا ،
ما أكثر ما تتألم في هذا الوجود •
صمت ونظرت اليها مفكراً •

- لماذا تنظر الى هكذا يا اليوشا ، أقول يا فانيا • (قالت ذلك
وابتسمت لهذا الخطأ) •

- الآن أرى ابتسامتك يا ناتاشا • من أين أتيت بها ؟ ما كنت
تبتسمين هكذا من قبل •

— ماذا بها ، ابتسامتى ؟

— ماتزال بها سذاجة الطفولة •• ولكن حين تبسمين يشعر المرء
ان ثمة شيئاً يقبض صدرك • ما أشد ما نجلت يا ناتاشا ! ان شعرك يبدو
أكثف مما كان •• ماهذا الثوب ؟ أعندهم صنع أيضاً ؟

قالت وهى تلقى على نظرة تترقرق فيها العاطفة :

— انك تحبى يا فانيا ! ولكن قل لى ماذا تفعل انت الآن ؟ كيف
يسير عملك ؟

— لم يتغير شئ • مازلت أكتب روايتى ، الا ان العمل صعب ،
لايتقدم كثيراً • لقد نضب الالهام • ولو نهاونت قليلاً ، فقد أخرج شيئاً
شائعاً طريفاً • ولكنها خسارة ان أفسد فكرة جيدة دارت فى خيالى •
انها فكرة أحرص عليها أشد الحرص • ومن أجل مجلة ، لا بد من
انجاز العمل فى موافيته المحددة ، حتى لقد خطر ببالى أن أترك الرواية ،
وأن أنخيل بسرعة ، قصة قصيرة ، شيئاً فنياً رشيقاً ، لا يشتمل على أية
نزعة مظلمة قاتمة ، شيئاً يسلى جميع الناس ويمتعهم !

— مسكين أيها العامل ! وسميت ؟

— مات •

— ألم يأت لرؤيتك ؟ أكلمك جادة يا فانيا : انت مريض ، وأعصابك
مهدمة ، ولك أحلام غريبة •• حين قلت لى انك استأجرت هذا المسكن ،
لاحظت كل ذلك •• وهل مسكنك رطب غير صحى ؟

— نعم ، وقد وقعت لى منذ قليل حادثة •• سأرويها لك فيما بعد •

لم تسمعنى • كانت مستغرقة فى تفكير عميق •

وقالت أخيراً وهى تنظر الى نظرة من لا ينتظر جواباً :

- لا أفهم كيف تركتهم ! كنت محبوبة !

يقيني اننى لو توجهت اليها بكلام فى هذه اللحظة لما سمعتنى •

قالت بصوت لا يكاد يفهم :

- فانيا ، لقد رجوتك أن تأتى ، لأن ثمة أمراً خطيراً أريد أن

أففى به اليك •

- ماهو ؟

- سأتركه •

- ستركينه أم تركه ؟

- يجب أن أنهى هذه الحياة • لقد أوامأت اليك أن تأتى لأقص

عليك كل ماتجمع وتراكم فى نفسى ، كل ما أخفيته عنك حتى الآن •

كانت تبدأ دائماً بمثل هذا الكلام حين تريد أن تففى الى بنواياها

الخفية ، وكان يتضح دائماً تقريباً اننى أكون على علم بأسرارها منذ مدة

طويلة ، باحت لى بها هى نفسها •

- ناتاشا ، سمعتك تقولين هذا مائة مرة ! صحيح انكما لاتستطيعان

أن تعيشا معا ، فعلاقتكما شىء غريب ، وليس ثمة مايجمع بينكما • ولكن

••• هل تقوين على هذا ؟

- قبل الآن كان ذلك فى مجال النية فحسب ، أما الآن فقد عقدت

العزم حاسماً قاطعاً • اننى أحبه حباً لا نهاية له ، ومع ذلك أدرك اننى

عدوته الاولى • اننى أسىء الى مستقبله فيجب أن أرد اليه حريته • انه

لا يستطيع أن يتزوجنى ، لا يملك القوة على مقاومة أبيه ، ولا أريد أنا

أربطه ، وانه ليسرنى أن يحب خطيته • يجب أن أتركه ! هذا واجبى

••• اذا كنت أحبه فينبغى أن أضحى بكل شىء فى سبيله ، أن أبرهن له

على حبى ، هذا واجبى ! أليس كذلك ؟

- ولكنك لن تستطيعي اقناعه •

- لن أحاول اقناعه ، سأظل معه كما كنت من قبل ، يستطيع أن يدخل متى شاء ، ولكن يجب أن أبحث عن وسيلة تجعله يتركني بسهولة دون أن يعذبه ضميره • هذا مايسهدينى يا فانيا ، ساعدنى • بم تنصحنى ؟ قلت :

- ليس هناك الا وسيلة وحيدة : أن تكفى عن حبه وأن تحبى شخصاً آخر • ولكننى أشك فى نجاح هذه الوسيلة • انك تعرفين طبعه ! هاقـد مضى على غيابه عنك خمسة أيام • واذا فرضنا انه هجرنا هجرأ نهائياً ، فيكفى أن تكتبى اليه بأنك تهجرينه أنت حتى يسارع اليك على الفور •

- لماذا لاتحبه يا فانيا ؟

- أنا ؟

- نعم انت انت • انك عدوه ، سرأ وعلانية ! لانتطيع أن تتحدث عنه دون شعور بالحقد • لاحظت مائة مرة ان أكبر لذة تشعر بها هى فى اهائته وتسويد صفحته ! نعم تسويد صفحته ، أقول الحقيقة !

- قلت لى ذلك مائة مرة • كفى يا ناتاشا ، لنـدع هذا الحديث •

قالت بعد صمت :

- أريد أن أترك هذا البيت • ولكن لاتزعل يا فانيا ••

- وبعد ذلك ؟ لاشك أنه سيوافيك فى المسكن الجديد • ثقى أنتى.

لم أزعـل •

- الحب قوى : يستطيع حب جديد أن يحبسه عني • وهبه عاد الى ، فلن يعود الا الى حين ، ما رأيك ؟

- لا أدري يا ناتاشا ، كل شيء فيه لا شأن له بالمنطق • انه يريد أن يتزوج الأخرى ، ويريد في الوقت نفسه أن يستمر على حبك • يريد الامرين في آن واحد •

- لو كنت واثقة من أنه يحبها ، لعزمت أمرى ، وقطعت برأى • فانيا ، لا تخف عني شيئاً • هل تعلم شيئاً لا تريد أن تبوح لي به ! وسددت الى نظرة قلقة فاحصة •

- لا أعلم شيئاً يا صديقتى ، أقسم لك بشرفى • لقد كنت صريحاً معك دائماً • على أنه يخطر ببالي شيء : قد لا يكون مفتونا بابنة زوج الكونتيسة الى الحد الذى تصوره • قد لا يكون هذا أكثر من حماسة عابرة •••

- أتظن هذا يا فانيا ؟ يا الهى ! ليتنى كنت واثقة من ذلك ! آه ، لشد ما أتمنى لو أراه فى هذه اللحظة ، لا لشيء الا لألقى عليه نظرة واحدة ، فأقرأ فى وجهه كل شيء ! ولكنه لايجب ، لايجب ! - ولكن هل تنتظرين مجيئه يا ناتاشا ؟

- كلا • انه عندها • أعلم ذلك • أرسلت من يأتينى بالأخبار • لشد ما أود لو أراها هى أيضاً ! ••• اسمع يا فانيا ، سأقول لك شيئاً سخيلاً : يستحيل على ألا أراها ، ألا ألقاها أبدا • ما رأيك ؟

وانتظرت جوابى قلقة :

- أن تريها ؟ هذا ممكن • ولكنك تعلمين ان رؤيتها لا تكفى •

- يكفى أن أراها ، وبعد ذلك أحزر • اسمع ، هل تعلم أنتى أصبحت سخيلاً : لا أعمل شيئاً غير الطواف فى الغرفة وحدى ، وازجاء الوقت بالتفكير ؟ كأن فى رأسى زوبعة ، وهذا يتعبنى ! وقد خطرت على

بالى فكرة يا فانيا : ألا تستطيع أن تعرف إليها ، مادامت الكوتيسة قد أطرت روايتك وقرظتها ؟ (أنت قلت لى ذلك) • انك تذهب أحياناً الى سهرات الامير ر • • • ، وهى تذهب إليها كذلك • حاول أن تقدم نفسك إليها ، أو لعل أليوشا نفسه يستطيع أن يقدمك إليها • ومستقص على كل شىء •

— ناتاشا ، عزيزتى ، مستحدث فى هذا فيما بعد • ولكن قولى لى الآن : هل تعتقدين حقاً أنك تقوين على تركه ؟ أنظرى فى نفسك ، هل تقولين ماتقولين هادئة ؟ •

فقلت بصوت لا يكاد يفهم :

— نعم أقوى على ذلك • سأعمل كل شىء فى سبيله • سأضحى بحياتى كلها من أجله • ولكن هل تعلم يا فانيا ؟ اننى لا أطيق أن يكون فى هذه اللحظة عندها : لقد نسينى ، انه الآن الى جانبها ، يحدثها ويضحك ، هل تتذكر ، مثلما كان يضحك هنا • • • انه ينظر فى عينيها • هكذا نظرته دائماً ، فى العينين ، ولا يخطر بباله اننى هنا • • • معك • ولم تكمل كلامها ، وألقت على نظرة يائسة :

— ما هذا يا ناتاشا ؟ ألم تقولى منذ لحظة ، منذ لحظة • • •

فقاطعتنى وهى تلقى على نظرة ملتهبة :

— ستنفصل جميعاً ، جميعاً • ولكن يا فانيا ما أقسى أن يبدأ هو بنسيانى • آه يا فانيا ، ما أشد عذابى • أنا نفسى لا أفهم : الفكر شىء ، والواقع شىء آخر • رباه ، أكاد أجن •

— كفاك يا ناتاشا ، هدئى روعك !

— خمسة أيام ، فى كل ساعة ، فى كل دقيقة • • • أراه فى حلمى وفى يقظتى • • • أراه دائماً • هيا بنا يا فانيا • خذنى اليه •

— هدئي نفسك يا ناتاشا ••

— بل خذني اليه • من أجل هذا انما انتظرتك • فانيا ، فكرت في هذا الامر ثلاثة أيام • من أجل هذا الموضوع انما كتبت اليك •• يجب أن تقودني اليه ، لا تضن عليّ بهذا •• انتظرتك •• ثلاثة أيام •• انه في هذا المساء هناك ، انه هناك ، هيا بنا !

كانت كأنها تهذي • وسمعت ضجة تقوم في مدخل البيت : كأن مافرا مع أحد •

— أسمعني يا ناتاشا ، ما هذا الذي أسمعه !

فأصاحت بسمعها وهي تبسم ابتسامة من لا يصدق شيئاً ، وفجأة امتنع لونها امتقاعاً مخيفاً رهيباً •

وقالت بصوت لا يكاد يسمع :

— يا الهى ، من هذا ؟

وأرادت أن تمسك بي ، غير اننى خرجت ألقى مافرا عند المدخل • انه هو ، اليوشا • كان يطرح أسئلة على مافرا ، وحاولت مافرا في أول الامر أن تمنعه من الدخول • وسمعتها تقول له ، كأنها هي سيدة المنزل :

— من أين انت خارج هكذا ؟ هه ؟ أين كنت تشرد ؟ هيا امض ، امض • بماذا تستطيع أن تجيب ؟

— لست أخاف أحداً • سوف أدخل •

قال ذلك في شيء من الخجل •

— ادخل ، ما أثقلك !

— نعم سأدخل • ها ، أأنت هنا ، أنت أيضاً ؟ ما أحسن أن تكون
انت أيضاً هنا • هاءنا ذا • أرايت ؟ كيف ترانى ؟

— ولكن ادخل ، ماذا تخشى ؟

— لست أخشى شيئاً ، أوكد لك ، لانتى لست مذنباً ، أشهد الله على
ذلك ! انت تعتقد ان الخطيئة خطيئتي • سوف ترى الآن • سأشرح كل
شيء على الفور • ناتاشا ، هل أستطيع أن أدخل ؟ (قال ذلك فى ثقة
مصطنعة وهو واقف أمام الباب) •

ولم يجب أحد •

فقال وقد ظهر على وجهه القلق والخوف :

— ماذا ؟

— فأجبت :

— لاشيء ، كانت هناك منذ لحظة • اللهم الا ان ••

ففتح اليوشا الباب فى حذر ، وأجال فى الغرفة نظرة خجلى • لم
يكن فى الغرفة أحد •

وفجأة لمحها فى ركن من الغرفة ، بين الخزانة والنافذة • كانت
واقفة هناك ، كأنها تختبئ ، وهى أقرب الى الموت منها الى الحياة • حتى
هذا اليوم ، كلما فكرت فى ذلك المشهد لا أستطيع أن أمنع نفسى عن
الابتسامة • اقرب اليوشا منها بخطى بطيئة حذرة ، وقال فى خجل وهو
ينظر اليها بنوع من الذعر :

— ناتاشا ، ما بك ؟

فأجابت وهى فى حالة انفعال رهيب ، كأنها هى المجرمة •

— ما بى ؟ لا •• لا شيء •• هل •• تريد قدحاً من الشاي ؟

فقال اليوشا وقد طار صوابه :

- ناتاشا ، اسمعى • لعلك تعتقدين اننى مجرم • ولكننى لست
مجرماً • لست مجزماً أبداً • سترين ، سأقص عليك كل شيء •

فتمتت ناتاشا تقول :

- علام تقص كل شيء ؟ لا ضرورة • ناولنى يدك ، فينتهى كل
شيء ، كما ينتهى دائماً •

وخرجت من ركنها ، وقد تلون خداها •

كانت تغض طرفها ، كأنما هى تخشى أن تنظر فى وجه اليوشا •

فهتف اليوشا فى حماسة :

- لو كنت مذنباً ، لما جرؤت ان انظر اليها •

والتفت الى يقول :

- انظر ، انظر • انها تعتقد اننى مذنب • كل شيء يديننى ، كل
الظواهر تلقى التبعة على ! خمسة أيام أغيب عنها ، وقد سمعت من يقول
لها اننى فى بيت خطيبتى ، ثم هى تصفح عنى • تقول لى : ناولنى يدك
فينتهى كل شيء • ناتاشا ، عزيزتى ، ملاكى ! لست مذنباً ، اعلمى هذا ،
لم أقترف أى عمل سيئ • بالعكس ، بالعكس !

- ولكن كان عليك أن تذهب الى هنالك • • لقد دعوك • • كيف
أتيت الى هنا • • كم الساعة الآن ؟

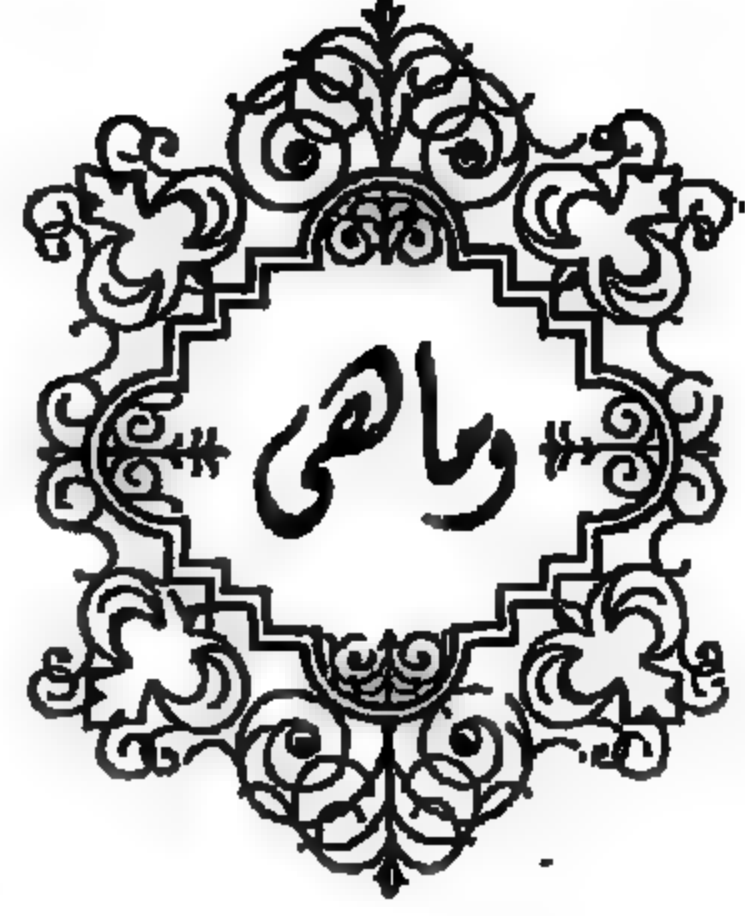
- العاشرة والنصف • كنت هنالك • • ولكننى قلت اننى مريض ،
وخرجت • هذه هى المرة الاولى التى اكون فيها حراً بعد خمسة ايام ،
فأستطيع أن أفلت منهم وآتى اليك • الحقيقة أنه كان فى وسعنى أن آتى
قبل الآن ، ولكنى آثرت أن لا اجيء • لماذا ؟ ستعرفين السبب بعد هنيهة •

سأشرح لك كل شيء : وانما أتيت لاشرح لك كل شيء • ولكنى اقسم لك اننى ، فى هذه المرة ، لست مذنباً فى حقك ابداً ، ابداً !

ورفعت ناتاشا رأسها وثبتت نظرها فيه •• غير ان نظرة اليوشا كانت من قوة اشعاعها بالصدق ، والاخلاص ، والفرح ، بحيث يستحيل ان لا يصدق • وخيل الى انها سيصرخان ، وأن كلا منهما سيرتمى بين ذراعى الآخر ، كما حدث ذلك اكثر من مرة فى مثل مناسبات التصالح هذه ، الا ان ناتاشا ، وكأنما اخرستها السعادة ، ألقت برأسها على صدره ، وأخذت تبكى بكاء صامتاً على حين فجأة •• ولم يستطع اليوشا أن يتمالك نفسه ، فاذا هو يرتدى على قدميها ، ثم يقبل يديها ورجليها •• كان كمن طاش صوابه وخرج عن طوره • وتقدمت الى ناتاشا بكرسى ، فجلست عليه ، وكانت ركبناها تصطكان •

الجزء
الثاني

الفصل الأول



• الا دقيقة حتى كنا نضحك جميعاً كالمجانين •
قال اليوشا وهو يغطينا جميعاً بصوته الرنان :
- يظنّان أن كل شيء هو الآن كما كان
من قبل ••• يظنان أنني لا أقول الا سخفاً •••
أؤكد لكما أن ما سأقوله هام جداً •• وبعد ؟ ألن تسكتا ؟

كان اليوشا يتحرق شوقاً الى قص قصته • كان واضحاً لمن ينظر
فى وجهه انه يحمل أنباء هامة ، الا ان هيئة الجد التى كان يضيفها عليه
زهوه الساذج بأنه يحمل هذه الأنباء سرعان ما أفرح ناتاشا ، فأخذت
تضحك ، واخذت أنا اضحك رغم أنفى • وكلما ازداد اليوشا حقاً علينا
ازددنا نحن ضحكاً • ان حنقه ، ثم أسفه الساذج ، انتهى بنا الى تلك
الحالة التى يكفى فيها ان يُظهر صاحبنا طرف اصبعه حتى تنفجر فى
قهقهة لا تنتهى ! وكانت مافرا ، وقد خرجت من المطبخ ، واقفة على باب
الغرفة تتأملنا فى استياء قاتم ، وتأسف على ان ناتاشا لم تؤنب اليوشا بعد
أن انتظرتة خمسة أيام طوال ، بدلاً من أن تضحك الآن مرحة هذا
المرح •

واخيراً توقفت ناتاشا عن الضحك ، حين رأت ان قهقهاتها تؤلم
اليوشا ، وسألته :

— ماذا تريد ان تقص علينا ؟

وقالت مافرا ، مقاطعة اليوشا ، دون ان تحفل به البتة :

— هل اجىء بالسماور ؟

فأجابها وهو يدفعها فى سرعة بيده :

— اذهبى يا مافرا ، اذهبى • سأقص عليكما كل ما وقع ، وكل ما يقع ، وكل ما سيقع ، لأننى أعرف كل هذا • أرى ، يا صديقتى ، أنكما تريدان ان تعلمي اين كنت طوال هذه الايام الخمسة ، وهذا ما أريد ان اقصه عليكما ، الا انكما لا تدعان لى فرصة الكلام • والآن سوف اتكلم • فأقول قبل كل شيء : لقد خدعتك طوال هذه المدة يا ناتاشا ، خدعتك منذ مدة طويلة ، وهذا اهم شيء •

— خدعتنى ؟

— نعم منذ شهر • بدأت بذلك قبل وصول ابى : وقد حان ان أكون صريحاً كل الصراحة • منذ شهر ، قبل ان يصل ابى ، تلقيت منه رسالة طويلة كتبت عنكما امرها • فى هذه الرسالة يبلغنى ابى ، ببساطة تامة (بلهجة جدية خفت منها) ان زواجى قد تقرر ، وان خطيبتى فتاة هى الكمال بعينه ، واننى — طبعاً — لا أستحقها ، وانما يجب مع ذلك ان اتزوجها حقاً ، وان على ، تهيؤاً لهذا ، أن أطرد من رأسى جميع الحماقات ، النخ • النخ • تعرفين ماذا يقصد بالحماقات • وهذه الرسالة قد اخفيته عنك • فقاطعت ناتاشا تقول :

— لم تخفها عنا ابداً : لا داعى لان تعتر بهذا • الواقع انك قصصت علينا كل شيء فى الحال • واذكر انك اصبحت على حين غرة ، طيباً جداً ، لطيفاً جداً ، لا تتركنى ابداً ، كأنك قد اقررت ذنباً تريد ان تكفر عنه ، وقد رويت لنا الرسالة كلها اجزاء •

• مستحيل • اننى حقاً لم أرو لكما الشيء الاساسى فى الرسالة •
 • ربما حزرتما شيئاً • • هذا من شأنكما • • اما انا فلم أقص شيئاً • لقد
 اخفيت عنكما الامر ، وتأملت من ذلك كثيراً •

اضفت وانا انظر الى ناتاشا :

• أذكر يا اليوشا انك كنت يومئذ تسألنى النصيحة فى كل لحظة ،
 • وقد حكيت لى كل شيء ، اجزاء مبشرة بطبيعة الحال ، وعلى صورة
 افتراضات • •

• لقد رويت لنا كل شيء • لا تغتر ، أرجوك • أنت تستطيع ان
 تخفى شيئاً ؟ أنت تستطيع المكر ؟ ما فرا نفسها تعرف كل شيء ، اليس
 كذلك يا مافرا ؟

فأجابت مافرا ، وهى تمد رأسها من الباب :

• طبعاً • لقد حكيت لنا كل شيء فى الايام الثلاثة الاولى • أنت
 لا تستطيع أن تخبى شيئاً •

• الحديث معك مزعج يا ناتاشا • أنت تعملين هذا كله انتقاماً •
 • أذكر اننى كنت يومئذ كالمجنون • هل تذكرين يا مافرا ؟

• كيف لا أذكر ؟ واليوم أيضاً أنت كالمجنون !

• ليس هذا قصدى ؟ أقصد هل تذكرين أنه لم يكن لدينا يومئذ
 شيء من المال ، وانك ذهبت ترهنين علبة سجائرى الفضية ! ولكن اسمحى
 يا مافرا ان اقول لك انك تتسبين نفسك أمامى ، ولا تتخرجين من قول
 أى شيء • ناتاشا هى التى علمتك كل هذا • على كل حال ، لنسلم بأننى
 رويت لكم كل شيء منذ ذلك الوقت ، اجزاء مبشرة (أتذكر هذا الآن) ،
 • ولكنكم لا تعرفون اللهجة ، لهجة الرسالة • واللهجة فى رسالة من
 الرسائل هى الشيء الاساسى • هذا ما أريد أن أقوله •

قالت ناتاشا :

— وكيف كانت لهجة تلك الرسالة ؟

— اسمعى ياناتاشا ، انك تسأليننى هذا السؤال وكأنك تمزحين • أرجوك لا تمزحى • أؤكد لك ان الامر خطير • كانت لهجة الرسالة من القسوة بحيث شعرت ان ذراعى تسقطان من كفى • لم يتفق لأبى فى حياته ان خاطبنى بمثل هذه اللهجة ! اسمعى لهجة الرسالة •

— هات حدثنا عن لهجة الرسالة • ولماذا كان لا بد لك ان تكتم عني

امرها ؟

— كى لا أربك ، طبعاً • كنت آمل ان أرتب الامور بنفسى • وبعد هذه الرسالة ، منذ وصول أبى ، بدأت متاعبى ، وبدأ عذابى • كنت قد وطلت العزم على أن أجيئه بقوة ، بجرأة ، بكلام واضح ، غير أن الفرصه لم تتع • فانه لم يطرح على اى سؤال : انه ماكر • حتى لقد كان يتصرف تصرف من يرى أن كل شىء مقرر ، وانه لا يمكن ان يكون بيننا أى نقاش او خلاف • هل تسمعين : كان يتصرف تصرف من يعتبر انه لا يمكن ان يكون بيننا اى نقاش او خلاف ! اى غرور هذا ؟ وكان معى لطيفاً ، رقيقاً الى ابعد حدود اللطف والرقه ! ودهشت من هذا • انه رجل ذكى ، لو تعلمين ما اذكاه يا ناتاشا ! لقد قرأ كل شىء ، وهو يعلم كل شىء • يكفى ان تنظري اليه مرة واحدة ، حتى يعرف افكارك كما يعرف افكاره ، ولا شك انهم لهذا انما ماقالوا عنه : يسوعى • ان ناتاشا لاتحب أن أمدحه • لا تزعلى يا ناتاشا • بالمناسبة كان فى أول الأمر لا يعطينى مالا ، ولكنه أعطانى بالأمس ، يا ناتاشا ، يا ملاكى ، لقد انتهى بؤسنا • خذى • انظرى • كل ما قد قطعه عني على سبيل العقوبة خلال ستة أشهر ، رده الى بالأمس • انظرى كم أعطانى ، لم أعد المبلغ الى الآن •

مافرا ، انظري ما أكثر ما نملك الآن من مال ! لن نحتاج بعد اليوم الى رهن ملاءقنا وأزرار الأكمام •

وأخرج من جيبه حزمة من الأوراق النقدية ، تقارب قيمتها ألفاً وخمسمائة روبلاً فضة ، ووضعها على المنضدة • ونظرت مافرا الى الأوراق النقدية في دهشة ، وهنأت ألكسى • وكانت ناتاشا تستحبه على اكمال كلامه • وتابع أليوشا يقول :

— تساءلت ماذا أفعل ؟ كيف اعترض عليه ؟ احلف لكما أنه لو اساء معاملتي ، ولم يكن رقيقاً الى هذا الحد ، لما فكرت في شيء من هذا • لأعلنت له بصراحة تامة اننى لا اريد ، واننى لست الآن طفلاً ، وأن كل شيء قد انتهى ، ولاصرت على هذا فى عناد ، صدقانى • ولكن ما عساي • استطيع ان افعل والامر كما تريان ! ولكن ما ينبغي ان تتهمانى • ارى انك مستعضة ياناتاشا • لماذا تتغامزان ؟ لاشك انكما تعتقدان انهم خدعوني • واننى لا املك ذرة من قوة الارادة • انكما مخطئان • اننى املك قوة الارادة • والبرهان على ذلك اننى رغم ظروفى هذه سرعان ما قلت لنفسى : « يجب على ان اقص على ابى كل شيء » • ثم بدأت ، فقصصت عليه كل شيء ، واصغى ابى الى كلامى حتى النهاية •

فسأله ناتاشا بلهجة قلقة :

— ماذا قلت له ؟

— قلت له اننى لا اريد خطيبة اخرى ، لان لى خطيبة هى انت • الحق اننى لم اقل له ذلك صراحة بعد ، ولكننى هبأت له ذلك ، وسأعلمه له غدا • قررت هذا • وقبل كل شيء ، ذكرت له ان من العار والحقارة ان يتزوج المرء من اجل المال ، وان من الغباوة من جهتها ان تعد انفسه من الطبقة الارستقراطية (لاننى كنت اخاطبه بحرية تامة كأننى اخاطبه

«أخاً لا أباً» ثم قلت له انتى متوسط الحال ، وان هذا هو الأساسى ، وانتى اعتر بذلك ، وانتى شبيه بكل الناس ، لا اريد ان أتميز على احد .. اى شرحت له ، على الجملة ، كل هذه الافكار السليمة الصحيحة .. وكنت اتحدث فى حرارة واندفاع ... حتى لقد استغربت ذلك من نفسى .. وقلت له بصراحة : « مانحن بالامراء الا اسماً ! لقد ولدنا أمراء ، ولكن ليس لنا من صفات الامراء غير هذا .. نحن اولاً لسنا بالاغنياء ، والغنى اهم شىء .. ان اكبر امير فى عصرنا هو روتشيلد . ثم اتنا منذ زمان بعيد لم يبق لنا فى المجتمع العالى من ذكر . آخرنا عمى سيمون فالكوفسكى ، ولم يكن معروف الا فى موسكو ، ولم يعرف فيها الا لانه فقد النفوس ، الثلاثمائة الاخيرة التى كان يملكها . ولولا ان أبى قد جنى بنفسه ثروة ، لاصبح احفاده يحرقون الارض ، كما يفعل بعض الامراء . واذن فليس ثمة ما نزهو به ، اى انتى ، على الجملة ، قد اخرجت كل ما كان يغلى فى نفسى ، كل شىء ، فى قوة وعنف ، بلا لف ولا دوران ، بل لقد زدت على ذلك قليلاً . ولم يجب ابى على كلامى بشىء ، واكتفى بأن اخذ يلومنى على انتى تركت منزل الكونت ناينسكى ، ثم قال بعد ذلك ان على ان اتقرب من الأميرة ك .. اشيتتى ، وانتى اذا أحسنت وفادتى لدى الأميرة ك أحسنت وفادتى فى كل مكان ، وضمن مستقبلى ، وراح يضرب على هذا التوتر .. وكان طوال الوقت يلمع الى انتى تركتهم جميعاً منذ أصبحت أعيش معك يا ناتاشا ، وان هذا كان بتأثير منك . غير انه حتى الآن لم يحدثنى عنك حديثاً مباشراً ، ومن الواضح انه يتحاشى التعرض لهذا الموضوع . اتنا نمكر كلانا ، ويتربص كل منا بالآخر ، وثقى أنه سيأتى يوم ...

— كل هذا حسن . ولكن قل لى كيف انتهى الامر ؟ ما الذى قررره ؟ هذا اهم شىء . ما اكثر ثرثرتك يا اليوشا !

— الله اعلم ! يستحيل ان يستخرج المرء من كلامه ما عزم عليه •
 وأنا لست بثرثار ، وانما اقول كلاماً جذاً • لم يقرر شيئاً البتة • كان •
 وهو يسمع حججى ، لا يزيد على أنه يتسم ، كأنه يرثى لحالى • أشعر
 ان فى هذا احتقاراً لى ، ولكنى لا أشعر منه بالعار • قال لى : « انتى
 أوافقك كل الموافقة على ما قلت ، هيا نذهب الى الكونت ناينسكى ، ولكن
 لا تقل هنالك شيئاً مما قلته الآن • أنا أفهمك ، أما هم فلن يفهموك •
 يظهر أنه هو نفسه لا يُستقبل استقبالاً حسناً جداً فى كل مكان • انهم
 يأخذون عليه شيئاً ما ، وانهم على وجه العموم يتجهمون له فى هذه
 اللحظة • ومنذ البداية استقبلنى الكونت فى عنجهية وتكبر ، كأنما هو
 نسى نسياناً تاماً أننى ترعرعت فى بيته ! انه يأخذ علىّ انتى نسيت الجميل ،
 والحق ان المسألة ليست مسألة نسيان جميل من جانبى ، ولكن المرء يأخذ
 الملل والضجر بخناقه فى بيت الكونت ، لهذا السبب لم أذهب اليه • ثم
 انه لا يراعى جانب أبى كثيراً ، انه لا يقيم له وزناً كبيراً ، وقد أدهشنى
 ذلك ، واثار حنقى • ان ابى المسكين ليكاد ينحنى امامه حتى يلامس
 الأرض • أعلم انه يفعل ذلك من أجلى أنا ، ولكنى لست فى حاجة الى
 شيء من ذلك • وأوشكت أن أصارح أبى بكل عواطفى ، ولكنى أمسكت
 عن ذلك • وعلام اصارحه بعواطفى هذه ! انتى ان فعلت لن اغير من
 قناعته شيئاً ، ولن ازيد على ان أضعف حزنه • حسب ما هو فيه من
 حزن ! عندئذ قلت لنفسى : سأمكر ، وسأبزهم جميعاً فى الحيلة والمكر ،
 وسأضطر الكونت الى احترامى اضطراراً • وصدقاً لقد أدركت هدفى
 هذا على الفور ، فما هو الا يوم واحد حتى تغير كل شيء ، واصبح الامير
 لا يدبى احداً غيرى ، وقد فعلت ذلك كله وحدى ، بحيلتى ومكرى •
 حتى ادهشت ابى !

هتفت ناتاشا وقد نفذ صبرها :

— اسمع يا أليوشا ، الافضل ان تقص علينا الحكاية • كنت اظن انك ستحدثنا عما يهمنا ، وها أنت ذا تذكر لنا كيف ظهرت وتميزت في منزل الكونت ! مالى انا وللكونت ! انه لا يهمنى •

— لا يهمها : اسمع يا ايفان بتروفتش ! لا يهمها • ولكن تلك هي النقطة الاساسية • مترين ، ستدهشين انت نفسك • سيتضح لك كل شيء في النهاية ، ولكنى دعيني اتكلم • واخيرا (نعم ، ولماذا لا اتكلم بصراحة) ، قد اكون يا ناتاشا ، يا ايفان بتروفتش ، قد اكون احمق ، بل قد اكون (وهذا واقع) ابله ، ولكن اؤكد لكما اننى فى هذه المرة قد برهنت على كثير من المكر والحيلة ، نعم • بل ومن الذكاء ، وقلت لنفسى لا شك انهما سيسران اذا علما اننى لست دائماً • • غيباً •

— هو • ماذا تقول يا أليوشا ؟ هل لك ان تسكت ؟

كانت ناتاشا لا تطيق ان يُنعت أليوشا بانه غير ذكى • كم مرة زعلت ، دون ان تعلن زعلها صراحة ، حين كنت ابين لأليوشا ، فى غير ما تخرج ، انه قد ارتكب حماقة ما • • • كان هذا وتراً حساساً فى نفس ناتاشا • كانت لا تطيق أن يُهان أليوشا ، لا سيما وانها كانت فى أعماق نفسها تعرف حدوده • • ولكنها لم تصارحه يوماً بشعورها خشيةً ان تجرح كبرامته • اما هو فكان فى مثل هذه اللحظات نافذ البصيرة جداً ، فكان يحزر مشاعرها الخفية • وكانت ناتاشا ترى ذلك ، وتحزن له حزناً كبيراً • ثم ما تلبث ان تأخذ بمداعبته وتدليله • • لهذا السبب كان لكلام اليوشا فى هذه اللحظة صدى فى قلبها مؤلم • •

— اسكت يا أليوشا ، كل ما هنالك انك طائش • • هذا كل ما فى الامر ، لماذا تحقر نفسك ؟

— طيب • ولكن دعيني اتم كلامى • بعد استقبال الكونت ، كان أبى غاضباً على • أقول انتظرى قليلاً • وذهبنا الى منزل الأميرة ، وكنت

قد سمعت انها خرفت من الشيخوخة ، وانها عدا هذا صماء ، وانها تحب الكلاب الى حد الجنون • ورغم ذلك ، فان لها في المجتمع الراقى تأثيراً كبيراً ، حتى ان الكونت نايسكى نفسه كان يتضاءل امامها • وفيما نحن في الطريق اليها ، رسمت خطتي ، هل تعرفان علام اقامت هذه الحطة ؟ اقامتها على اساس ان جميع الكلاب تحبني • هذه حقيقة اقولها لكما ! لقد لاحظت ذلك • لا ادري الآن بي قوة مغناطيسية ام لاني انا نفسي احب جميع الحيوانات ؟ المهم ان الكلاب تحبني • وبمناسبة المغناطيسية ، اظن انني لم احدثكما اننا قد استحضرننا الارواح منذ مدة • كنت عند احد الخبراء باستحضار الارواح ، والغريب ان هذا الموضوع قد شاقني كثيراً يا ايفان بتروفتش • لقد استحضرت روح يوليوس قيصر •

— ما حاجتك الى يوليوس قيصر ؟ هذا ما كان ينقصك ••

قالت ناتاشا ذلك وهي تنفجر ضاحكة •

— ولم لا ؟ أنا •• لماذا لا يحق لي ان استحضر روح يوليوس قيصر ؟ فيم يسيء هذا اليه ؟ انها تضحك !

— طبعاً • لا يسيء اليه في شيء •• آه يا صديقي العزيز !•• دعنا ! وماذا قال لك يوليوس قيصر ؟

— لم يقل لي شيئاً • كنت ممسكاً بقلم ، وكان القلم يتحرك من تلقاء نفسه على الورقة ويكتب • كان يوليوس قيصر هو الذي يكتب ، فيما قالوا لي • ولكنني لا اعتقد بهذا •

— وماذا كتب ؟

— كتب شيئاً يشبه أن يكون « غط قلمك » •• ولكن أما كفاك ضحكاً ؟

- حدثنا الآن عن الاميرة !

- انك تقاطعيتنى دائما • وصلنا الى بيت الاميرة واخذت الاطف
ميمى • وميمى هذه كلبة عجوز فظيعة ، تثير الاشمئزاز ، وهى الى هذا
عنيدة ، وتعص ، والاميرة مستطارة اللب بها ، وهما تبدوان فى سن
واحدة • بدأت احشو ميمى بالحلوى ، وما هى الا عشر دقائق حتى
استطعت ان اعلمها كيف تمد قائمتها ، وهذا امر لم يستطيعوا ان يدربوها
عليه طوال حياتها • فلما رأتها الاميرة تفعل ذلك ، طار عقلها فرحا حتى
كادت تبكى : « ميمى ، ميمى ، هاتى يدك ! لقد علمها ذلك عزيزى
اليوشا » • ودخل الكونت ناينسكى : « ميمى ، هاتى يدك ! » • ونظرت
الى • وهى تكاد تبكى من قوة العاطفة • يا لها من عجوز رائعة ! لقد اثارت
فى قلبى الشفقة • ولم ادع الفرصة تمر ، فلاطفتها ملاطفة ثانية • كان
على علبة تبغها نقش يثل صورتها وهى صبية ، اى منذ ستين عاما خلت •
ووقعت علبة تبغها على الارض ، فسارعت الى التقاطها وقلت متجاهلا :
يا له من رسم بديع • انه الجمال المثالى • فما سمعت هذا حتى ذابت تماما ،
وأخذت تتودد الى • وتحدثنى فى كل أمر : تسألنى أين درست ، وأين
اسكن ، وتطرينى ، وتقول ان لى شعراً رائعا ، النخ ، النخ • وقد زدت
مرحها بأن قصصت عليها حكاية خليعة • انها تحب هذا • صحيح انها
هددتنى باصبعها ، الا انها ضحكت كثيرا • وحين انصرفت ، قبلتني ،
ورسمت على • اشارة الصليب ، وأصرت على أن أجيء اليها فى كل يوم
لأسليها ، وصافحني الكونت بحرارة ، وهو ينظر الى • نظرة رقيقة حانية •
اما ابنى ، فرغم انه احسن من على وجه الارض واشرفهم وانبلهم ،
صدقونى او لا تصدقونى ، كاد يبكى من شدة الفرح ، حين عدنا الى
نالييت • لقد قبلنى ، وراح يفضى الى • بأمور عن الحياة ، والعلاقات بالناس ،
والمال ، والزواج : أمور عجيبة غاب عنى فهم كثير منها ، وفى تلك اللحظة

لأنما اعطاني المال • وقع ذلك بالأمس • وغدا سأعود الى الاميرة • غير ان ابى رغم هذا انبل انسان على وجه الارض • لا تسيئوا الظن فيه • صحيح انه يبعدنى عنك يا ناتاشا • ولكنه انما يفعل ذلك • لان حب المال قد اعماه • لانه طامع فى ملايين كاترين • ولانك انت لا تملكين هذه الملايين • على انه لا يطمع فى هذه الملايين الا من اجل ان • واذا كان لا ينصفك فلأنه يجهلك • وأى أب لا يرغب فى سعادة ابنه ؟ وليس الذنب ذنبه ان كان قد اعتاد على أن يقدر السعادة بالملايين • انهم جميعاً كذلك • يجب ان تنظر اليه على هذا الاساس لا على اساس آخر • حتى اذا فعلنا ذلك أدركنا فوراً انه على حق • ولقد أسرع أجدى اليك يا ناتاشا لأقنعك بهذا • لاني اعرف انك تنظرين اليه نظرة سيئة • وطبعى ان الذنب فى هذا ليس ذنبك • ولست ألومك ••

— اذن فكل ما حدث لك هو قيامك بتلك الوظيفة لدى الاميرة ؟
هذا هو مكرك كله !

— ماذا تقولين ؟ ليس هذا الا بداية •• لقد حدثتك عن الاميرة • لاني بواسطتها انما اقبض على زمام ابى • هل تفهمين ؟ ولكنى لم ابدأ قصتي الاساسية !

— اذن قصتها علينا بسرعة !

— فى هذا اليوم وقع لى حادث آخر غريب كل الغرابة • أدهشنى وصعقتى • لاحظى أنه اذا كان أبى والاميرة قد قررا زواجنا رسمياً • فما من شىء قد تمّ نهائياً حتى الآن : نستطيع ان نتفصل على الفور دون أية فضيحة • ان الكونت ناينسكى وحده على علم بالأمر • وهم يعدونه قريباً وحامياً • ورغم اننى فى هذين الاسبوعين الأخيرين قد لقيت كاتيا كثيراً • فأتينا حتى الليلة البارحة لم نتحدث فى المستقبل • أى فى

«الزواج ، ولا .. نعم .. في الحب . ثم انهم قد قرروا في بادىء الامر ان يطلبوا موافقة الاميرة ك .. التى ينتظرون منها حاية عظيمة ، وسيلاً من الذهب . ان ما ستقوله الاميرة سيقوله المجتمع الراقى ، لأن لها علاقات هائلة .. وهم يريدون قطعاً ان يخرجونى الى المجتمع وان يجعلونى أشق طريقى . الا ان الكوتيسة ، زوجة أبى كاتيا ، هى التى تلج على هذه الأمور . والواقع ان الاميرة لا تستقبل الكوتيسة فى بيتها حتى الآن ، وربما كان ذلك بسبب ما قامت به الكوتيسة من أعمال طائشة فى الخارج ، واذا لم تستقبلها الاميرة لم يستقبلها الآخرون أيضاً . واذن فخطبتى كاتيا فرصة مواتية ، لذلك فان الكوتيسة التى كانت فى أول الامر تعارض هذا الزواج افرحها اليوم كثيراً فوزى بحظوة الاميرة . غير ان هذا كله على الهامش ، واليك الأمر الهام : لقد عرفت كاترين فيدوروفنا منذ العام الماضى ، ولكنى كنت حينذاك طفلاً ، ولم أكن أفهم شيئاً ، لذلك لم ارَ فيها يومذاك شيئاً ..

فقاطعتُه ناتاشا :

— كل ما فى الأمر انك كنت تحببى أكثر مما تحببى الآن ، فلم تر شيئاً ، اما الآن ..

فهتفت اليوشا فى 'عنف' :

— اسكتى يا ناتاشا ، أنت مخطئة كل الخطأ ، وانك لتهينينى بهذا الكلام ! . ولن أجيبك . اصغى الى بقية كلامى ، تفهمى كل شىء ! . ليتك تعرفين كاتيا ! ليتك تعرفين روحها الرقيقة الصافية ! ولكنك ستعرفين ذلك . المهم أن تصغى الى كلامى حتى النهاية . منذ خمسة عشر يوماً ، حين قادنى أبى الى كاتيا بعد وصوله أخذت أراقبها بانتباه ، ولاحظت انها تراقبنى هى الاخرى ، واثار هذا فضولى . لست اتحدث

الآن عما كنت قد اتويته من تعميق معرفتي بها ، منذ وصلتني من ابى تلك الرسالة التى شدهتنى • على كل حال سأسكت الآن عن الاسادة بمحاسنها ، وانما اکتفى بان اقول ما يلى : هذه انسانة اصيلة ، هذه انسانة قوية ، قوية لأنها صافية مستقيمة ، وهى من هذا كله بحيث اننى اصبحت ازاءها طفلاً لا اكثر ، اخاً اصغر ، رغم انها لم تتجاوز السابعة عشرة من عمرها • وقد لاحظت كذلك شيئاً آخر : انها حزينة حزناً عميقاً ، كأنها تحمل فى أعماقها سرّاً دفيناً • انها غير ثرثارة • وهى فى بيتها صامته كل الوقت تقريباً ، كأن بها خوفاً • • • كأنها تفكر فى أمر ما • ويظهر عليها أنها تخشى أبى • وهى لا تحب زوجة أبيها ، ادركت ذلك : ان الكوتيسة هى التى تزعم ، لامر ما ، ان ابنة زوجها تحبها بل تعبدها • هذا كذب • كل ما فى الامر ان كاتيا تطيعها طاعة عمياء ، كأنهما اتفقتا على ذلك فيما بينهما • ومنذ أربعة أيام ، بعد كل هذه الملاحظات ، قررت أن اضع مشروعى موضع التنفيذ ، وهذا ما فعلته مساء أمس ، أى أن أقص على كاتيا كل شيء ، ان اعترف لها بكل شيء ، ان استميلها الى جانبنا ، فأنتهى المسألة دفعة واحدة • • •

فسألته ناتاشا بلهجة قلقة :

- تروى لها ماذا ؟ تعترف لها بماذا ؟

- بكل شيء ، بكل شيء • • • وأحمد الله على أنه ألهمنى هذه الفكرة • • • ولكن اسمعى ، اسمعى ! منذ اربعة ايام قررت ان ابتعد عنك ، وان اتولى بنفسى انهاء كل شيء • ولو قد بقيت معك ، اذن لترددت طوال الوقت ، واصلت الى كلامك ، ولم اتخذ اى قرار ، فى حين اننى استطعت وحدى ان اضع نفسى فى موضع من يقنع نفسه فى كل لحظة بان عليه أن يضع حدا لهذه المسألة ، فاستجمعت شجاعتي ، ومضيت الى النهاية ! وقد وعدت تنفى بأن اعود اليك بقرار ، وها أنا ذا اعود اليك بقرار !

- كيف ؟ ماذا حصل ؟ قل ، اسرع !

- المسألة بسيطة ، ذهبت اليها رأساً ، باخلاص وجرأة .. ولكن قبل كل شيء يجب ان اروي لك حادثاً سبق هذا الحادث ، واثّر في تأثيراً قوياً . قبل ان نخرج تلقى ابى رسالة . وقد دخلت في تلك اللحظة الى حجرته ، ووقفت قرب الباب ، دون أن يرانى . كان ابى من شدة تأثره بالرسالة يتكلم بينه وبين نفسه ، ويصرخ صرخات التعجب ، ويذهب ويحجى في الغرفة ، خارجاً عن طوره ، واخيراً اخذ يضحك على حين فجأة . وكان يمسك الرسالة بيده . خفت ان ادخل ، فتلبثت قليلاً ، ثم جازفت ودخلت ، وسراً ابى كثيراً ، وخاطبني بلهجة غريبة ، وفجأة قطع كلامه ، وامرني ان استعد للخروج على الفور ، رغم ان الوقت لم يحن بعد . في هذا اليوم لم يكن عندهم احد ، كنا وحدنا ، يا ناتاشا . وقد اخطأت اذ اعتقدت أن هناك سهرة اليوم يا ناتاشا . لقد اخطأ من ابلغك ذلك .

- لاتخرج عن الموضوع يا اليوشا ، ارجوك . قل لى كيف قصصت على كاتيا كل شيء .

- من حسن الحظ اننا بقينا وحدنا ، أنا وهى ، ساعتين كاملتين . ابلغتها ، ببساطة ، ان زواجنا مستحيل ، رغم رغبتهم فيه ، واثني ارتاح اليها ، وانها وحدها تستطيع ان تنقذنى . وكشفت لها عندئذ عن كل شيء . تصورى أنها كانت لا تعرف شيئاً عن قصتنا ، يا ناتاشا . ليتك رأيت مدى تأثيرها حين قصصت عليها ذلك . في اول الامر ظهر عليها ما يشبه الذعر ، فامتقع لونها امتقاعاً شديداً . رويت لها قصتنا كلها : أنك تركت بيتك من أجل ، أننا نعيش وحدنا ، أننا نعذب ونضطهد ، أننا خائفان من كل شيء ، واننا نلجأ الآن اليها (كنت اتكلم باسمك ايضاً يا ناتاشا) بغية ان تقف هى نفسها الى جانبنا ، فتعلن لزوجة ابىها صراحة

لأنها لا تريد أن تتزوجني ، وإن هذا هو السبيل الوحيد إلى نجاتنا ، وأنا أصبحنا لا نتظر أية معونة من غيرها . وقد استمعت إلى كلامي في كثير من الاستطلاع ، ومن العطف ! ما كان أجمل عينيها في تلك اللحظة ! لكن روحها كلها قد انتقلت إلى نظرتها ! إن عينيها زرقاوان بلون السماء تماما . وقد شكرت لي أنني لم أشك فيها ، ووعدتني لتساعدننا بكل ما أوتيت من قوة . ثم ألفت عليّ بعض الأسئلة عنك ، وقالت إنها تود لو تعرف اليك ، وسألتني أن أقول لك أنها تحبك منذ الآن حب الاخت بأختها ، وترجوك أن تحيها أنت أيضاً كأنها أخت لك . وحين علمت أنني لم أرك منذ خمسة أيام أرسلتني إليك على الفور .

وظهرت على ناتاشا علائم التأثر .

صرخت وهي تلقى عليه نظرة تفيض بمعاني العتب :

- أليوشا ، أليوشا ، أتحمل كل هذه الأخبار ، ثم تضع الوقت بأن تقص علينا « شطاراتك » لدى اميرة طرشاء ! أليوشا ! وكاتيا ؟ هل كانت مريحة ، فرحة ، وهي ترسلك إلى ؟

- نعم كانت سعيدة بأن اتاحت لها فرصة القيام بعمل نبيل ، وكانت تبكي . ذلك أنها تحبني أيضاً ، هل تعلمين ياناتاشا ؟ لقد اعترفت لي بأنها كانت قد بدأت تحبني ، وأنها لا تلقى إلا قليلا من الناس ، وأنتي أحظي بأعجابها منذ مدة طويلة . وقد ميزتني عن غيري خاصة ، لأنها لا ترى حولها إلا خداعا وكذبا ، ولأنني ظهرت لها صادقا شريفا . نهضت عن مكانها وقالت لي : « سامحك الله يا أليوشا ، كنت اعتقد . . . » ولم تتم كلامها ، بل انفجرت باكيا ، وخرجت من الغرفة . وقد اتفقنا أن نذهب في الغد إلى زوجة أبيها تعلن لها أنها لا تريد أن تتزوجني ، وإن أمضي أنا إلى أبي أقول له كل شيء بقوة وجراءة . وقد لامتني على أنني لم أكشفها

بالأمر من قبل ، قائلة : « ان الرجل الشريف يجب ان لا يخشى شيئاً » .
 ما أنبلها يا ناتاشا ! انها لا تحب أبى ايضاً ، وهى تصفه بأنه مختل وبأنه
 يسعى وراء المال . وقد دافعت عنه ، لكنها لم تصدقنى . وفى رأيها اننى
 اذا لم أنجح مع ابى (وهى على يقين من اننى لن أنجح) فيجب ان ألتجأ
 الى الاميرة ك . . اطلب حمايتها ، فما من احد منهم جميعاً يجزؤ على
 معارضتها . وقد تواعدنا على أن نكون أخاً وأختاً . لبتك تعلمين أيضاً
 فصتها ، لبتك تعلمين مدى ما تعانى من شقاء ، ومدى ما تشعر به من قفر
 واشمئزاز من حياتها مع زوجة أبيها ، ومن كل هذا التمثيل ! . . لم أتذكر
 لى ذلك صراحة ، كأنما هى تخشاني انا ايضاً ، ولكنى ادركته من بعض
 كلامها . ناتاشا ، صديقتى ، ليتها تراك ، اذن لتُحبِّتك حباً ما بعده حب .
 لقد خلقتما كأختين ، ويجب ان تحب كل منكما الاخرى . لقد فكرت
 فى هذا يا ناتاشا ، وهو صحيح : سأجمعكما ، وسأبقى الى جانبكما
 أتأملكما . لا أحب أن ينصرف ذهنك الى غير ماينبغى يا ناتاشا ، ودعنى
 أتكلم عنها . اننى فى حاجة الى ان أحدثك عنها ، ولكنك تعلمين اننى
 احبك اكثر مما احب اى شخص آخر ، اكثر مما احبها . انت لى كل
 شئ !

كانت ناتاشا تنظر اليه صامته ، فى حب يمازجه حزن . لكان
 كلمات اليوشا كانت تلاطفها وتعذبها فى آن واحد .
 وتابع اليوشا كلامه يقول :

— لقد كونت رأيى فى كاتيا منذ مدة طويلة ، منذ خمسة عشر
 يوماً . كنت أذهب اليهم فى كل مساء . . . وكنت حين أعود الى البيت
 لا أزيد على أن أفكر فيكما ، وأوازن بينكما .

فسألته ناتاشا مبتسمة :

— وأيتنا غلبت الأخرى !

— تارة انت ، وتارة هي • ولكن الرجحان كمن لك دائما • حين أتحدث معها أشعر دائما اننى أصبح خيراً مما كنت ، أصبح أذكى ، أنبل ، ان صح التعبير • ولكن غداً ، غداً يتقرر كل شيء !

— ولكنك تقول انها تحبك ، تقول انك لاحظت ذلك بنفسك • ألا تشفق اذن عليها ؟

— بلى •• اشفق عليها •• ولكننا أحبة نحن الثلاثة ، واذن ••

— اذن فالوداع •

قالت ذلك ناتاشا برفق ، وهي تنظر اليه نظرة مضطربة •

الا ان هذه المصادفة انقطعت فجأة ، على نحو لم يكن فى الحسبان أبداً • فمن المطبخ ، الذى كان مدخل البيت ، سمعنا ضوضاء خفيفة ، كأن شخصاً قد دخل • وماهى الا دقيقة حتى فتحت ماقرأ الباب ، وأشارت بيدها خلسة ، تستدعى اليوشا ، فالتفتنا جميعاً اليها ، فقالت بלהجة عجيبة :

— هلا تفضلت فجئت ؟ ان فى الباب من يسأل عنك •

— يسألون عنى فى مثل هذه الساعة ؟

قال اليوشا ذلك وهو يلقي علينا نظرة دهشة ، وأضاف :

— سأرى !

فى المطبخ كان يقف خادم الامير ، أبيه • ان الامير ، وهو فى طريق عودته الى بيته ، أوقف عربته أمام منزل ناتاشا ، وأرسل خادمه يسأل هل اليوشا هنالك • أبلغ الخادم رسالته هذه ، وانسحب على الفور •

قال اليوشا مضطرباً وهو يلفنا بنظرة سريعة :

— هذا غريب ! لم يقع قبل ذلك قط • مامعنى هذا ؟

ونظرت اليه ناتاشا نظرة قلقة خائفة • وفجأة فتحت مافرا الباب مرة أخرى ، وقالت فى سرعة بصوت خافت :

— الامير آت بنفسه •

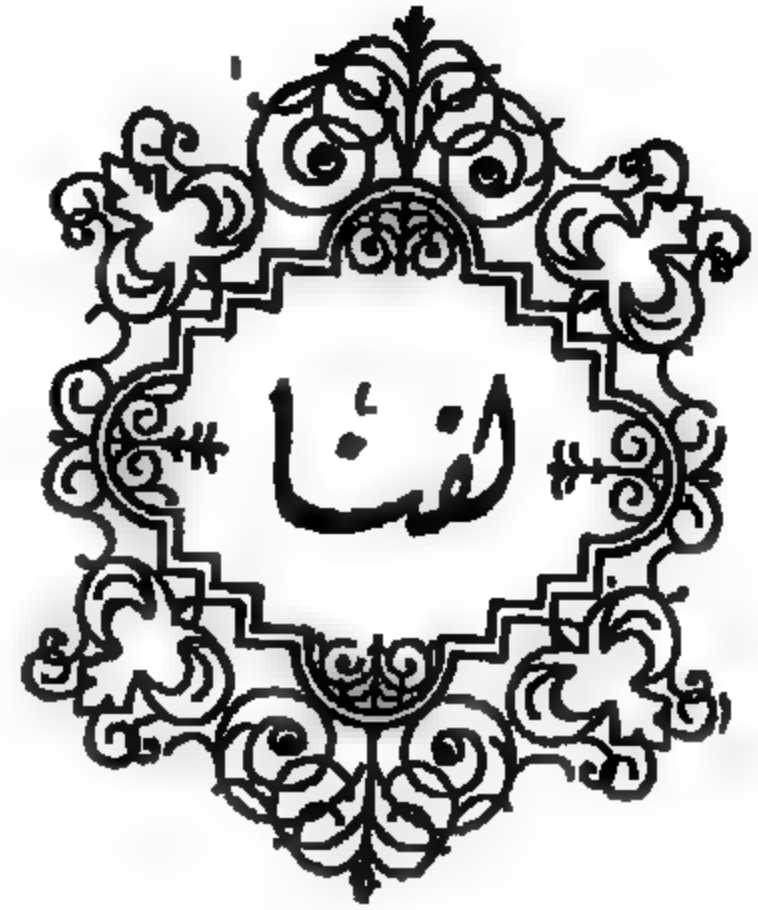
واختفت حالاً •

شحب لون ناتاشا ، ونهضت عن مكانها ، وأخذت عيناها تلتمعان على حين فجأة ، واستندت الى المنضدة فى رفق ، وجعلت تنظر ، مضطربة ، الى الباب الذى سيدخل منه هذا الزائر الذى ما كان يتوقع أحد حضوره •

ودمدم اليوشا يقول وهو مضطرب ولكنه مسيطر على نفسه :

— لا تخافى شيئاً يا ناتاشا • أنا هنا • ولن أسمع له بالاساءة اليك • وانفتح الباب ، وظهر فى العتبة شخص الامير فالكوفسكى •

الفصل الثاني



الأمير بنظرة مبريعة يقظة • وما كان في وسعنا ،
بعد ، أن ندرك ، أجاه إلينا صديقاً أم عدواً •
وأريد أن أصف مظهره تفصيلاً • لقد لفت انتباهي
في ذلك المساء خاصة •

كنت فيما رأيته قبل ذلك • هو رجل في نحو الخامسة والأربعين
من عمره ما تعداها ، متناسب قسمات الوجه ، جميل غاية الجمال ،
يتغير وجهه بتغير الظروف ، ولكنه يتغير تغيراً تاماً ، على حين
فجأة ، بسرعة هائلة ، فينتقل من المودة إلى السخط ، كأنما بضغطٍ على
زر • ان وجهه اليضاوى الضارب إلى السمرة ، وأسنانه الرائعة ، وشفتيه
الرقيقتين الجميلتين ، وانفه المستقيم ، المستطيل قليلاً ، وجبينه العالي الذي
لا ترى فيه أثراً من تغضن ، وعينييه العسليتين الواسعتين ، ان كل ذلك
يجعله رجلاً جميلاً ، ولكنك رغم هذا كله لا ترتاح إلى رؤيته •
وما ينفرك خاصة في هذا الوجه أن تعيره كأنه ليس منه ، وانما هو
متكلف مدروس مستعار ، فما ان تراه حتى تقتنع اقتناعاً قوياً بأنك لن
تقرأ فيه معنىً صادقاً قط • واذا أنعمت النظر فيه أخذت تتصور وراء
هذا القناع الدائم شيئاً خبيثاً ، شريراً ، مراوغاً ، أنانياً إلى أقصى حد •
ان عينييه العسليتين الواسعتين الجميلتين تخطفان بصرك خاصة ، كأنهما الشيء
الوحيد الذي لا يرضع لارادته ، اذ حتى حين يريد أن ينظر اليك نظرة رقيقة
لطيفة ، فان اشعة نظره تزدوج ان صح التعبير ، فاذا انت ترى مع

الاشعة الرقيقة اللطيفة اشعة أخرى قاسية شرسة فُلحصة غادرة • • وهو
 فارع القامة ، قوى البنية ، على شيء من النحول ، ويبدو أصغر من سنه
 كثيراً ، فان شعره الاشقر الناعم لم يكد يخالطه الشيب • وان اذنيه ويديه
 واطراف قدميه لشير بجمالها الدهشة : انها ذات جمال ارسقراطى • وكان
 أنيقاً فى ملبسه ، مرهف الذوق ، وكان لبعض حركاته مظهر الشباب ،
 وكان هذا يناسبه • كان يبدو كأنه الاخ الاكبر لأليوشا ، ولا يمكن على
 كل حال أن يُظن انه أب لشاب فى مثل هذه السن •

تقدم من ناتاشا وقال لها وهو يلقي عليها نظرة واثقة :

— أعلم أن وصولى الى منزلك فى هذه الساعة ، دون سابق انذار ،
 غريب ومخالف لجميع قواعد اللياقة ، ولكننى آمل أن تعتدى على الاقل
 بأننى شاعر بغربة مسعأى • وانى لاعرف كذلك اننى ازاء شخص واسع
 الصدر سمح كريم • منى على عشرة دقائق من وقتك ، وأنا آمل أنك
 ستفهمينى وستحبين ما أنا بصدد •

قال ذلك كله بلطف وتهذيب ، على قوة وصلابة •

قالت ناتاشا ، قبل أن تسترد رباطة جأشها :

— تفضل فاجلس •

فانحنى قليلاً ، وجلس • ثم بدأ يقول وهو يشير الى ابنه :

— قبل كل شيء ، اسمح لى أن أقول له كلمتين • • يا أليوشا ،
 حين ذهبت دون أن تنتظرنى ، بل دون أن تودعنا ، جاء من يقول
 للكوتيسة ان كاترينا فيدوروفنا فى حال سيئة • وكانت الكوتيسة على
 وشك أن تهرع اليها حين دخلت كاترين فيدوروفنا فجأة فى حالة من
 سوء الهندام وفرط الاضطراب ، فأعلنت لنا بغير لف ولا دوران انها
 لا تستطيع أن تكون زوجة لك ، وأضافت الى ذلك انها ستدخل الدين

دراية ، وانك سألتها المعونة ، وافضيت اليها بأنك تحب ناتاليا نيقولايفنا •
واضح ان هذا الاعتراف العجيب قد بعث عليه ما قصصه عليها من أمور
عجيبة • كانت في حالة يرثى لها من الاضطراب ، ولعلك تقدّر أن قد
كان لهذا في نفسى وقع قوى وانه أخافنى فلما مررت الآن فى الشارع
لمحت النور فى نوافذ بيتك (قال ذلك وهو يلتفت الى ناتاشا) • فاستولت
على فكرة لاحقتى منذ زمن بعيد ، فلم أستطع مقاومة فتتها واغرائها
فدخلت • لماذا ؟ سأقول لك ذلك حالا ، ولكننى أرجوك قبل كل شيء
ألا تعجبنى لغرابة ما سأقول • ان هذا كله قد جاءنى على حين فجأة ••

قالت ناتاشا فى تردد :

— آمل أن أفهم ما ستقوله وأن أقدره حق قدره •

فنظر اليها الامير نظرة ملحاحة ، كأنما هو يحاول أن ينفذ الى
جميع دوائها فى لحظة واحدة • واستأنف يقول :

— اننى أعتمد أيضاً على فطنتك ونفاذ بصيرتك • فلئن سمحت
النفسى أن آتى لرؤيتك هذا المساء ، فلأنتى أعرف من أخاطب • اننى
أعرفك منذ مدة طويلة ، رغم اننى قد ظلمتك فى السابق ، وتجنيت
عليك ، وأجرت فى حقك • اسمعى : انت تعلمين ان بينى وبين أبىك
خلافات قديمة ، ولست أبرئ نفسى ، فلعلى قد تجنيت عليه أكثر مما أظن
حتى الآن ، ولكن اذا صبح هذا فانما يصح لأنتى أكون قد أخطأت الظن
وضللت ، فاننى امرؤ رياب شكاك ، لا بد من الاعتراف بهذه الحقيقة •
اننى أقترض الشر قبل الخير ، وتلك صفة سيئة يتصف بها ذوو القلوب
القاسية • غير اننى ما اعتدت أن أخفى نقائصى • لقد صدقت جميع
الوشايات ، وحين هجرت أهلك خفت على اليوشا • بيد اننى ما كنت قد
عرفتك بعد • ثم جاءتني الانباء التى أرسلت فى طلبها ، تطمئننى شيئاً

فشيئاً ، وراقبت وأنعمت النظر ، وانهيت الى الاقتناع بأن شكوكى قائمة على غير أساس . عرفت انك قد قطعت صلاتك بأهلك ، وعلمت ان أباك يعارض فى أمر زواجك بابنى معارضةً عنيفة لا هوادة فيها . ثم انك ، رغم ما لك من تأثير وسلطان على اليوشا ، لم تحاولى حتى الآن أن تستغلى هذا السلطان فتكرهيه على الزواج بك ، وهذا وحده . خلى بأن يرفع قدرك فى نظرى ، وأن يحسن ظنى فىك . على اننى أعترف لك بأننى ، رغم ذلك ، قد قررت يومئذ أن أقاوم زواجك بابنى . بكل ما أوتيت من قوة . أعرف اننى أفصح عن ضميرى فى شطط من الصراحة ، ولكن فى هذه اللحظة يجب أن أكون صريحاً قبل كل شئ . وستوافقين انت نفسك على هذا بعد أن تصغى الى حديثى حتى نهايته . بعد أن هجرت منزلك بقليل ، سافرت الى بطرسبرج . ولكن مخاوفى بصدد اليوشا كانت قد ذهبت . كنت أعتمد على كبريائك النبيلة . كنت قد فهمت انك ، انت نفسك ، لاترغين فى الزواج . بأليوشا قبل أن تنتهى خصوماتنا العائلية . وانك لاتريدين أن تزرعى الخلاف بينى وبين اليوشا . وانك تعلمين انه لو تزوج بك لما غفرت له هذا . ما حيت . وانك لاتريدين أن يقال عنك انك تركضين وراء عريس من سلالة أمراء . وانك متهاكمة على الانتماء الى أسرنا العريقة ؟ حتى انك . بالعكس . قد أظهرت لنا احتقارك ، ولعلك كنت تتظنين أن آتى بنفسى اليك لأرجوك أن تشرفين بقبول ابنى زوجاً لك . ومع ذلك ظلت . عدواً لك . لايترحزج عن عداوته . لا أريد أن أبرئ نفسى ، ولكننى لا أكرم . عنك . الاسباب التى دفعتنى الى مناصبتك العدا . وهذه هى الاسباب : انك لاتملكين لا اسماً ولا ثروة . لست أنكر اننى غنى ، ولكننى أريد المزيد من الغنى . لقد هبطت أسرنا ونحن فى حاجة الى صلات والى مال . وان ابنة الكونتيسة زينايد فيدوروفنا على جانب عظيم من الثراء . وان لم تكن ذات صلات رفيعة . واذا تأخرنا أقل تأخر ، تقدم غيرنا فخطف الخطيبة . وما كان ينبغي أن

تدع الفرصة تفلت منا ؛ لذلك ، ورغم ان اليوشا ما يزال صيياً ، قررت أن أزوجه . • ترين انتى لا أخفى عنك شيئاً • تستطيعين أن تنظري نظرة احتقار الى هذا الاب الذى تسيره المصلحة والتقاليد البالية ، فيحض ابنه على ارتكاب فعل سيئ . • أليس فعلاً شيئاً أن يترك شاب فتاة نبيلة القلب ضحكت فى سبيله بكل شيء ، وأساء اليها اساعات كثيرة ؟ والسبب الثانى الذى دفعنى الى التفكير فى تزويج ابنى من ابنة زوج الكونتيسة زينايد فيدوروفنا هو ان هذه الفتاة جديرة بالحب والاحترام الى أقصى حد . • انها جميلة ، مهيبة ، قوية الشخصية ، ذكية جداً ، رغم انها ما تزال طفلة غرة من نواح كثيرة . • واليوشا ضعيف الشخصية طائش ، قليل التبصر الى أبعد الحدود ، وما يزال طفلاً رغم انه فى الثانية والعشرين من عمره . • انه لا يملك من المزايا الا الكرامة وطيب القلب ، وهما ميزتان خطرتان اذا ضمنا الى نقائصه . • وقد لاحظت منذ مدة طويلة أن تأثيرى فيه أخذ يقل : فحماسة الشباب واندفاعاته تغلب فيه على بعض الواجبات . • قد أكون مسرفاً فى محبته ، ولكنى مقتنع باننى أصبحت لا أستطيع السيطرة عليه وحدى ، ولابد مع ذلك من شخص يؤثر فيه تأثيراً مفيداً مستمراً . • ان طبيعته خضوع ، ضعيفة ، يسيطر عليها الحب . • انه يفضل أن يحب ويخضع على أن يقود ويخضع . • وسيظل على هذه الحال طوال حياته . • تستطيعين اذن أن تتصورى مدى فرحى حين التقيت بكاترين فيدوروفنا ، المثل الاعلى للفتاة التى أتمناها امرأة لابنى . • غير ان الاوان كان قد فات ، فقد كان ابنى خاضعاً لتأثير فتاة أخرى بلا منازع : هى بانت . • ولقد راقبته مراقبة يقظة حين عدت من بطرسبرج منذ أسبوع ، فلاحظت فيه تغيراً حسناً أدهشنى ، لاحظت فيه صبوات نبيلة تترسخ وتشتد ، رغم انه ما يزال طائشاً ، وما يزال طفلاً . • لاحظت انه أخذ يهتم لا بالترهات فحسب ، بل بأمور رفيعة شريفة . • ان له أفكاراً غريبة ،

متقلبة ، وأحياناً مستحيلة • غير ان رغباته ، واندفاعاته ، وقلبه ، خير من ذلك ، وهذا أساس كل شيء • لا مشاحة ان جميع هذا التحسن الذى أصابه يرجع الفضل فيه اليك • لقد جددت تربيته • واعترف لك باننى فى تلك اللحظة انما تراءى لى انك تستطيعين أن تحققي سعادته أكثر من أى انسان آخر • ولكننى طردت هذه الفكرة من ذهنى ، وأخذت أعمل ، وخيل الى اننى بلغت غايتى • ومنذ ساعة فحسب ، كنت لا أزال أعتقد ان الظفر حليفى • الا ان الحادث الذى وقع فى بيت الكونتيسة قلب ظنونى رأساً على عقب ، دفعة واحدة • والامر الذى فجأنى خاصة هو هذا الجلد العنيد فى اليوشا ، هذه الصلابة فى تعلقه بك ، هذا الاستمرار وهذا العنف فى تلك الصلة التى بينك وبينه • أعود فأقول لك : انك قد جددت تربيته • وسرعان ما لاحظت أيضاً ان التغير الذى تم فيه أبعد مدى مما ظننت • فقد برهن اليوم أمامى على ذكاء ماكنت أظنه فيه ، وبرهن فى الوقت نفسه على رهافة فى التفكير نادرة ، ونفاذ فى البصيرة • عجيب • لقد اختار أضمن الطرق للخروج من الموقف الذى يظنه مأزقاً حرجياً ، فمس فى قلب الانسان أرهف أوتاره ، أعنى روح الغفران والرد على الشر بالخير • مضى الى الانسانية التى أساء اليها ، فطلب منها العطف والمعونة ، اعتمد على كبرياء المرأة التى أصبحت تحبه ، فاعترف لها بانه يحب غيرها ، وفى الوقت نفسه أيقظ فى نفسها العطف نحو غريمتها ، وحصل منها على الصفع والمغفرة ، حتى وعدته بصداقة أخوية مخلصية • مبرأة من الغرض • ان أعقل الرجال وأحكمهم وأحذقهم يعجزون أحياناً عن بسط مثل هذا الامر دون أن يجرحوا أو يسيئوا ، والذين يستطيعون ذلك انما هم ذوو القلوب الغضة النظرة الصافية كقلبه • أنا مقتنع بأنك لم تساهم فى مساء اليوم لا بالكلام ولا بالنصح • ولعلك لم تعلمى بهذا الامر الا فى هذه اللحظة • • أنا مخطيء ؟

— لست مخطئاً !

قالت ناتاشا ذلك وقد احمر وجهها حتى أصبح بلون الجمر ، وكانت عينها تلتصقان ببريق عجيب كأنه بريق الالهام • لقد بدأ حديث الامير يحدث فيها تأثيره •

وأضافت تقول :

— لم أر اليوشا منذ خمسة أيام • هو الذى تخيل هذا كله ، ووضعه موضع التنفيذ •

قال الامير مؤيداً :

— الامر هكذا بلا شك • ولكن رغم ذلك ، فان هذا الفهم النافذ الذى لا عهد له به من قبل ، وهذه العزيمة ، وهذا الشعور بالواجب ، وهذه الصلابة النبيلة ، كل هذا انما هو نتيجة من نتائج تأثيرك فيه • لقد استقر رأيى بهذا الصدد ، وقد فكرت فى هذا الموضوع أثناء عودتى الى بيتى ، وشعرت ، بعد تفكير ، اننى قادر على اتخاذ قرار حاسم • ان مشروع الزواج الذى أردته له قد تعطل ، وليس فى الامكان استئناف الكلام فيه والسعى اليه : وهبى ذلك ممكناً ، فليس ثمة ما يبرره ويحضر عليه ، ذلك اننى مقتنع ، فى الواقع ، بانك الانسانة الوحيدة التى تستطيع أن تحقق سعادة ابنى ، وانك حقاً خير مرشد له ، وانك قد أرسيت منذ الآن أسس سعادته المقبلة ! ما أخفيت عنك شيئاً ، وما أخفى عنك الآن شيئاً • اننى امرؤ مولع بالتقدم والمال والشهرة والجاه ، واعترف بان فى ذلك كثيراً من سيطرة الآراء الخاطئة ، ومع ذلك لا أريد أبداً أن أركل هذه الامور بقدمى • ولكن هناك ظروفاً ينبغي للمرء فيها أن يأخذ باعتبارات أخرى ، ظروفاً لا يستطيع المرء فيها أن يزن الامور بميزان واحد • • ثم اننى أحب ولدى حباً عظيماً • وصفوة القول اننى انتهيت الى هذه النتيجة ، وهى ان اليوشا يجب ألا يتركك ، لانه اذا تركك

ضاع لا محالة • وهل تحين أن أعترف لك بشيء آخر ؟ لعلنى قد اتخذت هذا القرار منذ شهر ، ولكننى الآن انما أعترف لنفسى بأن ذلك القرار كان صائباً • وكان فى امكانى ، طبعاً ، كى أخبرك بهذا كله ، ان آتى اليك غداً ، وألا أزعجك فى مثل هذا الوقت وقد انتصف الليل أو كاد ، ولعل تعجلنى هذا أن يبرهن لك على شدة اهتمامى بهذا الموضوع ، وعلى مدى صدقى فيه بوجه خاص • لست طفلاً صغيراً ، ولا أستطيع ، فى هذه السن ، أن أعزم على أمر قبل أن أنعم فيه النظر والتفكير • حين دخلت الى هنا كان كل شيء قد تقرر فى ذهنى ورسخ • واننى لأعلم انه لابد من الانتظار مدة طويلة حتى أقنعك بصدقى اقناعاً تاماً • • هل تريدون أن أبسط لك الآن سبب مجيئى ؟ جئت لأفنى ديناً لك على ، لأسألك بما أحمل لك من احترام عظيم أن تحققى سعادة ابنى بقبوله زوجاً لك ! ولكن أرجوك ألا تحسبنى أباً رهيباً قرر ، على سبيل حل المشاكل ، أن يغفر لولديه ، وأن يمن عليهما بالموافقة على سعادتهما ! لا ! لا ! انك لتهينتنى اذا حسبتنى كذلك ! لا ولا تحسبنى انى موقن منذ الآن بأنك موافقة على هذا الزواج ، استناداً الى ما أسلفت من توضيحات فى سبيل ولدى • لا ! أنا أول من يقول ان ابنى ليس كفتاً لك و • • • (انه مخلص وطيب) • • وسيقر هو نفسه بهذا • ليس هذا كل شيء • ليس هذا الامر وحده هو الذى قادنى الى هنا فى مثل هذه الساعة • • لقد أتيت الى هنا • • (قال ذلك ونهض من مكانه فى احترام يشبه الاجلال) لأصبح صديقك ! أنا أعلم ان ليس لى فى هذا حق • • ولكن اسمحى لى أن أحاول أن أكون جديراً بهذا الحق ! اسمحى لى أن أومله ذلك ! • •

قال هذا وانحنى امام ناتاشا فى احترام ، وانتظر جوابها • كنته طوال حديثه أراقبه فى اتباه يقظ ، ولاحظ هو ذلك •

لقد ألقى خطابه في يرود ، وفي شيء من التحذلق ، وفي نوع من الإهمال في بعض الفقرات • وكانت لهجته لاتناسب ، في جميع مواضع الخطاب ، هذه الاندفاع التي القته إلينا في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل ، وفي مثل هذه الظروف على وجه الخصوص • كانت بعض عباراته تنبئ بأنها مهيأة ، وكان في مواضع أخرى من هذا الخطاب الطويل ، الغريب في طوله ، ان يخفي تحت ألوان النكتة والمرح والمزاح شعوراً يحاول ان يعبر عن ذاته • على اننى سأحلل هذا كله فيما بعد ، فانما نحن الآن في شأن آخر • لقد بلغ في كلماته الأخيرة من التدفق والعاطفة وصدق التعبير عن احترامه لناناشا ما جعله يأسرنا ويسيطر علينا جميعاً ، حتى لمع بين أهدابه في لحظة من اللحظات ، شيء أشبه بدمعة • لقد أسر قلب ناناشا النيل ، فنهضت كما نهض • ومدت إليه يدها دون ان تقول كلمة واحدة ، وهي في حالة من الانفعال الشديد والتأثر العميق • فتناول يدها وقبلها في حب ورفق وعاطفة • وكان أليوشا من فرط حماسه قد خرج عن طوره ، فهتف :

— ألم أقل لك ياناناشا ؟ كنت لاتصدقيننى ، كنت لاتصدقين انه انبل رجل على وجه الأرض ! هل ترين الآن ؟ •

وارتمى على اييه فقبله في حماسة عنيفة ، ورد أبوه القبلة بثلاثها ، ولكنه اسرع فوضع حداً لهذا المشهد العاطفى ، كأنما هو يستحى ان يظهر عواطفه •

قال وهو يتناول قبعته :

— كفى هذا • انا ذاهب ، لقد استأذنتكم في عشر دقائق ، وهاءنا ذا قد مكث ساعة برمتها (قال ذلك وضحك ضحكة صغيرة) • غير اننى آثاركم منتظراً لقاءكم مرة أخرى بصبر فارغ ، وشوق محرق ، وارجو

ان يكون هذا اللقاء فى اقرب فرصة ممكنة • هل تسمحين لى ان آتى
لرؤيتكم كلما اتسع وقتى لذلك ؟
قالت ناتاشا :

— نعم ، نعم ، على قدر ما تستطيع !
واضافت تقول خجلة مضطربة :
— انتى أود أن •• أحبك بأقصى سرعة ممكنة !
قال الأمير وهو يتسهم لكلامها :

— ما اصدقك ، وما اشرف نفسك ! انك لاتحاولين اخفاء عواطفك
حتى فى قول كلمة لطيفة • ولكن صدقك اثن من كل هذا اللطف الذى
يتظاهر به الناس • نعم ! اشعر انه لابد من مضى وقت طويل ، طويل ،
قبل ان استحق صداقتك !

فقالت ناتاشا مضطربة :

— كفى مجاملة !
ما كان أجملها فى هذه اللحظة !
قال الأمير ينهى الحديث :

— لك ماتشائين • ولكن اسمحى لى بكلمتين اخيرتين • هل تستطيعين
ان تصورى مدى تعاستى ؟ لن استطيع ان آتى لرؤيتك غداً ولا بعد غد •
لقد وصلتى فى هذا المساء رسالة هامة جداً ، يُطلب الى فيها أن أساهم بلا
ابطاء فى قضية من القضايا • لا استطيع ان اتخلص من هذا بوجه من
الوجوه • سأترك بطرسبرج فى صباح الغد • أرجوك أن لا تقضى انتى
أتيت لرؤيتك فى هذه الساعة المتأخرة من الليل لأنتى ما كنت أستطيع أن
آتى غداً أو بعد غد • انك لاتظنين هذا حتماً ، ولكن فكرى الشكاك
الرياب يصوّر لى ما يشاء ! لماذا تراعى لى انك ستظنين هذا لا محالة ؟

بالسوء ظنى ما أشده ! ما أكثر ما عاقنى فى هذه الحياة ! ولعل اختلافى
مع أهلك أن يكون مرده الى سوء هذا الظن هذا ، الى هذا الطبع السيئ .
الذى يسبب لى كثيراً من المتاعب ! .. هذا اليوم هو يوم الثلاثاء .
سأغيب الاربعاء والخميس والجمعة . وآمل ان أعود حتماً فى يوم
السبت ، وسأتى لرؤيتك فى ذلك اليوم نفسه . هل أستطيع أن آتى
لقضاء السهرة كلها !

— طبعاً طبعاً . سأنتظرك فى مساء السبت بفارغ صبر !
— ما أسعدنى بهذا ! سأزداد معرفة بك يوماً بعد يوم .. أنا ذاهب
الآن . ولكننى لا أستطيع أن أذهب بدون أن أصافحك (قال هذا وهو
يلتفت فجأة نحوى) . سامحنى . اتنا جميعاً فى هذه اللحظة نتحدث
حديثاً متقطعاً .. لقد سعدت قبل اليوم ، عدة مرات ، بـلقائك ، حتى لقد
قدم كل منا للآخر . لا أستطيع أن أذهب دون أن أعبر لك عن مدى
سرورى بتجديد التعارف بيننا .

أجبت وأنا أتناول يده التى مدها الى :

— لقد التقينا قبل اليوم ، هذا صحيح ، ولكننى لا أذكر أن أحده
قدم للآخر .

— فى منزل الامير س .. السنة الماضية .
— عفواً ، لقد نسيت هذا . وأعاهدك على ألا أنسى بعد هذه المرة .
ستبقى هذه الامسية ماثلة فى ذاكرتى لا تبارحها .
— اصبت . وأنا كذلك لن أنسى هذا اللقاء . اننى أعرف منذ مدة
طويلة انك صديق ناتاليا نيقولايفنا وابنى .. ونعم الصديق المخلص
انت ! آمل أن أكون رابعكم . أليس كذلك ؟ (قال هذا وهو يلتفت الى
ناتاشا) .

- نعم انه صديق مخلص ، ويجب أن نجتمع نحن الاربعة •
 قالت ناتاشا ذلك تلهمها عاطفة عميقة • مسكينة ! لقد أضاء وجهها
 بفرح عظيم حين رأت أن الامير لم ينس أن يتوود الى ! ما أعظم
 ما تحبني ! ••

وأضاف الامير يقول :

- لقيت كثيراً من المعجيين بموهبتك ، وأعرف اثنتين من قارئتك
 المتحمسات ، يسرهما جداً أن تعرفاك شخصياً ، وهما الكوتيسية ، خير
 صديقتي ، وابنة زوجها كاترين فيدوروفنا فيليمونوفا • اسمح لي أن
 آمل ألا تضن على بمتعة تقديمك الى هاتين السيدتين •
 - سيكون ذلك شرفاً عظيماً لي ، وان تكن علاقاتي في هذه الايام
 قليلة ••

- هلا سمحت باعطائي عنوانك ؟ أين تسكن ؟ ولسوف يسرني
 جداً أن •••

- اننى لا أستقبل أحداً في بيتي ، أيها الامير ، في هذه الايام على
 الاقل ••

- ولكننى ، وان كنت لا أستحق أن أستشى ، أريد أن ••

- لك ما تشاء أيها الامير ما دمت تصر ، وميسرني هذا جداً ••
 اننى أسكن في شارع ن •• عمارة كلوجن •
 فهتف ، كأنما شدهه هذا :

- منزل كلوجن ؟ كيف ؟ هل •• تسكن في هذا المنزل منذ مدة
 طويلة ؟

قلت وأنا أنظر اليه على غير ارادة منى :

- كلا ، لا أسكن فيه منذ مدة طويلة .. ورقم مسكنى هو ٤٤ •

- ٤٤ ؟ وتعيش .. وحدك ؟

- نعم وحدى •

- ها .. ذلك ان .. يبدو لى اننى أعرف هذا المسكن • حسناً ، هذا سهل على .. سأذهب اليك حتما ، حتما • نعمة أشياء كثيرة أحب أن أقولها لك ، واننى لأنتظر منك أشياء كثيرة • تستطيع أن تتفضل على فى أمور كثيرة • أرايت ؟ هاءنا ذا أبدأ على الفور بتقديم مطالب ! والآن الى اللقاء • هات يدك ، مرة أخرى !

وصافحنى ، وصافح أليوشا ، وقبل يد ناتاشا الصغيرة مرة أخرى ، وخرج دون أن يرجو أليوشا اللحاق به •

ظللنا نحن الثلاثة مضطربين أشد الاضطراب • لقد تم هذا كله فجأة على غير توقع • وشعرنا جميعاً أن كل شيء قد تغير فى طرفة عين ، وأن شيئاً جديداً مجهولاً يبدأ • جلس أليوشا الى جانب ناتاشا دون أن ينبس بكلمة ، وقبل يدها فى رفق • وكان يلقي عليها من حين الى حين نظرة انتظار لما ستقول •

قالت ناتاشا أخيراً :

- أليوشا ، عزيزى ، اذهب منذ الغد الى كاترين فيدوروفنا •

- فكرت فى هذا أيضاً ، سأذهب حتماً •

- ولكن قد يشق عليها أن تراك .. فما العمل ؟

- لا أدري يا عزيزتى • لقد فكرت فى هذا • سأرى • سأأخذ

قراراً • اسمعى يا ناتاشا ، لقد تغير الآن كل شيء (لم يسع أليوشا ألا

يقول هذا) •

فابتسمت ناتاشا ، وألقت عليه نظرة طويلة تفيض عطفاً وحباً •
 — ما ألبقه ! لقد رأى مسكنك الفقير ، ولم يقل شيئاً •••
 — بصدد ماذا ؟

فأجاب وقد احمر وجهه :

— بصدد الانتقال من هذا المسكن ••• أو شيء آخر •••
 — هل تريد أن تسكت يا أليوشا ؟ ما هذا الكلام ؟

— أريد أن أقول انه لبق جداً • لقد أتى عليك كثيراً • ألم أقل لك ؟ نعم ، انه يستطيع أن يفهم كل شيء ، وأن يشعر بكل شيء • ولكنه تحدث عنى حديثه عن طفل : انهم جميعاً ينظرون الى نظرتهم الى طفل ! ولم لا ؟ اننى فى الواقع طفل •

— انك طفل يا أليوشا ، ولكنك أنفذ بصيرة منا جميعاً • انك طيب يا أليوشا !

— لقد قال ان طيب قلبى يسىء الى ؟ ما معنى هذا ؟ اننى لا أفهم !
 ما رأيك يا ناتاشا ؟ ألسنت أحسن صنعا اذا لحقت به فوراً ؟ سأكون عندك غداً منذ الفجر •

— اذهب اذهب يا عزيزى • فكرة حسنة • اذهب اليه حتماً •
 وغداً تأتى متى استطعت • فى هذه المرة لن تختفى خمسة أيام (قالت هذا بلهجة متخابثة ، وهى تنظر اليه نظرة مداعبة) •

كنا جميعاً فى فرح عظيم كامل • وهتف أليوشا وهو يترك الغرفة :
 — تعال معى يا فانيا •

— بل سيبقى هنا • ثمة أمور يجب أن نتحدث فيها يا فانيا • اتبه يا أليوشا ، غداً منذ الفجر !

— هو كذلك ، الى اللقاء يا مافرا !

كانت مافرا مضطربة جداً • لقد أصغت وراء الباب الى كل ما قاله الامير ، ولكنها لم تفهم كل شيء • كان بودها لو تنفذ الى السر ، ولو تطرح بعض الاسئلة • على انها فى هذه اللحظة كان يبدو عليها الجذ بل والخيلاء ! كانت تشعر كذلك أن ثمة تغيراً كبيراً قد تم •

وبقينا وحدنا • وتناولت ناتاشا يدي ، وظلت صامتةً بعض الوقت ، كأنها تبحث عما تقوله ••

وقالت أخيراً بصوت ضعيف :

— اننى تعب • اسمع يا فانيا • ستذهب غدا الى بيت أهلى ، مارأيك؟
— سأذهب حتماً •

— تحدث الى أمى ، ولكن لا تقل له هو شيئاً •
— تعلمين أننى لا أحدثه عنك أبداً •

— صحيح •• سيعلم بالأمر دون أن تجدته به • ولكن لاحظ ما سيقوله ، لاحظ كيف يستقبل النبأ • رباه ! قل لى يا فانيا هل يُعقل ألا يلعننى بسبب هذا الزواج ؟ لا ، ليس يُعقل !
أجبت بسرعة :

— على الامير أن يدبر الامر كله • يجب أن يصلح أباك حتماً •
ومنى تم هذا ، تذلت العقبات كلها •

قالت بصوت متوسل :

— يا ليت هذا يتم !

— لا تقلقى يا ناتاشا ، سيتم كل شيء على ما تحبين ، لقد انفتح

الطريق •

فنظرت الى نظرة طويلة ملحة •

— فانيا ، ما رأيك في الامير ؟

— اذا كان صادقاً فيما قال ، فهو في رأيي انسان على جانب عظيم

من النبل •

— هذا رأيي ايضاً •

قلت في نفسي : اذن فقد خامرها شيء من الريب • عجيب !

— كنت تتفرس فيه طوال الوقت •

— نعم ، لاح لي غريباً بعض الشيء •

— وكذلك بدا لي انا • انه يتحدث على نحو ••• انتي متعبة

يا صديقي • اسمع يا فانيا : 'عد' انت ايضاً الى بيتك • وتعال الى غداً

متى استطعت ، بعد ان تذهب اليهم • اسمع ايضاً : ألم اسيء اليه حين

قلت له انتي اود ان احبه بأقصى سرعة ممكنة ؟

— ليس في هذا الكلام ما يسيء !

— أليس فيه شيء من الحماسة ؟ اليس يعني انتي لا أحبه بعد ؟

— ليس على كلامك من مأخذ • كان حديثك ساذجاً عذبا • وكنت

في تلك اللحظة في غاية الجمال !••• وانه ليكون غنيا اذا لم يقدر كلامك

حق قدره !

— كأنك مستاء منه يا فانيا ؟ آه ، ما اكثر شكوكي وغروري !

لا تضحك : انت تعلم انني لا اخفي عنك شيئاً • آه يا فانيا ، يا صديقي

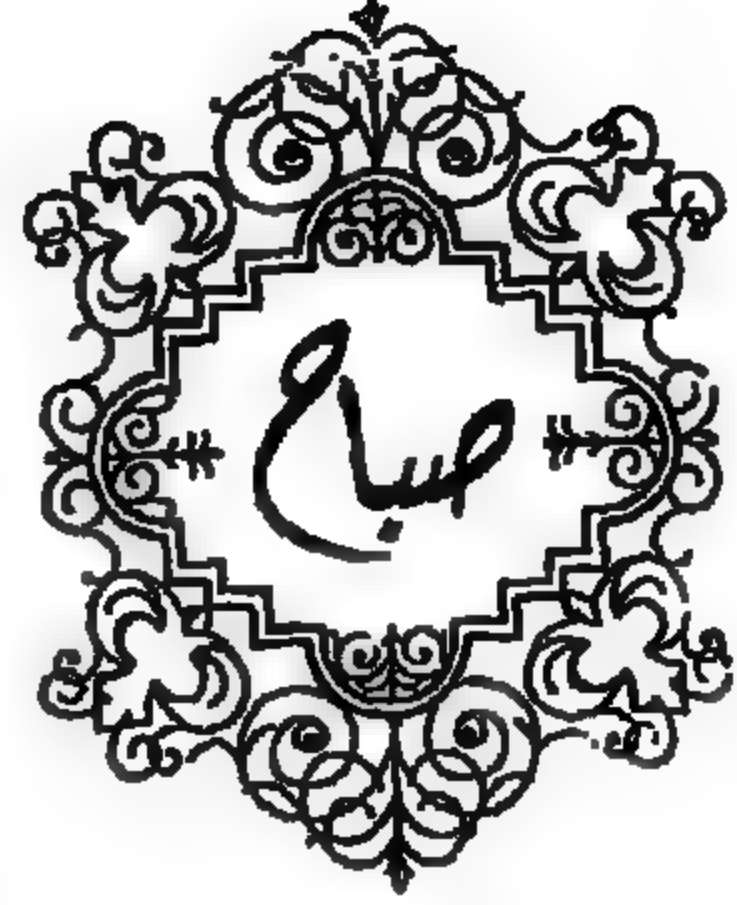
العزير • اذا عدت 'شقية' بائسة كما كنت ، اذا عاد الى الشقاء والبؤس ،

فستكون حتماً هنا الى جانبي ، أعلم ذلك • وقد تكون الوحيد ! كيف

ارد لك هذا الجميل كله ! لا تغضب مني يوماً يا فانيا !

حين عدت الى بيتى ، خلعت ثيابى فوراً ، واضطجعت على سريرى
انشد النوم • كانت الغرفة مظلمة رطبة كأنها كهف • وحاصرتى افكار
كثيرة ، واحساسات غريبة ، وظللت مدة طويلة لا استطيع النوم •
هناك رجل لا بد انه كان يضحك منا ملء شديقه فى تلك اللحظة ،
وهو يرقد على سريريه الوثير ، هذا اذا رضى ان يتفضل بالضحك منا !
فلعله يرى فى ذلك شيئاً لا يليق بمقامه الرفيع •

الفصل الثالث



الغداة ، في نحو الساعة العاشرة ، بينما كنت خارجاً من مسكني لأذهب مسرعاً الى أسرة اخنيفة في قاسيلي أوستروف ثم الى ناتاشا ، اصطدمت عند عتبة الباب بزاخرة الليلة البارحة ، حفيذة سميت . كانت آتية الى بيتي . وأذكر انني سررت برؤيتها سرورا عظيما ، لا أدري لماذا ! لم يتسع وقتي ، أمس ، للتفرس فيها ، حتى اذا رأيتها اليوم في وضع النهار ، زاد عجبى لها . من الصعب أن يلقى المرء مخلوقاً أعجب وأندر من هذه الطفلة ، من حيث مظهرها على أقل تقدير . كانت تستطيع أن تستوقف انتباه أى انسان في الشارع : قامة قصيرة ، عيان سوداوان براقتان ليس فيهما شيء روسي ، شعر ناعم مبشر على الرأس خصلاً كثيفة ، نظرة خرساء كأنها لغز . ان نظرتها هي التي تفجأ الانتباه خاصة : هي نظرة يلتصع فيها ذكاء حاد ، ويشيع فيها الريب والتحدى في الوقت نفسه ، أما نوبها المتهرئ فقد ظهر لي في وضع النهار أسوأ مما ظهر البارحة . انه أسعال خلقة بالية . ولاح لي انها مصابة بمرض من الأمراض مزمن ، بطيء ، عنيد ، يهدم الجسم شيئاً فشيئاً لا محالة . كان وجهها النحيل أصفر أسمر في آن واحد ، تنظر اليه فتعرف أن صاحبه مريض . على انها لم تكن دميعة ، رغم جميع التشوه الذي حمله اليها المرض والبؤس : ان حاجبيها جميلان ، مقوسان في كثير من الدقة والنعومة ، وان جبينها عريض وميم ، وان شفيتها

دقيقتان تلوح فيهما امارات الجرأة والكبرياء ، ولكنهما شاحبتان لا تكاد ترى لهما لونا •

هتفت أقول :

— ها • هذا أنت ؟ كنت أعرف انك ستأتين • ادخلي ادخلي •

اجتازت العتبة ببطء ، وهى تلقى على ما حولها نظرة ارتياب ، كما فعلت بالامس • واخذت تدقق فى هذه الغرفة التى عاش فيها جدها ، كأنها تحاول ان ترى ما أحدثه الساكن الجديد من تبديل فيها • قلت فى نفسى : ما الحفيدة الا جدها ، أتراها مجنونة ؟ وظلت صامته وظللت انتظر •

ودمدمت تقول اخيراً ، وهى تغض طرفها :

— جئت آخذ الكتب •

— ها • نعم • كتبك • هذه هى • خذوها • لقد احتفظت لك بها خصيصا •

فرمقتنى بنظرة مستطلعة ، وارتسم على شفتيها ما يشبه ان يكون ابتسامة ؟ غير ان مشروع الابتسامة هذا ما لبث أن زال ، وحل محله ، فجأة ، المعنى القديم القامى الغريب •

— سألتى وهى تنظر الى من قمة الرأس الى اخمص القدمين نظرة ساخرة :

— هل حدثك جدى عنى ؟

— لا •• لم يحدثنى عنك ، ولكنه ••

فقاطعتنى تسأل :

— فكيف عرفت اذن اتى سأتى ؟

- لانه لاح لى ان جدك كان لا يمكن ان يعيش وحده لا يأتى اليه
أحد • لقد كان هرما ضعيفا ، فلا بد أن أحداً كان يأتى اليه • خذى •
هذه كتبك • هل تدرسين فيها ؟
- لا •

- فيم تفيدك اذن ؟
- كان جدى يعطينى دروسا حين آتى اليه •
- ثم لم تأت بعدئذ ؟
- ثم لم آت ، لانتى مرضت •
قالت ذلك كأنها تبرر انقطاعها عن المجيء •
- هل لك اسرة ؟ أب ، أم ؟

ما ان القيت عليها هذا السؤال حتى قطبت مابين حاجبيها ، ورشقتنى
بنظرة مذعورة ، ثم خفضت عينيها ، واستدارت من غير أن تنطق بكلمة ،
وخرجت من الغرفة ببطء ، دون ان تتنازل فتجيبنى ، كما فعلت امس
تماماً • وتابعتها بعينى مشدوها ، فاذا هى تتوقف عند عتبة الباب فجأة ،
وتلتفت نحوى التفاتاً خفيفاً ، وتسألنى بحركة تشبه حركتها امس حين
نظرت الى الباب وهى خارجة لتسألنى عن أخبار آزور :
- ممّ مات ؟

فاقربت منها ، وأخذت أروى لها الحكاية بسرعة • فكانت تصنى
الى صامته منتبهة ، وقد خفضت رأسها وأدارت لى ظهرها • رويت لها
ايضاً ان العجوز ذكر الشارع السادس وهو يموت • واضفت اقول :
« فافترضت ان شخصاً عزيزاً على العجوز يسكن فى ذلك الشارع ، ولهذا
كنت انتظر مجيئه احد يسأل عنه • لا شك انه كان يحبك كثيراً ، لذلك
تحدث عنك فى لحظاته الاخيرة » • فقدمت بقول فى أسف :

— لا ، لم یکن یحبنی •

كانت متأثرة أشد التأثير • وقد انحنيت عليها ، وانا اتكلم ، ونظرت في وجهها ، فلاحظت انها تبذل جهوداً هائلة لخلق انفعالها امامي ، كبرياءً ، وأخذ لونها يزداد شحوباً شيئاً بعد شيء ، ثم عضت شفتها السفلى عضاً قوياً • غير ان ضربات قلبها العجيبة هي التي لفتت انتباهي خاصة ، لقد اخذت ضربات قلبها تشدد وتشد ، حتى اصبح من الممكن ان تسمع على بعد خطوتين او ثلاث خطوات • وخيل الى انها ستنفجر باكية ، كما فعلت بالامس ، ولكنها سيطرت على نفسها ، وسألتني :

— اين مكان السياج ؟

— أي سياج ؟

— السياج الذي مات بالقرب منه •

— سأريك اياه •• حين نخرج • ولكن اسمي •• ما اسمك ؟

— ليس ضرورياً ••

— أي شيء هو غير ضروري ؟

— لا شيء • ليس لي اسم •

قالت ذلك فجأة ، وتحركت تهمُّ أن تذهب ، فأمسكت بها ، وقلت :

— انظري أيتها البنية الغريبة ! اني اريد لك الخير ، وأنت تعرفين

ذلك • لقد اشفقت عليك منذ رأيتك تبكين أمس في ركن من السلم • لا أستطيع ان اتصور ذلك •• ثم ان جذك قد مات بين يدي ، ولا شك انه كان يفكر فيك حين ذكر الشارع السادس ، فكأنه اذن قد عهد بك الى • انه يظهر لي في الحلم •• وقد احتفظت لك بكتبك ، ولكنك متوحشة ، كأنك تخافين مني • لا شك انك فقيرة ، وربما كنت يتيمة ، تعيشين في كنف آخرين • أليس هذا صحيحاً ؟

كنت أحاول ان اهديء روعها في حرارة ، ولا ادرى انا نفسي
 ما الذي كان يجذبني اليها • كان يمازج عاطفتي شيء آخر غير الشفقة •
 أيرجع ذلك الى هذا الجو العجيب الذي احاط لقائي بها ، ام الى الاثر
 الذي احدثه في سميت ، ام الى مزاجي الغريب الخاص ؟ لا ادرى •
 ولكنني كنت منجذبا اليها انجذاباً لا يقاوم • وبدا لي ان كلماتي قد
 اثرت فيها • لقد نظرت اليّ نظرة غريبة لم تكن قاسية هذه المرة ، بل
 كانت لطيفة وطويلة ، ثم ما لبثت ان خفضت عينيها مرة اخرى ، كأنها لم
 تعزم امرها • وفجأة دمدت تقول بصوت منخفض :

— هيلين •

— اسمك هيلين ؟

— نعم •

— قولي ، هلاً أتيت الىّ من حين الى حين !

قدمت تقول ، وكأنها مع نفسها في صراع :

— لا استطيع •• لا اعرف •

وفي هذه اللحظة ، سمعنا دقات ساعة • فانتفضت هيلين ، وسألتني

وهي تنظر اليّ في قلق اليم لا يوصف :

— كم الساعة الآن ؟

— لعلها العاشرة والنصف •

فصرخت من الذعر تقول :

— يا الهي !

وهرولت على الفور ، ولكنني امسكت بها مرة اخرى في غرفة

المدخل ، قائلاً :

— لن اتركك تذهين هكذا ؟ ما الذى يخيفك ؟ هل تأخرت عن الوقت ؟

— نعم نعم • لقد خرجت خلصة • دعنى •
ثم صرخت وهى تحاول الافلات من بين يديّ :
— متضربنى !

— اسمعى قليلاً ، لا تهتاجى : انت ذاهبة الى فاسيلي اوستروف ،
وانا ايضاً ذاهب الى الشارع ١٣ ؛ لقد تأخرت عن موعدى ، وانوى
استئجار عربة ، فهل تأتين معى ؟ سأقودك الى بيتك ، فتصلين بسرعة •
فهتفت تقول وقد استبد بها دعر هائل :

— مستحيل •• يجب ان لا تأتى الى بيتى ••
وتشوه وجهها تشوهاً من الذعر •• لمجرد أنها تصورت ان من
الممكن ان اذهب الى حيث تسكن •

— ولكننى قلت لك اننى ذاهب الى الشارع ١٣ لقضاء عمل من
الاعمال ، ولست ذاهباً الى بيتك • لن اتبعك ، وستوصلنا العربة بسرعة •
ها ! •

وهبطنا على عجل ، واستوقفت 'اول عربة لقيتها • كان واضحاً ان
هيلين مستعجلة جداً ، ما دامت قد قبلت ان تتركب العربة الى جانبي •
واعجب شئ اننى لم اجسر على سؤالها عن شئ • حتى اذا سألتها : من
الذى تخافه فى بيتها ، حرّكت ذراعيها وهمّت ان تقفز من العربة •
فقلت فى نفسى : ما هذا السر ؟

كانت جلستها فى العربة قلقة جداً ، فكانت كلما اهتزت العربة ،
تتمسك بسترى بيدها اليسرى ، الصغيرة الوسخة المشققة • وكانت
تقبض كتبها بيدها الاخرى • ان كل شئ يشير الى ان هذه الكتب عزيزة

عليها • وفيما هي تصلح ثوبها ، انكشفت ساقها ، فاذا انا ارى ، على دهشة ، ان قدميها عاريتان في حذاء ممزق • ورغم اننى قررت ان لا اسألها عن شيء ، لم استطع في هذه المرة ان امنع نفسى عن السؤال :
 - ما هذا ؟ أليس لك جوارب ؟ كيف تستطيعين ان تخرجى عارية القدمين في هذه الرطوبة وهذا البرد ؟

فأجابت بلهجة متقطعة :

- ليس لى جوارب •

- رباه ! ولكنك تسكنين عند احد الناس مع ذلك ، وكان ينبغي ان تطلبى جوارب ، ما دمت قد احتجت الى الخروج •

- يعجبنى الامر هكذا •

- ولكن هذا يؤذيك ، ومن الممكن ان تموتى !

- سيان •

كان واضحاً انها تكره الاجابة ، وكانت اسئلتى تغيظها •

- انظرى • هناك مات •

قلت لها ذلك وانا اشير الى البيت الذى مات العجوز بالقرب منه • فنظرت الى المكان باتباه ، ثم تحولت الى فجأة بوجه متوسل تقول :

- ارجوك ، لا تبغنى ، سأتى اليك ، سأتى ، سأتى متى استطعت •

- حسناً • قلتُ اننى لن اذهب الى بيتك • ولكن من الذى

تخافينه ؟ لا شك انك شقية • انه ليؤلمنى ان أراك ••

فقلت بنوع من الحق :

- لا اخاف احدا •

— ولكنك قلت منذ لحظة « انها ستضربك ! »

فأجابت وقد اخذت عينها تلتمعان :

— فلتضربنى !

ثم كررت بلمهجة مرة ، وهى ترفع شفتها العليا احتقاراً ، وترتجف :

— فلتضربنى !

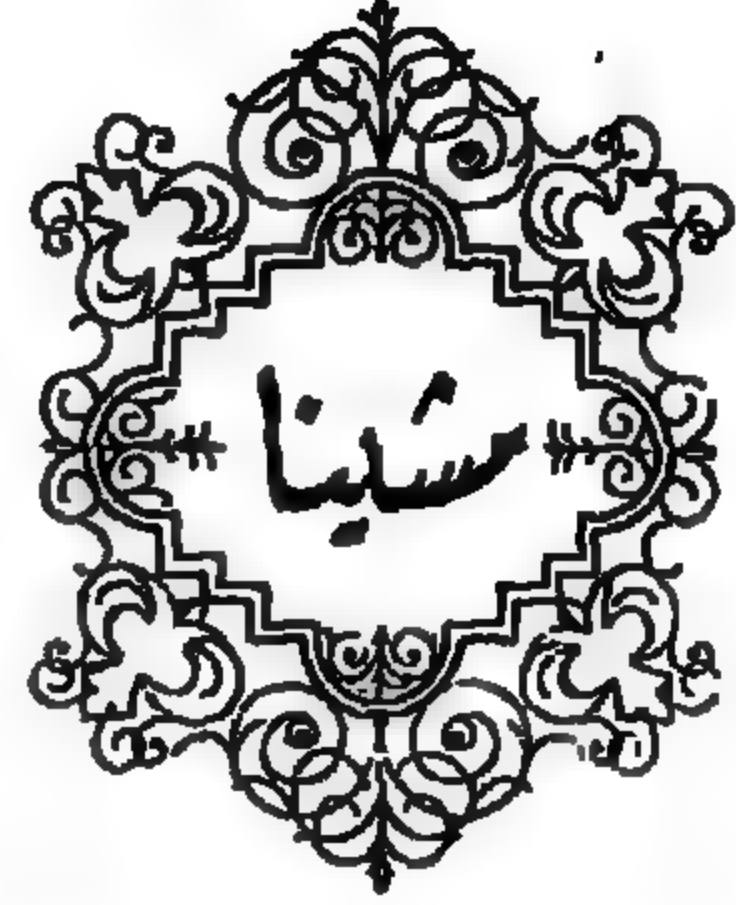
ووصلنا اخيراً الى فاسيلي اوستروف ، فاستوقفت الحوذى عند مدخل الشارع السادس ، وقفزت من العربية وهى تلقى حولها نظرة قلقة • وكررت تقول وقد اخذ منها الخوف كل مأخذ ، وجعلت تضرع الى ان لا اتبعها :

— اذهب ، سأتى اليك • اذهب حالا • بسرعة • بسرعة •

وتابعت طريقى ، ولكننى ما ان حاذيت رصيف النهر لحظة ، حتى صرفت الحوذى ، وعدت ادراجى الى الشارع السادس ، فانتقلت الى الرصيف الثانى بسرعة ، فلمحتها • لم يكن وقتها قد اتسع لابتعادها كثيراً ، رغم انها كانت تسير بخطى سريعة جداً • وكانت تنظر حولها فى كل لحظة ، حتى لقد توقفت برهة ، لتعرف أأنا أتبعتها أم لا • ولكننى اختفيت تحت احد الابواب فلم تلمحنى ؟ وظلت تسير ، وظللت اتبعها ، من الجهة الثانية دائماً •

كان حب الاستطلاع قد بلغ منى ذروته • لقد وعدتها ان لا اتبعها ، ولكننى كنت اريد ان اعرف البيت الذى ستدخله ، مهما يكلف الامر • لقد استبدت بى شعور ثقيل غريب يشبه الشعور الذى احده فى جدتها حين مات آزور فى المقهى •

الفصل الرابع



طويلا حتى بلغنا « الجادة الصغرى » • كانت
تسير سيرا أشبه بالركض • ودخلت أخيراً إحدى
الدكاكين فوقفت ' أنتظرها • قلت لنفسي : انها
لا تسكن دكاناً على كل حال • وما هي الا دقيقة
حتى خرجت فعلاً • ولكنها لا تحمل كتبها الآن • وانما تحمل انا من
آجر • وبعد أن اجتازت طريقاً قصيراً • دخلت باب بيت حقير المظهر •
صغير • هرم • مبنى بآجر • ذي طابقين • مصبوغ بلون أصفر وسخ •
وفي إحدى النوافذ الثلاث من الطابق الادنى يرى المرء تابوتا صغيرا أحمر •
اشارةً الى أن ههنا مصنع توابيت • كانت نوافذ الطابق الاعلى صغيرة
جداً • مربعة تماماً • وزجاجها كاب أخضر متشقق يرى المرء من خلاله
ستائر من نسيج قطنى وردى اللون •

اجتازت الشارع • واقتربت من البيت • فقرأت على لوحة من الحديد
موضوعة فوق الباب : « منزل الست «بوينوفا» •

وما ان فرغت من قراءة هذا الاسم حتى سمعت • من صحن منزل
السيدة بوينوفا • صرخة حادة • تبعثها شتائم مقذعة • فألقيت من خلال
فتحة الباب نظرة الى الداخل • فرأيت امرأة سمينة واقفة على درج صغير
خشبي • وقد وضعت على رأسها طاقية وعلى كتفها شالاً • واصطبغ وجهها
بلون أحمر منفّر • كان واضحاً انها سكرانة • رغم أن وقت الغداء ما يزال
بعيدا • وكانت تصب على المسكينة هيلين سيلا من الشتائم • وكانت هيلين

واقفة امامها كالشدهوه ، وقد امسكت آيتها بيديها • وفي اسفل الدرج ، وراء ظهر المرأة ذات الوجه القرمزى ، وقفت امرأة شعاء ، اختلط في وجهها الاحمر بالابيض ، وقفت تنظر الى المشهد • وبعد لحظة ، فتح باب السلم من الطابق الأعلى ، وظهرت على الدرجات امرأة متوسطة العمر ، فقيرة الملبس ، حلوة المنظر ، متواضعة الهيئة ، لا شك ان اصوات الصراخ هي التي دفعتها الى الخروج ؟ ومن خلال الباب المفتوح ظهرت رموس أناس آخريين من ساكنى الطابق الأعلى : شيخ مترنح وفتاة صبية ••• وفي وسط الباحة وقف فلاح فارح القامة قوى البنية لا شك انه البواب ، قد حمل بيده مكنسة ، واخذ ينظر الى المشهد كله فى كسل •

— يا ملعونة ، يا علة ، يا بقة ••

كذلك كانت المرأة تعوى ، وتصب على رأس هيلين كل ما تعرف من شتائم ، دون نقاط او فواصل ، كأنها تحزق • وتضيف قائلة :

— أهكذا تكافئتنى على ما احتمله من عناء ، يا وسخة ؟ أرسلها لتأينى بقليل من الحيار ، فتختفى ! لقد حدثنى قلبى بأنها ستهرب : مزقتها امس شر ممزق ، وها هي ذى تهرب اليوم مرة اخرى ! ولكن اين تذهين يا فاجرة ، اين تذهين ؟ الى من تذهين يا فاسقة ، يا قملة ، يا سم ، الى من تذهين ؟ قولى والا خفقتك !

ثم ارتمت على البنية وقد جنت من الحق •• ولكنها ، وقد رأت سكان الطابق الاعلى ينظرون اليها ، توقفت فجأة ، والتفتت اليهم ، واخذت تصرخ صراخاً اشدّ وهي تحرك ذراعيها ، كأنما لتشهدهم على الجريمة النكراء التى ارتكبتها ضجيتها المسكينة :

— تعرفون ان أمها قد فطست ، ايها الطيبون • وبقيت هي وحيدة

لا تملك ما تسد به الرمق • قلت لنفسي : سأتحمل غناء كفالة هذه
اليتيمة اكراماً للقديس نيقولا ، وحضنتها في بيتي • وها قد مضى شهران
وانا اعيلها ، شربت دمي ، اكلت لحمي • يا علقه ، يا حية ، يا جنية •
انها لا تقول شيئاً • لا تقول شيئاً ، ضربتها ام لم اضربها • • كأن في فمها
ماء • 'تحطم قلبي ولا تقول شيئاً ! ماذا تظنين نفسك يا حشرة ، يا قردة !
لولاي لمت من الجوع في الازقة • • يجب ان تبوسى قدمي يا ملصقة !
لولاي لكنت فطست من زمان •

فسألتها المرأة التي كانت تتجه اليها بالكلام ، سألتها باحترام :

- ولكن لماذا تجهدين نفسك هكذا يا آنا تريفونوفا ؟ ماذا فعلت
اليوم ايضا حتى ازعجتك هذا الازعاج كله ؟

- ماذا فعلت ؟ اننى لا اريد ان يخرج على ارادتي احد • شعاري :
لأن تعمل ما أريد ولو كان خطأ ، خير من ان تعمل ما تريد ولو كان
صوابا • هكذا انا • ولكنها اوشكت ان تقتلنى اليوم ! ارسلتها لشراء قليل
من الخيار ، فلم تعد الا بعد ثلاث ساعات ! كان قلبي يحدثنى بذلك حين
ارسلتها • الى اين ذهبت ؟ اى 'حماة قد وجدت ؟ ألم اغرقها بجميلي
واحسانى ؟ هل يجب ان اذكر اننى سددت عن أمها الحقيرة دين اربعة
عشر روبلاً من الفضة ، واننى انفقت على دفنها ، واننى اتولى تربية
شيطاتها ! تعرفين انت نفسك هذا ، ياسيدتى ! أليس من حقى ان اهزأها
قليلاً بعد هذا كله ؟ كان يجب ان يكون في قلبها شيء من عاطفة ، ولكنها
بدلاً من ذلك تعاكسنى ! اردت سعادتها ، اردت ان ترتدى اثوابا من
الموسلين ، واشتريت لها حذاء من السوق ، وألبستها كما تلبس الاميرات ،
فهل تعرفون ماذا فعلت ايها السادة ؟ مزقت ثوبها مزقاً ، واصبحت كما
ترون • فعلت ذلك عامدة ، لست اكذب ، رأيتموها بعيني • وقالت :
« اريد ثوباً من كتان ، لا اريد الموسلين » • وعندئذ خففت عن نفسي ،

فظللت اضربها وأدقها دقاً حتى اضطرت الى استدعاء الطبيب ، ودفع مال له . . . كان يجب ان اذبحك يا قملة ، ولكتني بدلا من ذلك اكنفيت بحرمانك من الحليب اسبوعاً واحداً ! ولكي اعاقبها ، الزمتها ايضاً بغسل الارض ؟ وصدقوني انها تغسل ، هذه الجيفة ، انها تغسل ! . . . تناكدني ثم تغسل ! قلت لنفسي : انها مستهرب ! وما كدت اتصور هذا حتى اختفت فعلاً ، في غمضة عين ! لقد سمعتم بأنفسكم ، ايها الناس الطيبون ، كم ضربتها بالأمس . لقد تحطمت يداي من الضرب . لقد نزعتم جواربها وحذاءها ، ظناً مني أنها لن تخرج عارية القدمين ، ومع ذلك خرجت ! أين كنت ؟ قولي ! ذهبت لرؤية من يا زوآنة ؟ لمن وشيت بي ؟ قولي ، قولي يا عجيبة !

وارتمت ، وهي في سورة الغضب هذه ، على الطفلة المجنونة من الذعر ، فحملتها من شعرها ، ورمتها على الارض . فأقلت الوعاء من يد هيلين وتحطم . وزاد هذا غضب الغولة السكرانة ، فضربت ضحيتها على الوجه وعلى الرأس . ولكن هيلين ظلت صامتة في عناد ، لم يفلت من فمها صوت ولا صرخة ولا آهة ، رغم الضرب المبرح . فأسرعت الى صحن الدار ، وقد طار صوابي من الاستياء ، وتقدمت من المرأة السكرانة ، وامسكت بذراعها ، صائحا :

— ماذا تعملين ؟ كيف تجرؤين ان تعاملي يتيمة فقيرة مثل هذه المعاملة ؟

— نعم ؟ ومن انت ؟ وماذا تصنع في بيتي ؟

هكذا أخذت تعسوي ، وقد تركت هيلين ووضعت قبضتها على خصرها .

فصرخت :

- انت امرأة بلا شفقة • كيف تجرؤين أن تعذبي طفلة مسكينة
هذا التعذيب ! ليست هي ابتك : سمعتك تقولين انك تبنيها نبياً ، وانها
يتيمة فقيرة ••

فأخذت تصرخ مهتاجة :

- يا يسوع المسيح ! من أين جئت أنت ايها الرجل ؟ لعلك جئت
معها ! اذن فانتظر •• انتى ذاهبة فوراً الى ضابط الشرطة •• ان أندره
تيموفتش نفسه يعدني نيلة من النيلات ! اذن فهي تذهب اليك ! من
انت ؟ وما مجيئك الى هنا تزرع الاضطراب في بيوت الناس ؟ النجدة ••
النجدة !

وهجمت على قابضة يديها • ولكن في تلك اللحظة دوّت على حين
غرة صرخة حادة عجيبة • ونظرت ، فاذا هيلين ، التي كانت واقفة كأنها
لا عاطفة لها ، ترتدى فجأة على الارض ، صارخة تلك الصرخة المخيفة ،
غير العادية ، وتضطرب في تشنجات رهيبة • وتجدد وجهها • انها نوبة
صرعة • فأسرعت الفتاة الشعاء والمرأة التي في الطابق الادنى تنهضانها
وتحملانها •

وصرخت المرأة المهتاجة تقول :

- ليتها تفتس ، هذه الملعونة • هي النوبة الثالثة في هذا الشهر ••
اخرج ، اخرج ايها المفسد •
وهجمت نحوى •

قال لى البواب بصوت منخفض متاقل ، كأنما يقوم بواجبه :

- اخرج • لا تتدخل في شئون الآخرين • هيا اذهب •
ولم يكن بد من الخروج ، فاجتزت الباب ، وانا مقتنع بأن تدخل

كان عقيماً كل العقم • ولكنني كنت اُغلى من الاستياء • وظللت على الرصيف قريباً من الباب ، انظر من الفتحة • وما ان خرجت ، حتى صعدت المرأة بسرعة الى فوق ، واختفى البواب هو الآخر بعد ان قام بواجبه • وبعد لحظة ، نزلت المرأة التي ساعدت في حمل هيلين ، بسرعة نحو مسكنها ، فلما لمحتني توقفت ونظرت الى نظرة استطلاع • وقد سكتن وجهها الهاديء روعى ، فعدت الى فناء المنزل وتقدمت نحوها ، قائلاً :

- هل تسمحين لي أن أسألك من هي هذه البنية وما تصنع بها هذه المرأة الفظيعة ؟ ارجوك ان لا تظني انني اطرح عليك هذا السؤال من قِبل الفضول ، فقد صادفت هذه الطفلة ، وانا بسبب بعض الظروف يعني امرها كثيراً •

- اذا كان امرها يعنيك ، فالأفضل ان تأخذها اليك ، او ان تجد لها مكاناً ، والا ضاعت هنا •••

قالت ذلك كأنما على اسف ، وهي تتحرك لتبتعد عني •

- ولكن ما الذي استطيع ان افعله اذا لم تعطيني بعض المعلومات ؟ انني لا اعرف من الامر شيئاً • لعل هذه المرأة هي مدام بوبنوقا نفسها ، صاحبة البيت ؟

- نعم هي هي •

- ولكن كيف وقعت هذه الطفلة بين يديها ؟ هل ماتت امها هنا ؟

- على كل حال ، هي هنا •• والمسألة لا تهماً •

وارادت مرة اخرى ان تذهب • فقلت :

- من فضلك : ان هذا الامر يعني كثيراً ، وربما استطعت ان

افعل شيئاً • من هي هذه الطفلة ؟ ومن كانت امها ؟ هل تعلمين شيئاً
عن هذا ؟

- يظهر انها أتت من بلد آخر •• يظهر انها غريبة • وكانت
تعيش تحت ، وكانت مريضة جداً ، وماتت مصدورة •

- كانت تسكن القبو ؟ اذن لقد كانت فقيرة جداً •
- نعم ، يا لها من بائسة ! كان منظرها يمزق القلب المأ • ومع اتنا
اناس فقراء ، فقد اصبحت مدينة لنا بستة روبلات بعد الاشهر الخمسة
التي قضتها هنا • ونحن دفناها ، وزوجى هو الذى صنع التابوت •

- فلماذا تزعم بوبنوفنا اذن انها هي التى دفنتها ؟

- غير صحيح !

- ماذا كان اسمها ؟

- لا استطيع ان أنطق به • انه صعب • لا بد انها كانت المانية •
- سميت ؟

- لا •• ليس هذا تماما • وقد اخذت آنا تريفونوفنا البنت الصغيرة ،
لتربيتها فيما تزعم ، ولكن المسألة ليست نظيفة •

- لا شك انها اخذتها لغاية فى نفسها ••
- انها تقوم باعمال فاسدة ••

قالت ذلك فى تردد كأنها لا تريد ان تتكلم • وازافت تقول :
- على كل حال ، هذا لا يعنيننا نحن ••

وعندئذ دوى وراءنا صوت رجل يقول :

- والأفضل أن تصونى لسانك •

انه رجل متقدم فى السن بعض الشيء ، يرتدى ثوب المنزل وفوقه قفطان • كان ظاهراً عليه انه من اصحاب الحرف ! انه زوج محدثى • قال لى وهو ينظر الى شزراً •

— اسمع يا سيد ، ليس لدينا ما نقوله لك ، الأمر لا يعنيننا •

والتفت الى امرأته يقول :

— وانت اذهبي •

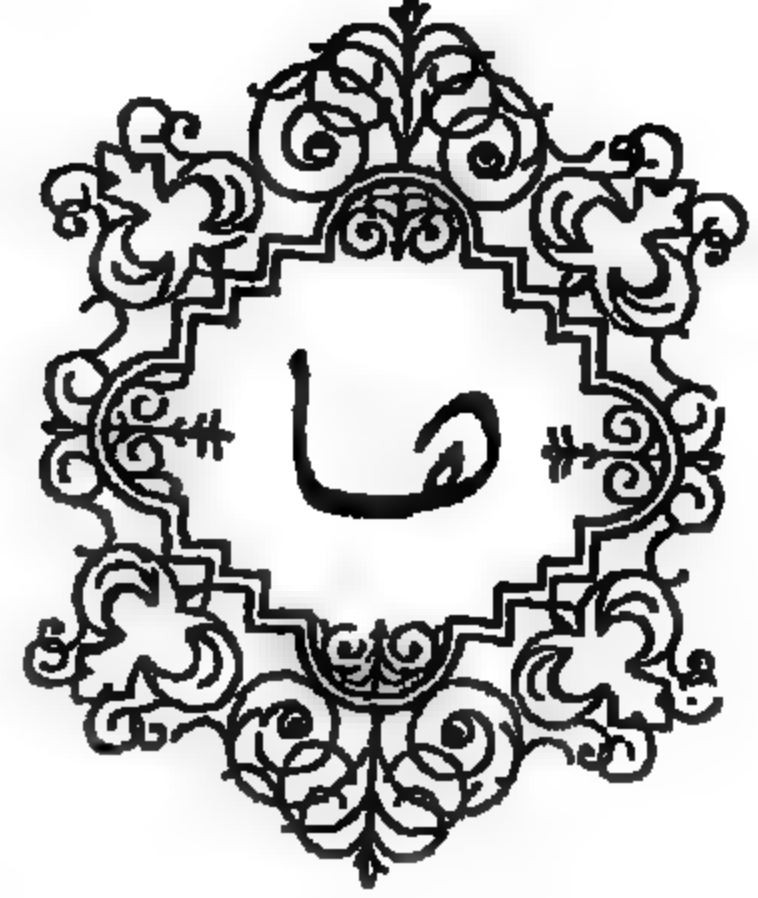
ثم اضاف يقول لى :

— وداعاً ايها السيد • نحن صانعو تواييت • فاذا كنت فى حاجة الى شيء يمت الى مهنتنا بصلة ، فعلى الرحب والسعة • • اما فيما عدا ذلك فلا شأن لك معنا البتة •

وخرجت من هذا البيت المعقد المضطرب • لم يكن فى وسعى أن أفعل شيئاً ، ولكننى كنت أشعر أنه يشق علىّ أن أترك كل شيء على هذه الحال • ولقد هزنتى كلمات قالتها زوجة صانع التواييت : ان فى الأمر شيئاً قدراً : كنت أوجس ذلك • وفيما كنت سائراً ، خافض الرأس ، غارقاً فى تأملاتى ، اذا بصوت خشن ينادينى باسم عائلتى فجأة • ونظرت ، فاذا أمامى رجل سكران يترنح • انه يرتدى ملابس نظيفة بعض النظافة ، ولكنه ملفع بمعطف ردىء ، وعلى رأسه قبعة قذرة • اننى أعرف وجه هذا الرجل • ووقفت أتفرس فيه ، فغمزنى بعينه ، وابتسم لى ابتسامة ساخرة وهو يقول :

— ألم تعرفنى ؟

الفصل الخامس



هذا أنت يا ماسلوبوف ! انه للقاء ! ..
بهذا صحت حين عرفت فيه فجأة رفيقا من رفاق
المدرسة الثانوية في بلدتي ، فأجاب :
- نعم ! هذه ست سنين أو سبع لم نلتق خلالها
.. بل الأصح أننا التقينا ، ولكن « معاليك » لم تتنازل فتمن علينا بنظرة ،
ذلك انك قائد من قادة الأدب .

قال ذلك وهو يتسهم ابتسامة ساخرة . فقاطعته اقول :
- دعك من هذا الهراء ! فالقادة ، حتى قادة الأدب ، لم 'يخلقوا
مثلي ... واسمح لي ان اقول لك ثانيا انني اتذكر انني لقيتك في الشارع
مرتين او ثلاث مرات ، ولكنك انت الذي هربت مني ، كان ذلك واضحا
كل الوضوح ، وأنا امرؤ لا أقرب انسانا حين أرى انه يتحاشاني . هل
تعلم ما الذي أعتقد الآن ؟ أعتقد انك ما كنت لتناديني لولا انك سكران ،
أليس هذا صحيحا ؟ على كل حال ، دعنا من هذا ، وعم صباحاً ! انني
سعيد جداً ، سعيد جداً بلقائك .

- صحيح ؟ أأست أسيء الى سمعتك اذا سرت معك وانا على ما ترى
من مظهر .. غير لائق ؟ ولكن دعنا من هذا ، فليس له من قيمة . انني
ما زلت اتذكر الطفل الوديع الذي كنته ، ايها الأخ فانيا . هل تذكر

انهم جلدوك يوماً بدلاً منى ؟ انك لم تقل شيئاً ، ولا وشيت بى ، وقد
سخرت انا منك طوال اسبوع كامل ، من قيل الاعتراف بالجميل •
ما أظهر نفسك ! (وتعانقنا) • انقضت سنون كثيرة ، وأنا اضطرب
وحدى ، فى الليل والنهار ، والأيام تنقضى ، ولكننى لا أنسى الماضى •
لا أنسى • وانت ، وانت ؟

— وانا ايضا اضطرب وحدى ••

ونظر الى نظرة طويلة فيها رقة انسان اضعفته الحمرة • لقد كان
على كل حال فتى طيباً • وقال اخيراً بلمهجة أسيانة :

— لا يا فانيا ، انت شئ آخر • لقد قرأت يا فانيا ، لقد قرأت ••
ولكن اسمع : قل لى بصراحة ، أأنت مستعجل ؟

— الصراحة أن هناك حادثاً هزنى هزاً قوياً • قل لى اين تسكن •
هذا افضل •

— سأقول لك • ولكن هذا ليس افضل • هل تريد ان اقول لك
ما هو الافضل ؟

— ما هو ؟

فأشار الى لافتة محل يبعد عشر خطوات عن المكان الذى كنا فيه
وقال :

— انظر • مقهى ومطعم • والحق انه مطعم فحسب ، ولكته مكان
لطيف • واقول لك انه مكان شريف • اما الفودكا فحدث عنها ولا حرج •
لقد شربتها هناك كثيراً ، فأنا اعرفها حق المعرفة • وفى هذا المحل
لا يجرمون على تقديم شئ ردىء الى • انهم يعرفون فيليب فيليتش •
ان اسمى فيليب فيليتش • ماذا ؟ لماذا تكسر ؟ لا ••••• دعنى اتم كلامى •

الساعة الآن الحادية عشرة والرابع • ففي الساعة الثانية والدقيقة الخامسة والثلاثين تماماً سأدعك تذهب • وإلى ان يحين ذلك الوقت سترثر قليلاً • هل تستكثر عشرين دقيقة على صديق قديم ، هه ؟

- أوافق على عشرين دقيقة ، اما اكثر من ذلك ، فلا ! لأن هناك اعمالاً يجب ان اقوم بها ، اقسم لك ••

- اذا كنت توافق فأنا اوافق • ولكن لي كلمتين اقولهما قبل كل شيء : لا يبدو عليك انك مرتاح ، كأن أحداً قد ازعجك منذ لحظة ، أهذا صحيح ؟

- نعم صحيح •

- لقد حزرت • ذلك اتى ايها الأخ منصرف الآن الى دراسة علم الفراسة •• هذا عمل كثيره من الاعمال ! ولكن هيئاً الآن • ستحدث بعد قليل • فى خلال عشرين دقيقة سأجهز قبل كل شيء على سماء شاي ، ثم ابتلع قدحا من شراب السندر ، فقدحاً من شراب الهال ، فقدحاً من شراب البرتقال ، ثم أقدحاً من اشربة اخرى • اتنى اشرب ايها الاخ • وليس لي من قيمة الا فى ايام الاعياد قبل الصلاة • اما انت ، فتستطيع ان لا تشرب اذا لم تشأ ان تشرب • ولكننى فى حاجة اليك • واذا شربت معى كان ذلك دليلاً على نبل نفسك • هيا • سترثر قليلاً ، ثم يذهب كل منا الى مسيله ، خلال عشرة اعوام ، انا لا استحقك ايها الاخ فاننا !

- هيا ، كفى هرفاً ، لتسرع الخطى ، لا يتسع وقتى لأكثر من عشرين دقيقة ، ثم أدعك وشأنك •

وكان علينا ، فى المطعم ، ان نصعد الى الطابق الثانى ، متسلقين سلماً خشبياً • وفجأة ، اصطدمنا على السلم برجلين قد اخذ منهما السكر كل مأخذ • فلما رأينا اصطفاً مترنحين •

كان احدهما فتى صغيراً لم تنبت لحية بعد ، ولم يكد ينبت شارباه .
 وكان منظره يعبر عن غباوة كبيرة . وكانت ملابسه أنيقة ، ولكنها
 مضحكة قليلاً ، فكأنه مرتدٍ ملابس شخص آخر ، وكان يزيّن أصابعه
 بخواتم جميلة ، ويرصع ربطة عنقه بدبوس ثمين ، وكانت تسريحة شعره
 غريبة ذات ذؤابة . وكان يتسم ويضحك طوال الوقت . اما صاحبه فهو
 فى نحو الخمسين من عمره : سمين بطين ، ذو هندام مهمل ، وكان هو
 الآخر يزين ربطة عنقه بدبوس كبير ، وكان اصلع ، وكان وجهه ضئيلاً
 خرقاً ثملاً ، وكان يضع نظارتين على انفه الذى يشبه شكله زراً . ان
 وجهه يعبر عن السوء والشهوانية . كأن عينيه الشريرتين الخبيثتين
 الريانتين الغارقتين فى الشحم تنظران من خلال شق . كان واضحاً انهما
 يعرفان كليهما ماسلوبوف ، ولكن الرجل السمين كشر حين رآنا
 تكسيرة الاستياء ، ولكن هذه التكسيرة ما لبثت أن اختفت . أما الصبي فقد
 انطلق وجهه بابتسامة متطفلة خاضعة ، حتى انه رفع قبعته . كان يضع
 على رأسه قبعة . ودمدم يقول ، وهو ينظر الى صاحبي نظرة تلتطف :

— اغفر لى يا فيليب فيليتش .

— اغفر لك ماذا ؟

فضرب الصبي عنقه بسبابته وقال :

— لا شيء . ان متروشكا هناك . هذا كلب . واضح ذلك .

— مامعنى هذا الكلام ؟

— طبعاً . . وهذا صاحبنا (وأشار برأسه الى رفيقه) قد رشوا

وجهه فى الأسبوع الماضى بالقشدة . . بفضل متروشكا ذاك نفسه . .

وهنا دفعه صاحبه من ذراعه غاضباً .

— ينبغي ان تأتي معنا ، يا فيليب فيليتش ، سنفرغ الآن زجاجة او زجاجتين ، هل يمكن ان تفضل بالمجيء معنا ؟

فأجابه ، ماسلوبوف قائلاً :

— لا يا عزيزي ، لا يتسع وقتي الآن ، تنتظرنى اعمال •

— ها ها ، انا ايضاً تنتظرنى اعمال ، وانت ••

ودفعه رفيقه مرة اخرى من كوعه •

كان ماسلوبوف يحاول ان لا ينظر اليهما • ولكننا ما ان دخلنا الحجرة الاولى التى تمتد على طولها منضدة مكتظة بانواع من المقبلات واللحوم الباردة وزجاجات الشراب المختلفة الالوان ، حتى قادنى بسرعة الى ركن من اركانها وقال :

— اما الفتى فهو ابن سيزوبريوخوف ، تاجر الحبوب المعروف •

لقد ورث عند موت أبيه نصف مليون ، وهو الآن يتلف ما ورث • ذهب الى باريز ، وبدد كثيراً من المال ، بل لعله أنفق كل ما يملك • ثم ورث مرة أخرى عمه ، وعاد من باريز ، وهو يصفى الآن ما بقي له • وربما اصبح شحاذاً بعد سنة واحدة • انه أحقق كازرة ، يختلف الى أرقى المطاعم ، والحانات ، والملاهي ، والممثلات • وقد تقدم بطلب للالتحاق بالفرسان الغجر • وأما الآخر ، المسن ، فهو أرشيوف ؛ انه تاجر أو ناظر ، أو شيء من ذلك ، 'يعنى بتجارة الخمر ، هذا الحقير المحتال ، وهو الآن رفيق سيزوبريوخوف لا يتركه لحظة • انه يهودا وفالستاف فى آن واحد ، وقد أقلس مرتين ، وهو مخلوق شهوانى الى درجة مقرزة •• وصاحب نزوات • انى أعرف له بهذا الصدد أمراً اجرامياً ، ولكنه قد خرج منه • ويسعدنى جداً ، بمعنى من المعانى ، أنتى لقيته هنا • كنت أتوقع ذلك • طبعى أن أرشيوف يخلص مال سينروبريوخوف ،

انه يعرف كل أنواع الامكنة ، وهو لذلك شىء ثمين بالنسبة الى صبية من هذا النوع • اتى أنقم عليه منذ مدة طويلة • هل ترى ذلك الرجل القوى الجالس عند النافذة ، الذى يرتدى معطف فلاح ، ويشبه رأسه رأس غجرى ؟ ان اسمه متروشكا ، وهو يحرق عليه ايضاً • انه من سماسرة الخيل ، ويعرف جميع فرسان المدينة • سأقول لك شيئاً : انه محتال فطيع ، حتى لقد يزيّف ورقة نقدية على مرأى منك ، ثم اذا بك تبدلها له رغم انك رأيته يزيّفها بأم عينك • وهو يبدو بمعطفه المخملى من المتعصين للسلافية • (وفى رأى ان ذلك يليق به • ثم انك لو ألبيسته لباساً انيقاً وذهبت به الى النادى الانجليزى ، وقلت هنالك انه امير يحكم بارابانوف ، لاستطاع ان يخدع الناس فى امره طوال ساعتين ، يلعب الوايست ويتحدث كما يتحدث الامراء ، دون ان يلاحظوا شيئاً البتة) • سينتهى نهاية سيئة • المهم ان متروشكا هذا يحقد على الرجل السمين ، لأنه الآن مفلس ، وقد اختلس منه السمين صديقه سيزوبريوخوف قبل ان يتسع وقته لنفضه تماماً • واذا كانا قد التقيا منذ لحظة فى المطعم ، فلا بد ان تكون قد وقعت مشكلة ، بل اننى اعرف الموضوع ، فمن متروشكا ، لا من غيره ، عرفت أن أرشيوف وسيزوبريوخوف سيجبران الى هنا ، وأنهما يهومان فى هذه النواحي سعياً الى أمر حقير • أريد أن استفيد مما يضمّره متروشكا من بغض لأرشيوف ، وهناك ما يحملنى على ذلك ، ومن اجل هذا جئت الى هنا ، ولكنتى لا اريد ان يفكر متروشكا فى شىء • لا تنظر اليه • وحين سنخرج ، سيأتى من تلقاء نفسه يذكر لى ما انا فى حاجة الى معرفته • • والآن فلندخل هذه الغرفة يا فانيا • • ثم تابع يقول متجها بكلامه الى الخادم :

— هيه ! ستيفان ، هل تعرف ماذا اريد ؟

— نعم سيدى •

- وستأتينا به ؟

- نعم سيدى •

- هكذا • اجلس يا فانيا • لماذا تنظر الى هذه النظرة ؟ أرى انك تنظر الى ! هل يدهشك هذا ؟ لا داعى للدهشة • كل شيء يمكن أن يقع للانسان ، حتى الأمور التي كان لا يتصورها في الحلم • • ولا سيما • • هل تذكر أيام كنا نقرأ معا كورنيليوس نيبوس • اسمع يا فانيا ، هناك شيء يجب أن تصدقه : مهما يكن ماسلوبوف قد ضل ، فان قلبه ما يزال كما كان ، ولكن الظروف هي التي تغيرت • رغم اننى قد وسخت يدي ، فانتى لست أسوأ من غيرى • لقد أردت أن أصبح طبيباً ثم حضرت شهادة تعليم الادب الروسى ، حتى لقد كتبت مقالة عن غوغول ، ثم أردت أن أجعل نفسى باحثاً عن الذهب ، وأوشكت أن أتزوج ، ذلك لان الرجل الذى يحب الحياة ، يرغب فى أن يأكل خبزاً أبيض ، وقبلت ، هي ، رغم ان البيت كان خالياً مما يطعم هرة ، وكنت على وشك أن أذهب الى حفلة الزواج ، وكنت أريد أن أستعير حذاء متينا لأن حذائى كان قد تثقب منذ سنة ونصف سنة • ولكننى لم أتزوج • وتزوجت هي أستاذاً من الأساتذة • واكتفيت أنا بأن أعمل فى أحد المكاتب • ثم كانت أغنية أخرى • وانقضت سنون • ورغم اننى لا أعمل الآن ، فانتى أكسب مالاً كثيراً دون تعب • أتقاضى أجراً على التوسط للناس ، وأدافع عن الحقيقة : أمدّ أمام النعاج ، ونعجة أمام الاسود • ان لى مبادئ • فأنا أعرف مثلاً ان العدد الكثير هو الذى يؤلف قوة كبيرة ، و • • أنصرف الى أعمالى • وأنا أعمل خاصة فى أمور شبه رسمية • • هل فهمت ؟

- لست جاسوساً على كل حال ؟

- لا ، لست جاسوساً ، ولكننى أقوم بأعمال بعضها رسمى ، وبعضها

شخصي . هل ترى يا فانيا ؟ اتنى أشرب . ولكننى لم أغرق عقلى أبداً فى الحمرة ، وأنا لذلك أعرف مستقبلى . لقد فات الاوان ، ولكننى سأقول لك شيئاً : لو قد مات فى الانسان لما اعترضتك اليوم . ان ماذكرته منذ لحظة صحيح يا فانيا . لقد سبق ان رأيتك قبل اليسوم ، وأردت غير مرة أن أعترضك ، ولكننى لم أجرو ، وكنت أرجى ذلك دائماً . اننى لأستحقك . وقد أصبت حين قلت اتنى لو لم أكن سكران ، لما اعترضتك اليوم . على كل حال ، هذا حديث مشوش مضطرب ، ودعنا الآن من الكلام عني . ولنتحدث عنك . اسمع يا صديقى ، لقد قرأت لك ، قرأت كتابك الاول من بدايته الى نهايته . وحين فرغت من قراءته أوشكت أن أصبح انساناً سوياً ! ولكننى فكرت ، وآثرت أن أحتفظ بحياتى المضطربة ، وهكذا .

ظل يحدثنى مدة طويلة ، فكلما ازداد سكره ازدادت عاطفته ، ففاضت عيناه بالدموع . لقد كان ماسلوبوف دائماً من خيرة الفتيان ، الا انه كان يحب التفرد دائماً ، وكان نموه فوق نمو من هم فى سنه ، وكان ذا مكر وكيد وخبث وميل الى المماحكة والمناقرة ، وان لم يكن خالياً من العاطفة . كان انساناً ضائعاً . ثمة أناس كثيرون من هذا النوع بين الروس . وكثيراً مايكونون موهوبين . ان كل شيء مضطرب فى نفوسهم حتى لقد يخالفون ضميرهم واعين عامدين ، لضعف فى بعض الامور ، فلا يضعون أنفسهم فحسب ، بل يعرفون حق المعرفة انهم يسعون الى حتفهم بظلفهم . ولقد كان ماسلوبوف ، كغيره ، يغرق نفسه فى الحمرة .

وتابع يقول :

— كلمة أخيرة . لقد وصلت الى فى أول الأمر أصدقاء مجذك ثم قرأت بعد ذلك مقالات فى نقدك (نعم . . . لقد قرأت هذه المقالات ، لعلك تعتقد اننى لا أقرأ) ، وصادفتك بعد ذلك متعللاً حذاء خلقا ، تمشى فى

الوحل بلا كاوتشوك ، وعلى رأسك قبعة متجعدة .. ففكرت في هذا طويلاً • أنت تعمل الآن في الصحافة ، أليس كذلك ؟

— نعم •

— معنى هذا انك أصبحت حصان عربية •

— شيئاً من ذلك •

— لذلك أيها الأخ قلت لك ان الاقبال على الشراب أفضل • فأتانا مثلاً أسكر ، وأتمدّد على ديوانى (عندى ديوان ممتاز دو نوابض) ، وأفكر ، فأرانى هومبروس أو داتى أو فريدريك باربروس ، ذلك لأن الانسان يستطيع أن يتخيل مايشاء • أما انت فلا تستطيع أن تتخيل أنك داتى أو فريدريك باربروس • أولاً لانك ترغب فى أن تكون انت نفسك ، وثانياً لأن كل رغبة ممنوعة عنك ، مادمت حصان عربية • لى أنا الخيال ، ولك انت الواقع • اسمع ، قل لى بصراحة ، بلا لف ولا دوران ، كما يقول أخ لأخيه (والا كنت تهينى مدة عشر سنين) ، ألسنت فى حاجة الى مال ؟ ان لدى مالا • لا تكشّر • خذ هذا المال ، فترتاح من الذين يستخدمونك ، وتنزع اللجام عن عنقك ، وتعيش هادىء البال سنة بأكملها ، وتستطيع عندئذ أن تنصرف الى فكرة عزيزة عليك ، أن تتج كتاباً كبيراً • ما رأيك ؟

— اسمع يا ماسلوبوف ! اننى أقدرّ هذا العرض الأخوى ، ولكننى لا أستطيع أن أجيبك الآن بشىء ، لماذا ؟ هذا أمر يطول شرحه • ذلك رهن بالظروف • ثم اننى أعدك بأن أقول لك كل شىء ، أيها الأخ • أشكر لك ماعرضته على • وأنا أعدك بأن أزورك ، بأن أزورك كثيراً • ولكن اليك الامر الذى يهمنى الآن : ما دمت صريحاً معى ، فقد قررت

أن أستشيرك ، لاسيما وانك أستاذ فى هذا النوع من الامور ؟

وقصصت عليه حكاية سميت وحيدته ، من أولها الى آخرها ، مبتدئاً بالمقهى • ولفت نظرى شىء عجيب : كان يخيل الىّ ، وأنا أقص الحكاية ، اننى أقرأ فى عينيه انه على علم بها ، فسألته عن ذلك ، فأجاب :

— لا ، لست أعرفها • غير اننى سمعت قليلا عن سميت ، وعرفت ان شيخاً عجوزاً قد مات فى ذلك المقهى • أما السيدة بوبنوفنا فأننى أعرف عنها بعض الامور حقاً • وكان لى معها شأن منذ شهرين • اننى أعرف من أين تؤكل الكتف ، ومن هذه الناحية وحدها أشبه مولير • ورغم انى ابتزرت منها مائة روبل ، فقد آليت على نفسى ألا أكتفى فى المرة القادمة بأقل من خمسمائة روبل • تلك امرأة فظيعة ! •• انها تقوم بتجارة حقيرة ! وكان يهون الامر ، لو انها لا تسرف فى الانحطاط حقاً فى بعض الأحيان • أرجو ألا تظن أننى دون كيشوت • واقع الامر هو اننى أستطيع الابتفاع ، وقد سرنى جداً اننى لقيت سيزوبريوخوف منذ نصف ساعة • لاشك انهم جاءوا به الى هنا •• الرجل الضخم هو الذى جاء به •• ولما كنت أعرف ماهو العمل الذى يتعاطاه هذا الرجل ، فقد استتجت من ذلك ان ••• ولكننى سأقبض عليه ! •• لقد سرنى انك حدثتني عن تلك البنت الصغيرة ، فقد اطلعت الآن على شىء جديد • اعلم يا عزيزى اننى أتولى تحقيق أنواع كثيرة من المهمات يعهد بها الىّ ، وليتك ترى الناس الذين أتردد اليهم ! لقد توليت أخيراً القيام بتحريرات كلفنى بها أمير من الامراء ، انها قضية لا ينتظر مثلها من مثله • أم هل تريد أن أروى لك قصة امرأة متزوجة ؟ زرنى فى يوم من الايام ، فلدى من الاحاديث ما لا يصدق عقلك ! •

فقاطعته أقول ، وقد أوجست الأمر :

— ما اسم ذلك الأمير ؟

- مالك ولا اسمه ؟ اسمه فالكوفسكى ، اذا كنت تصر على معرفة اسمه •

- بطرس فالكوفسكى •

- نعم •• هل تعرفه ؟

- قليلاً •• وسأسألك عن أبناء هذا السيد غير مرة ، لقد شافنى حديثك كثيراً •

قلت ذلك ، وأنا أنهض •

- اسمع أيها الصديق القديم ! انك تستطيع أن تسألنى عن كل ماتريد ، وأنا امرؤ يجيد رواية الحكايات ، ولكننى لا أطلق للسانى العنان ، بل أظل فى نطاق بعض الحدود ، هل فهمت ؟ والا فقدت ثقة الناس فى ، وفقدت شرفى ، فى الأعمال طبعاً ، وهكذا دواليك •••

- اذن فى الحدود التى يسمح لك بها الشرف •••

وكنت مضطرباً ، فلاحظ هو ذلك • قلت :

- ما قولك فى القصة التى رويتها لك منذ لحظة ؟ هل انتهت فيها الى رأى أم لا ؟

- قصتك ؟ انتظر لحظة • سأدفع الحساب •

واقرب من البسطة فاذا هو يجد نفسه ، فيما يشبه الصدقة ، الى جانب الفتى ذى المعطف الفلاحى ، الذى أسماه فى كثير من البسطة والألفة باسم متروشكا • وبدأ الى ان ماسلوبوف يعرفه أكثر قليلاً مما زعم • كان واضحاً على الاقل انهما لا يلتقيان لأول مرة • وكان منظر متروشكا منظراً فريداً بعض الشيء : فمعطفه الروسى وقميصه الحريرى الاحمر والقسمات الحادة البارزة على انسجام ، فى وجهه الاسمر الفتى ، ونظراته اللامعة الجريئة ، كل ذلك يضى عليه طابعا يلفت النظر ولا يخلو من أن يكون

جذابا • وكانت تبدو الثقة الظاهرة في حركاته مصطنعة • ولكن كان واضحاً في الوقت نفسه انه في تلك اللحظة يتجلد ويحبس ما في نفسه ويريد أن يظهر بمظهر الشخص الهام الجاد ذي الاعمال الكثيرة •

— تعال الىّ يا فانيا في الساعة السابعة • فلربما كان هنالك ما أقوله لك • اننى حين أكون وحدي لا أملك عقلاً • وقد كان لى قبل ذلك عقل ، أما الآن فما أنا الا سكير • وقد انسحبت من الاعمال ، ولكن بقيت لى علاقات • أستطيع أن ألتقط بعض المعلومات من هنا ومن هناك ، أستطيع أن أشمم الريح الى جانب أناس مرهفين • تلك هى طريقتى فى العمل • صحيح اننى فى لحظتى الضائعة ، أعنى حين لا أسرف فى الشراب ، أقوم أيضاً ببعض الاعمال ، بعض التحريات ••• ولكن ماذا ؟ يكفى هذا •• اليك عنوانى : فى شارع «الدكاكين الست» • أيها الأخ ، أخذت أنزعج الآن • يجب أن أفرغ فى جوفى قدحا آخر ، ثم أعود الى بيتى • على أن أنام قليلاً • ستأتى الى • وسأقدمك الى الكسندرا سيمينوفنا ، واذا اتسع الوقت ، تحدثنا فى الشعر •

— وسنتحدث أيضاً فى القضية الاخرى •

— ربما •

— اذن سأجىء حتماً •••

الفصل السادس



آنا آندريفنا تنتظرني منذ مدة طويلة • ان ما قلته
لها أمس بصدد بطاقة ناتاشا قد أثار حب الاطلاع
لديها اثاره قوية ، وكانت تنتظر أن أوافيها قبل
ذلك كثيرا ، في نحو الساعة العاشرة من الصباح •
فلما وصلت اليها في الثانية بعد الظهر كان قلق الانتظار قد استنفد قوى
العجز المسكينة ، وكانت ، عدا ذلك ، تريد ، بفارغ صبر ، أن تفضي الى
بالآمال الجديدة التي أشرقت في نفسها منذ أمس ، وأن تحدثني عن
يقولا سرجتش الذي كان ، على أوجاعه واكتئاب مزاجه منه البارحة ،
رقيق العاطفة في معاملتها • فلما رأته استقبلتني بوجه بارد مستاء ، وما
كادت شفتاها تتحركان بالتحية ، ولم تظهر شيئا من حب الاطلاع • كانت
كأنها تقول لي : « لماذا جئت ؟ ان وقتك ما يزال يتسع للتسكع هنا وهناك ،
يا عزيزتي • » كانت تحقد على لأنسى تأخرت في المجيء • ولكني كنت
مستعجلا ، فقصصت عليها مشهد الأمس كله بلا ابطاء • فلما علمت ان
الامير زار ناتاشا ، وانه قدم اقتراحه الرائع ، تبدد استياؤها الظاهر بمثل
لمح البصر • لا أستطيع أن أصف فرحها بكلام : لقد أصبحت كمن فقد
صوابه ، فاذا هي ترسم اشارة الصليب ، ثم تبكي ، ثم تسجد على الأرض
أمام الأيقونة ، ثم تقبلني ، ثم تهتم أن تهرع الى يقولا سرجتش لتشرکه
في فرحها • قالت :

— أرجوك ، يا صديقي • ان تلك الاذلالات وتلك الالهات كلها هي

التي حطمت أعصابه ، ولكنه متى علم بأن كرامة ناتاشا ردت اليها كاملة ، فسينسى كل شيء فوراً .

ولم أستطع أن أُنشئها عن عزمها الا في كثير من العناء . ان العجوز المسكينة ماتزال تجهل زوجها ، رغم انها عاشت معه خمسة وعشرين عاماً . وكانت تتحرق كذلك شوقاً الى أن تمضي معه الى ناتاشا فوراً . فاعترضت على ذلك بقولي ان يقولوا سرجتش لن يجذب عملها هذا ، حتى ان من الممكن ان يفسد به الامر كله . فعدلت عن فكرتها في كثير من العناء ، ولكنها حبستني عندها نصف ساعة بلا جدوى ، وهي لا تنفك تقول : « كيف أبقى الآن سجينه جدران أربعة ، وأنا فيما أنا فيه من فرح ؟ » وأقنعنها أخيراً بأن تسمح لي بالانصراف ، قائلاً لها ان ناتاشا تنتظرني بفارغ صبر . فرسعت العجوز على إشارة الصليب عدة مرات ، وحمّلتني تحية خاصة لناتاشا ، وأوشكت أن تبكي حين رفضت أن أعدها بالمجيء اليها في المساء رفضاً باتاً ، اذا لم يقع لناتاشا أمر يستوجب مجيئى . لم ارَ يقولوا سرجتش في هذه المرة : لقد أرق الليل كله ، وأصيب بصداع شديد ورعشات متصلة ، وهو الآن نائم في غرفته .

وقد انتظرتني ناتاشا ، هي أيضاً ، طوال النهار . فحين دخلت ، كانت تذرع الغرفة جيئة وذهاباً على عاداتها ، وقد شبكت يديها ، واستغرقت في التفكير . مازلت الى يومى هذا ، حين استحضر ذكراها ، لا أتصورها الا وحيدة دائماً ، في غرفة صغيرة بائسة ، مطرقة تفكر ، مهجورة ، منتظرة ، مكتوفة اليدين ، خافضة العينين ، ذاهبة آية بلا هدف . قالت لي وهي ما تزال تسير جيئة وذهاباً : لماذا تأخرت هذا التأخر كله ؟

فقصصت عليها مغامراتي كلها في ايجاز ، ولكنها كانت لاتكاد تصغي الى حديثي . كان واضحاً انها مشغولة البال . سألتها :

— هل من جديد ؟

فأجابت بقولها :

— لا شيء •

ولكننى حزت من هيئتها ان ثمة أمراً جديداً ، وانها انتظرتنى لتقص على هذا الامر ، ولكنها ، على عاداتها ، لن تقصه على فوراً ، بل حين أهم أن أمضى • هكذا كانت تجرى الامور بيننا دائماً • فتوقعت ذلك وانتظرت •

بدأنا طبعاً بالحديث عما جرى أمس • ومما أدهشنى خاصة اننا اتفقنا كل الاتفاق فى رأينا فى الامير • • كانت تكرهه صراحة ، أكثر مما كرهته بالامس • وانا لنستعرض جميع تفاصيل زيارته ، اذا بناتاشا تقول لى فجأة :

— اسمع يا فانيا ، هذه قاعدة عامة : اذا كرهت شخصاً فى أول الأمر ، فتلك اشارة تكاد تكون يقينية الى انك ستجبه بعد ذلك • هذا مايقع لى أنا ، على الأقل •

— ان شاء الله ، يا ناتاشا • واليك رأيى القاطع بعد أن وزنت جميع الامور حق وزنها : ربما كان الامير يعبت ، ولكنه يوافق حقاً على زواجكما موافقة جادة •

فتوقفت ناتاشا فى وسط الغرفة ، والقت على نظرة قاسية • لقد تبدل تعبير وجهها كله ، حتى لقد ارتعشت شفاتها قليلاً • • قالت :

— ولكن كيف يمكنه أن يخال و • • • أن يكذب فى ظرف كهذا ؟

قالت ذلك بلهجة مترددة ، تفيض كبراً •

فأسرعت أويدها قائلاً :

— صحيح ! صحيح !

— لا شك انه لم يكذب • ويخيل الى أن هذا يجب ألا يخطر لنا

ببال ، ينبغي ألا نرى فى ذلك حيلة من الحيل ! ثم ماعسى أن أكون فى نظره حتى يضحك على هكذا ؟ ليس فى امكان رجل أن يرتكب وفاحه كهذه !

فقلت مؤيداً :

— طبعاً ، طبعاً !

ولكننى قلت بينى وبين نفسى : « ومع ذلك نلعلك لاتفكرين الا فى هذا ، وانت تذهبين وتجيئين فى غرفتك ، يا صغيرتى المسكينة ، ولعلك تشكين فى الامر أكثر مما أشك فيه أنا ، »

قالت :

— آه ، كم أود لو يعود بسرعة • كان يريد أن يقضى معى السهرة كلها • لا شك أن أعمالاً هامة تنتظره ، ما دام قد ترك كل شىء ومضى • هل تعرف شيئاً عن ذلك يا فانيا ؟ هل سمعت شيئاً عن ذلك ؟
— لا والله • انه يحاول الحصول على مال • وقد قيل لى انه سيساهم فى مشروع مالى ، هنا ببطرسبرج • نحن يا فاتاشا لا نفهم شيئاً فى شئون الاعمال •

— صحيح • لقد حدثنى اليوشا عن رسالة تلقاها أمس •

— لا شك انها تحمل اليه أخباراً • هل جاء أليوشا ؟

— نعم •

— مبكراً ؟

— فى الظهر • انت تعلم انه ينام متأخراً • ولكنه لم يمكث الا لحظة • لقد بعثت به الى كاترين فيدوروفنا • كان يستحيل غير ذلك •

— ألم يكن ينوى هو أن يذهب اليها ؟

— بلى ، بلى •

وأرادت أن تضيف الى قولها هذا شيئاً ، ولكنها صمتت ، فنظرت

اليها وانتظرت • كان وجهها حزينا جدا • وددت لو أطرح عليها بعض الاسئلة ، ولكنها كانت في بعض اللحظات تكره الاسئلة • قالت أخيراً ، وهي تصعّر شفتيها قليلاً ، وكأنها تحاول ألا تنظر الى :
 - عجيب أمره ، هذا الفتى !
 - ماذا ؟ هل حدث شيء •
 - لا • لا شيء • • هكذا • ثم انه كان لطيفاً جداً ، ولكن ..
 قلت :

- الآن انتهت كل أحزانه وكل همومه •
 فألقت على ناتاشا نظرة ملحاحة متفحّصة • لعلها أرادت أن تقول لي هي نفسها ان أليوشا لم يكن له هموم كبيرة في يوم من الايام • ولكنها اعتقدت انها تقرأ هذه الفكرة نفسها في عيني ، وصمتت مغتظة •
 لكنها سرعان ما عادت لطيفة محببة • كانت في هذه المرة ناعمة كل النعومة • ومكثت عندها أكثر من ساعة • كانت قلقة • لقد أخافها الامير • ولاحظت من بعض أسئلتها انها تود كثيراً لو تعرف ماهو الأثر الذي تركته في نفسه أمس • هل أحسنت التصرف ؟ ألم تبالغ في اظهار فرحها أمامه ؟ ألم تظهر مسرفة في سرعة التأذي ، أو مسرفة في شدة الانقياد ؟ ماغنى أن يكون رأيه فيها ؟ أهو يهزأ بها ؟ أهو يحتقرها ؟ وحين راودتها هذه الفكرة التهب وجهها بحمرة شديدة • قلت لها :

- لماذا تصدّعين رأسك بما عسى أن يفكر فيه هذا الرجل السيئ ؟
 هيه يفكر في ذلك ، فما قيمة هذا كله ؟

فسألتني تقول :

- ولماذا تعدّه سيئاً ؟

كانت ناتاشا متجدية ، ولكن لها قلباً طيباً ونفساً مستقيمة • ان تحديها يتدفق من نبع رائق • ان في نفسها لكبرياء ، كبرياء نبيلة • كانت لا تطيق

أن 'يعرّض' للسخرية أمام عينيها ماتعده فوق كل شيء • إذا احتقرها انسان شرير ، فلا شك انها ترد الاحتقار باحتقار مثله ، ولكنها مع ذلك تتألم فى أعماق قلبها أشد الألم إذا سخر أحد بما تعده مقدساً ، كأننا من كان الساخر • وليس يرجع ذلك الى نقص فى الصلابة • وانما يرجع بعضه الى جهلها بالبشر ، والى قلة معاشرتها الناس ، والى انزواء حياتها • لقد عاشت دائماً فى زاويتها ، لم تخرج منها قط • ثم ان لها تلك الملكة التى تنعم بها النفوس السمحة الكريمة ، والتى لعلها ورثتها عن أبيها : أعنى الاندفاع فى الثناء على شخص ، والاصرار على تقديره فوق قدره ، والمبالغة فى تصوير محاسنه على تحيز • انه ليشق على هؤلاء الناس أن يفقدوا بعد ذلك أوهامهم ، يشق عليهم ذلك خاصة لشعورهم بأنهم هم أنفسهم مذنبون • لماذا تنتظر أن 'تعطى' أكثر مما يمكن أن 'تعطى' ؟ ان الخيبة تربص بهؤلاء الناس من لحظة الى لحظة • والافضل أن يظلوا فى زاويتهم هادئين ، لا يخرجون منها • حتى لقد لاحظت انهم يحبون زوايتهم حقاً ، الى أن يعتصموا بها اعتصاماً تاماً • ثم ان ناتاشا قد تحملت كثيراً من أنواع الشقاء ، وكثيراً من الاساءات • انها انسان مريض • فيجب ألا تُتهم ، هذا اذا كان فى أقوالى شيء من الاتهام •

كنت مستعجلاً ، فنهضت لاذهب ، فشدهت من ذلك ، وكادت تنفجر باكية ، رغم انها لم تظهر نحوى شيئاً من العاطفة الرقيقة طوال المدة التى قضيتها معها ، حتى لقد كانت أشد برودة فى معاملتى من عهدى بها • ولكنها عانقتنى عندئذ فى كثير من العاطفة ، ونظرت فى عيني مدة طويلة ، ثم قالت :

— اسمع ، لقد كان أليوشا غريباً كل الغرابة اليوم ، لقد أدهشنى كثيراً • كان لبقاً جداً ، وكانت تلوح عليه أمائر السعادة ، ولكنه كان يتراقص كفراشة ، ويختال ويمشى مرحاً ، ولا ينى ينظر الى نفسه فى

المرأة .. كان لايتخرج أى تخرج .. ثم انه لم يمكث مدة طويلة •
وتصور انه اتانى بسكاكر •

— سكاكر ؟ هذا شيء لطيف جداً ، برىء جداً • يا لها من فصول
هذه التى تقومان بهما كلاكما ! ان كلاً منكما الآن يلاحظ صاحبه ،
ويتجسس عليه ، ويحاول أن يقرأ فى وجهه أفكاره المستسرة (وانتما
لاتعرفان منها شيئاً) • ان اليوشا لا يسرف فى هذا على كل حال • انه
مرح ، انه تلميذ ، كما كان فى السابق ، اما انت ، انت !

أتذكر ان ناتاشا كانت كلما بدلت لهجتها واقتربت منى لتشكو الى
اليوشا ، أو لتطرح على سؤالاً شائكاً ، أو لتفنى الى بسر تحب أن أفهمه
بنصف كلمة ، كانت تنظر الى مبتسمة ، كأنها تتوسل أن أتخذ القرار
الذى يهدى من روعها • ولكننى أتذكر أيضاً اننى كنت فى تلك اللحظات
أصطنع لهجة قاسية حاسمة ، كأننى أقرع أحداً ، واننى كنت أفعل ذلك
دون أية نية مبيتة ، وان ذلك كان ينجح دائماً • كانت قسوتى تأتى فى
محلها ، فتؤثر تأثيراً أشد ، لان الانسان يشعر فى بعض الاحيان بحاجة الى
أن يوعظ ، ولقد كانت ناتاشا تشجعنى على ذلك فى بعض الاحيان على
الاقبل •

واستأنفت ناتاشا تقول وقد وضعت احدى يديها على كتفى ، وشدت
بالاخرى على يدى ، وهى تبحث عن عينى بنظرة متعلقة :

— لا يا فانيا ، اسمع ، لقد بدا لى خفيفاً مسرفاً فى الحفنة • كان
يصطنع هيئة زوج ، هيئة رجل متزوج منذ عشر سنين ، وما يزال لطيفاً
مع زوجته • ألم يبكر فى هذا ؟ • كان يضحك ، ويدور على رجل
واحدة ، كأن هذا كله لا يخصنى أنا الا قليلاً ، وكان يتعجل الذهاب الى
كاترين فيدوروفنا • كنت أكلبه ، فلا يصغى الى ، أو يأخذ بالكلام • •
آه من تلك العادة السيئة المألوفة فى المجتمع الراقى ، التى حاولنا كلانا أن

نخلصه منها • الخلاصة ، لقد كان • • قليل المبالاة • اذا صح التعبير •
ولكن ماذا أقول ! هاءنا ذا أندفع ! آه ما أقسى مطالبنا جميعا ، يا فانيا • •
انا لطفاة ذوو نزوات ! اننى أدرك ذلك الآن ! انا لانغفر مجرد تغير
يطراً على الوجه • • ويعلم الله لماذا يكون الوجه قد تغير ! كنت على حق
حين لمتنى منذ قليل ! الذنب فى ذلك كله ذنبى أنا • انا خلقت لأنفسنا
أحزاننا وأشجبتنا ، ونظل تشكو وتتوجع • • شكرا يا فانيا ، لقد أحسنت
الىّ حقاً • يا ليته يجىء اليوم ! ولكن • • لعله استاء مما وقع !

— ماذا ؟ هل تشاجرتما ؟

قلت ذلك مشدوها •

— لا ، أبداً ، ولكننى كنت حزينة قليلاً ، وكان هو مرحاً ، فاذا
هو يسترسل فى الوجوم على حين فجأة • وخيل الىّ انه ودّعنى وداعاً
جافاً • ولكننى سأرسل فى طلبه • • تعال انت أيضاً يا فانيا •

— سأجىء طبعاً ، الا ان يمنعنى عن ذلك شيء •

— أى شيء ؟

— لقد أقحمت نفسى فى بعض الامور ! ولكننى آمل أن أستطيع

المجىء •

الفصل السابع



الى منزل ماسلوبوف في الساعة السابعة تماما • انه يقطن جناحا من عمارة صغيرة في شارع «الدكاكين الست» • بيته ثلاث حجرات ليست على شيء من النظافة ، ولكنها حسنة الالات ، حتى ان المرء يلاحظ فيها بعض ثراء ، ويلاحظ في الوقت نفسه اهمالا شديدا • فتحت لي الباب فتاة جميلة جدا تناهز العشرين من عمرها ، كانت ترتدي ثيابا بسيطة ولكنها أنيقة ، وتنظيفة كل النظافة ، وفي عينيها مرح •

حزرت على الفور انها هي نفسها الكسندرا سيمينوفنا ، تلك التي اسمعني ماسلوبوف اسمها ودعاني الى زيارته للتعرف بها • سألتني من أكون ، فلما عرفت اسمي قالت ان ماسلوبوف كان ينتظرنى ، الا انه الآن نائم في غرفته • وقادتني الى الغرفة • كان ماسلوبوف راقداً على أريكة جميلة وثيرة ، ملتحفا معطفه الوسخ ، وتحت رأسه مخدة جلدية خالقة • كان نائما نوما خفيفا جدا ، فما ان دخلنا الغرفة ، حتى ناداني باسمي :

— هذا انت ! كنت أحلم الآن انك وصلت وانك توقظني • اذن لقد

أزف الوقت • هيا بنا •

— الى أين ؟

— الى تلك السيدة ؟

— أي سيدة ؟ لماذا ؟

- السيدة بوبنوفنا .. لكى ..
- ثم تابع يقول وهو يلتفت نحو الكسندرا سيمينوفنا ، ويقبّل أطراف أصابعه على ذكر السيدة بوبنوفنا :
- يا لها من امرأة جميلة رائعة !
- فقالت الكسندرا سيمينوفنا ، وهى تحسب ان من واجبها أن تغضب بعض الغضب :
- هو ذا يذهب .. وما أكثر ما سيتخيل أيضا !
- أتما لا يعرف أحدكما الآخر ؟ يا الكسندرا سيمينوفنا ، أقدم لك جنرالاً من جنرالات الادب الذين لا يراهم المرء مجاناً الا مرة واحدة فى السنة ، اما فيما عدا ذلك فلا بد له أن يدفع أجراً ..
- أتظننى غيبة الى هذا الحد ؟ لاتستمع الى ما يقول ، أرجوك . انه يسخر منى دائماً . عن أى جنرالات يتحدث !
- قلت لك انهم جنرالات من نوع خاص . اما أنت ، يا صاحبة السعادة ، فلا تظننى انك غيبة . انت أذكى كثيراً مما تظهرين أول وهلة .
- لا تصغ الى مايقول . انه يخجلنى دائماً أمام الناس المحترمين ، هذا الوقح ، ليته على الاقل ، يأخذنى الى المسرح من حين الى حين !
- الكسندرا سيمينوفنا ، احببى ال .. هل نسيت ما الذى يجب أن تحييه ؟ هل نسيت الكلمة الصغيرة التى علمتك اياها ؟
- طبعا لم أنسها .. كلمة سخيفة .
- ماهى اذن ؟
- أموت خجلاً اذا نطقت بها أمام ضيف .. فقد تعنى شيئاً أفضل أن 'يقطع لسانى على أن أقولها .

— اذن لقد نسيتها !

— لا ، لم أنسها : انها كلمة صوامع ! أحببى الصوامع •• ما أكثر ما يبتدع من ألفاظ ! الصوامع ! لعلها لم توجد يوما •• ولماذا يجب على المرء أن يحبها ؟ انه لا يقول الا سخافات ••

— ولا كذلك عند السيدة بوبنوفنا ••

— اذهب انت وصاحبك بوبنوفنا !

قالت الكسندرا سيمينوفنا ذلك ، ثم خرجت راكضة ، وقد استبد بها مزيد من الحلق :

— آن الاوان •• هيا بنا •• الى اللقاء يا الكسندرا سيمينوفنا •

وخرجنا •

— أولاً ، يا فانيا ، سنركب هذه العربة ؛ وثانياً يجب أن أقول اننى بعد أن تركتك منذ قليل ، عرفت أيضاً أمراً أو أمرين ، ليسا من نوع الافتراضات بل هما من الوقائع الصحيحة • لقد بقيت فى فاسيلي أو ستروف ساعة أخرى • ان ذلك الرجل المنفوخ شخص حقير فظيع ، يثير الاشتزاز ، صاحب نزوات دينية وميول منحطة • وبوبنوفنا عرفت منذ مدة طويلة بأعمال ومكائد من هذا النوع • وقد أوشكت ، ذات يوم ، أن يُقبض عليها فى أمر فتاة تنتمى الى أسرة ذات شأن • ان أبواب المسلمين التى ألبستها لليتيمة (كما وصفت لى ذلك منذ قليل) لم تطلعننى على شيء جديد • سمعت شيئاً من هذا القبيل من قبل • ولقد حصلت منذ لحظة على بعض المعلومات •• حصلت على هذه المعلومات مصادفةً ، والحق يقال ، ولكنها تبدو لى صحيحة • ما عمر الصبية ؟ •

— ثلاث عشرة سنة ، فيما يبدو من وجهها •

— وأقل من ذلك فيما يبدو من جسمها ؟ هذا ما يراه المرء فيها •

وتستطيع بوبنوفنا أن تزعم أن سنّها احدى عشرة سنة أو خمس عشر سنة،
تبعاً للحاجات • والصّية بلا حام يحميها ، بلا أسرة تعولها ، فيمكن ••
— أهذا ممكن ؟

— ماذا تظن اذن ؟ لعلك تحسب أن السيّدة بوبنوفنا قد حضنت
الصّية شفقةً عليها ورحمة بها ؟ اذا كان المنفوخ قد سار الى البيت ، فمعنى
ذلك ان القضية قد دُبرّت • لقد رآها هذا الصباح • ووعد ذلك الجلف
سيزوبريوخوف بامرأة متزوجة ، هي امرأة موظف برتبة كولونيل
أركان حرب • ان ابناء التجار الذين يلهون بهمهم هذا الامر : انهم
يسألون دائماً عن الرتبة • كما في قواعد اللغة اللاتينية ، هل تتذكر ؟
الدلالة تغلب الاعراب • على كل حال ، أظن اننى مازلت سكران • تلك
هي اذن بوبنوفنا • اياك أن تحشر نفسك في مثل هذه الامور •• انها تريد
أن تهزأ بالبوليس • ولكنها تخاف منى أنا ، لانها تعرف ان لى ذاكرة قوية
••• هل تفهمنى ؟

أثر فى هذا الكلام تأثيراً رهيباً ، وأسلمتّى هذه الأنباء لاضطراب
شديد • وخشيت أن نصل متأخرين ، فاستعجلت الحوذى • قال
ماسلوبوف :

— لا تقلق : لقد اتخذنا اجراءاتنا • ان متروشكا هناك ، سيدفع له
سيزوبريوخوف من ماله ، وسيدفع له المنفوخ ، ذلك الحقير ، من جسمه •
لقد استقر رأينا على هذا منذ قليل • أما بوبنوفنا ، فهى من شأنى أنا •

وصلنا ، ووقفنا عند المطعم • لكن الرجل الذى يطلق عليه اسم
متروشكا لم يكن هنالك • وبعد أن أمرنا الحوذى بأن ينتظرنا عند الرصيف،
مضينا الى بيت بوبنوفنا • كان متروشكا ينتظرنا عند الباب • وكانت أنوار
ساطعة تخرج من النوافذ ، وكانت ضحكات سيزوبريوخوف المخمورة
تُسمع من خارج •

قال لنا متروشكا :

— انهم جميعاً هنا منذ ربع ساعة • الآن اللحظة الفاصلة •

قلت :

— ولكن كيف ندخل ؟

فأجاب ماسلوبوييف :

— ندخل ضيوفاً مدعوين • انها تعرفني • وهى تعرف أيضاً متروشكا • • صحيح ان كل شئ مغلق ، ولكنه ليس مغلقاً دوننا نحن •

وطرق طرقاً خفيفاً فاذا الباب 'يفتح حالاً' • وتبادل البواب ومتروشكا نظرة خاطفة • ودخلنا بلا ضوضاء • لم يسمعنا أحد • وقادنا البواب الى سلم صغير وطرق باباً ، فنودى من الداخل ، فأجاب بأنه وحده ، ففتح الباب ، ودخلنا جميعاً ، وغاب البواب •

كانت بوبنوفنا تقف فى حجرة المدخل الصغيرة ، ثملة خليعة مكشوفة النحر ، وفى يدها شمعة • فقالت :

— من هناك ؟

فأجاب ماسلوبوييف :

— من ؟ كيف هذا ؟ أتكرين ضيوفك الاعزاء يا آنا تريفونوفنا ؟ من عسى يكون هناك غيرنا ؟ • • فيليب فيلييتش •

— ها ، فيليب فيلييتش ! هذا انتم أيها الضيوف الاعزاء • • ولكن كيف • • أنا • • لاشئ • • تعال من هنا ، أرجوك •

لقد اضطربت أشد الاضطراب ، وطاش صوابها تماماً •

— من أين ؟ هنا حاجز • • لا ، سوف تستقبلينا استقبالاً أحسن من ذلك • سنشرب شامبانيا • • هل ثمة بنات جميلات ؟

فما سمعت هذا الكلام حتى استردت شجاعته ، وقالت :

- لضيوف أعزاء مثلكم أبحث عن بنات تحت الأرض ، أجيء بهن من الصين •

- سؤال يا آنا تريفونوفنا ، هل سيزوبريوخوف هنا ؟

- : ... • • • • •

- أريد أن أراه • كيف يجرؤ هذا الخيث أن يلهو دون أن أكون معه ؟

- لا شك انه ما نسيك • لقد كان ينتظر شخصاً هو انت حتما !

ودفع ماسلوبوف الباب ، فاذا نحن في حجرة صغيرة ذات نافذتين مزيتين بالغرانيون ، وفيها كراس مصفورة وبيانو ردىء • • كل ما كان يجب • ولكن متروشكا كان قد اختفى من قبل أن ندخل ، أى أثناء التفاوض في حجرة المدخل • وعرفت بعد ذلك انه لم يدخل ، وانما انتظر على الباب • كان عليه أن يفتح الباب لقدام • اتضح ان المرأة الشعثاء المخضبة التى نظرت في هذا الصباح من فوق كتف بوبنوفنا هى اشينه متروشكا •

كان سيزوبريوخوف جالساً على أريكة ضيقة من خشب الكابلى ، أمام مائدة مستديرة مفروشة بغطاء • وكان على المائدة زجاجتان من الشمبانيا ، وزجاجة من ردىء الروم ، وصحون فيها سكاكر وفطائر وثلاثة أنواع من الجوز • وكانت تجلس الى المائدة أمام سيزوبريوخوف امرأة دميعة تثير الاشمئزاز ، مجدورة الوجه ، فى نحو الاربعين من العمر ، ترتدى ثوبا من التفقا الأسود ، وتحمل فى معصمها أساور من نحاس • انها امرأة الكولونيل أركان حرب ، من قبيل التزوير طبعاً ، وكان سيزوبريوخوف نملأ ، راضياً كل الرضى ، ولم يكن رفيقه السمين هناك •

- تبعق ماسلوبوف يقول :
- هكذا يتصرفون ! ويدعونك أيضاً الى دوسو !
- فدمدم سيزوبريوخوف يقول وهو ينهض للقائنا دماً رقيق الحاشية :
- ما أسعدنا بك يا فيليب فيليتشس *
- أأنت تشرب ؟
- نعم ، معذرة *
- لا تعتذر * الاولى أن تدعونا * فانما جئنا لنلهو معك بعض الوقت *
- أنظر ، لقد جئت بضيف آخر : صديق *
- وسماني ماسلوبوف *
- سعيد بمعرفتك * هأ !
- أهذه شبانيا ! انها أشبه بحساء الكرب الحامز !
- انت تهيننا !
- لقد بلغت من الامر انك أصبحت لا تجرؤ على الظهور عند دوسو
- وتدعو الناس أيضاً !
- قالت امرأة الكولونيل :
- لقد ذكر لي منذ لحظة انه كان بباريز * لا شك انه يمزح !
- فيدوسيا تيتشنا ، لا تجرحينا بكلامك * لقد ذهبنا حقاً الى باريز ،
- قمنا برحلة الى باريز *
- فلاح كهذا ، يذهب الى باريز *
- لقد ذهبنا الى باريز * كنا نملك الوسيلة لذلك * وتميزنا هنالك
- مع كارب فاسيلتشس * هل تعرفين كارب فاسيلتشس ؟
- لماذا تريد أن أعرف صاحبك كارب فاسيلتشس *
- هكذا •• ان لهذا علاقته بالسياسة •• لقد ذهبنا معه الى مدام جوبير •
- وكسرنا هنالك امرأة كبيرة *

— ماذا كسرتم ؟

— مرآة كبيرة • كانت تغطى الحائط كله ، وترتفع حنى السقف ؟
كان كارب فاسيليتش قد بلغ من السكر انه أخذ يتحدث الى مدام جوبير
بالروسية ، وكان واقفاً الى جانب المرآة ، فاتكأ عليها ، فصرخت مدام جوبير
تقول له بلغتها : « ان ثمن المرآة سبعمائة فرنك •• وأنت توشك أن
تكسرها ، فأخذ يضحك ، ونظر الى » ، وكنت جالسا أمامه على أريكة ،
وكان معى امرأة جميلة رائعة الجمال ، لا امرأة سكيرة دميعة كهذه •
وأخذ يصرخ : « ستيفان تيرتش ، هه •• ستيفان تيرتش ! أنت
مبسوط ؟ » فقلت : « نعم أنا مبسوط » • فضرب المرآة بقبضتيه الكبيرتين •••
زنن ••• فلم يبق منها الا حطام • فأخذت مدام جوبير تصرخ ، وهجمت
عليه ، وأمسكت بخنقه : « أيها اللص ، ماذا دهاك ، ماجئت تفعل هنا ؟ »
(قالت ذلك بلغتهم أيضاً) • فما كان منه الا أن أجابها بقوله : « مدام
جوبير خذى المال الذى تريدن ، ودعيني أتصرف كما يشاء لى هواى » ،
ونقدها على الفور ستمائة وخمسين روبلا ، أى حصلنا على تخفيض مقداره
خمسون فرنكا •

فى هذه اللحظة دوى وراء عدة أبواب ، فى غرفة لا شك ان
حجرتين او ثلاث حجرات تفصلها عن غرفتنا ، دوى صوت حاد رهيب ،
فما ان سمعته حتى ارتعشت ارتعاشاً قوياً ، وصرخت انا أيضاً • انه صوت
هيلين • وبعد هذه الصرخة الحزينة ، سمعنا صرخات اخرى ، وشتائم ،
وجلبة ، ثم سمعنا قرقة صفعات واضحة رنانة • لعله مشوشكا يقتص من
غريمه • وفتح الباب ، فجأة ، بقوة وعنف ، وظهرت هيلين ممتعة
اللون ، مضطربة العينين ، مرتدية ثوباً من الموسلين ابيض متجعداً متمزقاً ،
منفوشة الشعر بعد تصفيف ، واسرعت تدخل الغرفة • كنت جالسا امام

الباب فارتمت علىّ ، وأحاطتني بذراعيها • فنهض جميع من الغرفة واقفين وقد أحسوا بالخطر • وقد سمعنا مع دخول هيلين قرقات وصرخات ، وظهر في اثرها متروشكا عند الباب يشد عدوه السمين من شعره ، ويظل يجره الى ان وصل به العتبة ، ثم رماه في الغرفة • قال متروشكا بلهجة يشيع فيها كثير من السرور والرضى :

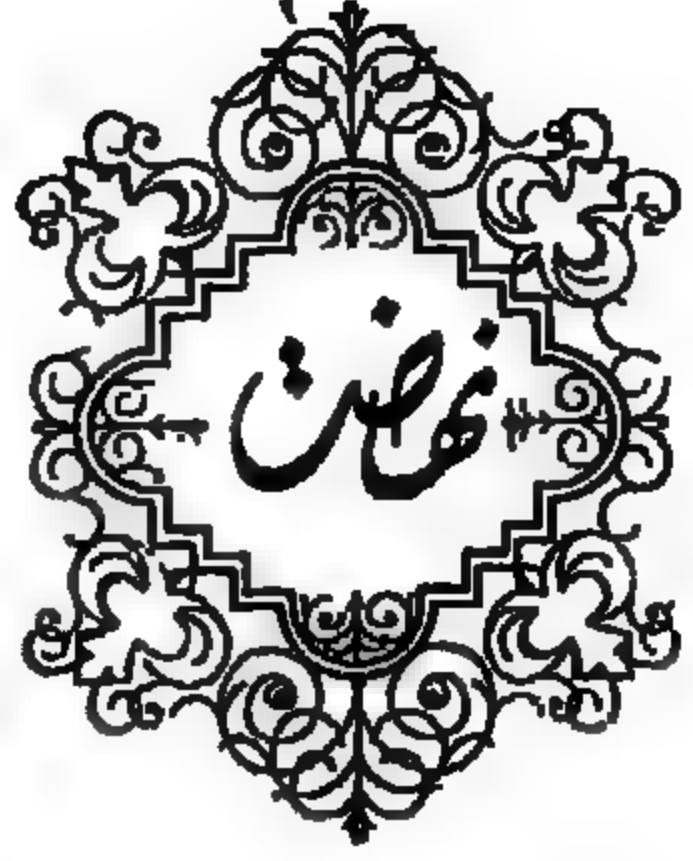
— هذا هو ، خذوه •

فقال لي ماسلوبوف ، وهو يقترب مني بهدوء ، ويربت على كتفي :
— اسمع ، خذ العربة ، وامض بالصغيرة ، وعد الى بيتك • لم يبق لك ما عمله هنا • وسنصفى باقى الحساب غداً •

لم انتظر ان يكرر كلامه مرة أخرى ، فأمسكت بيد هيلين ، وخرجت بها من هذه المغارة ، ولم اعرف ما الذى وقع بعد ذلك • ولم يمنعنا احد من الخروج ، فلقد كانت صاحبة البيت مصعوقة من الخوف ، ونمت الامور كلها بسرعة كبيرة ، فلم يبق مجال لان يعترض سيلنا معترض • وكان الحوذى ينتظرنا ، فما مضت عشرون دقيقة حتى كنا فى بيتى •

كانت هيلين أقرب الى الموت منها الى الحياة ، ففككت عرى ثوبها ورششتها بالماء ، ومددتها على اريكتى • واتابتها الحمى ، واخذت تهذى • ونظرت الى وجهها الصغير المتقع لونه ، والى شفيتها الداويتين ، والى شعرها الأسود ، والى زيتتها كلها ، الى العقد الصغيرة من الشريط الوردى التى بقيت هنا وهناك على ثوبها ، نظرت الى كل ذلك ففهمت الحكاية الفظيعة كلها • مسكينة ! وكانت حالتها تسوء شيئاً فشيئاً ، فلم اتركها ، وقررت ان لا اذهب الى ناتاشا فى ذلك المساء • كانت هيلين ترفع هديبها الطويلين المقوسين ، من حين الى حين ، تحديق الىّ ، كأنها تريد أن تعرف من أنا ، ثم نامت فى ساعة متأخرة من الليل ، فى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل • وغفوت أنا قريباً منها على الأرض •

الفصل الثامن



من نومي في ساعة مبكرة من الصباح •
و كنت أستيقظ كل نصف ساعة فأقرب من
المريضة المسكينة ، وأتفرس فيها • كانت
محمومة ، وكانت تهذي قليلا • ولكنها نامت

عند الصبح نوما عميقا • قلت في نفسي : ان نومها هذا يبشر بخير ،
ولكنني ما ان استيقظت حتى قررت ان أمضي باحثاً عن طبيب ، بينما المسكينة
ما تزال نائمة • كنت اعرف احد الاطباء ، وهو عجوز عازب ، لكنه رجل
شهم ، يعيش في شارع فلاديمير ، منذ زمان سحيق ، مع خادم ألمانية •
ذهبت اليه ، فوعد أن يجيء في الساعة العاشرة ، وكنت قد وصلت اليه في
الثامنة • كانت بي رغبة جارفة في أن أصعد أثناء عودتي الى بيت ماسلوبوف ،
ولكنني عدلت عن هذه الرغبة : فلا بد ان ماسلوبوف ما يزال نائماً بعد
سهرة البارحة ، كما أن هيلين يمكن ان تستيقظ أثناء ذلك ، وقد تشعر
بالخوف اذ تجد نفسها وحيدة في بيتي • وقد تسى ، وهي فيما هي فيه
من مرض ، متى نامت عندي وكيف ؟

واستيقظت هيلين في اللحظة التي دخلت فيها الى الغرفة ، فاقتربت
منها ، وسألتها عن حالها بكثير من الرفق ، فلم تجب ، بل نظرت الى
طويلا ، وهي تتفرس في بعينها السوداوين المعبرتين • واعتقدت من
نظرتها هذه أنها تفهم كل شيء ، وانها تملك وعيها كاملا ، وأنها اذا لم
تجبنني ، فلأن هذه عاداتها • انها ، أمس وأول أمس ، حين جاءت الى ،

لم تجب أيضاً بحرف واحد على بعض أسئلتى ، وانما رشقتى بنظرتها هذه الثابتة العنيدة التى ندل على الاضطراب والتساؤل والكبرياء فى آن واحد ، وقد رأيت الآن فى نظرتها شيئاً من القسوة ونوعاً من سوء الظن • فوضعت يدي على جبينها لأرى أما تزال محمومة ، ولكنها دفعت يدي عنها برفق ، دون ان تقول كلمة واحدة ، والتفتت نحو الحائط ، فابتعدت حتى لا أزعجها •

كان عندى غلاية للشاي نحاسية ، اتخذها مساور منذ مدة طويلة ، وأغلى فيها الماء • وكان عندى حطب ، فان البواب قد أتانى بحطب يكفى خمسة ايام أو ستة • فأشعلت المدفأة ، وجئت بماء ، ووضعت الغلاية على النار ، ورتبت ادوات الشاي على المائدة • وكانت هيلين قد التفتت نحوى واخذت تنظر الى هذا كله متطلعة ، فسألتها هل ترغب فى شيء ، فاشاحت عنى مرة اخرى ولم تجب بكلمة •

قلت فى نفسى : « ترى لماذا هى حائقة على ؟ » يا لها من بنية غريبة الاطوار ! » •

وجاء طبييى العجوز فى الساعة العاشرة ، كما وعد بذلك • ففحص المريضة بكل ما أوتى من دقة ألمانية ، ثم طمأننى بقوله انه ما من خطر يُخشى ، رغم الحمى ، وأضاف الى ذلك ان البنت ربما كانت مصابة بمرض آخر مزمن ، لعله خفقان فى القلب ، ولكن هذه النقطة فى حاجة الى ملاحظات خاصة ، ولا خطر الآن • وأمر لها بشراب وسفوف ، من قيل العادة لا الضرورة ، ثم لم يلبث أن سألنى من اين لى بهذه البنت ، واخذ فى الوقت نفسه ينظر فى بيتى دهشاً • لقد كان الطبيب العجوز يحب الثروة كل الحب •

وقد أدهشته هيلين : سحبت يدها من يده حين كان يجس نبضها ،

ورفضت ان تريه لسانها ، ولم تجب على اسئلته بكلمة واحدة ، واكتفت بأن تتأمل ، طوال الوقت ، صليب القديس ستاناسلاس الذى كان يتدلى من عنقه •

قال العجوز :

— لا بد انها عانت صداعاً شديداً • ولكن انظر كيف تحديق فى ،
انظر كيف تحديق فى !

ورأيت من غير المفيد أن أقص عليه شيئاً عن هيلين ، وتملصت من الموضوع بقولى : هذه قصة طويلة •

قال وهو يخرج :

— استدعنى اذا اقتضى الأمر ، أما الآن فلا خطر •

وقررت ان أبقي النهار كله مع هيلين ، وان لا أدعها وحدها الا فى الضرورة القصوى ، الى ان تبلّ من مرضها • لكننى ، وانا اعرف أن ناتاشا وأنا أندريفنا يمكن أن تقلقا أشد القلق اذا انتظرتانى ولم آجى اليهما ، قررت أن أبلغ ناتاشا أننى لن أوافيها هذا اليوم • ولم يكن من الضرورى أن أكتب الى أنا أندريفنا ، فقد طلبت الى مرة ألا أبعث اليها برسائل أبداً ، منذ كتبت اليها أنبشاً بمرض ناتاشا • لقد قالت لى يومئذ : « ان العجوز سيزداد عناداً اذا رأى رسالة منك • سيحترق المسكين شوقاً الى معرفة ماتتضمنه الرسالة ، ولكنه لن يستطيع أن يسألنى فى ذلك ، لن يجروء على هذا • وسيظل مضطرباً نهاره كله • أضف الى ذلك يا عزيزى انك بالرسالة لاتزيد على أن تثيرنى • هل تكفينى عشرة أسطر ؟ اننى أريد أن أطرح عليك أسئلة تتعلق بالتفاصيل فما أجذك أمامى ! ، لذلك لم أكتب الا الى ناتاشا ، وأودعت الرسالة صندوق البريد فى طريقى الى الصيدلية •

نامت هيلين أثناء ذلك ، وكانت فى نومها تتأوه تأوهاً رقيقاً ، وترنحش

من حين الى حين • لقد أصاب الطيبُ في تقديره ، فانها تعاني آلاماً شديدة في الرأس • وكانت في بعض الاحيان تطلق صرخات صغيرة ، وتستيقظ من نومها وتتنظر الى نظرة عداوة ، كأن عنايتي بها تؤلمها كثيراً • وينبغي أن أعترف ان ذلك كان يحز في نفسي •

وصل ماسلوبوف في الساعة الحادية عشرة • كانت تبدو عليه أمارات الهم والذهول ، ولقد دخل يقول انه لن يمكث الا دقيقة واحدة • كان يستعجل الخروج • قال وهو ينظر حوله :

— أيها الاخ ، ماكنت أنتظر أن يكون منزلك واسع الثراء طبعاً ، ولكنني ماكنت أتوقع أيضاً أن أراك تسكن في علية • ان مسكنك هذا علية وليس بيت • ولنسلم على كل حال بان هذا الامر ليس له من قيمة •• ان الشيء الخطير هو ان هذه المشاغل الكثيرة الاضافية تصرفك عن عملك • لقد فكرت في ذلك أمس ، ونحن ذاهبان الى بونوفا • ها أنت ذا ترى ، أيها الاخ ، انني بطبيعتي وبوضعي الاجتماعي من أولئك الناس الذين لا يعملون شيئاً مفيداً ، ولكنهم يعطون غيرهم • اسمع : ربما أتيت اليك غداً أو بعد غد • وعليك انت ، على كل حال ، ان توافيتني صباح يوم الاحد • والى أن يحين ذلك الوقت تكون قصة الصغيرة قد سويت تماماً ، فيما أوجو ، ومستحدث يومئذ حديثاً جديداً ، ذلك ان من الضروري أن نغني بامرك عناية جدية • لا يستطيع امرؤ أن يعيش كما تعيش • لقد اكتفيت أمس بإشارات سقتها على سبيل التلميح ، ولكنني سأناقشك بعد الآن مناقشة منطقية • قل لي أخيراً : هل تعتقد ان من العار عليك أن تقترض مني بعض المال الى حين ؟

فقلت أقاطعه :

— لا تشاكرني الآن ، بل قل لي كيف انتهى الامر أمس !

— على ما تحب ، لقد بلغنا هدفنا ، هل تفهمني ؟ ولست أملك الآن

برهةً من الوقت ، وانما جئت اليك لحظةً لاقول لك ان وقتي لا يتسع الآن للاهتمام بأمرك ، ولأسألك أتريد أن تعهد بالصيية الى أحد ، أم تريد الاحتفاظ بها في بيتك • ذلك ان من الضروري أن نفكر في هذا الامر ، وأن نتخذ بصدده قرارا •

— لا أعرف ذلك بعد • والحق اننى كنت أنتظر ك لاسألك رأيك •
أى عذر يمكن أحتج به لاحتفظ بها في منزلى ؟

— الامر سهل • تستطيع أن تحتفظ بها ، كخادمة مثلاً • •
— اخفض صوتك ، أرجوك ، فهى على مرضها تملك وعيها كاملاً ، وقد لاحظت انها ارتعشت حين رأتك • فهى تتذكر اذن ماوقع البارحة • وهنا حدثته عن طبع هيلين ، وذكرت له كل ما لاحظته فيها ، فكان يهتم بكلامى • وأضفت الى ذلك اننى قد أعهد بها الى بيت أعرفه ، وقلت له بضع كلمات عن صاحبى العجوزين ، فما كان أشد دهشتى حين علمت انه يعرف شيئاً من قصة ناتاشا ، حتى اذا سأله : «ومن أين عرفت هذا؟» أجاب بقوله :

— عرضاً • • • عرفته منذ مدة طويلة بمناسبة عمل من الاعمال • لقد ذكرت لك اننى أعرف الامير فالكوفسكى • انها لفكرة حسنة ان ترسل الصيية الى هذين العجوزين ، والا فان وجودها معك لابد أن يزعجك • ثم هناك شيء آخر : لابد للطفلة من أوراق • ولكن لاتحفل بهذا الامر ، فسأتلوا أنا • الى اللقاء • تعال الى كبراً • هل هى نائمة الآن ؟
— أظن •

ولكن ما ان خرج حتى نادتنى هيلين ، وسألتنى :

— من هذا ؟

كان صوتها يرتعش ، ولكنها لا تزال ترشقنى بتلك النظرة الغنيدة المتكبرة نفسها • لا أستطيع أن أستعمل ألفاظاً أخرى •

ذكرت لها اسم ماسلوبوف ، وأضفت الى ذلك اننى بفضلها انما استطعت أن أتزعجها من بوبنوكا ، لان بوبنوكا تخشى بأسه كثيراً . فاحمر خداه فجأة ، ولاشك ان ذلك يرجع الى انها تذكرت الماضى . فسألتنى هيلين وهى تنظر الى نظرة فاحصة :

ـ ولن تجيء بعد الآن أبداً الى هنا ؟

فأسرعت أطمئنتها ، فصمتت ، وتناولت يدى بأصابعها المحترقة ، ولكنها سرعان ما تركتها كأنها غيرت رأيها . قلت فى نفسى : يستحيل أن تشعر نحوى بمثل هذا النفور . ولكن هذه هى طريقتهما فى السلوك . . . أو . . . ان المسكينة قد عانت فى حياتها من ألوان الشقاء ما أفقدها ثقتها بأى انسان . وفى الموعد المعين ذهبت الى الصيدلية لآتى بالدواء ، ودخلت فى الوقت نفسه الى مطعم كنت فى بعض الاحيان أتعشى فيه أحياناً دينا . وكنت قد حملت معى من البيت انا ، فطلبت من المطعم شيئاً من مرق الدجاج لهيلين . ولكنها رفضت أن تأكل شيئاً ، وظل الحساء على المدفأة . وبعد أن جرعتها دواءها ، أخذتُ أعمل . كنت أظن انها نائمة ، ولكننى حين نظرت اليها فجأة رأيت انها كانت قد انهضت رأسها وراحت تتابع حركاتى بانتباه ، فتظاهرت باننى لم ألاحظها . وحين نامت آخر الامر نوماً هادئاً ، دون هذيان ودون تأوه ، على دهشتى من ذلك ، شعرت بارتباك كبير : ان ناتاشا التى تجهل سبب غيابى عنها ، يمكن أن تغضب منى أشد الغضب لتخلفى عن المجيء اليها فى هذا اليوم ، بل سوف تشعر حتماً بطعنة تصيب كرامتها من اهمالى اياها فى هذه اللحظة التى لعلها أخرج لحظة تحتاج فيها الى . وقد تعرض لها هموم جديدة ، وربما كانت تريد أن تعهد الى بعمل من الأعمال ، فاذا هى تتلفت حولها فلا تجدنى ، كأننى غبت عنها على عمد !

أما أنا أندريفنا فلم أكن أعرف أبداً كيف أعذر لها فى الغد .

وفكرت في الامر طويلاً ، ثم قررت فجأة أن أركض اليهما كليهما ، قائلاً في نفسي : قد لا أغيب أكثر من ساعتين ، وهيلين نائمة ، ولن تشعر بخروجي . ونهضت فجأة ، فدفست معطفي ، وتناولت قبعتي ، حتى اذا هممت بالخروج ، سمعت صوتها يناديني على حين بقة . استغربت ذلك : أكانت تتظاهر اذن بانها نائمة ؟

يجب أن أقول بهذه المناسبة ان ماكانت توجهه الى من نداء في كثير من الاحيان ، وما كانت تشعر به من حاجة الى اطلاعي على حيرتها ، كان يدل على انها تريد أن تكلمني ، رغم ان هيتها تشير الى غير ذلك ، وكان هذا يسرني كثيراً .

سألتني وأنا أقرب منها :

— أين تريد أن تضعني ؟

لقد كانت في أكثر الاحيان تطرح أسئلتها على حين غرة ، بطريقة ليست في الحسبان ، حتى انني في هذه المرة لم أفهمها على الفور . وأضافت تقول :

— قلت لصديقك منذ قليل انك تريد أن تضعني في بيت من البيوت .

لا أريد أن أذهب الى أي مكان .

انحنيت عليها ، فلاحظت ان حرارة محرقة قد عادت فاتابتها . فأخذت أطمئنها ، ووعدتها بانني لن أرسلها الى أحد اذا كانت تريد أن تبقى معي . قلت لها ذلك ، وخلعت معطفي وقبعتي ، لانني لم أستطع أن أقرر تركها وهي في مثل هذه الحالة . فقالت وقد أدركت انني أريد البقاء :

— بل اذهب . انني أريد أن أنام ، وسأنام فوراً .

فقلت متردداً :

— ولكنك لاتستطيعين أن تبقى وحدك ! على انني ان ذهبت فسأعود

حتماً بعد ساعتين . . .

— اذن فاذهب • أئذا مرضتُ أنا سنةً كاملة ، بقيتَ انت في البيت سنةً كاملة لاتخرج •

وحاولت أن تبسم ، ورشقتى بنظرة غريبة ، كأنها تكافح عاطفة طيبة تتكلم في قلبها • مسكينة هذه الطفلة ! ان قلبها الرقيق الكريم يتكشف على حقيقته رغم ماتشعر به نحو الناس من كره ، ورغم ما يبدو عليها من مظاهر القسوة •

أسرعت أولاً الى آنا آندريفنا • كانت تنتظرني على أحر من الجمر ، واستقبلتني باللوم والتقريع • كانت قلقة أشد القلق : لقد خرج نيقولا سرجتش بعد العشاء فوراً ، ولا يعرف أحد الى أين ذهب • أدركت ان العجوز لم تستطع أن تكتم الامر ، فقصت عليه كل شيء ، تلميحاً ، على عادتها • بل انها اعترفت لى بذلك تقريباً ، فقالت انها لم تتحمل ألا تشركه في فرحة كبيرة كهذه الفرحة ، ولكن نيقولا سرجتش أصبح بعد سماع كلامها قائماً كغيوم العواصف ، على حد تعبيرها ، ولم ينبس بحرف واحد (« لم يفتح شفتيه ولا أجاب على أسئلتى ») ، وخرج من البيت فجأة ، بعد العشاء • كانت آنا آندريفنا تقص على ذلك وهي ترتعش خوفاً ، وتوسلت الى أن أنتظر معها نيقولا سرجتش • فاعتذرت عن ذلك ، وقلت لها، دون مراعاة، اننى قد لا أجيء اليها في الغد أيضاً، واننى ماجئت اليوم الا لأبلغها ذلك • فكدنا تشاجر، وانفجرت باكية ، ووجهت الى لوماً حاداً مرأً ، فلما تجاوزت الباب للخروج ارتمت على عنقى ، وشدتني اليها بذراعيها ورجتني. ألا أغضب منها هي « اليتيمة » ، وألا يسوءني كلامها •

وذهبت الى ناتاشا فوجدتها وحدها ، على خلاف ما كنت أتوقع ، والشيء الغريب اننى لم ألاحظ انها سُرّت بمقدمي كما سرت به أمس ، وكما تسر به عامة في سائر الأيام ، حتى لكأن مجيئى أزعجها • وسألتها

هل جاءها أليوشا اليوم ، فأجابت بانه جاء ولم يمكث الا قليلا ، وأضافت الى ذلك ، مترددة ، انه قد يمر بها في المساء •

— والبارحة ؟

— لا • لم يجيء • منعه بعض الظروف من المجيء •

قالت ذلك بسرعة ، ثم أضافت تسألني :

— وانت يا فانيا كيف تجري شئونك ؟

لاحظت انها تريد أن نقف حديثا عند هذا الحد ، وأن تنتقل الى موضوع آخر ، وأنعمت النظر فيها ، فرأيت انها في حالة من اليأس •
و حين لاحظت اننى أتفرس فيها ، رشقتى بنظرة سريعة مفاجئة أحسست كأنها جمره تحرقنى • قلت فى نفسى : لا شك ان هناك شيئا جديدا لا تريد ان تتحدث فيه •

وأجبتها على سؤالها ، فقصصت عليها حكاية هيلين تفصيلا ، فاهتمت بالأمر اهتماما شديدا ، وأخذت بالقصة أخذا قويا ، وهتفت تقول :

— وكيف استطعت أن تركها ؟

فذكرت اننى لم أكن أنوى المجيء اليها ، ولكننى خشيت أن تنضب منى ، وقدرت انها قد تكون فى حاجة الى •
فقال كآنها تخاطب نفسها وهى تفكر :

— فى حاجة اليك ! حقاً يا فانيا ، قد أكون فى حاجة اليك ، ولكن الافضل أن نرجىء هذا الامر الى مرة أخرى • هل زرتهم ؟

فقصصت عليها ماجرى • فقالت :

— نعم • لا أدري كيف يمكن أن يستقبل أبى هذه الانباء •• ولكن

على كل حال ، ماقيمة هذا كله ! ••

— كيف تقولين ماقيمة هذا كله ؟ كيف تستخفين هذا الاستخفاف

بتبدل كبير كهذا التبدل !

– نعم .. ولكن أين ذهب هذه المرة ؟ لقد ظننت في المرة الماضية انه جاء الى .. اسمع يا فانيا ، تعال الى غداً ، ان استطعت . قد تكون هنالك أمور يجب أن أفشى بها اليك . ولكن يسوءني أن أقلق راحتك . والآن ينبغي لك أن تعود الى مريضتك . لقد تركتها منذ ساعتين .

– طيب . الى اللقاء يا ناتاشا . كيف كان سلوكك أليوشا معك اليوم ؟
– أليوشا .. لا جديد .. اني لاستغرب سؤالك .

– الى اللقاء يا صديقي .

– وداعاً .

قالت ذلك ومدت الي يدها في اهمال ، وأدارت وجهها بعد نظرة الوداع فتركها دهشاً بعض الدهشة . ولكنني قلت في نفسي : لا بد ان هناك أمراً آخر تفكر فيه . ان المسألة خطيرة . وستقص علي غداً كل شيء من تلقاء نفسها .

وعدت الى بيتي حزيناً ، فما كان أشد تأثيراً حين اجتزت القبة فرأيت هيلين جالسة على الاريقة ، وقد انحنى برأسها على صدرها ، كأنها في حلم عميق . لم تنظر الي ، حتى لكانها غائبة عن وعيها . فاقتربت منها ، فسمعتها تدمدم بكلام . قلت في نفسي : أهى تهذى ؟ وسألتها وأنا أجلس الى جانبها وأطوق جسمها بذراعي :

– هيلين ، صغيرتي ، مابك يا هيلين ؟

– أريد أن أذهب ، أفضل أن أذهب اليها .

قالت ذلك دون أن ترفع رأسها .

فسألتها دهشاً :

– أين ؟ الى من ؟

– اليها ، الى بوبنوقا . تقول انني مدينة لها بمال كثير ، تقول انها

تولت الانفاق على دفن أمي •• وأنا لا أريد أن تهين أمي •• سأعمل عندها
سدادا لدين أمي • وبعدئذ أتركها • أما الآن فأريد أن أعود إليها •
- هدئي نفسك يا هيلين • لاستطيعين أن تذهبي إليها • ستعذبك •
ستضيعك •

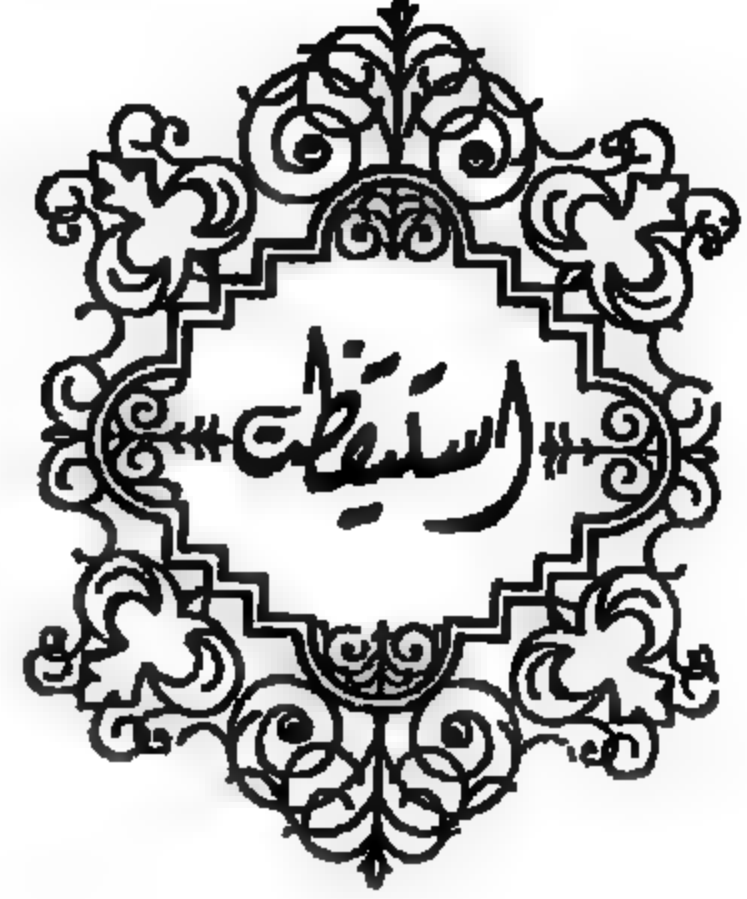
فقلت هيلين في حرارة :

- فلتضيعني ، فلتعذبني • لست أول بنت تعذب • هناك بنات
أخريات ، بنات أفضل مني ، يتعذبن أيضاً • قالت لي ذلك شحاذة في
الشارع • أنا فقيرة ، وأريد أن أكون فقيرة • سأظل فقيرة طوال حياتي •
هذا ما أمرتني به أمي وهي تموت • سأعمل • لا أريد أن أرتدى هذا
الثوب •

- غداً اشترى لك ثوباً آخر • وسأتيك بكتب • ستعيشين معي • لن
اضحك عند احد ، اذا كنت لا تريدین ذلك • هدئي نفسك •
- سأشتغل عاملة •

- طيب • طيب • هدئي نفسك الآن • تمددى • نامى •
ولكن الطفلة المسكينة أخذت تبكى ، وشيئاً فشيئاً صارت ذموعها
الى نجيب • واحترت ماذا أفعل • وجئت بماء فبللت به صدغيها وجبينها •
تهالكت أخيراً على الأريكة ، خائرة القوى ، وعادتها رعشات الحمى ،
فغطيتها بما وجدته امامي ، ونامت ، لكن نومها كان مضطرباً مرتعشاً ، فكانت
تستيقظ في كل لحظة • وكنت انا اشعر بتعب شديد ، رغم اننى لم أمش
في ذلك اليوم كثيراً ، وقررت ان أسرع الى النوم • كانت تدوى في رأسي
افكار قلقة أليمة • كنت أحس ان هذه البنية متسبب لي متاعب كثيرة •
ولكن ناتاشا هي التي كان يقلقني أمرها خاصة • انى لأدرك اليوم اننى قلما
عانيت حالة نفسية مظلمة كذلك التي عانيت بها قبل ان انام في تلك الليلة
الشقية •

الفصل التاسع



من نومي متأخراً ، في نحو العاشرة من الضحى ،
فوجدتني مريضاً • كان بي دوار وصداع •
ونظرت الى سرير هيلين فوجدته خاليا • وفي
الوقت نفسه سمعت من الغرفة اليمنى صوتاً كأنه
صوت تنظيف البلاط ، فخرجت ، فاذا هيلين تكنس الأرض ، وقد رفعت
باحدى يديها ثوبها الأبيض الذى لم تخلعه منذ الليلة البارحة ، ووجدت
الحطب مكدساً فى أحد أركان الغرفة ، ورأيت المائدة منظفة ، والغلاية
ممسوحة • كانت هيلين تقوم اذن بأعمال المنزل •
هتفتُ بها قائلاً :

— اسمعى يا هيلين ، من قال لك ان تكنسى الارض ؟ لا أريد منك
هذا • أنت مريضة • هل جئت الى خادمة !

فأجابت بقولها ، وهى تنهض وتتنظر الى :

— من يكنس اذن ؟ لست الآن مريضة •
— ولكننى ما أخذتك لتعملى • لكأنك تخافين ان ألومك ، كما لامتك
بوينوفا ، على انك تعيشين فى بيتى عالة على ؟

قلت لها ذلك ثم أضفت وأنا أنظر اليها دهشاً :

— ومن اين أتيت بهذه المكسنة النظيفة ؟ لم يكن عندى مكسنة !

— هـى لى •• أنا اتيت بها الى هنا • كنت اكس الأرض لجدى • وقد بقيت المكينة منذ ذلك الوقت هناك ، تحت المدفأة •

وعدت الى غرفتى مطرقاً افكر : بدا لى ، وقد اكون على خطأ ، ان ضياقتى لها كانت تثقل عليها ، وانها تريد ان تبرهن لى ، بكل الوسائل ، على انها لا تقيم عندى مجاناً • قلت لنفسى : اذا صح هذا فما أغرب هذا الطبع فى شدة تأذيه ! وما انقضى على ذلك دقيقتان او ثلاث دقائق حتى دخلت الغرفة ، وجلست صامتة فى المكان الذى جلست فيه بالامس ، على الأريكة ، تنظر الى نظرة فاحصة • كنت أثناء ذلك قد سخنت الماء ، وأضفت اليه الشاى ، فصبيت قدحاً ، ومددته اليها مع قطعة من الخبز الابيض ، فتناولت الشاى والخبز صامتة دون ان تحتاج • لقد انقضى يوم كامل لم تأكل خلاله شيئاً البتة •

قلت لها وقد لاحظت أخدوداً أسود فى أسفل تنورتها :

— وسخت ثوبك الجميل •

فبحثت عن الموضع الموضع ، ثم اذا بها ، فجأة ، على دهشة منى ، تدع قدحها جانباً ، وتمسك بكلتا يديها حافة تنورة الموسلين الجميلة ، فى ببطء وهدوء ، وتشققها بحركة واحدة من اسفلها الى اعلاها • ثم ترفع الى ، دون أن تقول كلمة واحدة ، نظرتها العنيدة اللامعة • انها مقتعة اللون •

هتفت مقتعاً بأتنى امام مجنونة :

— ماتصنعين يا هيلين ؟

فقالته وهى تكاد تختنق من شدة الانفعال :

— هذا ثوب حقير • لماذا قلت انه ثوب جميل ؟

وصرخت تقول فجأة وهى تنهض :

- لا احب ان ارتديه • اريد ان امزقه • انا لم اطلب اليها ان تجملني بهذا الثوب • لقد ألبستينه عنوة • مزقت قبله ثوبا آخر ، وسأمزق هذا أيضاً ، سأمزقه ، سأمزقه ! ..

وانقضت على الثوب الشقي في حلق ما بعده حلق ، فما هي الا طريقة عين حتى كان الثوب مزقاً • فلما فرغت من ذلك ، كانت قد بلغت من شدة الشحوب انها لا تكاد تستطيع ان تستوى على قدميها • وتأملت هذه الضرواة كلها مشدوهاً • أما هي فكانت تنظر الى نظرة الاستفزاز كأنني أنا أيضاً مذنب في حقها • ولكنني كنت اعرف في هذه المرة ما الذي بقي ان افعله •

قررت دون ابطاء ، ان اشترى لها ثوباً جديداً في هذا الصباح نفسه • ان على المرء ان يعامل هذا المخلوق المتوحش النزق برفق • لكأنها لم تلق في حياتها أناساً ذوي شهامة • اذا كانت قد مزقت ثوبها الاول اربا رغم العقوبة القاسية ، فلا شك انها تنظر في كثير من الحلق الى هذا الثوب الثاني الذي يذكرها بلحظة قريبة العهد فظيعة !

كان في وسع المرء ان يجد لدى بائع التراث ثوباً بسيطاً جميلاً ، بسعر زهيد • وانما المصيبة اني كنت في تلك اللحظة لا أكاد املك شروى نقيير • ولكنني كنت قد قررت في الليلة البارحة ، قبل ان انام ، ان امضي اليوم الى مكان آمل ان احصل منه على مال ، فعزمت ان اتجه الآن الى ذلك المكان ، فتناولت قبعتي ، وكانت هيلين تلاحظني في كثير من الانتباه ، كأنها تنتظر شيئاً ، فلما أخذت المفتاح لأغلق باب المنزل ورائي ، كما فعلت أمس واول أمس ، سألتني :

- هل تحبسني أيضاً ؟

فقلت لها وانا اعود اليها :

لا تفضبي يا بنيتي • فانما اغلق الباب خشية أن يدخل عليك احد •

وانت الآن مريضة ، فقد تخافين • ولا يدري الا الله من عسى يجرى • • • •
قد ترثى بوبنوبا أن • • •

قلت لها ذلك عامداً ، وانما كنت احببها لاننى اشك فيها ، ولاننى
اقدّر ان فكرة الهروب قد تراودها على حين غرة • فقررت ان أحاط •
لزمت هيلين الصمت • وحبستها هذه المرة ايضاً •

كنت اعرف نائراً شرع منذ اكثر من سنتين فى نشر مؤلف يضم
عدداً كبيراً من المجلدات ، وقد سبق ان وجدت لديه عملاً مرات
كثيرة ، وذلك حين اكون فى حاجة الى كسب سريع ، وكان دقيقاً فى
معاملته لا يتأخر عن الدفع ، فذهبت اليه ، فأسلمنى خمسة وعشرين
روبلًا عن مقال وعدته بتقديمه فى بحر الاسبوع • وكنت آمل ان اختلس
بعض الوقت لروايتى • ذلك ما كنت أفعله كثيراً حين تلح على الحاجة •
فما ان حصلت على المال حتى ذهبت الى سوق الرثا ، فوجدت
هنالك بائعة عجوزاً اعرفها ، تبيع جميع انواع الثياب والاثاث ، فوصفت
لها قامة هيلين ، فما هى الا لحظة حتى اخرجت لى ثوباً هندياً صغيراً ذا
ألوان زاهرة ، متيناً ، لم يغسل الا مرة واحدة ، زهيد الثمن • فاشتريته
واشتريت منديلاً للعنق ايضاً • وقد تذكرت وانا ادفع الثمن ان هيلين
فى حاجة الى فروة او معطف او ما يشبه ذلك ، فالجو بارد وليس لها
ما يقيها البرد • ولكنتى أرجأت شراء مثل هذا الى مرة اخرى ، فان
هيلين سريعة التأذى شديدة الكبرياء • وليس يعلم الا الله كيف تستقبل
هذا الثوب ، رغم اننى تعمدت ان يكون بسيطاً غاية البساطة محتشماً كل
الاحتشام فهو ثوب عادى من اكثر الاثواب شيوعاً ، واشتريت لها عدا
ذلك زوجين من جوارب القطن وزوجين آخرين من جوارب الصوف ،
وقلت اننى استطيع ان اقدمها لها متدرعاً بأنها مريضة وبأن جو الغرفة
بارد شديد البرودة • وكانت فى حاجة ايضاً الى ملابس داخلية • ولكنتى

أرجأت شراء ذلك الى وقت يزداد فيه تعارفنا • واشتريت في مقابل هذا
 أعطية قديمة للسريير ، وهي اشياء لا بد منها ، وقد تسر هيلين كثيراً •
 وعدت الى البيت حاملاً اشيائي ، في الساعة الواحدة بعد الظهر •
 وكان قفل البيت يفتح بلا جلبة ، فلم تشعر هيلين بدخولي فوراً • فرأيتها
 واقفة على مقربة من منضدتي قلب كسبي وأوراقى • فلما سمعتى أسرع
 فطوت الكتاب الذى كانت تقرأه ، وابتعدت عن المنضدة وقد احمر
 وجهها • فألقيت نظرة سريعة على الكتاب • انه احدى النسخ الخاصة من
 روايتى الاولى ، عليها اسمى بخط عريض تحت عنوان الكتاب •
 قالت لى هيلين بلهجة مناكدة :

— طرق احدهم اثناء غيابك ، وسألنى لماذا أفلت على الباب •

— لعله الطيب • ألم يكلمك يا هيلين ؟

— لا •

لم أجب ، بل فضضت الرزمة ، وسللت منها الثوب الذى اشتريته ،
 فقلت لها وانا اقترب منها :

— اسمعى يا صغيرتى هيلين • لا يمكن ان تستمرى على ارتداء
 اسمال ممزقة ، لذلك اشتريت لك ثوباً مما يلبس كل يوم ، ثوباً زهيد
 الثمن ، فلا تقلقى • انه لم يكلفنى الا روبلا واحداً وعشرين كوبكاً •
 البسيه ، ارجوك •

ووضعت الثوب الى جانبها • فاحمر وجهها احمراراً شديداً ،
 وجعلت تحديق فى تحديقاً قوياً •

كانت فى دهشة كبيرة ، وبدا لى فى الوقت نفسه أنها خجلى • الا
 ان شيئاً رقيقاً ناعماً قد اشرق فى نظرتها • فلما رأيت انها صامتة لا تجيب ،
 عدت الى قرب المائدة • كان واضحاً ان عملى قد فجأها • ولكنها جهدت
 لئلا تسيطر على نفسها ، وخفضت عينيها •

كان بى دوار وصداع ما ينفكان فى ازدياد ، فان الهواء الطلق لم يخفف منهما شيئاً • وكان على رغم ذلك ان اذهب الى ناتاشا • فان قلقى عليها لم يقل عن البارحة بل ازداد • وأحسست فجأة ان هيلين تناديني ، فالتفت نحوها ، فقالت لى وهى تنظر الى جانب ، وتلفف طرف الارىكة كأنها مستغرقة فى هذا العمل :

— اذا ذهبت فلا تغلق على الباب • لن اهرب •

— طيب يا هيلين • انا آقبل • ولكن ما عساك فاعلة اذا جاء احد ؟
لا يعلم الا الله ما قد يقع !

اذن فترك لى المفتاح أغلق الباب من الداخل ، فاذا طرق طارق قلت له انك لست فى البيت •

قالت ذلك ورشقتى بنظرة متخائبة كأنها لتقول : « هذا ما يفعل ، ببساطة ! » • ثم سألتنى فجأة قبل أن استطيع اجابتها :
— من يغسل لك ملابسك ؟

— امرأة هنا فى البيت •

— أنا اعرف أن اغسل • وأين أكلت امس ؟

— فى المطعم •

— أنا اعرف ايضاً ان اطبخ • سأهين لك طعامك •

— ماذا تعرفين اعداده من طعام ؟ ما اظنك جادة فيما تقولين •

فسكنت وغلضت طرفها • كان واضحاً أن ملاحظتى قد آذتها • وانقضى على ذلك عشرة دقائق فى اقل تقدير ، لم ينبس احد منا خلالها بكلمة • وفجأة ، قالت دون ان ترفع رأسها :
— استطيع ان أهين لك حساء •

فسألتها دهشا :

- حساء ؟ أى خُساء ؟ .

- اعرف كيف تهبأ الحساء • كنت اصنع منها لأمى حين كانت مريضة • وكنت اذهب الى السوق ايضا •
فقلت لها وانا اقترب منها واجلس الى جانبها على الارىكة :

- اسمعى يا هيلين • ما هذه الكبرياء ! انتى أعمل ما يمليه عليه قلبى • فأنت ابنة وحيدة ، ليس لك اهل ، انت صبية شقية ، وانا أريد ان أساعدك ، وستساعدتنى انت ايضا حين احتاج الى ذلك • ولكنك لاتريدين ان تفكرى فى الامر على هذا النحو ، فيعز عليك ان تقبلى منى أية هدية ، وتريدى أن تردى الى الجميل فوراً ، تريدى أن تدفعى ثمن معوتى عملاً تقومين به ، كأنك تحسبين انتى بوبنوبا ، وكأننى لمتك على نىء • عيب يا هيلين ان تفكرى هذا التفكير •

فلم تجب هيلين ، وكانت شفتاها ترتعشان • كان يبدو انها تريد ان تقول شيئاً ، ولكنها حبست لسانها وصمتت • ونهضت لاذهب الى ناتاشا وتركت لها المفتاح هذه المرة ، ورجوتها أن ترد على من قد يطرق الباب ، وان تسأله عن اسمه • كنت على يقين من ان امرأ خطيراً قد وقع لناتاشا ، وانها تخفى عنى هذا الامر ، كما اتفق ان فعلت ذلك غير مرة • وقد قررت على كل حال ان لا ادخل عليها الا دقيقة واحدة حتى لا ازعجها بزيارة فى غير اوانها •

وهذا ما تم • فاستقبلتنى ناتاشا بنظرة قاسية ساخطة • وكان ينبغى ان ارحل فوراً ، لكن ساقى ضعفتا عن ذلك • بدأت قائلاً :

- انما جئت اليك لحظةً يا ناتاشا ، أريد أن أسألك النصيح : ماعساى

فاعلاً بهذه البنية ؟

وقصصت عليها كل ما يتصل بهيلين قصاً سريعاً فاصغت الى كلامى حتى النهاية دون ان تقول شيئاً ، فلما انتهيت قالت :

— لا ادرى بم انصحك • ان كل شيء يدل على ان هذه الصبية مخلوقة غريبة • لعلها تحملت كثيراً من الازى ، فأصبحت شديدة الوجل • دعها تسترد عافيتها • هل تنوى ان ترسلها الى بيتنا ؟

— تقول انها لا تريد ان تترك منزلى • ثم اتنى لا اعرف كيف يمكن ان يستقبلوها هناك • لذلك تريتنى حائراً لا ادرى ماذا افعل • قلت هذا ثم سألتها خجلاً :

— ولكن انت ، انت كيف حالك ؟ كان يبدو عليك الالم بالاس ! فأجابت ذاهلة :

— نعم ، والى اليوم ما يزال بى صدا • هل رأيت أحدا من اهلى • لا • ولكنى سأذهب اليهم غداً • وغداً هو يوم السبت • • • • •

— يعنى ؟

— الامير سيأتى مساء غد • • •

— ما نسيت ذلك •

— صحيح ، ولكنى قلت هذا هكذا •

وتوقفت امامى تماماً ، وحدقت فى طويلاً • كان يلوح فى عينيها تصميم عنيد • كان هناك ما يحرقها حرقاً •

— سأقول له شيئاً يافانيا : ارجوك ان تدعنى ، فانك تزعجنى كثيراً •

نهضت من مكانى ، ونظرت اليها بدهشة يعجز اللسان عن وصفها • ثم صرخت مذعوراً :

— نانا ، ما بك يا عزيزتى • ما الذى حدث ؟

- لم يحدث شيء ، ستعرف غداً كل شيء ، كل شيء • اما الآن
فأريد ان أكون وحدي • اسمع يا فاتيا • اذهب حالا • تؤلني رؤيتك
الآن ، تؤلني جداً !

- ولكن قولي لي ، على الاقل ••

- غداً تعرف كل شيء • أوه ! لماذا لا تذهب ؟

وخرجت • كنت مصعوقاً حتى لكأنتي فقدت الوعي • ووثبت على
مافرا عند المدخل ، تسألني :

- أهى غاضبة ؟ انتى لا أجرؤ على الاقتراب منها •

- ماذا بها ؟

- الذى بها أن صاحبنا لم يأت منذ يومين •
فسألتها دهشاً :

- كيف ؟ لقد ذكرت انه جاء اليها امس صباحا وانه ينوى ان
يعود فى المساء •

- غير صحيح • لم يأت صباح أمس •

انه غاب منذ اول امس • هل قالت لك انه جاء صباح أمس !

- نعم •

- معنى ذلك ان الامر يقلقها ، ما دامت ترفض حتى ان تعترف لك

بأنه لم يجرى • يا له من رجل ذى مروعة حقاً !

هتنت اقول :

- ولكن ما معنى هذا ؟

فأجابت مافرا وهى تباعد ذراعها :

— معناه اننى لا اعرف ماذا اصنع بها • لقد امرتني امس ان اذهب
اليه • ثم استوقفتني • ثم امرتني • ثم استوقفتني • وها هي ذى اليوم تأبى
حتى ان تكلمنى • ينبغي لك ان تمضى اليه • اما أنا فلا أجرؤ ان ادعها
وحدها •

فأسرعت اهبط السلم • وصرخت مارفا سائلة :

— هل تأتى فى هذا المساء ؟

فأجبتها دون ان اتوقف :

— سنعرف ذلك هناك • وقد آتى لاسألك عما تم فى الامر • اذا
بقيت على قيد الحياة •

احسست ان طعنة قد نفذت فى قلبى حقاً •

الفصل العاشر



رأساً الى أليوشا ، وكان يسكن عند أبيه ، فى
مورسكايا الصغيرة • كان للاب شقة كبيرة ، رغم
انه يعيش وحده ، وكان اليوشا يحتل فى هذه
الشقة حجرتين كبيرتين جميلتين • لم يسبق لى
ان ذهبت اليه الا مرة واحدة ، فيما أظن ، قبل ذلك اليوم • أما هو فكان
يأتى الى من حين الى حين ، وكان يكثر من زيارتى ، فى أول الأمر
خاصة ، أى فى الأوقات الأولى من صلته بناتاشا •
لم أجد اليوشا فى البيت ، فمضيت الى غرفته رأساً ، وكتبت له هذه
الكلمة :

« يظهر يا أليوشا أنك قد فقدت صوابك • فى مساء يوم الثلاثاء ،
حين تقدم ابوك نفسه الى ناتاشا يسألها ان تشرفك بقبولك زوجاً لها ،
كنت أنت سعيداً جداً بهذا الطلب ؛ لقد شهدت ذلك بنفسى ، فلا بد أن
تعترف اذن بأن سلوكك الآن غريب بعض الغرابة • هل تدرك ما تصنعه
بناتاشا ؟ مهما يكن من أمر ، فان كلمتى هذه ستذكرك بأن تصرفك مع
زوجتك المقبلة تصرف شائن لا يليق بك ، تصرف طائش الى أبعد حدود
الطيش • أنا أعلم أن ليس لى عليك حق النصح ، ولكن هذا لا يهمنى
البتة • »

« حاشية : انها لا تعرف شيئاً عن هذه الرسالة ، بل انها لم تحدثنى
عنك بكلمة واحدة • »

وغلفت الرسالة وتركها على المنضدة • وحين سألت الخادم عن اليوشا اجابنى بأن الكسى بتروفتش لا يكاد يجىء الى البيت ، وانه لن يعود الا فى نحو الصباح •

وقفت راجعاً الى بيتى أجرؤ قدى جرأ من شدة الاعياء • كان رأسى يدور ، وكانت ساقى تصطكان • فلما وصلت ، وجدت الباب مفتوحا ، ووجدت نيقولا سرجتش فى انتظارى • كان جالسا على مقربة من المنضدة ، ينظر الى هيلين دهشا دون ان ينبس بكلمة واحدة ، وكانت تنظر اليه هى أيضا بدهشة لا تقل عن دهشته ، صامتة مصرة على الصمت ، فقلت فى نفسى : « لا بد انها تبدو له غريبة شاذة » •

قال حين رآنى :

— انا هنا منذ ساعة •

ثم اضاف يقول ، وهو يلف الغرفة بنظرة سريعة ، ويغمز بعينه غمزة خفيفة لا تدرك ، متجها نحو هيلين :

— واعترف اتنى لم اكن اتوقع ان اجدك هكذا ••

كانت عيناه تعبران عن الدهشة ، ولكنى حين انعمت النظر فيه لاحظت انه حزين قلق • لقد كان وجهه اشد شحوبا مما عهدته فيه من شحوب •

واستأنف يقول بلهجة ممزقة :

— اجلس ، اجلس • لقد اسرعت اليك ، لان ثمة امراً خطيراً يجب

ان ابوح به لك • ولكن ما بك ؟ ليس وجهك وجه انسان ••

— صحتى سيئة • رأسى يدور منذ الصباح •

— يجب أن تحترس • يجب أن لا تهمل هذا الامر • لعل برداً
أصابك ؟

— لا •• هي نوبة عصبية • يقع لى ذلك من حين الى حين • وانت
كيف حالك ؟

— بخير • حالة قلق • هذا كل ما فى الامر • لقد وقع شئ • اجلس •
فقربت كرسياً وجلست الى المنضدة امامه • فمال العجوز نحوى •
وأخذ يقول بصوت خفيض :

— اتبه • لا تنظر اليها • ولتظاهر بأننا نتحدث فى أمر آخر • من
هذه الصبية ؟

— سأبسط لك امرها فيما بعد يا نيقولا سرجتش • انها بنية فقيرة •
يتيمة الأبوين • هي حفيدة سميت الذى كان يسكن هنا • ومات فى المقهى •

— ها •• كان له اذن حفيدة ! يا لها من فتاة غريبة • انها تنظر
نظرة عجيبة ! أصارحك بأنك لو تأخرت خمس دقائق أخرى لما بقيت •
لم تسمح لى بالدخول الا فى كثير من العناء • ثم لم تفتح فاهها أبداً • انها
خائفة • وكأنها ليست بانسان •• وما الذى جاء بها اليك ؟ ها •• نعم ••
فهمت • لا شك انها جاءت لترى جدها جاهلة انه مات •

— نعم • لقد كانت شقية جداً • وقد تحدث عنها العجوز وهو
يختصر •

— هم •• ما أشبه الحفيدة بالجد • ستحدثنى عن هذا كله فيما بعد •
ولعلنا نستطيع ان نساعدنا اذا كانت شقية ذلك الشقاء كله •• والآن ألا
يمكننا ان نطلب اليها الانصراف ؟ اننى اريد ان أكلمك فى أمر هام •
— ولكنها لا تستطيع أن تذهب الى أى مكان • انها تسكن هنا •

وشرحت للمعجوز ما استطعت ان اشرحه بكلمتين ، واضفت الى ذلك
أتنا نستطيع ان نتحدث امامها ، لانها طفلة •

— نعم ، طبعا ، طفلة • ولكنى لم افهم الى الآن يا عزيزتى • هى
تسكن معك ؟ يا الهى ، يا رب ! ••

ونظر اليها المعجوز مرة اخرى دهشاً •

لقد احست هيلين ان الحديث يدور عليها ، فظلت جالسة لا تنطق
بكلمة ، وقد خفضت رأسها وراحت تسأل حاشية الأريكة • كانت قد
ارتدت ثوبها الجديد الذى ناسبها كثيراً ، وغيت بتصفيف شعرها بعض
العناية ، ولعلها فعلت هذا احتفالاً بثوبها الجديد ، وتكريماً له • فلولا
ما فى نظرتها من غرابة وحشية لكأنت على الجملة فتاة حلوة •

واستأنف المعجوز يقول :

— سأوجز الامر يا عزيزى ، وسأحاول الدقة والوضوح • اليك
المسألة : انها قصة طويلة ، وقضية خطيرة ••

كان المعجوز غاضباً طرفه ، وكان يرين على وجهه الجدى والقلق ؟
ورغم استعجاله ، ورغم « ايجازه » و « دقته » و « وضوحه » ، كان
لا يعرف من اين يبدأ • قلت لنفسى : « ما عساي سامعاً الليلة ؟ » •••

— انظر يا فانيا ، لقد جئت أطلب اليك أمراً خطيراً • ولكن قبل
ذلك •• اظن ان على ان اشرح لك بعض الملابس •• الدقيقة جداً •

ثم سعل والقى على نظرة مختلصة ، ثم احمرَّ وجهه ، ثم غضب
من نفسه وحنق على ما يعوزه من حضور البديهة •

— ولكن ماذا اشرح لك ! متفهم الامر من تلقاء نفسك • المسألة

كلها هي اتنى سأطلب الامير للمبارزة ، واريد منك ان تهيب الامر وان تكون شاهدي .

فما سمعت هذا الكلام حتى انقلبت على ظهر الكرسي ، ونظرت اليه وقد اخذ مني الانشدهاء كل مأخذ .

— لماذا تنظر الى هكذا ؟ انا لست مجنوناً .

— ولكن اسمع لي يا نيقولا سرجتش . بأية حجة تطلبه للمبارزة ؟

ولاي غرض ؟ ثم هل يمكن ...

فصرخ العجوز يقول :

— اي حجة ؟ اي غرض ؟ شيء عظيم ! ...

— نعم ، نعم ، أنا أعرف ما ستقول ، ولكن فيم يفيدنا هذا الانفجار ؟

وما الذي نخرج به من هذه المبارزة ؟ انا لا افهم ، اعترف لك بذلك .

— لقد قدرت انك لن تفهم . اسمع . ان قضيتنا قد انتهت (أي

انها ستنتهي في غضون ايام قليلة ، فلم يبق الا الاجراءات الشكلية) ،

ولقد خسرت القضية . . يجب ان ادفع عشرة آلاف روبل . هذا ماقررت

المحكمة . واخمينفكا هي الضمان . ومعنى ذلك ان هذا الجرو واثق من

انه سيقبض المبلغ . وانا اذ اتنازل له عن اخمينفكا ، اسدد ديني واصبح

غريباً عنه ، فاستطيع ان ارفع الآن رأسي ، وان اقول له : « ايها الامير

المحترم ، لقد ظلمت تهينتي ستين كاملتين ، لوئت اسمي ، ولطخت شرف

اسرتي ، وكان لا بد من احتمال ذلك كله ! كنت لا استطيع ان ادعوك

الى النزال . لأتني لو فعلت لأجبتني بقولك دون أن تتزعج : « يا لك من

رجل محتال ، تريد أن تقتلني حتى تتخلص من دفع المال الذي سيحكم

به عليك ، آجلاً أو عاجلاً . لا ، لا . فلتنظر أولاً ما ستؤول اليه

القضية ، ثم تدعوني الى المبارزة ، ؟ اما الآن ، ايها الامير النيل ، فقد

فصلت المحكمة فى القضية ، وريحت انت الدعوى ، ولم يبق ثمة مايحول
دون نزائنا ، فهياً الحق بى الى السهل ، •

هذه هى المسألة • أليس من حقى فى رأيك ان اثار لنفسى من كل
شئ ، من كل شئ ؟

كانت عيناه نلتيمان ، ونظرت اليه طويلاً فى صمت • تمنيت أن
أصل الى أخفى ما فى ضميره ، وقررت أخيراً أن أنطق بالكلمة الأساسية
التي ما كان لنا ان تفاهم بدونها ، فقلت له :

- اسمع يا نيقولا سرجتش ، هل تستطيع ان تصدقنى كل
الصدق ؟

فأجاب جازماً :

- نعم •

- قل لى صراحة : هل عاطفة الثأر هى التى تحدونك وحدها الى
طلب المبارزة ، ام ان لك اهدافاً اخرى ؟

- اسمع يا فانيا ، انت تعلم ان هناك اموراً لا اسمح لأحد بأن يمسه
فى الحديث • ولكنى سأشدّ هذه المرة عن القاعدة ، لانك بما لك من
بصيرة نافذة قد اردكت فوراً ان من المستحيل تحاشى هذا الموضوع •
نعم ، لى هدف آخر ، هو ان انقذ ابنتى التى تسير الى الضياع ، وان
احولها عن هذا الطريق المشؤم الذى القتها اليه الأحداث الأخيرة •

- ولكن كيف تنقذها هذه المبارزة ؟ ذلك هو السؤال •

- بافساد ما يدبره هنالك • اسمع • لا تظن ان العاطفة الابوية
لو ضروبا من هذا الضعف التى تتحدث فى الآن • هذه كلها حماقات
أنا لا أظهر أحداً على قرارة قلبى • وأنت نفسك لا تعرف هذا • ان

ابتنى فد هجرتنى ، وتركت بيتى الى عشيقها ، فاتزعتها من قلبى الى الابد ، فى ذلك المساء ، هل تتذكر ؟ واذا كنت قد رأيتنى اجهش فى البكاء منكباً على صورتها ، فليس معنى ذلك اتنى اريد ان اغفر لها . حتى فى تلك اللحظة ، لم اكن أعفو عنها . وانما كنت ابكى سعادتى الذاتية ، وغرور احلامى ، لم اكن ابكيها هى ، كما هى الآن . وكثيراً ما ابكى فى هذه الايام . لست استحى من الاعتراف بأننى احببت ابنتى اكثر من اى شىء فى هذا العالم . وقد تقول لى : اذا كان الامر كذلك ، اذا كان لا يعينك مصير هذه الفتاة التى أصبحت لا تعدّها ابنتك ، فلماذا تحسر نفسك فيما يدبر هنالك . وجوابى ان ذلك يرجع اولاً الى اتنى لا احب ان يغلبنى هذا الرجل الحقيق المحتال ، ويرجع ثانياً الى عاطفة انسانية عادية . فالبنت لا اعدها بنتى ، ولكن ذلك لا ينفى انها فتاة مخدوعة ، ضعيفة ، عزلاء ، فتاة ما زالوا يغررون بها ، ويمعنون فى التفرير بها ، الى أن يضيعوها تماما . وانا لا استطيع ان اتدخل فى هذا الامر تدخلاً مباشراً ، ولكننى استطيع ان اتدخل فيه تدخلاً غير مباشر ، وذلك بأن اطلب الامير الى النزال . فاذا قتلنى ، او سفع دمنى ، فلن تسير على جثتى وتزوج ابن قاتل ابيها ، كابنة ذلك القيصر (تتذكر ذلك الكتاب الذى كان عندنا ، والذى تعلمت فيه القراءة) التى سارت بعربتها على جثة ابيها ؟ واذا قتلته فان اميرنا نفسه سيعدل عن هذا الزواج . وزبدة الامر اننى لا أريد أن يتم هذا الزواج ، وسأبذل كل ما أستطيع بذله من جهود لأحول دونه . هل تفهمنى الآن ؟

— لا ، لا افهمك . اذا كنت تريد سعادة ناتاشا فكيف تقرر ان تحول دون هذا الزواج ، وهو الشىء الوحيد الذى يمكن ان يرد اليها اعتبارها ؟ ان امامها حياة طويلة ، وهى فى حاجة الى سمعتها بين الناس . — رأى الناس ! هذا ما ينبغى ان تفكر فيه !! . يجب ان تشعر

ان اكبر فضيحة تصيها هي هذا الزواج ، هي هذا الارتباط بأناس ادنياء
أراذل • ان أنبل جواب تردّ به على الناس هي أن تحافظ على كبريائها
النيلة • وقد اقبل يومئذ ان امدّ اليها يدي ، وسرى من يجرؤ حينذاك
على ان يلوث شرفي •

ادهشتني هذه المثالية اليائسة • ولكتني ادركت ان الرجل قد خرج
عن طوره ، وان اندفاع الغضب هي التي تملي عليه هذا الكلام •
فقلت له :

— هذا افراط في المثالية ، فافراط في القسوة • انك تطلب منها
قوة لعلك لم تهبط لها حين وهبت لها الحياة • هل تظن انها تقبل هذا
الزواج لانها تريد ان تصبح اميرة ؟ انها تحب ، وانت تعلم ذلك : انه
البهوى ، انه القدر • ثم انك تريد منها ان تحترق رأى الناس ، مع انك
اول من يخضع له • لقد اهانك الامير ، واتهمك على رموس الاشهاد
بانك تريد بالحيلة ولاسباب دنيئة ان ترتبط بأسرته ، وها أنت ذا ترى
الآن انها اذا رفضت الزواج من تلقاء نفسها بعد ان تقدموا بطلب يدها ،
كانت تنفي التهمة القديمة نفياً واضحاً كاملاً • هذا ما تحصل انت عليه :
تخضع لرأى الامير ، وتتأدى به الى الاعتراف بخطئه • انك تحترق
رغبةً في الهزم به ، والانتقام منه ، ومن اجل ذلك تضحي بسعادة ابنتك •
اليس هذا من الانانية ؟

كان العجوز جالساً ، قائم الوجه ، مقطب الحاجبين ، وظل مدة
طويلة لا يجيب • وقال اخيراً ، والدمع يلتمع في عينيه :

— انت تظلمنى يا فانيا ، اقسم انك لتظلمنى • ولكن دعنا من هذا •

قال ذلك ونهض واقفاً وتناول قبعته ، وأردف يقول :

— لا استطيع ان اقلب قلبى امامك • وحسبى ان اقول لك ما يلى :

لقد تحدث منذ لحظة عن سعادة ابنتي • فاعلم اذن اننى لا أؤمن بأن ابنتى سعيدة ، بل انها لن تكون سعيدة ابداً ، حتى ولو لم اتدخل • فهتفت اقول دهشاً :

— كيف ؟ لماذا تظن هذا ؟ هل تعرف شيئاً ما ؟

— لا ، لا أعرف شيئاً خاصاً • ولكن ذلك الثعلب الحيث لا يمكن ان يقدم على هذا الامر • ذلك كله مكر • انه فخ • انا مقتنع بذلك ، وسأذكرك بهذا الكلام ، وسترى صدق ما اقول • ثم ان هذا الحقيير اذا ارتضى لابنه حقاً ان يتزوجها ، فانما يكون ذلك على اساس خطة يبيتها وحساب يخفيه ، فما يعرفه احد ، فيكون هذا الزواج حلقة من حلقات الخطة ، ورقماً من أرقام الحساب ، وهما خطة وحساب أجهلهما أنا كل الجهل • فاسأل نفسك واحتكم الى قلبك : هل يمكن ان تكون ابنتى سعيدة بمثل هذا الزواج ؟ ستكون حياتها مع هذا الصبي الذى لا نعرف منذ الآن قيمة ما يشعر به من حب ، سلسلة من المتاعب والمذلة • لسوف يحتقرها متى تزوجها ، ولسوف يصب عليها الوان الاذى والهوان • ولسوف يشتد حبها له وتعلقها به كلما ازدادت عاطفته فتوراً ، وعندئذ تأتى الغيرة ويأتى العذاب والجحيم ، ثم تأتى القطيعة ، وربما الجريمة • • لا ، لا يا فانيا ، اذا كان هذا ما تهيئه وتدفع اليه وتشجع عليه ، فان الله سيسألك عما جنت يدك ، وستندم بعد فوات الاوان ! وداعاً •

فأمسكت به ، ومنعته من الخروج :

— اسمع يا نيقولا سرجتش • يجب ان تنتظر • وثق اننى لا اتابع هذه القضية وحدى • وقد تنحل من تلقاء ذاتها على خير وجه ، دون عنف ولا تصنع ، كهذا التزال الذى تحدثت عنه • دع الوقت يحل الامر كما لا يحله اى انسان • واسمح لى بعد ذلك ان اقول لك ان ما تفكر فيه لا يمكن تحقيقه • هل تظن ان الامير يقبل منازلتك ؟

— ولم لا ؟ ماذا دهاك ؟ هل فقدت صوابك ؟

— أوكد لك انه لن يقبل • وثق انه سيجد المهرب السليم ، وانه سيدبر الامر كله برصانة واستعلاء ، وانه سيجعلك عندئذ موضع الهزء والسخر ••

— ارجوك يا عزيزى ارجوك • ان هذا الكلام ليقطع الايدى والأرجل • ولكن كيف يمكن ان لا يقبل النزال • لا ، لا يا فانيا ، انت شاعر ، هذا كل ما فى الامر ، انت شاعر حقاً • اذن ففى رأيك انه سيجد فى منازلتي غضاضة ؟ ولكننى كفء له • انتى عجوز • انتى أب مأهين • وأنت كاتب روسى ، أى شخصية محترمة ، ويمكن أن تكون شاهدى •• و •• و •• لست افهم .. ماذا يجب اكثر من هذا ..

— سترى • سيعرض من الحجج ما يجعلك اسرع منه الى رفض النزال •

— هم ••• طيب يا عزيزى • ليكن الامر كما تشاء • سأنتظر ، ولكن الى حين ، طبعاً • لنتظر ما يفعل الوقت • ولكن اسمع يا صديقى ، عدنى وعد الحر أنك لن تذكر شيئاً عما جرى بيتنا من حديث اليوم ، لا هناك ، ولا لآنا أندريفنا •

— لك ما تريد •

— ثم يا فانيا ، ارجوك ان لا تحدثنى فى هذا الامر بعد الآن •

— أعدك بذلك •

— وثمة رجاء أخير : أنا أعرف يا صديقى ان مجيئك الينا يضايقك ، ولكننى ارجوك مع ذلك ان تكثر زياراتك اذا استطعت • ان المسكينة آنا أندريفنا تحبك كثيراً وتضيق اشد الصيق حين لا تأتى اليها •• هل تفهمنى يا فانيا ؟

قال ذلك وشدَّ على يدي شداً قوياً ، فوعده مخلصاً وعدى •

— والآن ، يا فانيا ، لى سؤال أخير • هل معك مال ؟

— مال ؟

كررت هذه الكلمة دهشاً • فاحمر وجه العجوز وغض طرفه ، وقال :

— نعم •• لقد رأيت بيتك ، ورأيت ظروف معيشتك ، فقدرت ان نفقاتك كثيرة (وخاصة الآن) ، فخذ هذه المائة واخمسين روبلاً يا صديقى ، عسى ان تحتاج اليها •

— تعطينى مائة وخمسين روبلاً ، عسى ان احتاج اليها •• بعد ان خسرت انت قضيتك ؟

— فانيا ، يخيلى الى انك لا تفهمنى أبداً ! قد تحتاج الى نفقات ليست فى الحسبان ، خذ هذا المبلغ • المال فى بعض الاحوال يتيح للانسان أن ينعم باستقلال شخصيته وحرية رأيه • قد لا تكون الآن فى حاجة الى هذا المال • ولكن ألا ينبغى للمرء ان يفكر فى المستقبل ؟ على كل حال ، سأترك لك هذا المبلغ ، وهو كل ما استطعت ان أجمعه ، فاذا لم تنفقه رددته الى • والآن ، وداعاً يا فانيا • ولكن ما بك يا فانيا ؟ ما هذا الشحوب الشديد ؟ لا شك انك مريض •••

ثم اجب على كلامه ، واخذت المبلغ • لقد اعطانى هذا المال لسبب واضح كل الوضوح •

وأجبه قائلاً :

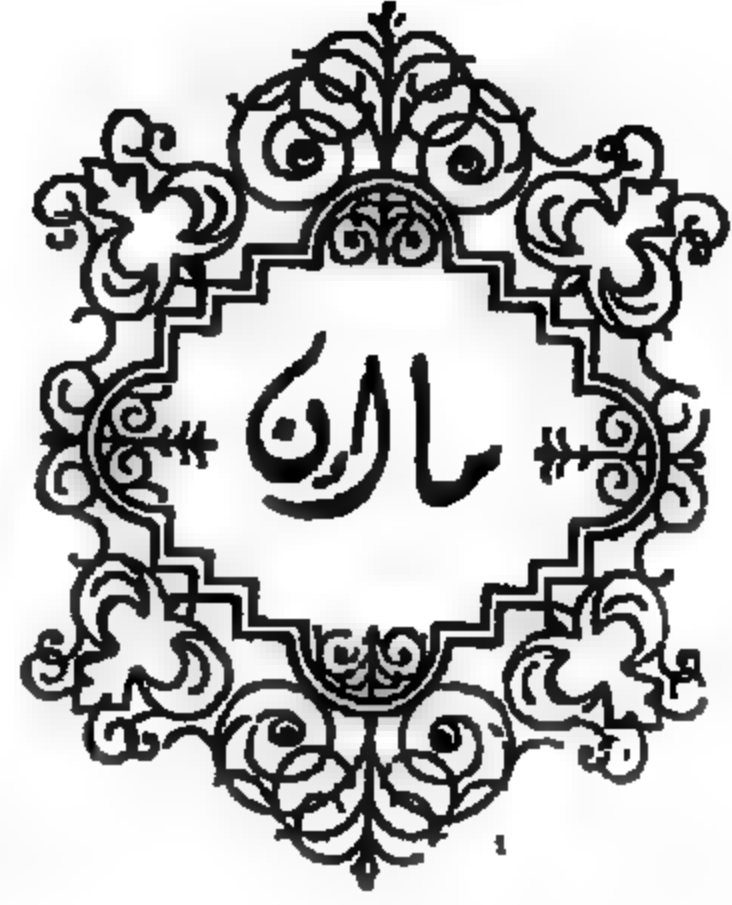
— اننى لا اكاد استطيع الوقوف على قدمي •

— لا تهمل نفسك يا فانيا ، لا تهمل نفسك • اياك ان تخرج اليوم

من البيت • سأقول لآنا آندريفنا انك مريض • الا يجب استدعاء طبيب ؟
 سأتي اليك غداً ، سأحاول ذلك ، فان حملتي ساقاي جئت • ويحسن
 بك الآن ان تنام • الى اللقاء • الى اللقاء ايها الصغيرة • انظر كيف
 تشيح بوجهها عني • اسمع ، يا صديقي ، هذه ايضاً خمسة روبلات
 للصغيرة • لا تقل لها انها مني • ولكن أنفقها عليها وحدها ، اشتر لها
 حذاء وملابس داخلية ••• لا شك ان أشياء كثيرة تعوزها • وداعاً
 يا صديقي •

شيعة حتى باب العمارة • وكان لا بد ان ارسل البواب في شراء
 شيء من الطعام ، فان هيلين لم تتناول عشاءها •

الفصل الحادى عشر



عدت الى منزلى حتى أصابنى دوار فوقعت فى
وسط الغرفة • لا أتذكر الآن الا صرخة هيلين،
وأنها ضربت كفاً بكف ، وهرعت الى لتمسك
بى • كانت هذه هى اللحظة الأخيرة التى بقيت

فى ذاكرتى •

فلما صحت من غيوبتى ، وجدتنى راقداً على السرير • وقد روت
لى هيلين فيما بعد انها نقلتنى الى الارىكة بمساعدة البواب الذى جاء
يحمل الينا الطعام فى تلك اللحظة • وقد استيقظت عدة مرات ، فكنت فى
كل مرة أنظر الى وجه هيلين الصغير مائلاً الى ، وقد فاض بمعانى القلق
والرحمة • ولكننى اتذكر هذا كله كأنه تم فى حلم ، كأنه ملفع
بالضباب ؛ وكان طيف البنية الصغيرة يترأى لى اثناء غفوتى لطيفاً رقيقاً ،
كانتى فى رؤيا ، او كانتى انظر فى لوحة • وكانت تجيئنى بجرعة ماء ،
وتنهضنى ، او تظل جالسة قريى ، حزينة ، خائفة ، تلاعب شعرى •
واتذكر انها لامست خدى مرة بقبلة • وفى مرة ثانية ، استيقظت فجأة
اثناء الليل ، فرأيت فى ضوء شمعة ذابلة على منضدة صغيرة بجانب السرير،
رأيت هيلين قد وضعت رأسها على مخدتى واستغرقت فى نوم خائف وجل
وقد انفرجت شفاتها الشاحبتان ، واستراحت يدها على خدها الفاتر •
فلما استيقظت بعد ذلك تماماً ، كان الصباح قد طلع ، وكانت الشمعة قد
انطفأت ، وكانت اشعة الفجر تراقص على الجدار ساطعة بلون الارجوان.

كانت هيلين قاعدة على كرسى أمام المنضدة ، وكان رأسها المتعب مستنداً الى ذراعها اليسرى الممتدة على المنضدة ، وهى تغط فى نوم عميق • اذكر اننى تأملت وجهها ، فرأيت فيه الطفولة وقد رانت عليها حتى فى النوم معانى الحزن الذى يعاينه الكبار ، ورأيت جمالاً غريباً مريضاً • كان هذا الوجه ذو الأهداب الطويلة المعقوفة ، والحدين الخاسفين ، محفوراً بشعر اسود كخشب الابنوس ، غزير معقود على اهمال ، متهدل من جانب • وكانت يدها الاخرى تستريح على مخدتي • فقبلت اليد الصغيرة النحيلة فى رفق ، فلم تستيقظ الطفلة المسكينة ، ولكن بسمة لطيفة طافت على شفتيها الشاحبتين • فتأملتها لحظة طويلة ، ثم نمت نوماً هادئاً مريحاً • وظللت نائماً ، فى هذه المرة ، حتى الظهيرة • فلما استيقظت كنت احس كأننى ابللت من مرضى فلم يبق منه الا شئ من الوهن وشئ من الثقل فى اليدين والذراعين • كنت اصاب قبل ذلك بنوبات عصبية قصيرة ، فانا اعرف هذه النوبات حق المعرفة • وكان المرض لا يدوم فى العادة اكثر من يوم ، ولكن هذا لا ينفى انه قاس عنيف •

كان النهار قد انتصف او كاد • وأول شئ وقع عليه بصرى هو الاغطية التى اشتريتها امس ، وقد شدتها هيلين على حبل فى ركن ، فهيات لنفسها فى الغرفة زاوية خاصة بها • ورأيت هيلين جالسة أمام المدفأة تعد الشاى ، فلما لاحظت اننى استيقظت أشرق وجهها وأقبلت علىّ بابتسامة فرحة فوراً •

قلت لها وأنا أمسك بيدها :

— يا صديقتى الصغيرة ، لقد سهرت علىّ الليل كله • ما كنت اعرف.

انك نيلة كل هذا النبل •

فقلت وهى تنظر الىّ وتبتسم لى ابتسامة لطيفة متحاشية خجلى ،

ويحمر وجهها وهى تتلق بكملماتها :

- وكيف تعرف اننى سهرت عليك ؟ ما يدريك اننى لم اتم طوال
الوقت !

- لقد استيقظت فرأيت كل شيء • انك لم تنامى الا فى مطلع
الصبح •

فقاطعتنى ، كأن مواصلة هذا الحديث تزعجها ، كما يقع ذلك لجميع
الذين يتصفون بالحياء ويتميزون بالشرف والاستقامة حين يوجه اليهم
الثناء ، قاطعتنى بقولها :

- هل تريد قليلا من الشاى ؟

- نعم • ولكن هل تعشيت امس ؟

- لم أتعش ، ولكنى تناولت شيئاً من الطعام فى الليل • لقد جاءنى
ذالبواب بما كنت فى حاجة اليه • ولكن عليك ان لا تتكلم الآن ، وان
تظل راقداً بهدوء •

قالت ذلك ثم اضافت وهى تحمل الى الشاى وتجلس على سريرى:
- انك لم تشف بعدُ تماماً :

- نعم ، سأظل راقداً حتى المساء • ولكن لا بد لى من الخروج
بعد ذلك • حقاً لا بد لى من الخروج يا هيلين •

- هل هذا شيء لا بد منه حقاً ؟ الى من تذهب ؟ الى زائر الأمس ،
أليس كذلك ؟
- لا •

- من حسن الحظ • انه هو الذى اثارك • اذن ستذهب الى ابنته ؟
- كيف عرفت ان له ابنة ؟

- سمعت كل شيء •
- قالت ذلك وغضت طرفها ، ثم عادت الى وجهها مسحة الألم ،
وقطبت ما بين حاجبيها ، واردفت تقول :
- هذا رجل شرير •
- أنت لا تعرفينه • بالعكس ، انه شهيم جداً •
- لا ، لا ، انه شرير ، لقد سمعت كلامه •
- قالت ذلك فى حرارة •
- ماذا سمعت ؟
- انه لا يريد ان يغفر لابنته ••
- ولكنه يحبها • لقد أساءت اليه ، وهو يعانى كثيراً من العذاب
بسيبها •
- ولماذا لا يصفح عنها ؟ فى رأى ان على ابنته الآن ان لا تعود اليه ،
حتى ولو غفر لها •
- كيف ؟ لماذا ؟
- لأنه لا يستحق ان تحبه ابنته ، فلتهجره الى الابد ، ولتطلب
الصدقات من الناس ، حتى يراها تسول وتتعذب •
- قالت ذلك بحرارة ، وقد التمت عيناها ، واحمر خذاها • فقلت
فى نفسى : لا بد ان هنالك شيئاً يدفعها الى هذا الرأى دفعاً •
- وأردفت بعد فترة من صمت تسألنى :
- أفى بيت هذا الرجل كنت تريد ان تضعنى ؟
- نعم ، يا هيلين •
- أفضل أن أعمل خادمة •

— ما هذا الكلام يا صغيرتى هيلين ؟ ماهذه الحماقة ؟ عند من تريدین ان تعملی خادمة ؟

— عند أول فلاح ألقاه •

قالت ذلك ، وقد نفذ صبرها ، وظلت خافضة عينيها • كان واضحاً انها حائقة •

فقلت وانا اضحك ضحكة صغيرة :

— ولكن الفلاح لا يستفيد من خادمة مثلك •

— اذن اعمل عند سادة من عليّة القوم !

— أيمكن لفتاة لها ما لك من طبع ان تقيم مع سادة من عليّة القوم ؟
— نعم •

كان غضبها يشتد ، وكانت أجوبتها تزداد عنفاً •
— ولكنك لن تحملی ذلك •

— بل أحتمله • سيؤنبونتي ، فأصمت ، وسيضربونتي ، فأظل صامتة ،
ومهما يضربونني ، فلن ابكي • وسيزداد غضبهم حين لا أبكي •

— ماذا دهاك يا هيلين ؟ انك حادة شديدة الحدة ، متكبرة شديدة
الكبرياء ! لا شك أن ذلك يرجع الى انك شقيت كثيراً ••
ونهضت واقتربت من المنضدة الكبيرة ، وظلت هيلين جالسة على
الأريكة ، مطرقة الى الارض ، تشدشد الحاشية بأصابعها •

تساءلت بيني وبين نفسي : ترى هل أغضبتها كلماتي ؟

وفتحت الكتب التي اخذتها امس لكتابة المقال ، فتحتها على غير
شعور ، فاذا أنا أستغرق في القراءة شيئاً فشيئاً • ان هذا الأمر ليتفق لي

كثيراً : افتح كتاباً من الكتب وفى نيتى ان اراجع فيه شيئاً من الاشياء
خلال دقيقة واحدة ، فاذا انا استرسل ناسياً كل شيء •

سألتى هيلين بابتسامة خجلى وهى تقرب من المنضدة :

— ماذا تكتب ؟

— اشياء كثيرة يا صغيرتى • اننى اتقاضى على الكتابة أجراً •

— هل تكتب عرائض ؟

— لا ، لا اكتب عرائض •

وشرحت لها ، ما استطعت الشرح ، أننى اكتب قصصاً مختلفة عن
أناس مختلفين ، وأنتى أخرج من ذلك بكتب تسمى أقاصيص او روايات •
فأصغت الى كلامى بكثير من الاهتمام •

— وهل تقول الحقيقة دائماً ؟

— لا بل اخترع •

— لماذا تكتب أكاذيب •

— خذى هذا الكتاب الذى سبق ان رأيته مرة فاقريه ، وستفهمين •

هل تحسنين القراءة ؟

— نعم •

— اذن ستفهمين ••• هذا الكتاب انا كتبه •

— انت ؟ اذن سأقروء ••

لقد كانت فى حاجة شديدة الى ان تقول لى شيئاً ما ، ولكن ذلك
كان يزعجها ازعاجاً واضحاً ، فكانت مضطربة شديدة الاضطراب • كان
ثمة شيء يختفى تحت أسئلتها • وسألتى اخيراً :

— هل الاجر الذى يدفع لك أجر كبير •

— يتوقف ذلك على جودة ما اكتب • فان جاء ما اكتبه جيداً نلت عليه أجراً كبيراً ، والا لم ائل شيئاً • ان هذا العمل صعب جداً يا هيلين •

— لست اذن غنياً ؟

— لا •

— اذن سأعمل وأساعدك •••

قالت ذلك ورشقتى بنظرة سريعة ، واحمرت احمراراً شديداً ، ثم خفضت عينيها • وما هى الا لحظة حتى اقتربت منى خطوتين • وأحاطتني بذراعيها فجأة ، وشدت وجهها الى صدرى شداً عنيفاً • نظرت اليها مشدوها • فقالت :

— انا أحبك ••• لست متكبرة • قلت لى امس اننى متكبرة ••• لا ، لا ، هذا غير صحيح ، انا احبك • لم يحينى احد غيرك •

ولكن الدموع كانت قد خنقت صوتها ، فما هى الا دقيقة ، حتى انفجرت فى بكاء عنيف ، كما وقع لها امس اثناء تلك النوبة الشديدة • ثم ركعت على ركبتيها ، واخذت تقبل يدي ، وتقبل قدمي ••• وهى تسألنى :

— هل تحبنى ؟ هل تحبنى ؟ انت الانسان الوحيد الذى احبنى ••
الوحيد ••

كانت تشد ركبتي بذراعيها فى تشنج • اب عواطفها التى حبستها مدة طويلة تنفجر الآن انفجاراً عنيفاً لا ميسل الى كبجه ، وفهمت عندئذ ذلك العناد الكبير فى قلبها الذى ظل مغلقاً من الحُجُل الى الآن ، والذى كانت صلابته فى الاتلاق على قدر قوة حاجته الى الانفتاح ، والى التعبير

عمّا فيه من عواطف ، الى ان وقع الانفجار الذى لا بد منه حين يستسلم المرء لهذه الحاجة الى الحب ، والامتنان ، والملاطفة ، والدموع . . استسلاماً ينسى معه نفسه . . .

وظلت تبكى الى ان انتهت الى نوبة هسترية . ولم استطع ان اتحلل من ذراعيها اللتين تحيطان بى الا فى كثير من العناء فانهضتها وحملتها الى الارىكة . وظلت تبكى مدة طويلة ، وقد دفنت رأسها بين الوسائد ، كأنها تستحى ان اراها على هذه الحال ، ولكنها كانت تشد يدي بيدها شداً قوياً ، وتحتفظ بها فوق على صدرها .

وهدأت شيئاً فشيئاً ، ولكنها لم ترفع رأسها . واختلست النظر الى مرة او مرتين ، فكان فى نظرتها كثير من الرقة ، وكان فيها عاطفة وجلة تخفيها من جديد . وأخيراً احمر وجهها وابتمت . قلت :

— هل تحسنت حالتك ، يا صغيرتى الحساسة ، يا ابنتى المريضة ،

يا هيلين ؟

فقدمت تقول وهى تشيح بوجهها عنى مرة اخرى :

— يجب أن لا تخاطبنى بهذا الاسم ؟

— بأى اسم اخاطبك اذن ؟

— باسم نللى .

— نللى ؟ لماذا نللى بالذات ؟ لا مانع عندى من ذلك ، فالاسم جميل

جداً ، وسأناديك به ، ان شئت .

— بهذا الاسم كانت تناديني امى . . ولم ينادنى به احد غيرها

ابداً . . كنت لا اريد ان يخاطبنى احد غيرها بهذا الاسم . . اما انت

فاريد ان تسمينى به . . سأحبك دائماً ، دائماً .

قلت فى نفسى « يا له من قلب متكبر محب ! لكم احتجت الى وقت

حتى اکتسبت حبك . . . يا نللى » .

ولكننى اعرف الآن انها قد محضتى حبها الى الابد .

قلت لها حين هدأت :

- اسمعى يا نللى . لقد قلت منذ برهة ان امك وحدها كانت تحبك ، وان أحداً غيرها لم يحبك . فهل كان جدك لا يحبك ؟

- نعم .

- ولكنك بكيت هنا فى السلم حين ابلغتك نبأ موته ، هل تتذكرين ؟

وظلت واجمة تحلم خلال دقيقة من الزمن .

- لا ، لم يكن يحبنى . . كان رجلاً شريراً .

قالت ذلك وارتسمت على قسباتها عاطفة الیمة .

- ولكن ما ينبغى ان يُطلب منه ذلك . لقد كان كمن عاد الى

الطفولة . ومات كما يموت مجنون . لقد رويت لك كيف مات ؟

- نعم ، ولكنه لم يبدأ بنسيان نفسه تماماً الا فى الشهر الاخير ،

فكان يظل جالساً هنا النهار كله ، فاذا لم آت اليه ظل كذلك يومين او

ثلاثة ايام لا يأكل ولا يشرب . اما قبل ذلك فكانت حالته احسن كثيراً .

- قبل ذلك ؟ كيف ؟

- قبل ان تموت امى .

- اذن ، كنت انت تحملين اليه طعامه يا نللى .

- نعم .

- ومن اين كنت تأتىه بالطعام ؟ من بيت بوبنوبا ؟

- لا ، لم اكن آخذ من بوبنوبا شيئاً .

قالت ذلك بلهجة جازمة ، ولكن بصوت مرتعش .

- من اين كنت تأتينه اذن بالطعام ؟ انك لا تملكين شيئاً •
- فصمت نللى ، وشحب وجهها شحوباً رهيباً ، ثم اقلت على نظرة طويلة •
- كنت اتسول فى الشارع ، حتى اذا جمعت خمسة كوبيكات ، اشتريت له بها خبزاً وشيئاً من تشوق التبغ ••
- وكان يقبل ذلك يا نللى ؟ يا نللى !••
- فى اول الامر لم اكن اقول له • فلما علم بذلك ، ارسلنى اتسول من تلقاء نفسه ، فكنت افق على الجسر اطلب الصدقة من المارة ، وكان هو يقف الى جانبى ينتظر ، فاذا رأى انهم اعطونى شيئاً ، هجم على واخذه منى ، كأنه يظن اننى سأحتفظ به لنفسى ، وكأنه يجهل اننى له اتسول •
- قالت ذلك وارتسمت على شفتيها ابتسامة مرة ساخرة • ثم اردفت تقول :
- كل ذلك كان بعد موت امى • وكان جدى ايامئذ كالمجنون •
- اذن كان يحب امك كثيراً ، فلماذا كان لا يعيش معها ؟
- لا ، لم يكن يحبها •• لقد كان شريراً ، وكان لا يريد ان يغفر لها •• مثل ذلك العجوز الذى جاءك امس ••
- قالت ذلك فى رفق ، بصوت يشبه ان يكون همساً ، وكان لونها يزداد شحوباً •
- ارتعشت • ان عقدة رواية برمتها قد التمت فى خيالى : المرأة المسكينة تحتضر فى قبو عند صانع توابيت ، ابتها اليتيمة تزور جدّها الذى غضب على امها ، العجوز الغريب يفقد عقله ويموت فى مقهى بعد موت كلبه !

وقالت نللى فجأة ، وهى تبسم لذكرى من الذكريات :

— كان آزور فى اول الامر لأمى • كان جدى يحب امى كثيراً فى الماضى ، فلما تركته بقى آزور عنده • لذلك كان يحب آزور حباً شديداً •

ثم اضافت بصوت قاس ، وقد اختفت الابتسامة من وجهها :

— انه لم يغفر لأمى ، ولكن حين مات آزور ، مات هو أيضاً •

وسألها بعد لحظة من صمت :

— فمن كان جدك هذا ، يا نللى ؟

— اعرف انه كان رجلاً غنياً ، يملك مصنعاً ، فهذا ما قالته لى امى • كانت امى فى اول الامر تعدنى طفلة صغيرة ، فما تفتحنى فى شىء البتة • • كانت تقبلنى وتقول لى : « ستعرفين كل شىء ، يا طفلى المسكينة ، يا طفلى الشقية ! كانت تنادينى دائماً بالطفلة البائسة الشقية • وفى الليل ، حين كانت تظن اننى نمت ، (وما كنت انام بل اتظاهر بالنوم) كانت تبكى ، وتقبلنى ، قائلة : « ايتها الطفلة البائسة ، ايتها الطفلة الشقية ! » •

— ممّ ماتت أمك ؟

— من السل ، منذ ستة أسابيع •

هل تتذكرين الأيام التى كان جدك فيها غنياً •

— لم اكن ولدت فى ذلك الحين • لقد تركت امى جدى قبل ان اولد انا •

— مع من ذهبت امك ؟

— لا أعرف ، لقد ذهبت الى بلاد أجنبية وهناك ولدت انا •

قالت ذلك بصوت منخفض ، وكأنها تحلم •

— ذهبت الى بلاد أجنبية ؟ الى اين ؟

— الى سويسرا • لقد طفت كثيراً من البلاد ، وذهبت ايضاً الى

ايطاليا وباريز •

— هل تتذكرين هذا كله يا نللى ؟

قلت ذلك دهشاً ، فأجابت بقولها :

— اتذكر أشياء كثيرة •

— وكيف تجيدين الروسية هذه الاجادة ؟

— علمتى امى اللغة الروسية هناك • كانت أمى روسية ، وكانت

أمها روسية ، اما جدى فكان انجليزياً ، ولكنه أشبه بروسى • فلما عدنا

الى هنا ، أنا وأمى ، منذ سنة ونصف سنة ، أتقنت الكلام بالروسية •

وكانت أمى فى ذلك الوقت قد اصببت بالمرض منذ مدة • وأصابنا الفقر ،

والح علينا ، فكان يزداد يوماً بعد يوم • وكانت أمى لا تنى تبكى ليل

نهار • ظلت فى اول الامر مدة طويلة تبحث عن جدى هنا ببترسبرج ،

وكانت تقول دائماً انها اساءت اليه ، وكانت تبكى •• ما اكثر ما كانت

تبكى ؟ فلما علمت ان جدى أصبح فقيراً ، اشتد بكائها ، وكانت تكتب

اليه فى كثير من الاحيان ، ولكنه كان لا يرد على رسائلها أبداً •

— لماذا رجعت امك الى هنا ؟ هل كانت رغبته فى البحث عن ابينا

هى الدافع الوحيد الذى حملها على العودة ؟

— لا ادرى • كنا هناك على احسن حال •

قالت ذلك واخذت عيناها تلتصقان • واردفت تقول :

— كانت امي تعيش وحدها معي • وكان لها صديق طيب مثلك ،
تعرفه من هنا • ولكنه مات • ومن اجل هذا عادت ••

— اذن لقد سافرت أمك معي حين تركت جدك •

— بل سافرت مع شخص آخر ، ولكن هذا الشخص الآخر قد
هجرها •••

— من هو ذلك الشخص يا نللي ؟

نظرت الى نللي ، ولم تجب بشيء • كان واضحاً انها تعرف
الرجل الذي سافرت معه أمها ، والذي لعله ابوها • ولكن كان يشق
عليها ان تذكر اسمه ، ولو لي أنا •

لم أشأ ان ارفعها باستئني • لقد كان طبعها طبعاً غريباً ، كان
طبعاً عصياً حاداً ، ولكنه يلجم اندفاعاته ، وكان طبعاً محبباً الى القلب ،
ولكنه مغلق على كبرياء لاتلين • فرغم انها أحبتي حباً يخرج من اعماق
القلب ، حباً مضيقاً صافياً لا يضارعه في ضيائه وفي صفائه حب ، حباً يكاد
يعدل حبها لامها التي كانت لا تستطيع ان تتحدث عنها دون أن يحز في
نفسها الالم ، رغم ذلك ظلت طوال المدة التي ارتبطت خلالها بها ، لا
تفني الى بذات نفسها الا قليلاً ، ولا تشعر بالحاجة الى ان تحدثني عن
ماضيها الا نادراً ، فيما عدا ذلك اليوم ، حتى لقد كانت تخفي عني ذلك
الماضي بنوع من القسوة • الا انها ، في ذلك اليوم ، قد أطلعتني ، في
ساعات ، من خلال الآلام والنحيب ، على كل ما كان من ذكرياتها يقض
مضجعها ويعذبها أكثر من غيره ، ولن انسى قصتها ما حييت • ولكن
الامر الاساسي من هذه القصة سيجيء حينه فيما بعد •

انها قصة رهيبة : قصة امرأة هجرها صاحبها وما يزال، يعيش على
انقراض سعادتها ، قصة امرأة مريضة هدتها الالم ، وانصرف عنها جميع

الناس ، وانكرها الانسان الذى كانت تعقد عليه آخر رجاء ، أبوها الذى أساءت اليه فى الماضى ، وفقد عقله هو الآخر تحت وطأة انواع العذاب والذل التى لا يمكن ان يحتملها بشر ؛ قصة امرأة استبدت بها اليأس ، فأخذت تطوف فى شوارع بطرسبرج ، الباردة القذرة ، تطلب الصدقات من الناس ، مع ابنتها التى ترى انها ما تزال طفلة صغيرة ؛ قصة امرأة فئت بعد ذلك خلال شهور فى قبر رطب ، ورفض ابوها ان يمن عليها بغفرانه الى آخر لحظة من حياتها ؛ حتى اذا تاب اليه صوابه ، فهرع اليها ليغفر لها ، لم يجد فى مكان ابنته التى احبها أكثر مما أحب أى شىء فى حياته ، الا جثة باردة • انها قصة غريبة ، قصة علاقات عجيبة لا يكاد يفهمها المرء ، بين رجل عجوز ارتد الى الطفولة وبين حفيدة له كانت تفهمه ، على صغر سنها ، وكان لها من نفاذ الفكر ما لا يصل اليه كثير من الناس خلال حياتهم الهادئة الرخية • انها قصة مظلمة ، قصة من تلك القصص السوداء الاليمة التى كثيراً ما تجري دون ان يلمحها احد ، كأنها اسرار خفية ، تحت سماء بطرسبرج الثقيلة ، فى الزوايا المظلمة المستسرة من المدينة الكبيرة وسط اصطخاب الحياة ، والأنانية الضارية ، والمصالح المتصارعة ، والفجور الكالغ ، والجرائم الحيثة ، فى كل هذا الجحيم من الحياة المجنونة الشاذة ••

ولكن هذه القصة سيأتى حينها فيما بعد •••

الجزء الثالث

الفصل الأول



الفسق وتلاه المساء منذ زمن ، ولم أتذكر الحاضر
الا حين صحوت من هذا الحلم الثقيل القائم •
قلت لنلى :

— نلى ، أنت الآن مريضة مهدودة القوى ،
ومع ذلك لا بد لي من أن أتركك وحيدة ، مضطربة ، دامعة • عفوك
يا بنيتي ، واعلمي ان هناك انساناً آخر تحبه ، أبوا أن يغفروا له ، فهو
شقي مهان مهجور • انها تنتظرنى • وقد بلغت من الاضطراب بعد القصة
التي رويتها لي اتنى لا أحتمل أن لا أذهب اليها لأراها ، فوراً ، فى هذه
اللحظة نفسها •••

لا ادرى هل فهمت نلى ما قلته لها • لقد كنت مضطرباً أشد
الاضطراب ، بسبب القصة التي روتها لي ، وبسبب التوبة التي اصابتنى •
ولكننى هربت الى ناتاشا ، فوصلت اليها متأخراً ، فى نحو الساعة
التاسعة •

وفى الشارع ، بالقرب من باب العمارة التي تسكن فيها ناتاشا ،
لمحت عربة خيّل الى انها عربة الامير • فما ان صعدت الدرجات الأولى
من السلم حتى سمعت وقع خطوات فوقى ، هى خطوات رجل يصعد
السلم تلمساً ، فى حذر ، لانه لم يألّف هذا المكان • فتخيلت ان هذا
الرجل لا بد ان يكون هو الامير ، ولكننى ما لبثت ان اعتقدت اتنى على
خطأ ، فان هذا الرجل المجهول كان ، وهو يتسلق السلم ، يهمهم متذمراً

ويسب ويلعن فى اقذاع ما ينفك يشتد كلما صعد درجة اخرى • صحيح ان السلم كان ضيقاً قدراً وعراً ، ولم 'يضاً بنور يوماً • ولكتنى لم استطع أبدا أن أتصور هذه الشتائم صادرة عن الامير • كان الرجل يجدف بكلام بذىء ككلام حودى • وكان فى الدور الثالث شىء من النور ، هو نور مصباح يضىء أمام باب ناتاشا • وأمام باب ناتاشا انما ادركت الرجل المجهول ، فما اشد ما شُدهت حين رأيت انه الامير عينه ؟ كان واضحاً انه قد ساء كثيراً ان يلقانى هذا اللقاء الذى لم يكن فى الحسبان • انه لم يعرفنى فى اللحظة الاولى ، ولكن وجهه ما لبث ان تبدل فجأة ، فاذا نظرته التى كانت تفيض بالكراه والحُبث ، تصبح نظرة محيية مرحة ، دفعة واحدة ، واذا هو يمد الى يده فى كثير من الفرع •

— ها ... هذا انت ! لقد كدت اركع على ركبتى ، وابتهل الى الله ان ينقذنى • هل سمعتنى اسب والعن ؟

قال ذلك وانفجر ضاحكاً فى دمائه ورقة • ولكن وجهه ما لبث ان اكسى طابع الجد والغضب ، وقال وهو يهز رأسه :

— كيف يجيز اليوشا لنفسه ان يسكن ناتاليا نيقولايفنا فى بيت كهذا البيت ؟ ان الامور الصغيرة هى التى تميز المرء ، كما يقول المثل • اتنى أخشى عليه • انه طيب كريم القلب • ولكن انظر : انه يحب حباً جامحاً ، ثم 'يسكن تلك التى يحبها فى كوخ كهذا الكوخ • بل لقد بلغنى انهما فى بعض الاحيان يعوزهما الخبز (قال ذلك بصوت هامس ، وهو يتلمس الباب بحثاً عن قبضة الجرس) • ان رأسى ليدور حين افكر فى مستقبله ، وخاصة فى مستقبل آنا نيقولايفنا حين تصبح زوجة ••

اخطأ الامير فى اسم ناتاشا دون ان يظن الى ذلك ، وكان لا يزال يتلمس الباب باحثاً عن الجرس معكراً المزاج • ولكن لم يكن ثمة جرس • فحركت قبضة الباب ، ففتحت لنا مافرا فوراً ، واستقبلتا وقد لاح عليهما

الانشغال • ورأيت من خلال باب المطبخ الذى يفصله عن المدخل الضيق حاجز من خشب ، رأيت ان ثمة اعداداً وتحضيراً ، فكل شيء قد نظف وُمسح اكثر مما ينظف ويمسح عادةً ، والمدفأة مشتعلة ، وعلى المائدة اطباق جديدة • كان واضحاً انهم فى انتظارنا • واسرعت مافرا فخلعت معطينا • سألتُ مافرا :
- هل اليوشا هنا ؟

فأجابتنى مدممة ، وقد بدا على وجهها معنى غريب :

- لم يجرىء بعد •

ودخلنا على ناتاشا ، فلم نر فى غرفتها استعدادات خاصة ، بل كان كل شيء هناك على عهدى به • ثم ان غرفتها نظيفة دائماً انيقة دائماً ، فما تحتاج الى مزيد من ترتيب • وفوجئت بما يلوح على ناتاشا من هزال هو هزال المرض ، ومن شحوب فى وجهها شديد ، رغم ان الحمرة كانت تصعد فى بعض اللحظات الى خديها الداوين • كانت عيناها محمومتين • ومدت يدها بسرعة الى الامير ، دون ان تنبس بكلمة • كان واضحاً انها مضطربة شاردة اللب • حتى انها لم تلق على نظرة • فطللت واقفاً ، وانتظرت فى صمت • قال الامير بلهجة فرحة تشيع فيها روح الصداقة :

- هاأناذا اخيراً • اننى لم اعد الا منذ ساعات • وما غبت عن بالى

لحظة خلال هذا الوقت كله •

قال ذلك وقبل يدها فى رقة ولطف ، وأردف :

- ما اكثر ما فكرت فيك ، ثم اعدت التفكير •• فى ذهنى امور كثيرة

يجب ان اقولها لك •• ولكننا مستحدث على مهل • وقبل كل شيء ، اين ذلك الطائش الذى لم يصل بعد ، فيما ارى ؟

فقاطعت ناتاشا قائلة ، وهى تحمر وتضطرب :

— هل تسمح اينها الامير .. يجب أن أقول كلمتين لايفان بتروفتش
 .. تعال يا فانيا ...

وامسكت يدي ، وقادتني الى ما وراء الحاجز ، فقالت لي هامة ،
 بعد ان جرتني الى ابعد ركن مظلم :

— فانيا ، هل غفرت لي ؟

— هلاً سكت يا ناتاشا ؟ ماذا دهاك ؟

— لا ، لا ، يا فانيا ، لقد غفرت لي قبل الآن كثيراً من الامور ،
 وان للصبر حدوداً . اعرف انك ستظل تحبني ، ولكنك ستعدني عاقبة ،
 فلقد كنت امس ، واول امس ، قاسية انانية عاقبة ..

وتفجرت دموعها فجأة ، واسندت رأسها الى كتفي ، فأسرعت
 أقول لها :

— كفى يا ناتاشا . لقد كنت مريضاً جداً طوال الليل ، وما زلت
 الى الآن مهدود القوى لا أكاد استطيع الوقوف على قدمي . لذلك لم
 اجيء اليك لا امس مساء ولا اليوم ، فلا تظني انني تخلفت عن المجيء
 غضباً ! هل تحسبن ، يا صديقتي ، أنني أجهل ما تعانينه في هذه الايام ؟

فقالت وهي تبسم من خلال الدموع ، وتشد يدي شداً موحجماً :

— طيب ، طيب ، اذن فقد غفرت لي . هذا يكفيني الآن ، وما عداه
 يجيء حينه . ثمة اشياء كثيرة يجب ان افضي بها اليك ، يا فانيا . أما الآن
 فلنغد اليه ..

— هلمى يا ناتاشا ، فلقد تركناه فجأة في غير رفق ..

قدمدمت تقول بسرعة :

— سوف ترى ما سيحدث . انني اعرف الآن كل شيء ، لقد

أدركت كل شيء • ان الذنب كله ذنبه هو • ستقرر هذه السهرة كثيراً من الأمور • هيا بنا •

لم افهم معنى ما قالته ناتاشا ، ولكن المجال لا يتسع لطرح الاسئلة • وتقدمت ناتاشا نحو الامير ثابتة الخطى رصينة الوجه ، وكان ما يزال واقفاً ، ممسكا قبعته بيده ، فاعتذرت له اعتذاراً مرححاً ، وتناولت منه قبعته ، وقدمت له بنفسها كرسيّاً ، وجلسنا نحن الثلاثة حول المائدة الصغيرة •

قال الأمير :

— بدأت بالكلام عن ابني الطائش •• اتى لم اراه الا دقيقة واحدة ، حتى لقد كان لقاءنا في الشارع ، وهو في طريقه الى الكوتيسة زينايد فيدوروفنا • كان يستعجل الخطى ، وتصوري انه أبى أن يركب معي ، رغم اننى لم اراه منذ اربعة ايام •• والذنب ذنبى فى انه ليس الآن بيتنا ، وفى اتنا وصلنا قبله • ذلك اننى انتهزت الفرصة فحملته رسالة الى الاميرة ، لاننى لا استطيع ان اذهب اليها اليوم بنفسى • ولكنه سيصل بعد لحظة •••

فسأله ناتاشا ، وهى تنظر اليه نظرة ساذجة :

— لا شك انه وعدك بالمجيء هذا المساء ؟

فهتف الامير ، وهو يتفرس فيها دهشاً :

— كيف تسألين هذا السؤال ؟ هل يمكن ان لا يأتى ؟ على اننى

افهم الامر : فانت غاضبة منه حانقة عليه • لا شك ان وصوله آخر الواصلين شيء معيب • ولكننى اكرر ما قلته منذ لحظة ، وهو ان الذنب فى ذلك ذنبى • فلا تلوميه • صحيح انه ضعيف ، طائش ؟ لست ادافع عنه ، الا ان ثمة ظروفًا خاصة توجب ان لا يهمل فى هذه اللحظة منزل

الکوتیسة ولا منازل بعض الاصدقاء الآخرين ، وتحتم عليه ان يزورها وان يكثر من زيارتها •

واغلب الظن انه اصبح لا يخرج من عندك في هذه الايام ، حتى نسي كل شيء في العالم ، فلا تؤاخذيني اذا انا سلبتک اياه من حين الى حين ، بضع ساعات في اكثر تقدير ، ليقضى لي بعض اعمالی • اعتقد انه لم يذهب الى الاميرة آ • • منذ ذلك المساء ، ويوسفنى انتى لم اسأله عن هذا الامر حين لقيته منذ قليل •

القيت نظرة على ناتاشا ، فرأيتها تصفى الى كلام الامير ، وقد علت شفيتها ابتسامة خفية تشبه ان تكون ابتسامة السخر • ولكن الامير كان يسوق كلامه صريحا لا كلفة فيه ، حتى ليستحيل على المرء ان يشك في صدق ما يقول •

سأله ناتاشا بصوت ناعم هادىء كأنها تتحدث عن امر عادى :

— هل تجهل 'حقاً' انه لم يزرنى مرة واحدة خلال هذه الايام كلها ؟

— ماذا ؟ لم يزرك مرة واحدة ؟ ماذا تقولين ؟

قال الامير ذلك ، وقد بدت عليه اشد آيات الدهشة •

— لقد جئت الى يوم الثلاثاء ، فى ساعة متأخرة من السهرة •

وفى الصباح اتانى فمكث نصف ساعة ، ثم لم أراه بعد ذلك أبدا •

— هذا كلام لا يكاد يصدق !

قال ذلك وقد ازدادت دهشته شدة ، ثم اردف :

— كنت اظن انه لا يتركك ابداً • عفوك ومفرتك • ان هذا لأمر

عجيب ، لا يصدق العقل !

— هو مع ذلك صحيح • • شيء يوسف • • • كنت انتظر مجيئك

حتى اعرف منك اين هو !

- آه ، يا رب ! • ولكنه سيصل بعد لحظة ... ان ما ذكرته لي الآن قد صفعني صفعة أليمة ... أعترف لك اننى كنت أتوقع منه كل شيء الا هذا !

- هل ادهشك كلامي كل هذه الدهشة ؟ كنت اظن انه لن يفاجئك بل كنت اظن انك تعرف ان الأمور ستجرى هذا المجرى •
- اعرف ؟ أؤكد لك يا ناتاليا نيقولايفنا اننى لم اره الا لحظة واحدة هذا اليوم ، واننى لم أسأل عنه أحداً • واننى لأستغرب كيف يبدو عليك انك تشكين فى صدق ما اقول •

قال ذلك وهو يلفنا كلينا بنظره •
قالت ناتاشا :

- معاذ الله ! اننى مقتنعة كل الاقتناع بأنك تقول الحقيقة •
قالت ذلك وانفجرت ضاحكة امام انفسه ، فقطب ما بين حاجبيه تقطياً خفيفاً • ثم قال مرتبكاً :
- اشرحى ما فى نفسك •

- ليس هناك ما اشرحه • اننى اتكلم وكفى • وانت تعرف انه طائش نساء • والآن وقد ملك حريته كاملة ، أرخى لنفسه العنان •
- كيف يرخى لنفسه العنان ! لا شك ان وراء هذا الامر ما وراءه ، وسأجبره على ان يعلل سلوكه ، متى جاء بعد قليل • والشيء الذى يدهشنى الى ابعد حدود الدهشة انك تكادين تحميلينى تبعة هذا السلوك ، مع اننى كنت غائباً • ثم اننى أرى يا ناتاليا نيقولايفنا انك حاتقة عليه جداً ، وهذا امر افهمه ، فان لك ان تحقنى عليه ، و • • • طبعاً • • • انا المذنب الاول لاننى وصلت قبله ، اليس كذلك ؟

قال الأمير عبارته الأخيرة ، وهو يلتفت الىّ ويتسّم ابتسامة تثير الحقن فاحمرت ناتاشا احمراراً شديداً • واردف الأمير يقول فى وقار :

— اسمح لى يا ناتاليا نيقولايفنا ••• انا اسلم باتنى اذنبت ، ولكن ذنبى الوحيد هو اننى سافرت بعد ان تعارفنا بيوم واحد ، فاذا انت ، لما يتصف به طبعك من شك ألاحظه ، تغيرين رأيك فىّ ، خاصة وان الظروف ساعدت على ذلك • فلولا اننى سافرت لاستطعت أن تعرفينى معرفة اكمل ، ولولا ان اليوشا افلت من رقابتى اثناء غيابى لما فعل ما فعله • ستسمعين باذنك ما سأقوله له •

— اى انك ستعمل ما يجب عمله من اجل ان يشعر بأننى ثقيلة عليه • من المستحيل ، وانت تملك ما تملك من ذكاء ، ان تفكر حقاً فى مساعدتى بهذه الطريقة •

— هل تعنين اننى اريد ان أشعره بانك عبء عليه ؟ إنك لتهينينى يا ناتاشا نيقولايفنا •

— اننى احاول ان اتحاشى التلميح ، كائناً من كان محدثى ؛ وأوتر عليه التصريح ، وستقتنع من تلقاء نفسك بذلك ، ربما هذا اليوم • لا أريد أن أهينك ، وما من سبب يدعونى الى أن أرغب فى ذلك • ثم انك تشعر من كلامى باهانة ، مهما يكن هذا الكلام • انا مقتنعة بذلك كل الاقتناع ، لاننى افهم علاقاتنا المتبادلة كل الفهم : انك لا تستطيع ان تحمل كلامى على محمل الجد ، اليس كذلك ؟ ولكن اذا كنت قد آذيتك حقاً ، فأنا على اتم الاستعداد للاعتذار اليك ، حتى أقوم نحوك بكل واجبات •• الضيافة •

لم ار ناتاشا فى حياتى كلها تبلغ هذا المبلغ من الغضب ، رغم لهجتها اللينة التى تشبه ان تكون لهجة المزاح ، ورغم الابتسامة التى كانت

ترسم على شفتيها • عندئذ تصورت الآلام التي تجمعت في قلبها خلال هذه الايام الثلاثة • واخافتي تلك الكلمات الاحياء التي قالتها لي منذ لحظة ، وهي انها عرفت كل شيء وادركت كل شيء • كانت هذه الكلمات اذن تتناول الامير • لقد غيرت رأيها فيه ، واصبحت تعدد عدوها • هذا واضح • انها تغزو الى تأثير الامير في ابنه كل ضروب الاخفاق التي عانتها مع اليوشا ، ولعلها تعرف اموراً تحملها على ذلك • وخشيت ان يقوم بينهما شجار على حين فجأة • ان لهجة السخر التي تلتزمها في حديثها واضحة لا تخفى • وكلامها الأخير عن أن الأمير لا يمكن أن ينظر الى علاقاتهما نظرة الجد ، وجملتها عن الاعتذار اليه بحكم واجبات الضيافة ، والوعد الذي قطعه على نفسها في صورة وعيد ، بأنها ستبرهن له في هذه الليلة نفسها على انها تتحدث بلا مواربة • كل هذا كان قارصاً، صريحاً، لا يمكن الا ان يفهمه الامير • وقد تغير وجه الامير ، ولكنه كان يعرف كيف يسيطر على نفسه • فسرعان ما تظاهر بأنه لم يلاحظ هذه الكلمات الأخيرة ، وبأنه لم يفهم معناها ، وتخلص من الموقف بمزاح ، فقال وهو يضحك :

— معاذ الله أن أسألك الاعتذار ! انتي أقل الناس رغبة في أن يعتذر اليّ ، وليس من مبادئي ان اطلب الاعتذار الى امرأة • وقد نهتكَ الى طبعي منذ لقائنا الاول ، لذلك اظن انك لن تغضبي اذا انا ابدت هذه الملاحظة ، خاصة وانها تتصل بجميع النساء • ولعلك متسلم لي بصدق هذه الملاحظة (قال ذلك متجهاً اليّ) : لقد لاحظت في طبع النساء صفة عامة تميزهن ، هي ان المرأة حين تخطيء ، تؤثر ان تمحو خطأها بالمدارة والتدليل فيما بعد ، على ان تعترف حالاً وان تعتذر عنه ، رغم انها تكون مقتنعة كل الاقتناع بأنها اخطأت • لذلك ، اذا سلمنا بأنك اهتنتي الآن ، فأنا أرفض أن تعتذري اليّ ، وأوثر أن أتفجع بهذا فيما بعد ، حين

تدركين خطأك من تلقاء نفسك ، فتحاولين ان تزيلى هذا الخطأ وان تكفرى عنه •• بالمدارة والتدليل • ثم انك من نيل النفس وطهارة القلب ونضارة الروح وانطلاق السجية بحيث ان الدقيقة التى ستدمين فيها على خطئك ستكون رائعة حقاً ••• فلا حاجة الى الاعتذار الآن ، بل قولى لى كيف استطيع ان ابرهن لك اليوم على اننى اصدق كثيراً مما تظنين ، وعلى اننى اصرح فى اعمالى مما يتبادر الى ذهنك •

احمرت ناتاشا • وبدا لى ان فى جواب الامير شيئاً من الاستخفاف ، نوعاً من الدعابة الوقحة • سألته ناتاشا وهى تنظر اليه نظره تحد :
— أتريد ان تبرهن لى الليلة على انك مستقيم صادق ؟

— نعم •

— اذن عدنى بتحقيق ما سأطلبه منك •

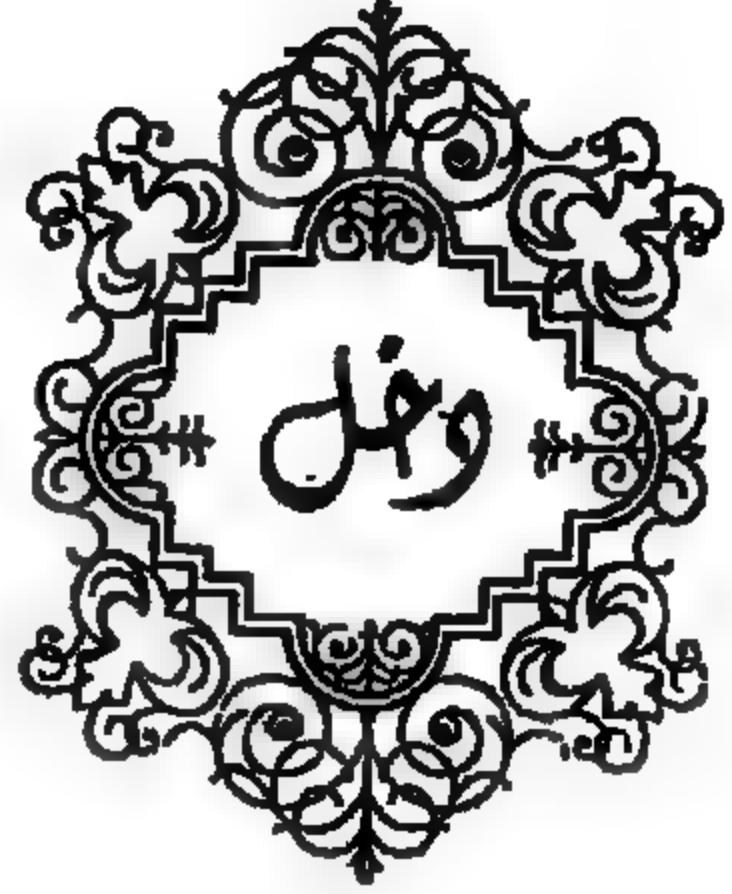
— اعدك بذلك •

— لا 'تقلق أليوشا ، لا اليوم ولا غداً ، لا بكلمة عنى ولا بإشارة الى • لا تظهر له شيئاً من اللوم على انه نسينى • أريد أن أستقبله استقبالاً لا 'يشعره بان شيئاً قد وقع بيننا ، حتى لا يلاحظ شيئاً • اننى فى حاجة الى هذا • هل تعدنى ؟

— بكل سرور • واسمحي لى ان اضيف الى ذلك اعترافى الصادق بأننى لم ألق ، الا نادراً ، آراء عاقلة واضحة فى شئون من هذا النوع ، كآرائك • هذا أليوشا قد وصل ، يخيل الى •

وسمعنا ، حقاً ، اصواتاً فى حجرة المدخل • فارتعشت ناتاشا ، وبدا كأنها تنهياً لامر من الامور • كان الامير يظهر بمظهر الجسد ، ويتنظر ما سيقع : كانت عيناه لا تفارقان ناتاشا • وفتح الباب ، ودخل أليوشا كهبوب ريح •

الفصل الثاني



أليوشا مشرق الوجه ، مرحاً فرحاً • كان واضحاً
أنه رائق المزاج ، وأنه قضى هذه الأيام الاربعة
في متعة جميلة • وكان كمن كتب على وجهه أن
ثمة نبأ يريد أن يطلعنا عليه •

صرخ بصوت قوى :

— هأنذا وصلت ، أنا الذي كان ينبغي أن أصل أول من يصل •
ولكنكم ستعرفون كل شيء ، كل شيء • لم يتسع الوقت منذ لحظة ، يا أبي ،
لان تبادل كلمتين ، وكان هناك أشياء كثيرة أريد أن أقولها لك (قال
ذلك ثم قاطع نفسه متجهاً الى) : هو الذي يسمح لي في لحظاته الرائعة
بأن أخطبه بصيغة المفرد • وأؤكد لك انه في لحظات أخرى يمنعني من
ذلك ، وهذه خطته : يأخذ يخاطبني بصيغة الجمع • ولكنني أريد بعد
اليوم ألا يكون ثمة الا لحظات رائعة ، وسأعمل مايجب عمله لاوفر له
ذلك • لقد تبدلت كثيراً خلال هذه الايام الاربعة ، تبدلت تبديلاً تاماً ،
وسأقص عليكم كل شيء • هاهي ذى من جديد ! ناتاشا ! ثروتى ! سلاماً
يا ملاكى !

قال ذلك وهو يجلس الى جانبها ، وتابع كلامه يقول : ..

— لشد ما اشتقت اليك خلال هذه الأيام ! ولكن ما حيلتى ! لم
أستطع ، لم أستطع أن أفعل خيراً مما فعلت • عزيزتى ناتاشا ، كأنك قد
نحلت ، انك شاحبة ممتعة اللون ••

وأخذ ، وهو فى غمرة الحماسة ، يفرق يديها بالقبلات ، ويلتئمها بنظراته التهاماً ، كأنه لا يشبع من النظر اليها . وألقيت نظرة على ناتاشا ، فأدركت من وجهها أننا نفكر تفكيراً واحداً ، هو انه برىء كل البراءة . أى ذنب يمكن أن يقترفه هذا البرىء ، ومتى يمكن أن يقترف ذنباً ! ونظرت مرة أخرى الى ناتاشا ، فرأيت حمرة قانية تزدهم فى خديها الشاحين ، كأن كل الدم الذى تجمع فى قلبها صعد دفعة واحدة الى رأسها . وأخذت عيناها تلتصمان ، ورأيتها تنظر الى الأمير فى كبرياء . سألت أليوشا بصوت حيس متقطع :

— فأين .. كنت .. اذن .. خلال هذه الايام ؟

كان تنفسها بطيئاً متقطعاً . لشدما تحبه ! يا رب !

— قد يخيل الى المرء اننى أذنبت ، ولكن هذا ظاهر الامر لا باطنه . صحيح اننى مذنب ، أعرف ذلك ، لقد قالت لى كاتيا أمس واليوم ان المرأة لا يمكن أن تغتفر مثل هذا الاهمال (انها تعرف كل ماحدث هنا يوم الثلاثاء ، قصصته عليها غداة ذلك اليوم) . لقد تحدثت معها ، وذكرت لها ان هذه المرأة اسمها ناتاشا ، وان ليس فى العالم كله الا امرأة واحدة تشبهها هى : كاتيا . لقد وصلت الى هنا وأنا أعرف أننى غير منهزم فى المشاجرة . هل يمكن لملاك مثلك ألا يعفو ويصفح ؟ « اذا لم يجىء فلا بد أن شيئاً من الاشياء قد حال دون مجيئه ، وليس معنى غيابه أنه أصبح لايجبى » هذا ما لا بد أن تقوله ناتاشا لنفسها . وكيف يمكن أن أنسى حبك ؟ هل هذا ممكن ؟ لقد كان قلبى يحترق شوقاً اليك . ولكنى مع ذلك مذنب ! وحين تطلعين على كل شىء ، ستكونين أول من يبرئنى ويغفر لى . سأقصر عليكم كل شىء ، حالاً . اتنى فى حاجة الى أن أقضى بما فى قلبى اليكم جميعاً . ولهذا جئت . لقد أردت اليوم (حين أتيح لى نصف دقيقة من حرية) أن أطير اليك ، لأقبلك ، ولكنى لم أستطع : فقد

بعثت الى كاتيا تـرجونى أن أذهب اليها لامر هام • كان ذلك قبل أن أراك يا أبى • وحين رأيـتـك كنت ذاهباً اليها بدعوة ثانية • هناك سعاة يحملون الرسائل بيننا طوال اليوم • ايفان بتروفتش ، لم أقرأ كلمتك الا أمس مساء ، وانت على حق تماماً • ولكن ما حيلتى ؟ كان هنالك استحالة مادية ! لذلك قلت : غداً مساء ، أبرئ نفسي أمامهم جميعاً • ذلك انه كان يستحيل ألا أجيء اليك هذا المساء يا ناتاشا •

— أية كلمة عنيت ؟

— لقد جاء الى ، فلم يجدنى طبعاً ، فترك لى رسالة يقرعنى فيها تقريراً شديداً على اننى لا آتى اليك • وهو على حق تماماً • كان ذلك أمس •

فنظرت الى ناتاشا • وقال الأمير :

— ولكن اذا اتسع وقتك للبقاء من الصباح الى المساء عند كاترين فيدوروفنا ••

فقاطعه أليوشا يقول :

— أعرف ما ستقوله • اذا استطعت أن تذهب الى كاتيا ، فقد كان أولى بك أن تجيء الى هنا • انتى أوافق كل الموافقة على ماتقول ، بل أضيف اليه ان مجيئى الى هنا أولى كثيراً ، كثيراً جداً • ولكن ، أولاً ، فى الحياة أحداث لا يتوقعها المرء ، أحداث غريبة تشوش الامور ، وتقلب كل شىء رأساً على عقب • وقد طرأت على أحداث من هذا النوع • وأقول لكم : انتى تغيرت كل التغير خلال هذه الايام التى انقضت ، تغيرت حتى الاظافر : ذلك ان أحداثنا خطيرة قد وقعت •

فهتفت ناتاشا وهى تبسم لحماسة أليوشا قائلة :

— فما الذى وقع اذن ؟ لا تشوّقنا كثيراً ، أرجوك !

الحق ان اليوشا كان يثير الضحك : كان يسرع فى كلامه ، كانت الكلمات تنطلق من فمه سريعة ، متعجلة ، بلا ترتيب ، كأنها صراخ لا معنى له . كان يحترق شوقاً الى الكلام ، الى أن يقول شيئاً ما . وكان ، وهو يتحدث ، يمسك بيد ناتاشا ، ويرفعها الى شفتيه فى كل لحظة ، كأنه لا يتعب من ثقيلها . واستأنف اليوشا يقول :

— اليكم ما حدث . آه يا أصدقائى ! يا لروعة ما رأيت وما عملت ومن لقيت من ناس ! .. أولاً يا ناتاشا ، يجب أن أقول انها الكمال نفسه . كنت حتى ذلك الحين لا أعرفها ، لا أعرفها أبداً . فى يوم الثلاثاء ، حين حدثت عنها ، كان فى حديثى كثير من الحماسة ، كما تذكرين ، ومع ذلك كنت يومئذ لا أكاد أعرفها . لقد اختبأت عنى حتى هذه الايام الاخيرة . أما الآن فنحن متعارفان أتم التعارف ، حتى اننا نتخاطب بصيغة المفرد . ولكن يجب أن أبدأ من البداية : لبتك سمعت ما قالته عنك ، حين حكيت لها ، يوم الاربعاء ، ماجرى بيننا ! .. وبالمناسبة ، اننى أتذكر الآن كيف كنت غيباً أحرق حين وصلت اليك فى صباح يوم الاربعاء ! لقد استقبلتني انت فى كثير من الحرارة باعتبار الوضع الجديد الذى صرنا اليه . .. أردت أن تحدثنى معى عن هذه الامور كلها . .. وحزبت ، ولكنك ظللت تمازحيتنى . .. اما أنا فقد مثلت دور الرجل الرصين ! ما كان أشد غباوتى ، ما كان أشد غباوتى ! أقسم لك اننى أردت أن أصطنع دور الرجل الذى سيتزوج عما قريب ، دور الجد والزناة . وأمام من أصطنع هذا الدور ؟ أمامك انت ! آه . .. لا بد انك سخرت منى كثيراً ، وانى لاستحق ذلك .

كان الامير ملتزماً الصمت ، وكان ينظر الى اليوشا ، ويتسهم ابتسامة الظفر والسخر . .. كأنما يسره أن يظهر ابنه بمظهر فتى سخيف طائش يبعث على الهزء والضحك . لقد راقبته طوال ذلك المساء ، وأنعمت

النظر اليه ، فاقنعت بأنه لا يحب ابنه ، رغم ما يدعيه من انه يحبه حباً حاراً
عنيفاً .

وتابع اليوشا كلامه يقول :

- حين تركتك ، ذهبت الى كاتيا . ذكرتُ منذ هنيهة اتنا في ذلك
الصباح انما عرف كل منا صاحبه معرفة تامة ، وقد حددت ذلك على نحو
غريب . . لا أتذكر الآن كيف حدث . . ولكن ماهي الا بضع كلمات
حارة ، وماهو الا التعبير الصادق عن بعض الآراء وبعض العواطف ، فاذا
نحن نتحد الى الابد . يجب أن تعرفيها يا ناتاشا ، يجب أن تعرفيها .
ما أكثر ما تحدثتُ عنك ، ما أكثر ما شرحت وضعك : لقد أفهمتي أي
كنز انت لي ! شيئاً فشيئاً ، أوضحت لي جميع أفكارها ، على طريقتهما
في فهم الحياة . ان نفسها تفيض جداً وحماسة ! حدثتني عن واجينا ،
عن رسالتنا ، عما يجب أن نقدمه للانسانية من خدمات . وماهي الا خمس
ساعات أو ست ساعات من الحديث ، اذا نحن نجد أنفسنا على اتفاق تام
في جميع الآراء ، فتعاهدنا على أن نظل صديقين الى الابد وأن نتعاون في
عمل واحد طوال الحياة .

فسأله الأمير دهشاً :

- وما هو هذا العمل ؟

- لقد تغيرت كثيراً ، يا أبتاه ، ولا بد أن يدهشك مني كل شيء بعد
الآن ، بل انتي لأتبعاً باعتراضاتك .

قال اليوشا ذلك بلهجة وصينة ، ثم أردف :

- انكم جميعاً أناس عمليون ، لكم قواعدكم الصارمة ، القاسية ،
المجربة ، وتنتظرون نظرة الشك والعداوة والسخر الى ماهو قتي جديد .

ولكننى لست الآن ذلك الشاب الذى كنت تعرفه منذ بضعة أيام • أنا الآن شخص آخر • أنا الآن أنظر الى جميع الاشياء والى جميع الناس فى هذا العالم نظرة جريئة • اذا عرفت ان قناعتى صادقة ، تابعتها الى آخر نتائجها ؛ واذا لم أضلّ أثناء الطريق كنت رجلاً شريفاً •• ولكن حسبى كلاماً عن نفسى •• لك ان تقول ماشاء بعد ذلك ، غير اننى واثق من نفسى •

قال الامير بلهجة ساخرة :

— عظيم ، عظيم !

كانت ناتاشا تنظر الينا قلقة ، كانت خائفة على اليوشا ، كانت تعرف انه كثيراً ما يسترسل فى الحديث استرسالاً يعود عليه بالضرر • كانت تخشى أن يظهر أمانا ، وخاصة أمام أبيه ، بمظهر شخص مضحك يثير الاستهزاء به • فقالت :

— ماذا تقول يا اليوشا ؟ هذه فلسفة ! هل أدخلوك تحت لواء عقيدة جديدة ؟ الأولى بك الآن أن تروى لنا ما حدث لك •

فهتف اليوشا قائلاً :

— هذا ما أفعله ! اسمعى يا ناتاشا • ان لكاتيا قريين هما ليون وبوريس ، احدهما طالب ، والثانى شاب فحسب ، وكاتيا على صلة بهما ، وهما شابان من طراز قذ ! انهما لا يكادان يذهبان الى الكوتيسة ، وذلك عن عقيدة ومبدأ • وحين تحدثتا أنا وكاتيا عن رسالة الانسان وعن واجباته ، عن هذه الامور كلها ، كلمتني عنهما ، وحملتني رسالة اليهما ، فمضيت فوراً الى لقائهما ، فاذا نحن تتفاهم تفاهماً كاملاً منذ ذلك المساء نفسه • كان هناك اثنا عشر شخصاً من أنواع شتى : طلاب ، ضباط ،

فنانون ، وكان هناك كاتب أيضاً • وهم يعرفونك ، جميعاً ، يا ايفان
بتروفتش ، اعنى انهم قرأوا كتبك ، وهم ينتظرون منك أشياء كثيرة فى
المستقبل • قالوا لى ذلك هم أنفسهم • وذكرت لهم اننى أعرفك ،
ووعدتهم بأن أقدمك اليهم ، لىتم التعارف بينك وبينهم • وقد استقبلونى
جميعاً كما يستقبلون أخاً ، استقبلونى بكثير من الحرارة • ذكرت لهم
اننى على وشك الزواج ، فعاملونى كما يعامل رجل متزوج • انهم
يسكنون فى الدور الخامس ، تحت السقف ، ويعقدون اجتماعات كثيرة ،
ويؤثرون أن يعقدوا هذه الاجتماعات يوم الأربعاء فى منزل ليون وبوريس •
انهم شباب يفيضون نضارة ، ويحبون الانسانية حباً حاراً ، وقد دار
حديثنا حول الحاضر ، والمستقبل ، والعلوم ، والادب ، وكان حديثاً جميلاً
يمتاز بكثير من الصراحة ، والبساطة • وهناك أيضاً طالب من طلاب
المدارس الثانوية يشترك فى الاجتماعات • ما أعمق هذه الصلة التى
تجمعهم ! ما أنبل قلوبهم ! لم أر فى حياتى أناساً كهؤلاء ! من هم أولئك
الذين كنت أتردد اليهم حتى الآن ؟ ماذا رأيت ؟ ما هو الغذاء الذى
اغتذيت به ؟ انت وحدك يا ناتاشا كنت تديرين معى أحاديث من هذا
النوع • آه يا ناتاشا ! يجب حتماً أن ترى هؤلاء الشباب • ان كاتيا
تعرفهم ، وهم يتحدثون عنها باحترام يكاد يبلغ حد التقديس ، وقد قالت
كاتيا لقريبها ليون وبوريس انها حين ستملك حق التصرف فى ثروتها
ستبادر فوراً الى وقف مليونٍ منها على المصلحة العامة •

فسأله الامير قائلاً :

ـ لاشك ان ليون وبوريس وجماعتهما كلها ، هم الذين سيتصرفون
فى هذا المليون •

ـ لا ، لا ، عيب ، يا ابت ، عيب أن نقول هذا الكلام • اننى أدرك

ما تفكر فيه • لقد تحدثنا فعلاً في أمر هذا المليون ، وتناقشنا طويلاً في وجوه انفاقه • وقررنا أخيراً ان نفقه قبل كل شيء على التعليم ••
قال الامير ، كمن يتحدث وحيداً وهو نمايزال يتسليم ايتسامته
الساخرة :

- صحيح ، صحيح • لم أكن أعرف كاترين فيدوروفنا الى الآن •
كنت أتوقع منها أشياء كثيرة ، أما هذا ••
فقاطعه اليوشا قائلاً :

- ما الذى يبدو لك غريباً كل هذه الغرابة ؟ أأنها تبعد قليلاً عن مبادئك ؟ أن أحداً لم يضح حتى الآن بمليون ، وأنها تفعل ذلك ؟ هذا ما يدهشك ، أليس كذلك ؟ أنها لاتحب أن تعيش على حساب الآخرين ؟ أليست المعيشة من هذه الملايين معيشة على حساب الآخرين ؟ لقد عرفت الآن هذه الحقيقة • انها تريد أن تنفع وطنها وأن تنفع الناس وأن تعطى قرشها للمصلحة العامة • لقد حدثونا عن عطاء القرش في دفاتر الخط ، فهل اذا كان القرش مليوناً انقلب العطاء شراً ؟ وعلى أى أساس تستند تلك الحجة التى كنت أعتقد بها اعتقاداً جازماً ؟ لماذا تنظر الى هكذا يا أبى فكان أمامك مهرجاً أو انساناً أبله ؟ ولماذا لا أكون أبله ؟ ليتك يا ناتاشا سمعت كاتيا تقول في هذا الموضوع : « ليس الذكاء هو الشيء الهام بل ما يوجه الذكاء ، أى الطبع ، القلب ، النبيل ، التقدم » • على ان ما هو أروع من كل ذلك ما عبّر عنه بزميجن • انه صديق ليون وبوريس ، ولا أكتفكم انه دماغ جبار ، أنه عبقرى من العباقرة • لقد قال : « يكفى أن يشعر الأبله انه أبله حتى لا يكون أبله » ما أصدق هذا الكلام ! انه في كل لحظة يقول عبارات من هذا النوع • انه يبذر الحقائق بذراً •

فقال الامير :

- عبقرى حقاً •

- انت ماتزال تسخر .. الحق اتنى لم أسمعك يوماً تقول كلاماً كهذا الكلام ، لا انت ولا أى شخص من بيتنا . اتم فى مجتمعكم تفعلون عكس ذلك ، تخفون دائماً كل شيء وتبخسون دائماً كل شيء ، وتريدون أن يتطور كل شيء اتفاقاً وعرضاً . كأن ذلك ليس أقرب الى الاستحالة ألف مرة مما نقوله نحن ونفكر فيه ! ثم تنعتونا بأننا خيالون ! لبتك سمعت ما قالوه لى بالامس .

قالت ناتاشا :

- ولكن ماذا تقولون وفيهم تفكرون ؟ حدثنا عن هذا أليوشا . فاتنى لم أفهم عنك تماماً بعد .

- نحن نتكلم ، عامة ، عن كل مايقود الى التقدم ويؤدى الى المحبة . نتناقص فى هذا كله بصدد بعض مشكلات الساعة . نتحدث عن الدعاية ، عن الاصلاحات ، عن حب الانسانية ، عن الرجال العاملين فى عصرنا هذا ، نحللهم ونقرأ مايكتبونه ولكننا قد تعاهدنا ، خاصة ، على أن يصدق بعضنا بعضاً ، وعلى أن نتصارع فى كل مايصل بنا ، دون تردد أو وجل . فالصدق والصراحة هما مايمكن أن يوصلنا الى هدفنا . ويحرص بزميجين على هذا حرصاً خاصاً . وقد تحدثت الى كاتيا عنه ، فرأيت أنها تضرر له مودة كبيرة . لذلك تعاهدنا جميعاً ، باشراف بزميجين ، على أن نعمل باستقامة وشرف طوال حياتنا كلها ، وعلى ألا يصرفنا عن هدفنا شيء مهما يقل عنا الناس ، ومهما يروا فينا من رأى ، وعلى ألا نستحي مما نطمح الى تحقيقه ، ومما يتأجج فى قلوبنا من حماسة ومما قد تقع فيه من أخطاء ، وانما نتابع طريقنا قُدُماً . اذا أردت أن تحترم ، فاحترم نفسك أولاً ، هذا هو الشيء الأساسى . انك لاتستطيع أن تحمل الناس على احترامك الا اذا احترمت نفسك . ذلك ماقاله بزميجين . وكاتيا توافقه على هذا الرأى كل الموافقة . وعلى كل حال ، فقد رسمت عقيدتنا الآن ،

وقد عزمنا على أن يعنى كل منا بشقيف نفسه ، وعلى أن ينتفع كل منا بثقافة الآخر •

صرخ الأمير فى قلق :

— ما هذا الهذر السخيف ! ومن هو بزميجين هذا ؟ لا ، لا ، يستحيل أن ندع الأمور تجري على هذا النحو ••

فأجاب اليوشا :

— أى أمور يستحيل أن تدعوها تجري على هذا النحو ؟ اسمع يا أبى ، هل تعرف لماذا تحدثت عن هذا كله أمامك ؟ لأنتى أريد وأمل أن أدخلك أنت أيضاً فى حلقتنا • لقد تعهدت لهم بك • أتضحك ؟ لا بأس • كنت أقدر أنك ستضحك ! ولكن استمع الىّ حتى النهاية • أنت رجل طيب القلب نبيل النفس : وستفهم ! انك لا تعرف هؤلاء الناس ، لم ترهم يوماً ، ولا سمعت حديثهم • لنسلم بأنك سمعت عن هذا كله ، وأنت درست هذا كله • ذلك انك على جانب عظيم من الثقافة ، ولكنك لم ترهم هم أنفسهم ، لم تجتمع بهم • فكيف تستطيع أن ترى فيهم رأياً عادلاً ؟ أنت تتخيل تخيلاً أنك تعرفهم • ولكن لا ؛ تعال اليهم ، واسمع كلامهم ، وأنا كفيل بأنك عندئذ ، ستضم إلينا ، ستكون واحداً منا ! وسأستعمل ، خاصةً ، جميع الوسائل لانتزعتك من ذلك المجتمع الذى تحرص عليه كل الحرص ، وترتبط به كل الارتباط ، ولأحررك من اعتقاداتك •

أصغى الأمير الى هذا الكلام الاخير حتى النهاية ، دون أن ينبس بحرف • وكانت تعلو شقيقته ابتسامة مسمومة • كان الشر يُقرأ فى وجهه ، وكانت ناتاشا تنظر اليه باشمئزاز لاتحاول أن تخفيه ، وكان ينظر هو اليها ، ولكنه يتظاهر بأنه لا يلمح هذا الاشمئزاز • حتى اذا انهى

أليوشا كلامه ، انفجر الأمير ضاحكاً يهقهه ، بل انقلب الى وراء وأسند ظهره الى ظهر المقعد ، كأنه أصبح من فرط الضحك لا يقوى على الجلوس . ولكن كان واضحاً أنه 'يكره نفسه على الضحك اكراما ، وكان جلياً انه لا يضحك الا ليهين ابنه وليذله . وقد جرح أليوشا من ذلك حقاً ، فكان وجهه يعبر عن حزن شديد ، ولكنه لم يفعل شيئاً ، بل انتظر أباه الى أن انتهى من قهقهته ، فاستأنف عندئذ يقول في سجن :

— لماذا تسخر مني يا أبت ! لقد جئت اليك صريحاً ، لا ألف ولا أدور . فاذا كنت ترى ان كلامي سخيف ، فبرهن لي على ذلك ، بدلا من أن تضحك مني . ومم أنت تسخر ؟ مما أراه الآن شيئاً نيلاً مقدساً ؟ قد أكون على ضلال ، قد يكون كل ماقلته خطأ ، قد أكون غيباً كما وصفتي بذلك غير مرة ، ولكنني ان ضللت سواء السبيل ، فانما أضل عن صدق واخلاص . انني ماقدت نبلي ، وانتي أتحمس لافكار سامية . فاذا كانت هذه الافكار خاطئة ، فالأساس الذي تقوم عليه أساس مقدس . قلت لك انك لم تسمعني في يوم من الأيام كلاماً يوجهني ويقودني ، لا انت ولا ذووك . فأبطل حججتي اذا شئت واثنتي بخير منها أتبعك ، ولكن لاتسخر مني ، لان هذا يؤلني أشد الايلام .

قال أليوشا ذلك بكثير من النبل والكرامة والوقار . وكانت ناتاشا تنظر اليه نظرة حب ، وكان الامير يصغي الى ابنه دهشاً ، ثم لم يلبث أن غير لهجته ، فقال :

— لم أشأ يا صديقي أن أجرحك ، وانما أنا أشفق عليك . انك على أبواب خطوة خطيرة في حياة الانسان ، فما ينبغي أن تظل طفلاً طائشاً . هذا ما فكرت فيه . ولئن ضحكت فقد ضحكت على غير ارادة مني ، ولم يكن في نيتي أن أهينك أبداً .

فأجاب أليوشا بلهجة مرة :

— فلماذا تصورت أنا ذلك اذن ؟ لماذا أشعر منذ مدة طويلة بأنك تراقبني كمن يراقب عدواً ، وتسخر مني ، ولا تنظر الى نظرة أب الى ابنه ؟ لماذا أتخيل أنني لو كنت في مكانك لما ضحكت من ابني هذا الضحك المهين ؟ اسمع يا أبى : يجب أن تتصارع حالا ، مرة واحدة ، حتى لا يبقى هنالك شيء من سوء التفاهم و ... سأقول الحقيقة كلها : حين دخلت عليكم لاحظت ان ثمة غممة هنا أيضا . لم أكن أتوقع أن أجدكم على هذه الحال معا . فاذا صدق ظني ، ألا يكون من الخير أن يعبر كل منا عن جواطفه ؟ ما أكثر الشرور التي يمكن أن تتفادها بالصراحة ! قال الامير :

— تكلم يا أليوشا ، تكلم . ان ما تقترحه علينا يتصف بكثير من الحكمة والذكاء .

ثم التفت الى ناتاشا وتابع يقول :

— ربما كان ينبغي لنا أن نبدأ من هنا .

قال أليوشا :

— فلا تلمني اذن اذا كنت صريحا كل الصراحة . انت ترغب في هذه الصراحة وانت تحضني عليها . اسمع . لقد وافقت على زواجي بناتاشا . لقد منحنا هذه السعادة ، ولا شك انك قسوت على نفسك من أجل ذلك . كنت شهما ، وقد قدرنا لك جميعا هذا العمل النيل . ولكن لماذا تحاول اذن أن تشعرني في كل لحظة بأنني مازلت طفلا سخيلا مضحكا ، وبأنني لا أقدر أن أكون زوجا ؟ لماذا تحاول ذلك وتشعر منه بنوع من الفرح ؟ لماذا تريد أن تجعلني أضحوكة وأن تذلني وأن تبهدلني حتى في نظر ناتاشا ؟ انك تحصن بكثير من السرور حين تظهرني بمظهر

الانسان السخيف المضحك • لاحظت ذلك قبل اليوم • لكأنك تحاول أن تبرهن لنا على ان زواجنا خطأ ومستحيل ، وعلى ان أحدنا لايناسب الآخر • لكأنك ، حقا ، لا تؤمن بما تهيئنا له • لكأنك تعد الامر كله مهزلة ، تمثيلية مضحكة ، مسرحية مسلية • • لا أستتج ذلك من الكلام الذى قلته الآن فحسب ، ففي يوم الثلاثاء ، حين عدت معك ، سمعت منك تعابير خاصة ، فاجأتني وجرحتنى • وفى يوم الاربعاء ، حين سافرت ، أشرت أيضا الى وضعنا الراهن والى ناتاشا بكلام لا أقول انه يشتمل على اهانة بل أقول اننى كنت أنتظر أن أسمع منك غيره • • كان كلامك خفيفا مسرفا فى الحفة ، كان لا يحتوى على شئ من العاطفة ، ولا يعبر عن شئ من الاحترام • يصعب على أن أشرح لك ذلك ، ولكن اللهجة كانت واضحة : ان المرء يحس هذه الامور بقلبه • قل لى اننى على خطأ ، طمشى ، و • • طمشها هى أيضا ، لانك اجرحتها • لقد أدركت ذلك منذ دخلت عليكم • •

كان أليوشا يتحدث بحرارة وحزم ، وكانت ناتاشا تصفى الى كلامه فى اجلال • كانت منفعلة أشد الانفعال ، وكان وجهها يحترق احتراقاً ، ودمدمت بينها وبين نفسها مرتين أو ثلاث مرات أثناء حديث أليوشا قائلة : « نعم ، نعم صحيح » • وكان الامير مضطرباً فأجاب :

— يا صديقى ، لا أستطيع طبعاً أن أتذكر كل ماقلته لك • ولكن من الغريب أن تحمل كلامى على هذا المعنى • اننى مستعد لأن أفعل كل ما فى وسعى لأصحح خطأك • لئن ضحكك منذ لحظة ، لقد كان سبب هذا الضحك واضحاً • انما أردت بهذا الضحك أن أخفى ما فى قلبى من مرارة • أصبحت أشعر الآن ، حين أتخيل أنك على وشك الزواج ، أن هذا الزواج مستحيل ، سخيف ، بل أحرق ، اغفر لى هذا الكلام • لقد لمتنى على ضحكى ، فاعلم اذن أن هذا كله كان بسببك ، وانى لاعترف بأننى مسئول أيضاً ، فلعلنى لم أحسن مراقبتك فى الآونة الاخيرة • اننى لم

أدرك ما أنت قادر عليه الا فى هذا المساء • انتى لأرتعش الآن خوفاً حين أفكر فى مستقبلك مع ناتاليا نيقولايفنا • لقد تعجلت • انى أدرك فى هذه اللحظة أنكما لا يناسب أحكما الآخر • ان الحب ينقضى ، ويبقى الاختلاف • لست أتحدث عن مصيرك أنت ، ولكنى أسألك أن تتصور (اذا كانت نواياك شريفة) أنك لا تضيع نفسك فحسب ، بل تضيع معك ناتاليا نيقولايفنا ، ولا يكون يومئذ سبيل الى اصلاح ما فسد • لقد تحدثت الينا الآن ، خلال ساعة برمتها ، عن حب الانسانية ، ونبل العقائد ، وعن أولئك الناس الرائعين الذى انعدت بينك وبينهم أسباب التعارف • فاسأل ايفان بتروفتش عما قلته له منذ قليل ، حين بلغنا الدور الرابع ، على هذا السلم القذر ، فتوقفنا عند الباب نحمد الله على اننا لم 'تدق أعناقنا ولا انقطعت أرجلنا • هل تعرف ما الذى خطر ببالي عندئذ على غير ارادة منى ؟ لقد تساءلت دهشاً : كيف 'تطبق ، انت الذى تحب ناتاليا نيقولايفنا كل هذا الحب ، أن تسكنها فى بيت كهذا البيت ؟ كيف لم تشعر ، مادمت لا تملك الوسائل اللازمة للقيام بواجباتك ، بأنك لا تستحق أن تتزوج ، وبأنك لا تستحق أن تتحمل أى تبعه ؟ الحب يابنى لا يكفى : يجب أن تبرهن على الحب بأعمال • وحين تقول لها بينك وبين نفسك : « عيشى معى ، ولو كان عليك أن تعذبى ، لا تكون انسانياً ، ولا تكون على شئ من النبل • لست أفهم كيف تحدث عن حب البشر ، وكيف تتحمس لقضايا انسانية ، ثم تقترف جرائم فى حق الحب ! لا تقاطعيني ، يا ناتاليا نيقولايفنا ، دعيني أكمل كلامى • ان هذا الامر ليؤلمنى كثيراً ، ويجب أن أفرغ كل ما فى صدرى • قلت لنا يا أليوشا أنك فى هذه الايام الاخيرة قد أدركت كل ماهو نبيل وجميل وشريف ، وانت تنعى على بيتنا انها لا تعرف مثل هذه الحماسة ، ولا تعرف الا صقيع العقل البارد • فانظر قليلاً : كيف تحب ماهو عظيم وجميل ، ثم تهمل ، خلال أربعة أيام ، بعد الذى جرى هنا

يوم الثلاثاء ، تلك التى ينبغى أن تكون أعزَّ عليك من كل شئ فى هذا العالم ؟ لقد اعترفت أنت نفسك بأنك تشاجرت مع كاترين فيدوروفنا حين ذكرت لها ان ناتاليا يقولاييفا تحبك كل هذا الحب ، وانها كريمة كل هذا الكرم ، وانها ستغفر لك خطأك . ولكن بأى حق تعتمد على عفوها وتتخذها موضوع رهان ؟ هل فكرت مرة واحدة فى أنواع العذاب ، وألوان المראה ، وضروب الشك التى عرضت لها ناتاليا يقولاييفا فى هذه الايام الاخيرة ؟ هل ظننت ان من حقت أن تهمل أول واجب من واجباتك ، لانك تحمست لافكار جديدة ؟ عفوك يا ناتاليا يقولاييفا ، لقد أخلفت وعدي ، ولكن هذا الأمر أخطر شأنًا عندي من الوعد ، ولا شك انك تفهمين ذلك . هل تعرف يا أليوشا اتنى وجدت ناتاليا يقولاييفا فريسةً لألوان من العذاب ، ففهمت كيف انك أحلت هذه الايام الاربعة التى يجب أن تكون من أسعد أيام حياتها ، الى جحيم لا يُطاق . هذا انت : أعمال من هذا النوع من جهة ، ومن جهة أخرى كلام ، فكلام ، فكلام . ألسنت على حق ؟ ونجرو بعد ذلك على اتهامى ، وانت انت المذنب .

وتوقف الامير عن الكلام . لقد استرسل فى فصاحته وبلاغته ، ولم يستطع أن يخفى عنا انتصاره . وحين سمع أليوشا أباه يتحدث عن الآلام التى عانتها ناتاشا ألقى عليها نظرة تفيض بالحزن الموجه ، ولكن ناتاشا نصرته على أبيه قائلة :

— لا تحزن يا أليوشا . ذنب غيرك أكبر . اجلس واستمع الى ما سأقوله لأبيك . لقد آن الأوان .

فقال الامير :

— قولى ماتريدين يا ناتاليا يقولاييفا . قولى ماتريدين حالا ،

أرجوك ، ها قد مضت ساعتان وانت تتحدثين بالغاز • ان هذا لا يُحتمل •
واعترف لك باتنى لم أكن أتوقع أن أستقبل هذا الاستقبال •

— ربما • وذلك لانك تظن ان سحر كلامك يمكن أن يخفى عنا
حقيقة نياتك • ماذا يجب أن أقول ؟ انك تعرف كل شيء ، وتفهم كل
شيء • أليوشا على حق • ان أعز رغبة في نفسك هي أن تفصل أحدا عن
الآخر • كنت تعرف ماسوف يحدث هنا بعد سهرة يوم الثلاثاء ، كنت
تعرف ذلك حق المعرفة ، لقد حسبت كل شيء على أصابعك ان صح
التعبير • سبق أن قلت لك انك لا تنتظر نظرة الجدة ، لا الى ولا الى طلب
الزواج الذى دبرته فى ليل • انت تسلى ، انت تبحث بنا ، ولك هدف
لا يعرفه أحد غيرك • لا أشك أبداً فى انك تلعب • ولقد كان أليوشا على
حق حين أخذ عليك انك تعد الامر كله مسرحية هزلية • وكان ينبغي
اذن أن تسر لسلوك أليوشا لا أن تلومه وتقرعه ، فانه ، دون أن يدري ،
لم يزد على أن نفذ مشيئتك ، ربما مع زيادة قليلة •

صعقت من الدهشة • كنت أتوقع كارثة فى ذلك المساء • ولكن هذه
الصراحة القاسية التى عمدت اليها ناتاشا ، وهذا الازدراء الذى خاطبت به
الأمير دون أن تحاول اخفائه ، كل ذلك قد شدهنى الى أبعد الحدود • قلت
فى نفسى : لابد انها تعلم اذن شيئاً من الاشياء ، حتى قررت القطيعة بلا
ابطاء • بل لعلها كانت تنتظر الأمير بصبر فارغ ، كى تقول كل شيء دفعة
واحدة أمام وجهه • • وامتقع لون الأمير قليلا • وكان وجه أليوشا يعبر
عن زعر ساذج وعذاب قلق •

هتف الأمير قائلاً :

— راجعى ماقلته ، وزنى كلامك قليلا • • أنا لا أفهم • •

فقال ناتاشا :

— ها •• انت لا تريد أن تفهم بكلمتين • حتى هو ، فهمك مثلما فهمتك ، مع اتنا لم تتفق على شيء ، ولا رأى أحدنا الآخر • هو نفسه أدرك انك تلعب بنا لعبة دنيئة مهينة ، مع انه يحبك ويؤمن بك ايمانه بالله • لم تر ان من المفيد أن تكون حذراً ، فمكرت بنا • قدرت انه لن يدرك ألعيبك • ولكن له قلباً مرهفاً رقيقاً يتأثر ويفهم ، فانطبت كلماتك ، انطبت لهجتك ، على قلبه ، على حد تعبيره ••

فعاد الأمير يقول ، وهو يلتفت الى مشدوها ، كأنما ليستشهدني :
— لا أفهم ، لا أفهم شيئاً البتة •

كان الأمير حانقاً أشد الحنق ، وتابع كلامه متجها الى ناتاشا :

— انت سيئة الظن قلقة • كل مافي الامر انك تغارين من كاترين فيدوروفنا • انك قادرة على أن تهمل الدنيا بأسرها ، وان تهملني في طبيعة من تهملين •• فاسمحي لي أن أقول ان موقفك هذا يحملني على أن أرى في طبعك رأياً غريباً • انني لم أعود على فصول من هذا النوع • وما كان لي أن أبقى هنا دقيقة واحدة ، لولا ان مصلحة ابني تقضي بذلك • وهأنا ذا أنتظر ، فهل لك أن تتفضلي بشرح ما تريدني قوله ؟

— أتصر اذن على ألا تفهم بكلمتين ، رغم انك تعرف الامر كله معرفة تامة • أتصر على أن أخاطبك دون لف أو دوران ؟

— لا أريد غير هذا •

— حسناً • اسمع اذن • سأقول لك كل شيء •

هتفت ناتاشا بذلك ، وقد اشتعلت عيناها غيظاً •

الفصل الثالث



ناتاشا ، وأخذت تتكلم واقفة ، دون أن تلاحظ ذلك من شدة اضطرابها • وراح الأمير يصغي ، ونهض هو أيضا • واتقلب المشهد خطيراً مسرفاً في الخطورة •

بدأت ناتاشا بقولها :

— هل تتذكر ما قلته يوم الثلاثاء ؟ لقد قلت : انك تريد مالاً ، وطرقاً ممهدة ، وشأننا نابهاً في المجتمع • ، هل تتذكر ؟
— نعم •

— حسناً • انك من أجل الحصول على هذا المال ، ومن أجل الظفر بهذه الانواع من النجاح التي كانت تتسلل من بين يديك ، انما جئت الى هنا يوم الثلاثاء ، ولفقت تلك الخطبة ، معتمداً على ان هذا اللعب سيساعدك على تدارك ما كان يفوتك •

فصرخت قائلاً :

— ناتاشا ، ما هذا الذي تقولين ؟
فكرر الأمير يقول كمن جرحت كرامته :
— لعب ؟ حساب ؟

وكان أليوشا ، وقد هده الحزن ، ينظر ولا يكاد يفهم • وتابعت ناتاشا كلامها تقول ، وقد بلغت غاية الغضب :

- نعم ، نعم ، لا تقاطعنى ، لقد حلفت لأقولنَّ كل شيء . تذكر أن أليوشا كان قد خرج على طاعتك ، وأصبح لا ينقاد لك ، فقد جهدت خلال ستة أشهر أن تفصله عنى ، فلم تظفر بذلك . وفجأة لاحظت ان الزمن يسبقك ، فان تركت الفرصة تفلت ضيعت الخطيئة والمال ، وخاصة المال ، ثلاثة ملايين . فلم يبق أمامك الا وسيلة واحدة هي أن يحب أليوشا الفتاة التى تريد أن تخطبها له . لقد قدرت انه سيهجرنى اذا هو أحبها .

فصرخ أليوشا حزينا يقول :

- ناتاشا ، ناتاشا ، ماهذا الذى تقولين ؟

وتابعت ناتاشا كلامها دون أن تعبا بصرخة أليوشا :

- هذا ما فعلته ، ولكن القصة القديمة تكررت . وكان يمكن أن يتم كل شيء لولا اننى أفسدت عليك خطتك مرة أخرى ! كان هناك أمر واحد يمكن أن يبعث فبك الأمل : لعلك كنت قد لاحظت ، بما لك من خبرة وتجربة ، انه كان يبدو على أليوشا فى بعض الاحيان انه سئم علاقته القديمة . لا شك انك رأيت انه أخذ يهملنى قليلاً ، وانه أخذ يضجر منى ، وانه صار يتغيب عنى فى بعض الأحيان خمسة أيام متتالية . فأملت أن يسأمنى تماماً وأن يهجرنى ، ولكن سلوكه يوم الثلاثاء الماضى عاد فقلب مشاريعك رأساً على عقب . . فتساءلت : ما عساك تفعل ؟

فهتف الامير قائلاً :

- أرجوك ، هذه الواقعة ، بالعكس .

فقاطعته ناتاشا بحزم تقول :

- تساءلت فى ذلك المساء ما عساك تفعل ، وقررت أن توافق على زواجنا لا موافقة صادقة ، بل هكذا . . بالكلام ، لتهدئته . قلت فى نفسك : اننى أستطيع أن أؤخر موعد الزواج ماشئت التأخير ، وفى أثناء

ذلك يكون قد نشأ حب جديد • لقد لاحظت انت نشوء ذلك الحب ، وعليه
بنيت خطتك •

قال الامير بصوت منخفض ، كأنما يخاطب نفسه :
- كلام روايات ، كلام روايات • هذا ما تفعله العزلة والأحلام
وقراءة الروايات !
وعادت ناتاشا تقول ، دون أن تسمع كلام الامير ودون أن تتبه
اليه :

- نعم ، بنيت خطتك كلها على هذا الحب الجديد •
لقد استبدت بناتاشا حماسة محمومة ، وكانت تزداد اندفاعا شيئاً بعد
شيء ، وتابعت كلامها تقول :

- وكان حظ هذا الحب من النماء حظاً كبيراً • كان قد نشأ في قلب
أليوشا من قبل أن يكتشف جميع ماتصف به تلك الفتاة من مزايا وحسنات،
وفي اللحظة التي صرح لها ، ذلك المساء ، بأنه لا يستطيع أن يحبها ، لان
الواجب وحياً آخر يحولان بينه وبين ذلك ، أظهرت له من النبل ومن
العطف عليه وعلى غريمتها ومن سمو النفس ما جعله رغم اعترافه قبل ذلك
بجمالها ، يحس انه لم يدرك قبل الآن أنها جميلة كل هذا الجمال ، حتى
إذا جاء الى لم يتحدث الا عنها ، فلقد أثرت فيه تأثيراً قوياً حتى ملكت
عليه عقله • وشعر ، منذ الغد ، بحاجة قاهرة الى رؤية تلك الانسانية
الرائعة ، من قبيل الاعتراف بالجميل في أقل تقدير • ولماذا لا يذهب
اليها ؟ ان الاخرى ، أعنى الاولى ، لا تتألم ، فقد تقرر مصيرها ، وسيهب
لها حياته كلها ، وهو لا يقضى هنا الا دقيقة واحدة ، ولسوف تكون ناتاشا
تلك عاقبة كثيراً اذا هي غارت من هذه الدقيقة ! وبدون أن يشعر ، ينتزع
من ناتاشا هذه ، لا دقيقة واحدة ، بل يوماً تانياً ، فيوماً ثالثاً ، وأثناء ذلك
تبدو له الفتاة في ضوء جديد لا عهد له به من قبل ، فهي نبيلة القلب ،

شديدة الحماسة ، وهى فى الوقت نفسه ساذجة كأنها طفلة ، وهى فى هذا تشبهه كثيراً ، فيتواعدان على أن يظلا صديقين مدى الحياة ، وعلى أن يكونا أخاً وأختاً لا يترك أحدهما الآخر ، وبعد خمس أو ست ساعات من الحديث تفتح نفسه لمشاعر جديدة يستسلم لها قلبه كله ، وتقرب اللحظة الحاسمة . هذا ما فكرت فيه : سوف يقارن عندئذ بين حبه القديم من جهة وبين حبه الجديد واحساساته الجديدة من جهة أخرى . أما فى الجهة الأولى فكل شيء معروف ، معتاد ، جاد : مطالب وغيره ومشاجرات ودموع ، وهنالك لا يمازحونه ولا يلاعبونه كما يمازح ويلعب ' ندى ' من الانداء ، بل طفل من الاطفال . . هنالك ، خاصة ، كل شيء قديم العهد . .

وخنقتها الدموع وسورة اليأس ، ولكنها سيطرت على نفسها وتابعت تقول :

— وبعد ذلك ؟ بعد ذلك ' يترك الامر للزمن : ان الزواج بناتاشا لا يحدد فوراً ، ويأتى الزمن فيبدل كل شيء . وتستطيع أيضاً أن تؤثر بكلماتك وارشاداتك وبراهينك وبلاغتك . . تستطيع أن تقدر فى ناتاشا المزعجة وأن تدمها . تستطيع أن تصوورها فى صورة قبيحة . . ولا يدرى أحد ما يكون بعد ذلك ، ولكن النصر يكون حليفك ! لا تؤاخذنى يا أليوشا ، يا صديقى . لا تقل انتى لا أفهم حبك ، وانتى لا أقدره حق قدره . أنا أعلم أنك مازلت تحبى ، وأنتك قد لاتفهم فى هذه اللحظة ما أشتكى منه . وأنا أعلم أنتى أسمى التصرف حين أقول هذا الكلام كله . ولكن ماحيلتى ، وأنا أرى ما أرى ، ماحيلتى وحبك فى قلبى يقوى يوماً بعد يوم ، ويصير الى ما يشبه الجنون .

قالت ذلك ثم غطت وجهها بيديها ، وارتمت على مقعدها ، وأخذت تجهش فى البكاء كطفل . فصرخ أليوشا ، وأسرع اليها ، وكان لا يستطيع أن يراها باكية دون أن يبكى .

استفاد الامير من هذا التحيب فائدة كبيرة • ان هذه الحماسة التي أظهرتها ناتاشا خلال حديثها الطويل ، وهذا الاندفاع في هجومها الذي كان ينبغي أن يظهر استياءه منه واستكباره له وأن يعده اهانة لحقت به ، هذا كله أصبح يمكن أن يعتبر الآن نوبةً جنونية من نوبات الغيرة ، وأن يرجع الى شدة الحب الذي أهين ، بل الى المرض أيضاً • وكان من اللباقة من جانب الامير أن يظهر شيئاً من العطف ، فقال يواسيها :

— هدئي نفسك يا ناتاليا نيقولايفنا ، هدئي نفسك • هذا كله من فرط الحماسة والاحلام والعزلة • لقد اثار حفيظتك بخفته وسلوكه • ولكن ذلك كله لم يكن من جانبه الا طيشاً • ان أهم شيء أوضحت قيمته ، وهو ما حدث يوم الثلاثاء ، كان ينبغي أن يقنعك بعمق حبه لك وتعلقه بك ، ولكنك بدلا من ذلك أخذت تتخيلين •••

فقاطعت ناتاشا ، وهي تبكي بكاء مرأ ، بقولها :

— آه ، لا تكلمني ، لا تعذبني ، دعني وشأني في هذه اللحظة على الاقل • لقد قال قلبي ذلك كله منذ مدة طويلة • هل تظن انني لا افهم ان حبه القديم قد انقضى وانتهى الامر ؟ •• هنا ، في هذه الغرفة ، حين كان يتركني ، حين كان ينساني ، كنت أقبع وحيدة ••• أعيش هذا كله •• وأفكر في هذا كله ، وأعيد التفكير فيه ••• ماذا كان في وسعي أن أعمل ؟ لا أتهمك يا أليوشا ، لماذا تحاول أن تخدعني ؟ هل تظن انني لم أحاول أن أخدع نفسي ؟ آه ، كم مرة ، كم مرة ، حاولت ذلك ! •• وكنت أتجسس على كل نبرة من نبراته ، وأرصد كل حركة من حركات وجهه وعينه •• لقد تعلمت ان أقرأ في وجهه وفي عينيه •• ضاع كل شيء ، مات كل شيء ••• ما أشقاني ! ••

كان اليوشا يبكي ، راکماً أمامها ، وأخذ يردد من خلال التحيب :

— نعم نعم ، الذنب ذنبي ، الذنب ذنبي •••

— لا لست أتهمك يا اليوشا •• ليس الذنب ذنبك •• هناك آخرون
•• أعداؤنا •• انهم هم •• هم •

فصرخ الأمير ، بشيء من نفاذ الصبر :

— ولكننى أستميتك العذر أخيراً : على أى أساس تسندين الى كل
هذه الجرائم ؟ كلامك كله افتراضات لا برهان عليها •••

فصرخت ناتاشا تقول ، وقد نهضت عن مقعدها :

— تريد براهين أيها الرجل الماكر ؟ ماكنت تستطيع أن تفعل غير
هذا حين جئت الى معرضك ! كان لابد لك أن تهدى ابنك ، وأن تنيم
مايشعر به من عذاب الضمير ، حتى يستطيع أن يستسلم لكاتيا بمزيد من
الحرية • وبدون ذلك ، كان لابد أن يتذكرنى ، وكان لابد أن يتمرد ،
وكان لا بد أن تضيق أنت ذرعاً بالانتظار • أليس هذا صحيحاً ؟

فأجاب الأمير ، وهو يتسهم ابتسامة ساخرة :

— أعترف اننى لو أردت أن أخدعك لقمتم حقاً بهذا الحساب • انك
تملكين كثيراً من نفاذ البصيرة : ولكن قبل أن توجهى الى الناس مثل هذه
الملاحظات ، يجب أن تبرهنى •••

— أبرهن ؟ فكيف تعلل اذن سلوكك السابق ، حين كنت تحاول
أن تتزعه منى • ان من يعلم ابنه أن يحتقر مثل هذه الواجبات ، وأن
يعبت بها ، حباً بالظهور فى المجتمع ، وطمعاً فى المال ، انما يفسده ! ماذا
قلت منذ لحظة عن السلم ، وعن هذا البيت الحقيقى ؟ الست انت الذى منعت
عنه ماكنت تعطيه من مال ، وذلك كى تكرهنا بالبؤس والجوع على
الانفصال ؟ انت انت السبب فى هذا البيت وفى هذا السلم ، ثم تلومه بعد
ذلك عليهما أيها المحتال ! ومن أين أتت فى ذلك المساء ، فجأة ، تلك
الحماسة ، وتلك الاعتقادات التى لا عهد لمثلك بها ؟ ولماذا شعرت بتلك

الحاجة كلها الىّ؟ انتى طوال الأيام الأربعة الماضية، لم أزد على أن أذرع الغرفة جيئة وذهاباً: فكرت فى كل شيء، ووزنت كل شيء، أنعمت النظر فى كل كلمة من كلماتك وحللت كل تعبير من تعابير وجهك، فانتهيت الى الاعتقاد بأن ذلك كله كان تصنعاً، بأن ذلك كله لم يكن الا مزاحاً، لم يكن الا مهزلة مهينة، خيثة، حقيرة... ذلك انتى أعرفك، أعرفك منذ مدة طويلة. كنتُ كلما أتى الى اليوشا من عندك، أقرأ فى وجهه كل ماقلته له، وكل ما أوجيت به اليه. عرفت كل أساليبك فى التأثير فيه! لا، لا، انت لا تستطيع أن تخدعنى! قد تكون لك حسابات أخرى، وجائز انتى لم أضع يدي على الشيء الاساسى بعد، ولكن لا قيمة لهذا... الامر المهم هو انك كذبت علىّ... هذا ما وجب أن أقوله لك صراحة بلا لف ولا دوران!..

— أهذا كل شيء؟ أهذه هى براهينك كلها؟ ولكن فكرى فى الامر بعد هذه الحماسة الشديدة: لو كان ماتم فى يوم الثلاثاء حيلة كما تقولين، لكنت هذه الحيلة تورطنى كثيراً، ولكان ذلك منى طيشاً أى طيش!..

— فيم كنت تورط نفسك؟ هل لمخادعتى من قيمة فى نظرك؟ هل لاهانة فتاة حقيرة من شأن عندك؟ لست فى نظرك الا ابنة هاربة، شقية، عزلاء، نبذها أبوها، فليس هناك من يدافع عنها. لست فى نظرك الا ابنة تجردت من الاخلاق، ولوثت شرفها بارادتها... فهل تستحق منك مثل هذه الفتاة أن تمتع عن المزاح معها، اذا كان هذا المزاح يعود عليك بأى نفع مهما يكن ضئيلاً؟

— فى أية منزلة تنزلين نفسك يا ناتاليا نيقولايفنا؟ فكرى فى الامر. انك تصرين على القول بأنتى اهتكت. ولكن هذه الالهانة التى تتخيلينها فادحة مخزية مذلة... لا افهم كيف تفترضين هذا، وكيف تصرين عليه. لا بد فى الواقع ان يخرج المرء على اشياء كثيرة حتى يقبل ذلك بمثل هذه

السهولة ، عفوك اذا قلت هذا الكلام • ان من حقى ان اوجه اليك بعض اللوم ، لأنك تستعدين ابنى على • ولئن لم يناصبني العداء في هذه اللحظة دفاعاً عنك ، فلاشك انه يشعر نحوى بالعداوة •••

فصرخ اليوشا يقول :

— لا يا ابنى ، لئن لم اناصبك العداء ، فلأنتى اعتقد أنك لم تهنها ، ولأنتى لا استطيع ان اصدق ان فى وسع انسان أن يهين احداً بهذه الطريقة !

فهتف الامير يسأل ناتاشا :

— هل تسمعين ؟

— ناتاشا ، الذنب كله ذنبى ، فلا تهيميه • انها خطيئة فظيعة •

فصرخت ناتاشا توجه الكلام الى قائلة :

— هل ترى يا فانيا ؟ هو ذا ضدى •

فقال الامير :

— كفى كفى • يجب ان تنهى هذا الفصل المؤلم • ان هذه الغيرة العمياء الحارقة ترسم لى صورة عن طبعك جديدة كل الجدة • لقد تعجلنا كثيراً ، نعم لقد تعجلنا كثيراً • انك لا تدركين مدى الجرح الذى احدثته فى نفسى ، ذلك ان هذا الجرح لا يهمك • لقد تعجلنا كثيراً ، لقد اسرفنا فى التعجل • صحيح ان عهدى الذى قطعته عهد مقدس ، ولكن ••• ولكنى اب ، واريد لابنى السعادة •

فصرخت ناتاشا ، وقد خرجت عن طورها :

— أَسَحَب اذن وعدك ؟ اذن فاعلموا اننى منذ يومين ، وانا وحيدة

هنا ، قد قررت ان ارد اليه وعده ، وهامنا ذا أوكد الآن ذلك امامكم جميعاً
اتنى أرفض الزواج من اليوشا .:

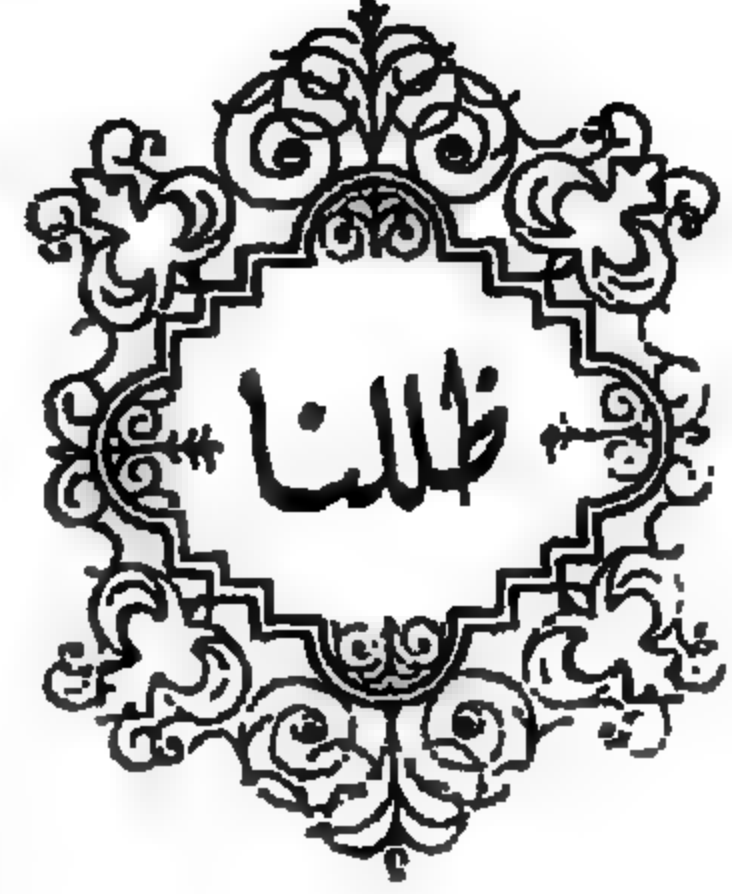
ربما كان معنى ذلك انك تريد ان تجدنى فى نفسه كل انواع
القلق التى كان يعانها ، تريد ان توقظى فى نفسه الشعور بالواجب ،
تريد ان تحيى فى قلبه ما كان يشعر به من «اضطراب بصدد واجباته»
(كما عبرت عن ذلك بلسانك منذ هنيهة) ، وذلك من اجل أن تشديه
اليك مرة اخرى ، كما شدته اليك فى الماضى . ان ما اقوله الآن ينحدر
من نظريتك نفسها ، ولهذا أقوله . ولكن حسبنا هذا الآن، ولترك الأمر
للزمن . سأنتظر لحظة هادئة تنبسط فيها . آمل ان لا تكون علاقتنا قد
انقطعت انقطاعاً نهائياً . وآمل أيضاً أن يتغير رأيك لآ ، وأن تقدرينى
اكثر مما قدرتنى الى الآن . كنت اريد اليوم ان اطلعك على ما اتويته
بصدد اهلك . . ولكن حسبنا هذا الآن . .

ثم التفت الىّ وأضاف يقول ، وهو يقترب منى :

— يا ايفان بتروفتش ، يسرنى الآن اكثر من اى وقت مضى ان
تعارف تعارفاً اعمق ، لست افصح بهذا عن رغبة تساورنى منذ مدة طويلة
فحسب ، ولكننى آمل انك ستفهمنى . هل تسمح لى بزيارتك ذات يوم
قريب ؟ .

فانحنيت . كان يبدو لى اتنى لا أستطيع الآن أن أتحدثاه . فصافحنى
وحيّاً ناتاشا صامتاً ، وخرج خروج من جرححت كرامته .

الفصل الرابع



دقائق لا تنطق بحرف • كانت ناتاشا واجمة
تفكر ، حزينة مهذمة ، فارقتها قواها كلها دفعة
واحدة • كانت تنظر الى أمام دون أن ترى شيئاً ،
كأنها غائبة عن نفسها ، وكانت ممسكة بيد أليوشا ،
وكان أليوشا يبكي بلا وضوء ، ويلقى على ناتاشا نظرة وجلة مستطلعة
من حين الى حين •

وأخذ أخيراً يعزيها على خجل ، ويضرع اليها ألا تنضب ، ويتهم
نفسه • كن واضحاً انه يريد أن يبرىء أباه ، وأن ذلك كان يثقل عليه
كثيراً • حاول عدة مرات أن يتحدث في هذا الموضوع ، ولكنه لم يجرؤ
أن يعبر عما في نفسه تعبيراً واضحاً ، مخافة أن يوقظ سخط ناتاشا ، فكان
يحلف لها ان حبه حب أبدي لا يتغير ، ويبرر علاقته بكاتيا في كثير من
الحرارة ، ويردد بلا توقف انه لا يحب كاتيا الا كما يحب أخ أخته الطيبة
الرائعة التي لا يستطيع أن يهجرها هجراً تاماً ، وانه لو فعل لكان ذلك منه
غلظة وقسوة • وكان يؤكد لناتاشا انها لو عرفت كاتيا لاصبحت فوراً
صديقتين لا تفترقان أبداً ، فما يبقى بعدئذ أى سوء تفاهم • وكانت هذه
الفكرة تعجبه بين سائر الافكار • لقد كان المسكين صادقاً كل الصدق ،
وكان لا يفهم مخاوف ناتاشا ، حتى ليتمكن أن يقول انه لم يدرك ما قالته
ناتاشا لابيه ، فكل ما أدركه هو ان أباه وناتاشا قد تشاجرا ، وكان ذلك هو
ما يحز في نفسه خاصة •

سألته ناتاشا :

— هل تلومنى على ما بدر منى نحو أبيك ؟

فأجاب بمرارة :

— كيف ألومك وأنا سبب كل شيء ؟ كيف ألومك وأنا المذنب ؟ أنا الذى دفعتك الى الغضب ، حتى اذا استبد بك الغضب ، أخذت تهمينه حتى تبرئنى • انك تبرئتنى دائماً ، وأنا لا أستحق ذلك • كان لابد من أن تلقى التبعة على أحد ، فألقيتها عليه •

واضاف أليوشا هاتفاً فى حرارة :

— ولكنه ليس هو المذنب • أمن أجل هذا جاء الى هنا ؟ أهذا ما كان يتوقعه ؟

ولكن أليوشا رأى ناتاشا تنظر اليه نظرة عتب حزين ، فسرعان ما فقد ثقته بنفسه ، وقال :

— لا ، لن اقول شيئاً ، انا سبب كل شيء !

فقالت ناتاشا فى جهد :

— نعم يا أليوشا ، لقد مرّ بيتنا ، فهدمّ أمتنا الى الأبد • كنت تصدقنى دائماً اكثر مما تصدق اى انسان آخر ، اما الآن فقد سكب فى قلبك الشك وسوء الظن : انك تخطئنى • لقد سلبنى نصف قلبك • بيتنا الآن ظل •

— لا تقولى هذا الكلام يا ناتاشا • لماذا تقولين ان بيتنا ظلام ؟

لقد جرحه التعبير •

واردفت ناتاشا تقول :

— لقد اجتذبتك اليه بنبل مصطنع وكرم كاذب ، وسيستعديك على

بعد الآن مزيداً من الاستعداد •

فهتف اليوشا يقول بحرارة :

— اقسم لك ان لا .. ولئن قال « اتنا تعجلنا كثيراً » ، لقد دفعه الى هذا القول انه كان مستاءً • سترين غداً ، او ذات يوم قريب ، أنه سيتراجع عن هذا الكلام • واذا بلغ به الغضب ان اصبح لا يوافق على زواجنا ، فلن اطيعه • اقسم لك • ربما اقوى على هذا ••

ثم هتف فجأة ، وقد تحمس للفكرة التي راودته :

— هل تعرفين من الذى سيساعدنا فى الأمر ؟ انها كاتيا •• سترين ، سترين نبل هذه الانسانة الرائعة • سترين هل تريد حقاً ان تنافسك وان تفرق بيتنا ! لقد ظلمتى كثيراً ، منذ قليل ، حين زعمت اننى من اولئك الذين يمكن ان يزول حبهم بعد الزواج بيوم • لشد ما آلمنى ان اسمع منك هذا الكلام ! لا ، لست كذلك • واذا كنت اذهب كثيراً الى كاتيا •• — ارجوك يا أليوشا ، اذهب اليها ما شئت • ليس هذا ما أردت أن اقله • انك لم تفهم ما اردت ان اقله • كن سعيداً مع من تشاء • ولست استطيع على كل حال ، ان اطلب من قلبك اكثر مما يقدر ان يعطينى ••

ودخلت مافرا •

— هل اقدم لكم الشاي ؟ ان الماء يغلى فى السماور منذ ساعتين • شىء عظيم ! الساعة الآن الحادية عشرة •

كانت مافرا تتكلم بفضفاضة وغضب • كان واضحاً انها مستاءة ، وانها حانقة على ناتاشا • والحق انها خلال تلك الايام كلها ، منذ يوم الثلاثاء ، قد بلغت من شدة فرحها بأن سيدتها الشابة (التى تحمل لها حباً جماً) ستتزوج قريباً ، انها نشرت الخبر فى العمارة كلها ، ونقلته الى الجيران ، ورددته فى الدكاكين ، وابلغته للبواب • وقد اعتزت بذلك كثيراً ، فرددت

للناس فى كثير من احوال ، ان الأمير ، وهو رجل خطير الشأن ، واسع
الغنى برتبة جنرال ، قد جاء بنفسه الى سيدتها ، يخطبها لابنه ويسألها ان
توافق على زواجها به ، وانها ، اى مافرا ، قد سمعت ذلك كله بأذنيها •
ثم ها هو هذا كله يذهب ادراج الرياح ، كال دخان • فلقد خرج الأمير
غاضبا ، حتى ان الشاى لم تقدم اليه ، ولا شك ان الآنسة هى السبب فى
هذا كله • لقد سمعنا مافرا تخاطب الامير بغير أدب •

أجابت ناتاشا :

– نعم هاتى الشاى •

– والمقبلات ايضا ؟

وأخذت ناتاشا تضحك • قالت مافرا :

– أهكذا ، بعد كل ما هيأناه ؟ لقد انهدت قواى من التعب ، حتى
صرت لا أحس بساقى منذ أمس • لقد ركضت أشتري الخمر من شارع
نفسكى ••

وخرجت ، واغلقت الباب بقوة من شدة الحنق •

فاحمرت ناتاشا ، والقت على نظرة غريبة •

وجاءتا مافرا بالشاى والمقبلات : بط ، وسمك ، وزجاجتان من
اجود الخمر اشترتهما مافرا من عند السييف • وسألتنى مافرا قائلة :

– فيم اذن حضرنا هذا كله ؟

قالت ناتاشا ، وهى تقترب من المائدة ، خجلة حتى امامى :

– هذا أنا يا فانيا • كنت أحس أن كل شىء سينتهى اليوم الى هذه
النهاية ، ومع ذلك كنت آمل ان ينتهى الى غير هذه النهاية • كنت آمل
ان يجيء أليوشا ، فيدخل الطمأنينة الى قلبى ، فتصالح •• كنت آمل ان

اجد شكوكي في غير محلها ، وان اقتنع بأنني كنت واهمة .. ومن اجل ذلك حضرت هذه المقبلات ، لأنني قدرت ان حديثنا سيطول الى ساعة متأخرة ..

مسكينة ناتاشا • لقد احمرت احمراراً شديداً وهي تقول هذا الكلام • وثار حماسه أليوشا فقال :

— هل ترين ياناتاشا ؟ انت نفسك ما كنت واثقة من هذه الشكوك التي روادتك .. منذ ساعتين كنت غير واثقة منها ! لا ، لا ، يجب ان نصلح الامر • انا المذنب • علىّ تقع تبعة كل ما وقع ، وعلىّ يقع عبء اصلاح ما فسد • ناتاشا ، اسمحي لي ان امضي الى ابي فوراً • يجب ان اراه • لقد جرح • لقد أهين • يجب ان أواسيه • سوف اشرح له كل شيء ، وسأتكلم باسمي وحدي ، لا أقحمك في الموضوع • سأسوّي كل شيء • لا تؤاخذيني اذا تركتك الآن وذهبت اليه • ليس الموضوع انني اشفق عليه • سترين انه سيرى نفسه امامك ، سترين • سأكون هنا غداً ، منذ الفجر • وسأبقى معك النهار كله ، لا اذهب الى كاتيا • لم تمنعه ناتاشا من الخروج ، بل نصحته بأن يمضي • كانت تخشى أشد الخشية ان يبقى أليوشا الى جانبها مكرها ، فيسألمها • ولكنها طلبت اليه ان لا يتكلم باسمها ، وحاولت ان تبسم له ابتسامة مرحة وهي تودعه • وكان يهم ان يخرج حين عاد اليها فجأة ، فتناول يديها ، وجلس الى جانبها ، واخذ ينظر اليها في كثير من الرقة والعطف •

— ناتاشا ، صديقتي ، ملاكي ، لا تحقني علىّ ، لن نختصم بعد اليوم أبدا • عديني بأن تصدقيني دائماً في كل شيء ، وسأصدقك انا ايضاً في كل شيء • اسمعي ، سأقص عليك امراً • في ذات يوم ، تشاجرنا ، لا أذكر الآن لماذا • كنت انا المذنب • وأصبحنا لا تبادل الكلام • لم أشأ

أن اكون البادىء بطلب العفو ، وكنت حزينا أشد الحزن • فجعلت أضرب في الشوارع على غير هدى ، ثم ذهبت الى بعض الاصدقاء ، وأنا اكاد أختنق من الحزن •• راودتني فكرة ، قلت في نفسي : ترى لو مرضت ناتاشا ، فماتت ، ما عسى أن تصير اليه حالتى ؟ فلما تصورت هذا ، أصابنى يأس شديد كأن الأمر وقع فعلاً ، واشتدت علىّ وطأة هذه الافكار ، وازداد حزنى الرهيب ، ثم تخيلتني جائياً على قبرك فاقد الوعي ، احيطه بذراعى وقد هدنى الألم ، ورأيتني اقبل القبر ، وأناديك ، أسألك أن تخرجى الىّ ولو دقيقة واحدة ، وأضرع الى الله أن يحقق معجزة من معجزاته ، فيبعثك أمامي لحظة ، فأرتنى عليك ، وأنفك بذراعى ، وأعانقك ، وأقبلك •• وخيل الى أننى سأموت من فرط السعادة اذا استطعت أن أحيطك بذراعى مرة أخرى ، خلال ثانية ، كما كنت أفعل في الماضى • ثم قلت في نفسي وأنا أتخيل هذا : أأضرع الى الله أن يردها الىّ لحظة واحدة ، ونحن نعيش معاً منذ ستة شهور ؟ ما أكثر ما اختصمنا خلال هذه الشهور الستة ، وما أكثر الايام التى قضيناها لا تبادل الكلام !•• كنا نتشاجر أياماً بكاملها ، ونغفل عن سعادتنا •• ثم أسألك أن تخرجى الىّ من القبر ولو دقيقة واحدة ، وأشعر اننى قادر على ان أدفع حياتى كلها ثمناً لهذه الدقيقة • حين تخيلت هذا كله ، لم أملك أن أقاوم ، فهرعت اليك فوراً ، فلما وصلت كنت تنتظرينى ، وأذكر أننى حين تعانقنا لتتصالح ضمنتك الى صدرى ضمّاً قوياً جداً ، كأننى كنت أوشك ان افقدك فعلاً • ناتاشا ! يجب ان لا نختصم بعد الآن أبداً • ان هذا يؤلمنى كثيراً •• رباه ! هل يمكن ان يخطر ببالى ان فى وسعى ان أتركها !••

كانت ناتاشا تبكى • وتعانقا عناقاً شديداً • وحلف لها أليوشا مرة

أخرى أنه لن يفصل عنها مدى الحياة • ثم أسرع يمضي الى أبيه • كان مقتنعاً اقتناعاً جازماً بأنه سيرتب كل شيء •

قالت لي ناتاشا وهي تشد على يدي شداً يشبه أن يكون تشنجاً :

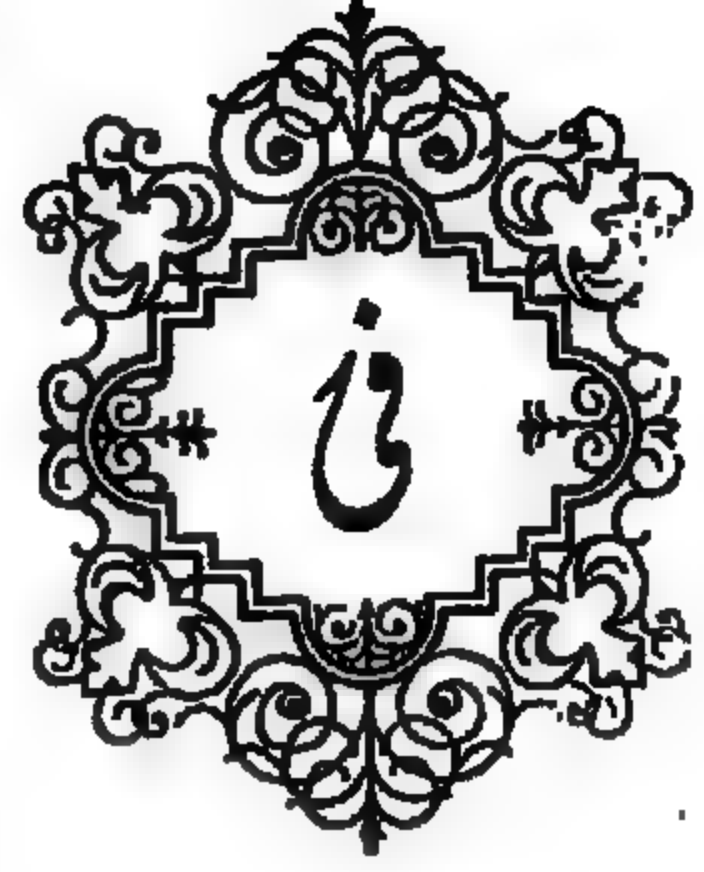
— انتهى كل شيء ، ضاع كل شيء • انه يحبني ، وسيظل يحبني ، الى الأبد • ولكنه يحب أيضاً كاتيا ، وما هي الا فترة وجيزة حتى يحبها أكثر مما يحبني • ان هذا الأمير ، هذا الثعبان ، لن يغفل •• وعندئذ ••
— ناتاشا ، أنا أيضاً اعتقد أن الأمير يراوغ ، ولكن ••

— انت لا تعتقد بكل ما قلته له ، رأيت ذلك في وجهك • ولكن انتظر ، فستري من تلقاء نفسك أنني على حق • ذلك أنني لم أتحدث الا في أمور عامة ، ولا يعلم الا الله ماذا يبيت ايضاً • انه رجل فطيع • خلال هذه الأيام الاربعة التي كنت أذرع فيها الغرفة جيئة وذهاباً ، أدركت كل شيء • لقد أراد أن يحرر قلب أليوشا من الحزن الذي يمنعه من أن يخفق ، أراد أن يخفف عنه وطأة الواجبات التي يشعر بها من حبه لي ، فلفق هذه الخطبة ، ليدسّ نفسه بيتنا ، وليسحر أليوشا بنبله وكرمه • هذا صحيح ، يا فانيا • ذلك هو أليوشا • كان سيطمش على ، كان سيهدأ قلقة على ، قائلاً لنفسه : « انها الآن زوجتي ، وهي اذن معي الى الأبد » ، وكان سيزداد التفاتاً الى كاتيا وعناية بها ، على غير ارادة منه ، ولا شك أن الأمير قد لقن كاتيا هذه الدرس ، وأدرك أنها تناسبه ، وانها تستطيع ان تجتذبه أكثر مني • واأسفاه يا فانيا • ان رجائي كله معقود عليك الآن • انه يريد ان يوثق علاقته بك فاستحلفك بالله ان لا ترفض ، وافعل كل ما تستطيع فعله حتى تدخل الى بيت الكوتيسية ؟ واعرف كاتيا ، وراقبها وقل لي من تكون • انا في حاجة الى ذهابك الى هناك • ما من أحد يمكن أن يفهم مثلك ، ومستعرف ما عسى أن يفيدني • وراقب ايضاً مدى صداقتهما ، وانظر ما بينهما ، واعرف عم يتحدثان • وأنعم

النظر ، خاصة ، فى كاتيا •• برهن لى مرة أخرى على صداقتك ،
يا صديقى العزيز اللطيف ، يا فانيا ، لم يبق لى أمل فى غيرك !

حين عدت الى بيتى كان الليل قد اتصف • وجاءت نللى تفتح لى
الباب ، وقد ظهرت فى وجهها آثار النوم ، فابتسمت ونظرت الى نظرة
فرحة • كانت المسكينة تلوم نفسها على أنها غفت • كانت تتمنى أن
تنتظرنى الى ان اعود • وقالت ان شخصا جاء يسأل عنى ، وانه انتظرنى
بعض الوقت ، ثم ترك لى رسالة على المنضدة • كانت الرسالة من
ماسلوبوف • انه يطلب الى أن أذهب اليه غدا ، فى الساعة الواحدة •
كنت أود لو أسأل نللى بعض الأسئلة ، ولكنى أرجأت ذلك الى غد ،
وأصررت عليها أن تنام • كانت الطفلة المسكينة قد أخذ منها التعب كل
مأخذ وهى تنتظرنى ، ولم تتم الا قبل وصولى بنصف ساعة •

الفصل الخامس



صباح الغد ذكرت لى نللى تفاصيل غريبة عن زيارة البارحة • وكان من المستغرب أصلاً أن يفكر ماسلوبوف فى زيارتى ، ذلك المساء • فقد كان يعرف أتى لن أكون فى البيت ، انبأته بذلك حين لقيته آخر مرة ، وكان يتذكره جيداً • قالت نللى انها فى أول الأمر لم تشأ أن تفتح له الباب ، لأنها خافت ، وكانت الساعة قد بلغت الثامنة من المساء ، ولكنه توسل إليها أن تفتح ، مدعياً أنه ان لم يترك لى رسالة ، فسيصينى غداً سوء • فلما سمحت له أن يدخل كتب الرسالة فوراً • ثم اقترب منها وجلس الى جانبها على الأريكة • قالت نللى : « فنهضت من مكانى ولم أشأ أن أكلمه ، لأننى خفت منه خوفاً شديداً • فأخذ يحدثنى عن بوبنوبا ، وقال انها غضبت كثيراً ، ولكنها لا تجرؤ على المجيء الى هنا لتأخذنى ؛ ثم راح يشى عليك ؛ فقال انك كنت من أعز أصدقائه وانه عرفك صيماً صغيراً • عندئذ رضيت أن أكلمه • فأخرج لى من جيبه حلوى ، وطلب الى أخذها ، ولكننى رفضت ، فأكد لى انه رجل شهم ، وانه يعرف أن يعنى وأن يرقص ، وقام رأساً فأخذ يرقص • وسررت بهذا • ثم قال انه سيمكث هنا بعض الوقت ، ينتظر عودتك ، وقال انك قد تعود ، وطلب الى أن لا أخاف منه ، وأن أجلس الى جانبه • فجلست ، ولكننى لم أشأ أن أكلمه ، فقال انه يعرف أمى وجدى ••• فأخذت أتكلم ، ومكث مدة طويلة •

- فيم نكلمتما ؟

- تكلمنا عن امى •• وعن بوبنوف ••• وعن جدى • لقد لبث ما يقرب من ساعتين •

لاحظت ان نللى لا تريد أن تقصَّ علىَّ كل ما دار بينهما من حديث، فلم أسألها عن شيء، أملاً في أن أعرف ذلك كله من ماسلوبوييف • ولكننى اعتقدت ان ما سلوبوييف قد تعمد ان يأتي اثناء غيابى، ليلقى نللى وحدها • فساءلتُ ترى لماذا تعمد ذلك ؟

وأرتى نللى ثلاث قطع من الحلوى قدمها اليها •• انها سكاكر رديئة ملفوفة بورق أخضر وأحمر، لاشك انه اشتراها من عند احد البقالين • وضحكت نللى وهى ترينى قطع الحلوى • فسألتها :

- لماذا لا تأكلينها ؟

فأجابتنى وقد بدا فى وجهها الجذ والعبوس :

- لا اريدها • ثم اتى لم آخذها • ولكنه تركها على الارىكة • كان علىَّ فى ذلك اليوم ان اقوم بعدد من الجولات، فودعت نللى، وسألتها وانا اهم بالخروج :

- هل تتضايقين حين تبقين وحدك •

- نعم ولا • أتضايق حين تغيب مدة طويلة •

قالت ذلك وهى ترشقنى بنظرة تفيض حياء • وكانت طوال ذلك الصباح تنظر الىَّ نظرة رقيقة ودوداً، وتبدو فرحة كل الفرح • وكانت فى الوقت نفسه تلتزم موقف التحفظ بل والحجل، كأنها تخشى ان تزعجنى وان تفقد صداقتى •• وكانت لا تسرف فى التبسط معى كأن ذلك

• عيب

— وما الذى لا يضايقك ؟ لقد قلت « نعم ولا » .

طرحت عليها هذا السؤال ، وانا ابتسم رغم ارادتي . لقد اصبحت
عزيزة على كثيرأ .

فقلت وهى تطلق ضحكة خفيفة :

— ما لا يضايقنى ، اعرفه كل المعرفة .

وعاد اليها الاضطراب مرة اخرى . كنا نتحدث عند العتبة ، وكان
الباب مفتوحاً . كانت نللى امامى خافضة العينين ، قد وضعت احدى
يديها على كتفى وامسكت بالاخري كمنى . فسألتها :

— ماذا ؟ هل هو سر ؟

— لا .. ابدأ .. لا شئ .. ولكننى .. لكننى ، بعد ان ذهبت
انت ، اخذت اقرأ كتابك .

قالت ذلك بصوت خفيض ، وهى تنظر الى نظرة رقيقة نافذة .
واحمر وجهها احمراراً شديداً .

— ها .. صحيح ؟ هل يعجبك الكتاب ؟

طرحت عليها السؤال ، وانا ارتبك ارتباك الكاتب حين ' يقرّظ في
حضوره . تمنيت من اعماق قلبى لو اقبلها فى تلك اللحظة . ولكن ذلك
كان يبدو لى مستحيلاً . وصمتت نللى . ثم سألتنى وقد لاح فى وجهها
حزن عميق :

— لماذا ، لماذا يموت ؟

والقت على نظرة سريعة ، ثم خفضت عينيها من جديد .

— من ؟

— الشاب المصدور الذى تتحدث عنه فى الكتاب .

— كان لا بد ان يموت يا نللى .. ما العمل ؟
فأجابت بصوت يشبه أن يكون همساً قائلة :
— ابدأ ..

واطرقت الى الارض حائقة •
انقضت على ذلك دقيقة • ثم دمدت نللى تسألنى ، وهى تشد كفى
شداً أقوى :

— والفتاة والشيخ ! هل سيعيشان معاً ولا يضمنهما الفقر ؟
— بل تذهب الفتاة الى بعيد • تتزوج احد مالكى الاطيان ، ويبقى
المجوز وحده ..

قلت لها ذلك على أسف ، فقد آلمنى حقاً ان لا استطيع ان اطمئنها
بشيء آخر •

— ها .. نعم هكذا اذن انت ! لن استمر فى قراءة الكتاب !
ونبذت يدي غاضبة ، واشاحت عنى مهرولة ، وادارت وجهها الى
احدى زوايا الغرفة خافضة العينين ، وقد احمر وجهها احمراراً شديداً ،
واضطربت أنفاسها ، كأن حزناً اليما يخنقها خنقاً •

قلت وانا اقرب منها :

— كفى يا نللى ! لماذا تغضين ؟ القصة من ابتكار الخيال وليست
واقعة ، فلا حاجة بك الى الغضب ! يالك من صبية مسرفة فى الاحساس !
فقلت خجلة ، وهى ترفع الى نظرة وضاعة محبة :

— لست غاضبة •

ثم امسكت يدي فجأة ، واستندت وجهها على صدرى ، واخذت
تبكى •

ولكن فى هذه اللحظة نفسها انفجرت ضاحكة ، فكانت تبكى وتضحك معاً ، وشعرت انا نفسى اتنى اضحك واتألم فى آن واحد • وعبد حاولت ان أنهض رأسها نحوى ، وحين حاولت ان ابعد وجهها عن كفى ، ازدادت تشبهاً به وهى تضحك •

وانتهى أخيراً هذا المشهد • فودعتها ، وحشت الخطى ، فما هبطت بضع درجات من السلم حتى رأيت نلى تجرى ورائى ، وقد اصطبغ وجهها بالحمرة ، وظهر عليها اضطراب الحجل ، والتمعت عيناها ، فطلبت الى ان لا اغيب كثيراً ، فوعدها بأننى سأعود قطعاً فى موعد العشاء • ذهبت أولاً الى العجوزين ، قرأتهما مريضين • كانت آنا أندريفنا تعاني آلاماً شديدة ، وكان يقول سرجتش قابلاً فى غرفته • وقد أحس بوصولى ، ولكننى كنت اعرف انه لا يأتى الى قبل انقضاء ربع ساعة على مجيئى ، وذلك ليفسح لنا مجال الكلام على انفراد ، ولم أشأ ان ازعج آنا أندريفنا ، فلطفت قصة سهرة الأس ما امكنتى تلطيفها ، ولكننى ذكرت لها الحقيقة • فما كان اشد عجبى حين لاحظت ان العجوز لم تستقبل نبأ احتمال القطيعة بكثير من الدهشة ، رغم ان هذا النبأ قد ألمها • قالت :

— نعم يا صديقى ، ذلك ما كنت أقدر أن يقع • حين مضيت آخر مرة فكرت فى الأمر طويلاً ، وقلت فى نفسى ان هذا لن يتم • لعل الله يرى اننا لا نستحق ذلك • وهذا الرجل سافل لا يمكن أن ينتظر منه خير • ليس قليلاً ذلك المبلغ الذى يسلبنا اياه ، عشرة آلاف روبل ، وهو يعلم حق العلم ان ليس له فيه أى حق • انه يسلبنا كسرة الخبز • يجب ان نبيع اخمينيفكا • ولقد كانت صغيرتى ناتاشا مستقيمة عاقلة حين لم تصدقه •

ثم اضافت وهى تخفض صوتها :

- ثم هل تعلم يا صديقى ان زوجى يعارض فى هذا الزواج .
لقد افصح عن رأيه ، فقال انه لا يريد هذا الزواج . ظننت اول الامر
ان ذلك نزوة منه ، ولكننى عرفت بعدئذ انه كان جاداً لا يهزل . ما مصير
حمامتى الصغيرة اذن ؟ سيطل ساططاً عليها الى الابد . واليوشا ماذا
يفعل ؟

ظلت تسألنى مدة طويلة ، وكانت على عادتها ، تردُّ على كل جواب
من أجوبتى بتأوهات وتنهيدات وزفرات . كنتُ قد لاحظت ان حالتها
ساعت كثيراً فى الايام الاخيرة ، وان كل نبأ من الانباء أصبح يهزها هزاً
عنيفاً . كان الحزن الذى تسببه لها ناتاشا يحطم قلبها وصحتها تحطيماً .
ودخل العجوز ، مرتدياً مبذله ، متعللاً خفَّ المنزل . وشكا مما
يعانيه من حمى ، لكنه نظر الى امرأته نظرة تفيض بالعطف والمودة ، وظل
طوال المدة التى قضيتها بينهما يحيطها بألوان الرعاية ، كما ترعى المربية
أطفالها . وكان ينظر الى عينيها ويبدو كأنه خجل منها . كان فى
نظراته كثير من الرقة والمحبة . كان يفزع أن يراها مريضة ، كان يحس
انه سيفقد كل شئ اذا فقدها .

لبثت معهما قرابة ساعة ، وحين ودعتهما ، صحبنى حتى حجرة
المدخل وحدثنى عن نللى . كان يفكر تفكيراً جاداً فى ضمها اليه ، فى
اتخاذها ابنة له . وسألنى ماذا يجب أن يعمل حتى ثوافق آنا أندريفنا
على ذلك . وطرح علىَّ أسئلة كثيرة عن نللى ، فى كثير من حب
الاستطلاع ، ثم سألتنى ألم أعرف شيئاً جديداً عنها ، فقصصت عليه ما عرفته
قصاً سريعاً ، فتأثر مما رويته له تأثراً واضحاً .

قال بلهجة حازمة :

- مستحدث فى هذا الامر مرة أخرى . . ثم انتى سأجىء اليك ،
متى أبليت من مرضى ، وعندئذ نعزم أمرنا . .

وفي الظهر تماما كنت عند ماسلوبوف فما كان أشد دهشتي حين دخلت عليه فرأيت عنده الاميرَ أولَ من رأيت • كان يرتدى معطفه في حجرة المدخل ، وكان ماسلوبوف يعينه في ذلك متعجلاً ، ويعيد اليه عصاه • لقد سبق أن قال لي انه يعرف الامير ، ولكن هذا اللقاء أدهشني كثيراً •

ارتبك الامير حين رأيته ، ولكنه مالبث أن هتف ببلهجة تظهر كثيراً من المودة :

— ها •• هذا انت ! أنظر كيف يتم اللقاء في بعض الاحيان ! •• لقد علمت منذ لحظة انك تعرف ماسلوبوف • سرتني رؤيتك ، سرتني كثيراً ، كنت أفكر في الذهاب اليك ، وأرجو أن أفعل ذلك في أقرب فرصة ؟ هل تسمح لي بذلك ؟ لي رجاء عندك : ساعدني على توضيح الموقف • لا شك انك فهمت ما أردت أن أقوله أمس • انك هنالك صديق ، وقد تابعت تطور هذه القضية من أولها الى آخرها • وانك تستطيع أن تؤثر بعض التأثير •• يؤسفني كثيراً انني لا أستطيع أن ألقاك حالا •• كثرة الاعمال تمنعني من ذلك • ولكني أرجو أن نجتمع ذات يوم قريب ، قريب جداً • سيسرني أن أجيء اليك • اما الآن ••

وصافحني بكثير من القوة ، وتبادل نظرة مع ماسلوبوف ، ثم خرج •

قلت وأنا أدخل الغرفة :

— ناشدتك الله ألا قلت لي ••

فقاطعتني ماسلوبوف يقول وهو يتناول قبعته بسرعة ويتجه الى حجرة المدخل :

— لن أقول لك شيئاً • تنتظرنى أعمال • لقد تأخرت ، أنا ذاهب !

— ألم تكتب الى انت نفسك أن أوافيك عند الظهر ؟

— صحيح • كتبت اليك أمس ، وكتبوا الى اليوم •• يكاد ينفجر رأسى • قصة فظيعة ! انهم ينتظروننى • عفوك يا فانيا • كل ما أستطيع أن أقدمه لك تعويضاً عن تعبك هو أن أسمح لك بأن تصفنى جزاء ما حملتك من عناء بدون طائل • فاذا أردت أن تقتص لنفسك ، فهيا افعل ، ولكن أرجوك أن تفعل بسرعة ، حتى لا تؤخرنى ، فانهم ينتظروننى •

— ولماذا أضربك ؟ أسرع مادام ينتظرك عمل • ان الانسان لا يستطيع أن يتباً بالطوارئ دائماً • ولكن •••

فقاطعنى وهو يشب الى حجرة المدخل ويرتدى معطفه (وارتديت معطفى أنا أيضاً) :

— لا ، لا ، دع • لكن ، هذه لى أنا • يجب أن أحدثك فى قضية هامة جداً ، ومن أجل ذلك انما رجوتك أن تأتى الى • والقضية تتصل بك رأساً ، وتمس مصالحك • ولكننى لا أستطيع أن أحدثك فى هذا كله خلال دقيقة واحدة ، فعدنى ، ناشدتك الله ، أن تجىء الى هذا المساء ، فى الساعة السابعة تماماً • سأكون هنا ••

فقلت متردداً :

— هذا المساء ؟ ولكننى كنت أريد أن أذهب هذا المساء الى ••

— اذهب الآن الى حيث كنت تريد أن تذهب فى المساء ، ثم عد الى •• فانيا ، لا تستطيع أن تتخيل الأنباء التى سأقولها لك •

— ولكن أرجوك ، أرجوك ، ماهو هذا الامر ؟ انك تثير فى حب الاطلاع ، أعترف لك بذلك •

وفى أثناء ذلك كنا اجتزنا باب العمارة ، وبلغنا الرصيف • فقال فى الحاح :

— اذن ستجىء ؟

— سأجىء •

— لا ، لا ، عاهدنى عهد الشرف •

— عجيب ! أعاهدك •

— طيب • من أين أنت ذاهب ؟

— من هنا •

قلت ذلك وأشرت الى اليمين • فقال وهو يشير الى الشمال :

— وأنا ذاهب من هنا • الى اللقاء يا فانيا ، لا تنس الموعد ، فى

الساعة السابعة •

قلت فى نفسى وأنا أراه يتبعد : « غريب » •

كنت أريد أن أذهب الى ناتاشا فى ذلك المساء ، ولكننى وعدت ماسلوبوف بأن أجىء اليه ، فقررت أن أمضى الى ناتاشا حالاً ، وكنت على ثقة باننى سأجد عندها أليوشا • وقد وجدته عندها فعلاً ، فسر برؤيتى سروراً كبيراً •

كان لطيفاً جداً ، وكان رقيقاً مع ناتاشا بخاصة ، حتى انه فرح فرحاً شديداً حين وصلت • وكانت ناتاشا تحاول أن تظهر بمظهر الفرحه ، ولكن كان واضحاً ان ذلك فوق طاقتها • كانت شاحبة اللون ، وكان يبدو على وجهها انها تعاني آلاماً • انها لم تتم يوماً هادئاً • وكانت تظهر لاليوشا مزيداً من العاطفة •

كان أليوشا يتكلم كثيراً ، يريد أن 'يفرح' ناتاشا ، أن يتنزّء ابتسامة ما من شفقتها المنقبضتين على غير ارادة منها ، ولكنه يتحاشى أن يذكر اسم كاتيا أو اسم أبيه • لا شك ان مقام به أس من مسمى للمصالحة قد أخفق •

وخرج أليوشا لحظةً ليقول شيئاً لمافرا ، فقدمت ناتاشا تسير الى
قائلة :

— هل تعلم انه يتحرق شوقاً الى الذهاب ؟ نعم ، ولكنه لا يجرؤ .
ولا أريد أن أطلب اليه أن يذهب ، خشية أن يعتمد عندئذ البقاء . انى
أخاف أن يصيبه السأم ، وأن تبرد عاطفته نحوى تماما ! ما العمل ؟
— رياه ، ما هذا الوضع الذى تضمان نفسيكما فيه ؟ ماهذا الشك
والحذر ؟ ماهذا التجسس والتربص ؟ لماذا لا تتصارحان فينتهى كل شيء ؟
أغلب ظنى ان هذا الوضع هو الذى سيدخل الى قلبه الملل !

فصرخت ناتاشا مذعورة تقول :

— فماذا أعمل اذن ؟

— اسمعى .. سأدبر كل شيء ..

قلت ذلك ، وذهبت الى المطبخ ، بحجة اننى أريد أن أطلب الى
مافرا أن تمسح حذائى الذى امتلأ وحلاً .

فصرخت بى ناتاشا تقول :

— تأن يا فانيا !

فما ان دخلت المطبخ حتى أسرع أليوشا الى ، كأنه كان ينتظرنى .

— ايفان بتروفتش ، صديقى العزيز ، ماذا يجب أن أعمل .
انصحنى . لقد وعدت كاتيا أمس بأن أذهب اليها فى هذه الساعة نفسها .
ولا أستطيع أن أخلف الوعد . اننى أحب ناتاشا حباً يعجز لسانى عن
وصفه ، اننى مستعد لان ألقى بنفسى الى النار فى سبيلها ، ولكنك توافقنى
انت نفسك على اننى لا أستطيع أن أترك كل شيء هناك . فذلك لا يلىق .

— ماعليك الا أن تذهب .

— وناتاشا ؟ انها مستألم يا ايفان بتروفتش ، ساعدنى على الخروج من هذا المأزق •

— رأيى أن تذهب • انت تعلم انها تحبك • فان بقيت شعرت طوال الوقت بأنك مللت المقام معها ، وانك تكره نفسك على البقاء اكراها • أوتر أن تتصرف تصرفا طيعيا • ثم اتنى سأساعدك ، هيا بنا •

— عزيزى ايفان بتروفتش ، ما أنبل قلبك !
ودخلنا ، فما هى الا دقيقة واحدة حتى قلت له :
— رأيت أباك منذ قليل •

فصرخ مذعورا :

— أين ؟

— فى الشارع ، مصادفة • لم يبق معى الا دقيقة • ورجائى مرة أخرى أن تتعارف تعارفا أكمل • وقد سألتى هل أعرف أين انت • انه فى حاجة ملحة الى رؤيتك ، يريد أن يقول لك شيئا •

وفطنت ناتاشا الى الغرض الذى أهدف اليه من هذا الكلام ، فساعدتنى تقول :

— اذن فاذهب اليه يا اليوشا ، اذهب اليه حالا •

— ولكن •• أين يمكن أن أجده ؟ هل هو فى البيت ؟

— قال انه سيكون عند الكوتيسة •

فنظر اليوشا الى ناتاشا بحزن ، وقال بسداجة :

— فما العمل اذن ؟

قالت ناتاشا :

— مابك يا اليوشا ؟ ما ينبغي أن تهجر هؤلاء الاصدقاء من أجل أن تهدينى ، والا كنت تتصرف كاطفال • هذا أولاً مستحيل ، وهو ثانياً اخلال بواجب الأدب نحو كاتيا • اتما صديقان ، ولا يمكن أن يقطع المرء علاقاته بأصدقائه على هذا النحو القظ • ثم انك تهيننى اذا اعتقدت اننى غيرة الى هذه الدرجة • اذهب الى هناك حالا ، أرجوك • وبذلك تطمئن أباك •

فهتف اليوشا فى حماسة وندامة :

— ناتاشا ، انت ملاك • أنا لا أساوى أصبعا من أصابعك الصغيرة ! ما أنبل قلبك يا ناتاشا • • • وأنا • • • أنا • • • آه ، أؤثر أن تعرفى ! لقد سألت ايفان بتروفتش ، منذ قليل ، فى المطبخ ، أن يساعدنى على الذهاب ، فاخترع هذه الطريقة • ولكن لا تسيئى بى الظن يا ناتاشا • فلست مذنباً تماماً • انتى أحببك أكثر مما أحب أى شئ فى العالم ، أحببك ألف مرة أكثر مما أحب أى شئ فى العالم • • • لذلك تراودنى الآن فكرة جديدة : أن أترف لكاتيا بكل شئ ، أن أكشف لها عن وضعنا ، وأن أقص عليها كل ماجرى أمس • فلعلها تتخيل مخرجاً ينقذنا ، انها مخلصه لنا كل الاخلاص •

فأجابته ناتاشا وهى تبسم :

— اذن فاذهب اليها • وانى يا صديقى أحب كثيراً أن أترف الى كاتيا فكيف نهىء ذلك ؟

فلما سمع اليوشا هذا الكلام تجاوز فرحه كل حد • واندفع يتخيل ألف مشروع ومشروع ، وقال ان ذلك أمر سهل ، وان كاتيا ستجد الحل • وبسط فكرته بحرارة وحماسة ، ووعد أن يعود بجواب كاتيا فى اليوم نفسه ، بعد ساعتين ، وعد أن يجىء الى ناتاشا فى المساء •

فسأله ناتاشا وهى تدفعه الى الخروج :

— هل تجيء حقا ؟

— أتسكين في ذلك ؟ الى اللقاء يا ناتاشا ، الى اللقاء يا حبيبتى ، انت حبيبتى الى الابد • الى اللقاء يا فانيا • • ها • • عفواً لقد خاطبتك بقولى يا فانيا دون أن أتبه الى ذلك • ولكن اسمع يا ايفان بتروفتش ، لماذا لا تتخاطب بصيغة المفرد ونحن صديقان • فلتتخاطب بعد الآن بصيغة المفرد • •

— موافق •

— الحمد لله • لقد راودتنى هذه الفكرة مائة مرة • ولكننى لم اجرؤ على « مفاتحتكم » فيها • هاءنا ذا • أخاطبكم • مرة أخرى بميم الجمع • ذلك ان الاقتصار على كاف الخطاب صعب جداً • لقد عبر تولستوى عن ذلك أجمل تعبير ، حين حدثنا عن شخصين تواعدا على أن يتخاطبا بصيغة المفرد ، ولكنهما لم يظفرا بذلك ، فأخذا يتحاشيان الجمل التى تشتمل على خطاب اصلا • آه ياناتاشا ! لسوف نعيد قراءة كتاب « الطفولة والمراهقة » معاً • انه كتاب رائع جداً •

قالت ناتاشا تطرده وهى تضحك :

— هيا ، هيا ، اسرع • لقد نسى نفسه من شدة الفرح وهو يثرثر •

— الى اللقاء ، سأعود بعد ساعتين •

قال ذلك ، وقبل يدها ، وخرج مسرعاً •

قالت لى ناتاشا والدموع تهطل من عينيها :

— هل رأيت ، يا فانيا ، هل رأيت ؟

مكثت مع ناتاشا حوالى ساعتين ، أحاول أن أواسيها ، الى أن ظفرت باقناعها • لاشك ان لمخاوفها مايررها • ولقد كان صدرى ينبض حين أفكر فى وضعها • كنت أشفق عليها • ولكن ما العمل ؟

وكان يدهشنى اليوشا أيضاً : انه يحبها الآن مثلما كان يحبها من قبل • انه يحبها حباً أَمْلاً بالعذاب ، لما يداخله من ندامة وعرفان بالجميل • الا ان حباً جديداً قد نبت فى قلبه وترسخ • وكان يستحيل على المرء أن يتنبأ بالمصير الذى سيصير اليه هذا كله • كنت أنا نفسى أتشوق الى معرفة كاتيا • ووعدت ناتاشا بأن أهيب لها فرصة التعرف اليها •

واستجابت ناتاشا ، آخر الامر ، لشيء من المرح • وحدثتها فى جملة ما حدثتها عن نللى وماسلوبوف وبوبنوف ، وعن لقائى مع الامير فى منزل ماسلوبوف ، وعن الموعد الذى ضربته لماسلوبوف فى الساعة السابعة •

فاهتمت لهذا الحديث كثيراً • وحدثتها قليلا عن أبويها ، ولكنى سكت عن زيارة أبيها ، وارجأت الكلام عليها الى أن يقع شيء جديد • كان يمكن أن ترعبها فكرة مبارزة بين أبيها وبين الامير • وقد استغربت أيضاً أن يكون الامير على صلة بماسلوبوف ، وأن يكون ماسلوبوف فى شوق الى معرفتها ، رغم ان هذا كله يسهل تعليله بالظرف الراهن •

وعدت الى بيتى فى نحو الساعة الثالثة ، فطالعتنى نللى بوجهها العنيد الوضاء •

الفصل السادس



الساعة السابعة تماماً كنت عند ماسلوبوف •
استقبلني بذراعين ممدودتين وصيحات كبيرة •
كان نصف سكران ، طبعاً ، ولكن الأمر الذي
أدهشني خاصةً هو تلك الأشياء الخارقة التي
أعدها لاستقبالي • لقد كان واضحاً انه ينتظر قدومي • كان هناك سماور
من نحاس أصفر يغلي فيه الماء ، على مائدة مستديرة فرشت بغطاء ناعم •
وكانت الأطباق والاقداح من بلور وفضة وخزف ، تلالاً • وعلى مائدة
أخرى مفروشة بغطاء آخر لا يقل عن الأول جمالاً ، كان هناك أصناف
من جيد الحلوى ، والمرب ، وأشربة من كيف ، ومعقود ، وفاكهة
مسكرة ، وعصير مجمد ، ومرببات فرنسية ، وبرتقال ، وتفايح ، وجوز •
ولوز ، وفستق • • كانت المائدة معرضة فاكهة ، وعلى مائدة ثالثة مخبئة
تحت غطاء نوصع الياض صُفت أنواع من المقبلات : الكافيار ، والجبين ،
وفطائر اللحم ، والنقانق ، والجامبون المدخن ، والسماك ، وصُفَّ جيش
عمرم من زجاجات الخمر بأنواعه المختلفة وألوانه الجميلة : الأخضر ،
والأصهب ، والأحمر ، والأصفر •

وفي ركن من الأركان ، على منضدة صغيرة مفروشة بغطاء أبيض ،
وضع اثنان فيهما ثلج وزجاجتان من الشمبانيا تبردان ، وعلى المائدة أمام
الاريكة تبختر ثلاث زجاجات : زجاجة سوترون ، وزجاجة شاتولافيت ،
وزجاجة كونيأك ، وهي في الخمر مما غلا ثمنه ، يجيئون به من قبو

اليسيف • كانت الكسندرا سيمينوفنا جالسة الى مائدة الشاي ، وقد عنت بزيتها على انها بسيطة ، فوفقت فى ذلك كثيراً • كانت تعرف أن تصفيف شعرها على هذه الصورة يناسبها ، وكانت معتزة بذلك اعتزازاً واضحاً • فلما دخلت نهضت تستقبلنى بشيء من الاختيال • وكان الرضى والفرح يلعبان فى وجهها النضر • وكان ماسلوبوف جالساً ، وقد تدثر بثوب رائع تحته ملابس نضرة أنيقة ، واتعل خفين صينيين جميلين • كان قميصه مزخرفاً ، له أزرار مما يرى فى أحدث الازياء • وقد صفف شعره ، ودهنه ، وفرقه من جانب ، على ما كان رائجاً فى ذلك الحين • بهت حين دخلت ، وبلغت من ذلك اتى جمدت فى وسط الغرفة بلا حراك ، أنظر تارة الى ماسلوبوف ، وتارة الى الكسندرا سيمينوفنا التى مضى بها الفرع الى حد التشوة •

وهتفت أخيراً فى قلق :

— ما هذا يا ماسلوبوف ؟ هل عندك سهرة ؟

فأجابنى بصوت فخم :

— لا ، لا ، اتنا لا نتظر أحداً غيرك •

— ولكن ، ما هذا ؟ (قلت ذلك وأنا أشير الى المآكل) ان هذا يكفى

لاطعام فيلق بكامله •

فأضاف ماسلوبوف يقول :

— ولاشرايه خاصة • نسيت الشيء الاسامى •

— أكل هذا من أجلى وحدى ؟

— ومن أجل الكسندرا سيمينوفنا أيضاً • هى التى أرادت أن ترتب

هذا الترتيب •

فهمت الكسندرا سيمينوفنا ، وقد احمر وجهها ، دون أن تفارقه

معانى الرضى :

- ها ها •• كنت أتوقع هذا الكلام • ألا يمكن أن يستقبل المرء ضيفاً من لضيوف استقبلاً لائقاً ! لابد أن يجد فوراً ما يأخذه على •

- تصور انها منذ الصباح ، منذ الصباح ، منذ علمت انك آت الينا هذا المساء ، أخذت تتحرك وتضطرب •

- انه يكذب • لم يقل لى ذلك فى هذا الصباح ، بل مساء أمس ؟ حين عدت أمس مساءً ذكرت انه سيأتى الينا يقضى السهرة معنا •
- لا بل انت سمعت خطأ •

- غير صحيح أبداً • لقد قلت الحقيقة وأنا لا أكذب • ثم ، لماذا لا نستقبل ضيفاً من الضيوف استقبلاً حسناً ؟ اتنا نعيش هنا وحدنا ، لا يأتى الينا أحد ، مع ان عندنا كل مايجب • ينبغي ، على الاقل ، أن يعرف الناس اتنا نعيش نحن أيضاً كما يعيش غيرنا •

- ويجب أن يعرفوا خاصة انك ربة بيت من طراز ممتاز ، وانك سيدة منظمة من الطبقة الاولى • تصور يا عزيزى اتنى أقحمت فى هذا أنا أيضاً ! ألبستى قميصاً من فاخر حرير هولانده ، وزينت أكمامه بجميل الازرار ، ودست فى قدمى خفين ، ودثرتى بشوب صينى ، وصفت شعرى ودهنته • ألا تشم رائحة الليمون ؟ لقد أرادت أن ترشنى بالعطر ، ولكننى لم أعد أحتمل ، فتمردت ، وأظهرت من السطوة ما يظهره الزوج لزوجته •

فردت الكسندرا سيمينوفنا تقول وقد اصطبغ وجهها بحمرة شديدة :

- ليست الرائحة رائحة ليمون ، لقد دهنته بأطيب دهن فرنسى يباع فى احقاق صغيرة من مزخرف الخرف • أحكم بنفسك يا ايفان بتروفتش ، انه لا يسمح لى أبدا بأن أذهب الى المسرح أو الى حفلة رقص • انه لايزيد على أن يهدى الى الأتواب ، فماذا أصنع بالأتواب ؟ اتنى أرتديها، وأروح

أَتَنَزَّهَ بِهَا فِي الْغُرْفَةِ وَحْدِي • وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ ، تَوَسَّلْتُ إِلَيْهِ أَنْ يَذْهَبَ بِي إِلَى الْمَسْرَحِ ، وَكَثُرَتْ مِنَ التَّوَسُّلِ حَتَّى وَافَقَ ، فَلَمَّا هَمَمْنَا أَنْ نَخْرُجَ ، رَجَعْتُ أَضْعَ الْحَلِيَّةِ عَلَى صَدْرِي ، فَاتَّهَزَ هَذِهِ الْفُرْصَةَ ، فَمَضَى إِلَى الْخِزَانَةِ ، فَشَرِبَ قَدْحًا ، ثُمَّ شَرِبَ قَدْحًا آخَرَ ، فَإِذَا هُوَ يَسْكُرُ ، فَاضْطَرَرْنَا أَنْ نَقْبَعَ فِي الْبَيْتِ • مَا مِنْ أَحَدٍ يَزُورُنَا ، مَا مِنْ أَحَدٍ ، إِلَّا أَنَا يَأْتُونَ فِي الصَّبَاحِ لِلْأَعْمَالِ ، فَادْعُهُمْ يَتَحَدَّثُونَ ، وَأَنْتَجُو بِنَفْسِي • وَمَعَ ذَلِكَ عِنْدَنَا سَمَاورُ ، وَمَجْمُوعَةٌ مِنَ أَجْمَلِ الْأَقْدَاحِ ، عِنْدَنَا أَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ ، جَاءَتْنا كُلُّهَا هَدَايَا • وَالنَّاسُ يَهْدُونَنَا كَثِيرًا مِنَ الْمُونِ أَيْضًا ، فَقَلَمَّا نَشْتَرِي زُجَاجَةً مِنَ الْخَمْرِ ، وَقَلَمَّا نَشْتَرِي زُجَاجَةً مِنَ الْعَطَرِ ، وَقَلَمَّا نَشْتَرِي شَيْئًا مِنَ الْمَقْبَلَاتِ : لَكِنَّا اشْتَرَيْنَا مِنْ أَجْلِكَ الْفَطَائِرَ وَالْحَلْوَى وَشَرَائِخَ الْجَامِبُونَ • يَحِبُّ أَنْ يَعْرِفَ وَاحِدٌ مِنَ النَّاسِ عَلَى الْإِفْلِ كَيْفَ نَعِيشُ ! ظَلَلْتُ طَوَالَ السَّنَةِ أَقُولُ لِنَفْسِي : حِينَ يَأْتِينَا ضَيْفٌ ، ضَيْفٌ حَقِيقِي ، فَلَسَوْفَ نَرِيهِ كُلَّ هَذَا ، وَلَسَوْفَ نُولِمُ لَهُ وَلِيمَةً ، وَلَسَوْفَ يَهْنِئُنَا النَّاسُ ، وَلَسَوْفَ يَسْرُنَا ذَلِكَ أَيْضًا • لِمَاذَا دَهَنْتُ هَذَا الْأَحْمَقَ ؟ أَنَهُ لَا يَسْتَحِقُّ ! سَيُظَلُّ يَرْتَدِي مَلَابِسَ قَدْرَةٍ • أَنْظُرْ إِلَى هَذَا الثَّوبِ الَّذِي دَثَرْتَهُ بِهِ ، لَقَدْ قُدِّمَ لَهُ هَدِيَّةٌ بَيْنَ الْهَدَايَا • أَلَا تَرَى أَنَهُ أَجْمَلُ مِنْ أَنْ يَرْتَدِيهِ ؟ هَذَا رَجُلٌ كُلُّ مَا يَطْلُبُهُ هُوَ أَنْ يَسْكُرَ ؛ لَسَوْفَ تَرَى أَنَهُ سَيَقْتَرِحُ عَلَيْكَ الْفُودَكَ قَبْلَ الشَّاي •

- صَحِيحٌ • فَلْنَشْرَبْ قَدْحًا مِنَ شَرَابِ الذَّهَبِ ، فَقَدْحًا مِنَ شَرَابِ الْفِضَّةِ ، حَتَّى إِذَا اتَّعَشْتُمْ عَزِيمَتَنَا ، هَجَمْنَا عَلَى أَشْرَبَةِ أُخْرَى •
- أَلَمْ أَقُلْ لَكَ ؟

- لَا تَقْلَقْنِي يَا بَتْنِي الْعَزِيزَةُ ، فَسَتَشْرَبُ أَيْضًا شَيْئًا مِنَ الشَّاي مَعَ الْكُونْيَاكِ ، نَحْبُ صَحَّتِكَ •

فَصَرَخَتْ وَهِيَ تَضْرِبُ يَدًا بِأُخْرَى :

- أَنْظُرْ ، أَنْظُرْ • شَايَ الْمَلِكِ ، ثَمَنُ الرُّطَلِ مِنْهُ سِتَّةُ رُوبَلَاتٍ •

أهداه اليه أحد التجار أول أمس ، يريد أن يشربه مع الكونياك ! لا تطاوعه
يا ايفان بتروفتش ! سأصب لك الشاي ، وسترى أى شاي هو ••
قالت ذلك وفامت الى السماور تشغل نفسها به •

كان واضحاً انهما يريدان أن يستبقياى السهرة كلها • كانت
الكسندرا سيمينوفنا تنتظر أن يزورها أحد منذ سنة بكاملها ، وكانت تنهياً
للاستمتاع بمثل هذه الزيارة فرحة كل الفرح • ولكن ذلك كان لا يدخل
في حساب خططى • فقلت وأنا أجلس :

- اسمع يا ماسلوبوف ، أنا لم أجيء اليك زائراً • هناك أعمال
تنتظرنى • لقد قلت انت نفسك ان هناك أموراً يجب أن تفضى بها الى ••

- نعم ، نعم ، ولكن الاعمال شىء ، والحديث الصداقى شىء آخر •
- لا يا عزيزى ، لا تعتمد على هذا ، سأودعك فى الساعة الثامنة.

والنصف • انتى مشغول • لقد وعدت •••

- لا أصدق شيئاً مما تقول •• وكيف تتصرف معى هذا التصرف ؟
وكيف تتصرف هذا التصرف مع الكسندرا سيمينوفنا ؟ أنظر اليها ، ألا
ترى انها صنعت مما تقول ؟ فيم حملت نفسها عناء دهنى بالطيب اذا كنت
مستركنا ؟ وهلا تذكرت انتى أتحمل رائحة الليمون من أجل هذه
الزيارة ؟

- كفاك مزاحاً يا ماسلوبوف • وانى لأحلف لاسكندرا سيمينوفنا
انتى. سأجىء اليكم أتناول العشاء معكم فى الاسبوع المقبل ، بل يوم الجمعة
اذله ~~شراهم~~ • اما اليوم ، أيها الاخ ، فقد قطعت على نفسى عهداً ، أو قل
ببساطة أن على أن أذهب الى مكان ما • فما هى الاشياء التى تريد أن
تفضى بها الى ؟

فصرخت الكسندرا سيمينوفنا تقول بصوت حزين خجلان ، وهى
تمد الى قدحا من شايبا الرائع ، وتكاد تبكى :

— اذن لن تبقى الا الى الساعة الثامنة والنصف !

فأجاب ماسلوبوف بقوله :

— اطمئنى يا صغيرتى • هذا الكلام كله هراء • سيبقى • قل لى يا فانيا ، أين تذهب دائما ؟ ماذا وراءك ؟ هل يمكن أن أعرف ؟ انى أراك كل يوم تركض من هنا الى هناك ، أنت لا تعمل ؟ ••

— ما شأنك انت فى هذا ؟ على اتنى قد أشرح لك الامر ذات يوم • ولكن قل لى الآن : لماذا جئت الى بيتى أمس مع اتنى ذكرت لك بنفسى ، وانت تذكر ذلك ، اتنى لن أكون فى البيت ؟

— تذكرت ذلك فيما بعد ، وكنت قد نسيتہ أمس • اتنى أريد فعلاً أن أتحدث اليك فى أمر من الامور ، ولكننى أحرص خاصة على أن أرضى الكسندرا سيمينوفنا • لقد قالت لى : « الآن وقد وجدت صديقا ، فلماذا لا تدعوه الى زيارتنا ؟ » • وظلت تصدع رأسى بك أربعة أيام برمتها • لا شك ان الله سيغفر لى جميع ما ارتكبت من آثام جزاء راحة الليمون هذه التى أتحمّلها • قلت فى نفسى : اتنا نستطيع أن نقضى معا سهرة صداقية • فعمدت الى هذه الحيلة الحربية : كتبت لك أقول ان هناك أمراً خطيراً يستدعى أن تجيء الىّ ، فان لم تجيء لحقك ضرر كبير •

فرجوته ألا يعتمد بعد الآن الى مثل هذه الحيل ، وأن يسلك معى سبيل الصراحة • على ان ما قاله لم يقنعنى كل الاقناع •

— ولماذا هربت منى اليوم ؟

— اليوم كان ينتظرنى عمل حقا • لم أكذب أبداً •

— مع الامير ؟

فسألتى الكسندرا سيمينوفنا ، بصوت متلطف :

— هل أعجيك مذاق الشاي ؟

كانت تنتظر منذ خمس دقائق أن أتني على شايبها ، ولكنتي لم أفطن .
الى ذلك ، فقلت :

— عظيم يا الكسندرا سيمينوفنا ، رائع • لم أذق في حياتي مثل .
هذا الشاي طيب مذاق •
فاحمر وجهها سروراً ، وأسرعت تصب لي قدحا آخر •
صرخ ماسلوبوف يقول :

— الامير ؟ ان هذا الامير ، يا عزيزي ، قاذورة ، انه لص • اسمع ،
سأقول لك شيئاً : أنا أيضاً لص ، ولكنتي أستحي أن أكون مثله ، أخجل .
أن أكون مثله • ولكن كفى ، كفى • ذلك كل ما أستطيع أن أقوله عنه •
— لكأنتي تعمدت أن أجيء اليك لاسألك عنه ، بين ما أحب أن
أسألك عنه • ولكنتي أرجىء الآن ذلك الى وقت آخر • لماذا ذهبت أمس
الى بيتي أثناء غيابي تحمل حلوى الى هيلين وترقص أمامها ؟ وعمّ حدثتها
أثناء ساعة ونصف ساعة ؟

فقال ماسلوبوف ، وهو يلتفت الى الكسندرا سيمينوفنا فجأة :

— هيلين صبية صغيرة في الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمرها ،
تسكن الآن عند ايفان بتروفتش •

ثم أضاف الى ذلك وهو يلوح باصبعه :

— انتبه يا فانيا ، انتبه ، ألم تر كيف اصطبغ وجهها بحمرة شديدة .
حين سمعتك تقول انني حملت حلوى الى فتاة صغيرة لا تعرفها : لقد صار
خداها بلون الجمر ، وأخذت ترتعش من شدة الاضطراب ، كأنتا أطلقنا
رصاصاً من مسدس • أنظر الى هاتين العينين الصغيرتين كيف تقدحان .

شرراً • عبثاً تحاولين اخفاء هذه الحقيقة يا الكسندرا سيمينوفنا ، وهى انك
غيرة شديدة الغيرة • لولا اننى شرحت لها ان هيلين صبية فى الحادية
عشرة من عمرها ، لشدتنى من شعرى فوراً ولما أنقذتنى منها رائحة
الليمون •

— ولن تنقذك !

قالت ذلك وونبت وثبة واحدة فاذا هى أمامنا ، وقبل أن يتسع
وقت ماسلوبوف لحماية نفسه أمسكت بشعره وأخذت تشده شداً قوياً •
— خذ ، خذ ، اياك أن تقول أمام ضيف اننى غيرة ، اياك أن
تقول هذا !

كان وجهها بلون الارجوان ، ورغم انها كانت تهزل ، فقد اهتز
ماسلوبوف حقاً •
وأضافت تقول بلهجة الجدة ، وهى تلتفت الى :
— انه يقول أنواعاً وأنواعاً من الكلام الوسخ •
— هل رأيت يا فانيا ؟ هذه حياتى • • لا بد لنا ، نحتماً ، من شىء
من الفودكا •

قال ذلك بلهجة حازمة ، وهو يعيد ترتيب شعره ويسرع الى
القنية • ولكن الكسندرا سيمينوفنا سبقته ، فوثبت الى المائدة ، وصبت له
بنفسها قدحاً صغيراً فمدته اليه وهى تضرب خده ضرباً لطيفاً متودداً •
فألقى على ماسلوبوف نظرة سريعة تفيض بالخيلاء ، وطقطق بلسانه ،
وأفرغ كأسه الصغير فى جوفه مزهواً •

ثم بدأ يقول ، وهو يجلس الى جانبى على الأريكة :

— اما الحلوى فيصعب شرح امرها • كنت اول امس سكران ،

فاشتريتها من عند احد البقالين ، لا ادرى لماذا ! قد يكون سبب ذلك اننى اردت دعم الصناعة الوطنية والتجارة الوطنية ، لا أعرف على وجه الضبط . ولكتنى اتذكر اننى كنت اسير فى الشارع ، واننى سقطت فى الوحل ، واننى اخذت اشد شعري ، وأبكى ، لشعورى بأننى لا أصلح لشيء . وطبعى اننى نسيت الحلوى ، فبقيت فى جيبي ، الى اللحظة التى جلست فيها على الارىكة فى بيتك . واما الرقص فهو يرجع دائماً الى حالة السكر : لقد كنت امس ثملاً ، وحين اكون ثملاً ، يتفق لى ان ارقص ، اذا كنت راضياً عن حظى . هذا كل شيء ، اللهم الا ان تضيف اليه ان تلك اليتيمة قد ايقظت الشفقة فى قلبى ، وانها لم تشأ ان تتكلم معى ، كأنها غاضبة ، فأخذت ارقص لاجعلها مريحة ، وأعطيتها الحلوى لأسليها . - ألم تفعل ذلك رغبةً فى شرائها ، رغبةً فى ان تعرف منها شيئاً ؟ اعترف بذلك صراحة : لقد تعمدت ان تأتى اثناء غيابى ، لتحدث اليها فى خلوة ، ولتعلم منها شيئاً ، أليس كذلك ؟ انا اعرف انك بقيت معها ساعة ، وانك قلت لها انك تعرف امها ، واعرف انك طرحت عليها اسئلة كثيرة .

فغمز ماسلوبوف بعينه ، وضحك ضحكة صغيرة دنيئة . وقال : - كان يمكن ان يكون ذلك فكرةً حسنة . . ولكن لا يا فانيا ، ليس الأمر كذلك . وبالنسبة ، لماذا لا اطلعك على الموضوع حقاً ؟ ولكن ليس الامر كذلك . اسمع ايها الصديق القديم : رغم اننى ثمل ، على عادتى ، فيجب ان تعرف ان فيليب فيليتش لن يخدعك ابداً بقصد سيئ ، اقول ذلك واعنيه : ان فيليب فيليتش لن يخدعك بقصد سيئ . - وبدون قصد سيئ ؟

- وبدون قصد سيئ ! ولكن مالنا ولهذا الكلام . فلنشرب أولاً ، وبعد ذلك نعود الى الاعمال !

قال ذلك ثم أضاف بعد ان شرب :

— لم يكن لبوينوفا تلك اى حق فى الاحتفاظ بهذه الطفلة • لقد
تحررت الأمر • لم يكن ثمة تبني ولا ما يشبه ذلك • كانت الأم مدينة لها
بمال ، فأخذت الطفلة • وبوينوفا ، رغم انها لصة ورغم انها حقيرة ، فهي
غنية كسائر النساء • لقد كان للمتوفاة جواز سفر ، وكان كل شيء اذن
واضحاً • ويمكن ان تسكن هيلين عندك ، ولكن اذا جاء اناس طيبون
كرماء ، يعيشون فى جو اسرة ، فضموها اليهم ، ليتعهدوا تربيتها ، كان
فى ذلك خير لها • ولتبق معك بانتظار ذلك • هذا ممكن • سأدبر لك
الامر كله • ولن تجرؤ بوينوفا على ان تحرك ساكناً • لم استطع ان
اعرف اشيء دقيقة عن الأم • كل ما عرفته انها كانت ارملة ، وان اسمها
سالتسمان •

— صحيح • هذا ما قالته لى نللى •

— نعم • ذلك كل شيء •

قال ذلك ، ثم اضاف يقول بشيء من الابهة :

— لى رجاء اوجهه اليك ، وآمل ان تلييه • حدثنى بمزيد من
التفصيل عما عمله : اين تذهب ؟ اين تقضى اياما بكاملها ؟ انا اعرف هذا
بعض المعرفة ، ولكننى اريد مزيداً من الدقة •

ادهشتى لهجة الابهة هذه ، بل اقلقتى • فقلت :

— لماذا ؟ فيم يفيدك ذلك ؟ وما معنى لهجة الاحتفال والابهة هذه ؟

— اليك الموضوع بكلمتين : انتى اريد ان اخدمك • انظر
يا صديقى ، لو اردت ان امكر بك ، لو اردت ان احتال عليك ، لعرفت
كيف احمالك على الكلام دون حذر • لماذا تظن انتى امكر بك ؟ لقد
ادركت انك تظن بى ذلك من سؤالك عن الحلوى منذ قليل • اسمع ،

لئن اصطنعت لهجة الجد والأبهة ، فانتى لم أفعل ذلك لأنتى أفكر فى .
مصالحي ، بل فى مصالحك انت . فلا تشك فى ، بل أجبنى ، وقل لى
الحقيقة ..

- فى اى امر تريد ان تخدمنى ؟ اسمع يا ماسلوبوف : لماذا
لا تحدثنى عن الامير ؟ انتى فى حاجة الى معرفة بعض التفاصيل . فى
هذا تستطيع ان تخدمنى .

- عن الامير ، هم .. ليكن ذلك . سأكلمك بلا لف ولا دوران .
انتى بصدد الامير انما طرحت عليك تلك الاسئلة .
- كيف ؟

لقد لاحظت انه يهتم قليلاً بشئونك . سألتى عنك ، بين ما سألتى.
عنه من امور . اما كيف عرف انتى اعرفك وانك تعرفنى ، فذلك شىء
لا يعنىك . المهم ان عليك ان تحذر منه . انه يهوذا الحائن ، بل هو اسوأ
من ذلك . ولهذا ، حين لاحظت انه يريد ان يمد اليك شباكاً ، ارتعشت
من الخوف . على انتى لا اعرف من الامر شيئاً . لذلك اطلب اليك ان
تطلعنى على الموضوع ، كى استطيع ان ارى رأياً .. ومن اجل هذا انما
دعوتك اليوم .. هذا هو الامر الهام ، بسطته لك بصراحة ..

- قل لى على الاقل شيئاً ، قل لى على الاقل لماذا يجب ان احذر من
الامير ؟

- اسمع يا صديقى ، انتى اتولى القيام ببعض الاعمال فى بعض
الاحيان ، وأدع لك ان تحكم فى الامر بنفسك : لو كنت ثرثاراً آكان
يثق الناس بى ؟ فكيف استطيع اذن ان اقص عليك كل شىء ؟ فلا تؤاخذنى .
اذا انا تكلمت بوجه عام ، بوجه عام جداً ، لا لشيء الا لأبرهن لك على
انه شخص دنىء . ولكن حدثنى انت اولاً .

فكرت فى الأمر فرأيت ان ليس هناك شىء أخفيه عن ماسلوبويف •
ان قصة ناتاشا ليست سرّاً ، ثم ان من الممكن ان يفيدها ماسلوبويف فى
شىء ، وقد كتمت طبعاً بعض الأمور ما امكنتى الكتمان • فكان ماسلوبويف
يصغى باهتمام خاص الى كل ما يتصل بالأمير ، حتى انه استوقفنى فى غير
موضع ، لي طرح علىّ بعض الأسئلة ؛ وهكذا رويت له القصة بغير قليل
من التفصيل ، متحدثاً خلال نصف ساعة على وجه التقريب •

فلما انتهيت قال ماسلوبويف :

— هم •• هذه فتاة ذكية • ولئن لم تكن تقديراتها صحيحة تماماً
فيما يتصل بالأمير ، لقد أحسنت حين ادركت منذ البداية من هو هذا
الرجل ، وأحسنت حين قطعت كل علاقة • انها لفتاة بأسلة ، ناتاليا
نيقولايفنا هذه ! وهاءنا ذا اشرب نخب صحتها ! (قال ذلك وافرغ
كأساً) • ليس يكفى المرء ان يكون ذكياً العقل حتى لا يُخدع ، بل
لا بد له ايضا من قلب حسّاس • وقد صدقها قلبها ، فلم تخطئ • الحدس •
ان قضيتها خاسرة طبعاً • فالأمير سيصعد ، وألوشا سيهجرها • ولكن
الشخص الوحيد الذى أشفق عليه هو اخنيف الذى يدفع لهذا اللص
الحقير عشرة آلاف روبل ! من ذا الذى اهتم بقضاياهم ، من ذا الذى لاحق
الدعوى ؟ أراهن انه تولى ذلك كله بنفسه ! هه •• يا لهؤلاء الناس الذين
تفيض قلوبهم بالشهامة والحماسة • انهم جميعاً كذلك ! لا يصلحون
لشىء ! ما هكذا يؤخذ الأمير ! لو علمت بالامر ، لدلتته على واحد من
أولئك المحامين الصغار •• هه ••

قال ذلك وضرب المائدة بيده أسفاً • فقلت :

— والآن حدثنى عن الأمير •

فقال :

— انك لا تتكلم الا عن الأمير ! ماذا استطيع ان اقول عنه ؟ يؤسفنى

أنتى طرحت هذا الأمر على بساط البحث • ان كل ما أردته هو ان
أحذرك من هذا النذل اللثيم ، أن أحرك من سلطانه ان صحَّ التعبير •
ان كل من يتصل به يصبح فى خطر • فكن على حذر من أمرك • هذا
كل شيء • أكنت تظن أنتى سأكشف لك عن أسرار باريز ؟ انك لروائى
حقاً ! ماذا أقول عن لص دنىء ؟ كل ما أستطيع ان أقوله هو انه لص
دنىء ، لا اكر من ذلك ولا اقل • اليك مثلاً هذه القصة من قصصه
الصغيرة ، سأرويها لك طبعاً دون ان اذكر اسماء البلدان ، ولا اسماء
الاشخاص ، ودون أن أحدد التواريخ تحديداً دقيقاً • انت تعلم ان هذا
الامير ، فى ايام شبابه ، حين كان مضطراً ان يعيش من راتب الوظيفة ،
قد تزوج ابنة تاجر غنى • فكان يسيء معاملة هذه المرأة • وأحب ان
ألفت نظرك يا صديقى ، رغم ان ذلك ليس مدار الحديث الآن ، الى ان
هذا الامير قد ظل طوال حياته يقوم بأعمال من هذا النوع • اليك مثلاً
آخر : لقد سافر الى الخارج ، وهناك •••

— انتظر يا ماسلوبوف ؟ عن اية سفرة من سفراته نتكلم ؟ فى اية
سنة ؟

— منذ تسعة وسبعين عاماً على وجه الضبط !••• وهناك ، اغرى فتاة
أخرى من الفتيات ، فاختطفها من أبيها ، ومضى بها الى باريس • وانتظر
كيف جرت حوادث القصة • كان ابو الفتاة يملك مصنعا ، او يساهم فى
مشروع من هذا القبيل ، لا أدري على وجه الدقة ••• فما أقصه عليك انما هو
استنتاجات خاصة ، واستدلالات استمدتها من معلومات اخرى • مكر الامير
بالرجل ، فحشر نفسه فى أعماله ، وخدعه خداعاً تاماً ، فاقترض منه مالا ،
لقاء اوراق تثبت عليه هذا الدين • ولكن الامير كان يريد ان يقترض
المال دون ان يرده ، كان يريد ان يسرق وكفى • وكان للرجل العجوز
ابنة هى آية من آيات الجمال ، وكانت هذه الابنة تحب فتى مثالياً كأنه شيللى ،

فتى شاعراً يتعاطى التجارة فى الوقت نفسه ، فتى حالماً ، او قل بكلمة واحدة فتى المانياً وكفى .. كان اسمه بيغر كوخن .

— بيغر كوخن ؟

— قد لا يكون اسمه كذلك ، ولكن دعنا منه الآن ، ليس مدار الحديث عليه . المهم ان الامير ما زال بالفتاة حتى وقعت فى غرامه وجنت حبا به . وكان هو يريد امرين : اولهما الفتاة ، وثانيهما الاوراق التى تثبت دين العجوز عليه . وكانت مفاتيح جميع صناديق العجوز فى عهدة الفتاة ، وكان العجوز يحب ابنته حب العباداة ، ولا يريد أن يزوجهها ، ويفار من جميع من يتقدمون اليها ، ولا يتصور ان فى وسعه ان يفصل عنها ؟ وكان قد طرد بيغر كوخن ، الفتى الانجليزى الطريف !

— الانجليزى ؟ ولكن اين وقع هذا ؟

— قلت انه انجليزى من قبيل التمويه ، وهاءنت ذا تمسك رأساً بتلايىي . لقد وقع ذلك فى سانتافى دو بوجوتا ، اللهم الا ان يكون قد وقع فى كراكوفيا ، والارجح انه وقع فى امارة ناسو .. الا تعرف ناسو ؟ اتنا نرى اسمها على زجاجات ماء سلتس .. نعم وقع ذلك فى ناسو . هل يكفيك هذا ؟ المهم ان الامير قد أغرى الفتاة ، فانتزعها من ايها ، واضطرها بشدة الحاحه الى سرقة بعض الاوراق . هل ترى الى الحب اى مدى يبلغ يا فانيا ؟ كيف يمكن ، يارب ، ان نقول انها كانت فتاة شريفة نبيلة مهذبة ! ولكن لعلها كانت جاهلة بكل ما يتصل بالورقيات من شئون ، . وكانت لا تخشى الا شيئاً واحداً : هو أن يلغنها أبوها . فعرف الامير كيف يداورها فى هذا الامر ايضا ، فوقع لها تعهداً قاطعاً شرعياً بأنه سيتزوجها ؛ وبذلك أوهمها بأنهما سيسافران فى نزهة الى حين ، حتى اذا هدأ غضب أبيها ، عادا زوجين ، وعاشوا هم الثلاثة معاً الى الأبد . فهربت الفتاة معه ، ولغنها أبوها ، ثم أقلس ، وهجر

فاورملك تجارته ، وهجر كل شيء ، ولحق بالفتاة الى باريز • لقد كان مولتها بها الى حد الجنون •

— انتظر ، أى فاورملك تعنى ؟

— أعنى الرجل الآخر ! ماذا سمينا منذ قليل ؟ فاورباخ •• أو بيفر كوخن ، كما تريد •• وطبعى ان الامير كان لا يرغب أبداً فى أن يتزوج الفتاة ، والا فما عساه يقول للكوتيسة ؟ وما عساه يقول للبارون بوموثيكن ؟ كان لا بد اذن ان يخدعها • وهذا ما فعله ، وقد فعله بوقاحة لا نظير لها : كان يكاد يضربها •• ودعا بيفر كوخن الى زيارتهما عامدا ، فكان هذا يجيء اليهما من حين الى حين ، واصبح صديق المرأة ، فكانا يبكيان ليالى برمتها ، ويتوجعان مما آلا اليه من شقاء : كانا طفلين حقاً • لقد دبر الامير ذلك كله عامداً ، ففاجأهما معا ذات يوم ، فى ساعة متأخرة من المساء ، فادعى انهما على علاقة آثمة ، واخذ يشاجرهما ، وقال انه رآهما بعينى رأسه ، ثم طردهما كليهما شر طردة ، وسافر هو فى رحلة الى لندن • كانت المرأة يومئذ توشك ان تلد ، فما انقضى على طردها الا زمن يسير ، حتى ولدت •• بنتا •• اقصد ابناً •• سمته فولوديا • وكان بيفر كوخن اشيبه • وسافرت مع بيفر كوخن • ولم يكن الفتى يملك الا موارد ضئيلة • وطافت معه سويسرا ، وايطاليا ، وجميع البلاد الشعرية • وكانت لا تفتأ تبكى ، وكذلك هو ••• وانقضى على هذه الحال عدد من السنين • وكبر الصبى • أما الامير فكان يمكن أن تسير الامور كلها على ما يجب ، لولا نقطة سوداء هى انه لم يستطع أن يسترد من المرأة تلك الوثيقة التى يتعهد فيها بالزواج • لقد قالت له وهى تركه : • لقد سرقتنى ، أيها الجبان ، ولوثت شرفى ، وهأنت ذا تهجرنى ، وداعاً ! ولكننى لن أرد اليك تعهدك ؟ لا لأننى أرغب فى أن أتزوجك أبداً ، بل لأنك تخاف من هذه الوثيقة • سأحتفظ بها الى الابد • ، الخلاصة انها

غضبت غضباً شديداً ، اما الامير فقد احتفظ بهدوئه • انه ليسعد هؤلاء
 اللاوباش أن يكون خصومهم « أناساً شرفاء » • فان هؤلاء الشرفاء يسهل
 خداعهم ، حتى اذا اكتشفوا انهم 'خدعوا' ، اعتصموا بنوع من الاحتقار
 المتكبر ، بدلاً من أن يلجأوا الى القانون ، اذا كان ذلك في الامكان •
 فهذه المرأة مثلاً لاذت بازدراء متطرس ، وكان الامير يعلم ، رغم
 احتفاظها بالوثيقة ، انها تؤثر أن تشق نفسها على أن تتفجع بهذه الوثيقة •
 فظل هادئ البال خلال مدة من الزمن • وقد بصقت هي في وجهه •
 ولكن فولوديا كان على ذراعيها ، فما عسى أن يصير اليه لو ماتت ؟ انها
 لم تفكر في هذا الامر أبداً • وكان برودرشافت يشجعها ولا يفكر في
 هذا الامر كذلك • وكانا يقرءان شيللر • وأخيراً ساءت حال برودرشافت
 وماتت ••

- تقصد بيفركوخن ؟

- نعم ، الى جهنم ! •• أما هي •••

- انتظر ، كم استقرت رحلتهم ؟

- مائتي سنة تماماً • أما هي فقد عادت الى كراكوفيا • فرفض.

أبوها أن يستقبلها ، ولعنها ، وماتت ، فرسم الامير على نفسه اشارة
 الصليب فرحاً • كنت هنالك ، وشربت هيدروميل ، فكان يسيل على
 شاربى ولا تدخل منه في فمي قطرة •• فلنشرب أيها الأخ !

- أظن انك انت الذى تتولى الاهتمام بهذا الامر من أجله.

يا ماسلوبوف ؟

- هل تحرص على أن أتولاه حتماً ؟

- ولكننى لا أرى ماذا تستطيع أن تفعل !

- اسمع ، حين عادت الى مدريد ، بعد غياب عشر سنين ، وقد.

عادت باسم مستعار ، كان يجب الحصول على معلومات عن برودرشافت ••

وعن العجوز • كان يجب أن نعلم هل عادت حقاً ، أين هو الطفل ، هل ماتت ، هل تحمل واثق الخ •• الى غير نهاية •• ثم هناك شيء آخر • يا له من رجل حقير ! حذار منه يا فانيا • اما ماسلوبوف ، فإليك ما يجب أن ترى فيه من رأى : لا يذهب بك الظن أبداً الى انه نذل ! و به نذلًا (وأنا أعتقد ان جميع الناس كذلك) ، فانه ليس عدوك • صحيح اننى الآن سكران ، ولكن اسمع : اذا خطر ببالك فى ذات يوم قريب أو بعيد ، اذا خطر ببالك الآن أو فى السنة المقبلة ، ان ماسلوبوف قد مكر بك (أرجوك ، لا تنسى كلمة « مكر ») فاعلم ان ذلك يكون بغير سوء نية • ان ماسلوبوف يسهر عليك • فلا تدع للشكوك سيلاً الى نفسك ، بل تعال اليه ، وابسط له أمرك بصراحة ، كأنه أخوك وكأنك أخوه • ألا تريد أن تشرب ؟

— لا •

— أتناكل شيئاً ؟

— لا ، أيها الأخ ، اعذرني •

— اذن فاذهب ، الساعة الآن هى التاسعة الا ربعا • كفاك تكبراً •
لقد آن أن تمضى •

— ماذا ؟ كيف ؟ انه يسكر ثم يطرد ضيوفه • انه دائماً كذلك •
يا لك من وقع !

بهذا صرخت الكسندرا سيمينوفنا ، وهى تكاد تبكى •

— لا تخطئى المخلل بالمناشف ، يا ألكسندرا سيمينوفنا • سنبقى معاً ، وستغازل • اما هو ، فهو جنرال • يا فانيا ، لقد كذبت ، لست جنرالاً • اما أنا فوغد • أنظر الى حالتى الآن ! ما أنا اذا قورنت بك ؟ اعف عني يا فانيا ، لاتسىء الظن فى ، واسمع لى ان ••

قال ذلك وتناولنى بذراعيه وأخذ يبكى ، فنهضت لأخرج ، فقالت
الكسندرا سيمينوفنا يائسة :

— وأنا الذى حضرت العشاء ! ولكنك متجئ يوم الجمعة ، أليس
كذلك ؟

— سأجئ يا الكسندرا سيمينوفنا ، أعدك بهذا •

— قد تشمئز من رؤيته سكران هكذا • ولكن لا تحتقره يا ايفان
بتروفتش ، انه طيب القلب ، انه كما تعلم طيب القلب جداً • • وهو يحبك
كثيراً • لقد أصبح لا يحدثنى الا عنك ، ليل نهار • واشترى لى كتبك •
لم أقرأها بعد • سأبدأ ذلك غداً • وكم يسرنى أن تجئ إلينا • انتى
لا أرى أحداً ، فليس يزورنا أحد • عندنا كل شيء ، ونبقى وحدنا •
لقد استمعت اليوم الى كل ماقلته • • كان كلاماً جميلاً • • اذن • • الى
يوم الجمعة •

الفصل السابع



أعود الى بيتي • لقد أثر فيّ كلام ماسلوبوف
تأثيراً شديداً •

خطرت ببالي خواطر كثيرة • • فلما وصلت
الى البيت كان ينتظرني هنالك ، كأنما على عمد ،
حدث هزنى هذا عنيفا كصدمة كهربائية •

كان في باب العمارة التي أسكنها مصباح ، فما ان دخلت الدهليز
حتى وثب عليّ من تحت المصباح وجه غريب ، ما ان رأيته حتى صرخت
جزعاً : وجه مخلوق 'جن جنونه من الذعر فهو يرتعش ارتعاشا
شديداً ، ويتعلق بى صارخا كأنه فاقد صوابه • انها نللى •

هتفت :

— مابك يا نللى ؟ ما الامر ؟

— انه هناك • • فوق • • فى بيتنا •

— من هو ؟ لنذهب اليه ، تعالى معى •

— لا ، لا أريد ، سأنتظر فى حجرة المدخل ، الى أن يخرج • •

لا أريد أن أذهب اليه •

فصعدت الى غرفتى ، وأنا أتبأ بشيء ، فلما فتحت الباب ، لمحت

الامير •

كان جالسا الى المنضدة يقرأ ، أو قل على الاقل كان بيده كتاب

مفتوح ، فلما رآنى هتف يقول بلهجة فرحة :

- ايفان بتروفتش ، يسرنى جداً انك عدت أخيراً • كنت على وشك أن أذهب • لقد تعهدت للكوتيسه اليوم أن أجيء بك اليها ، بعد أن ألحت علىّ فى ذلك الحاحاً شديداً • لقد رجيتى فى ذلك رجاءً حاراً ، فهى فى شوف كبير الى معرفتك • فرأيت أن آتى اليك قبل أن تخرج ، وأن أدعوك ، مادمت قد وعدتني بذلك • وما كان أشد خيبة أملى حين قالت لى خادمته انك لست فى البيت • ولكنتى كنت قد قطعت للكوتيسه وعداً بأن أصحبك اليها ، فقلت : انتظرك ربع ساعة ، وفتحت روايتك ، فاذا أنا أستغرق فى القراءة وقتاً طويلاً • ما هذا يا ايفان بتروفتش ! شيء عظيم ! هل تعلم أنك أسلت من عيني الدموع ؟ نعم لقد بكيت ، مع اننى لا أبكى الا نادراً •

- تريد أن أذهب الى هناك ؟ ولكن يجب أن أعترف لك اننى فى هذه اللحظة •• رغم اننى لا أرجو أحسن من ذلك ••
- ناشدتك الله الاجت ! ما عسى أن يكون موقفى اذا لم تجيء !
اننى أنتظرك هنا منذ ساعة ونصف ساعة ! •• ثم اننى فى حاجة ماسة ، ماسة جداً ، الى التحدث معك ، فى الموضوع الذى تعرفه •• انك تعرف هذا الموضوع كله أكثر مما أعرفه •• فلعلنا ننتهى الى قرار ، لعلنا نصل الى حل ، ما رأيك ؟ فكر فى هذا ؟ أرجوك ؟ لا ترفض أن تجيء معى !

وفكرت فى الامر فوجدت ان علىّ أن أذهب الى هناك عاجلاً أو آجلاً • صحيح ان ناتاشا تقبع الآن وحدها وانها فى حاجة الىّ ، ولكن ألم ترجئى هى نفسها أن أتعرف الى كاتيا فى أقرب فرصة ممكنة ؟ ثم ان أليوشا قد يكون هنالك أيضاً •• كنت أعرف ان ناتاشا لن يهدأ بالها ما لم آتها بأخبار كاتيا ، فقررت أن أذهب ، الا ان نللى هى التى كان يشغلنى أمرها •

قلت للامير وأنا أخرج الى السلم :

- انتظرني قليلاً •

كانت نللى هنالك ، لاطية بركن مظلم •

- لماذا لانريدين أن تدخل يا نللى ؟ ماصنع بك ؟ ما قال لك ؟

- لا شيء •• لا أريد •• لا أريد •• أنا خائفة •

عبثاً حاولت أن أقنعها • فاتفقنا على أن تدخل هي الى الغرفة متى

خرجت أنا مع الامير ، وعلى أن تقفل باب الغرفة بالمفتاح من داخل •

- ولا تسمحى لاحد بأن يدخل ، يا نللى ، مهما يقل لك •

- هل تذهب معه ؟

- نعم •

فارتعست ، وتناولت يدي ، كأنها تود لو ترجوني ألا أذهب ، ولكنها

لم تقل شيئاً ، وقررت أن أسألها عن التفاصيل غداً •

وعدت الى الامير ، فاعتذرت اليه ، وأخذت أرتدى ثيابي • فأكد لي

ألا حاجة بي الى الاسراف في العناية بهندامي ، ولكنه بعد أن نظر الى

من قمة الرأس الى اخمص القدم نظرة فاحصة قال :

- ومع ذلك لا بأس أن ترتدى ملابس أكثر جدة من هذه • أنت

تعرف تلك السفاسف الاجتماعية •• يستحيل أن يتحرر الانسان منها

تحرراً تاماً •• ولن نرى هذا الكمال يتحقق في مجتمعنا قريباً ••

قال جملة الاخيرة هذه بعد أن لاحظ راضياً ان عندي ملابس

جديدة •

وخرجنا •• ولكنني تركته على السلم ، وعدت الى الغرفة ، وكانت

تللى قد تسلمت اليها ، فودعتها مرة أخرى • كانت مضطربة اضطراباً

فعلينا • كان وجهها أذرق من فرط الاضطراب • فشعرت بقلق عليها ،
وحز في نفسي اننى أتركها •

قال لى الأمير وهو يهبط السلم :

— خادمك غريبة الاطوار ! هل هذه البنت الصغيرة خادمك ؟

— لا •• بل هى بنية تسكن عندى الآن •

— انها غريبة الاطوار • أظن انها مجنونة • تصور انها فى اول
الأمر أجابتى بكلام مناسب ، ولكنها ما ان نظرت الىّ ، حتى ارتمت علىّ ،
وصرخت ، وأخذت ترتعش ، وأمسكت بتلابيى •• كانت تريد أن تقول
شيئا ، ولكنها لم تستطع ذلك • وأعترف لك بأننى خفت ، وأوشكت أن
أهرب ، لولا انها سبقتنى الى الهرب ، والله الحمد • لقد شذت • ولكن
كيف تستطيع أن تحتلمها ؟

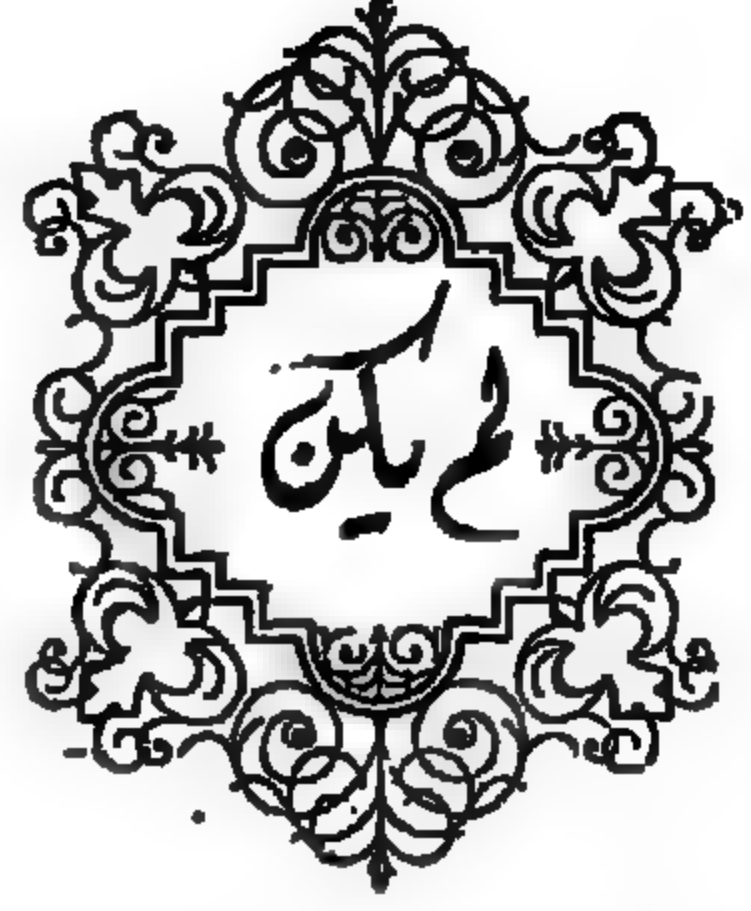
— انها مصابة بالصرعة •

— ها •• اذن لا غرابة •• ما دامت تجيئها نوبات •••

وخطر ببالى أن مجيء ماسلوبوف الى البيت أمس ، رغم علمه بأننى
لست فى البيت ، وزيارتى اليوم لماسلوبوف ، وما رواه لى على مضض
وهو سكران ، وكونه دعانى الى المجيء اليه فى الساعة السابعة ، وما قاله
لى من انه لا يخادعنى ولا يكرى ، وانتظار الأمير هنا منذ ساعة ونصف
ساعة مع انه ربما كان يعرف اننى عند ماسلوبوف ، وكون نللى هربت
الى الشارع منه ، خطر ببالى ان هذا كله يرتبط بعضه ببعض • ان هذه
الامور كلها تستحق التفكير •

كانت غربة الأمير تنتظره عند الباب ، فصعدنا اليها ، ومضت بنا •

الفصل الثامن



الطريق طويلاً ، فان البيت يقع عند جسر
• التجارة ، • لزمنا الصمت في أول الأمر •
وتساءلت : ترى كيف يبدأ الأمير الحديث •
وظننت انه سيمتحنني ، سيجربني ، سيحملني
على الكلام • ولكنه تناول الموضوع رأساً ، وبدأ يقول بلا لف ولا دوران:
- هناك شيء يقلقني كثيراً يا ايفان بتروفتش ، فأريد أن أتحدث عنه
قبل كل شيء ، وان أسألك فيه النصيحة • لقد قررت منذ مدة طويلة أن
أتنازل عن ربح الدعوى ، وان أرد الى اخنياف آلفه العشرة من
الروبلات • فكيف أعمل ؟

قلت في نفسي : • يستحيل أن تجهل كيف تعمل • أتريد أن
تسخر مني ؟ • ثم أجبته بسداجة :
- لا أدري أيها الأمير • أنا مستعد ، فيما يتصل بناتاليا نيقولايفنا ،
أن أمدك بجميع المعلومات اللازمة ، اما فيما يتصل بهذا الموضوع فأنت
أدري مني ، حتماً ، بما يجب أن يعمل •
- لا • لا • بالعكس • انك تعرفهم ، ولعل ناتاليا نيقولايفنا قد
قالت لك رأيها في هذا الموضوع غير مرة • وهذا مايمكن أن يوجهني
ويقود خطاي أكثر من أي شيء آخر • تستطيع أن تعاوطني كثيراً • ان
القضية حرجة الى أبعد حدود الحرج • انني مستعد لأن أتنازل عن جميع
حقوقني ، بل لقد عازمت على ذلك عزمًا قاطعاً ، مهما تكن نتيجة الامور

الآخرى ، هل تفهمنى ؟ ولكن المسألة هى : كيف ، فى أية صورة ، على أى نحو أنفذ هذا التخلّى ؟ ان العجوز رجل متغطرس عنيد • انه قادر على أن يحقرنى جزاء ما أقدم له من يد ، وأن يقذف المال فى وجهى ••

— ولكن قل لى من فضلك : هل تعد هذا المال مالك أم تعده ماله ؟

— أنا ربحت الدعوى ، فالمال اذن مالى •

— ومن ناحية ضميرك ؟

— طبعاً أعده مالى •

قال ذلك وكأن استهتارى به قد قرصه قليلاً • ثم أردف يقول :

— يبدو لى انك لا تعرف القضية معرفة عميقة • أنا لا أتهم العجوز

بأنه خدعنى عن سابق تصور وتصميم ، اعترف لك بذلك ؛ اننى ما اتهمته

بهذا قط • هو الذى أراد أن يعتقد انه أودى فى كرامته • كل ما فى

الامر انه اقترف جريمة الاهمال فى أعمال عهد بها اليه ، والاتفاق

الذى تم بيننا ينص على انه مسئول • على أن هذا أيضاً ليس أهم ما فى

الامر • أخطر ما فى الامر هو تلك المشاجرات التى قامت بيننا ، وتلك

الاهانات التى تبادلناها ؛ أى ان كرامتنا قد جرحت • ولولا ذلك لما

التفت الى بضعة الآلاف التافهة تلك من الروبلات • ولكن لابد انك تعرف

كيف بدأ هذا الامر كله • اعترف لك بأننى أسأت الظن ، وربما كان

سوء ظنى فى غير محله (يومئذ) ، ولكننى لم أدرك ذلك ، فلم أشأ •

وقد استبد بى الغضب وأهاننى العجوز بكلامه القظ ، أن تفلت منى

الفرصة ، فشرعت فى اقامة الدعوى • قد يبدو لك ذلك عملاً غير نبيل

منى • ولست فى معرض تبرئة نفسى ، ولكننى أحب أن ألفت نظرك الى

ان الغضب ، والدفاع عن الكرامة خاصة ، لا يدلان أيضاً على قلة النبلى •

فهما أمران طبيعيان انسانيان • وأعود فأقول لك اننى كنت لا أكاد أعرف

اخمينيف ، فاعتقدت اعتقاداً أعمى بجميع تلك الاشاعات التي تناولت ابنته
 وأليوشا ، لذلك أيضاً ظنت انه سرقتى عامداً متعمداً •• على ان هذه
 الامور تفاصيل لا حاجة بنا الى الدخول فيها الآن • الشيء الاساسى هو
 اننى لا أعرف ماذا يجب أن أعمل • أن أتنازل عن المال وأن أعد شكواى
 عادلة فى الوقت نفسه ، فان معنى ذلك اننى أهدي اليه المال اهداء • أضف
 الى ذلك الموقف الحرج الذى نحن فيه بسبب نيقولايفنا •• ليس يخالجنى
 ريب فى انه سيقذف بالمال فى وجهى ••

— أنظر •• مادمت تقول هذا الكلام ، فمعنى ذلك انه تعده رجلاً شريفاً •
 ويترتب على هذا ان فى وسعك أن تقتنع بأنه لم يسرقك • واذا كان الامر
 كذلك ، فلماذا لا تمضى اليه فتقول له صراحة انك تعد شكواك باطلا ؟
 ان فعلت هذا كان نبلا منك •• ولن يزعج اخمينيف عندئذ أن يسترد ماله •

— هم •• ماله •• هذه هى الصعوبة • ماذا تريد أن أعمل ؟ ان
 أذهب اليه فاقول له اننى أعد شكواى باطلا ؟ ولكن ماعسى يقول الناس
 عندئذ ؟ سيقولون لى : مادمت تعرف ان شكواك باطلا فلماذا قدمتها ؟
 الواقع اننى لا أستحق أن يقول لى الناس هذا الكلام • ذلك اننى كنت
 على حق • أنا لم أقل لاحد ولا كتبت لاحد أن اخمينيف سرقتى ، ولكننى
 مازلت مقتنعا بأنه أسرف فى الاهمال ، وبأنه لا يعرف كيف يسوس عملا
 من الأعمال • وذلك المال هو مالى حقاً ، لهذا يعز على أن أتهم نفسى بأننى
 برفعت دعوى باطلا • الخلاصة ان العجز أراد أن يرى انه أهين ، وانت
 تريد أن تستغفره عن هذه الالهانة ، وهذا كثير بعض الشيء !

— يخیل الى انه حين يريد شخصان أن يتصالحا ••

— هل تظن ان هذا سهل ؟

— نعم ••

— هذا صعب جداً في بعض الأحيان ، خاصة و ...

— خاصة وان ظروفًا أخرى قد أُضيفت الى المسألة • على هذا أوافقك ، أيها الأمير • فيجب أن تحل قضية ناتاليا نيقولايفنا وابنتك ، من جميع النواحي التي تصل بك ، حتى يرتاح العجوزان ، وعندئذ تستطيع أن تفاهم تفاهماً صادقاً مع نيقولا سرجتش • اما وان شيئاً لم يقرر بعد في هذا الموضوع ، فليس ثمة الا سبيل واحد ، هو أن نعرف ببطلان دعواك ، وأن نعرف بذلك صراحة ، وربما كان عليك أن نعلن ذلك على رموس الأشهاد ، أن تعلنه للناس عامة • ذلك هو رأيي ، أقوله لك صراحة ، لانك انت سألتني النصيح ، ولا شك انك لا تريد أن أرواغ معك • وهذا يشجيني على أن أطرح عليك هذا السؤال : لماذا يهملك أن ترد هذا المال الى اخمينيف ؟ اذا كنت تعد دعواك عادلة فلماذا ترد المال ؟ اغفر لي فضولي ، ولكن لهذا صلة بظروف أخرى ••

— ولكن مارأيك ؟ هل انت على يقين من أن اخمينيف سيرفض هدم الآلاف العشرة من الروبلات ، اذا أنا رددتها اليه دون أن أشفعها بأى اعتذار و •• و •• أى تلطيف ؟

— أنا على يقين من ذلك •

قلت هذا وقد احمر وجهي وأخذت أرتجف من فرط الاستياء • كان لهذا السؤال الذى يحمل معنى الشك الوقح ، من التأثير فى نفسى مثل ما يمكن أن يكون لبصقة يصبغها الرجل فى وجهي • أضف الى هدم الاهانة اهانة أخرى ، هي هدم الطريقة الفظة التي قاطع بها كلامي ، دون أن يجيب على سؤالى ودون أن يحفل به • على عادة أبناء طبقة الراقية ، يجب على سؤالى ودون أن يحفل به • على عادة أبناء طبقة الراقية ، كأنما كأنما أراد بذلك أن يشعرني بأننى أسرفت فى رفع الكلفة بيني وبينه ، حين

طرحت عليه سؤالي على هذا النحو • كنت أبغض في أبناء هذه الطبقة تلك الاساليب وأمقتها أشد المقت ، حتى لقد حاولت أن أحرر منها ألبوشا •

أجاب الأمير على اندفاعي ، بفتور ، قائلاً :

- هم •• انت مندفع شديد الاندفاع ، هناك أمور في هذه الحياة تتم على غير النحو الذي تتصوره • ثم اتنى أرى ان في وسع ناتاليا يقولايينا أن تحل هذه المسألة بعض الحل ، فاشرح لها الامر ، عسى أن تسدى إلينا بالنصح •

قلت بلهجة خشنة :

- مستحيل •• انك لم تتنازل فتصفي حتى النهاية الى مابدأت أقوله لك منذ قليل • ان ناتاليا يقولايينا ستعتقد ، اذا انت رددت المال الى أبيها دون صدق ، ودون تلطيف على حد تعبيرك ، ستعتقد انك تحاول أن ترضيها بالمال ، ترضى أباهها عن ابنته ، وترضيها هي عن ألبوشا ، أي ستعتقد أنك تدفع لهما تعويضاً ••

- هم •• أهكذا تفهمتي يا عزيزي ايفان بتروفتش ؟

قال ذلك وأخذ يضحك • لماذا أخذ يضحك ؟

ثم تابع يقول :

- عدا هذا ، هناك أشياء كثيرة يجب أن نتحدث فيها • ولكن الوقت لا يتسع لذلك الآن • غير اتنى أسألك أن تفهم هذا الامر : ان هذه القضية تتصل بناتاليا يقولايينا رأساً ، وان مستقبلها كله مرهون ، بعض الشيء ، بما سوف تقررہ أنا وانت • لذلك ، اذا كنت متعلقاً بناتاشا يقولايينا ، فانك لا تستطيع أن ترفض الحديث معي ، ولو كان شعورك بخوى لا يشتمل على كثير من الحب • هاتجن أولاء وصلنا •• فلنرجى الكلام الى وقت قريب •

الفصل التاسع



بيت الكوتيسة بيتاً جميلاً ، وكان فى أثاث غرفه كثير من الرخاء والنوق ، على خلوه من أى ترف • ومع ذلك كان كل ما فى البيت يدل على أن الإقامة فيه مؤقتة • فهو بيت مريح الى حين ، ولكنه لا يليق أن يكون المسكن الدائم الثابت لأسرة غنية ، لأنه خال من مظاهر الأبهة التى يحرص عليها السادة ، ويعدون لها ضرورة لازمة حتى فى أدق التفاصيل • وكان يروج أن الكوتيسة ستقضى فصل الصيف فى أطيانها (المدمرة المثقلة بالديون) بسمبرسك ، وإن الأمير سيصحبها • كنت قد سمعت ذلك ، فساءلت قلقلًا : ترى ما عسى يصنع اليوشا حين تسافر كاتيا • ولم أكن قد تحدثت فى هذا الى ناتاشا ، فأنسى لم أجزؤ أن أفاتحها فيه ، ومع ذلك قدرت من بعض العلامات انها لا تجهله ، ولكنها تسكت عنه ، وتتألم صامتة ••

استقبلتنى الكوتيسة استقبالا لطيفاً جداً ، ومدت الى يدها برقة وهى تقول انها ترغب فى رؤيتى بمنزلها منذ مدة طويلة • وصبت لى بنفسها قدحاً من الشاي ، من سماور من الفضة جلسنا قربه أنا والأمير وسيد من الطبقة الراقية متقدم فى السن ، متزين ، متصنع بعض التصنع ، يتصرف تصرف الدبلوماسيين • كان واضحاً انهم يولونه احتراماً خاصاً جداً • ان الكوتيسة ، بعد أن رجعت من الخارج ، لم يتسع وقتها بعد لأن تعقد هذا الشتاء فى بطرسبرج علاقات كبيرة ، ولا أن توطد وضعها كما كانت تأمل •

لم يكن هناك ضيوف آخرون ، ولا جاء أحد طوال السهرة • ونظرت
أبحث عن كاترين فيدوروفنا : لقد كانت مع اليوشا فى الغرفة الأخرى ،
ولكنها ما ان علمت بقدومنا حتى جاءت ، فقبل الأمير يدها فى لطف
وتحجب ، وقدمتى الاميرة اليها • وسرعان ما عرّف الأميرُ أحدنا
بالآخر : فتاة شقراء فى ثوب أبيض ، قصيرة القامة ، يعبر وجهها عن
نعومة وهدوء ، عيناها زرقاوان صافيتان ، كما قال لنا اليوشا • ولكن ليس
لها من الجمال الا نضارة الصبا • كنت أتوقع أن أرى فتاة جميلة رائعة
الجمال ، ولكن لم يكن فيها شيء من ذلك • وجهها بيضاوى رقيق ،
وقسماتها دقيقة ، وشعرها كثيف وجميل حقا ، قد صفقته تصفيفا بسيطا ؛
ونظرتها عذبة يقطعة ، ولكنتى لو رأيتهما فى أى مكان لمررت بها دون أوليها
أى التفات خاص ، غير أن هذا هو النظرة الأولى فحسب ، وقد اتسع
وقتى فى ذلك المساء لانعام النظر فيها أكثر من ذلك • مدّت الى يدها
وهى تنظر فى عيني بالحاح ساذج ، دون أن تقول كلمة واحدة • ففاجأتنى
هذه البادرة بغرابتها ، وابتسمت لها بالرغم منى • لقد شعرت على الفور
اننى أمام انسانة صافية القلب • وكانت الكوتيسية تراقبها بكثير من اليقظة •
وبعد أن صافحتنى كاتيا ، تركنتى مسرعة ، ومضت تجلس الى جانب
اليوشا فى الطرف الآخر من الغرفة • وحين حيانى اليوشا قال لى بصوت
خافت : « لن أمكث هنا الا دقيقة واحدة وسأذهب حالا الى هناك » •

كان الدبلوماسى (لست أعرف اسمه وانما أطلق عليه اسم
الدبلوماسى لاسميه بطريقة من الطرق) يتحدث بهدوء ووقار وهو يشرح
فكرة من الافكار • وكانت الكوتيسية تصغى اليه باهتمام • وكان الأمير
يتنسم ابتسامة الموافقة المتملقة • وكان المحدث يتجه بالكلام فى أغلب
الاحيان اليه ، ربما لانه يعده مستمعا جديرا به • صبوا لى الشاي وتركونى
وشائى ، فسررنى ذلك كثيرا • كنت خلال ذلك الوقت ألاحظ الكوتيسية •

وقد أعجبتني في أول الامر ، بالرغم منى ان صح التعبير • نعلها قد تجاوزت مرحلة الصبا ، ولكنني لم أقدر لها أكثر من ثمانية وعشرين عاماً • كان وجهها مايزال نضراً ، ولا شك أنها كانت في الماضي جميلة جداً • كان شعرها الأشقر الاربيد مايزال كثيفاً غزيراً ، وكانت لها نظرة حلوة يمازجها نوع من الطينس والمكر • غير أنها كانت في تلك اللحظة تسيطر على نفسها سيطرة واضحة • وكانت نظرتها تشف أيضاً عن ذكاء ، ولكنها تشف خاصة عن طيبة وفرح • وتراعى لى أن الملامح البارزة في طبعها هي الخفة ، والظماً الى الملذات ، ونوع من أثرة الاطفال • وكانت واقعة تحت سلطان الامير يؤثر فيها تأثيراً كبيراً • كنت أعرف أن قد كانت بينهما علاقة ، وكنت سمعت انه لم يكن ذلك العشيق الغيور أثناء اقامتهما في الخارج ، ولكن يبدو لى (وما يزال يبدو لى حتى الآن) انه لابد أن قد كان بينهما علاقة أخرى مستمرة ، هي نوع من الاضطرار المتبادل الذى يقوم على حساب • • كنت اعلم أيضاً ان الامير قد سئما ، ولكنه لم يقطع علاقته بها • ولعل ما يهيئانه لكاتيا (ولا شك ان المبادهة قد جاءت من الامير) هو الشيء الذى لا يزال يربط احدهما بالآخر • وعلى هذا الاساس انما بنى الامير رفضه للزواج من الكوتيسة التى لاشك انها طالبت به بأن يتزوجها ، فأقنعها بأنه سيساعد على زواج اليوشا بابنتها الجميلة • هذا ، على الاقل ، مااستخرجه من الاقاصيص الساذجة التى قصها على اليوشا ، بعد ان استطاع أن يلاحظ بعض الامور رغم كل شيء • وقد قدرت أيضاً ، بالاستناد الى أقاصيص اليوشا كذلك ، أن الامير كان يخشى الكوتيسة رغم سيطرته الكاملة عليها ، وأن هناك شيئاً يدعو الى الخشية منها • لقد أحس اليوشا نفسه بذلك • وعرفت فيما بعد ان الامير كان يرغب رغبة شديدة فى تزويج الكوتيسة ، وأن هذا من جملة الاسباب التى

تحمله على ارسالها الى أطبائها بمنطقة سميرسك ، عسى ان يجد لها هنالك زوجاً مناسباً •

كنت جالساً أصغى ، وأنا أتساءل كيف يمكننى أن أخلو الى كاترين فيدوروفنا فأكلمها على انفراد بلا ابطاء • كان الدبلوماسى يجيب على سؤال طرحته الكونتيسة ، سؤال يتناول الوضع الراهن ، والاصلاحات التى نُشرع فيها : أيجب أن نخشاها أم لا ؟ فتكلم كثيراً ، وتحدث حديثاً طويلاً ، هادئاً ، كأنه رجل من رجال السلطة • كان يشرح فكرته شرحاً مرهفاً بارعاً ، ولكن فكرته هذه كانت مثيرة • كان يلح خاصة على أن روح الاصلاح سرعان ما تستفر عن بعض النتائج ، وأن الناس سيعودون الى صوابهم حين يرون تلك النتائج • ان روح الاصلاح هذه ستختفى من المجتمع (أعنى من قسم من المجتمع ، طبعاً) ، فسيكون عند التطبيق أنهم اقترفوا خطأ ، وسيعودون الى النظام القديم بمزيد من القوة • وقال ان تجربة هذه الاصلاحات ستكون مفيدة على كل حال ، رغم أنها محزنة ، ذلك لأنها ستبين أن المحافظة على الوضع القديم واجبة ، ولأنها ستأتى بمعلومات جديدة ، ولذلك يجب أن يتمنى المرء منذ الآن أن يمضوا بها الى آخر حدود الطيش ، وختم كلامه بقوله : « انهم لا يستطيعون بدوتنا أن يفعلوا شيئاً ، وما من مجتمع أمكن أن يبقى بدوتنا • لن نخسر اذن شيئاً : بل سنربح كثيراً • سنتجو ، سنتجو ، ويجب أن يكون شعارنا فى هذه اللحظة : الافضل أن تسوء الحال • ، فابتسم له الامير ابتسامة تودد بعثت فى نفسى الاشمئزاز • كان الخطيب راضياً عن نفسه كل الرضى • وكان يمكن أن أرتكب حماقة فأرد على كلامه ، ذلك أن قلبى كان يغلى حقاً ، لولا نظرة مسمومة من الامير أوقفتنى : لقد اختلس الامير هذه النظرة الى اختلاسا من جانب ، فبدالى أنه يتوقع أن أندفع اندفاعاً غريبة طفولية وانه ربما كان يتمنى ذلك ، وانه يسره أن يرانى

أعرض نفسي للمخاطر • وكنت فى الوقت نفسه مقتنعاً كل الاقتناع بأن الدبلوماسى لن يلتفت الى ردى ، وانه قد لا يلتفت الى وجودى أصلاً • وشعرت بانزعاج فظيع ، ألا ان اليوشا أخرجنى من المأزق •

اقرب منى اليوشا بلا ضجة ، ولمس كفى ، ورجانى أن أجيء ليقول لى كلمتين • فأدركت ان كاتيا هى التى أرسلته الى • فما هى الا دقيقة واحدة حتى كنت أجلس الى جانبها • شملتى أول الامر بنظرة فاحصة ، وكأنها تقول بينها وبين نفسها : « أهذا انت اذن ؟ » ، ولم نعرف فى اللحظة الاولى ، لا أنا ولا هى ، كيف بدأ الحديث • كنت مقتنعاً باننا متى بدأنا الكلام فلن نتوقف ، بل سنظل نتحدث الى الصباح • وتذكرت ما قاله لنا اليوشا عن « الساعات الخمس أو الست من الحديث » • كان اليوشا جالساً قربنا ينتظر أن نبدأ بالكلام بفارغ صبر • فقال أخيراً وهو ينظر إلينا مبتسماً :

— لماذا لا تقولان شيئاً ؟ أنجمعكما ثم تصمتان ؟

فأجابت كاتيا :

— آه منك يا اليوشا •• ستكلم حالا • ولكن هناك أشياء كثيرة نحب ، أنا وايفان بتروفتش ، أن نقولها •• فما ندرى بأياها نبدأ •• لقد تأخر تعارفنا كثيراً ، وكان يجب أن نلتقى منذ مدة طويلة ، ما كان أشد شوقى الى رؤيتك •• حتى لقد خطر لى أن أكتب اليك ••

فسألتها وأنا أبتمس بالرغم منى :

— فى أى موضوع ؟

فأجابتنى بقولها جادة :

— ليست الموضوعات هى مايعوزنا • كان يمكتنى ، على الأقل ، ان أكتب اليك لاسألك هلا تشعر ناتاليا نيقولايفنا بأنه يسىء اليها حين يتركها

وحدها في مثل هذه اللحظة ؟ هل يجوز له أن يسلك هذا السلوك ؟ لماذا ؟
 انت هنا يا أليوشا ؟ هل لك أن تقول لي لماذا انت هنا ؟
 - سأذهب حالا .. قلت انني لن أمكث الا دقيقة واحدة • أحب أن
 أرى أولاً كيف تبدأان الحديث ، ثم أذهب •
 - هاتحن معاً ... هل رأيتنا ؟

قالت ذلك ثم أضافت تقول لي وهي تحمر احمراراً خفيفاً وتشير
 اليه :

- انه دائماً هكذا .. يقول : « دقيقة واحدة فقط » ، ثم ، بدون
 أن تشعر ، يبقى الى نصف الليل ، فيكون الاوان قد فات • « لن تزعل »
 انها طيبة جداً • ، هكذا يفكر في الامر ! هل يحسن ذلك ؟ هل في هذا
 شيء من نبل ؟

فأجاب اليوشا بلهجة حزينة كئيبة :

- أنا ذاهب اذا كنت تصرين على ذهابي • ولكتني كنت أتمنى لو
 أبقى معكما ..

- لسنا في حاجة اليك .. بالعكس .. هناك أمور كثيرة يجب أن
 نتحدث فيها منفردين .. هيا .. لا تزعل • هذا شيء لا بد منه ..
 أحسن فهم ذلك •

- اذا كان لابد من هذا ، فأنا ذاهب حالا .. ليس ثمة ما يوجب
 الزعل • أريد أن أذهب الى ليون دقيقة واحدة ، ثم أمضي اليها فوراً •
 قال ذلك ثم أردف وهو يتناول قبعته :

- بالمناسبة ، هل بلغك يا ايفان بتروفتش ان أبي يريد أن يتنازل
 عن المبلغ الذي ربحه في دعواه ضد اخمينيف ؟
 - نعم بلغني ذلك .. قال لي •

- أنظر ما أنبل هذا العمل منه ! ان كاتيا لا تصدق انه سلك سلوكاً نبيلاً • حدثها في هذا الامر •• الى اللقاء يا كاتيا •• ورجائي اليك ألا تشكّتي في صدق حبي لناناشا • لماذا تفرضون عليّ هذه الشروط ، لماذا توجهون الى هذه الملامات ، لماذا ترصدون حركاتي وسكناتي •• كأنكم رقباء علي ! انها تعرف مدى ما أكنه لها من حب ، وهي واثقة بي ، أؤكد لكم ذلك • انتي أحبها بصرف النظر عن جميع الظروف • أحبها ، لأدري كيف ! أحبها وكفى ! لذلك يجب ألا تسألوني كما يسأل مجرم • هذا ايفان بتروفتش ، فاسأليه مادام هنا ، فيقول لك ان ناناشا غيرة ، فهي تحبني ولكن حبها يشتمل على كثير من الاثرة ، انها لا تريد أن تضحي من أجل شيء •

فسأله دهشاً وأنا لا اكاد اصدق ما تسمعه اذنأي :

- ماذا تقول ؟

وقالت له كاتيا في شبه صراخ ، وهي تضرب كفاً بكف :

- ماذا دهالك يا اليوشا ؟

- نعم • ما وجه الغرابة فيما أقول ؟ ان ايفان بتروفتش يصرف ذلك • انها تصرّ على أن أبقى معها دائماً ، لا أقول انها تصرّ على ذلك باصراراً ، ولكن المرء يرى انها تريده •

فقالت له كاتيا وقد اصطبغ وجهها بحمرة الغضب :

- الا تستحي ؟ الا تستحي ؟

- لماذا استحي ؟ انك لتضحكيتني حقاً يا كاتيا ! انا احبها اكثر مما تظن هي ، ولو كانت تحبني مثلما احبها حقاً لضحت بلذتها من أجلي • صحيح انها هي التي تصرفني من عندها ، ولكنني اري في وجهها انها تفعل ذلك على مضض ••• ولا فرق عندي بين ذلك وبين ان تمنعني من الخروج •

— لا ، لا •• هذا الكلام لست انت مصدره ! اعترف يا اليوشا ، اعترف حالا بأن أباك هو الذى لقنك هذا الكلام ، اليوم • ولا تخادعنى ، ارجوك ، فان مخادعتك لا تنطلى على • أليس ما قلته صحيحاً ؟

— نعم ، قال لى ذلك • وأى بأس فى هذا ؟ لقد حدثنى حديث صداقه وحب ، وظل يثنى عليها طوال الوقت • حتى لقد ادهشنى ذلك • أهانته اهانة شديدة ، ثم هو يثنى عليها !

فقلت له :

— وهل صدقته ، انت يا من اعطتك ناتاشا كل ما تستطيع ان تعطى ؟ انها ، فى هذا اليوم نفسه ، ما كان يهمها الا امر واحد : ان تجنبك الملل ، ان لا تحرمك من فرصة الاجتماع بكاترين فيدوروفنا • لقد قالت لى ذلك هى نفسها • ثم أنت تمضى تصدق ما يقوله أبوك فى حقها تجنباً ! ألا تستحى ؟

قالت كاتيا وهى تشير اليه بيدها اشارتها الى رجل ضائع تماماً :

— هذا العاق ! لا يستحى ابداً من شيء •

واستأنف اليوشا يقول بلهجة شاكية :

— ولكن ماذا تريد منى ؟ انت دائماً هكذا يا كاتيا : تظنين فى أسوأ الظنون • وكذلك ايفان بتروفتش •• انكما تعتقدان بأننى لا احب ناتاشا • ولكننى حين وصفتها بالأثرة ، انما اردت ان اقول انها تسرف فى حبى ، وان هذا افراط يؤذينا كلينا • اما ابى فلن يخدعنى ابداً ، ولو اراد ذلك • لن ادع له ان يخدعنى • انه لم يصفها بالأثرة من ناحية المعنى السيء الذى تدل عليه هذه الكلمة ، ولقد فهمت ما يريد ان يقوله حق الفهم • لقد قال ما ذكرته لكما منذ لحظة نصاً ، قال : انها تسرف فى حبى الى حيث يصبح هذا الحب اثرة ، وان ذلك يثقل على ، وانه

سيئىء اليها فى المستقبل اكثر مما سيئىء الى .. وكلامه هذا حق ، قاله -
حباً بى ، لا رغبة فى الاساءة الى ناتاشا . بالعكس ، هو يرى انها قادرة
على حب عنيف لا حدود له ، حب يصل الى درجة المستحيل ..

فقاطعت كاتيا ولم تدع له ان يتم كلامه ، واخذت تقرعه تقرعه تقريباً .
شديداً ، وتبين له ان اباه لم 'يثن على ناتاشا الا ليخدعه بالتظاهر بطيبة
القلب ، وانه لا يهدف من وراء ذلك الا الى قطع العلاقة بينه وبينها ،
واتارة حفيظته عليها . وبرهنت له ، بحرارة وذكاء ، على ان ناتاشا تحبه
حباً عميقاً ، وعلى انه ما من حب يمكن ان يغتفر سلوكاً كسلوكه ، وعلى
انه هو الأنانى حقاً ، لا ناتاشا . وشيثاً فنيثاً تأدت به الى حزن شديد
وندامة تامة .. كان يجلس الى جانبها ، مطرقاً الى الارض ، لا يجيب
بشيء ، منهاراً تماماً ، ينم وجهه عن ألم شديد . ولكن كاتيا لم يشف
غليلها .. كنت اراقبها بكثير من حب الاستطلاع . كنت اريد اعرف هذه
الفتاة الغريبة بأقصى سرعة . انها لطفلة حقا ، ولكنها طفلة غريبة ، طفلة
مؤمنة ، طفلة ذات مبادئ راسخة ، تحب الخير والعدالة بفطرتها حباً
حاراً جارفاً . واذا أمكن حقا أن توصف بانها طفلة فيجب أن تنمى الى
طائفة الأطفال الحالمين الذين ما أكثرهم فى أسرنا . كان واضحاً انها فكرت
فى الامر قبل ذلك كثيراً . ان المرء ليتمنى ان ينفذ بنظرة سريعة الى هذا
الدماغ المفكر ، فيرى كيف تختلط فيه افكار وتصورات هى من الطفولة
بملاحظات وافكار عاشها صاحبها (لان كاتيا قد عاشت هذه الملاحظات
والافكار) وبأفكار اخرى لم تعيشها ولا تزال تجهلها ، افكار مأخوذة من
الكتب ، مجردة ، لعلها تظن انها اكتسبتها من التجربة . لقد عرفت
كاتيا معرفة كافية ، فى ذلك المساء وبعد ذلك المساء . ان لها قلباً عاتياً
حساساً . كان يبدو ، فى بعض المناسبات ، انها تحتقر فن سيطرة الانسان
على نفسه جاعلة الحقيقة فوق كل شيء ، وقبل كل شيء . كانت ترى ان

كل اكراه فهو خطأ ، وكانت تزهو بهذا الرأى ، كما يتفق ذلك لكثير من ذوى الاهواء الجامحة ، حتى بعد ان يتجاوزوا ميعة الصبا . ولكن ذلك كان يضىء عليها سحراً خاصاً . كانت تحب ان تفكر وان تبحث عن الحقيقة ، ولكنها كانت لا تتفهم ، وكانت تندفع اندفاعات طفولية ، فما يملك المرء ، منذ النظرة الاولى ، الا ان يحب شنوذاها وان يألفه . وتذكرت ليون وبوريس ، فلاح لى ذلك كله امرأ طبعياً . شىء غريب : ان وجهها الذى لم ألتح فيه أول الأمر شيئاً من جمال ، كان فى ذلك المساء يزداد فى نظرى جمالاً وفتنة ، لحظة بعد لحظة . كان هذا الالتقاء الساذج بين الطفلة والمرأة العاقلة فيها ، كان ذلك الظمأ الطفولى الصادق الى الحقيقة والعذالة ، كان ذلك الايمان القوى بما تصبو اليه ، كان ذلك كله يضىء وجهها بنور جميل من الصدق ، ويضىء عليها جمالاً اسمى ، يضىء عليها جمالاً روحياً . . . واضح ان المرء لا يستطيع أن يستفد بسرعة كل معانى هذا الجمال الذى لا ينكشف دفعة واحدة لنظرة غير مبالية . ولم استغرب ان يتوله بها اليوشا ، فهو لانه لا يستطيع ان يفكر ، لا بد ان يحب اولئك الذين يفكرون من اجله ، بل ويرغبون من اجله ، وقد احتضنت اليوشا واصبحت وصية عليه . كان القلب النبيل الذى يحمله هذا الفتى ينقاد لكل ما هو شريف نبيل جميل ، وكثيراً ما عبّرت كاتيا عن نفسها امامه بكل ما فى الطفولة من صدق ومحبة . كان اليوشا لا يملك شيئاً من ارادة ، وكانت ارادتها حازمة حارة مثابرة . ان اليوشا لا يستطيع ان يتعلق الا بأولئك الذين يمكن ان يسيطروا عليه وان يقودوا خطاه . وهذا عينه كان من جملة الاسباب التى ربطته بناتاشا فى اول العلاقة التى قامت بينهما ، ولكن كاتيا تمتاز على ناتاشا بميزة كبيرة ، هى انها ما تزال طفلة ، وتبدو كأنها ستظل طفلةً زمناً طويلاً . كان هذا الطبع الطفولى

وهذا الذهن الحادّ وشيء من قلة التبصر ، كان هذا كله يقربها من اليوشا • وكان اليوشا يحس ذلك ، فيزداد ارتباطه بها يوما بعد يوم • وأغلب الظن عندى انهما حين كانا يتحدثان منفردين ، كانا الى جانب المناقشات الحادة التى تثيرها كاتيا على سبيل « الدعابة » ، يتكلمان ايضا فى الالعب • ورغم ان كاتيا كانت تؤنبه فى كثير من الاحيان وتسيطر عليه ، فلقد كان واضحا انه يرتاح الى وجوده معها • لقد كانا اكثر انسجاماً • وهذا هو الشيء الجوهرى •

قال لها اليوشا وهو يمد اليها يده مودعاً :
- كفى كفى يا كاتيا • انت دائماً فى النهاية على حق • ذلك ان لك روحا اصفى من روحى • انا ماضٍ اليها الآن ، دون ان اذهب الى ليون •••

- لا شأن لك بليون الآن ، ما الطفك اذ تطاوعنى وتذهب •
قال اليوشا بلهجة حزينة :

- انت الطف من فى الارض طراً • يا ايفان بتروفتش ، اريد ان اقول لك كلمتين •

فابتعدنا بضع خطوات ، فقال لى بصوت خفيض :
- لقد سلكت اليوم سلوكا مخزياً ، حقيراً ، دنياً •• اجرمت فى حق العالم بأسره ، وأجرمت فى حقها خاصة • فقد عرّفتنى أبى ، بعد الغداء ، بالكسندرين ، وهى امرأة فرنسية جميلة • فاستسلمت للاغراء • وزلت بى القدم ••• ماذا أقول ؟ اننى لا أستحقهما ، الى اللقاء يا ايفان بتروفتش !

واسرعت كاتيا تقول حين عدت فجلست الى جانبها :
- انه طيب القلب نبيل النفس •• ولكن دعنا من الحديث عنه الآن ••

فستكلم عنه كثيراً فيما بعد • وانما يجب فى هذه اللحظة ان نوضح هذه النقطة : ما رأيك فى الامير ؟

- شخص كريه •

- هذا ما أراه أنا أيضا • ونحن اذن متفقان فى رأى • وهذا ما يسهل علينا الانتهاء الى شىء • فلتحدث بعد عن ناتاليا نيقولايفنا • • انت تعلم يا ايفان بتروفيتش اننى فى ظلمات ، ولقد كنت انتظر انتظارى للنور يأتى فيقشع عنى هذه الظلمات • ستشرح لى كل هذه الامور ، لاننى فيما يتعلق بالنقطة الاساسية لا املك الا الحدس والتخمين على اساس ما يرويه لى اليوشا • وما كنت استطيع ان اسأل احداً فى هذا الموضوع • قل لى اولا ، وهذا هو الشىء الجوهرى : هل تعتقد ان اليوشا وناتاشا سعيدان معا ؟ هذا ما اريد ان اعرفه قبل كل شىء ، لانه انتهى الى نتيجة ، ولاعرف كيف ينبغى ان اسلك •

- هل يمكن ان يقول المرء شيئاً فى هذا الموضوع على وجه اليقين ؟ فقطاطعتى .قائلة :

- على وجه اليقين ، طبعا لا • • • ولكن ما هو احساسك ؟ ذلك انك رجل ذكى جداً •

- اعتقد انهما لا يمكن ان يكونا سعيدين •
- لماذا ؟

- لأنهما لا يناسب احدهما الآخر •
- هذا ما كنت أقدره •

قالت ذلك ثم شبكت ذراعيها وقد لاحت فى وجهها كآبة عميقة ، وأردفت :

- قصّ علىّ كل شىء تفصيلا • انت تعلم اننى اتحرق شوقا الى لقاء ناتاشا ، لأن هناك اشياء كثيرة يجب ان اقولها لها ، ويبدو لى اننا سنجد

حلا لكل شيء • اتنى اتخيلها دائما : لا بد انها ذكية ذكاء فذاً ، ولا شك
 أنها جادة ، مستقيمة ، وجميلة • هل هذا صحيح ؟
 - نعم •

- كنت واثقة من ذلك • ولكن كيف استطاعت ، وهى على ما وصفناه ،
 ان تحب مثل هذا الطفل اليوشا ؟ اشرح لى هذا الامر ، فاتنى افكر فيه
 اكثر الاحيان •

- يستحيل شرح ذلك يا كاترين فيدوروفنا • يصعب على المرء أن
 يتخيل لماذا وكيف يصبح الانسان عاشقاً ؟ صحيح انه طفل • ولكن ألا
 تعلمين الى أى حد يمكن أن يحب الانسان طفلاً ؟ (رأيت عينيها تنفرسان
 فى ، بانتباه عميق جاد مستطلع ، فشعرت بخنان يستيقظ فى قلبى ،
 وتابعت كلامى) وعلى قدر اختلاف روح ناتاشا عن روح الطفل ، على
 قدر ما فيها من جد ، سارعت الى الافتتان به • انه مستقيم ، صادق ،
 ساذج سذاجة هائلة ، سذاجة لطيفة أحياناً • ولعلها أحبه ••• كيف
 أقول ؟ لعلها أحبه بنوع من الشفقة ••• ان القلب الكريم يمكن أن
 يحب من قيل الشفقة ••• على اتنى أشعر بأننى لا أستطيع أن أوضح
 لك هذا الامر ، ولكننى سأسألك سؤالاً : أنت تحينه ، أليس كذلك ؟

لقد طرحت هذا السؤال ببسارة ، وكنت أحس أن التعجل الذى
 فيه لا يمكن أن يعكّر ما لهذه الروح الشفافة من نقاء طفولى ، فأجابت
 بصوت منخفض ، وهى تلقى على نظرة رصينة :

- يشهد الله اتنى لا اعرف ذلك بعد • يخيل الى اتنى احبه كثيراً •

- رأيت اذن ؟ هل تستطيعين أن تفسرى هذا الحب ؟

فأجابتنى تقول بعد لحظة من تفكير :

- حين يتفرس فى عيني وهو يقول لى شيئاً من الاشياء ، اشعر

جلدة •• اقول لك هذا الكلام ، يا ايفان بتروفتش ، وانا فتاة وانت رجل ،
اليس في سلوكي هذا ما يشين ؟
- اي خير فيه ؟

- صحيح ، ولكن انظر الى هؤلاء (قالت ذلك وهي تشير بعينها الى
الزمرة الجالسة قرب السماور) ، انهم لو علموا به لعدّوه شائناً من غير
شك ، فهل هم على صواب ام هم على خطأ ؟
- على خطأ • فما دمت لا تشعرين في اعماق قلبك بأن سلوكك
معييب •••

فقاطعتي تتعجل الكلام :

- هذا ما افعله دائماً • متى راودني شك من الشكوك ، سألت قلبي ،
فاذا كان حادثاً ، هدأت انا ايضاً • هذا ما يجب على المرء ان يفعله دائماً •
واذا كنت اخاطبك الآن بصدق كامل ، كأنتي اخاطب نفسي ، فلانك رجل
ممتاز ، ولأنتي اعرف قصتك مع ناتاشا ، قبل ان تحب اليوشا • لقد بكيت
حين قصت عليّ هذه القصة •

- من قصّها عليك ؟

- اليوشا ، طبعاً • وكان هو نفسه يبكي حين قصّها عليّ : كان
ذلك جميلاً منه ، أعجبنى منه ذلك كثيراً : يخيل اليّ انه يحبك اكثر مما
تحبه يا ايفان بتروفتش • انه يمثل هذه الامور يعجبنى • ثم انتي اذا
كنت اخاطبك بمثل هذه الصراحة فلانك رجل ذكي جداً ، وفي وسعك
ان تسدي اليّ بنصائح كثيرة ، وان تضيء لي الطريق •

- لماذا تظنين انتي املك من الذكاء ما يكفي لان اكون لك كالمعلم ؟

- انظروا ما هذا السؤال !

قالت ذلك ، وراحت تفكّر • ثم اردفت :

- علي انتي قلت هذا كله عابرة ، فلنعد الى الشيء الجوهرى • قل

لى يا ايفان بتروفتش : انا اشعر الآن بأننى انافس ناتاشا ، انا اعرف ذلك ،
فماذا اعمل ؟ من اجل هذا سألتك هل هما سعيان ؟ اتنى افكر فى هذا
الامر ليل نهار • ان وضع ناتاشا وضع فطيع ، فطيع ! لقد اصبح لا يحبها ،
وحبه لى يزداد يوماً بعد يوم ، هذا هو الواقع • اليس كذلك ؟
- يخيلى الى •

- لكنه مع ذلك لا يخذعها • فهو يجهل انه اصبح لا يحبها •••
اما هى فتعرف ذلك حتما • لا شك انها تتألم أشد الألم !
- ماذا تتوین ان تعملی يا كاترين فيدوروفنا ؟
فقلت جادة :

- فى رأسى مشاريع كثيرة أتخبط بينها • كنت أنتظر بكفارغ صبر ،
لتحل لى هذه الأمور كلها • انت تعرف القضية كلها اكثر منى • انت
اليوم لى كالاله • لقد قلت لنفسى فى اول الامر : اذا كانا متحابين ، فيجب
ان يسعدا ويجب ان اضحى انا بنفسى ، ويجب ان اساعدهما • أوكد
لك ذلك •

- اعرف انك ضحيت بنفسك فعلا •

- نعم ، ولكننى بعد ذلك ، حين اخذ يتردد الى ويزداد تعلقاً بى ،
يوماً بعد يوم ، فكرت فى الامر ، وما زلت الى اليوم اتساءل هل يجب ان
اضحى بنفسى ام لا ؟ هذا لا يليق ، اليس كذلك ؟

- هذا طبعى ، لا بد ان يكون الامر كذلك • لست آئمة •

- ليس هذا رأى ، وأنت انما تقول ذلك لانك امرؤ طيب جداً •
أنا أرى أننى لا أملك قلباً نقياً كل النقاء • ولو كنت أملك قلباً نقياً لعرفت
ما الذى يجب اعزم عليه • ولكن دعنا من هذا •• لقد ازدادت معرفة
بعلاقاتهما ، حدثنى فى ذلك الامير' وأمى واليوشا نفسه ، فأدركت انهما

لا يناسب احدهما الآخر ، كما أيدت ذلك انت منذ قليل . . . ففكرت مرة اخرى فيما يجب على ان اعمله . . . ذلك انهما اذا كانا شقيين ، فالاولى ان يتفصلا ، فقررت ان اسألك عن كل هذا تفصيلاً ، وان اذهب بنفسى الى ناتاشا ، وان اتخذ قراراً معها .

— ولكن اى قرار ؟ هذا هو السؤال .

— سأقول لها : « انت تحينه اكثر مما تحين اى شىء فى العالم ، فيجب اذن ان تؤثرى سعادته على سعادتك . ويجب عليك اذن ان تتفصلى عنه » .

— ولكن على اى معنى ستحمل ناتاشا هذا الكلام ؟ هبى انها اتفقت سمك فى الرأى ، فهل تملك القوة على تنفيذه ؟
— ذلك بعينه ما افكر فيه ليل نهار ، و . . . و . . .

قالت ذلك واخذت تبكى فجأة . ثم دمدمت تقول ، وشفتاها تبرتجان :

— لا تستطيع أن تصدق كم أشفق على ناتاشا .

لم يكن ثمة ما يضاف الى هذا ، فلزمت الصمت ، وتأثرت تأثراً كبيراً ، حتى لقد شعرت بحاجة الى البكاء وانا اراها تبكى . يا لها من حافلة رائعة ! لم اسألها عن الاسباب التى تجعلها تظن انها قادرة على اسعاد اليوشا .

قالت بعد ان هدأت قليلاً ، وما زالت تفكر بعد الدموع :

— تحب الموسيقى ، اليس كذلك !

فقلت بشىء من الدهشة :

— نعم .

— لو كان الوقت يتسع لعزفت لك السيمفونية الثالثة لبتهوفن . انتى اعزفها فى هذه الايام . انها تعبر عن جميع هذه العواطف . انها هى

• ما اعانيه تماماً • ذلك شعورى • ولكتنى سأعزفها لك فى مرة اخرى •
• اما الآن فيجب ان نتحدث •

تساءلنا كيف نهىء لقاءها بناتاشا وكيف تدبر هذا الامر كله •
قالت انهم يراقبوننا ، وانهم لن يسمحوا لها ابداً بمعرفة ناتاليا نيقولايفنا •
لذلك قررت ان تعمد الى الحيلة • انها تمضى الى النزهة فى الصباح احياناً •
والكوتيسة تصحبها فى هذه النزهة دائماً على وجه التقريب • غير انها
تمتنع فى بعض الاحيان عن مصاحبته وتترك لها ان تخرج مع مربية
فرنسية هى الآن مريضة ، وذلك حين تكون الكوتيسة مصابة بصداع :
فيجب اذن انتظار هذا الاحتمال • والى أن يحين ذلك تأخذ كاتيا باقناع
الفرنسية (وهى امرأة عجوز تقوم بدور الوصيفة تقريباً) ، لأنها امرأة
طيبة جداً • وقد ترتب على ذلك اننا لم نستطع ان نحدد موعداً لزيارة
ناتاشا •

قلت لها :

— لن تندمى على انك عرفت ناتاشا • انها ترغب هى نفسها فى لقاءك ،
وهذا ضرورى ، على الاقل لتعرف الشخص الذى تعهد اليه باليوشا •
لا تحزننى كثيراً لهذا الامر • فسيأتى الزمن بحل • أظن انك مسافرة الى
الريف ، اليس كذلك ؟

— نعم ، قريباً ، بعد شهر فيما أظن • ان الامير يحرص على ذلك •
— هل تعتقد ان اليوشا سيصحبكم ؟
— هذا بعينه ما كنت افكر فيه الآن • انه سيصحبنا •
قالت ذلك وهى تنظر الى بالحاح •

— نعم ...

— رباه ، انى لا اعرف ما عسى يخرج من هذا كله ! اسمع يا ايفان
يتروفتش • سأكتب اليك كثيراً ، لأقص عليك كل شىء • وما دمت قد

بدأت تصدع رأسك بنا ، فهل توافق على ان تزورنا من حين الى حين ؟
 - لا أدري يا كاترين فيدوروفنا : ذلك رهن بالظروف • وقد
 لا أجيء اليكم البتة •

- لماذا ؟

- لأسباب كثيرة ••• ذلك يتوقف خاصة على علاقاتى بالامير •
 - انه لرجل منحط •
 قالت كاتيا ذلك بلهجة جازمة ، ثم اردفت تسألنى :
 - ما رأيك فى ان اذهب اليك انا ؟ هل يحسن هذا او لا يحسن ؟
 - ما رأيك انت فى ذلك ؟
 - رأى انه لا خير فيه •
 قالت ذلك ثم اضافت مبتسمة :

- يمكننى أن أزورك • أقول هذا لا لأننى أحترمك فحسب ، بل
 لأننى ايضاً احبك كثيراً ••• واستطيع ان اتعلم منك أشياء كثيرة ••• انتى
 أشعر نحوك بعاطفة •• أليس عيباً أن أقول هذا كله ؟
 - ابدأ • وأنت غالية عندى كأنك قريبة لى •
 - اذن هل تريد ان تكون صديقى ؟
 - طبعاً •

قالت وهى تشير مرة اخرى الى الفئة القليلة التى تحيط بالمائدة :
 - لا شك انهم سيعدون هذا عيباً ، انهم يرون ان الفتاة لا يليق بها
 ان تسلك هذا السلوك •

يجب ان اذكر هنا ان الامير قد ترك لنا هذه الخلوة عامداً من غير
 شك ، وذلك حتى نتحدث حديثاً حرّاً •
 ومضت كاتيا تقول :

- انتى اعلم حق العلم ان الامير يطمع فى مالى • انهم يظنون اننى

طفلة تماما ، حتى انهم يقولون لى ذلك صراحة • لست أوافقهم على هذا
الرأى • انا لم اعد طفلة • ما اغربهم من اناس ! انهم هم الاطفال • لماذا
يضطربون هذا الاضطراب كله ؟

نسيت ان اسألك ياكاترين فيدوروفنا : من هما ليون وبوريس
هذان اللذان يذهب اليهما اليوشا فى كثير من الاحيان ؟

— هما من اقربائى البعيدين • انها ذكيان جداً ، شريفان جداً ،
ولكنهما بتكلمان كثيراً ••

قالت ذلك وابتسمت •

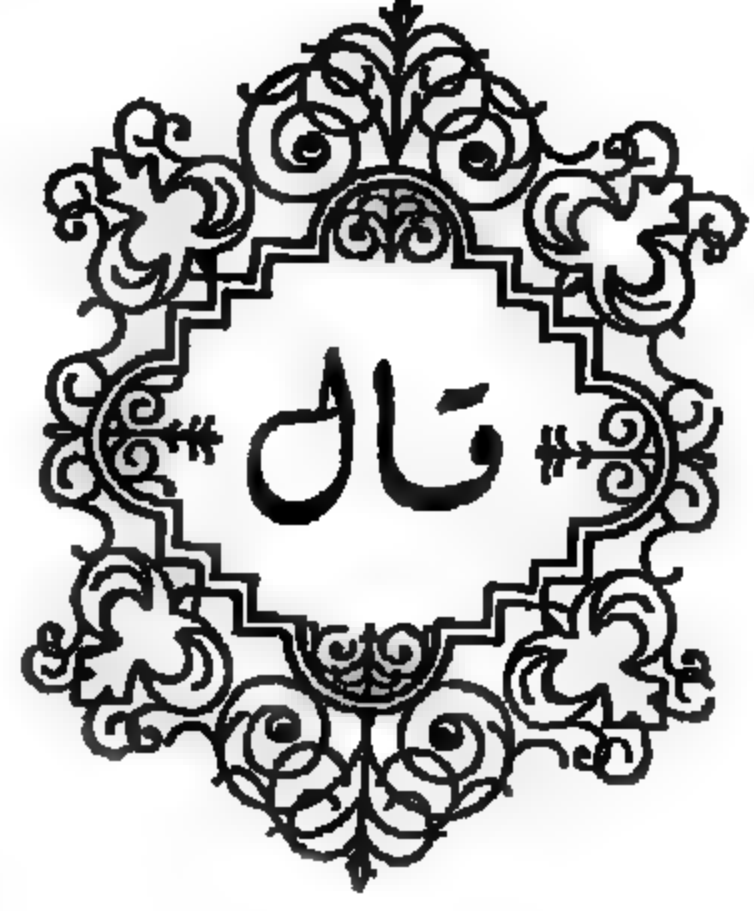
— هل صحيح انك تتوين ان تعطيهما فى المستقبل مليوناً ؟

— لقد ثرثروا فى هذا الموضوع حتى اصبح لا يطاق • انتى مستعدة
حقاً لتقديم تضحيات فى سبيل كل ما هو مفيد ، افعل ذلك راضية عنه
فرحة به ، ولكن لماذا كل هذا المبلغ ؟ الا ترى انه مبلغ ضخم ؟ على كل
حال ، لا ادرى متى استطيع ان اقدم لهم المال • لقد اخذوا هنالك
يقسمونه ، واخذوا يفكرون فى افضل الوجوه لانفاقه ، واخذوا
يتناقشون ، ويصرخون ••• بل انهم ليختصمون حول هذا الموضوع •
امر غريب حقاً ! ••• انهم على عجلة من امرهم ••• ولكنهم ، رغم كل
شئ ، اناس مخلصون جداً ، اذكاء جداً • انهم يدرسون • وحياتهم
هذه خير من الحياة التى يعيشها غيرهم ، ألسن من هذا الرأى ؟

تحدثنا مدة طويلة ايضاً • فقصت على حياتها كلها تقريباً ، واصفت
الى ما قلته لها ، حتى لقد كانت تلتهم كلامى بشراهة • وكانت تسألنى
طوال الوقت ان احدثها عن ناتاشا واليوشا • وحين جاء الى الامير يسمعى
ان علينا ان نتسحب ، كان الليل قد اتصف • فاستأذنت بالانصراف •

فصافحتني كاتيا بحرارة ، وألقت عليّ نظرة معبرة ، ورجتني الكوتيسية
ان اعود الى زيارتها من حين الى حين • وخرجت مع الامير •
لا املك ان امنع نفسي عن ايراد هذه الملاحظة الخاصة التي قد لا
يكون لها بقصتي صلة : لقد خرجت من هذا الحديث الذي دام بيني وبين
كاتيا ثلاث ساعات ، بقناعة غريبة ولكنها عميقة ، وهي ان هذه الفتاة
ما تزال طفلة ، حتى لتجهل كل الجهل العلاقات السرية التي تقوم بين
الرجل والمرأة • كان هذا يضيف طابعاً مضحكاً على بعض آرائها ،
وخاصة على تلك اللهجة الجادة التي تصطنعها في مواجهة كثير من
الموضوعات الهامة جداً •

الفصل العاشر



الأمير وهو يجلس الى جانبي في عربته :
- راودتني فكرة • ما رأيك في أن نتعشى
معاً ؟

فأجبت متردداً :

- لا أدري يا أمير ، ولكنني لا أتعشى أبداً •

فقال وهو ينظر الىّ في مكر :

- وطبعاً ستتحدث اثناء العشاء •

كيف لا أفهم ؟ انه يريد أن يشرح ما في نفسه ، وهذا بعينه ما أنا
في حاجة اليه • فقبلت •

- اتفقنا ، خذنا الى مورسكاي ، مطعم ب ••

قال ذلك للحوذي فسأله مضطرباً بعض الاضطراب :

- أتذهب الى مطعم ؟

- نعم ، ولم لا ؟ انا قلما أتعشى في البيت • اسمح لي ان ادعوك •

- ولكنني ذكرت لك انني لا أتعشى أبداً •

- تستطيع ان تخرج على عادتك مرة واحدة • ثم انني انا الذي

أدعوك •

بتعبير آخر « انا الذي سأدفع » • كنت مقتنعاً بأنه اضاف قوله هذا

هامداً متعمداً • طاوخته • ولكنني عزمت عزماً قوياً على ان ادفع عن نفسي •

ووصلنا • فحجز الامير حجرة خاصة ، واختار طبقين او ثلاثة من ألوان

الطعام بحكم خبرته • كانت هذه الاطباق غالية الثمن ، وكذلك زجاجة الخمر الجيد التى طلبها ، ولم يكن فى امكانى ان ادفع ثمن شيء من هذا كله ، فطلبت نصف دجاجة وقدحاً من خمر شاتولافيت ، فغضب الامير قائلاً :

— ألا تريد ان تتعشى معى ؟ هذا مضحك •• عفوك يا صديقى ، ولكن هذا السلوك يثير الحق •• انه أردأ أشكال الكبرياء • اراهن أن فى سلوكك هذا شيئاً من التعصب الطبقي • أؤكد لك انك تهيننى • فصمت ولم اجب بكلمة •

— على كل حال ، لك ما تشاء • لا أريد ان اكرهك على ما لاتحب •• قل لى يا ايفان بتروفتش ، هل يمكن ان نتحدث حديث صديقين تماماً ؟ — طبعاً •

— اذن فأعلم ان هذا السلوك المسكين لا يمكن الا ان يسئ اليك • يخطئ مثلك اذا سلك مثل هذا السلوك • انت كاتب ، والكتاب فى حاجة الى معرفة الطبقة الراقية ولكنك تعزل نفسك عن كل شيء • لا اتحدث الآن عن نصف الدجاجة التى طلبتها ، ولكننى لاحظ انك مستعد لقطع كل العلاقات ببيتنا • وهذا خطأ • دعنا من كونك تفوّت بهذا السلوك كثيراً من الامور • انت فى حاجة الى ان تعرف بنفسك ما تضعه فى رواياتك : الامراء ، البارونات ، المخادع •• ولكن ماذا اقول ؟ لا ، لا ، انكم لا تتحدثون الآن الا عن البؤس ، والمعاطف الضائعة ، وناظرى بالمحطات ، والضباط الشرسين ، والموظفين ، والماضى ، وأخلاق المؤمنين القدماء • انا اعرف ذلك • انا اعرف ذلك •

— انت مخطئ يا أمير • فاذا كنت لا اتردد الى ما تسميه « بالمجتمع

الراقى ، فلأنتى أولاً اشعر فيه بالضجر ، ولأنتى ثانياً لا شأن لى به !
ومع ذلك يتفق لى احياناً ان أختلف اليه !

— اعرف انك تذهب الى الامير ر . . مرة فى السنة ، فهناك انما التقيت
بك . ولكنك فيما عدا ذلك اليوم من ايام السنة ، تظل مستقراً فى كبرياتك
الديموقراطية . وهكذا تذبلون فى أكواخكم . . على انكم ، والحق يقال ،
لا تسلكون جميعاً هذا السلوك . هناك مغامرون يبعثون فى النفس الغشيان .
— ارجوك ان تبدل الحديث ايها الامير ، وان تدع اكواخنا وشأنها .
— ها . . هاءت ذا تظن انى اهينك . ألم تسمح لى انت نفسك بأن
تحدث حديث اصدقاء . ولكن لا . . انتى لم افعل بعد شيئاً استحق من
اجله صداقتك ! هذا الخمر من طيب الخمر . هل لك ان تذوقه ؟
قال ذلك وصب لى نصف قدح من الخمر .

— اسمع يا ايفان بتروفتش ، ليس من الحشمة ان يفرض الانسان
صداقته على أحد فرضاً ، أنا أعرف ذلك حق المعرفة . ولينا جميعاً على
قدر واحد من الفظاظة والوقاحة معك ، كما يخيل اليك . ولكنى اعرفه
ايضاً حق المعرفة انك ان جالستنى هذا المساء ، فلست تفعل ذلك لانك
تحبنى وتستطيب صحبتى ، بل لأنتى وعدتك بالتحدث اليك . أليس هذا
صحيحاً ؟

قال ذلك واخذ يضحك ، ثم اضاف وهو يتسم ابتسامة خبيثة :
— انك تسهر على مصالح شخص من الاشخاص ، فتحب أن تسمع
ما سأقوله .

فقاطعه أقول وقد فرغ صبرى :

— لم تخطئ التقدير ايها الامير .

(لاحظت أنه من أولئك الذين اذا رأوا أحد الناس واقفاً تحت
سلطانهم أشعروه بذلك رأساً ، ولقد كنت واقفاً تحت سلطانه . كنت لا .

«ستطيع ان اذهب قبل ان اسمع منه كل ما كان ينوى ان يقوله لى ، وكان هو يعرف ذلك حق المعرفة • فقد غير لهجته فجأة ، فكان يزداد وقاحة واستخفافاً وسخراً)

— لم تخطئ • التقدير أيها الامير ، فمن أجل هذا انما جئت ، ولولاه لما لبثت هنا فى مثل هذا الوقت المتأخر •

كنت أريد ان أقول : لولاه لما لبثت معك على أى حال من الاحوال • ولكننى كبحت جماح نفسى ، وأدريت عبارتى على وجه آخر ، لا من قيل الخوف ، بل من قيل اللطف ، وبسبب ما اتصف به من ضعف مشثوم • وفى الواقع ، كيف يستطيع المرء أن يقول كلاماً فقطاً لشخص من الاشخاص ، وجهاً لوجه ، ولو اشتهى ان يقوله وكان ذلك الشخص يستحق ان يقال له ؟

خيل الى أن الأمير قد قرأ هذا فى عينى ، وانه كان ينظر الى نظرة ساخرة بينما كنت أتم جملتى ، كأنه يتلذذ بجبنى ، وكأنه يريد بهذه النظرة أن يستفزنى قائلاً : « اذن لم تجرؤ يا عزيزى ، فأدريت اللجام » ، ولا شك ان تقديرى هذا كان صحيحاً ، فما انهيئت عبارتى حتى انفجر ضاحكاً ، وربت على ركبتي متلطفاً ، وقرأت فى نظراته قوله « أنت تضحكنى ، أيها الاخ » •

قلت لنفسى « انتظر قليلا » ••

وهتف الامير يقول :

— اننى اليوم مرح المزاج ، لا أعرف سبب ذلك حقاً • نعم ، نعم ، يا صديقى ، نعم • كنت أريد ان أكلمك عن ذلك الشخص • لا بد ان تتكاشف مرة ، وأن تتفق على شىء ، أرجو أن تفهمنى هذه المرة حق الفهم • لقد حدثك من قبل عن ذلك المال ، وعن ذلك الاب الابله ، ذلك

الطفل الذى عمره سنون عاماً • لقد قلت لك ذلك هكذا هاهاها ! • • انت
 كاتب ، ولا شك انك ادركت • •
 نظرت اليه مشدوها • انه لم يكن مع ذلك تملأ • •
 و اضاف يقول :

- نعم ، فيما يتصل بتلك الفتاة ، أؤكد لك اننى أقدرها ، بل
 وأحبها • صحيح انها ذات نزوات ، ولكن « لاورد » بدون شك ، ، كما
 كانوا يقولون منذ خمسين عاماً : ان الاشواك تخر ، ولكن ذلك يجعلها
 جذابة ؟ وقد عفوت عن ابنى اليوشا بعض العفو ، رغم انه أحرق ، وذلك
 لأنه صاحب ذوق • ان هاته البنات يعجبتنى (قال ذلك ومص شفثيه مصاً
 واضح الدلالة) ، حتى ان لى رأياً فى • • • ولكن دعنا من هذا الان •
 فهتفت أقول :

- يا أمير ، أنا لا أفهم تبدلك المفاجيء هذا ، ولكنى • • أرجوك أن
 تغير الحديث •

- هانت ذا تتحمس مرة أخرى ! سمعاً وطاعة • • أنتقل الى موضوع
 آخر ! ولكننى كنت أريد أن أسألك سؤالاً ، يا صديقى الطيب : هل
 تحمل انت لها كثيراً من التقدير والاحترام ؟
 فقلت بلهجة من نقد صبره فجأة :
 - حتماً •

- طيب • • وهل تحبها ؟
 قال ذلك وهو يكشف عن أسنانه ويغمض عينيه نصف اغماض ،
 على صورة تثير الاشمئزاز •
 فصرخت أقول :

- انت تنسى نفسك !
 - طيب ، سأسكت ، سأسكت • • هدىء من روعك • • اتنى أشعر

اليوم بفرح عجيب ! منذ مدة طويلة لم أحس بما أحس به الآن من مرح •
 ليتنا نشرب شيئاً من الشمبانيا ، مارأيك يا شاعرى ؟
 - لن أشرب ، لا أريد أن أشرب •

- بل يجب أن تشاركنى سهرتى • انتنى أشعر بسعادة رائعة ، حتى
 انتنى أحس بميل الى العاطفية ، ولا يمكن أن أكون سعيداً وحدى • من
 يدري؟ لعلنا اذا شربنا أخذنا نتخاطب بصيغة المفرد هاهاها • لا لياصديقى
 الفتى ، انك لاتعرفنى بعد ! أنا واثق انك ستحببنى متى عرفتنى • أريد
 أن تشاطرنى اليوم حزنى وفرحى ، ضحكى ودموعى ، رغم انتنى أرجو
 ألا أبكى ، أنا على الابل • فما رأيك يا ايفان بتروفتش ؟ لاحظ انتنى ،
 اذا لم تَجِر الأمور على ما أشتهى ، سيتخلى عنى الوحى ، سيختفى الهامى ،
 سيتبخر ، فاذا وقع ذلك لم تستطع أن تعرف شيئاً • انك لم تجىء معى
 الا لانك تريد أن تعرف شيئاً ، أليس كذلك ؟ فاختر ما يحلو لك •

قال ذلك وهو يغمز مرة أخرى غمزة وقحة •

كان التهديد خطيراً ، فقبلت • قلت فى نفسى « لعله يريد أن
 يسكرنى » • وبالمناسبة ، يجب أن أذكر الآن هذه الشائعة التى تروج
 عن الامير ، والتى بلغت منذ مدة طويلة ، وهى انه ، على مايلتزم مع
 الناس من دقة وأناقة فى السلوك ، يحب أحياناً ، فى الليل ، أن يسكر
 كما يسكر حودى ، وأن يندفع فى مجون حقير • • وقد رويت لى عنه
 قصص فظيعة من هذا القبيل • كان يقال ان ابنه اليوشا يعرف عن أبيه
 انه يشرب فى بعض الاحيان ، ولكنه يجهد فى اخفاء ذلك عن الناس ،
 وعن ناتاشا خاصة • وفى ذات يوم ، زل لسانه أمامى ولكنه مالبت أن
 غير الحديث ، ولم يجب على ما طرحته عليه من أسئلة • ثم انتنى سمعت
 عن هذا الامر من غير اليوشا ، ويجب أن أعترف انتنى لم أصدقه حتى
 ذلك اليوم • وكنت أنتظر ماسيقع •

جاءونا بالشمبانيا ، فملاً الأمير كأسين •

قال وهو يذوق الشمبانيا :

— بنت فاتنة ، فاتنة ، رغم أنها عنفت على قليلاً : ولكن هاته البنات بالذيدات يزددن سحرأ في مثل تلك اللحظات • لا شك أنها ظنت أنها أربكتني في ذلك المساء ، هل تذكر ؟ وأنها فسني تفتيتاً • • • هاهاها ! •
ما كان أروع حمرة وجهها ؟ هل أنت خير في النساء ؟ ان الاحمرار المفاجيء يجعل الخدين الشاحين ، هل لاحظت ذلك ؟ آه منك ، هانت
ذا تغضب مرة أخرى •••

قلت وقد أصبحت لا أستطيع أن أكبح جماحي :

— نعم ، ولا أريد أن تكلمني عن ناثاليا نيقولايفنا • • لا تكلمني عنها بهذه اللهجة على الأقل • • لا • • لا أسمع لك بذلك •

— طيب • • طيب • • سأغير موضوع الحديث ، ارضاءً لك • • أنا أمرؤ لين العريكة ، مرن كالعجين • سنتحدث عنك • انتي أشعر نحوك بحب • ليتك تعرف ما أحمله لك من اهتمام الصديق بصديقه مخلصاً •
فقاطعته قائلاً :

— أليس الأولى ، يا أمير ، أن نتحدث في الموضوع ؟

— تعني قضيتنا ؟ انتي أفهمك من نصف كلمة يا صديقي • ولكنك لا تعلم يا صديقي أننا حين نتحدث عنك الآن ، نقرب كثيراً من الموضوع ، فلا تقاطعني ، ودعني أتم كلامي • كنت أريد أن أقول لك ، أيها الصديق الغالي ، ان من يعيش مثلما تعيش يضيق نفسه لا محالة • اسمح لي أن ألامس هذه المسألة الدقيقة ، فأنما أنا أفعل ذلك من باب الصداقة • انت رجل فقير ، تتقاضى ثمن روايتك من الناشر سلفاً ، فتسدد ديونك الصغيرة ، وتنفق الباقي على تبلغك بالشاي وحدها ستة أشهر ، وتقرقف من البرد

فى غرفتك تحت السقف ، بانتظار طبع روايتك فى مجلة الناشر • أليس ما أقوله صحيحاً ؟

- لنسلم بأنه صحيح ، ولكن ..

- هذا أشرف من أن تسرق ، وأن تتذلل ، وأن تسمسر ، وأن تحتال ، الخ الخ ، أنا أعرف ماكنت ستقوله • كل مايمكن أن تقوله قد كتب بحبر على ورق منذ زمان طويل جداً •

- دعك اذن من الحديث فى شئونى • ليس علىّ أنا ، أيها الامير ، أن أعلمك الاناقة فى معاملة الناس •

- طبعاً لا .. ولكن ماحيلتى ، اذا كان لابد لنا من ملامسة هذا الوتر الحساس ؟ يستحيل بغير هذا • دعنا من الغرف التى تحت السقوف على كل حال .. أنا شخصياً لا أحيها كثيراً ، الا فى بعض المناسبات (قال ذلك وانفجر يضحك ضحكة تثير الاشمئزاز) • ولكن هناك شيء يدهشنى : أى لذة تجد فى أن تمثل أدواراً ثانوية ؟ أعرف أن أحد كتابكم قال فى كتاب له ، أذكر ذلك ، ان أكبر مآثرة من مآثر الانسان هى أن يعرف كيف يقتصر فى الحياة على القيام بدور « كومبارس » ، قال ذلك أو قال شيئاً من هذا القيل ، وقد سمعت أيضاً حديثاً يدور على هذه الفكرة • ولكن اسمع يا عزيزى : لقد انتزع اليوشا منك خطيبتك ، أعرف أنا ذلك ، ثم هانت ذا ، يا شاعراً كشيللر ، تمزق نفسك أربع مزق من أجلهما ، تقدم لهما ضرباً من الخدمات ، وتكاد تكون بينهما كساعى البريد يوصل الرسائل • عفوك يا صديقى ، انتى أعد عملك هذا نوعاً من الكرم الفاسد • كيف لا تسأم هذا الوضع ؟ كيف لا تشعر بشيء من الحزى فيه ؟ لو كنت فى مكانك ، لمت غيظاً .. خاصة وان هذا عار .. عار ..

فصرخت وقد خرجت عن طورى من فرط الحنق :

- أمير ، يخيلى الى انك ماجئت بى الى هنا لتحقرنى •

- لا يا صديقي ، لا • وانما أنا في هذه اللحظة رجل خير يريد
لك السعادة • اسمع ، اننى أريد أن أدبر كل شيء • ولكن دعنا من هذه
القصة كلها الآن ، واصنع الى كلامى حتى النهاية ، محاولاً أن تمنع
نفسك من الغضب ولو دقيقتين • مارأيك فى أن تتزوج ؟ هانت ذا ترى
اننى أتحدث فى شيء آخر • لماذا تنظر الى دهشاً ؟
فأجبت وأنا أنظر اليه مشدوهاً حقاً :
- أنتظر أن تنهى كلامك •

- أنهيت كلامى • • أريد أن أعرف ماعسى أن تقول لو جاء صديق
يريد لك السعادة مخلصاً ، فعرض لك فتاة جميلة ، واقترح عليك أن
تزوجها : الفتاة جميلة ، ولكن لها تجربة ما • فتاة من نوع ناتاليا
نقولاً أيضاً مثلاً • • مع تعويض مناسب طبعاً • (لاحظ اننى أتكلم فى
شيء آخر لا فى موضوعنا) ماعساك أن تقول فى هذا ؟
- أقول • • انك مجنون •

- ها ها ها • • • يحسب من يراك أنك تهم أن تضربنى !
لقد كنت مستعداً حقاً لان أهجم عليه • فلقد فقدت قدرتى على مزيد
من الصبر • كنت أرى فيه حيواناً حقيراً ، حشرة ضخمة أرغب رغبة
جامحة فى سحقها • كان يتلذذ بسخرياته ، ويعبث بى عبث القطعة بالفأرة ،
ويعتقد اننى أسيره • أدركت أنه يستمتع ويتلذذ بالوقاحة والسفاهة
والغطرسة التى سفر عنها أخيراً أمامى • كان يريد أن يتلذذ باندھاشى
وذعرى • كان يحضنى الاحتقار صرفاً ويهزأ بى •

لقد أحسست منذ البداية إن كل هذا كان مقصوداً لهدف من
الأهداف • ولكن كان لابد لمن هو فى وضعى من أن يصغى اليه حتى
النهاية مهما كلف الأمر • إن ذلك فى مصلحة ناتاشا ، وينبغى لى أن

أتحمل كل شيء ، فربما انتهت القضية كلها ، في هذه اللحظة نفسها ، الى حل . ولكن كيف أستطيع أن أسمع هذه الامازيح الدنيئة الحقيرة في حقها ، كيف أستطيع أن أتحملها هادئاً ؟ أضف الى ذلك انه كان يدرك كل الادراك اننى مضطر الى الاصغاء اليه حتى النهاية ، وكان هذا يفاقم الالهانة . قلت في نفسي : « على كل حال هو في حاجة الىّ أيضاً ، فأخذت أرد عليه بلهجة قاطعة عنيفة . ففهم ذلك . فقال وهو ينظر الىّ جاداً : - اسمع يا صديقى الشاب : اتنا لا نستطيع أن نستمر على الكلام بهذه الطريقة . الأحسن أن نتفاهم : اتنى أنوى أن أشرح رأيى في عدد من الأمور ، ولكن يجب أن توافق مشكوراً على الاصغاء الىّ حتى النهاية ، مهما يكن كلامى . أريد أن أعبر عن فكرى على النحو الذى أحب ، وهذا أمر لا بد منه في الظروف التى نحن فيها . فهل تصبر على قليلاً يا صديقى الشاب ؟

سيطرت على نفسى وسكت ، رغم انه أزعجنى بنظرته القارصة الساخرة التى كانت تريد أن تحصنى على اعتراض عنيف . ولكنه فهم اننى قبلت البقاء ، فتابع يقول :

- لا تزعل منى يا صديقى ! ما الذى تأخذه علىّ ؟ أليس هو هذا المظهر الذى اصطنعه فحسب ؟ ان معنى الكلام يظل واحداً ، سواء أخطبتك بأدب معطر أم خاطبتك كما أخطبتك الآن . انت تحتقرنى ، أليس كذلك ؟ فانظر ما تنطوى عليه نفسى من صفاء النية وصراحة اللسان وطيب القلب ! اننى أعترف لك حتى بنزواتى الطفولية . نعم يا عزيزى نعم ، قليلاً من طيب القلب منك ، فتفق وتتفاهم أخيراً مرة واحدة . لا تدهش لما أقول . ان هذه البراءات وهذه الاندفاعات الشعرية من جانب اليوشاء هذه القصة الرومانسية كلها ، هذه المراتب التى نهضت اليها تلك العلاقة اللعينة بناتاشا ، (وهى فتاة ساحرة ، من جهة أخرى) ، هذا كله قد

ماضجرني وأزعجني حتي صرت ، بالرغم مني ، مفتوناً بانتهاز الفرصة
للمعبث قليلاً بهذا الموضوع كله . وقد عرضت الفرصة ، فانتهازتها . زد
على ذلك انني أحيت أن أفتح نفسي لك . ها ها ها .

— انك تدهشني أيها الأمير ، أكاد انكرك ولا أعرفك . انك بهذه
الصراحة غير المتوقعة أشبه بمهرج .

— ها ها ها . . . لست على خطأ تام ! تشبيه ظريف ! ها ها ها ،
انني في عيد ، يا صديقي ، انني في عيد . انني سعيد راض . وانت
يا شاعري يجب أن توليني كل ما تقدر عليه من سماحة .
وأضاف يقول بلهجة جازمة ، وقد بدا عليه الرضى كله ، وصب
قدحاً من الخمر :

— ولكن فلنشرب . اعلم يا صديقي ان تلك السهرة الغيبة في بيت
ناتاشا — هل تتذكر ؟ — قد دمرتي تدميراً . صحيح ان ناتاشا قد أظهرت
كثيراً من اللطف ، ولكنني خرجت من تلك السهرة أحمل حقداً فظيماً ،
ولا أحب أن أنسي هذا الحقد ، لا أن أنساه ولا أن أخفيه . . . سيأتي يوم
قريب ، مافي ذلك شك . . . ولكن دعنا من هذا الآن . كنت أريد أن
أقول لك ، في جملة ما أريد أن أقوله : ان في طبعي خصلة ما تزال
تجهلها : انني أمقت جميع تلك السذاجات التافهة البرخيصة ، أمقت جميع
تلك الغراميات الشعرية . . . وكان من أجمل متعبي دائماً أن أسبق الى
العزف على هذا الوتر ، وان أسرف في بذل الملائقة والتشجيع لشخص
عاطفي كشيبلر ، يظل شاباً الى الابد ، ثم اذا أنا ، فجأة ، أحيرته وأوقعه
في الاضطراب ، اذ أخلع عن وجهي القناع ، فما يرى تحت القناع شوقاً
ولا وجداً ولا نشوة ، بل كشرات ولساناً ممدوداً ، حيث لا يتوقع ذلك .
هاذا ؟ ألا تفهم هذا ؟ هل يبدو لك هذا شيئاً مخيفاً دينياً ؟

— نعم .

- أنت رجل صريح • ولكن ما عساي أفعل لهم وهم يعذبوننى ؟
أنا ايضاً صريح بغيادة • ولكن هذا طبعى ••• ثم انتى اريد ان اقصر
عليك اطرافاً من حياتى ، عسى أن تزداد فهماً لى ، وسيشوقك ذلك
حتماً • نعم ، قد أكون أشبه بمهرج ، ولكن المهرج صريح ، أليس
كذلك ؟

- اسمع يا أمير ، لقد تأخر الوقت ، وحقاً ••

- هوه ! ما أقل صبرك • فيم هذه العجلة ؟ دعنا نستمر فى حديثنا
هذا ، على مودة وصدق واخلاص ، أمام قدح من الخمر ، نجوى
صديقين • هل تظن انتى سكرت ؟ لك ان تظن ذلك ، وهذا افضل ايضاً •
ها ها ها ! حقاً •• ان هذه الاجتماعات التى تتم بين الاصدقاء تظل فى
الذاكرة مدة طويلة لا تبرحها ، وان المرء ليجد كثيراً من اللذة فى
تذكرها ؟ انت رجل شرير ، يا ايفان بتروفتش ، ليس لك عاطفة ، ليس
لك احساس • ما قيمة ساعة او ساعتين تنفقهما من اجل صديق مثلى !
زد على ذلك ان هذا يتصل بموضوعنا ••• كيف لا تفهم ذلك ؟ كيف
لا تفهمه ثم تدعى انك كاتب ! •• يجب عليك ان تبارك هذه الفرصة التى
منحت لك • تستطيع ان تتخذنى نموذجاً •• ها ها ها •• يارب ما أجملنى
بهذه الصراحة اليوم !

كان واضحاً انه بدأ يسكر • لقد تغير وجهه ، فاكسى طابع الكرم
والبغض • اذا نظرت اليه ادركت انه يريد ان يجرح ، ان يقرص ، ان
يعض ، ان يسخر • قلت فى نفسى « من الافضل ان يسكر • فالسكران
يقول دائماً اكثر مما يجب ان يقول » • ولكنه كان مالكاً زمام عقله •

اخذ يقول وهو ظاهر الاغتياب بنفسه :

- يا صديقى ، اعترفت لك منذ قليل ، وربما كان ذلك الاعتراف

في غير محله ، اعترفت لك بأننى ارجب احيانا في ان امدت لسائى •
 فشبهتنى عندئذ ، لهذا الصدق الساذج البسيط ، نبهتنى بمهرج • وقد
 اطربنى هذا التشبيه صراحة • ولكنك اذا لمتنى الآن او اذا ادهشك اننى
 فظ غليظ معك في هذه اللحظة ، او ربما قليل الادب ، كفلاح ، وذلك
 لان لهجتى قد تغيرت فجأة ، فانك تظلمنى كل الظلم • اولاً لان هذا
 يحلو لى ، وثانياً لاننى لست الآن فى بيتى ، بل انا الآن معك • اعنى انا
 الآن نعيّد ، كما يعيّد صديقان ، وثالثاً لأننى أحب التزوات • هل تعلم
 اننى اشتغلت قديما فى الميتافيزيقا وفى أعمال البر ، لمجرد النزوة ،
 واننى كدت اعتق عين ما تعتقه انت من اراء ؟ على ان هذا قد وقع لى
 منذ مدة طويلة جداً ، فى ايام الشباب : ذهبت الى اطيانى احمل اهدافاً
 انسانية ، وكنت بطبيعة الحال فى سأم شديد ، ولن تصدقنى اذا رويت لك
 ما وقع لى عندئذ • لقد اخذت ، لسأى ، اعشر الفتيات الجميلات • لماذا
 تكشر ؟ يا صديقى نحن نتكلم الآن وحدنا ! والمرء حين يعيّد يفك
 ازواره • وانا امرؤ احمل طبعاً روسيا ، صريحا كل الصراحة ، انا
 وطنى ، أحب أن أحل أزرارى • ثم ان على الانسان أن يعرف كيف
 يتنهمز فرصة التمتع بالحياة • لسوف نموت ، وماذا بعد الموت ؟ اذن لقد
 أخذت أغازل البنات • ما زلت أتذكر راعية كان زوجها فلاحاً شاباً
 جميلاً • لقد امرت بمعاقبته عقاباً صارماً ، ثم اردت أن ارسله الى الخدمة
 (هذه شيطانات قديمة يا شاعرى) ، ولكننى لم ارسله • • لأنه مات فى
 مستشفى • • كنت قد بنيت مستشفى رائعاً يتسع لاثنى عشر سريراً ،
 مستشفى نظيفاً ، فرشت ارض غرفه ببلاط من خشب ، لقد هدمته منذ
 مدة طويلة ، ولكننى كنت ايامئذ اعتر به اعتزازاً شديداً : كنت من رجال
 البر والاحسان • اوشكت ان اميت الفلاح الصغير تحت السياط بسبب
 امرأته ، لماذا تقطب حاجيك من جديد ؟ هل تشمئز من هذا ؟ هذه
 الأعمال تثير عواطفكم النيلة؟ هدىء روعك ! ان ذلك كله مضى وانقضى •

لقد فعلته فى عهد كنت فيه رومانطيقياً ، فى عهد أردت فيه ان أكون محسناً الى الانسانية ، وان أوسس جمعية للبر .. كنت قد سلكت هذه الطريق . كنت أيامئذ أمر بجلد الناس . اما الآن فلا يمكن ان أفعل ذلك . الآن يكفى ان اكشر ؛ اتا جميعاً نكشر ؛ هذا ما يريد العصر الراهن . ولكن الشيء الذى يضحكنى حقاً هو ذلك السخيف الخفيف . لا اشك فى انه عرف قصتى تلك كلها مع الفلاح ، ولكنه لطيب نفسه التى لعلها صنعت من سكر ، ولانه كان فى ذلك الوقت متعلقاً بى يتغنى بمدائحى ، قرر أن لا يصدق شيئاً من تلك القصة ، ثم لم يصدق منها شيئاً ، أى انه لم يصدق الواقعة ، وظل يدافع عنى خلال اثنتى عشرة سنة ، الى ان جاء دوره هو . ها ها ها .. ولكن هذا كله سخف .. فلنشرب يا صديقى العزيز . قل لى : هل تحب النساء ؟

لم أجب بشيء ، واكتفيت بالاصغاء اليه . كان قد بدأ زجاجة ثانية . - اما انا فأحب ان اتحدث عن النساء اثناء العشاء . اريد ان اقدمك ، يعد أن تنهض عن المائدة ، الى امرأة تسمى مدموازيل فيليبرت ، هه ؟ ما رأيك ؟ ولكن ما بك ؟ لماذا لا تريد حتى أن تنظر الى ؟ هم .. قال ذلك واطرق يفكر . وفجأة ، رفع رأسه ، والقى على نظرة معبرة واردف يقول :

- اسمع . يا شاعرى . اريد ان اكشف لك سرّاً من أسرار طبيعتى التى يظهر انك تجهلها جهلاً تاماً . انا واثق من انك تعدنى رجلاً فاسقاً ، بل لعلك تعدنى رجلاً وغداً ، شيطاناً من شياطين الفساد والرذيلة . ولكننى سأقول لك شيئاً ! لو أمكن أن يتوصل كل منا (وهذا مستحيل بحكم الطبيعة الانسانية) الى الكشف عن جميع افكاره ، الى الكشف عن جميع هذه الافكار دون ان يخشى ان يظهر الناس لا على مالا يجرو ان يقوله وما لا يمكن ان يقوله لأحد ، فحسب ، ولا على ماله يجرو ان

يقوله لأعز أصدقائه فحسب ، بل أيضا على ما يخشى ان يعترف به احيانا
 نفسه ، لخرجت من الارض عفونة تبلغ من التثانة انها تخنقنا جميعا .
 ومن ثم تلاحظ - اقول هذا على سبيل الاستطراد - لماذا كانت مواضعنا
 الاجتماعية ذات قيمة ثمينة جداً . ان لهذه المواضع معنى عميقا ، لا أقول
 اخلاقيا ، فلن اذهب بعيداً الى هذا الحد ، ولكن اقول انها تصون المجتمع
 وتحقق له الراحة ، وهذا افضل ، لأن الاخلاق ليست في جوهرها شيئا
 آخر غير الراحة والرخاء ، اعني انها اخترعت لغرض واحد هو هذه
 الراحة وهذا الرخاء . ولكن دعنا من المواضع الآن ، وسنعود الى
 الكلام عليها في فرصة اخرى ، انتى استطرد وارجو ان تذكرنى بهذا
 الموضوع فيما بعد . وأوجز فأقول : انك تتهمنى بالرديلة والفساد
 والفسق والخروج على الأخلاق ، مع انتى فى واقع الأمر قد لا يكون لى
 من ذنب الا انتى اصدق من الآخرين . هذا كل شيء ، فأنا اعترف بأمور
 يخفيها الآخرون حتى عن انفسهم ، كما قلت لك منذ هنيهة . هذا يسى
 الى ، ولكنه يطيب لى .

قال ذلك ثم أضاف وهو يتشم ابتسامة ساخرة :

- على كل حال يجب ان لا تقلق كثيراً ، فلقد قلت انتى كنت «أثما»
 ولست استغفر عن اثمى البتة . لاحظ شيئا آخر ايضا : انتى لا اريد ان
 أخرجك . انتى لا أسألك هل عندك أسرار من هذا القليل ، لأبرر نفسى
 بما تقص على من أسرار . انتى أسلك سلوكا ، سلوكا نبيلاً . ان سلوكى
 دائما نبيل بوجه عام .

- انك تهذى ، هذا كل شيء .

قلت له ذلك وانا انظر اليه نظرة اجتقار .

- أهذى ؟ ها ها ها . هل تريد ان اقول لك فيم كنت تفكر فى

هذه اللحظة • كنت تسأل لماذا أتيت بك الى هنا ، ولماذا فتحت لك قلبي
فجأة بلا سبب • هل هذا صحيح ؟

- صحيح •

- ستعرف الجواب فيما بعد •

- كل ما فى الامر انك افرغت فى جوفك زجاجتين تقريبا و ••

ثملت •

- تريد ان تقول : سكرت • هذا ممكن • « ثملت » ! هذه الكلمة
اجمل من كلمة سكرت • الا ما ادمت اخلاقك ! ولكن يبدو لى انا
نستأنف التشاجر ، وكنا قد لامسنا موضوعا شائقا جداً ! نعم يا شاعرى ،
اذا كان لا يزال فى هذا العالم الادنى شىء جميل لذيذ فهو النساء •

- قل لى يا أمير ، انا لم اتهم حتى الان لماذا خطر ببالك ان تختارنى
تجياً تفضى اليه بأسرارك •• وشهواتك •

- هم •• لقد وعدتك بأن تعرف الجواب فيما بعد • لانقلق • وهبنى
فعلت ذلك بدون اى سبب ! انك شاعر ، وتستطيع ان تفهمنى ، وقد سبق
ان حدثتك عن هذا من قبل • انها للذة عظيمة أن يخلع المرء قناعه فجأة ،
وأن يسفر عن وجهه لشخص آخر حين يكون فى حالة لا يتأزل فيها
حتى ان يشعر بالحياء امام ذلك الشخص الآخر • سأقص عليك هذه
النكتة : يحكى انه كان فى باريس موظف مجنون عهدوا به الى مستشفى
للمجانين حين تأكدوا انه مجنون • اليك ما كان تخيله هذا الرجل
تحقيقا للذته حين بدأ يفقد عقله : كان يجلس فى بيته عاريا كل العرى ،
كأبنا آدم ، ولا يحتفظ الا بحذاء واحد فى احد قدميه ، ثم يلقى على
جسمه معطفا واسعا يتهدل حتى كعبيه ، ويخرج الى الشارع رزين
المظهر جاداً كل الجد • فاذا رآه راء من بعيد لم يحسبه الا رجلا كسائر
الرجال يتنزه بهدوء مرتديا معطفا واسعا على ما أحب له هواه • ولكنه

كان متى صادف احداً من الناس فى مكان منزل ، حاذاه دون ان يقول شيئاً ، وفى وجهه الجذ والتفكير العميق ، ثم وقف فجأة امامه ، فأزاح معطفه عن جسمه ، وظهر عاريا تماما . . كان ذلك يدوم دقيقة ، ثم يتلفع الرجل بمعطفه مرة اخرى ، دون ان يقول كلمة واحدة ، ودون ان تهتز فى وجهه عضلة ويتعد عن صاحبه المتسّم فى الارض من الدهشة ، يتعد عنه بخطى هينة سهلة ، كخطى الطيف فى مسرحية هملت ، وكان يفعل ذلك مع جميع الناس ، رجالا ونساء واطفالا . وكان هذا كل لذته . ان لذة من هذا النوع هى ما يجده المرء اذ يحير على حين غرة رجلا كشيلىر ماداً له لسانه من حيث لا يتوقع ذلك . حير ؟ ما هذه الكلمة ؟ لقد قرأت عن هذا الموضوع فى ادبكم المعاصر !

- نعم ، ولكن ذلك الرجل مجنون ، اما انت . .

- فعاقل ؟

- نعم .

وأخذ الامير يضحك . ثم أضاف بلمهجة ماجنة سفيفة :

- تفكيرك سليم يا عزيزى .

قلت وقد استشارتني وقاحته :

- أمير ، انت تكرهنا ، أنا وغيرى . وانت فى هذه اللحظة تتقم بى من كل الناس ، ومن كل شيء . ان سلوكك هذا ينبع من أنانية حقيرة . انت شرير ، انت شرير على صغار . لقد ضايقناك ، ربما منذ ذلك المساء خاصة ، ولا شيء كهذا الاحتقار الذى تعاملنى به يمكن أن يعوضك عن كرامتك التى أهدرت فى ذلك المساء . انك تحلل نفسك حتى من التهذيب العادى الذى يجب أن يعامل به المرء جميع الناس . تريد أن تظهر لى بوضوح انك لا تتنازل حتى أن تشعر بالحياء منى اذ تخلع أمامى

قناعك الدنىء بعنف ، وأن تبدو لى بهذا الاستهتار الذى يبلغ ذلك المبلغ من مجافاة الاخلاق •

سألنى الامير بلهجة مفاجئة ، وهو يلقي على نظرة مبغضة :

— لماذا تقول لى هذا كله ؟ ألكى 'تظهر نفاذ تفكيرك ؟

— بل لكى أبين لك اتنى أفهمك ، ولكى 'أشعرك بذلك •

فقال وهو يسترد لهجته المرححة الفرحة :

— يا لها من فكرة يا عزيزى ! كل ما فى الامر انك قطعت سلسلة أفكارى ، فلنشرب ، يا صديقى • هل تسمح لى بأن أملأ لك قدحاً ؟ كنت أريد أن أقص عليك مغامرة جميلة شائقة جداً • سأقصها عليك فى خطوطها الكبرى • عرفت فى الماضى سيدة تجاوزت الصبا الاول : فلقد كانت فى نحو السابعة والعشرين أو الثامنة والعشرين من عمرها ، ولكنها كانت جميلة رائعة الجمال ، قلّ أن يرى المرء مثلها بين النساء : أى جسم ! أى مهابة ! أى اختيال ! كانت نظرتها كنظرة نسر ، وكانت قاسية دائماً • كانت متغطرسة ، متعالية ؛ اذا رآها الرائى قال انها باردة كالجليد ، وكانت تخيف جميع الناس بفضيلتها الرهيبة التى لا سبيل اليها • • فضيلتها الرهيبة خاصة • • لم يكن بين كل أفراد البيثة التى تحيط بها قاض أصرم منها حكماً • كانت تستبكر استككاراً لا هواذة فيه ، لا الرذائل التى تراها فى غيرها من النساء ، فحسب ، بل أيسر ألوان الضعف فى تلك النساء • كان الناس يجلوونها اجلالاً كبيراً • وكانت أشد العجائز تزمناً وتكبراً وادلالاً بفضيلتهن يسعين اليها ويخطبن ودها • وكانت تنظر الى جميع الناس نظرة قاسية باردة ، كراهية من راهبات القرون الوسطى • وكانت الصبايا من النساء يرتعدن خوفاً من رأيها فيهن ، وأحكامها عليهن • كان يكفى منها ملاحظة واحدة أو غمزة فى حق احدهن حتى تفسد سمعتها •

فالى هذه الدرجة بلغ نفوذها بين الناس وتأثيرها فيهم • وكان الرجال أنفسهم يخشون بأسها • وخلاصة الامر انها قد اصطنعت فى حياتها نوعاً من الصوفية التأملية الهادئة المتكبرة • فهل تريد أن تعرف حقيقة هذه المرأة؟ اذن فاعلم انه ليس بين النساء امرأة تضارعها فسقاً ومجوناً • • لقد كان لى شرف الخطوة بثقتها كاملة • وأقول لك باختصار اننى كنت خليلها سرا ، وكنا ندبر خلواتنا ببراعة محكمة ، حتى ان أحداً من خدمها لم يمكن أن يراوده طيف من شك • ولم يكن ثمة الا وصيفة فرنسية تعرف أسرارها ولكن كان فى وسعنا أن نطمئن اليها كل الاطمئنان ، لأنها كانت شريكة • كيف أشرح لك الموضوع ؟ اسمع : ان هذه السيدة كانت من شدة الشبق بحيث ان المركز ساد نفسه كان يمكن أن يأخذ عنها دروساً فى الفسق • ولكن أحداً لذة وأعنف لذة فى هذه العلاقة كانت هى السر والخدعة الوقحة • ان هذه الطريقة فى الاستهزاء بما تمجده بين الناس من عفة سامية لا سبيل الى خدشها ولا يمكن التعدى عليها ؛ هذا الضحك الشيطاني الداخلى ؛ هذا النوع من دوس كل ماهو مقدس لا يمس ، دون قصد ولا اعتدال ، وعلى صورة تبلغ من الاغراق فى المضى الى أبعد الحدود ان أحداً ممن يملكون خيالاً ملتهباً جامحاً لا يمكن أن يتصورها • • هذا كله كان لذتها الكبرى • نعم ، لقد كانت الشيطان نفسه • • ولكن كانت لها فتنة لا تقاوم ، كان لها اغراء لا سبيل الى الصمود أمامه • اننى ، حتى الآن ، لا أتذكرها الا وتسرى فى جسدى نشوة • وكانت وهى فى حمى اللذة العنيفة الحارة ، تضحك فجأة كأن بها مساً ، فأفهم معنى ضحكها ، فأضحك أنا أيضا • اننى ، حتى اليوم ، حين أتذكر هذا الامر وحده ، تخرس أنفاسى فى صدرى • وبعد سنة ، أحللت محلى شخصاً آخر • ولو شئت لأسأت اليها • ولكن من ذا الذى كان يمكن أن يصدقنى ؟ من ؟ ماقولك فى هذا يا صديقى الشاب ؟

— حقارة قدرة •

قلت هذا ، وكنت أصغى الى اعترافاته مشمئزاً •

— لو أجبتَ بغير هذا الجواب لما كنت صديقى الشاب • كنت أعرف
انك ستقول ذلك •• ها ها ها •• انتظر يا صديقى ، ستعيش فنفهم ••
اما الآن فأنت فى حاجة الى حلوى •• والا لا تكون شاعراً • لقد كانت
هذه المرأة تفهم الحياة وتعرف كيف تستمتع بها •

— ولكن لماذا الوصول الى هذه الحيوانية ؟

— أى حيوانية ؟

— الحيوانية التى بلغتها هذه المرأة وبلغتها انت معها ؟

— هل تسمى هذا حيوانية ؟ ذلك انك ما زلت طفلاً يُجر بحبل ••
على اننى أعترف بأن استقلال المرء يمكن أن يتجلى فى صورة أخرى
مختلفة عن هذه كل الاختلاف •• ولكن فلتكلم ببساطة يا صديقى ،
اعترف بأن هذا كله باطل ••

— أى شيء ليس اذن باطل ؟

— شخصيتى ، ذاتى ، أنا • كل شيء فهو لى ، ومن أجلى انما خلق
العالم • اسمع يا صديقى : اننى ما زلت أعتقد ان فى وسع الانسان أن
يحيا على الارض • وهذا خير الاعتقادات طراً ، اذ بدونه لا يستطيع
الانسان أن يحيا حياة سيئة ، ولا يبقى له الا أن يسم نفسه • ويقال ان
هذا ما فعله أحد الحمقى : بلغ من اغراقه فى الفلسفة ان وصل الى انكار
كل شيء ، حتى الواجبات العادية البسيطة ، فلم يبق له شيء : ان مجموع
مابقى له : صفر • وعندئذ أخذ يقول ان خير ما فى الحياة حامض
السياندرىك • ستقول لى : ان هذا هو هاملت ، انه ذروة اليأس ، انه
شيء كبير لاستطيع حتى أن نفكر فيه • ولكنك شاعر ، اما أنا فمخلوق
فان ، لذلك سأقول لك : يجب أن تنظر الى الامر نظرة عملية بسيطة •

أنا مثلاً ، قد تحررت ، منذ مدة طويلة ، من كل رابطة ومن كل واجب .
 فما أشعر بواجب الا حين يحمل الى هذا الواجب منفعه من المنافع .
 طبعاً ، انت لا تستطيع أن تواجه الامور على هذا النحو ، لان هناك قيوداً
 تثقل قدميك . انك تحكم على الامور من ناحية المثل الاعلى ، من ناحية
 الفضيلة . وأنا مستعد لان أسلم بكل ما تقول ، ولكن ما حيلتى وأنا مقتنع
 بأن الانانية العميقة هي أساس جميع الفضائل الانسانية ، وأن فضيلة عمل
 من الاعمال هي على قدر ما ينطوى عليه من أنانية . أحب نفسك أيها
 الانسان ، تلك هي القاعدة الوحيدة التي اعترف بها . ان الحياة سوق :
 فلا تهدر مالك ، ولكن ادفع ثمن لذتك ان شئت ، وبذلك تحقق واجبك
 كله تجاه أخيك الانسان . هذه هي أخلاقي ، اذا كنت تحرص على
 معرفتها ، رغم اننى اعترف لك بأن الافضل فى رأى ألا تدفع شيئاً البتة ،
 وأن تعرف كيف تحمل الناس على أن يعملوا لك ما تريد بلا ثمن . ليس
 لى مثل أعلى ، ولا أريد أن يكون لى مثل أعلى . اننى لم أشعر يوماً بالحنين
 الى مثل أعلى . ان المرء ليستطيع أن يعيش حياة فرحة ممتعة بدون مثل
 أعلى . . . ثم انه ليسعدنى ، على الجملة ، اننى أستطيع الاستغناء عن حامض
 السياندريك . ولو كنت على قدر من الفضيلة ، لصعب على أن أستغنى
 عنه ، كما صعب على ذلك الفيلسوف الغبى (لاشك انه ألمانى) . لا ، لا ،
 ان الحياة مازال تشتمل على أشياء جميلة ! اننى أحب الاعتبار ، والجاه ،
 والفنادق الخاصة ، والمقامرة الضخمة (اننى أعبد ورق اللعب عبادة) ،
 وأحب النساء خاصة ، أحب النساء بشتى جوانبهن ، أحب حتى الفجور
 المظلم ، المختفى ، الغريب ، الشاذ ، بل والقذر بعض القذارة ، من قبيح
 التعبير . . . ها ها ها . . . اننى أقرأ فى وجهك ما تشعر به نحوى من
 احتقار شديد !

- صحيح !

- طيب .. لتسلم بأنك على حق • أليس ذلك خيراً من حامض
السياندرىك على كل حال .. ما رأيك ؟
- بل أفضل حامض السياندرىك •

- سألتك هذا السؤال عن عمد ، وذلك لاتلذذ بجوابك • كنت
أعرف الجواب قبل أن أطرح السؤال • لا يا صديقى ، اذا كنت حقاً تريد
الخير للبشر فيجب أن تمنى لجميع الأذكىاء أن تكون أذواقهم كذوقى ،
رغم ان ذوقى قدر بعض القذارة ، والا لم يبق لهم ما يعملونه فى هذا
العالم ، فلا يبقى ثمة الا الأغبياء الحمقى • انهم بذلك يصبحون سعداء •
هل تعلم ؟ ما من شيء أمتع للانسان من أن يعيش فى صحبة حمقى ، ومن
أن يعزف على أوتارهم : انه يستفيد من ذلك ! لاتأخذ علىّ انتى أقيم
وزناً لآراء المجتمع ، وانتى أحرص على بعض المواضع ، وانتى أشد
الاعتبار والجاه • أنا أعرف انتى أعيش فى مجتمع تافه : ولكنى حتى
الآن أتحمس له ، وانعق مع الناعقين ؟ انتى أظهار بالدفاع عنه دفاعاً
حاراً ، ومع ذلك فمن الممكن ، اذا اقتضى الأمر ، ان أهجره أول من
يهجره • انتى أعرف جميع أفكارهم الجديدة ، رغم انتى لم أحفل بها
يوماً • وعلام أحفل بها ؟ انتى لم أشعر يوماً بعذاب الضمير • انتى أقبل
كل شيء ، متى كان لى فيه نفع • واضرابى كثير ، ونحن جميعاً فى أحسن
حال حقاً • يمكن أن يفنى كل شيء على الارض ، وأن نظل نحن وحدنا
لأنفنى أبداً • اتنا نوجد منذ وجد الوجود .. قد يغرق الكون كله ،
ونبقى نحن نطفو على وجه الماء ، نطفو الى الأبد • أنظر ، بهذه المناسبة ،
كم تطول حياة أمثالنا • اتنا نمر كثيراً ، ألم يلفت نظرك ذلك ؟ اتنا
نعيش حتى الثمانين ، حتى التسعين • فالطبيعة نفسها تحميننا اذن •
هه هه .. أريد أن أبلغ التسعين حتماً ، أنا لا أحب الموت • بسحقاً

للفلسفة • فلنشرب ، يا عزيزى • كنا نتحدث عن البنات الجميلات •
لماذا تقوم ؟

— أنا ذاهب ، وقد آن أن تذهب أنت أيضاً •

— ماهذا ، ماهذا ؟ لقد فتحت لك قلبى كله ، وهأنت ذا تتكر لهذا
الدليل القاطع على ما أكنه لك من صداقة ! انك لا تعرف كيف تحب ،
يا شاعرى • انتظر انتظر ، سوف أطلب زجاجة أخرى •
— ثالثة ؟

— نعم • اما فيما يتعلق بالفضيلة ، يا تلميذى الشاب (اسمع لى أن
أطلق عليك هذا الاسم اللطيف ، فمن يدري ، لعل تعاليمى تفيدك !)
اما فيما يتعلق بالفضيلة فقد ذكرت لك منذ لحظة ان « فضيلة عمل من
الاعمال هى على قدر مايشتمل عليه من أنانية » • أريد فى هذه المناسبة
أن أقص عليك حكاية لطيفة • لقد أحييت ذات مرة فتاة ، أحييتها حباً
صادقاً تقريباً ، حتى لقد ضحت فى سبيلى تضحيات ضخمة ••

— أهى تلك التى سرقتها ؟

قلت له ذلك بفظاظة ، وقد عزمت على ألا أحتمل أكثر مما احتملت ،
فارتجف الأمير ، وتغير وجهه ، وحذق الى بعينين مشتعلتين • كانت
نظرته تعبر عن الاضطراب والحلق فقال كمن يخاطب نفسه :

— انتظر ، انتظر ، دعنى أفكر • لقد سكرت حقاً ، وأصبح عسيراً
على أن أستجمع شتات أفكارى ••

وسكت ، ونظر الى نظرة فاحصة شريرة ، وهو يمسك بيدي ،
كأنه يخشى أن أذهب • لاشك انه فى تلك اللحظة أخذ يفكر متسائلاً :
من أين عرفت هذه القصة التى يجهلها كل الناس تقريباً ، وهلاً يحق
به خطر • وانقضى على ذلك دقيقة مابث وجهه بعدها أن تغير فجأة ،

فمادت اليه مظاهر السخر ، والتمتع في عينه مرح السكر ، وانفجر ضاحكا .

— ها ها ها . تاليران ، لا اكثر ولا اقل . لقد غدوت امامها كمنبوذ من المنبوذين حقاً حين رشقت في وجهي اتهامها بأنني سرقتها ! ما أكثر ما عوت ونبحت ، ما أكثر ما طرزت من شتائم وسباب ! كانت كالمسعورة ، تلك المرأة و . . . بدون اى تحفظ . ولكننى اترك لك ان تحكم في الموضوع بنفسك : اولا ، لم اسرقها كما قلت منذ لحظة ، بل هى التى اعطتنى ذلك المال ، فكان المال اذن مالى . لنفرض مثلاً انك اهديت الى احسن رداء عندك (قال هذا وهو يلقي نظرة سريعة على ردائي الوحيد الذى كاد يبلى ، وكان قد خاطه لى منذ سنين خياط ردىء) . ولنفرض اننى شكرت لك هديتك ، وارتديتها . ولنفرض اننا اختصمنا بعد ذلك بسنة ، فاذا انت تطلب منى ان ارد لك رداك بعد ان اهترأ . . . فهل يكون في عملك هذا شيء من نبل ؟ ثانياً ، رغم ان المال مالى ، فلقد وددت لو اردته حقاً ، ولكن انى لى ان اجد مبلغاً ضخماً كذلك المبلغ ؟ احكم في الامر بنفسك . ولاحظ خاصة اننى لا احتمل الغزليات الرومانسية ولا احب المشكلات الغرامية على طريقة شيللر ، قلت لك ذلك منذ قليل ، ولقد كان هذا رأس البلاء في كل شيء . انك لا تستطيع ان تصدق تلك المواقف التى كانت تقفها منى ، صارخة بأنها اهدت الى ذلك المال (مع انه كان مالى) فاستبد بى الغضب ، وفكرت في الامر تفكيراً سليماً ، ذلك ان حضور الذهن لا يعوزنى ابداً ، فقلت في نفسى : لو ارجعت اليها المال ، فلربما سيبت لها بذلك شقاء ، لأننى أحرمتها عندئذ من لذة الشعور بأننى كنت أنا سبب شقتها ، وأحرمتها من لذة النعمة على الى الابد . صدقنى يا صديقى . ان المرء ، حين يتتأبه شقاء من هذا النوع ، يشعر من احساسه بنبله وكماله ، ومن حقه في ان يحتقر ذلك الذى اساء اليه وفي ان يعده وغداً ، ان المرء يشعر من احساسه بذلك بنوع من النشوة . ان نشوة

البغض هذه تلاحظ لدى الطبائع الشيكلرية • لعل هذه المرأة لم تجد بعد ذلك ما تسد به رمقها ، ولكنى على يقين تام من انها كانت سعيدة • لم أشأ ان احرمها من هذه السعادة ، فلم ارد اليها المال • وهكذا تلاحظ ان مبدئى الذى اعلنته لك منذ هنيهة ، اعنى انه كلما كان كرم الانسان كبيراً صاحباً كان يشتمل على قدر من الأنانية السيئة أكبر • هكذا تلاحظ أن مبدئى ذلك يبرر تبريراً كاملاً •• هل هذا كله واضح وضوحاً كافياً ؟ ولكن •• كنت تريد ان تستدرجنى ، ها ها ها •• ها اعترف بذلك ، كنت تريد أن تستدرجنى ؟ آه منك يا تاليران ! •

قلت له وانا انهض :

— وداعاً •

فصرخ وهو يتخلى عن لهجته السيئة ، ويتكلم بلهجة جادة :
— لحظة • هناك كلمتان نختم بهما الحديث ، ثمة شيء اخير : من كل ما قلته لك يخرج بوضوح (وأظن انك قد أدركت ذلك) اننى لن ادع منفعة من المنافع تفلت منى يوماً فى سبيل اى انسان ! اننى احب المال ، وانا الآن فى حاجة اليه ، وكاترين فيدوروفنا تملك مالاً كثيراً : كان ابوها تاجر خمور خلال عشر سنين • انها تملك ثلاثة ملايين ، وهذه الملايين الثلاثة ستسوى قضيتى على احسن صورة • واليوشا وكاتيا متناسبان كل التناسب ، فكلاهما غبى الى اقصى حدود الغباء • وهذا يفيدنى كثيراً • لذلك اريد ان يتم زواجهما حتماً ، بأقصى سرعة ممكنة : ستسافر الكونتيسة وكاتيا بعد خمسة عشر يوماً او بعد ثلاثة اسابيع الى الريف • ويجب ان يصحبهما اليوشا • فأبلغ ناتاليا نيقولايفنا ذلك ، حتى لا نرى مشاهد مثيرة ولا درامات شيكلرية ، وحتى لا يجيء أحد فيعارض فيما عقدت النية عليه • انا امرؤ حقود شديد الحقد اثار لنفسى وانتقم من خصمى • انى اعرف كيف ادافع عن مصالحى • لست اخاف منها ، وسيتم

كل شيء وفق ارادتي ، ما في ذلك ريب • واذا كنت احذرهما منذ الآن ،
فذلك من مصلحتها تقريبا • فلا تدعها ترتكب حماقات سخيفة ، واحملها
على ان تلتزم في سلوكها سبيل العقل والحكمة ، والا احاق بها شر كبير .
يجب عليها ان تحمد لي انني لم اعاملها حتى الآن كما كن ينبغي ان اعاملها
وفقا للقانون • اعلم ، يا شاعري ، ان القوانين تحمي هدوء الأسر الآمنة :
انها تضمن للأب خضوع ابنه له ، ولا تشجع أبدا أولئك الذين يصرفون
الابناء عن القيام بواجباتهم المقدسة نحو آبائهم • واعلم بعد ذلك ان لي
علاقات •• وان ليس لها مثل هذه العلاقات • يستحيل ان لا تدرك ما كان
يمكنني ان اصنعه بها •• ولئن لم ألحق بها اذى حتى الآن فذلك لانها
كانت الى الآن عاقلة • لا تخف : ان هناك عيونا حاذقة كانت ترصد كل
حركة من حركاتها وكل سكة من سكناتها خلال هذه الاشهر الستة ،
وقد عرفت كل شيء حتى أدق التفاصيل • لذلك انتظرت هادئا أن
يهجرها اليوشا من تلقاء نفسه : وهذه اللحظة تقترب ، فالي ان تجيء ،
لا مانع أن يتلهى بها قليلا • لقد ظللت في نظره أباً رؤوفا رحيما ، وأنا
في حاجة الى أن يكون رأيه فيّ كذلك • ها ها ها •• انني اتذكر كيف
كدت احمد لها انها كانت من الكرم والاخلاص والتفاني بحيث لم تحمل
اليوشا على الزواج بها •• كنت اريد ان اعرف ما عسى ان يكون احتمالها
لهذا الكلام • اما زيارتي يومئذ فلم يكن لها من غرض الا انهاء هذه
العلاقة • كان لا بد ان اتأكد من الامر بنفسى • هل يكفيك هذا الذي
قلته الى الآن ؟ ام تراك تريد ايضا ان تعرف لماذا جئت بك الى هنا ، ولماذا
عبثت كل هذا العبث أمامك ، ولماذا حدثت بك تلك الصراحة ، مع ان
هذا الموضوع كله كان يمكن ان يستغنى فيه عن البوح بالاسرار •• هل
تريد ان تعرف ذلك ؟

.. نعم •

لقد كظمت غيظي ، وكنت أصغى اليه ، ولم يكن ثمة ما أجيب به
على كلامه غير هذه الكلمة •

— فعلت ذلك كله بسبب واحد ، هو اننى رأيت فيك من حسن
الفهم وحسن التبصر بالامور اكثر مما ارى في ذينك الأبلهين الصغيرين •
لعلك قد عرفتني قبل الآن ، لعلك قد حذرت من انا قبل الآن بالظن
والتخمين • فأردت ان أظهر لك على حقيقة الشخص الذى تتعامل معه •
رب معرفة صادقة تجنب كثيراً من المتاعب • فافهمنى اذن ، يا صديقى •
هأنت ذا تعرف الآن من هو الشخص الذى امامك • انك تحب هذه الفتاة
فأمل ان تستعمل كل ما لك عليها من نفوذ وتأثير (وانا اعرف ان لك
عليها نفوذا وتأثيراً) لكى توفيقها بعض المتاعب ، والا تعبت كثيراً ، واؤكد
لك ان الأمر لن يكون مزاحاً والسبب الثالث فى صراحتي معك هو اننى
•• (ولاشك انك ادركت ذلك يا عزيزى) هو اننى كنت اشتهى ان ابصق
قليلاً على هذه القصة كلها ، وكنت اشتهى ان افعل ذلك امامك انت
بالذات ••

قلت له وانا ارتجف حقاً :

— لقد بلغت غايتك • أسلم لك بأنه ما من طريقة أفضل من هذه
الطريقة تعبر بها عما تحمله من بغض واحتقار لنا جميعاً • لقد افضيت
الى بهذه الأمور كلها لا لأنك لا تخشى أن يعرضك ذلك لخطر من
الأخطار فحسب ، بل لأنك أيضاً لم تشعر حتى بالحجل أمامى ، فكشفت
عن عورتك ، كذلك المجنون صاحب المعطف • انك لم تعتبرنى انساناً •

قال وهو ينهض :

— ذلك هو الواقع قد حذرتك يا صديقى الشاب •• لقد حذرت كل

شيء • ما انت كاتب عن عبث • آمل ان تنفصل على صداقة • وليتنا شرب
قدحاً على صحتنا كلينا ؟

- انت سكران • وهذا هو السبب الوحيد الذى من اجله لا ارد
عليك كما ينبغى ان ارد •

- اى انك لجمت لسانك ولم تطلقه فيما كان ينبغى ان تطلقه به من
كلام • ها ها ها • • هل تسمح لى بأن ادفع عنك ؟

- لا تحمل نفسك هذا العناء • سأدفع عن نفسى •

- كنت واثقا من ذلك • فهل أوصلك الى بيتك •

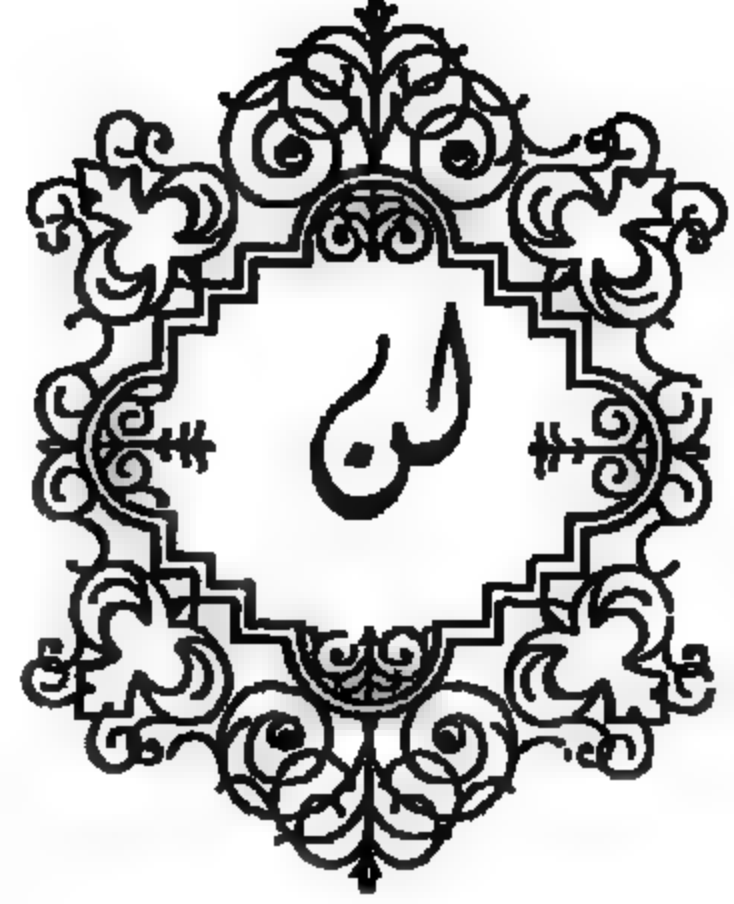
- لا •

- وداعا يا شاعرى • ارجو ان تكون قد فهمتني •

وخرج بخطى مترنحة ، دون ان يلتفت الى • واركبه خادمه
العربة • ومضيت فى طريقى • كانت الساعة قد تجاوزت الثانية ، وكان
المطر يهطل ، وكان الليل مظلمًا • •

الجزء
الرابع

الفصل الأول



أصف ما كنت أشعر به من حلق • رغم اننى كنت
أتوقع كل شىء فقد فوجئت بهذه الدمامة التى
سفر عنها • على اننى أتذكر الآن أن مشاعرى
كانت يومئذ مختلطة : كنت أشعر بأننى مهمل
محطم ، وكان يخلق قلبى غم قائم اسود • وكنت أرتعد خوفاً على نائنا •
كنت أحس انها ستعانى كثيراً من الآلام أيضاً ، وكنت أبحث ، فى قلق ،
عن وسيلة توقيها هذه الآلام ، وتهوّن عليها اللحظات الأخيرة التى ستسبق
الخاتمة • كانت الخاتمة آتية لا ريب فيها : تقرب شيئاً بعد شىء ، وكنت
أعرف ما هى !

وصلت الى بيتى دون أن أشعر ، رغم المطر الذى لم ينقطع عن
الهطول لحظة واحدة • كانت الساعة تقرب من الثالثة • وقبل أن أطرق
الباب سمعت أنيناً ، ورأيت الباب يفتح بسرعة ، كأن نللى كانت تنتظرنى
فى العتبة • كانت الشمعة مشتعلة ، فلما نظرت الى نللى ذعرت ذعراً
شديداً : كان وجهها لا يكاد يُعرف ، وكانت عيناها تلتزمان بلهيب حمى ،
وكانت نظرتها الى غريبة ، حتى لكانها لا تعرفنى • كانت تعانى حمى
شديدة •

سألتها وانا انحنى عليها واحيطها بذراعى :

ما بك يا نللى ؟ هل انت مريضة ؟

فشدت جسمها الى وهى ترتعش ، كأنها خائفة ، واخذت تتكلم

كلاماً متقطعاً متعجبلاً ، كأنها كانت تنتظرني لتقول لى هذا الكلام بسرعة .
كانت كلماتها مفككة غريبة ، فلم افهم شيئاً : كانت تهذى •

قدتها فوراً الى سريرها ، ولكنها ما تفك تلقى نفسها على ،
وتتشبث بى . تشبثاً قوياً كأنها خائفة ، وتتوسل الى ان احميها من شخص
ما • وحين استلقت على سريرها ظلت متمسكة بىدى تمسكاً قوياً مخافة
ان اترك البيت واذهب مرة اخرى • وكنت قد بلغت من فرط الاضطراب
العصبى اننى اخذت أبكى حين رأيته • لقد كنت مريضاً انا ايضاً • فلما
لاحظت دموعى ألقى على نظرة ثابتة طويلة ، باتباه متوتر ، كأنها تحاول
أن تفهم شيئاً وأن تفكر • وكان واضحاً انها تقاسى من أجل ذلك كثيراً
من العناء • واخيراً التمع وجهها بشئ يشبه ان يكون فكرة : انها بعد
نوبة عنيفة من نوبات الصرعة ، تظل فى العادة بعض الوقت لا تستطيع ان
تستجمع شتات افكارها ولا ان تنطق بكلام واضح متميز • وتلك كانت
حالتها فى هذه اللحظة : لقد بذلت جهداً كبيراً وهى تحاول ان تكلمنى ،
فلما ادركت اننى لا افهمها ، مدت الى يدها الصغيرة واخذت تجفف
دموعى ، ثم احاطت عنقى بذراعها ، وجذبتنى اليها وقبلتنى •

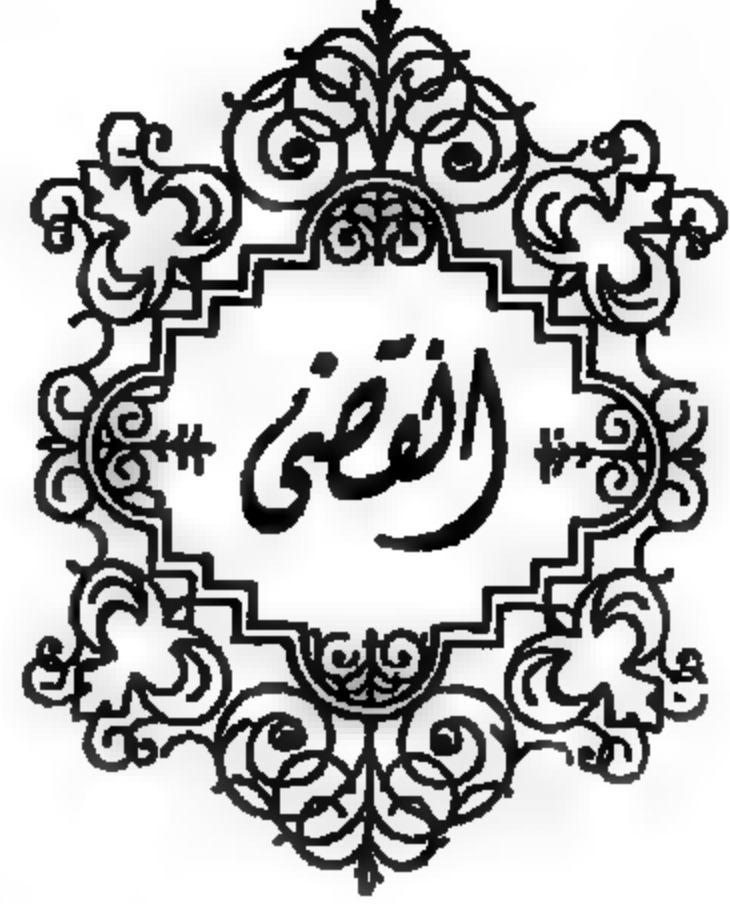
كان الأمر واضحاً : لقد اتتبتها نوبة اثناء غيابى ، وقد وقع لها ذلك
لحظة كانت واقفة قرب الباب • فلما مضت النوبة ظلت مدة طويلة
لا تستطيع أن تعود الى وعيها • والهديان فى مثل تلك اللحظات يختلط
بالواقع • فلا شك أن أخيلة مخيفة رهية قد راودتها عندئذ • وكانت فى
الوقت نفسه تشعر شعوراً مختلطاً بأننى سأعود وبأننى سأطرق الباب ،
لذلك كانت ، وهى متمدة على الأرض قرب العتبة ، تترقب عودتى ،
فنهضت فى اللحظة التى هممت فيها أن أطرق الباب •

ولكن لماذا كانت وراء الباب تماماً ؟ ذلك ما تساءلت عنه • ثم
لاحظت فجأة ، على دهشة منى ، انها كانت مرتدية معطفها الصغير (كنت

قد اشتريت لها هذا المعطف من امرأة عجوز تباع ثيابا قديمة ، وكنت اعرف هذه العجوز ، فكانت تجيئنى الى البيت وتبيعنى بضائعها ديناً فى بعض الاحيان) • لاشك ان نللى كانت تنهياً اذن للخروج ، ولاشك انها كانت قد فتحت الباب حين وافتها النوبة فألقته ارضاً • فأين كانت تريد ان تذهب ؟ هل كانت فى حالة هذيان قبل ان توافيها النوبة ؟

لم تهبط حرارتها ، وعادت الى الهذيان ، وفقدت وعيها من جديد • لقد اتابتها نوبتان منذ اقامت معى ، ولكن ذلك كان ينتهى بخير ، اما الآن فيبدو انها فريسة حمى حارة • ظلمت جالسا الى جانبها أسهر عليها قرابة نصف ساعة ، ثم ألصقت بالأريكة عدداً من الكراسى ، وتمددت الى جانبها دون أن أخلع ملابسى ، بغية أن أستيقظ حالما تسادينى • ولم أطفئ الشمعة • ونظرت اليها عدة مرات قبل ان اغفو • كانت شاحبة • وكان على شفتيها اللتين جففتهما الحمى آثار دماء لا شك انها ترجع الى سقوطها • وكان وجهها ما يزال يحتفظ بمعانى الرعب ، ويعكس خوفاً معذباً يظهر انه كان يلاحقها حتى أثناء النوم • وقررت أن أمضى فى الغد مبكراً لآتيها بطبيب اذا تفاقم حالتها • كنت اخشى ان تكون مريضة حقاً • قلت فى نفسى وأنا أرتعش : «ان الأمير هو الذى أربعها ، وتذكرت قصته عن المرأة التى رشقت المال فى وجهه •

الفصل الثاني



على ذلك خمسة عشر يوماً • • كانت نللى تسترد عافيتها • كان مرضها خطيراً ، ولكنه لم يكن هو الحمى الحارة • ونهضت من فراش المرض في آخر نيسان ، ذات يوم صاح مضي • وكنا يومئذ

في « الأسبوع المقدس » •

ما كان أتعس تلك المخلوقة ! اننى لا أستطيع أن أتابع سرد قصتي مرتبةً منظمة • لقد انقضى وقت طويل بين ذلك الحين وبين هذه اللحظة التى أتناول فيها القلم وأقص ذلك الماضى كله • ولكننى ما زلت الى الآن أشعر بحزن عميق كاور حين أتذكر وجهها النحيل الشاحب ، وعينيها السوداوين اللتين تنظران الى نظرات طويلة ملحة حين نكون وحدنا ، كأننا لتدعوني ان أفهم ما فى ذهنها ، حتى اذا أدركت اننى لا أفهم ، واننى ما زلت على غير يقين ، ابتسمت ابتسامة عذبة ، كأنها تبسّمهم لنفسها لا لى ، ثم مدت الى فجأة ، بحركة ناعمة ، يدها المحترقة ذات الاصابع الضاوية • • كل هذا بعيد الآن عنى ، وأنا أعرف الآن كل شيء ، ولكننى لم أنفذ بعد الى جميع أسرار ذلك القلب المريض المهان الذى هدمه العذاب •

أحس اننى بهذا الكلام أخرج عن قصتى ، ولكننى فى هذه اللحظة لا أريد أن أفكر الا فى نللى • أمر غريب : الآن وأنا متمدد فى سريرى بمستشفى ، وحيداً مهجوراً من جميع الذين طالما احببتهم ، يتفق لى فى بعض الاحيان ان تنبثق فى ذهنى ، على حين فجأة ، ذكرى حادثة جزئية

من حوادث تلك الفترة ، فأنظر فيها على انفراد ، فاذا هي تكتسى معنى جديداً على حين غرة ، وتفسر لى ما لم أكن قد فهمته بعد .

قلقنا أشدَّ القلق ، أنا والطبيب ، فى الأيام الأربعة الأولى ، ولكن الطبيب قادنى فى اليوم الخامس الى المطبخ ، وقال لى ان الخطر قد زال ، وان الصبية ستسترد عافيتها حتماً . انه ذلك الطبيب نفسه الذى اعرفه منذ مدة طويلة (عجوز عازب ، شهيم ، متفرد) والذى اتيت به الى نللى يوم مرضها الأول فلفت نظرها صليب سنانسلاس الضخم الذى كان يحمله فى عنقه .

فهمت اسأله فرحاً :

— لا خوف عليها بعد الآن ؟

— لا ، ستشفى هذه المرة ، ولكنها لن تعيش طويلاً .

— كيف ؟ لماذا ؟

هتفت بذلك وقد دهشت من كلامه اشد الدهشة :

— نعم ، ستموت قريباً ، ما فى ذلك شك . ان فى قلبها آفة عضوية ، وستعود الى سرير المرض عند اول فرصة سيئة ، وقد تسترد يومئذ صحتها ، ولكنها لن تلبث ان تمرض مرة اخرى ، الى ان تموت .

— وليس ثمة وسيلة لانقاذها ؟ لا ، لا ، هذا مستحيل !

— هذا ما سيقع . على انها اذا وقَّيت كل حادث سيء ، وعاشت حياة رخيصة ناعمة هادئة ، وتوافر لها مزيد من المسرات ، يمكن ان يطول عمرها ، يمكن ان يتأخر اجلها . . بل ان هناك حالات غير متوقعة ، حالات غريبة ، شاذة . . الخلاصة ان المريضة يمكن انقاذها بتعاون ظروف حسنة ، أما ان تشفى تماماً ، فذلك مستحيل .

- رباه ! فما العمل اذن ؟

- تتبع نصائحي ، وتواظب على تناول السفوف بانتظام . لقد لاحظت ان البنت ذات نزوات ، وانها مهيأة لقفزات في المزاج ، وانها ساخرة ايضا . انها تكره ان تتناول الدواء بانتظام ، حتى لقد رفضت تناوله رفضا قاطعا منذ لحظة .

- صحيح . انها حقا غريبة الأطوار . ولكنني أرد ذلك كله الى احتياج مرضي . لقد كانت امس طبيعة جداً . واليوم ، حين جثتها بالدواء ، صدمت الملعقة كأنما بصدفة ، فاندلق الدواء . فلما اردت ان املأ لها ملعقة جديدة ، انتزعت العلبة من بين يدي ، والقتها على الارض ، واخذت تبكي .

قلت ذلك ثم اضفت بعد لحظة من تفكير :

- لا شك انها لم تبك لاتنا نحملها على تجرع الدواء فحسب !

- طبعا لا . . . وانما يرجع ذلك الى الاحتياج ايضا . ان انواع الشقاء التي عانتها في الماضي (كنت قد قصصت على الطيب جزءاً كبيراً من حياة نللي بالتفصيل ، فاثرت فيه قصتي تأثيراً شديداً) ، ما تزال تفعل فيها فعلها ، وهذا هو السبب في مرضها . الدواء الوحيد على كل حال انما هو السفوف : يجب أن تتناول هذا السفوف . سأحاول مرة أخرى أن أقنعها باتباع نصائح الطيب ، و . . . بأن تتجرع دواءها . . . طبعا سأكلمها كلاماً عاماً . .

وخرجنا من المطبخ الذي دار فيه هذا الحديث ، واقترب الطيب من سرير نللي . ولكن يظهر ان نللي قد سمعتنا : كانت على الاقل قد انهضت رأسها عن المخدة ، والتفتت نحو الجهة التي كنا فيها ، وظلت طوال الوقت تسترق السمع الى ما نقول . لاحظت ذلك من خلال شق الباب . فلما

عدنا اليها عادت الحبيشة فاندست تحت الغطاء ونظرت اليها وهي تبسم
 ابتسامة مأكرة • لقد اشتد هزال الطفلة المسكينة كثيراً خلال هذه الايام
 الاربعة من المرض : غارت عيناها ، وكانت لا تزال تعاني من الحمى •
 وكانت معاني وجهها الماكر ونظراتها البراقة العدوانية التي ادهشت الطبيب
 كل الدهشة (وهو خير الالمان ببطرسبرج) قد ازدادت من ذلك غرابة •
 شرح لها الطبيب بلهجة جادة وصوت متودد متحجب حاول ان يلففه
 ما امكنه ذلك ، شرح لها ان تناول السفوف امر لا بد منه ، وانه مفيد ،
 وان على جميع المرضى ان يتجرعوه •

كانت نللى تنهض رأسها حين صدمت الملعقة فجأة بحركة من يدها
 لم تكن متوقعة ابداً ، فسفع الدواء كله على الارض • وايقنت انها فعلت
 ذلك عامدة •

فقال المعجوز بهدوء :

— هذه غلطة مؤسفة • اظن انك فعلت ذلك عن قصد ، وهذا شيء
 غير محمود • ولكن يمكن تدارك الأمر بملء ملعقة جديدة •

فضحكت نللى أمام أنفه •

فهز الدكتور رأسه وقال وهو يملأ ملعقة جديدة :

— سلوكك هذا سيء ، غير محمود ابداً •

فأجابت نللى وهي تبذل جهوداً عقيمة حتى لا تتفجر ضاحكة من
 جديد :

— لا تزعل ، سأتجرع الدواء قطعاً • ولكن هل تجبني ؟

— اذا حسنت سلوكك ، سأحبك كثيراً •

— كثيراً •

- نعم •
- والآن ، ألا تحبني ؟
- بلى •
- وهل تقبّلتني اذا أردت انا ذلك ؟
- نعم اذا كنت تستحقين •
- عندئذ لم تستطع نللى ان تحبس نفسها عن الضحك ، فضحكت مرة أخرى •
- همس الطيب يقول لى بلهجة جادة :
- انها مريحة الآن ، ولكن ليس ذلك الا اعصاباً وتزوات •
- صرخت نللى تقول بصوتها الضعيف :
- سأخذ الدواء ، ولكن هل تتزوجنى حين أكبر ؟
- كان واضحاً ان هذه الشيطنة تسليها كثيراً ، فكانت عيناها تلتصقان ، وكان الضحك يهز شفيتها ، وهى تنتظر جواب الطيب الذى تحير قليلاً .
- قال الطيب وهو يتسم لهذه النزوة الجديدة بالرغم منه :
- نعم •• اذا وافقت على ان تكونى طيبة ، مؤدبة ، مطيعة ، واذا وافقت على •••
- تناول الدواء ؟
- نعم على تناول الدواء •
- قال ذلك وهمس فى اذنى يضيف :
- انها ابنة طيبة ، طيبة وذكية ، ولكن لماذا •• تريد أن تتزوجنى •• ما هذه النزوة !

وقدم لها الجرعة • ولكنها فى هذه المرة لم تعتمد الى الحيلة ، بل ضربت الملعقة بيدها ضربة صغيرة ، فاندلق محلول السفوف على قميص العجوز المسكين وعلى وجهه • واخذت نللى تضحك ضحكا صاخبا ، ولكنه لم يكن فى هذه المرة ضحكا صريحا فرحا • وطاف بوجهها شعاع قاس شرير • كانت خلال ذلك الوقت كله تتحاشى النظر الى • ، ولا تنظر الا الى الطيب ، وكانت تنظر اليه نظرة ساخرة تتم مع ذلك عن قلق • كانت تنتظر ما سيعمله العجوز الصغير « المضحك » •

قال الطيب وهو يجفف وجهه وقميصه بمنديله :

— ها •• ايضا ؟ •• هذه مصيبة •• ولكن يمكن ان نحلّ ملعقة

أخرى •

فوجئت نللى بهذا • فلقد كانت تتوقع أن تغضب ، كانت تظن أننا سنؤنبها ، ونقرعها ، ولعلها كانت ترغب فى ذلك على غير شعور منها ، لكى تتخذ منه حجة للبكاء والنحيب كما فى نوبة هسترية • ولدلق الدواء مرة أخرى ، بل ولكسر شئ من الأشياء أيضا ، تهدئة لقلبها الضعيف المحطم ذى النزوات • ليست نللى وحدها ، ولا المرضى وحدهم يشعرون بنزوات من هذا النوع • ما اكرر ما اتفق لى ان كنت اذهب واجىء فى غرفتى وأنا أشتهى ، على غير شعور ، أن يعترضنى أحد الناس فوراً وأن يتهجم على وان يقول لى كلاماً يمكن ان يعد شتما ، لكى أستطيع ان اخف عن نفسى • ان النساء حين « يخففن » عن انفسهن بهذه الطريقة يبدأن بذرف دموع غزيرة ، حتى ان اكثرهن حساسية يمضين فى هذا الى حد النوبة الهسترية • تلك ظاهرة بسيطة شائعة كل الشيوخ ، وهى تقع خاصة حين يكون ثمة حزن آخر يحز فى القلب ، حزن يجهله جميع الناس ، ولا يريد الانسان ان يفضى به الى احد ولا يستطيع ان يفضى به الى احد • ولكن نللى ، وقد فوجئت بهذه الطيبة الملائكية من الطيب العجوز

الذى اساءت اليه ، وبهذا الصبر الذى اظهره اذ اخذ يسكب جرعة جديدة من الدواء ، دون ان يوجه اليها اى لوم ، هدأت فجأة ، فأختفت ابتسامتها الساخرة ، واحمر وجهها ، وتبللت عيناها ، ونظرت الى نظرة سريعة ما لبثت بعدها ان تحولت غنى • وقدم اليها الطبيب الدواء ، فتجرعته طائعة ، وتناولت يد العجوز الحمراء المتفخخة ، وحدقت في عينيه •
- انت زعلت • • لأننى شريرة • •

قالت ذلك ، ولكنها لم تتم كلامها ، بل دست رأسها تحت الغطاء ، وانفجرت تبكي بكاء متعجباً صاخباً هسترياً •
- أوه • • لا تبك يا بنيتى • • لا تبك • • الأمر يسير ... هذا من العصية • اشربى قليلاً من الماء •

ولكن نللى لم تصنع اليه •
وتابع الطبيب يقول ، وهو يهم ان يبكى ، لأنه امرؤ حساس :
- هدئى نفسك يا بنيتى • • لاتزعلى • • انتى اغفر لك ، وسأتزوجك اذا سلكت سلوكاً حسناً ، واذا • •

- تناولت دواءك
بهذا اكملت نللى كلام العجوز ، من تحت الغطاء ، وشفعته بضحكة اعرفها منها حق المعرفة ، ضحكة عصية ضعيفة ، تشبه ان تكون صوت جرس ، ضحكة يتخللها نجيب •

فقال الطبيب بلمهجة فخمة ، وهو يكاد يبكى :
- يا لك من بنية طيبة تعترف بالجميل • • أيتها الطفلة البائسة •
ومنذ ذلك الحين قامت بينه وبين نللى مودة غريبة • أما أنا فقد أخذ سلوك نللى معى يزداد عداوة وعصية واحتياجاً • ولم أعرف السبب فى

ذلك ، خاصة وأن هذا التغير قد طرأ فجأة • كانت خلال الايام الاولى من مرضها تظهر لى كثيراً من المودة والحنان والعاطفة كأنها لا تشبع من النظر الى : كانت لا تدعنى أبتعد عنها ، بل تمسك يدي بيدها المحترقة ، وتجلسنى الى جانبها ، فاذا لاحظت أننى قاتم المزاج أو قلق حاولت أن تفرحنى ، فأخذت تمازحنى وتلاعبننى وتبتسم لى • ويكون واضحاً أثناء ذلك أنها تختق آلامها الخاصة • كانت لا تريد أن أعمل فى الليل ، ولا أن أسهر عليها ، وكان يحزننها ان لا أطيعها فى ذلك • وكنت اراها فى بعض الأحيان مغمومة مهمومة • وكانت فى هذه الأحيان تسألنى لماذا أنا حزين ، وفيما أنا افكر • والأمر الغريب انها كانت ، حين اتحدث عرضاً عن ناتاشا ، تصمت فجأة ، وتتكلم فى شىء آخر • كان يبدو أنها تتحاشى الكلام على ناتاشا وقد أدهشنى ذلك • وكانت تشعر بسعادة كبيرة حين أعود الى البيت • حتى اذا تناولت قبعتى وهممت أن أخرج نظرت الى نظرة غريبة حزينة مفعمة باللوم •

فى اليوم الرابع من مرضها ، قضيت السهرة كلها عند ناتاشا ، وبقيت هنالك الى ساعة متأخرة بعد منتصف الليل • كان ثمة اشياء كثيرة يجب ان نتحدث فيها • وكنت حين تركت نللى وعدتها بأن لا اغيب كثيراً ، وكنت ازمع ذلك فعلاً ، ولكننى كنت مطمئناً عليها ، رغم اننى بقيت عند ناتاشا أكثر مما كنت أقدر ، ذلك انها لم تكن وحدها • فان الكسندرا سيمينوفنا ، حين علمت من ماسلوبوف الذى جاءنى ذات مرة ، ان الصغيرة مريضة ، وان اعمالى كثيرة ، واتنى وحدى فى البيت ، جاءت فزارت المريضة • ما اكثر ما حملت الكسندرا سيمينوفنا نفسها من عناء ! قالت لماسلوبوف حين ابلغها ذلك :

— ألن يأتى للعشاء ! آه يا رب ! انه وحيد هذا المسكين ! يجب ان نبرهن له على اخلاصنا • يجب ان لا نفوت هذه الفرصة •

ولم تلبث ان وصلت على عربة ، وهي تحمل حزمة مليئة بالهدايا .
وأعلنت انها ستمكث هنا بعض الوقت ، وانها جاءت لمساعدتي . وفضت
حزمتها ، فكانت تحتوى على أشربة ومرببات للمريضة ، وعلى دجاج
تطعمها اياه حين تدخل فترة النقاهة ، وعلى تفاح يطهى فى الفرن وعلى
برتقال وعلى انواع من معقود الفاكهة من كيف (اذا سمح الطبيب
بذلك) ، وعلى ثياب ، وأغطية ، ومناشف ، وقمصان ، وعصائب ، ولفائف ،
مما يمكن ان يجهز به مستشفى بكامله . قالت لى وهى تلفظ كل كلمة
بسرعة :

— عندنا كل شيء . وانت رجل عازب ، ليس عندك هذا كله .
لذلك ارجو ان تسمح لى . على ان فيليب فيليتش هو الذى امرنى بهذا
والآن هيا بسرعة ، بسرعة . ماذا يجب على ان اعمل ؟ كيف حالها
الآن ؟ هل هى صاحبة ؟ آ . هذا لا يجوز . . . يجب ان ترتب لها
مخدتها بحيث ينخفض رأسها عن ذلك . قل لى : أليس الافضل ان
تسند رأسها الى مخدة من جلد ؟ ان الجلد اطرى . آه ما اغبانى ! لم
اتذكر ان اجيء بمخدة من جلد . سأذهب باحثه عن مخدة من جلد .
هل يجب ان تشعل ناراً ؟ سأرسل اليك خادمة عجوزاً أعرفها ، اذ ليس
عندك خادمة . . ولكن ماذا يجب ان نعمل الآن ؟ ما هذا ؟ نوع من
العشب ؟ هل الطيب هو الذى وصف لها هذا النوع من العشب ؟ يغلى
ويشرب طبعاً ، أليس كذلك ؟ سأشعل النار حالا .

ولكننى هدأتها ، فلما رأت ان ليس هنالك اعمال كثيرة يجب ان
تقوم بها ، ادهشها ذلك بل احزنها . على ان هذا لم يشبط عزيمتها .
وسرعان ما انعقدت اواصر الصداقة بينها وبين نللى ، وما اكثر ما قدمت
لى من خدمات طوال مدة مرض الصبية . كانت تزورها كل يوم تقريباً ،
وكانت تصل دائماً متعجلة كأنها تريد ان تتدارك شيئاً فات ، وكانت تقول

دائماً ان فيليب فيليتش هو الذى امرها بالمجيء • وقد اعجبت بنلى كثيراً ، وأحبت كل منها الاخرى كأنهما اختان • اعتقد ان الكسندرا سيمينوفنا لا تقل عن نلى طفولة من نواح كثيرة • كانت تقص لها حكايات طريفة ، وتضحكها • وكانت نلى تشعر بكثير من السامة حين تنصرف الكسندرا سيمينوفنا الى بيتها • حين جاءت الكسندرا سيمينوفنا اول مرة ، دُهِشت مريضتى ، ولكنها سرعان ما ادركت السبب الذى من اجله جاءت هذه الزائرة التى لم تكن فى الحسبان ، فتجهم وجهها ، ولزمت صمتاً عدائياً • حتى اذا ذهبت الكسندرا سيمينوفنا ، سألتى نلى مستاءة :

— لماذا جاءت ؟

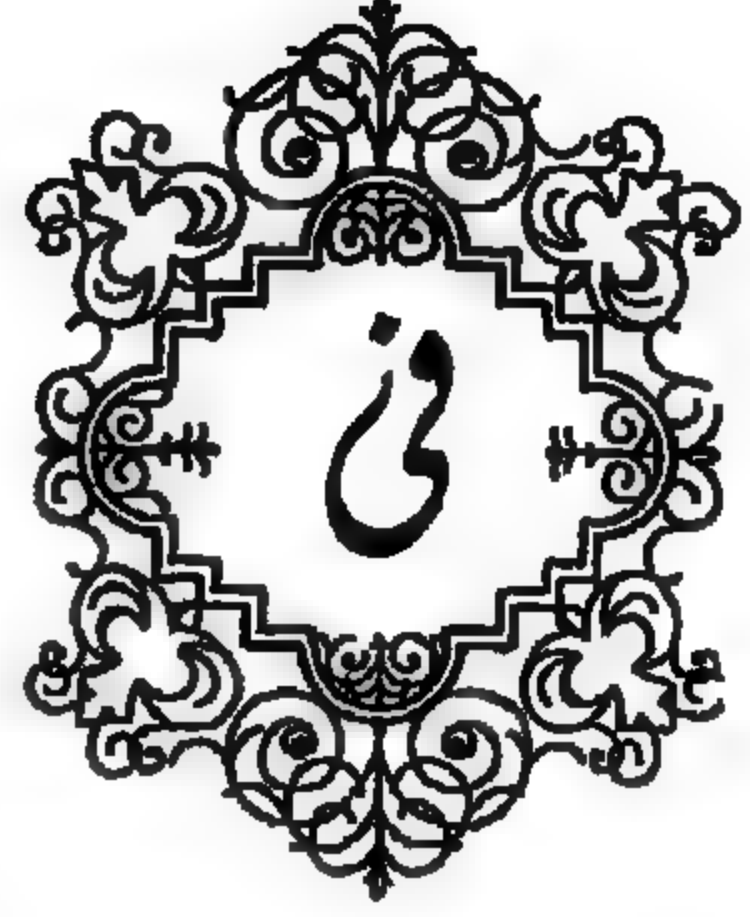
— جاءت لتساعدك يانلى ، جاءت لتغنى بك ؟

— لماذا ؟ انى لم أحسن اليها يوماً !

— الناس الطيبون لا ينتظرون ان يحسن احد اليهم حتى يحسنوا اليه ، انهم يحبون من تلقاء انفسهم خدمة من هم فى حاجة الى هذه الخدمة • ان هناك اناساً طيبين كثيرين • وانما المصيبة انك لم تلقى هؤلاء الناس حين كان يجب ان تلقيهم •

سكنت نلى • وابتعدتُ انا عنها • ولكنها نادتنى بعد ربع ساعة بصوتها الضعيف ، وطلبت الى ان اسقيها جرعة ماء ، ثم احاطتنى بذراعيها فجأة ، واسندت رأسها الى صدرى ، وظلت على هذه الحالة مدة طويلة • وحين جاءت الكسندرا سيمينوفنا فى الغد ، استقبلتها نلى فرحة ، ولكن كان يبدو عليها انها ماتزال تخجل منها •

الفصل الثالث



ذلك اليوم انما قضيت السهرة كلها عند ناتاشا ،
وعدت الى البيت في ساعة متأخرة • كاني نللي
نائمة • وكانت الكسندرا سيمينوفنا نعمة هي
أيضا • ولكنها تنتظرنى جالسة قرب المريضة •

فلما وصلت أخذت تقص على ، بسرعة ، وبصوت منخفض ، أن نللي كانت
مرحة في أول الأمر ، حتى أنها ضحكت كثيرا ، ولكن الحزن بان في
وجهها بعد ذلك ، حين لاحظت اننى تأخرت ، فصمتت وأصبحت واجمة
ثم شكت من صداع في رأسها ، وأخذت تبكى وتتنحب • قالت ألكسندرا
سيمينوفنا : تحيرت فما أعرف ماذا أعمل • وقد راحت تكلمنى عن نالاليا
نيقولاييفا ، ولكننى لم أجيبها بشيء ، فانقطعت عن مساءلتى ، وظلت طوال
الوقت بعد ذلك تبكى الى أن نامت أخيرا • الى اللقاء يا ايفان بتروفتش •
أظن أن حالتها ستتحسن مع ذلك ، يجب أن أذهب ، لقد أوصانى فيليب
فيليتش بأن لا أتأخر • وأعترف لك بأنه لم يسمح لى بالتغيب أكثر من
ساعتين ، لقد بقيت هنا من تلقاء نفسى • على كل حال ، لا بأس ، لا تقلق
من أجلى • انه لا يجرؤ أن يفضب • الا أن يكون • • آه ، يا ايفان
بتروفتش ، ماذا أستطيع أن أفعل ؟ سيعود الآن ثملا ! انه مشغول جدا في
هذه الأيام ، أصبح لا يكلمنى ، هناك شيء يقلقه ، ويثقل على نفسه ، اننى
ألاحظ ذلك واضحا • وهو يسكر في المساء مع ذلك • • كنت أقول لنفسى
طوال الوقت : ترى لو عاد فى هذه اللحظة ، فمن يهيئه للنوم ؟ ولكننى

ذاهبة ، الى اللقاء يا ايفان بتروفتش • لقد نظرت فى كتبك • عندك كتب كثيرة ، ولا بد انها كتب ذكية • • اما انا ، الغيبة ، فانتى لم أقرأ فى حياتى شيئاً • • هيا ، الى الغد • • •

استيقظت نللى فى الغد حزينة مكشبة ، فكانت تجيب عن أسئلتى على مضض • وكانت لا توجه الى من تلقاء نفسها كلمة واحدة ، كأنها حانقة على • ولكنى لاحظت انها كانت تلقى على نظرات تختلسها اختلاسا من حين الى حين • وكنت أقرأ فى هذه النظرات حزناً دفيناً ، ولكنى كنت أقرأ فيها فى الوقت نفسه محبة وحناناً لا ألاحظهما حين تنظر الى وجهاً لوجه • وفى ذلك اليوم انما وقع المشهد الذى جرى مع الطبيب • كنت لا أعرف ماذا أقول فى تحليل ذلك •

ولكن نللى غيرت موقفها منى تغييراً حاسماً بعد ذلك • فاستمرت فى أعمالها الشاذة ونزواتها الغريبة وفى مشاعر الكره نحوى أحياناً الى ان جاء ذلك اليوم الذى اصبحت فيه لا تعيش معى ، الى ان حلت تلك الكارثة التى ختمت قصتنا • ولكننا سنعود الى هذا فيما بعد •

على انها كانت فى بعض الاحيان تسترد عاطفتها نحوى ساعة او ساعتين ، فكان يبدو عندئذ انها تضاعف ملاطفاتها ، وكانت فى اغلب الاحيان تبكى بكاء مرأ • غير ان هذه الساعات تنقضى بسرعة ، فاذا هى تعود الى كتابتها ، وتعود تنظر الى نظرة عداوة • حتى اذا لاحظت أحياناً أن شيطنة من شيطاناتها الجديدة لا تعجبنى أخذت تضحك ثم تضحك ، وكان ذلك ينتهى بذرف الدموع دائماً على وجه التقريب •

حتى لقد تشاجرت مرة مع الكسندرا سيمينوفنا ، واعلنت انها لا تريدها ، فلما أنبتها على ذلك امام الكسندرا سيمينوفنا ، غضبت غضباً شديداً ، وأجابتنى بخشونة ، كأنها تفيض حقداً • ثم صبمت فجأة يومين كاملين تقريباً فلم تتوجه الى بكلمة واحدة ، ولا رضيت ان تتجرع

دواءها ، ولا أن تشرب ولا أن تأكل • ولم يستطع أحد غير الطيب العجوز ان يردها الى مشاعر طيبة •

سبق ان ذكرت ان مودة غريبة قد قامت بينها وبين الطيب منذ ذلك اليوم الذى جرعها فيه الدواء • فأصبحت نللى تحبه كثيراً ، وتستقبله دائماً بابتسامة متألقة ، كأن لم يكن بها ظلٌ من حزن قبل وصوله • وقد اخذ العجوز يجيء اليها كل يوم ، فلقد بلغ من الافتتان بها انه اصبح لا يستطيع ان يقضى يوماً واحداً من ايامه دون ان يسمع ضحكها ودون أن يسمع أمازيحها التى كثيراً ما كانت مسلية جداً • وقد حمل اليها كتباً من كتب الصور المثقفة ، ومن بين هذه الكتب كتاب اشتراه لها خصيصاً • وحمل اليها بعد ذلك حلوى وعلباً جميلة من علب السكاكر • فكان فى الايام التى يحمل فيها الهدايا الى نللى يصل رافع الرأس كأن اليومَ يومُ عيد ، وكانت نللى تحزر فوراً انه يحمل هدية • ولكنه كان لا يظهر هديته ، بل يضحك ضحكة متخائفة ، ويجلس الى جانب نللى ، ويقول لها ان الفتاة حين تسلك سلوكاً حسناً فستحق التقدير ، يجب ان تكافأ على ذلك ، وكان وهو يقول لها هذا الكلام ينظر نظرة تبلغ من البساطة والطيبة ان نللى تأخذ تضحك من أعماق قلبها ، وتدل نظراتها التى عادت اليها البشاشة على عاطفة رقيقة صادقة ، وكان العجوز ينهض اخيراً بفخامة وجلال ، ويخرج علبة السكاكر ، ويقدمها الى نللى ، مردداً هذه العبارة نفسها فى كل مرة : « الى عروستى اللطيفة » • ولا شك ابداً أنه يكون فى تلك اللحظة أسعد من نللى •

ثم يأخذان يتحدثان ، وكان يحضها كل مرة ، فى جد وبلاغة ، على العناية بصحتها ، ويسدى اليها نصائح مجرب • كان يقول لها بلهجة مؤمنة :

- يجب على المرء ان يعنى بصحته قبل كل شيء : اولاً وخاصة ليبقى على قيد الحياة ، وثانياً ليكون موفور العافية فيحقق بذلك السعادة •

اما الاحزان ، يا بنيتى العزيزة ، فحاولى ان تتسيها او حاولى ان لا تفكرى فيها ، واذا لم تخامرك الاحزان ، فلا تفكرى فى الاحزان ايضاً ، وحاولى ان تفكرى فيما يسر ، حاولى ان تفكرى فى امور مفرحة مسلية •

فسألته نللى مرة :

- ولكن فى أى شىء يجب أن أفكر ؟

فتحير الطيب ، ولم يعرف بهم يجيب ، ثم قال :

- مثلاً ، فى لعبة بريئة ، تناسب سنك ، أو فى شىء من هذا القيل •

- لا أريد ان العب ، لا احب اللعب ، افضل الاثواب الجديدة •

- الاثواب الجديدة ! هم • • لا • • يجب ان يعرف المرء كيف

يكتفى بأشياء بسيطة • على كل حال • • يمكن ان يحب الانسان ايضاً الاثواب الجديدة •

- هل تنوى ان تشتري لى اثواباً كثيرة حين تتزوجنى ؟

- ما هذه الفكرة !

ذلك ما قاله الطيب ، ثم قطب ما بين حاجبيه على غير ارادة منه •

وكانت نللى تبسم ابتسامة دلال ، حتى انها نسيت نفسها فنظرت الى مبتسمة •

واضاف الطيب يقول :

- على كل حال سأشتري لك ثوباً اذا استحققت ذلك بسلوكك •

- هل يجب أن أستمّر على تجرع الدواء حين أكون زوجتك ؟

- قد لا يجب ذلك ، قد لا يجب ذلك دائماً •

قال الطيب هذا ، وأخذ يبتسم •

وقطعت نللى الحديث بضحكة صاخبة ، وكان العجوز يضحك
ايضاً ، وهو ينظر اليها نظرة تفيض بالعاطفة •

قال وهو يلتفت نحوى :

— ان لها نفساً مرحة • ولكنها مازالت تحتفظ بمزاج كثير التزوات
والتهاويل ، ومازالت تحتفظ بشيء من فرط الاهتياج •

نعم ، ان الطيب على حق • انتى اجهل كل الجهل ما الذى اتابها
حتى صارت لا تريد ان تكلمنى ، كأنتى اذنبت فى حقها • ولقد آلمنى
ذلك ، حتى انتى تجهمت انا ايضاً ، وظللت يوماً بكامله لا اتوجه اليها
بكلمة واحدة ، ولكنتى خجلت من ذلك فى الغد • كانت تبكى فى كثير
من الاحيان ، وكنت لا اعرف كيف اواسيها • على انها قطعت الصمت
ذات يوم •

كنت قد عدت الى البيت قيل الغسق ، فلمحتها توارى كتاباً تحت
مخدتها بسرعة • كان هذا الكتاب هو روايتى اخذتها من على المنضدة
وجعلت تقرأ فيها اثناء غيابى • لماذا تخفى الكتاب كأنها تستحى من
قراءته ؟ ذلك هو السؤال الذى طرحته على نفسى عندئذ ، ولكنتى تظاهرت
بأننى لم ألاحظ شيئاً • وبعد ربع ساعة ذهبت الى المطبخ لأمر من الأمور،
فاذا هى تقفز من سريرها بسرعة ، وترد الكتاب الى مكانه ، فلما عدت
رأيتة على المنضدة • وما هى الا لحظة حتى نادتنى ، وكان صوتها يدل على
انفعال • كان قد انقضى اربعة ايام لم اكدا اكلماها خلالها • سألتنى بصوت
متقطع :

— هل •• تذهب اليوم الى ناتاشا ؟

— نعم يا نللى ، يجب ان أراها اليوم حتماً •

— هل •• تحبها •• كثيراً ؟

- نعم كثيراً يا نللى
- أنا ايضاً احبها •
- قالت ذلك بصوت خافت ، ثم خيم الصمت مرة أخرى • وقالت
بعد قليل وهى تلقى على نظرة خجلى :
- اريد ان اذهب اليها وان اعيش معها •
- فقلت دهشاً :
- هذا مستحيل يا نللى •• أأنت متضايقه فى بيتك هنا ؟
- قالت وقد اصطبغ وجهها بحمرة شديدة :
- لماذا مستحيل ؟ انت تتصحنى ان اذهب الى ابيها ، ولكتنى أوتر
ان اذهب اليها • هل عندها خادمة ؟
- نعم •
- اذن تصرف الخادمة ، واتولى انا خدمتها • سأعمل لها كل شىء •
وسأرفض ان اتقاضى منها اى اجر • سأحبها ، وسأطبخ لها • قل لها
اليوم هذا •
- ولكن لماذا يا نللى ؟ ما هذه الفكرة ؟ أى رأى قد استقر فى ذهنك
عنها ؟ هل تظنين انها تقبل أن تتخذك طبّاخة ؟ انها اذا ضمتك اليها ، فاقامه
تضمك قرينةً ، أختاً صغيرة •
- لا ، لا اريد ان تأخذنى اليها قرينة ، لا ، لا •
- لماذا ؟
- صمتت نللى ، وارتعشت شفتاها •• انها تريد ان تبكى •
- وقالت أخيراً :
- ولكن الشخص الذى تحبه سيذهب وسيتركها وحيدة •

'شدهت حين سمعتها تقول هذا الكلام ، فسألتها :

- كيف عرفت هذا يا نللى ؟

- قلته لى انت ، وصباح اول امس ، حين جاء زوج الكسندرا

سيمينوفنا سأله فقص على كل شىء •

- هل جاء ماسلوبوف الى هنا ذات صباح ؟

قالت وهى تغض طرفها :

- نعم •

- لماذا لم تخبرينى بذلك ؟

- هكذا •

وأطرفت 'افكر ، لماذا يحوم حولها ماسلوبوف على هذا النحو

الحقى ؟ ماذا يريد ؟ كان يجب ان أراه • وسألت نللى :

- ولكن ماذا يعنىك أن يتركها أو أن لا يتركها ؟

فأجابتنى تقول دون أن ترفع رأسها :

- انت تحبها كثيراً ، أليس كذلك ؟ واذا كنت تحبها ، فستزوجها

متى تركها الآخر ؟

- لا يا نللى ، انها لا تحبنى كما احبها ، وانا •• لا لن يكون هذا

يا نللى •

قالت بما يشبه الهمس ، دون ان تنظر الى :

- سأخدمكما معاً ، ومبتكونان سعيدين •

قلت فى نفسى مضطرباً أشد الاضطراب : « ماذا بها ، ماذا دهاها ؟ »

وصمتت نللى ، فما عادت تقول شيئاً • ولكنها انفجرت باكية حين خرجت ،

وظلت تبكى طوال الليل كله ، كما أخبرتنى بذلك الكسندرا سيمينوفنا ،

ونامت تبكى ، حتى انها ظلت اثناء الليل ، وهى نائمة ، تبكى وتكلم.
هاذية •

ومنذ ذلك اليوم اصبحت اشد كآبة وصمتاً ، واصبحت لا تكلمنى.
أبدأ • صحيح اننى لمحتها تختلس النظر الى مرتين أو ثلاث مرات ،
وصحيح ان نظرتها كانت تفيض عاطفة ، ولكن هذه العاطفة كانت تنقضى.
فى لحظة واحدة ، وكانت نللى تزداد عبوساً من ساعة الى ساعة ، كأنما
لتقاوم وثبة العاطفة تلك ، وأصبحت تعبس هذا العبوس نفسه حتى.
للطبيب ، الذى 'دهش من هذا التغير الطارىء • وأثناء ذلك كانت قد
استردت صحتها تقريباً ، وسمح لها الطبيب أخيراً أن تخرج للنزهة فى.
الهواء الطلق لحظات قصاراً • كان الجو صحواً دافئاً • وكنا فى الاسبوع.
المقدس الذى جاء متأخراً فى تلك السنة • وخرجت فى ذات صباح ، اذ
كان لا بد من الذهاب حتماً الى ناتاشا ، ولكنى عاهدت نفسى أن أعود الى.
البيت مبكراً ، وان اصحب نللى فى نزهة قصيرة • كنت الى ذلك الحين.
اتركها وحدها •

لا استطيع ان اصف الضربة الصاعقة التى كانت تنتظرنى فى.
البيت • كنت أسرع الخطى عائداً • فلما وصلت وجدت المفتاح فى ظاهر
الباب • ودخلت ، فلم أجد احداً • شعرت باننيار • ونظرت ، فرأيت
على المنضدة ورقة كتب عليها بقلم الرصاص ، بخط ضخمة متفاوت ،
ما يلى :

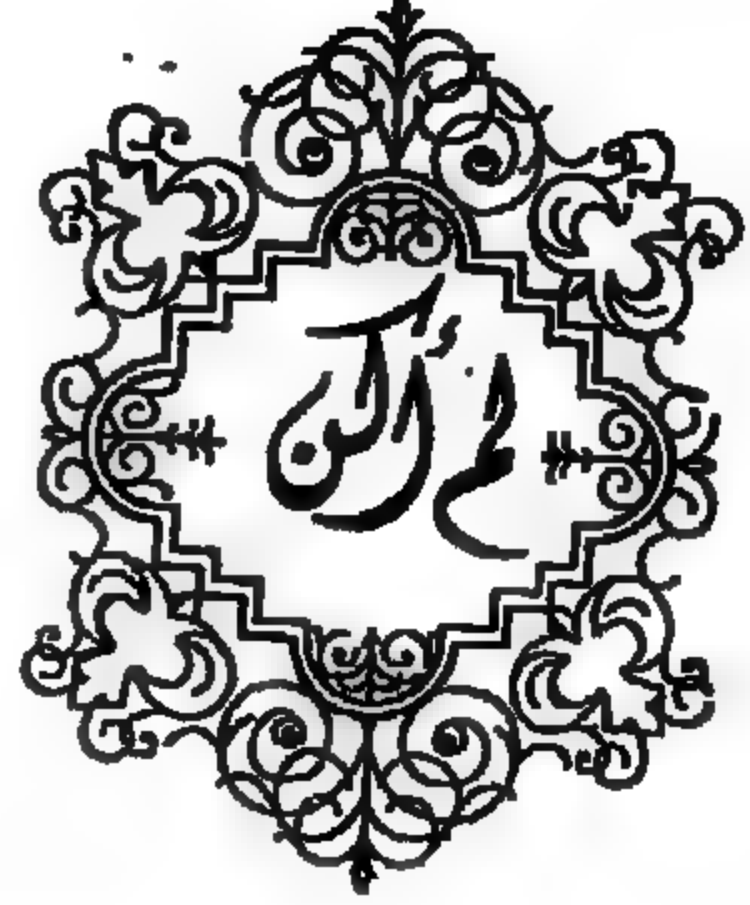
« ذهبت من عندك ، ولن اعود ابداً ، ولكننى احبك كثيراً • »

المخلصة لك.

نللى

أطلقت صرخة منعوزة ، وخرجت من البيت •

الفصل الرابع



قد خرجت الى الشارع ، ولا كان اتسع وقتي ،
للتفكير فيما سأفعله ، حين رأيت فجأة عربية تقف
أمام باب العمارة ، فتزل منها ألكسندرا سيمينوفنا
ممسكة بيد نللي • كانت تقبض على يدها بقوة
كأنها تخاف أن تهرب مرة أخرى ، فهرعت اليها ، وهتفت أقول :

— ماذا دهاك يا نللي ؟ الى أين ذهبت ؟ لماذا ؟

فقلت ألكسندرا سيمينوفنا :

— انتظر ، لا تستعجل • لنصعد الى بيتك أولاً • مستغرق كل شيء •

وهمست تقول لي بسرعة اثناء الطريق :

— ما سأقصه عليك لا يصدق • ستعرف حالاً •

كان واضحاً في وجهها انها تحمل انباء خطيرة كل الحظورة •

فلما وصلنا الى الغرفة اتجهت بالكلام الى نللي تقول لها :

— هيا استلقي قليلاً يا نللي • انت تعب • ان السير تلك المسافة كلها

ليس بالأمر الهين ، وخاصة بعد المرض • انه مرهق • هيا استلقي ،

يا عزيزتي •

قالت ذلك لنللي ثم اتجهت الى تقول :

— سنمضى نحن حتى لا نزعجها •

واشارت الى جهة المطبخ بغمزة •

ولكن نللى لم تمض الى السرير ، بل جلست على الأريكة ، وغطت وجهها بيديها •

خرجنا ، وراحت الكسندرا سيمينوفنا تقص على ما تعرفه بسرعة ، وقد اطلعت بعد ذلك على تفاصيل اخرى • وهذا ما وقع :

بعد ان خرجت نللى من عندي تاركة رسالتها تلك ، اى قبل ان اعود الى البيت بنحو ساعتين ، هرعت قبل كل شيء الى منزل الطبيب المجوز • كانت قد حصلت على عنوانه قبل ذلك ، وقد حدثنى الطبيب عن مجيئها اليه فقال انه كاد يقع مغشياً عليه حين رآها فى بيته ، وانه ظل طوال مدة بقائها عنده • لا يصدق عينيه ، وأضاف الى ذلك قوله : انتى حتى الآن لا اصدق هذا الامر ، ولن اصدق فى حياتى يوماً • لقد جاءت اليه نللى مع ذلك • كان جالساً على مقعده فى حجرتة ، هادىء البال ، مرتدياً ثوب المنزل ، يحتسى قهوته ، حين دخلت راكضة ، وارتمت على عنقه قبل أن يفنى الى نفسه . كانت تبكى وتشده الى صدرها بذراعيها ، وتقبله ، وتقبل يديه ، وترجوه ملحةً ، بكلمات متقطعة ، أن يأخذها اليه • قالت له انها اصبحت لا تريد ان تعيش عندي ، ولا تطيق ان تعيش عندي ، وانها من اجل هذا تركت بيتى وجاءت اليه ، وانها كانت متضايقة فى منزلى ، وانها لن تسخر منه بعد اليوم ابداً ، ولن تكلمه عن الاثواب الجديدة ، وانها مستحسن سلوكها ، وستعلم غسل قمصانه وكيئها (لاشك انها هيات خطابها هذا كله اثناء الطريق ، وربما قبل ذلك) ، وانها ستكون طيبة فتجرح مايشاء من دواء ، كل يوم اذا اقتضى الامر ، وانها ماتحدثت عن زواجها به الا من قيل المزاح ، وانها لم تفكر فى هذا أبداً ولا خطر لها ببال • ولقد بلغ الالمانى العجوز من شدة الانشداء والانصعاق انه ظل

طوال الوقت فاعرأ فاه ، تاركاً سيكاره ينطفئ في الهواء ، وقال لها أخيراً :
حين استطاع ان يحرك لسانه على نحو ما من الانحاء :

— يا آنسة ، اذا كنت قد فهمتك ، فأنت تطلين منى ان آخذك الى * .
ولكن هذا مستحيل * . انك ترين اننى أعيش حياة ضيقة ، وان مواردى
ضئيلة * . ثم انك ، كما أرى ، قد هربت من منزلك * . وهذا أمر تلامين
عليه كل اللوم ، هذا شيء مستحيل تماماً * . ثم اننى لم أسمح لك بالخروج
الا لحظة قصيرة للمنزهة ، حين يكون الجو صحواً جميلاً ، وذلك تحت
رقابة ولى نعمتك * . وهاءنت ذى تتركين ولى نعمتك ، ونهرعين الى * ،
بينما يجب عليك ان تسهرى على صحتك * . و * . و * . أن تتجرعى
دواءك * . اننى لا أفهم * .

لم تترك له نللى ان يتم كلامه ، بل عادت تبكى ، وتتوسل اليه من
جديد * . ولكن ذلك كله لم يجدها شيئاً * . فان العجوز كان يزداد
اشداه . ويقل فهمه لحظة بعد لحظة * . واخيراً تركه نللى هاربة وهى
تصرخ : « آه يارب » * . قال لى الطيب وهو يختم كلامه : « وظللت
مريضاً طوال ذلك اليوم ، واضطرت الى تناول مغلى بعض الأعشاب
حتى أنام » * .

بعدئذ أسرع نللى تسعى الى منزل ماسلوبوف * . وكانت قد
حصلت على عنوانه ، فاهتدت الى البيت بعد عناء * . وكان ماسلوبوف فى
البيت * . فلما رجتهما أن يضمهما اليهما رفعت الكسندرا سيمينوفنا يديها الى
السماء * . وسألاها لماذا خطرت لها هذه الفكرة ، وهل هى غير مرتاحة فى
بيتى ، فلم تجب بشيء ، بل ارتمت على احد الكراسى تتحبب * . قالت لى
الكسندرا سيمينوفنا : « كانت تبكى بكاءً عنيفاً ، حتى خيل الى أنها ستموت
من فرط البكاء » * . وتوسلت نللى اليهما ان يأخذاها ولو خادمة او طبخة ،
وقالت انها ستمسح الارض وتغسل الغسيل * . (كانت تعقد على غسل

الغبيل هذا آمالاً خاصة ، وتعتقد ان ذلك خير وسيلة لاغراء الناس بأخذها) • وقد أرادت الكسندرا سيمينوفنا ان تحتفظ بها مدة من الوقت لتحصل منها على مزيد من الايضاح ، وأن تبلغنى ذلك ، ولكن فيليب غيليتش عارضها فى هذا معارضة قاطعة ، وأمرها بأن تعود بالهاربة الى ، وقد عاتقتها الكسندرا سيمينوفنا اثناء الطريق وقبلتها ، فاشتد بكاء نللى ، فأخذت الكسندرا سيمينوفنا تبكى هى ايضاً ، حتى انهما ظلتا تبكيان طوال الوقت • قالت لها الكسندرا سيمينوفنا اثناء الطريق ، وهى تبكى :

— ولكن لماذا ، لماذا لا تريدان أن تعيشى عنده ؟ هل يسىء معاملتك ؟

— لا •

— اذن لماذا ؟

— هكذا •• لا أريد ان أعيش عنده ، لا أريد ، اننى دائماً شريرة معه • وهو •• هو طيب جداً • أما عندكم فلن أكون شريرة ؟ عندكم ، سأعمل •

قالت ذلك وهى تجهش باكية كأنها فى نوبة هسترية •

— ولكن لماذا أنت شريرة معه يا نللى ؟

— هكذا •

وختمت الكسندرا سيمينوفنا حديثها لى وهى تجفف دموعها قائلة : « لم استطع ان احصل منها على غير كلمة « هكذا » • ترى لم هى شقية كل هذا الشقاء ؟ هل تظن ان ذلك يرجع الى مرضها ؟ ما رأيك يا ايفان بتوقفش ؟ » •

وعدنا • كانت نللى مستلقية ، وقد دسَّت وجهها بين المخدات تبكى • فركت أمامها على ركبتى ، وتناولت يديها ، واخذت أقبليهما ،

فمسحت يديها ، وازداد نحيبها قوة وعنفاً • كنت لا أعرف ماذا أقول •
وفي هذه اللحظة دخل العجوز اخميف •

- صباح الخير يا ايفان ، جئت اليك لعمل من الاعمال •

قال ذلك وهو ينظر اليها كليناً ويستغرب ان يراني راكعاً على
ركبتي • لقد كان العجوز مريضاً جداً في هذه الايام الاخيرة ، كان شاحباً
نحيلاً؟ ولكنه كان يحترق مرضه، كأنما ليستخف بشخص من الأشخاص،
ويرفض ان يتبع نصائح آنا اندريفنا : فهو ينهض من فراشه ، ويمضي
يسعى وراء اعماله •

قالت الكسندرا سيمينوفنا وهي تنظر الى العجوز بالحاح :

- الى اللقاء يا ايفان بتروفتش ، الى الغد • لقد اوصاني فيليب
فيليتش ان اعود باقصى سرعة ، هناك اعمال يجب ان تقوم بها ، ولكنى
سأرجع هذا المساء ، لابقى ساعة او ساعتين •

سألنى العجوز بصوت خافت ، وكان واضحاً انه يفكر فى شىء
آخر :

- من هذه ؟

فشرحت له الامر •

- هيم • • لقد جئت لأمر من الأمور ، يا ايفان •

كنت أعرف ما هو ذلك الامر ، وكنت أنتظر زيارة العجوز • لقد
أتى ليتحدث الى والى نللى ، وليطالبنى بها • فقد وافقت آنا آندريفنا أخيراً
على اخذ اليتيمة الى بيتها • وكانت هذه الموافقة ثمرة محادثات سرية قامت
بينى وبينها ، فأقنعتها ؟ قلت لها ان رؤية هذه اليتيمة التى لعن أبوها أمها
يمكن ان ترد قلب العجوز الى عواطف اخرى • وقد بلغت من الوضوح

فى عرض خطتى أنها أصبحت هى التى تحت زوجها الآن على المنجىء
بالطفلة • وبادر العجوز الى تنفيذ الامر بسرعة ، وكان يريد قبل كل
شئ أن يحظى باعجاب نللى ، وكان يبيت أمراً • ولكنى سأعود الى هذا
تفصيلاً •

سبق ان ذكرت ان نللى شعرت بالكره نحو العجوز منذ زيارته
الاولى • وقد لاحظت بعد ذلك نوعاً من البغض والحقد يظهر فى وجهها
حين يُذكر أمامها اسم اخمينف • ودخل العجوز فى الموضوع رأساً
بلا تمهيد • فمضى قدماً الى نللى التى كانت لا تزال مستلقية مخبئة وجهها
تحت الوسائد ، فتناول يدها وسألها ألا تريد ان تجيء معه الى بيته ، وأن
تكون بمثابة ابنته • وختم العجوز كلامه لها بقوله :

— كان لى ابنة ، وكنت أحبها أكثر مما أحب نفسى ، ولكنها لاتعيش
معى ، لقد ماتت ، فهل تريدین أن تحلى محلّها فى بيتى و •• فى قلبى ؟
قال ذلك وترقرق الدمع فى عينيه اللتين جففتها وألهبتهما الحمى •
فأجابته نللى دون ان ترفع رأسها :

— لا ، لا أريد •

— لماذا يا بنيتى ؟ ليس لك أحد • ان ايفان لا يستطيع أن يحتفظ
بك فى بيته الى الابد ، وستعيشين عندنا فى جو اسرة •

— لا أريد ، لانك رجل شرير •

قالت ذلك ثم رفعت رأسها وجلست على السرير أمام العجوز ،
وأضافت تقول :

— نعم ، أنت شرير • وأنا أيضاً شريرة ، شريرة جداً ، ولكنك
شرير أكثر منى •

قالت نللى ذلك وامتقع لونها ، والتمعت عيناها ، واصفرت شفتاها

المرتعشان وتصعرتا بتأثير الانفعال العنيف • وكان العجوز يتنظر اليها مرتبكا •

- نعم ، أنت شرير أكثر منى ، لأنك لا تريد أن تعفو عن ابنتك •
انك تريد ان تنساها نسياناً تاماً ، وأن تتخذ لك ابنة أخرى • هل يمكن
أن ينسى الانسان طفله ؟ هل يمكن أن تحبني في المستقبل ؟ انك متى
نظرت الىّ ، ستذكر أتنى غريبة ، وأن لك ابنة أردت أن تنساها من
فرط قسوتك • انا لا أريد أن اعيش عند اناس قساة ، لا اريد ، لا اريد •

واصطبغ وجه نللى بحمرة شديدة ، والقت على نظرة سريعة •
واضافت تقول للعجوز :

- بعد غد عيد الفصح •• بعد غد سيتعاقب الناس ويتصالحون ويغفر
بعضهم لبعض •• اعرف ذلك •• الا انت •• انت وحدك ! انك رجل
قاس ، اذهب عنى •

واخذت تذرف دموعاً غزيرة • لا شك انها هيأت هذا الخطاب منذ
مدة طويلة ، وحفظته على ظهر القلب ، لتوجهه الى العجوز متى جاء
يدعوها الى الذهاب معه • وتأثر اخمينف تأثراً شديداً ، فامتقع لونه •
وارتسمت على وجهه معانى الألم •

وصرخت نللى فجأة وهى حائقة اشد الحلق :

- ولماذا ، لماذا يهتم بى جميع الناس هذا الاهتمام كله ؟ لا اريد •
لا اريد ، سأمضى اطلب الصدقات •

فهتفت على غير إرادة منى اقول :

- نللى ، ماذا دهاك ؟ نيللى ، بتي !

ولكن صرختى لم تزد على ان صبت فوق النار زيتاً ، اذ صرخت •
نللى متحبة تقول :

— نعم أفضل أن امضى فى الشوارع أطلب الصدقة • لن أبقى هنا •
 لقد كانت أمى أيضاً تتسول ، وحين ماتت قالت لى : « ظلى فقيرة ، ولأن
 تتسولى خير من أن •• ، ليس عاراً ان يتسول الانسان • ان المتسول
 لا يطلب الصدقة من واحد ، بل من جميع الناس ، وجميع الناس ليسوا
 واحداً • من العار أن أطلب الصداقة من واحد ، أما من جميع الناس فلا ••
 هذا ما قالته لى متسولة • أنا صغيرة ، وليس لى مخرج آخر • سأطلب
 الصدقة من جميع الناس • لا أريد ، لا أريد ، أنا شريرة ، أكثر من أى
 انسان : أنظروا كم أنا شريرة •
 قالت كلمتها الأخيرة هذه ، وهى تتناول فنجاناً كان على المنضدة ،
 وترميه على الارض • ثم قالت وهى تنظر الى نظرة تحدّ ظافر :
 — ها قد انكسر •

ثم أضافت :

— ليس عندك الا فنجانان • وسأكسر الفنجان الآخر • فكيف تشرب
 الشاي بعد الآن ؟

كانت كمن مسّه جن ، وكان واضحاً أنها تجد فى هذه السورة
 من الغضب لذة عنيفة : كانت تحس بأن ما تفعله شر وعيب ، ولكنها كانت
 فى الوقت نفسه كأنما تحض نفسها على اقتراف شذوذ جديد •
 قال العجوز :

— انها مريضة •• أو انها •• أنا لا أفهم هذه الطفلة ! الى اللقاء •
 وتناول قبعته ، وصافحنى • كان مهتماً • لقد جرحته نللى جرحاً
 بالغا • وكنت حانقاً أشد الحنق • فصرخت اقول لنللى حين اصبحنا
 يوحدنا :

— كيف لم تشفقى عليه ؟ كيف لم ترحمه ؟ الا تستحين من ذلك ؟
لا ، لا ، أنت لست طيبة ، أنت شريرة حقاً !

قلت ذلك وهرعت وراء العجوز عارى الرأس ، أريد ان أشيعه الى
باب العمارة ، وان أواسيه بوضع كلمات • وخيل الىّ وأنا أهبط السلم
بسرعة اتنى ما زلت ارى وجه نللى متجهماً بتأثير ما وجهت اليها من لوم •
وما لبث ان ادركت صديقى العجوز • قال لى وهو يتسم ابتسامة مرة :
— ان الطفلة المسكينة تشعر بأنها مهانة •• ان لها احزانها ، صدقتى
يا ايفان • وقد اخذت اقصى عليها احزاني ، فكأت جرحها • المثل
يقول : الحللى لا يسمع الشجى ، واني لأضيف الى ذلك ان الشجى نفسه
لا يفهم الشجى دائماً • هيّا • الى اللقاء •

اردت ان اكلمه فى شىء آخر ، ولكنه اشار بيده اشارة يائسة ،
وقال فى نوع من الهياج :

— لا تحاول ان تواسينى • الافضل ان تسهر على ان لا تهرب من
بيتك • لقد قرأت هذه الرغبة فى وجهها •

قال ذلك ثم ابتعد بخطى سريعة وهو يؤرجع ذراعه ويضرب
الرصيف بعصاه • انه لا يتصور انه بكلامه هذا كان نياً •

ذلك اتنى حين عدت الى الغرفة وجدتها خالية مرة اخرى •
لا استطيع ان اصف ما تملكنى عندئذ من رعب ! اسرعت الى المدخل ،
وبحثت عن نللى على السلم ، وناديتها ، حتى لقد طرقت ابواب الجيران
اسألهم هل رأوها • لم استطع ان اصدق ولا اردت ان اصدق انها هربت
ثانية • كيف استطاعت ان تهرب ؟ ليس للعمارة الا باب واحد ، فلعلها
مرت اذن امامنا بينما كنا نتحدث انا والعجوز • ولكننى ما لبثت ان قدرت ،
على اسف وحزن ، انها لا شك قد اختبأت اولا على السلم ، وتربصت

هنالك الى ان صعدت ، فهربت • وبذلك لم يستطع احد ان يراها • قلت
فى نفسى : انها لم تبتعد كثيراً على كل حال •
واسرعت ابحت عنها وقد استبد بى قلق رهيب •• تاركاً الباب
مفتوحاً •

ذهبت اولا الى بيت ماسلوبوف ، فلم اجده ولا وجدت الكسندرا
سيمينوفنا • فتركت لهما بطاقة ابلاغهما فيها المصيبة الجديدة ، وارجوهما
ان يخبرانى عن وصول نللى اليهما اذا وصلت ، ثم ذهبت الى منزل
الطبيب ، فلم أجده هو أيضاً ، وقالت لى خادمتها ان نللى لم تزورها غير
تلك الزيارة الاولى • ماذا اعمل ؟ ذهبت الى بيت بوبنوف فعرفت من امرأة
صانع التوابيت ان الساكنة قد اقيدت الى القسم منذ امس ، وان احداً لم
يرَ نللى منذ ذلك اليوم • وهرعت ثانية الى منزل ماسلوبوف وقد هدنى
التعب والاعياء ، فكان الجواب هو نفسه : لم يجرىء هو نفسه ، لم يجرىء
احد ، ولا عادا هما بعد •• وكانت بطاقتى مازال على المنضدة • لم اعرف
ماذا اعمل •

واتخذت سبيلى الى البيت ، فى ساعة متأخرة من المساء ، وقد استبد
بى قلق خانق قاتل • كان يجب على ان اذهب أيضاً الى ناتاشا ، فقد
استدعتنى اليها منذ الصباح • ولم اكن قد تناولت شيئاً من الطعام النهار
كله • وكان التفكير فى نللى يعذبنى اشد العذاب •

تساءلت : ما معنى هذا ؟ أهو نتيجة لمرضها ؟ أهى مجنونة ، أو
بسبب ان تصبح مجنونة ؟ ولكن أين هى الآن يارب ، أين يمكن ان
اجدها ؟ فما ان صرخت بهذا الكلام حتى لمحتها فجأة ، على خطوات منى ،
فوق جسر ف ••• كانت واقفه قرب فانوس ، ولم تلمحنى • فتساءلت
دهشاً : « ما عساها تفعل هنا » • وقررت ، وأنا واثق من أنها لن تفلت
منى ، قررت ان انتظر وان الاحظها • وانقضى على ذلك عشر دقائق •

لقد ضلت خلال ذلت واقفه في مكانها تنظر الى المارة • وأخيراً ظهر رجل عجوز قصير ، حسن الهندام ، فاقتربت نللى منه ، فأخرج من جيبه شيئاً ، ومده اليها دون ان يتوقف فانحنى له تشكره • لا استطيع ان أصف ما سمرت به في تلك اللحظة • لقد انقبض صدرى انقباضاً اليماً • تراءى لى ان شيئاً كان عزيزاً على نفسى ، شيئاً كنت أحبه ، وأدله ، والأطفه ، واداعبه ، يتسخ في هذه اللحظة ، ويتلوث شرفه ، ولكن الدموع هطلت من عيني في الوقت نفسه •

نعم ، بكيت على صغيرتى نللى ، رغم اننى شعرت في الوقت نفسه باستياء شديد • انها لا تستجدى عن حاجة ، انها لم تقذف الى الشارع ، ولا هجرت • انها لم تهرب من اناس قساة اضطهدوها ، بل من بيت اصدقاء احبوها ودللوها • لكأنها كانت تريد بسلوكها ان تدهش وان تخيف • كان يبدو انها تريد ان تتحدى احداً • ألا ان شيئاً خفياً عجيباً كان يتخمر في نفسها • صدق العجوز • لقد أهينت ، ولم يمكن أن يلثم جرحها ، فكانت تحاول ان تغطيه بهذه التصرفات العجيبة ، بهذا الشك فينا جميعاً ، وهذا الحذر منا جميعاً • كانت تتلذذ بهذا الالم ، كانت تتلذذ بأنانية العذاب هذه ، ان صح التعبير • اننى أفهم هذه الحاجة الى اذكاء هذا العذاب وهذه اللذة : ان هذا شأن كثير من المذلين المهانين الذين اضطدهم القدر ووعوا ما أحاق بهم من ظلم • ولكن ما هو الظلم الذى اوقعناه نحن في نللى ؟ لكأنها تريد ان تدهشنا وان تخيفنا بأعمالها وتزواتها وشدوذها الغريب ، زهواً وتباهياً • ولكن لا ، ليس الامر كذلك ! انها الآن وحيدة ، وما من أحد منا يراها تستجدى • يستحيل ان تجد في ذلك لذة ؟ لماذا تطلب الصدقات ؟ ما حاجتها الى المال ؟

تركت نللى الجسر ، حين تلقت ذلك الدريهم ، واقتربت من نوافذ مخزن من المخازن تضيئه أنوار ساطعة • وأخذت هنالك تعد غنائمها • توقفت على بعد عشر خطوات منها • كان في يدها مبلغ • كان واضحاً

انها ظلت تستجدى طوال اليوم • وعادت فقبضت يدها ثم اجتازت الشارع • ودخلت الى احدى الدكاكين • فأسرعت واقربت من الباب الذى كان مفتوحاً على مصراعيه ، واخذت اراقبها لارى ما عساها تصنع •

فرأيتها تناول البائع درهمها ، ورأيت البائع يخرج لها فنجاناً للشاي ، فنجاناً بسيطاً كالذى كسرتة اليوم لتبرهن لنا ، انا واخمينيف ، على انها شريرة جدا • ان ثمن هذا الفنجان نحو من خمسة عشرة كوبيكاً ، أو يقل ، لفه البائع لها بورقة وحزمه بخيط ، وقدمه اليها ، فأسرعت تخرج من الدكان وقد بدا على وجهها كثير من الرضا • فلما وصلت الى حيث كنت اقف صرخت بها :

— نللى !

فارتعشت ونظرت الى وافتت الفنجان من يديها فسقط على الأرض وانكسر • كانت شاحبة الوجه ، ولكنها حين نظرت الى وأدركت اننى رأيت كل شيء وعرفت كل شيء ، احمر وجهها فجأة • ان هذا الاحمرار يكشف عن شعور بالعار قوى اليم • فأمسكت بيدها ، وقدمتها الى البيت • لم تنبس اثناء الطريق بكلمة واحدة • فلما وصلنا ، جلست ، وظلت نللى واقفة امامى ، واجمة مضطربة • كان الشحوب قد عاد الى وجهها ، وكانت غاضة طرفها ، لا تقوى على النظر الى •

— نللى ، كنت تستجدين ؟

— نعم •

— هل لمتك على كسر الفنجان ؟ هل انتبك ؟ هل تدركين ما فى عملك هذا من شر ، هل تدركين ما فيه من شر متكبر ؟ أحسن ما تفعلينه ؟ الا تشعرين بالعار ؟ الا ••

فقدمت تقول بصوت لا يكاد يسمع ، ودمة تجرى على خدها :

— اشعر بالعار !

— تشعرين بالعار يا نللى ؟ نللى ، بنيتى الغالية ، اذا كنت قد أسأت اليك ، اذا كنت قد اذنبت فى حقك ، فاغفرى لى ، ولتصالح !

نظرت نللى الى ، وتفجرت من عينها الدموع ، وألقت بوجهها على صدرى •

وفى هذه اللحظة دخلت الكسندرا سيمينوفنا كأنها الريح •

— آه •• رجعت ؟ مرة اخرى يا نللى ؟ ، نللى ، ماذا اصابك ؟ الحمد لله على انها رجعت على كل حال ! أين وجدتها يا ايفان بتروفتش ؟ فغمزت الكسندرا سيمينوفنا أطلب اليها أن لا تطرح على هزم الاسئلة ، ففهمت عنى ما اريد • وودعت نللى وداعاً رقيقاً ، وكانت ما تزال تبكى بكاء مرأ ، ورجوت الكسندرا سيمينوفنا الطيبة ان تبقى معها الى أن اعود • واسرعت اذهب الى ناتاشا • كنت قد تأخرت عنها ، فحشت الحطى •

كان مصيرنا يقرر فى ذلك المساء ، كان هناك أشياء كثيرة يجب أن يقولها احداً للآخر ، انا وناتاشا ، ومع ذلك حدثتها عن نللى ، وقصصت عليها كل ما حدث تفصيلاً • فاهتمت ناتاشا بقصتى كثيراً ، بل تأثرت اشد التأثر ، وقالت لى بعد أن فكرت لحظة :

— يخيلى الى يا فانيا أنها تحبك ؟

فأجبتها مدهوشاً ؟

— كيف ؟ ماذا ؟

— نعم ، هذا بداية حب ، حب امرأة •

— ماذا تقولين يا ناتاشا ؟ أنت تحلمين ؟ انها طفلة !

— طفلة سيكون عمرها بعد قليل أربعة عشر عاماً • ان هذا الحق يرجع الى انك لا تفهم حبها ، والى انها ربما كانت لا تفهم هي ايضاً نفسها • لئن كان هياجها طفولياً من كثير من النواحي ، فانه مع ذلك هياج حاد قاس • انها تغار منى ، خاصة • انك من شدة حبك لى لا تكاد تحدثها الا عنى ، دون ان تلتفت اليها • وقد لاحظت هي ذلك ، فأذاها • لعلها تريد ان تكلمك ، لعلها تشعر بالحاجة الى ان تفتح لك قلبها ، ولكنها لا تعرف ، ولكنها تخجل ، وهى لا تفهم نفسها ، وهى تنتظر فرصة من الفرص ، وانت ، بدلاً من ان تعجل هذه الفرصة ، تتعبد ، وتهرب الى • حتى فى ايام مرضها كنت تركها وحيدة اياماً برمتها • انها لهذا تبكى : انها فى حاجة اليك ، وأنت لا تلاحظ ذلك ، وهذا ما يحز فى نفسها اكثر من اى شىء آخر • أنظر : لقد تركتها وحدها حتى فى هذه اللحظة من اجلى أنا ، ستكون غداً مريضة بسبب ذلك • كيف امكنت ان تركها وحدها ؟ ارجع اليها حالا ••

— ما كنت لأتركها لولا ••

— نعم انا استدعيتك ، والآن فاذهب •

— سأذهب ، ولكننى لا أصدق شيئاً مما قلته طبعاً •

— لأنها لا تشبه غيرها ؟ تذكر ماضيها ، فكر فى كل ذلك ، فتصدق

ما قلته لك • لم تكن طفولتها كما كانت طفولتنا نحن ••

مع ذلك عدت فى ساعة متأخرة • فروت لى الكسندرا سيمينوفنا

لان نللى قد بكت كثيراً ، وانها نامت وهى تبكى ، كما حدث فى المساء

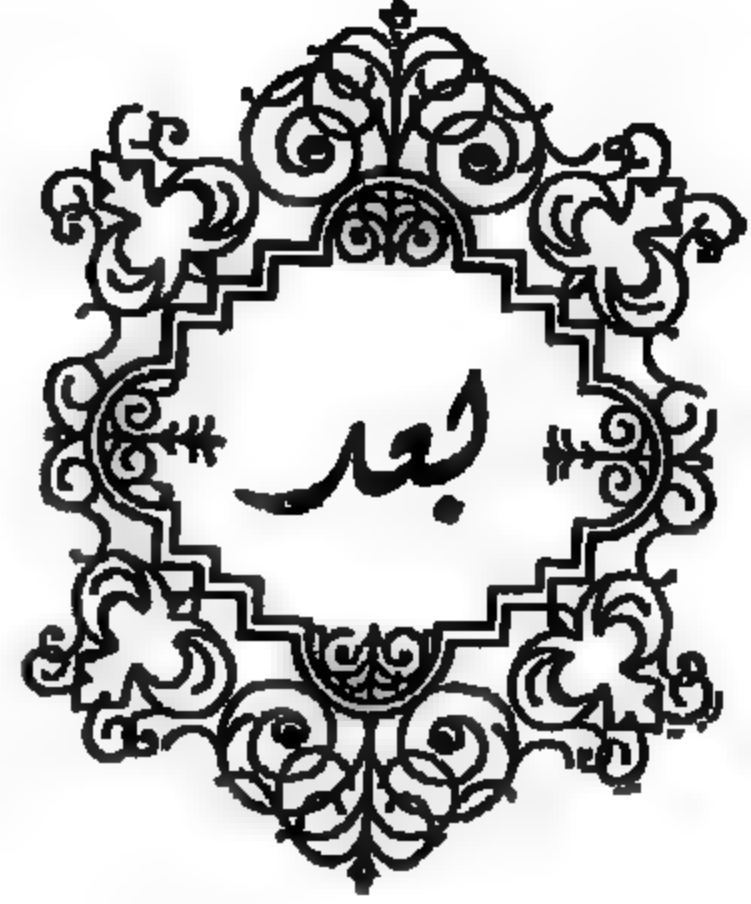
السابق •

- والآن يجب ان اذهب يا ايفان بتروفتش • لقد امرنى فيليب
فيليش بذلك • وهو ينتظرنى •

فشكرت لها صنعها وجلست أمهر على نللى • لقد حزرّ فى نفسى
اننى تركتها فى لحظة كهذه • وبقيت قريبها الى ساعة متأخرة من الليل ،
غارقا فى احلامى •• يالذلك العهد ما كان أشقاء !

ولكن يجب أن أقص ما قد جرى خلال هذه الايام الخمسة عشر •

الفصل الخامس



تلك السهرة الحالدة التي قضيتها مع الأمير في
المطعم ، ظلت عدة أيام خائفاً على ناتاشا . . . بم
يهددها هذا الأمير النذل ، وكيف سينتقم منها؟
هذا هو السؤال الذي كنت أطرحه على نفسي كل
لحظة ، وأمضي أحدهم وأظن وأخمن . . . ثم انتهيت أخيراً الى الاعتقاد
بأن هذه التهديدات ليست مزاحاً ولا فيشاً ، وأن الأمير يمكن أن يسبب
لناتاشا كثيراً من المتاعب ما ظلت تعيش مع اليوشا . انه رجل حقير ،
منتقم ، خبيث ، حسوب . ويستغرب من مثله أن ينسى اهانة ، وأن
لا يتهمز فرصة من الفرص لينأر .

على كل حال ، هناك نقطة من هذه النقطة كلها حدثني فيها صراحة
وهي انه يصر اصراراً حاسماً على القطيعة بين اليوشا وناتاشا ، ويتظر
مني أن أهيب . ناتاشا لانفصال قريب ، فما يكون ثمة « مشاهد مثيرة ولا
درامات شيلرية » . طبعاً ان همه الأول هو أن يظل اليوشا راضياً عنه ،
وان يظل يعده أباً رموفاً : انه في حاجة الى هذا ، حتى يستطيع الاستيلاء
بعد ذلك على ثروة كاتيا بأيسر الطرق . كان على اذن أن أعد ناتاشا
لقطيعة قريبة . وكنت قد لاحظت فيها تغيراً كبيراً . لم يبق في سلوكها
معى شيء من ذلك الانطلاق ، حتى لقد أصبح يبدو أنها ترقاب في
وتحذر منى . أصبح يزعمها ما أقوله لها من كلام على سبيل المواساة ،
وأصبحت تضيق ذرعاً بما أطرح عليها من أسئلة ، بل لقد أصبحت

أُسَلِّتِي تَغْضِبُهَا وَتُثِيرُ حَنَقَهَا • كُنْتُ أَظَلُّ جَالِساً أَنْظُرَ إِلَيْهَا وَهِيَ تَذَرَعُ
الْغُرْفَةَ جَيْثَةً وَذَهَاباً ، وَقَدْ شَبَكَتْ ذِرَاعِيهَا ، وَأَطْرَقَتْ بِرَأْسِهَا ، وَامْتَقَعَ
لَوْنُهَا ، وَبَدَتْ كَأَنَّهَا غَائِبَةٌ ، كَأَنَّهَا نَسِيتْ أَتْيِي مَعَهَا إِلَى جَانِبِهَا ، فَإِذَا وَقَعَ
نَظَرُهَا عَلَيَّ (وَكَانَتْ تَحَاشِي نَظْرَاتِي) ظَهَرَ فِي وَجْهِهَا شَيْءٌ مِنَ الْهِسَاجِ
وَنَفَادِ الصَّبْرِ ، وَتَحَوَّلَتْ عَنِّي بِسُرْعَةٍ • قَدَرْتُ أَنَّهَا تَفَكَّرُ فِي خُطَّةٍ لِنَفْسِهَا
مِنْ أَجْلِ الْقَطِيعَةِ الْوَشِيكَةِ ، وَهَلْ يُمْكِنُ أَنْ تَفَكَّرَ فِي هَذَا دُونَ أَلَمٍ وَدُونَ
مَرَارَةٍ ؟ كُنْتُ مُقْتَنِعاً بِأَنَّهَا قَرَّرَتْ الْقَطِيعَةَ • وَلَكِنْ هَذَا الْيَأْسُ الْمَظْلَمُ كَانَ
يُعَذِّبُنِي وَيُخَيِّفُنِي • حَتَّى لَقَدْ كُنْتُ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ لَا أَجْرؤُ أَنْ أُوْجِهَ
إِلَيْهَا كَلِمَةً وَاحِدَةً عَلَى سَبِيلِ الْمَوَاسَاةِ ، وَكُنْتُ أَنْتَظِرُ الْحَاتِمَةَ مَذْعُوراً •

وَقَدْ أَقْلَقْنِي مَوْقِفُ التَّعَالَى وَالْقُتُورِ ، الَّذِي وَفَّقَهُ مِنِّي ، وَلَكِنِّي كُنْتُ
وَاتِقاً مِنْ قَلْبٍ صَدِيقَتِي نَاتَاشَا • كُنْتُ أَرَى أَنَّهَا تَتَأَلَّمُ كَثِيراً ، وَأَنَّهَا عَزْلَاءٌ
تَمَاماً • فَكُلُّ تَدَخُّلٍ مِنْ قَبْلِ شَخْصٍ آخَرَ لَا يَثِيرُ فِيهَا إِلَّا الْحَقْدَ وَالْعَدَاوَةَ •
وَالْحَقُّ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَزْعِجُهُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأَحْوَالِ تَدَخُّلُ أَحَدٍ مِنْ أَصْدِقَائِهِ
الْخُلَصِّ الْوَاقِفِينَ عَلَى اسْرَارِهِ • وَلَكِنِّي كُنْتُ أَعْلَمُ حَقَّ الْعِلْمِ أَنَّ نَاتَاشَا
سَتَعُودُ إِلَيَّ فِي الدَّقِيقَةِ الْآخِرَةِ تَبْحَثُ فِي قَلْبِي عَمَّا تَتَشَدَّى مِنْ عِزَاءٍ
وَسَلْوَى •

كُنْتُ عَنْهَا حَدِيثِي مَعَ الْأَمِيرِ طَبْعاً : وَلَوْ قَصَصْتُهُ عَلَيْهَا لَمَا زَادَهَا إِلَّا
اضْطِرَاباً وَانْهِيَاراً • وَلَكِنِّي ذَكَرْتُ لَهَا أَنَّي ذَهَبْتُ مَعَ الْأَمِيرِ إِلَى الْكُوتَيْسَةِ
وَأَنَّي أَيْقَنْتُ أَنَّ هَذَا الْأَمِيرَ حَقِيرٌ حَقَارَةً رَهِيئَةً • فَلَمْ تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ
بَصَدَدِهِ ، وَسَرَّنِي مِنْهَا ذَلِكَ • غَيْرَ أَنَّهَا أَصْغَتْ بِشِرَاهَةِ إِلَى كُلِّ مَارُويَةٍ
لَهَا عَنْ لِقَائِي بِكَاتِيَا • فَلَمَّا انْتَهَيْتُ مِنْ حَدِيثِي ، لَمْ تَضِفْ شَيْئاً ، وَلَكِنْ
اصْطَبَحَ وَجْهُهَا الشَّاحِبَ بِحُمْرَةٍ شَدِيدَةٍ ، ثُمَّ ظَلَّتْ مُضْطَرِبَةً طَوَالَ الْيَوْمِ
كُلَّهُ تَقْرِيباً • لَمْ أَخْفِ عَنْهَا شَيْئاً مِمَّا رَأَيْتُهُ فِي 'كَاتِيَا' ، حَتَّى لَقَدْ اعْتَرَفْتُ
لَهَا صَرَاحَةً بِأَنَّ الْفَتَاةَ قَدْ خَلَفَتْ فِي نَفْسِي أَنَا أَيْضاً أَرُوعَ صُورَةٍ • وَفِيمَ

الاخفاء ؟ لو قد أخفيت للاحضت ناتاشا اتنى أخفى عنها شيئاً ، ولزعلت منى . لذلك تعمدت ان أقص عليها كل شىء تفصيلاً ، وحرصت على التنبؤ بجميع أسئلتها التى يسوءها ان تطرحها وهى فى حالتها تلك . هل من السهل على فتاة ان تستخبر عن فضائل غريمتها هادئة البال ؟

وكنت اظن انها ماتزال تجهل ان اليوشا سيصبح الكونتيسة وكاتيا الى الريف ، نزولاً على أوامر ابيه ، وكنت اتساءل قلقاً كيف ابلغها بالنبا على نحو يلطف الضربة اذا امكن التلطيف . ولكن ما كان اشد دهشتى حين استوقفتنى بعد بضع كلمات ، وقالت انه لا داعى الى مواساتها ، فهى تعرف الامر منذ خمسة ايام ، فهتفت اسألها :

— من الذى انبأك بذلك ؟

— اليوشا !

— اليوشا ؟ قال لك ذلك ؟

— نعم . وانا مستعدة لكل شىء يا قانيا .

قالت ذلك ، وقد بدا على وجهها التعلل وظهر انها تؤثر أن يقف

الحديث هنا .

كان اليوشا يأتى الى ناتاشا احيانا كثيرة ، ولكنه لا يمكث عندها الا لحظة قصيرة . وفى مرة واحدة بقى معها بضع ساعات ، وكان ذلك فى غيابى . كان يدخل اليها حزين الوجه ، وينظر اليها نظرة خجل رقيقة . ولكن ناتاشا كانت تظهر له من العاطفة ما ينسيه كل شىء فوراً ، فاذا هو يمرح ويضحك . وكان يأتى الى فى كثير من الاحيان أيضاً ، كل يوم تقريباً . كان يتألم ألماً صادقاً ، وكان لا يستطيع أن يخلو الى حزنه دقيقة واحدة ، فكان يأتى الى تشدانا للسلوى .

ماذا كنت استطيع ان اقول له ؟ كان يلومنى على تقورى نجوه .

وعلى اننى أضمر له العداوة • فكان يتفجع ويبكى ، ثم يذهب الى كاتيا ، فيجد في قريبا عزاء •

ويوم ذكرت لى ناتاشا انها واقفة على أمر سفره (كان ذلك بعد حديثي مع الامير بأسبوع) ، هرع الى يائسا ، فعانقني ، والقي برأسه على صدري ، واخذ يبكي متحجاً كأنه طفل • فسكت انتظر ما سيقوله • وبدأ يقول :

- اننى رجل سيء فاسد يافانيا ، انقذني من نفسي • لست ابكى لأننى فاسد وسيء ، بل لأن ناتاشا مستشقى بسببي • اننى اتركها لشقائها ... قل لى يا فانيا ، يا صاحبي ، قل لى : من منهما أحب أكثر من الاخرى : أكاتيا أم ناتاشا ؟

- لا أستطيع ان اقطع برأى في هذا الموضوع يا اليوشا ، انت أدري منى ...

- لا يا فانيا ، ليس الامر كذلك • لست من الغباوة بحيث اطرح مثل هذا السؤال • ولكن الواقع اننى لا أعرف ... اننى أسأل نفسي ، فما اجد جواباً • وانت ترى الامر من 'بعد' ، فقد تكون أدري منى ... وهبك لا تعرف ... قل لى : ما الذى يترأى لك ؟

- أظن أنك تحب كاتيا أكثر من ناتاشا ؟

- تظن ذلك ! لا ، لا ، هذا خطأ ، خطأ تماماً • اننى احب ناتاشا حبا لا حداً له • ولن أستطيع تركها يوماً • لقد قلت ذلك لكاتيا ، وهى توافقني على رأى • لماذا لا تقول شيئاً ؟ لماذا تبسم ؟ آه منك يافانيا ، أنك وإنيتى يوماً بحزن كان يستبد بى الحزن كما يستبد بى فى هذه اللحظة •

وخرج بسرعة ، وكانت نللى تسمع حديثنا صامتة ، فدهشت أشد

الدهشة من هذا الرجل العجيب .. كانت لاتزال يومئذ مريضة ، لم تبارح سريرها ، وكانت تتناول أدويتها • وكان اليوشا اذا جاء لا يخاطبها بكلمة ، ولا يكاد يتبته اليها •

وعاد بعد ساعتين ، فدُهِشت مما يشيع في وجهه من فرح ، وارتعت مرة اخرى على عنقي يقبلني •

— انتهينا • انحلت مشكلاتنا كلها • لقد ذهبت الى ناتاشا رأسا حين خرجت من هنا • كنت محطماً ، لا أستطيع ان استغني عن لقاءها • فلما دخلت عليها ، ركعت امامها على ركبتي ، وقيلت قدميها : كنت في حاجة الى ثقيل قدميها ، كنت اشتهي ان اقبل قدميها : ولو لم اقبل قدميها لمت حزناً • فقبلتني ناتاشا دون ان تقول شيئاً ، واخذت تبكي • عندئذ صارحتها بلا لف ولا دوران بأنني احب كاتيا اكبر منها •

— وماذا قالت ؟

— لم تجب بشيء ، بل اخذت تلاطفتني وتواسيني .. انا الذي قلت لها ذلك الكلام • انها تعرف كيف تواسي يا ايفان بتروفتش • آه يا فانيا ، شكوت لها كل ما اعاني من شقاء ، بسطت لها كل شيء .. قلت لها صراحة اني احب كاتيا كثيراً ، ولكنني مهما يكن حبي لكاتيا ، لا أستطيع ان اعيش بدونها هي ، واتني اوثر ان اموت على أن أتركها • لذلك اتفقنا على ان نتزوج بلا ابطاء • ولما كان يستحيل علينا ان نتزوج قبل سفرى ، لاتنا في فترة الصوم الكبير ، والزواج حرام في هذه الفترة ، فقد أرجأنا ذلك الى حين أعود في أوائل حزيران (يونيه) • ولاشك أن ابى سيوافق على زواجنا • اما كاتيا • ماذا تريد ؟ انني لا أستطيع ان اعيش بدون ناتاشا ! ثم نمضي نلحق بكاتيا ••

مسكينة ناتاشا ! لا يد أنها قامت كثيراً من الألم لتواسي هذا المصنوع

ولتغنى به ولتصنى الى اعترافه ، ولتخيل خرافة الزواج تلك حرصاً على طمأنينة ذلك الانانى الغرّ • وهذا اليوشا حقاً خلال بضعة ايام • كان لا يسرع الى ناتاشا الا لأن قلبه الضعيف لا يقوى على احتمال الحزن وحيداً • ولكن ما ان اقربت لحظة الفراق حتى عاد الى القلق والدموع • وحتى استأنف مجيئه الى نادباً حظه متوجعاً من شسقاته • لقد بلغ فى الايام الاخيرة من شدة التعلق بناتاشا انه كان يقول انه لا يستطيع ان يتركها يوماً واحداً فكيف بستة اسابيع • وظل من جهة اخرى مقتنعاً الى آخر لحظة بأنه لن يفارقها الا ستة اسابيع ، وان الزواج سيتم عند عودته • اما ناتاشا فقد ادركت كل الادراك ان مصيرها سيتغير ، وان اليوشا لن يعود اليها ابداً فى هذه المرة ، وان الامر يجب ان يكون كذلك •

وجاء يوم الفراق • كانت ناتاشا مريضة • كانت ، وقد شحبت لونها ، والتهبت نظرتها ، وجفت شفتاها ، تحدث الى نفسها تارة ، وتلقى على نظرة حادة نافذة تارة اخرى • كانت لا تبكى ، ولا تجيب على استلتي • فلما دوى صوت اليوشا اخذت ترتعش ارتعاش ورقة فى مهب الريح • واحمر وجهها حتى صار بلون الارجوان ، ووثبت اليه ، فأخذ يعانقها عناقاً قوياً ، ويقبلها ، ويضحك • • كان ينعم النظر فيها ويسألها من حين الى حين عن صحتها ويواسيها بقوله ان غيابه لن يطول وان الزواج سيتم عند عودته • وكانت ناتاشا تبذل جهوداً واضحة من اجل ان تملك نفسها وتحبس دموعها ، فلم تيك امامه •

وقال لها فى لحظة من اللحظات انه سيرك لها مالاً يكفيها طوال مدة غيابه ، فما يجب ان تقلق لهذا الأمر ، لان اياه قد وعده بمبلغ ضخم للرحلة • فقطبت ناتاشا ما بين حاجبيها •

وكنت قد قلت لها حين كنا وحدنا ان هناك مئة وخمسين روبلاً وضعت معي تحت تصرفها للطوارئ • فلم تسألنى عن مصدر هذا المال •

كان ذلك قبل سفر اليوشا بيومين ، وقبل اللقاء الاول والاخير الذي تم بين ناتاشا وكاتيا ، بيوم واحد ، كانت كاتيا قد حملت اليوشا رسالة الى ناتاشا ترحبها فيها ان تسمح لها بزيارتها غداً ، كما كتبت الى رسالة اخرى ترحبني فيها ان اشهد هذا اللقاء .

فقررت ان اذهب الى ناتاشا حتماً عند الظهر (وهي الساعة التي حددتها كاتيا) رغم جميع العوائق ، وكانت هذه العوائق كثيرة : فهناك نللي وهناك المعجوزان اخنيفة اللذان يسيان لي كثيراً من الهموم منذ بعض الوقت .

كانت قد بدأت هذه الهموم قبل اسبوع . استدعتني آنا أندريفتنا ذات صباح ، راجية ان ادع كل شيء وان أوافيها حالا ، لأمر خطير لا يحتمل أى إبطاء . فذهبت اليها ، فوجدتها وحدها تذرع الغرفة جيئةً وذهاباً في حمى من الإضطراب والقلق والخوف ، منتظرة عودة نيقولا سرجتش . وكالعادة ، لبثت مدة طويلة لا أستطيع ان أفهم منها الموضوع ولا ان اعرف ماتخشا كل هذه الحشية ، رغم ان كل دقيقة كانت ثمينة . واخيراً ، بعد عتب عنيف ولوم شديد ، كقولها : « لماذا لا آتي اليها ، لماذا اهجرهما يتيمين وحيدين مع الشقاء رغم ان هناك أشياء كثيرة تحدث في غيابي ، لا يعلم بها إلا الله ؟ » . قالت لي ان نيقولا سرجتش كان منذ ثلاثة ايام في « حالة من الاضطراب لا يمكن وصفها » ، واستطردت تقول :

« انك اذا رأيتبه أنكرته ولم تعرفه ، انه ينهض من فراشه في الليل ، وهو في غمرة الحمى ، فيركع أمام صورة العذراء ، ويأخذ يصلي وهو يهذي أثناء النوم ، ويكاد يكون في اليقظة كالجنون : أمس تعشينا حساءً ، فكان لا يهتدي الى ملعقته . تسأله عن شيء ، فيجيبك عن شيء آخر وهو يخرج من البيت في كل لحظة مدعيًا انه يخرج لبعض الاعمال ،

وانه فى حاجة الى مقابلة محاميه • واخيراً ، فى هذا الصباح ، حبس نفسه فى غرفته قائلاً ان عليه ان يحرر ورقة ضرورية للدعوى • « اية ورقة تستطيع ان تحرر وانت لا تهتدى الى ملعقتك قرب صحنك ؟ » ذلك ماقلته بينى وبين نفسى • وراقبته من ثقب الباب : كان جالساً يكتب والدموع تتدفق من عينيه تدفق الماء من ينبوع • تساءلت: ماعسى أن تكون هذه الورقة ؟ أهو يتحسر على ضياع ارضه اخمينيفكا ؟ ذلك ان ارضنا قد ضاعت يا عزيزى • وانى لا فكر فى هذا ، اذا هو ينهض فجأة ، ويرمى القلم • كان وجهه أحمر ، وكان فى عينيه شرر وتناول قبعته ، وجاء الى يقول : « سأعود بعد قليل يا آنا أندريفنا • » وخرج • فمضيت زائناً الى مكتبه • كان هناك اكداً من الاوراق تتصل بالدعوى ، ولا يسمح لى بلمسها • ما اكر ما سبق أن قلت له « دعنى ارتب لك هذه الاوراق مرة واحدة على الاقل حتى استطيع نفخ الغبار » ، فكان يصرخ ويلوح بيديه • لقد أصبح فى بطرسبرج نافذ الصبر كثير الصراخ • اقتربت من المكتب ، وبحثت عن الورقة التى كان يكتبها • كنت اعرف انه لم يأخذها معه ، فلقد دسها بين اوراق اخرى حين نهض • واليك ما وجدته ، يا صديقى ، انظر قليلاً •

قالت ذلك ومدت الى ورقة من الاوراق التى تكتب عليها الرسائل ، كانت الكتابة تملأ نصف الصفحة تقريباً ، ولكنها كانت من الامتلاء بالشطب بحيث ان بعض الفقرات لا تمكن قراءتها •

مسكين هذا العجوز ! ان المرء يعرف منذ قراءة الاسطر الاولى الموضوع الذى تدور عليه الكتابة ، والشخص الذى توجه اليه الرسالة : انها رسالة الى ناتاشا ، الى حبيبته ناتاشا • انه يبدأ خطابه الى ابنته بلهجة حارة رقيقة ، يغفر لها ويعفو عنها ، ويدعوها ان تعود اليه • كان من الصعب ان تقرأ الرسالة كلها ، فقد كتبت بخط مضطرب مشوش متناثر

وشطب كثير من كلماتها • ولكن القارئ يلاحظ ان العاطفة الدافقة التي املت عليه ان يمسك القلم وان يكتب الاسطر الاولى التي تفيض بالمحبة تبدل فجأة • فاذا العجوز يمضى يقرع ابنته ويصف لها فداحة جريمتها • ويذكرها بعنادها مستاءً مستكراً ، ويتهمها بأنها ليس لها قلب وبأنها لعلها لم تفكر مرة واحدة فيما صنعت بأبويها ، ويهددها بالعقاب واللعن الى الابد جزاء كبرياتها وصلفها • ويختم رسالته بقوله ان عليها ان تعود الى البيت خاضعة طائعة ، حتى اذا رجعت الى اسرتها ، فعاشت بين احضانها حياة جديدة مستسلمة كان يمكن ان يفكروا عندئذ في العفو عنها • كان واضحاً انه بعد ان كتب بضعة اسطر عدّ عاطفته السمحة الكريمة الاولى ضعفاً ، فخجل من هذا الضعف وشعر بما يشعر به المهان من غضب الكبرياء ، ثم انتهى الى الحق والسخط والتهديد • كانت العجوز واقفة امامى وقد كتفت ذراعيها تنتظر على قلق ما سأقوله بعد قراءة الرسالة •

فقلت لها ما أراه صراحة ، وهو ان العجوز اصبح لا يقوى على ان يعيش بدون ناتاشا واننا نستطيع ان نعتقد جازمين بان الصلح القريب اصبح امراً لا بد منه • ولكن كل شيء رهن بالظروف • قلت لها ان خسران القضية قد هزّ العجوز وصعقه ، عدا ملحقه من اذى فى كرامته من انتصار الامير عليه ، وعدا ما اثاره فيه مثل ذلك الحل من استياء واستنكار • والنفس فى مثل هذه اللحظات تبحث عن مظاهر العطف بحثاً لا سبيل الى قهره • فعندئذ تذكر العجوز اكثر من اى وقت مضى تلك التي يحبها حباً فوق كل حب • ومن الممكن ايضاً (ما دام واقفاً على ما يحدث هنالك عند ناتاشا) ان يكون قد سمع ان اليوشا سيهجر ابنته قريباً فقدر ماتقاسيه من آلام فى هذه اللحظة وعرف مدى حاجتها الى المواساة • ولكنه لم يستطع ان يسيطر على نفسه ، لانه يرى ان ابنته قد اهاتته واذلته • ولعله

قدر انها لن نكون البادئة بالمجيء اليه ، وانها ربما كانت لا تفكر فيه اصلاً ، ولا تشعر بالحاجة الى الصلح ، لذلك كله لم يتم رسالته . ومن يدري ؟ فلقد تخرج من هذا كله اهانات جديدة يحسها العجوز اقوى من احساسه بالاهانات الاولى ، فاذا الصلح يربحاً مدة طويلة ايضاً .

كانت العجوز تصغى الى باكية . فلما قلت لها ان على ان اذهب حقاً الى ناتاشا واتى تأخرت عنها هزّت رأسها وقالت : انها نسيت الشيء الاساسى . فانها حين اخرجت الرسالة من بين اكدامس الاوراق ، قلبت دواة الحبر من قلة الاحتياط والحذر . وقد لاحظتُ فعلاً ان ركناً بكامله من ورقة الرسالة كان اسود من اندلاق الحبر عليه . كانت آنا آندريفنا تخشى خشية رهيبية ان يفطن العجوز الى ان اوراقه قد نبشت اثناء غيابه ، والى ان امرأته قد قرأت رسالته الى ناتاشا . ولقد كان خوفها في محله ، اذ يكفى ان يعرف العجوز اننا وقفنا على سره حتى يضاعف حفيظته على ناتاشا خجلاً وحقاً ، وحتى يصر على ان لا يعفو عنها كبرياء وصلفاً . ولكننى بعد ان فكرت في الامر اقنعت العجوز بان لا تقلق ، فان فوجها حين كتب رسالته كان في حالة من الاضطراب لا يستطيع معها أن يتذكر جميع التفاصيل . فقد يظن انه هو الذى لطّخ الورقة ونسى ذلك الآن . فلما طمأننتها بهذه الطريقة قمنا كلانا فأعدنا الرسالة الى مكانها في كثير من الاحتياط والحذر . وحين هممت ان اذهب بدا لى ان احدث العجوز في امر نللى . كان يتراءى لى ان اليشعة المسكينة المهجورة التى كان جدها قد لعن أمها هى الاخرى يمكن ان تؤثر في قلب العجوز بقصة حياتها الحزينة الاليمة ، وأن تحرك فيه عاطفة الكرم والسماحة . لقد كان قلبه مهياً لهذا ، فان الحزن الذى يسببه له غياب ابنته قد اخذ يتغلب على صلفه ، واخذ ينتصر على كبريائه الجريجة . وليس يعوزه الآن الا اندفاع واحدة - الا فرصة مواتية - وهذه هى الفرصة المواتية يمكن ان

تأتى بها نللى • قلت ذلك للعجوز فكانت تصغى الى كلامى باهتمام كبير • وانتعش وجهها بالامل والحماسة • ثم راحت تلومنى على انى لم اذكر لها ذلك منذ مدة طويلة • واخذت تسألنى عن نللى السؤال تلو السؤال • وختمت كلامها بأن قطعت على نفسها عهداً أن تتولى هى نفسها مطالبة زوجها بضمّ الطفلة اليهما • لقد كانت تحب نللى حباً صادقاً ، وكان يحزنها ان نللى مريضة وكانت تسألنى عنها • حتى انها فى ذات مرة حملتنى اليها آنية مملوءة بمربب الفاكهة أسرعّت تأتى بها من دولاب الطعام •• كما جاءتنى بخمسة روبلات فضية لانها قدرت انبى قد لا املك ما ادفعه اجراً للطبيب ، فلما رفضت ذلك غضبت غضباً شديداً ، ولم تهدأ بعض الهدوء الا حين علمت ان نللى فى حاجة الى ملابس داخلية وانها تستطيع اذن ان تخدمها بطريقة اخرى ، فأسرعت الى صندوقها تفض اثوابها واحداً واحداً لتتقى منها ما يمكن ان تقدمه لليثيمة •

ذهبت الى ناتاشا • فلما كنت اصعد السلم الدور الاخير الذى كان مسلماً حلزونياً كما ذكرت ذلك من قبل ، لمحت امام الباب رجلاً كان يهم أن يطرقه ولكنه أحجم حين سمع وقع خطواتى • وأخيراً ، ربما بعد لحظة من تردد ، عدل عن طرق الباب وقفل راجعاً • التقيت به عند الدرجة الاخيرة ، فما كان اشد دهشتى حين نظرت اليه فاذا هو اخنيف • ان السلم مظلم حتى عند الظهيرة • لطا الرجل بالحائط كى يتسح لى ان امر • ما ازال اذكر البريق الغريب الذى كان فى عينيه وهو يحدق فى بالحاح ! وخيل الى أن وجهه اصطبغ بالحمرة ، وقد بدا عليه كسير من الاضطراب والحيرة على كل حال • قال بصوت متعثر :

.. ها •• هذا انت يا فانيا ؟ لقد جئت الى هنا لمقابلة كاتب من كتاب العرائض من اجل القضية نفسها •• سكن هنا منذ مدة قريبة ، ولكن اظن فى غير هذه العمارة • لقد اخطأت • الى اللقاء ••

وهبط السلم بسرعة •

قررت ان لا اذكر شيئاً لناتاشا عن هذا اللقاء الآن ، على ان اتحدث اليها عنه متى سافر اليوشا وبقيت وحدها • انها الآن مهدمة ، فهبها فهمت كل ما يشتمل عليه هذا الحادث من معنى فانها لن تستطيع ان تستقبله وان تحسّه كما يمكن ان تستقبله وان تحسّه متى تغلبت على حزنها ويأسها • ليس هذا الحين حين اتحدث في ذلك •

كان يمكنني ان اعود الى اخنيف بعد خروجي من عند ناتاشا • وكنت ارجب في ذلك رغبة شديدة • ولكن بدا لي ان العجز قد يسوء ان يراني ، حتى لقد يظن انني اسرعت اليه عامداً على اثر لقائنا اليوم • لذلك لم اذهب اليهما الا بعد غد • فرأيت العجز حزينا ، ولكنه استقبلني استقبالا سهلاً ، ولم يتحدث اليّ الا في شئون اعماله • سألتني فجأة :
- قل لي اين كنت ذاهباً ذلك اليوم ؟ يوم التقينا ، ألا تذكر ؟ متى كان ذلك يا ترى ؟ كان ذلك اول امس فيما اعتقد ، أليس كذلك ؟
قال هذا بلهجة من يصطنع عدم المبالاة ، ولكنه حول نظره عني ، فأجبتُه وانا احول نظري عنه ايضاً :

- كنت ذاهباً الى صديق يقطن في ذلك البيت •

- ها ... وانا كنت ذاهباً الى واحد من كتاب العرائض يقال له آستافيف • ذكروا لي انه يسكن ذلك البيت ، ولكنني اخطأت • كنت أحدثك عن الدعوى : نعم • لقد قرروا في مجلس الشيوخ • • الخ الخ واحمر وجهه حين استأنف الكلام على قضيته •

قصص في ذلك اليوم كل شيء على آنا أندريفنا لادخل السرور الى قلبها • ولكنني توصلت اليها ان لا تنظر اليه نظرة خاصة وان لا تشير لاية اشارة من شأنها ان تشعره بانها واقفة على محاولته الاخيرة مهما يكن

الامر • وقد بلغت من الدهشة والفرح انها لم تصدقني في اول الامر •
 وذكرت لي من جهتها انها اشارت الى موضوع نللي • ولكنه ظل صامتاً
 لا يجيب بشيء • مع انه هو الذي كان يصبر في الماضي على ضم الطفلة
 الى البيت • وقررنا ان نطرح عليه السؤال في غد واضحاً بلا مقدمات
 ولا مداورات • ولكننا اصبحنا في الغد على حالة رهبة من القلق •

ذلك ان اخمينيف التقى في الصباح بموظف كان يعنى بقضيته •
 فأخبره هذا الموظف بأنه التقى بالامير واعلمه انه على احتفاظه باخمينيفكا
 قد قرر بسبب بعض الظروف العائلية ان يعوض العجوز برد العشرة
 آلاف روبل اليه • فلما سمع العجوز هذا الكلام جن جنونه اضطراباً
 وجاء الى فوراً : كانت عيناه تلتزمان بشرر من الحق • قادني الى السلم •
 لا يعلم الا الله لماذا • وأمرني أن أذهب حالاً الى الأمير وأن ادعوه الى
 مبارزته • فبلغت من الانشداء انني لم أستطع ان اجمع شتات افكاري •
 وحاولت ان اردّه الى صوابه • ولكنه كان في طور من الهياج لا يجدي
 فيه كلام • حتى ان صحته كانت من ذلك في حالة سيئة • فأسرعت احيته
 بكأس من الماء • فلما عدت لم اجده •

وذهبت اليه في الغد • ولكنه كان قد خرج • ثم اختفى مدة ثلاثة
 أيام •

ولم نعرف الامر كله الا بعد غد • لقد هرع العجوز من عندي الى
 بيت الامير • فلم يجده • فترك له بطاقة يذكر فيها ان الموظف قد نقل اليه
 كلامه • وانه يعد هذا الكلام اهانة قاتلة • وانه يعد الامير رجلاً جباناً •
 وانه لهذا كله يدعوه الى منازلته • وانه ينصحه بأن لا يرفض هذه الدعوة •
 اذا كان لا يريد ان يتلطح شرفه امام الناس •

وذكرت لي آنا أندريفنا انه حين عاد كان في حالة شديدة من
 الاضطراب والاختلاط والتشوش • فكان لا بد ان يرقد في سريره • قالت

العجوز : وقد اظهر لى كثيراً من العطف ، ولكنه لم يكن يجيب على اسئلتى • كان واضحاً انه ينتظر شيئاً من الاشياء بصبر نافذ محموم • وفى صباح غد ، وصلت اليه رسالة بالبريد • فلما قرأها صرخ صرخة مدوية وأمسك رأسه بيديه • وذعرت آنا آندريفنا • وما لبث العجوز ان تناول قبعته ، وحمل عصاه ، وخرج مسرعاً •

كانت الرسالة من الامير ، وفيها ينهى الى اخمينيف ، بعبارات جافة موجزة مهذبة ، أنه غير ملزم بأن يشرح لأحد ما قاله للموظف ؛ وأنه ، على كونه يرثى لحال اخمينيف من خسران القضية ، يؤسفه انه لا يستطيع ان يرى ان من حق الخاسر ان يدعو خصمه للمبارزة انتقاماً • اما ما يهدده به من « تلطخ شرفه » امام الناس ، فهو يرجوه ان لا يقلقه ذلك ، اذ لن يلطخ شرفه امام الناس ، ولا يمكن ان يقع شيء من ذلك ، وانه سيسلم رسالته فوراً الى المراجع المختصة ، وان الشرطة المكلفة بحماية الامن ستتخذ التدابير اللازمة محافظة على النظام •

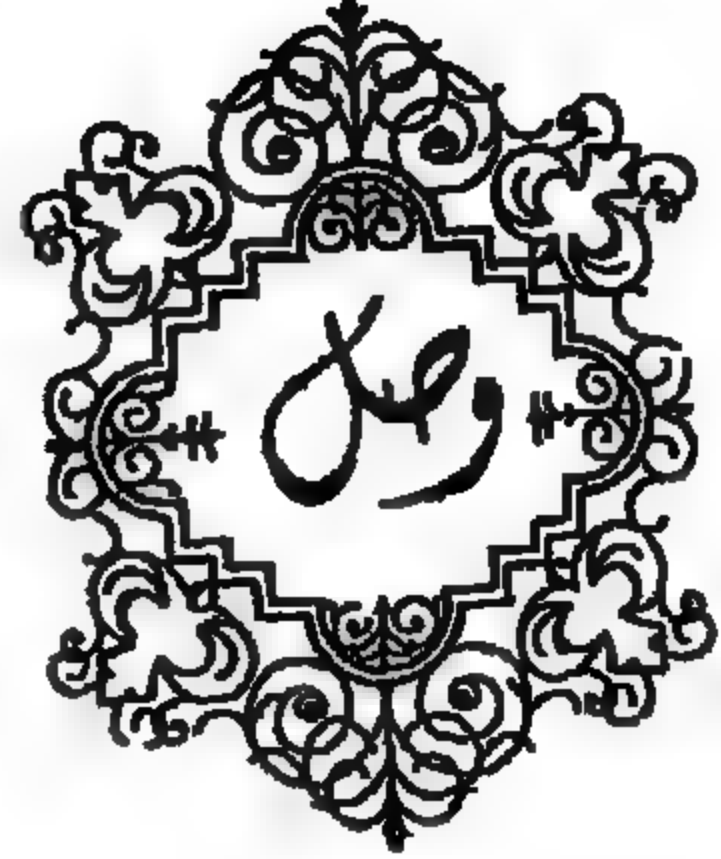
هرع اخمينيف فوراً الى الامير ، وهو يحمل الرسالة بيده ، فلم يجده فى بيته ، ولكنه علم من خادمه ان الامير لابد ان يكون الآن عند الكونت ن ، فمضى العجوز الى الكونت دون ان يفكر فى الامر • فاستوقفه البواب بينما كان يجتاز السلم ، فلم يتورع العجوز عن ضربه بعصاه من شدة الغضب ، فألقى القبض عليه فوراً ، وجُرَّ جراً الى القسم ، واقتيد من هناك الى مفوض الشرطة • وأبلغ الكونت النبأ ، وكان الامير عنده ، فشرح الامير للعجوز الفاسق ان اخمينيف المقبوض عليه هو اخمينيف نفسه ابو ناتاليا نيقولايفنا (لقد سبق للامير غير مرة ان قدم خدمات من هذا النوع للكونت) ، فلم يزد هذا السيد العظيم على ان ضحك ، فانتقل من سورة الغضب الى الشعور بالرافة ، وامر باطلاق سراح اخمينيف ،

ولكنهم لم يطلقوا سراحه الا بعد يومين قائلين له (ولا شك ان ذلك كان بأمر الامير) ان الامير نفسه هو الذي تشفع له عند الكونت .

عاد العجوز الى بيته كالمجنون ، فارتمى على سريره ، ومكث راقداً ساعة بكاملها لا يقوم بأية حركة ، ثم نهض ، واتجه الى آنا أندريفنا المذعورة ، فأعلن لها رافعاً رأسه انه يلعب ابنته الى الابد ، وينزع عنها بركته الأبوية .

كانت آنا أندريفنا مرتاعة أشد الارتياح ، وكان لابد من مساعدة العجوز : وقد ظلت النهار كله والليل كله تحيطه بانواع الرعاية والعناية ، على غير وعى تقريباً ، تبلل صدغيه بالخل ، وتضع على جبينه كمادات الثلج . لقد كان في حمى شديدة ، وكان يهذى . ولم اتركها الا عند الساعة الثالثة من الصباح . ومع ذلك نهض اخميف في الضحى ، وجاء الى يطلب نللى . سبق أن قصص ما دار بينه وبين نللى ، وذكرت أن هذا الذي دار بينه وبينها قد حطمه تحطيماً ، فلما عاد الى بيته رقد في سريره . حدث هذا كله يوم الجمعة المقدسة ، وهو اليوم الذي ضرب موعداً للقاء كاتيا وناتاشا ، قبل سفر أليوشا بيوم واحد . وقد حضرت ذلك اللقاء الذي تم في ساعة مبكرة من الصباح ، قبل وصول العجوز الى ، وقبل هرب نللى أول مرة .

الفصل السادس



اليوشا قبل كاتيا بساعة ، ليبلغ ناتاشا ان كاتيا قادمة . أما أنا فوصلت لحظة كانت عربية كاتيا تقف أمام الباب . كانت كاتيا مع وصيفتها الفرنسية العجوز التي وافقت بعد كثير من التضرع من جانب كاتيا وبعد كثير من التردد من جانبها هي ، على أن تصحب كاتيا الى بيت ناتاشا ، وعلى أن تتركها عندها ، بشرط أن يتم ذلك بحضور أليوشا . نادتنى كاتيا ، ورجتنى ، دون أن تنزل من عربتها ، أن أدعو اليها أليوشا . فصعدت فوجدت ناتاشا تبكى ، ووجدت أليوشا يبكى هو أيضاً . فلما علمت ناتاشا أن كاتيا وصلت ، نهضت وجففت دموعها ، ثم وقفت أمام الباب مضطربة أشد الاضطراب . كانت فى ذلك الصباح ترتدى ثوبا أبيض ، وقد صقلت شعرها الكستائى وربطته عند النقرة بعقدة كبيرة . كنت أحب هذه التسريحة كثيراً . وحين رأت ناتاشا اننى بقيت معها ، رجتنى أن أنزل أنا للقاء الضيوف .

قالت كاتيا ، وهى تصعد السلم :

— لم أستطع أن أجيء قبل الآن . كانوا يتجسسون علىّ بغير انقطاع ، هذا شيء فظيع . ظلمت اداور مدام أليير خمسة عشر يوماً حتى قبلت . وانت يا ايفان بتروفتش ، لم تزرنى مرة واحدة طوال هذه المدة ! كنت من جهتى لا استطيع ان اكتب اليك ، وكنت لا أريد أيضاً ان اكتب

اليك ، لان المرء لا يستطيع ان يفصح بالرسائل عن شيء • ولقد كنت في حاجة شديدة الى رؤيتك • ما لقلبي يدق ! ••

— السلم متعب

— نعم ، ربما كان السلم سيئاً أيضاً •• ولكن ما رأيك ؟ ألن تحنق على ناتاشا؟

— لماذا تحنق عليك ؟

— صحيح ، لماذا تحنق على ؟ سنرى على كل حال •• فلا حاجة الى هذا السؤال ••

ومددت اليها ذراعى • كانت شاحبة جداً ، كأنها خائفة • ووقفت عند المنعطف الاخير تتنفس ، ولكنها ألقت على نظرة ، ثم اخذت تصعد بخطى حازمة •

وتوقفت مرة اخيرة عند الباب ، فقالت لى هامسة :

— سأدخل ببساطة ، وسأقول لها ان لى من ثقتى بها ما جعلنى اجنىء اليها بلا خوف •• ولكن فيم اقول هذا الكلام ؟ اننى على يقين من ان ناتاشا انبل مخلوقة على وجه الارض • أليس هذا صحيحاً ؟

قالت ذلك ثم دخلت خجلى ، كأنها مجرمة ، وألقت على ناتاشا نظرة نافذة ، فابتسمت لها ناتاشا ، فتقدمت عندئذ نحوها بحرارة ، وامسكت يديها ، وأطبقت شفيتها النضرتين على شفتى ناتاشا • وقبل ان تقول لناتاشا كلمة واحدة ، التفتت نحو اليوشا عابسة ، ورجته ان يتركنا وحدنا نصف ساعة • ثم أضافت تقول :

— لا تزعلى يا اليوشا •• سأحدث مع ناتاشا فى أمور خطيرة يجب ان لا نسمعها • كن عاقلاً ، ودعنا وحدنا • اما انت يا ايفان بتروفتش فابق معنا • يجب ان تسمع حديثنا كله •

وقالت لئاتاشا حين خرج أليوشا :

- فلنجلس • سأجلس هنا أمامك • يجب أولاً أن أنظر اليك •
- قالت ذلك وجلست امام نأتاشا وانعمت النظر اليها خلال لحظات •
- كانت نأتاشا تبسم ابتسامة مكرمة •
- قالت كاتيا :

- سبق ان رأيت صورتك •• ارانيها اليوشا •
- فهل اشبه صورتى ؟
- بل انت اجمل منها ، وكنت اقدر ان تكونى اجمل منها •
- قالت ذلك بلهجة جادة جازمة •
- صحيح ؟ ما اجملك انت !
- ماذا تقولين ؟ أنا ••
- قالت ذلك ، ثم اضافت وهى تمسك يد نأتاشا :
- صديقتى ! ••
- وصمتا كلتاها مرة أخرى ، تنظر كل منهما فى صاحبتهما •
- واستأنفت كاتيا تقول :

- اسمعى يا ملاكى ، ليس امامنا الا نصف ساعة نقضيها معاً ، بل
- ان مدام أليير لم توافق على هذه المدة الا فى كثير من العناء • وهناك
- اشياء كثيرة يجب ان نقولها •• اريد •• يجب •• سأسألك بكل بساطة
- هذا السؤال : انت تحيين اليوشا كثيراً ، أليس كذلك ؟
- نعم كثيراً •

- اذا كان الامر كذلك ، اذا كنت تحيينه كثيراً ، فيجب ان تريدى

له السعادة ••

قالت كاتيا ذلك خجلى بصوت منخفض • فأجابتها ناتاشا :

— نعم اتنى اتمنى له السعادة •

— نعم •• ولكن هذا هو السؤال : هل احقق انا له السعادة ؟ اذا كنت ترين ، وهذا ما سنبت فيه الآن ، انك تسعدينه اكثر منى ••
أجابت ناتاشا بصوت خافت وهى تطرق برأسها :

— لقد بُتَّ فى الموضوع وانهى الامر •• انك لترين انت نفسك ان قد بُتَّ فى الموضوع •

كان واضحاً ان متابعة هذا الحديث تشق كثيراً على ناتاشا •
لاشك ان كاتيا كانت تنتظر مناقشة طويلة حول المسألة التالية :
أيهما تضمن السعادة لأليوشا أكثر من الأخرى ، وأيهما ينبغى لها تبعاً لذلك ان تضحى بنفسها ؟ ولكنها فهمت بعد جواب ناتاشا ان الامر قد بت فيه منذ مدة طويلة ، وان الكلام فى هذا الموضوع لا طائل تحته بعد الآن فأخذت تتأمل ناتاشا حزينه حيرى ، وظلت ممسكة بيدها ، وشففتها الجميلتان فاغرتان •

سألتها ناتاشا فجأة :

— وانت ، هل تحببته كثيراً ؟

— نعم • كنت أريد أن أسألك أيضاً ، ومن أجل هذا جئت : لماذا تحببته ؟

فأجابت ناتاشا بلهجة يحس فيها المرء نوعاً مرأ من نفاد الصبر :

— لا ادرى •

— هل تجدينه ذكياً ؟

— لا ، اتنى احبه هكذا ، احبه وكفى •

— وانا ايضاً ، انتى اشفق عليه •

— انا ايضاً •

هتفت كاتيا :

— وما العمل الآن ؟ كيف امكنه ان يتركك من اجلى ؟ انتى لا افهم ذلك بعد ان رأيتك !

لم تجب ناتاشا ، وكانت ماتزال مطرقة الى الارض • وصمتت كاتيا ، ثم نهضت فجأة ، ولقت ناتاشا بذراعيها دون ان تقول كلمة واحدة • واخذت الاثنان تبكيان ، وقد تشبثت احدهما بالآخرى • وجلست كاتيا على ذراع المقعد الذى تجلس عليه ناتاشا ، وهى تشد ناتاشا الى صدرها ، واخذت تقبل يديها ، وقالت وهى تبكى :

— ليتك تعلمين كم احبك يا ناتاشا • • لسوف نكون اختين ، وسوف تراسل • • سأظل احبك الى الابد ، سأحبك كثيراً ، كثيراً • فسألتها ناتاشا :

— هل حدثك عن زواجنا فى شهر حزيران (يونيه) ؟

— نعم ، وقال انك موافقة • كان ذلك لمواسمته ، أليس كذلك ؟ — طبعاً •

— لقد فهمت ذلك • سأحبه كثيراً يا ناتاشا • وسأكتب اليك عن كل شىء • لا شك انه سيكون قريباً زوجى ، فنحن سائران فى هذا الطريق • وانهم ليقولون ذلك جميعاً • عزيزتى ناتاشا ، والآن ستعودين الى بيت اهلك ، أليس كذلك ؟

فلم تجبها ناتاشا ، ولكنها قبلتها بحرارة دون أن تقول كلمة ، ثم قالت :

— أتمنى لك السعادة !

— وأنا أتمنى لك السعادة •

وفي هذه اللحظة 'فتح الباب ، ودخل اليوشا • انه لم يستطع أن ينتظر نصف ساعة • فلما رآهما متعانقتين تبكيان ، ركع على ركبتيه أمام المرأتين الشابتين مهدود القوى يبكى ، فقالت له ناتاشا :

— لماذا تبكى ؟ ألائك تفارقنى ؟ ولكن فراقنا لن يطول ، وستعود فى شهر حزيران •

وأسرعت كاتيا تقول من خلال دموعها لتواسى اليوشا :

— وستزوجان •

— ولكننى لا أستطيع ••• لا أستطيع أن أتركك يوماً واحداً يا ناتاشا • بدونك أموت •• أنت لا تعرفين كم أحبك الآن ياناتاشا ، الآن خاصة !

فقالت له ناتاشا :

— اذن اسمع ما تصنعه يا اليوشا : لا شك أن الكونتيسة ستوقف بعض الوقت فى موسكو ، أليس كذلك ؟

فقالت كاتيا تؤيد كلامها :

— نعم ثمانية أيام •

— ثمانية أيام • عظيم : تصحبها غداً الى موسكو ، ولن يستغرق هذا الا يوماً واحداً ، ومن هناك تعود الى هنا فوراً • حتى اذا قررتا مغادرة موسكو لحقت بهما ، على أن تعود بعد شهر •

فهتفت كاتيا بحماسة ، وهي تبادل وناتاشا نظرة مثقلة بالمعاني :

- نعم ، وبذلك تقضيان معاً عدداً آخر من الأيام •
لا أستطيع أن أصف الحماسة التي تأججت في أليوشا عند سماع هذا الاقتراح • لقد هدأت نفسه فجأة ، وأشرق وجهه بالفرح ، وقبل ناتاشا ، وقبل يد كاتيا ، ثم قبضني • كانت ناتاشا تنظر اليه وهي تبسم ابتسامة مرة ، أما كاتيا فلم تستطع أن تحتمل ، فرشقتني بنظرة ملتزمة ، وقبلت ناتاشا ، ونهضت لتذهب • وفي هذه اللحظة نفسها دخل خادم يقول على لسان المربية الفرنسية ان نصف الساعة قد انقضى ، فهي لذلك ترجو انتهاء المقابلة •

نهضت ناتاشا • ووقفت كل منهما أمام الأخرى ، كأنهما تريدان أن تتناقلا بالنظرات كل ما تجمع في القلب :
- لن نلتقي بعد اليوم أبداً يا ناتاشا •
- نعم لن نلتقي أبداً يا كاتيا •
- وداعاً اذن يا ناتاشا •

وتعانقتا وقبلت كل منهما الأخرى •• وقالت كاتيا بصوت منخفض جداً :

- لا تلغيني يا ناتاشا •• وانا •• الى الأبد •• ثقي .. بأنه سيكون سعيداً ..

ثم قالت لأليوشا بسرعة وهي تتناول ذراعه :

- هيا بنا يا أليوشا ، أنزلني •

فلما خرجت قالت لي ناتاشا وقد هدأها الانفعال والتعب :

- فانيا ، اذهب معهما •• و •• لا تعد •• سيقى اليوشا معى حتى

الساعة الثامنة ، وبعدها يذهب • وسأبقى وحدى •• تعال في نحو الساعة التاسعة ، أرجوك !

وحين وصلت الى ناتاشا في الساعة التاسعة (بعد حادثة كسر الفنجان) تاركاً نللى مع الكسندرا سيمينوفنا ، كانت ناتاشا وحدها ، وكانت تنتظرني بصبر ذاهب • وحملت مافرا اليها السماور ، فصبت لى ناتاشا الشاى ، وجلست على الأريكة ، وأجلستى قربها •

قالت وهى تحقق فى (لن أنسى نظرتها تلك ما حيت) :

— انتهى كل شيء • انتهى حبنا •

ثم أضافت وهى تشد على يدي بيدها الملتهبة :

— فى ستة أشهر ، والى الابد ••

فنصحت لها بأن ترتدى ثياباً دافئة وأن تنام •

— سأفعل ذلك حالاً ، يا فانيا ، حالاً ، يا صديقى الطيب • ولكن

دعنى الآن أتكلم ، دعنى أتذكر قليلاً •• اننى الآن كالمحطمة •• غداً ،

فى الساعة العاشرة ، سأراه آخر مرة •• آخر مرة •

— ناتاشا ، ان بك حوى ••• وستنابك الرعدة بعد قليل • دارى

نفسك ••

— ماذا تقول يا فانيا ؟ اننى انتظرك منذ نصف ساعة ، منذ ذهب •

هل تعرف فى أى موضوع كنت أفكر خلال هذه المدة ، هل تعرف عن أى

شيء كنت أتساءل ؟ كنت أسأل نفسى هل أحبيته أولاً ، وماذا كان هذا

الحب ! قد ترى من المضحك أننى لم أطرح على نفسى هذا السؤال الا

الآن !

— هدئى نفسك يا ناتاشا •

— هل تعرف يا فانيا ؟ لقد أدركت أننى لم أكن أحبه حب الندّ

للندّ ، كما تحب امرأة رجلاً فى العادة • لقد أحبيته •• تقريباً كما تحب

أم ابنها • ويخيل الىّ انه ليس على وجه الأرض حب بين ندّين •

ما رأيك فى هذا ؟

نظرت اليها قلقاً ، وأنا أخشى أن تكون قد اتبعتها نوبة شديدة من الحمى • كان يبدو أنها فقدت سلطانها على نفسها : كانت تشعر بحاجة الى الكلام ، فكانت تقول من حين الى حين كلاماً لا روابط تربطه ، بل كانت تقول في بعض الاحيان كلاماً لا تحسن النطق به • وشعرت أنا بكثير من الغم والقلق • وتابعت ناتاشا تقول :

— لقد كان لي • اننى منذ لقيته أول مرة تقريباً ، شعرت بحاجة لا تقاوم الى أن يكون لي ، الى أن لا يرى أحداً غيرى ، الى أن لا يعرف أحداً غيرى ، غيرى أنا •••

ان كاتيا على حق في رأيها : كنت أحبه حباً اشفاق عليه •• كنت دائماً اتمنى بعنف وحرارة ان يكون سعيداً كل السعادة الى الابد (كان هذا ما يعذبني حين ابقى وحدي) • لم استطع في حياتي يوماً ان انظر الى وجهه بهدوء وطمأنينة (انت تعرف تعبير وجهه) : لا يمكن لأحد أن يكون له هذا التعبير في الوجه •• وكنت اذا ضحك اتجمد ، وارتعش •• نعم ! ••

— اسمعى يا ناتاشا •••

— كانوا يقولون ، وكنت انت تقول ايضاً ، انه لا ارادة له ••• وان عقله ليس انمى من عقل طفل •• نعم ، وهذا بعينه هو ما كنت احبه فيه ، هل تصدق ذلك ؟ ولكننى لا ادرى هل كنت احب فيه هذا وحده ••• لقد كنت احبه كله وكفى •• ولو قد اختلف قليلاً عما كان ، لو قد كان ذا ارادة وذا ذكاء اذن لكان يمكن ان لا احبه ذلك الحب كله • سأعترف لك بشيء يا فانيا : انك تذكر اتنا تشاجرنا مرة منذ ثلاثة اشهر حين كان يختلف الى تلك المرأة ، ماذا كان اسمها ؟ نعم الى تلك المرأة التى كان اسمها مينا •• كنت اعرف أنه يذهب اليها ، فقد كلفت احداً بمراقبته ، وكنت اتألم الماً رهيباً لا يطاق •• ولكننى في الوقت نفسه كنت اشعر

بشيء من السرور .. لا ادرى لماذا ؟ كنت اذا تصورت أنه يستمتع ..
لا .. لا .. ليس هذا هو الامر .. كنت اذا تصورت انه يغازل البنات
هو ايضاً ، وانه ذهب الى مينا ، ككتاب كبير مع غيره من الشباب الكبار ،
اشعر بلذة عظيمة . آه ما كان اشد سرورى بتلك المشاجرة ، وبالعفو عنه
بعد ذلك . يا حبيبي يا اليوشا !

قالت ناتاشا ذلك ونظرت الى وجهها لوجه ، وضحكت صخكة
غريبة ، ثم راحت تفكر .. كان يبدو انها تستعيد ذكرياتها . وظلت على
هذه الحال مدة طويلة ، غارقة فى الماضى ، والابتسامة فى شفتيها . ثم
استأنفت تقول :

— كنت ، يافانيا ، احب ان اغفر له ، كنت اجد فى العفو عنه سعادة
كبيرة . كنت حين يتركنى وحدى ، اظل امشى فى الغرفة مهتاجة باكية ..
وكنت فى الوقت نفسه اقول لنفسى : « كلما اذنب فى حقى ، كان ذلك
احسن » نعم .. وكنت اتخيله دائماً صبيّاً صغيراً : يلقي رأسه على ركبتي
وانا جالسة ، ويغط فى نوم عميق ، وأداعب انا شعره .. على هذه الصورة
كنت اتخيله دائماً ، حين لا يكون معى ..

وفجأة قالت :

— اسمع يا فانيا ، ما هذه الفتاة الساحرة ، كاتيا !

خيل الى أنها تنكأ جرحها عامدة ، وتشعر بحاجة الى مزيد من
اليأس والعذاب . ان هذا ليقع كثيراً لمن اصاب قلبه بخسارة فادحة لا طاقة
له على احتمالها . وتابعت ناتاشا كلامها تقول :

— أعتقد ان كاتيا تستطيع ان تسعده . ان لها ارادة قوية . يدل
كلامها على ثقتها بنفسها . انها معه جادة صارمة . وهى تحدثه فى أمور

ذكية كأنها شخص كبير ، مع أنها ليست الا طفلة • ما أعذبها ! أرجو لها السعادة ، نعم ، أتمنى ان يسعد كل منهما بالآخر •

قالت ذلك واخذت الدموع تهطل من عينيها ، ثم أفلت النحيب فجأة يخرج من اعماق قلبها • وظلت على هذه الحال نصف ساعة ، لا تستطيع ان تثوب الى رشدتها ، ولا ان تهدىء روعها •

يا لها من ملاك ، ناتاشا هذه • لقد استطاعت منذ ذلك المساء ، رغم ما بها من حزن ولوعة ، أن تشاركني همومي ، حين لاحظت أنها هدت قليلاً او تعبت ، فأردت ان اسليها ، فحدثتها عن نللي • • وقد تركتها ذلك المساء في ساعة متأخرة • انتظرت ان تنام • فلما انصرفت رجوت مافرا ان لا تدع سيدتها المريضة طوال الليل •

— آه • • • اما لهذه الآلام من آخر ! ألا فلتته على أي نحو من الانحاء ، شريطة ان تنتهى بسرعة !

بهذا الكلام هتفت حين وصلت الى بيتي •

وفي الساعة التاسعة تماماً من الغد كنت عند ناتاشا • ووصل أليوشا في الوقت نفسه ليودعها • لن اتحدث عن هذا المشهد ، لا أريد ان اتذكر هذا المشهد • لا شك ان ناتاشا كانت قد قطعت على نفسها عهداً ان تسيطر على مشاعرها ، وان تبدو مرحة لا تبالي • ولكنها لم تقو على ذلك • عانقت أليوشا عناقاً قوياً ، ولم تكلمه الا قليلاً ، بيد انها تأملته طويلاً بالحاح • كانت نظرتها معذبة تائهة • كانت تلتهم بشراهة كل كلمة ينطق بها ، وكان يبدو انها لا تفهم شيئاً مما يقول • • اذكر انه سألها ان تغفر له ، ان تغفر له هذا الحب ، وان تغفر له ما سببه لها من آلام ، وان تغفر له خياناته • وان تغفر له حبه لكاتيا ، وان تغفر له سفره • • كان يسوق كلامه متقطعاً تخنقه الدموع • وفجأة أخذ يواسيها ، فيقول لها انه لا يتركها الا شهراً واحداً او خمسة اسابيع في اكثر تقدير ، وانه سيعود

فى اول الصيف ، وانهما سيتزوجان ، وان أباه سيوافق على هذا الزواج ،
وانه خاصة ، سيعود من موسكو بعد غد ، فيقضيان معاً اربعة ايام اخرى،
وانهما لا يفترقان الآن اذن الا يوماً واحداً .

الشيء الغريب انه كان مقتنعاً كل الاقتناع بأنه يقول الحق ، وبانه
سيعود حتماً بعد غد . فلماذا كان يبكى اذن ، ولماذا كان حزيناً هذا
الحزن كله ؟

ودقت الساعة الحادية عشرة . فأنفسته بأن يذهب بعد كثير من
العناء ، ذلك ان قطار موسكو يتحرك فى الثانية عشرة ، فلم يبق له الا
ساعة واحدة . وقد ذكرت لى ناتاشا فيما بعد انها لا تذكر النظرة الأخيرة
التي ألقتها عليه . لقد رسمت عليه اشارة الصليب وقبلته ، ثم غطت وجهها
بيديها واسرعت تعود الى غرفتها . واضطرت ان اقود أليوشا الى عربته،
والا لرجع ادراجه حتماً ، ولما استطاع ان يهبط السلم . قال لى وهو
ينزل :

— أملى كله فيك يا فانيا . انا مذنب فى حقك ، ولم استحق صداقتك
يوماً ، ولكن كن أخاً لى حتى النهاية ، أحبها ، لا تركها ، اكتب الى
عن كل شيء ، بكل ما يمكن من تفاصيل . . . سأعود بعد غد حتماً ،
ولكن اكتب الى بعد ان اسافر .

واجلسه فى عربته .

وهتف يقول لى وقد سارت العربى .

— الى غداة غد ، حتماً .

وعدت اصعد الى ناتاشا مهدم القلب . كانت واقفة فى وسط الغرفة
مكتفة يديها ، تنظر الى نظرة حائرة كأنها لا تعرفنى . كان شعرها
المنفوش متهدلاً الى جانب . وكانت تائهة النظرة . وكانت مافرا تقف

عند الباب طائشة العقل ، تنظر اليها ملتاعة مذعورة • وفجأة التمعت عينا ناتاشا ، وصرخت تقول :

— ها •• هذا أنت •• انت • لم يبق لي غيرك الآن • لقد كنت تكرهه • انك لم تستطع يوماً ان تغفر له حبه اياي •• وهأنت ذا قربي مرة اخرى تريد ان تواسيني ، وان تحضني على العودة الى ابي الذي هجرني ولعنتي •• عرفت ذلك منذ امس ، بل اتى اعرفه منذ شهرين ! لا ، لا اريد ، انا ايضاً ألغتهما •• اذهب ، لا استطيع ان اراك ، اذهب عني ، اذهب عني !

ادركت انها تهذى ، وان رؤيتي قد ايقظت في نفسها حقناً مجنوناً! كان ذلك امراً لا بد منه ، ورأيت ان على ان ابتعد • فخرجت وجلست على الدرجة الاولى من السلم ، وكنت انهض من حين الى حين فافتح الباب وانادى مافرا ، واسألها • كانت مافرا تبكي •

وقضيت على هذه الحال نصف ساعة • لا استطيع ان اصف ما كنت أشعر به أثناء ذلك • كان قلبي ينهار ، كان يطجئه عذاباً لا نهاية له • وفجأة فُتح الباب ، فرأيت ناتاشا تخرج مرتدية اجمل ثيابها ، واضعة قبعتها على رأسها ، وتسرع تهبط السلم • كانت كالغائبة عن وعيها • وقد ذكرت لي هي نفسها فيما بعد انها لاتكاد تذكر تلك اللحظة ، وانها كانت لا تعرف اين تذهب ، ولا لماذا تخرج !

ماكدت انهض لاختبيء حتى لمحتني فجأة ، فوقفت امامي بلا حراك كأن صاعقة أملت بها •

وقد قالت لي فيما بعد : « تذكرت فجأة اني طردتك ، انت يا من كنت صديقي ، واخي ، ومنقذي •• ما كان افدح جنوني وما كان اشد فسوتي ! فلما لمحتك ، شقياً جريحاً الكبرياء ، تنتظر على سلمى ان

اناديك .. آه .. يارب .. ليتك تعرف يا فانيا ما الذى شعرت به عندئذ
 .. لقد أحسست بقلبي يُطعن .. »

هتفت وهى تمد الى يدها :

— فانيا ، فانيا ، أنت هنا ؟

والقت بنفسها على ذراعى ..

فأمسكت بها ، وحملتها الى غرفتها . كانت مغشياً عليها . تساءلت :
 ما العمل ؟ لاشك ان نوبة شديدة من الحمى مستتابةا .

وقررت ان اهرع الى الطبيب استدعيه . يجب خنق المرض قبل
 تفاقمه . وكان فى وسعى ان افعل ذلك بسرعة : ان صاحبى العجوز
 الألمانى يبقى فى بيته عادة حتى الساعة الثانية ، فمضيت اليه بعد أن توسلت
 الى مافرا ان لا تترك ناتاشا لا دقيقة ولا ثانية ، وان لاتدعها تذهب الى أى
 مكان . وقد رأف بى الله ، فلو اننى تأخرت قليلاً لما وجدت صاحبى
 العجوز . لقد التقيت به فى الشارع خارجاً من بيته . وماهى الا طرفه
 عين حتى اركبته عربتى ، وعدنا الى ناتاشا قبل ان يفىء الرجل الى
 نفسه .

نعم ، لقد رأف بى الله . فقد وقع اثناء غيابى حادث كان يمكن ان
 يجهز على ناتاشا لولا اتنا وصلنا انا والطبيب فى اللحظة المناسبة . ان
 الأمير قد جاء اليها بعد ذهابى بربع ساعة ، وكان عائداً من المحطة حيث
 ودّع المسافرين . لا شك أنه قد بيّت هذه الزيارة منذ مدة طويلة وقد
 روت لى ناتاشا فيما بعد انها لم تدهش فى اول الأمر لرؤية الأمير .
 « كان فكرى فى حالة اضطراب واختلاط ، هذا ما قالته لى .

جلس الأمير امامها ينظر اليها بتودد وعطف . ثم قال لها وهو

يتنهد :

- اننى افهم حزنك يا بنيتى العزيزة • كنت اعرف ان هذه اللحظة ستشق عليك كثيراً ، لذلك رأيت من واجبى ان ازوك • ليكن عزائك ، اذا استطعت الى العزاء سيلاً ، انك بالعدول عن اليوشا تحققين له السعادة وانت تعرفين هذا خيراً منى ، مادمت قد اقدمت على هذا العمل البطولى • قالت لى ناتاشا : « كنت جالسةً أصغى اليه ، ولكننى فى أول الأمر كنت لا افهم ما يقول • اننى اتذكر الآن انه كان ينظر الىّ بلا انقطاع ثم تناول يدى وشدَّ عليها ، وكان يبدو عليه ان ذلك يسره كثيراً • وقد بلغت من شدة الذهول اننى لم يخطر ببالى ان اسحب يدى من يده • »

وتابع الامير يقول لناتاشا :

- لقد ادركت انك اذا تزوجت اليوشا فقد توقطين فى نفسه شعور الكره نحوك ، وكان لك من نبل الكبرياء ماجعلك تدركين ذلك وتقررين ان .. ولكننى لم اجىء الى هنا لاثنى عليك ، وانما اردت ان ابلغك اننى سأكون لك خير صديق • اننى اشاطرك حزنك ، واشفق عليك ، وارثى لحالك ، لقد اسهمت بالرغم منى فى هذا الموضوع كله • ولكننى بذلك قد قمت بواجبى • ان لك من نبل القلب ما يجعلك تفهمين هذا الامر ، وما يحملك على المغفرة لى والعفو غنى • لقد تأملت اكثر منك ، صدقنى • فقالت له ناتاشا :

- كفى يا امير ، دعنى وشأنى •

فأجابها بقوله :

- انا ذاهب طبعاً • ولكنى احبك كما يحب الاب ابنته • فاسمحى لى ان ازورك من حين الى حين • عدينى كأبيك • عدينى كأبيك بعد الآن ، واذا استطعت ان افيدك فى امر من الامور ••

فقاطعت ناتاشا مرة اخرى قائلة له :

.. لست فى حاجة الى شىء •

- اعرف كبرياءك ، ولكتنى أكلمك الآن مخلصاً من أعماق قلبى •
 ما الذى تتوین أن عملیه الآن ؟ هل تتوین أن تصالحى أهلك ؟ ان ذلك
 يمكن أن يكون حلاً سعيداً جداً • ولكن اباك ظالم ، متكبر ، مستبد •
 اغفرى لى هذا الكلام • ولكن تلك هى الحقيقة • لن تجدى الآن فى بيت
 ابيك الا اللوم والتقريع وآلاماً جديدة • • يجب اذن ان تظلى الآن
 مستقلة ، ومن واجبى انا ، من اقدس واجباتى انا ، ان أعنى بك وان
 اساعدك • وقد ضرع الى أليوشا ان لا اتركك وان اكون لك الصديق
 الوفى • وهناك اشخاص آخرون يضمرون لك أعمق الاخلاص • أمل
 ان تسمحى لى بأن اقدم لك الكونت ن • • ان له قلباً نبيلاً رائعاً ، وهو من
 اقاربنا ، بل استطيع ان اقول انه المحسن الى الاسرة كلها • لقد خدم
 أليوشا كثيراً • وأليوشا يحترمه ويحبه • انه رجل واسع السلطان ، كثير
 النفوذ • • وهو عجوز جداً ، فلا خرج فى ان تستقبله فتاة فى بيتها •
 سبق ان حدثته عنك • وهو يستطيع ان يوظفك • بل يستطيع ان يجد
 لك عملاً ممتازاً لدى أحد اقاربه • لقد بسطت له قضيتنا كلها منذ مدة
 طويلة ، بسطتها له بصراحة ، فاستجابت عواطفه الطيبة النبيلة كل
 الاستجابة ، حتى انه طلب الى هو نفسه ان اقدمك اليه فى اقرب فرصة
 • • انه رجل يحب كل ما هو نبيل جميل ، صدقنى ، انه شيخ محترم
 كريم ، يعرف كيف يقدر الناس حق قدرهم • حتى انه ، منذ مدة
 وجيزة جداً ، تصرف ابنل التصرف ، اثناء حادثة وقعت لابيك •

فنهضت ناتاشا كأنما لسعتها افعى • انها تفهم الآن ماذا يريد ،
 وصاحت به :

- دعنى ، اذهب عنى ، حالاً •

- ولكن لا تنسى يا عزيزتى ان الكونت يمكن ان يفيد اباك ايضا •

— أبى لن يقبل منكم شيئاً • هل لك ان تذهب ؟

بهذا صاحت ناتاشا مرة اخرى ، فقال الامير ، وهو ينظر حوله بشيء من القلق :

— كم انت ريابة حذرة قليلة الصبر !

واضاف يقول ، وهو يخرج من جيبه حزمة كبيرة :

— على كل حال ، هل تسمحين لى بأن اترك لك هذا الدليل على ما أكنه لك من عاطفة ، وخاصة على ما يكنه لك الكونت من عاطفة ••• انه هو الذى حضنى على القيام بهذا المسعى •• ان هذه الحزمة تضم عشرة آلاف روبل •

فلما رأى ناتاشا تنهض غاضبة حائقة استأنف يقول :

— انتظرى يا صديقتى ، اصبرى على كلامى حتى اتمه : انت تعرفين ان اباك قد خسر دعواه : وهذه الآلاف العشرة من الروبلات هى التعويض عن •••

— اذهب ، اذهب انت وروبلاتك • انتى اعرفك •• انت حقير ، حقير ، حقير !

ونهض الامير وقد امتقع لونه من شدة السخط •

لقد جاء الامير الى ناتاشا مستكشفاً يريد ان يعرف وضعها وان يجس نبضها •• وكان يعتمد اعتماداً كبيراً على ما قد تحدثه هذه الآلاف العشرة من الروبلات من أثر بعد ان هجرها جميع الناس وأصبحت بلامورد •• لقد سبق لهذا المخلوق القدر أن أدى للكونت ن ••• العجز الشهوانى ، خدمات كثيرة فى شئون من هذا النوع ، ولكنه كان يبخس ناتاشا ، فلما رأى الصفقة لم تتم ، غير لهجته فجأة ، واسرع يهينها ، وهو فرح بذلك فرحاً خيئاً ، على الاقل حتى لا يخرج صفر اليدين •

قال بصوت يرتجف قليلاً من رغبته الجامحة فى ان يرى اثر اهاتته
بأقصى سرعة :

— لا يحسن ان تغضبى يا طفلى ، لا يحسن ان تغضبى ابداً • أنقدم
نك الحماية ، ثم تشمخين بأنفك ؟ ألا تدرين ان عليك ان تشكرينى ؟
لقد كان فى وسعى ان اسوقك الى السجن منذ مدة طويلة ، كآب أفسدت
اخلاق ابنه الشاب وسرقت ماله • • ومنع ذلك لم افعل شيئاً من هذا • •
هى • هى • هى •

ولكننا كنا فى هذه اللحظة ندخل البيت • كنت قد سمعت صوته
ونحن عند المطبخ ، فاستوقفت الطيب لحظة ، واصغيت الى الجملة الاخيرة
التي قالها • سمعت ضحكة شنيعة تدوى فى الغرفة ، وسمعت ناتاشا فى
الوقت نفسه تصرخ يائسة • يا رب ! • • ففتحت الباب ، وهجمت على
الامير ، فبصقت فى وجهه ، وأخذت أصففه بكل ما أوتيت من قوة •
وقد أراد أن يهجم على ، لكنه رأى اننا اثنان ، فهرب بعد أن تناول حزمة
الروبلات من على المنضدة • نعم ، لقد فعل ذلك ، رأيت به عيني رأسى •
فاندفعت ورائه حاملاً شوبقاً تناولته من على مائدة المطبخ • • • فلما عدت
الى الغرفة ، كان الطيب يمسك بناتاشا التي كانت تصارعه مهتاجة وتحاول
ان تفلت منه • ولم نستطع ان نهديء روعها الا بعد مدة طويلة ، واستطعت
اخيراً ان نمددها على سريرها • كانت تهذى •

سألت الطيب وأنا أكاد أموت ذعراً •

— ما الذى بها يا دكتور ؟

فأجابنى بقوله :

— انتظر ! يجب ان الاحظها مزيداً من الملاحظة ، وان افكر • • •

ولكن الأمر خطير قد ينتهي الى نوبة حمى حارة • على كل حال سنتخذ الاحتياطات اللازمة •

الا ان فكرة اخرى كانت قد استولت على • فتوسلت الى الطبيب ان يمكث عند ناتاشا ساعتين او ثلاث ساعات ايضاً ، وناشدته ان لا يتركها لحظة واحدة ، فوعد بذلك ، واسرعت الى بيتي •

كانت نللي جالسة في ركن من اركان الغرفة ، قاتمة مضطربة ، فلما رأته نظرت الى نظرة غريبة • لا شك ان منظرى انا كان غريباً ايضاً •

فتناولت يدها ، وجلست على الارىكة ، وأجلستها على ركبتيها الى جانبي ، وقبلتها قبله فيها رقة وحنان • فاصطبغ وجهها بحمرة قانية • قلت لها :

- نللي ، ملاكى ، هل لك ان تنقذينا ؟ هل لك ان تنقذينا جميعاً ؟

فنظرت الى مرتبة مشوشة • واردفت اقول :

- نللي ، املنا كله فيك • هناك أب ، أب رأيتہ وتعرفينه ، هذا الاب

قد لعن ابنته ، وجاء امس يريد ان يضمك اليه بدلاً من ابنته ؟ ابنته تلك ، ناتاشا (التى قلت انك تحيينها) قد هجرها الآن ذلك الذى كانت تحبه ، والذى من اجله تركت أباهما • انه ابن ذلك الأمير الذى جاء ذات مساء الى هنا ، تتذكرين ذلك ، فوجدك وحدك فى البيت ، فهربت حتى لا تريه ، ومرضت بعد ذلك ، هل تعرفينه ؟ انه انسان شرير خبيث !

- أعرف •

قالت ذلك ، وارتعدت وامتعق لونها •

- نعم انه انسان خبيث شرير ، يكره ناتاشا ، لان ابنه اليوشا كان

يريد ان يتزوجها ، لقد سافر اليوشا ، وبعد ساعة جاء ابوه الى ناتاشا ،

فأهانها ، وهددها بزجها فى السجن ، وهزىء بها ، هل تفهميتنى يا نللى ؟
التمعت عينا نللى ، ولكنها خفضتهما ، وقالت بصوت لا يكاد يسمع :
- أفهم •

- وناتاشا ، الآن ، وحيدة ، مريضة ، تركتها مع صاحبنا الطيب ،
واسرعت اليك • اسمعى يا نللى : لنذهب الى والد ناتاشا ، انت لا تحيينه ،
وقد رفضت أن تذهبنى اليه ، ولكن فلنذهب اليه الآن معاً ، سأقول له حين
ندخل عليه انك تقبلين ان تجيئى اليه ، وان تكونى بمثابة ابنته • ان
المعجوز مريض ، لانه لمن ناتاشا ، ولأن والد اليوشا قد أهانه فى هذه
الايام الاخيرة اهانة قاتلة • انه الآن لا يريد ان يسمع احداً يحدثه عن
ابنته ، ولكنه يحبها ، يحبها يا نللى ، ويتمنى ان يصلحها ، انى اعرف
ذلك ، ولا أشك فيه ، هل تسمعيتنى يا نللى ؟

فقال نللى بصوت ما يزال منخفضاً :

- نعم !

كنت وانا اكلهما اذرف دموعاً غزيراً • وكانت تلقى على نظرات
بخجلى •

- هل تصدقين ما أقوله لك ؟

- نعم •

- اذن سنذهب • سأذهب بك اليهما ، وسوف يستقبلانك احسن
استقبال ، وسوف يغمرانك بملاطفاتهما • وسيطرحان عليك امثلة
كثيرة • سأتولى انا ادارة الحديث بحيث يسألانك عن ماضيك ، وعن امك ،
وعن جدك • فقصى عليهما كل شىء كما قصصته على •

قولى لهم كل شىء ، ببساطة ، لا تخفى عنهم شيئاً • ستذكرين لهم

كيف ان رجلاً شريراً قد هجر امك ، وكيف انها ماتت في قبو عند بوبنونا . وكيف كنتما تتجولان في الشوارع انت وامك تطلبان الصدقات من الناس . واذكري لهم ما قالته لك امك وهي تحتضر ، وما طلبته اليك . حديثهم ايضاً عن جدك . قولي انه كان لا يريد ان يعفو عن امك، وانها ارسلتك اليه قبل ان تموت ليحى اليها وليغفر لها ، فرفض وانها ماتت . . . قولي لهم كل شيء ، كل شيء . واثاء ذلك ، سيحس العجوز كل ما تقصينه عليه ، سيحس في اعماق قلبه . فهو يعلم ان اليوشا قد ترك ابنته اليوم ، وانها الآن مذلة ، مهانة ، لا سند لها ولا عون ، ولا من يحميها أو يدافع عنها ، وانها معرضة لاهانات خصمه . انه يعرف كل ذلك . نللي ! انقدي ناتاشا . تعالى معي . هل تريدان ؟

- نعم .

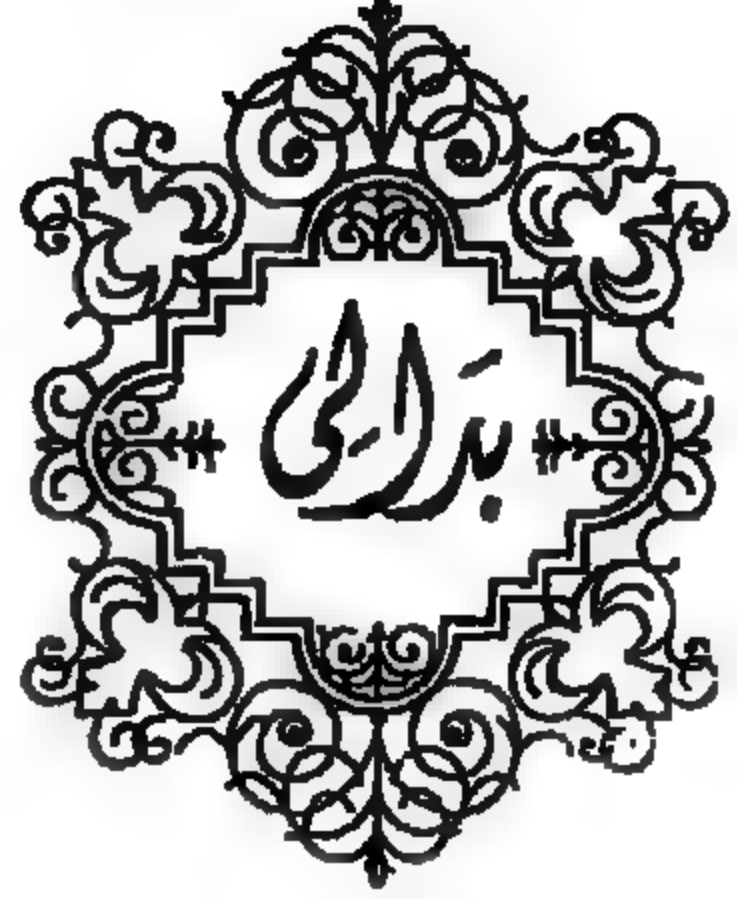
كانت تتنفس بكثير من العناء ، وألقت على نظرة غريبة ، طويلة ، فاحصة . كان في نظرتها شيء يشبه ان يكون لوماً ، احسست بهذا في اعماق نفسي .

ولكنني كنت لا استطيع ان اترك مشروعى . كنت اؤمن به ايماناً قوياً .

فأمسكت بيد نللي ، وخرجنا . كانت الساعة قد جاوزت الثانية بعد الظهر ، وكانت السماء متلبدة بالغيوم . ان الجو في هذه الايام الاخيرة حار خانق . كانت تسمع من بعيد اولى همهمات رعد الربيع . وكانت الريح تهب على الارض ، فتثير غبار الشوارع .

ركبنا عربة . وظلت نللي ملتزمة الصمت طوال الطريق . وكانت من حين الى حين تلقى على تلك النظرة نفسها ، الغريبة ، التي كأنها لغز . كان صدرها يعلو ويهبط ، وكنت احتضنها ، فأحس قلبها الصغير يخفق بيدي كأنه يريد ان يخرج .

الفصل السابع



الطريق طويلاً لا ينتهي • ووصلنا أخيراً ،
فدخلت الى صديقي المعجوزين خائر القلب • كنت
لا أعرف كيف سأخرج من هذا البيت ، ولكنني
كنت أعرف أن عليّ ، مهما كلف الأمر ، أن
أخرج منه بالعفو عن ناتاشا ، والصلح معها •

كانت الساعة قد بلغت الرابعة ، وكان المعجوزان وحدهما على
عادتهما • كان يقولان سرجتش متعباً مريضاً ، كان يستريح على كرسيه
الطويل ، بشاحب الوجه ، ضعيفاً ، على رأسه منديل • وكانت آنا أندريفنا
جالسة قربه ، تبلل صدغيه باخل من حين الى حين ، ولا تنقطع عن النظر
اليه متسائلة حزينة • وكان يبدو ان ذلك يقلق الشيخ ويزعجه • كان
مصبراً على الصمت ، وكانت لا تجرؤ ان تقطع عليه هذا الصمت • وقد
فوجئتا كلاهما بوصولنا • حتى لقد خافت آنا أندريفنا حين رأتنى ادخل
مع نللي ، وظلت خلال الدقائق الاولى تنظر الينا وكأنها شعرت فجأة بانها
مذنبه •

قلت لها وانا ادخل :

- اتيتكما بنللي • لقد فكرت نللي في الامزج ، فرأت من تلقاء نفسها
ان تجيء اليكما • فاستقبلاها واحباها •

نظر الى الشيخ نظرة ارتياب • وفهمت من هذه النظرة وحدها انه

كان يعرف كل شيء ، أنه كان يعرف أن ناتاشا هي الآن وحيدة ، مهجورة وربما مهانة . كان يشعر برغبة قوية في اكتناء سر مجيئنا : فكان ينظر إلينا نظرة متسائلة . وكانت نللي ترتعش ، ممسكة يدي ، مطرقة إلى الأرض ، وكانت من حين إلى حين تلقى على ما حولها نظرات خائفة ، كحيوان وقع في الفخ . ولكن آنا أندريفنا ما لبثت أن فاءت إلى نفسها ، فاندفعت نحو نللي ، وقبلتها وداعبتها ، واخذت تبكي ، وأجلستها إلى جانبها في كثير من الحنان ، دون أن تترك يدها . فكانت نللي تنظر إليها من جانب ، بفضول تمازجه دهشة .

ولكن العجوز الطيبة ، بعد أن داعبت نللي وأجلستها إلى جانبها ، لم تعرف ماذا تصنع ، فأخذت تنظر إلى نظرة انتظار ساذج . وقطب يقولون سرجتش ما بين حاجبيه . انه لم يكن بعيداً عن ادراك السبب الذي من أجله جئت بنللي . فلما رأى اننى ألاحظ ما في وجهه من استياء ، وما في جبينه من هم وقلق ، وضع يده على رأسه وقال فجأة :

— بى صداع يا فانيا .

كنا لا نزال صامتين . وكنت لا اعرف من اين ابدأ . ان الغرفة مظلمة . ان سحابة كبيرة تجرى في السماء ، وها نحن نسمع صوت الرعد مرة اخرى من بعيد . قال العجوز :

— لقد بكر الرعد في هذه السنة . اذكر انه بكر اكثر من ذلك سنة سبع وثلاثين .

وتنهدت آنا أندريفنا . وسألت تقترح :

— اهل اشعل السماور .

ولكن احداً لم يجيبها ، فالتفتت نحو نللي تسألها :

— ما اسمك يا حلوة ؟

فذكرت لها نللى اسمها بصوت منخفض ، وازدادت اطرافاً • كان العجوز يتفرس فيها •

فاستأنفت العجوز تقول وقد اشرقت نفسها قليلاً :

— هيلين ، أليس كذلك ؟

— نعم •

وساد الصمت مرة اخرى خلال دقيقة • ثم قال نيقولا سرجتش :

— كان لاختى براسكو فى آندريفنا ابنة اسمها هيلين ، وكانوا ينادونها نللى ايضاً •

وعادت آنا آندريفنا فسألتها :

— اذن ، يا صغيرتى ، ليس لك أب ولا أم ولا أقارب ؟

قدمدت نللى تقول بسرعة ، بصوت وجل :

— لا •

— هذا ما قيل لى • هل ماتت امك منذ مدة طويلة ؟

— بل منذ مدة غير طويلة •

عادت العجوز تقول وهى تنظر اليها نظرة عطف :

— مسكينة ايتها الطفلة الحبية ، مسكينة ايتها اليتيمة الصغيرة !

وكان نيقولا سرجتش ضيق الذرع نافذ الصبر ، ينقر المائدة بأصابعه • واستمرت العجوز تطرح اسئلتها الحجلى •

— هل كانت امك اجنبية ؟ أهذا ما ذكرته لى يا ايفان بتروفتش ؟

فنظرت الى نللى بعينها السوداءوين نظرة سريعة كأنما لتدعونى الى تجدتها • كان تنفثها ثقيلًا متفاوتًا ، فقلت :

— كانت امها انجليزية الاب ، روسية الام ، والاجدر اذن ان نعدّها
روسية • وقد ولدت نللى فى خارج روسيا •

— اذن لقد سافرت امها مع زوجها الى الخارج ؟
قالت العجوز ذلك ، فاذا بنللى يحمر وجهها احمراراً شديداً على
حين فجأة ، فما لبثت آنا آندريفنا ان ادركت ان لسانها زل ، فارتعشت من
النظرة الغاضبة التى رشقها بها زوجها • لقد حلق اليها بنظرة قاسية ،
وتحول نحو النافذة ثم قال وهو يلتفت فجأة الى آنا آندريفنا :

ان رجلاً شريراً جباناً قد غرر بأمها ، فتركت بيت ابويها وسافرت
مع عشيقها الى الخارج وعهدت اليه بمال ايها • وقد اغتصب العشيق ذلك
المال بالحيلة : مضى بالفتاة الى الخارج ، وهناك سرقها وهجرها • وكان
هناك فتى شهم بقى الى جانبها ، وساعدها الى ان مات • فلما مات ، منذ
ستين ، عادت الى ايها ، أليس هذا ما قصصته على يا فانيا ؟

طرح العجوز على هذا السؤال بلهجة قاطعة ، وكانت نللى قد بلغت
غاية الاضطراب ، فنهضت وهمت ان تتجه الى الباب ، فقال لها العجوز
وهو يمد يده اليها اخيراً :

— تعالى الى هنا يا نللى ، اجلسى هنا ، الى جانبى •

وانحنى فقبلها فى جبينها ، وداعب رأسها برفق • وإخذت نللى
ترتعث ، ولكنها سيطرت على نفسها • وكانت آنا آندريفنا تنظر الى يقولوا
سرجتش يلاطف اليتيم ، وقد امتلأت نفسها حناناً ، وفاضت بالامل
المشرق • قال العجوز منفعلًا ، وهو ما يزال يدغدغ رأس نللى ، ولا يتردد
عن قذفها بهذا التحدى :

— انا اعرف يا نللى ان ذلك الرجل الشرير الذى لا اخلاق له قد
ضيع امك ، واعرف ايضاً ان امك كانت تحب اباها وتخرمه ••

قال ذلك وصعدت الى خديه الشاحين حمرة خفيفة • وكان يتحاشى ان ينظر الينا •

فقلت نللى خجلة • ولكن على حزم • وهى تحاول ان لاترى احداً :
- كانت امى تحب جدى اكثر مما كان جدى يحبها •
فسألها العجوز بخشونة • وقد اصبح لا يسيطر على نفسه اكثر من طفل • وكان كأنه يشعر بخجل من نفاد صبره :

- كيف عرفت ذلك ؟

فقلت نللى بلهجة مفاجئة :

- انا اعرف ذلك • لقد رفض ان يستقبل امى • و • • • طردها •
لاحظت ان يقولوا سرجتش كان يريد ان يقول شيئاً • ان يجيب مثلاً بأن العجوز اذا رفض استقبال ابنته فانما تدفعه الى ذلك اسباب هامة.
ولكنه نظر الينا وسكت •
وسألته انا آندريفنا التى اصرت فجأة على الاستمرار فى الحديث فى هذا الاتجاه :

- واين سكتما حين رفض جدك ان يراكما ؟

فقلت نللى :

- حين وصلنا اخذنا نبحت عن جدى فى كل مكان • ولكننا لم نعثر عليه • وقد قالت لى امى ان جدى كان فى الماضى غنياً جداً • وانه كان يريد ان يبنى مصنعاً • ولكنه اصبح الآن فقيراً • لان الرجل الذى سافرت معه امى قد اخذ من جدى ماله كله ولم يرده اليه • ان امى نفسها هى التى قالت لى ذلك •

- هم • • •

هذا كل ما دمدم به العجوز • وقابت نللي كلامها تقول ، وقد اخذت تتحمس شيئاً فشيئاً ، وبدا عليها انها تريد ان تردّ على نيقولا سرجتش مع انها تتوجه بكلامها الى آنا أندريفنا ، تابعت كلامها تقول :

— وقالت لي أمي أيضاً ان جدى كان غاضباً عليها اشدّ الغضب ، وانها مذنبه في حقه ، وانها ليس لها في الدنيا سواء • وكانت تبكى وهي تقول لي ذلك • قالت لي قبل ان نصل : « انه لن يغفر لي انا ، ولكن قد يجبك حين يراك ، فيغفر لي من اجلك » • كانت امي تحبني كثيراً ، وكانت تقبلني وهي تقول لي هذا الكلام ، وكانت تخاف جداً من انها ستراه • وقد علمتني ان اصلى من اجله ، وكانت تصلى من اجله هي ايضاً • وقصت علىّ كيف كانت تعيش في الماضى مع جدى ، وكيف كان يحبها كثيراً ، اكثر من اى شيء في الحياة • كانت في المساء تعزف له على البيانو ، او تقرأ له ، وكان يقبلها ويقدم اليها الهدايا ، حتى انهما تخاصما ذات يوم ، وهو يوم عيد ميلاد امي ، لان جدى كان يظن ان امي لا تعرف الهدية التى سيقدمها لها ، في حين ان امي كانت تعرفها منذ مدة طويلة : كانت امي تريد ان تكون الهدية قرطين ، ولكن جدى تعمد ان يوهمها بأن هديته اليها ستكون حلية مما يزين به الصدر ، فلما جاءها يوم العيد بالقرطين ، فلاحظ انها كانت تعرف ذلك ، زعل منها ، وظل لا يكلمها نصف يوم بكامله • ولكنه جاء بعد ذلك من تلقاء نفسه ، فقبلها وطلب منها ان تسامحه •

انسأقت نللي في رواية قصتها ، وصعدت الى خديها الشاحين حمرة •

كان واضحاً اذن ان الام قد حدثت ابنتها غير مرة عن ايامها الخوالى السعيدة • كانت ، وهي جالسة من ركن من قبوها ، تعانق ابنتها الصغيرة وتقبلها (وهذه هي السلوى الوحيدة التى بقيت لها) وتبكي عليها لا تقدر

الأصداء القوية التي تثيرها قصصها في هذا القلب الحساس الى درجة المرض ، الناضج قبل الاوان ، قلب طفلتها ..

ولكن نللى التي استسلمت لذكرياتنا استسلاماً تاماً فاعت الى نفسها فجأة ، فألقت حولها نظرة حذرة ، وتوقفت عن الكلام • وقطب العجوز ما بين حاجبيه ، وعاد ينقر المائدة بأصابعه ، وترقرقت دمعة صغيرة في عين آنا أندريفنا ، فجففتها بمنديلها في صمت •

واستأنف نللى تقول بصوت أصم :

— كانت أمى مريضة جداً حين وصلنا الى هنا • كانت مصدورة • وظللنا نبحث عن جدى مدة طويلة ، فلم نستطع ان نثر له على اثر • وكنا قد استأجرنا ركناً في قبو •

فهتفت آنا أندريفنا :

— تعيش في ركن من قبو ، وهى مريضة بهذا المرض !

فأجابت نللى :

— نعم • فقد كانت أمى فقيرة •

ثم أضافت بحماسة :

— وكانت أمى تقول لى ان الفقر ليس خطيئة ، وانما الخطيئة ان

يكون المرء غنياً فيهن الآخرين • • وان الله يعاقبها على ما جنت يداها •

— سكتما في فاسيلى أوستروف ، عند بوبنوقا ، أليس كذلك ؟

طرح العجوز هذا السؤال ، وهو يلتفت نحوى ويحاول ان يتكلم

ببلهجة لا تدل على شيء من الاهتمام • طرح هذا السؤال كما لو كان

يزعجه ان يظل جالساً معنا دون ان ينطق بكلمة •

فأجابته نللى بقولها :

— بل نسكننا اول الامر في متشكانسكايا •

ثم استأنفت تقول بعد ان صمتت لحظة :

— كان المكان مظلماً رطباً ، فاشتدت وطأة المرض على أمى ، ولكنها كانت لا تزال تنهض من فراشها • كنت اغسل لها غسيلها • وكانت تبكى • وكان يسكن معنا امرأة عجوز هى ارملة ضابط فى الجيش ، وموظفٌ محال على المعاش يعود الى البيت ثملاً فيصرخ ويملاً البيت ضجيجاً كل ليلة •• كنت اخاف منه ، فكانت امى تأخذنى الى سريرها ، وتضمنى اليها ، وكانت هى نفسها ترتعد خوفاً حين يعود ذلك الموظف فيأخذ يصرخ ويشتم • وقد اراد ذات يوم ان يضرب أرملة الضابط التى كانت عجوزاً هرمة تتوكأ على عصا ، فأشقت امى عليها ، ودافعت عنها ، فضرب الرجل امى ، فهجمت أنا عليه ••

هنا توقفت نللى عن الكلام •• ان هذه الذكرى تهزها هزاً قوياً •
واخذت عيناها تلتصمان •

صرخت أنا أندريفنا وقد اسرتها هذه القصة وكانت لا تتحول ببصرها عن نللى التى كانت تتوجه بالكلام اليها خاصة ، صرخت تقول :
— يا رب يا رب ! ••
وتابعت نللى كلامها :

— عندئذ خرجت امى من البيت واخذتنى معها • كان ذلك اثناء النهار • فظللنا نمشى فى الشارع حتى المساء • كانت امى لا تنقطع عن البكاء ، وكانت تمسك بيدي • ظلت طوال الوقت تحدث نفسها وتقول لى : • يجب ان تبقى فقيرة يا نللى ، اياك ان تصغى بعد موتى الى احد ، اياك ان تصدقنى بعد موتى شيئاً • لا تذهبي الى احد ، ظلى وحيدة ، فقيرة ، واعملى ، فان لم تجدى عملاً ، فتسولى •• ولكن لا تذهبي اليهم ابداً •! وفيما نحن نجتاز احد الشوارع عند هبوط الليل ، صرخت امى فجأة :
« آزور ، آزور » ، فاذا بكلب كبير أمعط يجرى نحو امى نابحاً ، ويرتمى

عليها • اصفرت امي اصفراراً شديداً ، وصرخت ، وركعت على ركبتيها امام شيخ طويل كان يسير متوكفاً على عصاه وهو ينظر في الارض • كان ذلك الشيخ هو جدى • كان نحيلًا نحولاً شديداً ، وكان يرتدى اسماًلاً خلقة بالية • هذه هي المرة الاولى التى رأيت فيها • وقد ذعر هو ايضاً ، وامتنع وجهه ، فلما رأى امي راکة أمامه تعانق ساقيه ، خلّص ساقيه منها ، ودفعها ، وضرب بعصاه الرصيف ، وابتعد مسرعاً • وبقي آزور • وكان آزور يئن ويلعق وجه امي • ثم ركض وراء جدى ، وامسكه من طرف رداثه وشده الى وراء ، ولكن جدى ضربه بعصاه • وعاد اليّنا آزور مرة اخرى ، ولكن جدى ناداه ، فمضى اليه وهو ما يزال يئن • ظلت امي على الارض ، كأنها ميتة • والتف الناس حولنا ، وجاء رجال الشرطة • كنت انا ابكى واحاول ان انهض امي • ونهضت امي اخيراً ، فألقت من حولها نظرة ، ثم سارت تتبعنى ، فقدتها الى البيت • ولقد ظل الناس مدة طويلة ينظرون اليّنا وهم يهزون رؤوسهم •

توقفت نللى عن الكلام لتتنفس وتسترد قواها • كانت شاحبة شديدة الشحوب ، ولكن عينيها تلتزمان بعزم قوى • كان واضحاً انها قررت اخيراً ان تقول كل شيء • بل لقد كان فيها عندئذ شيء من التحدى •

قال نيقولا سرجتش بصوت متعثر مكفهر :

— لقد اهانت امك اباك ، وكان من حقه ان يدفعها •

فأجابت نللى بلمهجة نافذة :

— ذلك ما قالته امي • • كانت تقول لى ونحن عائدتان الى البيت :

« هذا هو جدك يا نللى • • لقد اجمرت فى حقه ، فلعننى ، والله يعاقبنى الآن على ما اقترفت يداى من اثم » • وظلت امي تردد هذا الكلام طوال ذلك المساء ، وطوال الايام التى اعقبته ، ظلت تردده فى كل لحظة • كان يخيّل الى المرء حين يسمعا يتكلم انها فقدت عقلها •

كان العجوز صامتاً لا يقول شيئاً •
وسألته أنا أندريفا التي ما فتت تبكى بكاء صامتاً :
- وبعد ذلك غيرتما المسكن ؟

- في تلك الليلة اشتدت وطأة المرض على امي • ووجدت لها امرأة
الضابط مسكناً عند بوبنوف ، ذهبنا اليه لنقيم فيه بعد يومين • فلما وصلناه
رقدت امي في فراشها ثلاثة اسابيع ، وكنت انا اعنى بها ، ولم يبق معنا
شيء من مال ، فساعدتها امرأة الضابط ، وساعدنا ايفان السكندرتش •
اضفت موضعا :

- صانع التوابيت •

- وحين نهضت امي من فراشها وبدأت تسير على قدميها ، حدثني
عن آزور •

وقطعت نللى كلامها • لقد سر العجوز ان ينصرف الحديث الى
آزور • فسألها وهو يزيد استلقاءه على مقدمه كأنه يريد ان يخفى عنا
وجهه :

- ماذا قالت لك عن آزور ؟

فأجابت نللى :

- كانت لا تنفك تحدثني عن جدي • كانت وهي مريضة لا تزيد
على ان تكلمني عنه ، وكذلك اثناء الهذيان • ولما اخذت تتحسن صحتها ،
عادت فقصت عليّ كيف كانت تعيش في الماضي • • • وروت لي قصة آزور
فقلت : ذات يوم ، في القرية ، رأيت عدداً من الصبية يجرون هذا الكلب
بحبل ليلقوه في النهر • فأعطتهم بعض المال تقديده • وحين رأى جدي
آزور ضحك كثيراً • ولكن آزور هرب • فأخذت أمي تبكى • وخاف
عليها جدي ، فقال انه سيدفع مائة روبل لمن يعيد اليه آزور • وعادوا اليه

بعد يومين بالكلب ، فدفعت جدتي مائة روبل ، ومنذ ذلك اليوم اخذ يحب آزور . وكانت امي تحب آزور حباً شديداً ، حتى انها كانت ترضيه اليها في سريرها . وقد قصت على امي ان آزور كان في الماضي يطوف الشوارع مع ممثلين هزليين ، وانه كان يعرف كيف يشهر السلاح ، وكيف يحمل على ظهره قرداً ، وكيف يقلب بندقيته ، وكيف يقوم بأشياء كثيرة اخرى . وحين تركت امي جدتي ، احتفظ جدتي بآزور ، فكان يجره معه حيثما ذهب ، لذلك حين رأت امي آزور في الشارع ايقنت فوراً ان جدتي معه . كان العجوز يأمل ان يكون الكلام على آزور فرصة للابتعاد عن الموضوع ، فلما رأى ان ذلك لم يتحقق ، ازداد جموداً ولم يطرح بعد ذلك سؤالاً .

سألته أنا أندريتنا :

- ألم ترى جدك بعد ذلك ؟

- بل رأيته . رأيته مرة اخرى حين اخذت تتحسن صحة امي . كنت ذاهبة لشراء شيء من الخبز ، فرأيت رجلاً يسير مع آزور ، فلما نظرت اليه عرفت انه جدتي . فلطوت بالحائط لأدع له ان يمر . فنظر الى طويلاً ، طويلاً ، وخفت منه ، ثم مضى . وقد عرفني آزور ، فأخذ يقفز من حولي ، ويلحن أصابعي . واشتريت الخبز ، وقفلت راجعة الى البيت ، وفيما أنا التفت الى وراء ، رأيت جدتي يدخل دكان الخبز ، فقلت في نفسي : لا شك انه دخل اليه لي طرح عليه بعض الأسئلة ، فازداد خوفي . وحين وصلت الى البيت لم احدث امي شيء مما وقع ، بخافة ان تعرض مرة اخرى . ولم اذهب في الغد الى دكان الخبز . بل ادعيت انني مصابة بصداع . وحين ذهبت اليه بعد غد ، لم اصادف احداً ، ولكنني كنت خائفة جداً . حتى لقد كنت اركض بأقصى سرعة . ذهبت الى الخبز في اليوم الذي بعده . فبينما أنا انعطفت عند الناصية ، رأيت جدتي

وآزور امامی • فهربت • ومضيت في شارع آخر • ودخلت الى الحجاز
من باب غير الباب الاول • ولكنتي اصطدمت به مرة ثانية على حين فجأة •
فبلغت من شدة الخوف انني تسمرت في مكاني لا استطيع حراكاً • فنظر
الىّ طويلاً كالمرّة الماضية • ثم داعب رأسي • وتناول يدي • وسار بي •
وتبعنا أزور يحرك ذنبه • لاحظت عندئذ ان جدي كان لا يقوى على
الاتصاف بقامته • فكان يتكىء على عصا • وكانت يدها ترتعشان •••
وقادني الى بائع في الناصية يبيع في الشارع حلوى وتفاحاً • فاشترى لي
حلوى في شكل ديك وسمكة • واشترى تفاحة • وحين مد يده الى محفظته
ليخرج منها النقود كانت ترتجف ارتجافاً شديداً • حتى لقد سقطت من
بين اصابعه قطعة خمس كوبيكات • فتناولتها من الارض • ومدتها اليه •
ولكنه اعطاها مع الحلوى • ولاعب شعري •• كل ذلك دون ان يقول
كلمة واحدة • ثم مضى ••

فعدت الى البيت • فقصصت على امي كل شيء • وقلت لها انني خفت
من جدي في اول الامر • وانني كنت اختبئ حين اراه • فلم تصدقني
امي بادىء ذي بدء • ثم بلغت بعد ذلك من فرط السرور انها ظلت طوال
ذلك المساء تطرح على السؤال تلو السؤال • وهي تعانقني وتبكي • ولما
فرغت من قص كل شيء عليها • قالت ان عليّ ان لا اخاف من جدي ابداً
بعد الآن • فانه يحبني • ما دام قد جاء عامداً ليراني • وطلبت اليّ ان
اكون لطيفة معه • وان اكلمه • وفي صباح الغد ارسلتني عدة مرات •
رغم انني قلت لها ان جدي لا يأتي الا في المساء • وكانت تسير ورائي •
وتختبئ عند ناصية الشارع • وفي اليوم الذي بعده لم يأت جدي ايضاً •
وكانت السماء تمطر في تلك الايام • فأصاب امي برد لخروجها معي •
واضطرت أن تلزم فراشها من جديد •

وجاء جدي بعد ثمانية ايام • فاشترى لي سمكة وتفاحة ايضاً •

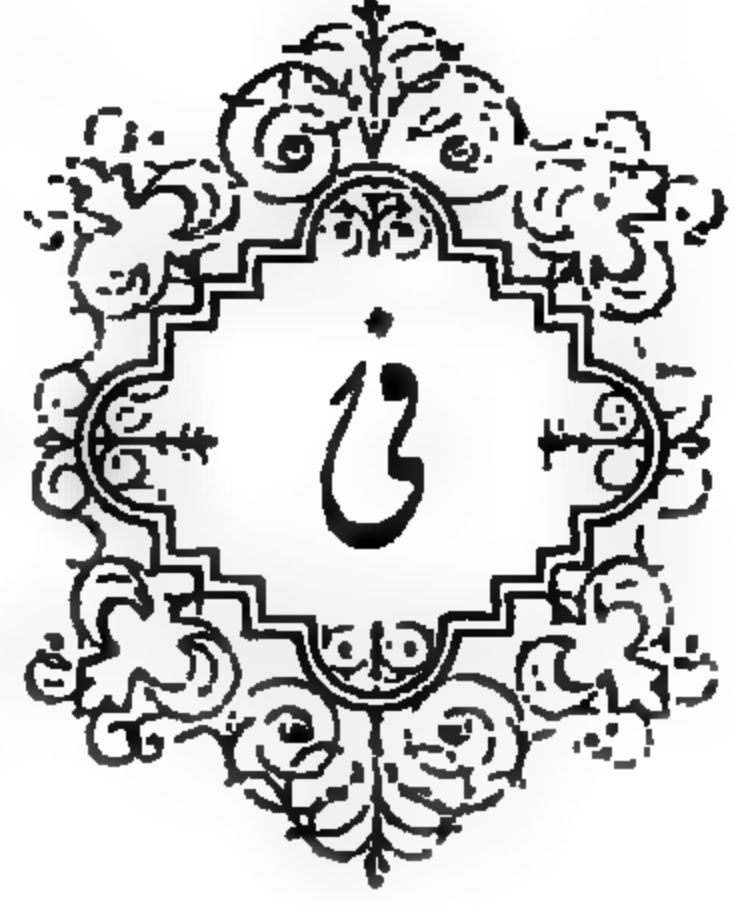
ولكنه لم يكلمنى ابداً • فلما مضى ، تبعته دون ضجة ، لائتى قررت ان اعرف اين يسكن ، لاقول ذلك لامي ، سرت في اثره على الطرف الآخر من الشارع ، حتى لا يرانى • كان يسكن في مكان بعيد ، لا في ذلك المكان الذي انتقل اليه بعد ذلك ومات فيه ، بل في شارع اشجار البطم ، في الدور الرابع من بيت كبير • وعدت الى البيت متأخرة • فوجدت امي قلقة اشد القلق ، لأنها لا تعرف اين كنت • فلما قلت لها اين كنت ، عادت ففرحت كثيراً ، وقررت ان تذهب اليه في الغد • ولكنها فكرت غداً في الامر ، فخافت ان تذهب اليه ، وظلت تردد ثلاثة ايام ، نادتنى بعدها وقالت لي : « اسمعى يا نللى ، انا الآن مريضة ، ولا اريد ان اخرج من البيت ، ولكننى كتبت رسالة الى جدك ، فاذهبي اليه ، وأعطيه الرسالة • وراقبه وهو يقرأ الرسالة ، واتبهي الى ماسيقوله وما سيفعله • ثم اركعي على ركبتيك ، وقبليه ، واسأليه ان يغفر لأمك • • • » • كانت امي تبكى كثيراً وهي تقبلنى ، ورسمت علىّ اشارة الصليب قبل ان اذهب ، وصلت ، واركعتى على ركبتى امام الايقونة معها ، ثم شيعتنى الى باب المنزل رغم مرضها ، وحين التفت الى وراء ، وجدت ما تزال عند الباب تشيعننى بنظراتها •

وصلت الى بيت جدى ، وفتحت الباب • كان المزلاج مرفوعاً • فرأيت جدى جالساً الى مائدته يأكل خبزاً وقليلًا من البطاطس ، ورأيت آزور الى جانبه ينظر اليه ويحرك ذيله • فى ذلك المنزل ايضاً ، كانت النوافذ ضيقة مظلمة ، ولم يكن ثمة الا مائدة وكرسى واحد • كان جدى يعيش وحيداً • ودخلت • فبلغ جدى من فرط الخوف ان وجهه اصفر اصفراراً شديداً ، وأخذ يرتعش • أما أنا ، فلم أقل شيئاً ، وانما اقتربت من المائدة ، ووضعت عليها الرسالة • فلما رأى جدى الرسالة ، غضب

غضباً شديداً ، ونهض فجأة ، فتناول عصاه وهزها فوق رأسه ، ولكنه لم يضربني • ثم جرّني الى المدخل ، ودفعني الى خارج ، فما كدت أهبط يضع درجات من السلم حتى رأيته يفتح الباب ، ويقذف الىّ بالرسالة غير مفضوذة •

عدت الى البيت • وقصصت على امي كل شيء • فلزمت فراشها من جديد •

الفصل الثامن



تلك اللحظة دوى رعد شديد ، وتساقطت على
زجاج النوافذ قطرات من المطر ، وغرقت الغرفة
في الظلام • فرسمت العجوز على نفسها إشارة
الصليب كأنها خائفة ، ونهضنا جميعاً على حين

فجأة • قال العجوز وهو يلقي نظرة على النوافذ :

– سينقضي الرعد بعد قليل •

ثم نهض وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً • كانت نللي تتابعه
ببصرها • وكانت في حالة من الاضطراب الشديد • لاحظت عليها ذلك •
ولكنها كانت تتحاشى ان تنظر الى •

سألها العجوز وهو يعود فيجلس على مقعده :

– وبعد ؟

فألت نللي حولها نظرة خائفة •

– ألم ترى جدك بعد ذلك ؟

– بلى ، رأيت •

اكمل حديثك يا حلوتي ، نعم نعم ، اكمل •

فاستأنفت نللي سرد قصتها :

– خلال ثلاثة اسابيع لم ار جدي ، الى ان جاء الشتاء • جاء الشتاء •

وهطل الثلج • وحين لقيت جدى مرة اخرى فى ذلك المكان نفسه ، سررت كثيراً • • لان امى حزنت اشد الحزن لانقطاعه عن المحب • فلما رأته تعمدت ان انتقل الى الرصيف الآخر ، ليظن اننى اهرب منه • والتفت ورائى فرأته يحث الخطى ليلحق بى ، ثم اخذ يركض صارخاً : « نللى نللى » • وكان آزور يركض ايضاً وراءه • فرق قلبى لهذا المشهد ، ووقفت • اقترب جدى وتناول يدى ، وسار بى ، فلما لاحظ اننى ابكى ، توقف ، ونظر الىّ وانحنى علىّ يقبلنى • فلاحظ عندئذ أن حذاءى باليان ، فسألنى أليس عندى غير هذين الحذاءين • فأسرعت أقول له ان امى ليس معها نقود البتة ، وان سكان البيت الذى نحن فيه يتصدقون علينا بطعامنا شفقة ورحمة • فلم يقل جدى شيئاً ، ولكنه قادنى الى السوق ، فاشترى لى حذاءين ، وامرنى ان اتعلمهما فوراً ، ثم اخذنى الى بيته فى شارع اشجار البطم • وقد دخل قبل ذلك الى دكان من الدكاكين فاشترى لى فطيرة وقطعتين من الحلوى ، فلما وصلنا الى البيت ، امرنى بان آكل الفطيرة ، واخذ ينظر الى وأنا أأكلها ، حتى اذا فرغت منها ، اعطانى قطعتى الحلوى • وقد وضع آزور قائمته على المائدة يريد ان يأكل من الفطيرة ، فأعطيته لقمة ؟ فضحك جدى ، ثم جذبني اليه ، وداعب رأسى • وسألنى هل تعلمت شيئاً ، وما الذى اعرفه ، فذكرت له ما اعرفه • فأمرنى ان آتى اليه فى الساعة الثالثة من كل يوم ، ليعطينى دروساً • ثم طلب منى ان انظر من خلال النافذة ، الى ان يأمرنى بالالتفات ، ففعلت ، ولكننى التفت اثناء ذلك خلسة فرأته يفتق زاوية وسادته ويخرج منها اربعة روبلات من الفضة • ثم جاء بها الىّ وقال : « هذه لك وجدك » • وهممت أن آخذها ، ولكننى فكرت فى الامر ، فقلت له : « اذا كانت لى وحدى ، فلن آخذها » • فاذا هو يغضب فجأة ، ويصرخ بى : « كما تريدن ، خذها واذهبى » • ولم يقبلنى قبل ان اذهب •

فلما وصلت الى البيت قصصت على امي كل شيء . ولكن صحة امي كانت تسوء شيئاً فشيئاً . وكان ثمة طالب من طلاب الطب يتردد الى صانع التوابيت ، فكان يعالج امي ، ويجرعها بعض الادوية .

وصرت اذهب الى جدي احياناً كثيرة : فلقد امرتني امي بذلك . واشترى جدي نسخة من الانجيل وكتاباً في الجغرافيا . واخذ يعطيني دروساً . كان يعدد لي بلاد الدنيا . ويحدثني عن سكانها . ويذكر لي أسماء البحار . ويقص عليّ أحداث التاريخ . ويروي لي كيف غفر لنا المسيح جميعاً . وكان يفرح حين ألقى عليه بعض الأسئلة . فأخذت اطرح عليه اسئلة كثيرة . فكان يروي لي كل شيء ، وكان يكلمني في كثير من الاحيان عن الله . وكنا في بعض الاحيان نلاعب آזור بدلا من ان ندرس . وكان آזור قد اخذ يحبني كثيراً . حتى لقد علمته كيف يقفز فوق عصا ، فكان جدي يضحك ويلعب شعري . كان جدي لا يضحك الا نادراً . وكان في بعض الايام يتكلم كثيراً . ثم يصمت فجأة ، ويظل جالساً كأنه نائم ، مع بقاء عينيه مفتوحتين . وكان يبقى على هذه الحال حتى المساء . وكان وجهه يتبدل في المساء تبديلاً غريباً ، فيصبح مخيفاً ، ويظهر فيه هرم شديد . وكنت اصل في بعض الاحيان فأراه جالساً على كرسيه يفكر ، ولا يسمع شيئاً ، وقد رقد آזור قربه . فكنت انتظر وانتظر ، ثم اسعل ، فما ينظر اليّ . فانصرف عائداً ، وكانت امي تنتظرني في البيت على سريرها . وكنت اقص عليها كل شيء فاطل اقص عليها الى ان يهبط الليل . وتظل هي تصغي الى ما أرويها لها عن جدي : ما فعله في ذلك اليوم ، الحكايات التي حكها لي ، الدرس الذي اعطانيه .

وحين كنت اذكر لها انني جعلت آזור يشب فوق العصا ، وأن جدي ضحك ، كانت تأخذ تضحك هي ايضاً ، وتظل تضحك مدة طويلة ، فرحة كل الفرحة ، حتى لقد كانت تستعيدني ما قلت . ثم تأخذ تصلي . وكنت أَسْأَل دائماً : « كيف يمكن ان تحب امي جدي ، وان

لا يحبها هو ، • وحين ذهبت الى جدى فى المرة التالية ذكرت له كيف ان امى تحبه كثيراً • فأصغى الى كلامى حتى النهاية ، غاضباً مقطباً ، دون ان يقول شيئاً • ثم سأله لماذا تحبه امى كل هذا الحب ، ولماذا تسألنى دائماً عنه ، فى حين انه لا يسألنى هو عنها ابداً ، فغضب جدى ، وطر دنى ، فلبثت لحظة وراء الباب ، فاذا الباب يفتح ثانية ، واذا جدى ينادىنى اليه ، ولكنه ظل غاضباً لا يقول شيئاً • فلما اخذنا نقرأ فى الانجيل ، عدت أسأله مرة اخرى لماذا لا يريد ان يعفو عن امى مع أن المسيح يقول : « احبوا بعضكم بعضاً ، واغفروا الاساءات » • فنهض فجأة ، واخذ يصرخ قائلاً ان امى هى التى علمتني ان اقول هذا الكلام ، ثم دفعنى خارج الغرفة مرة ثانية وهو يأمرنى ان لا اعود اليه بعد اليوم ابداً • فقلت له اتنى انا ايضاً لا احب ان اعود اليه ، ومضيت ••• وفى اليوم التالى ترك جدى مسكنه وانتقل الى مسكن آخر •

قال نيقولا سرجتش وهو يلتفت نحو النافذة :

— ألم أقل ان المطر سينقطع ؟ هو ذا انقطع ، وما هى ذى الشمس تظهر ، هل ترى يا فانيا ؟

ف نظرت اليه آنا أندريفنا نظرة مترددة ، ثم التمع الاستياء فجأة فى عين العجوز الطيبة ، وكانت الى ذلك الحين ناعمة • وتناولت يدي نللى دون أن تبس بكلمة وأجلست الفتاة الصغيرة على ركبتيها •

ثم قالت لها :

— تكلمى يا ملاكى ، قصى على ، سأصغى اليك • اما الذين قست قلوبهم •••

ولم تكمل جملتها ، بل أخذت تبكى • فألقت الى نللى نظرة سائلة ، وبدت حائرة مذعورة • ونظر الى العجوز هازأً كيفيه ، ثم تحول عنى فوراً •

قلت :

- أكملى يا نللى •

- خلال ثلاثة ايام ، لم اذهب الى جدى • وفى اثناء ذلك ساءت
صحة امى وفرغت ايدينا من اى مال ، وعجزنا عن شراء الادوية ،
وأصبحنا لا نأكل شيئاً ، لأن السكان فرغت أيديهم أيضاً ، وبدأوا يأخذون
علينا اننا نعيش عائلة عليهم • فى اليوم الثالث نهضت من فراشى ، وارتديت
ملابسى ، فسألتى امى الى اين اذهب ، فقلت لها اننى ذاهبة الى جدى
اطلب منه بعض المال ، فسرت امى ، لاننى كنت قد ذكرت لها ان جدى
طردنى وقلت لها اننى لن اعود اليه بعد الآن ، فبكت وتوسلت الى ان
اعود فأزوره • قيل لى ان جدى انتقل من مسكنه ، فذهبت اليه فى مسكنه
الجديد • فلما دخلت عليه ، نهض فجأة وهجم على • وضرب برجله
الارض • ولكننى قلت له ان امى مريضة جداً ، وانا فى حاجة الى خمسين
كوبيك ثمن الدواء • وليس فى بيتنا ما نأكله • فأخذ جدى يصرخ •
ودفعنى الى السلم واغلق الباب • ولكننى قلت له وهو يدفعنى انى سأبقى
على السلم لا ابارحه قبل ان يعطينى المبلغ • فما هى الا دقيقة حتى فتح
الباب • فرأى اننى ما زلت واقفة • فعاد يغلّق الباب • وانقضت على ذلك
فترة طويلة فتح بعدها الباب ، ثم اغلقه مرة أخرى حين رأتى • وكرر
ذلك عدة مرات • واخيراً خرج مع آزور • واغلق الباب • ومر امامى
دون ان يخاطبني بكلمة • فلم اكلمه انا ايضاً • بل بقيت فى مكانى حتى
المساء •

صاحت آنا أندريفنا :

- ولكن يا صغيرتى البائسة ، لا بد ان الجو كان بارداً وانت على

السلم •

- كنت ارتدى معطفى •

— ما قيمة المعطف في مثل ذلك الجو البارد ! ما اكثر ما تحملت
يا صغيرتي التعيسة ! ثم ماذا فعل جدك ؟
اخذت شقتا نللي ترتعشان • ولكنها بذلت جهداً جباراً من اجل ان
تسيطر على نفسها • واردفت تقول :

— عاد في المساء بعد ان ساد الظلام • فلما هم ان يدخل بيته ،
اصطدم بي • فصرخ قائلاً : « من هنا ؟ » فأجبت « انا » • كان يعتقد
انني انصرفت منذ مدة طويلة • فلما رأى انني مازلت واقفة ، دهش
كثيراً ، وظل واقفاً امامي زمناً • وفجأة ضرب السلم بعصاه • واسرع
يفتح الباب • ثم عاد بعد دقيقة يحمل نقوداً من نحاس كانت كلها قطعاً
من ذات الخمس كوبيكات ، فألقاها على السلم ، وهو يقول لي : « خذي !
هذا كل ما بقي لي • وقولي لأمك انني عنها » • ثم اغلق الباب •
تدحرجت قطع النقود على السلم ، فأخذت ابحت عنها في الظلام ، ولاشك
ان جدي ادرك ان النقود قد تبعثرت وانني اتكلف كثيراً من العناء
لالتقاطها ، ففتح الباب وجاءني بشمعة فوجدت النقود بسهولة ، وساعدني
جدي في التقاطها ، وقال لي ان مجموعها يجب ان يكون سبعين كوبك ،
ثم مضى • فلما عدت الى البيت اعطيت أمي النقود ، وحكيت لها كل شيء ،
فازدادت صحتها سوءاً ، ومرضت انا ايضاً طوال الليل ، واثابتني الحمى
في الغد ، ولكنني كنت لا افكر الا في شيء واحد ، لأنني كنت حانقة على
جدي ، فلما نامت امي خرجت ، وسرت في طريقى الى بيت جدي •
ولكنني توقفت عند الجسر • وفي تلك اللحظة انما مر ذلك الرجل •
قلت :

— هو أرشيوف • سبق ان حدثتك عنه يا نيقولا سرجتش : ذلك
الذي كان مع البائع عند بوبنوبا ، وكيلت له الضربات • كانت تلك اول
مرة تلتقاه فيها نللي •

واستأنفت نللى تقص حكايتهما :

— فاستوقفته • وسألته ان يعطينى روبل فضة • فنظر الى وسألنى :
« روبل فضة ؟ » فقلت : « نعم » ، فأخذ يضحك وقال لى : « تعالى معى »
لم اكن اعرف أوجب ان اذهب معه أم لا • وفجأة اقترب عجوز قصير
يضع على عينيه نظارتين ذهبيتين ، وكان قد سمع اتى اطلب روبل فضة ،
فانحنى على وسألنى لماذا أطلب هذا المبلغ • فقلت له ان أمى مريضة ،
وانها فى حاجة الى هذا المبلغ لتشتري دواء • فسألنى اين نسكن ، وسجل
العنوان ، واعطانى ورقة روبل • اما الآخر ، فانه حين رأى العجوز
القصير ، مضى فى سبيله ، ولم يطلب منى بعد ذلك ان اذهب معه •
فدخلت احدى الدكاكين ، وابدلت الروبل قطعاً نحاسية ، لففت ثلاثين
كوبك منها بورقة ، محتفظة بها لأمى ، وتركت السبعين الاخرى بيدي ،
وذهبت الى جدى • فلما وصلت فتحت الباب • ووقفت فى العتبة وهزرت
يدي ، ورميت له النقود • فتدحرجت على أرض الغرفة • ثم قلت له :
« هذه نقودك • ان امى ليست فى حاجة اليها ما دمت تلعبها » • ثم صفقت
الباب ووليت هاربة •

كانت عينا نللى تلتزمان • ورشقت العجوز بنظرة متحدية •
قالت آنا آندريفنا ، دون ان تنظر الى نيقولا سرجتش ، وهى تشد
نللى الى صدرها :

— ذلك ما كان يجب ان تفعله • • ذلك ما كان يجب ان تفعله :
لقد كان جدك امرأً شريراً قاسياً •

همهم نيقولا سرجتش :

— هم • •

وسألتها آنا آندريفنا ، نافداً صبرها :

— وبعد ذلك • وبعد ذلك ؟
 — بعد ذلك لم اذهب الى جدى ولا جاء هو ليرانى •
 — وما الذى حدث لكما انت وامك ؟ آه يا رب •• ما أشقاها !
 — كانت صحة أمى تزداد سوءاً • واصبحت لا تنهض من فراشها
 الا نادراً •

قالت نللى ذلك واخذ صوتها يرتعش ، ويتكسر ، ثم تابعت حديثها :
 — لم يبق فى ايدينا نقود ، فأخذت اتسول مع امرأة الضابط • كانت
 تمضى من بيت الى بيت ، وتستوقف الناس فى الشارع ، تسألهم صدقة •
 هكذا كانت تعيش • وكانت تقول لى انها ليست شحاذة ، وان فى يديها
 اوراقاً ذكرت فيها رتبة زوجها وذكر فيها انها فقيرة ، فكانت تبرز هذه
 الاوراق للناس ، فيتصدقون عليها • وكانت تقول لى ايضاً انه ليس عاراً
 ان يستجدى المرء جميع الناس • كنت اذن اذهب معها ، وكان الناس
 يتصدقون علينا ، وهكذا كنا نعيش • وقد علمت امى بذلك ، لان السكان
 عثروها بانها شحاذة ، ولان بوبنوفاجاءت تقول لها ان من الافضل ان
 ترسلنى اليها بدلا من ان اتسول • كانت قد جاءت قبل ذلك تحملى الى
 امى بعض المال ، ولكن امى رفضت المال ، فاستقرت بوبنوفاجاهه
 الكبرياء ، وأرسلت الى أمى طعاماً ، حتى اذا حدثتها عنى بذلك فى هذه
 المرة اخذت امى تبكى وخافت خوفاً شديداً ، فأخذت بوبنوفاجاهه
 الشئام • كانت سكرانة • قالت لامى ان ابتك شحاذة ، انها تتسول مع
 امرأة الضابط • وفى ذلك المساء نفسه طردت بوبنوفاجاهه امرأة الضابط •
 واخذت امى تبكى حين علمت بكل ذلك • ثم نهضت فارتدت ملابسها ،
 وامسكت بيدي ، وسارت بى • وحاول ايفان الكسندرتش ان يمنعها من
 الخروج ، فلم تطعه ، وخرجنا • كانت امى لا تكاد تقوى على السير ،
 فكانت تقعد فى كل لحظة ، وكنت أسندها • وطلبت الى أن أمضى بها الى

بيت جدى • كان الظلام قد خيم منذ مدة طويلة • ووصلنا فجأة الى شارع كبير • كانت عربات تتوقف امام بيت جميل ، فينزل منها الناس • وكانت نوافذ البيت تسطع بالانوار ، وتخرج منها موسيقى • فوقفت أمى ، وأمسكتى ، وقالت لى : « نللى ، ابقى فقيرة ، ابقى فقيرة مدى الحياة ، ولكن لا تذهبي اليهم ، كائنًا من كان الشخص الذى قد يدعوك أو يبحث عنك • انت أيضاً فى وسعتك أن تكونى هناك ، غنية ، بثوب جميل • ولكننى لا أريد ذلك • انهم شريريون قساة ، اليك ما أمرك به : ظلى فقيرة ، اعملى ، اطلبى الصدقة ، فاذا جاءك أحد يريد أن يأخذك اليه ، فقولى له : لا أريد أن أذهب اليك • » • هذا ما قالته لى أمى حين كانت مريضة • وأريد أن أطيعها مدى الحياة (أضافت نللى هذا الكلام وهى ترتعش من فرط الانفعال ، وقد احمر وجهها حتى صار بلون الارجوان) سأظل طوال حياتى أخدم وأعمل • انتى أجىء اليكما الآن لآخدم وأعمل ، ولا أريد أن أكون ابتكما •

صاحت العجوز وهى تشد نللى الى صدرها :

- كفى كفى يا صغيرتى كفى • لقد كانت أمك مريضة حين قالت لك هذا الكلام •

وعقب العجوز يقول بلهجة خشنة :

- كانت مجنونة •

فأجابت نللى بحرارة :

- يجوز انها كانت مجنونة ، ولكن هذا ما أمرتنى به ، وهذا ما سأفعله ماحييت • وبعد أن قالت لى ذلك ، سقطت مغشياً عليها •

صاحت آنا آندريفنا :

- يارب يارب •• مريضة ، فى الشارع ، شتاء •

— وأرادوا أن يقودونا الى قسم الشرطة ، ولكن رجلا من المارة تدخل فى الامر ، وسألنى أين نسكرن ، وأعطانى عشرة روبلات ، وأمر سائقه ان يوصلنا الى بيتنا • وبعد ذلك اليوم ، لم تنهض أمى من فراشها أبداً ، وماتت بعد ثلاثة أسابيع •

صاحت أنا أندريفنا :

— وأبوها ؟ ألم يغفر لها ؟

فأجابت نللى ، وكانت تسيطر على نفسها ولكن فى كثير من العذاب:

— لا •• نادتنى أمى قبل موتها بأسبوع واحد ، وقالت لى : « اذهبى الى جدك مرة أخيرة ، واطلبى اليه أن يعجى ليرانى ويغفر لى • قولى له اننى سأموت خلال ثمانية أيام ، واننى أتركك للعزلة وحيدة ، وقولى له أيضاً اننى يحزنتنى أن أموت •• » فذهبت اليه ، فطرقت الباب ، ففتح ، فلما رآنى أراد أن يغلق الباب رأساً ، ولكننى تشبثت به بكلتا يدى ، وصحت : « أمى تموت وهى تطلبك ، تعال • » ولكنه دفعنى ، وصفق الباب • فعدت الى أمى ، ووقدت الى جانبها ، واحطتها بذراعى ، ولم أقل لها شيئاً • وأحاطتنى أمى بذراعيها أيضاً ، ولم تسألنى عن شىء •

فى هذه اللحظة أسند نيقولا سرجهش يده على المائدة ، ونهض ثقيلًا ، ولكنه بعد أن شعلنا جميعاً بنظرة غريبة مضطربة ، هوى على مقعده كمن خارت قواه • وكانت أنا أندريفنا لا نتظر اليه ، وكانت تشد نللى الى صدرها ناشجة •

— وفى اليوم الاخير ، قبل أن تموت ، وكان ذلك فى المساء ، نادتنى ، وأمسكت بىدى ، وقالت لى : « سأموت اليوم يا نللى ، وأرادت أن تقول شيئاً آخر ، ولكنها لم تستطع • ونظرت اليها ، فخيل الى انها أصبحت لا ترانى ، ولكنها كانت لا تزال تشد على يدى بيديها ، فسللت

يدى برفق ، وخرجت أركض ، وظلمت أركض طوال الطريق حتى وصلت الى جدى • فلما رآنى نهض رأسا ونظر الى ، فبلغ من شدة الرعب انه اصفر اصفراراً شديداً ، وأخذ يرتعش • تناولت يده ولم أستطع أن أقول له سوى هذه الكلمة « تموت » • فجن جنونه فجأة ، وأخذ عصاه ، وركض ورائى ناسياً قبعته ، وكان الجو بارداً ، فتناولت أنا قبعته ووضعتها على رأسه وخرجنا نعدو • كنت أخشه على الاسراع ، وطلبت اليه أن يستأجر عربة لان أمى قد تموت من لحظة الى أخرى ، ولكن لم يكن معه الا سبعة كوبيكات • فاستوقف السائقين وسأولهم ، فكانوا يضحكون منه ، ويهزأون أيضاً بأزور • لقد ركض أزور وراءنا • وواصلنا الركض مسرعين • وقد تعب جدى ، فكان يلث لهائناً شديداً ، ولا يكاد يستطيع أن يتنفس ، ولكنه ظل رغم ذلك يركض • وفجأة وقع على الارض وتدحرجت قبعته • فأنهضته وأعدت القبعة الى رأسه ، وأمسكت بيده أقوده • ووصلنا قيل الليل • • ولكن أمى كانت قد ماتت • • فلما رآها جدى ميتة ، ضرب كفاً بكف ، وأخذ يرتعش ، وظل الى جانبها دون أن يقول شيئاً • عندئذ اقتربت منه وتناولت يده ، وصحت به قائلة : « انظر أيها الانسان الشرير ، أيها الانسان القاسى ، انظر الآن ، انظر • • • فأخذ يصرخ ، وسقط على الارض كاليت •

فرغت نللى من رواية قصتها ، ثم وثبت من مكانها تملص من عناق أنا أندريفنا ، ووقفت بيتنا ، شاحبة الوجه خائرة القوى ، قد بلغت غاية العذاب • ولكن أنا أندريفنا هرعت اليها ، وضمتها مرة أخرى بذراعيها ، وأخذت تصيح كأنما يوحى اليها :

— سأكون أنا أملك الآن يا نللى ، ستكونين ابنتى يا نللى ! • • نعم يا نللى ، فلنذهب ، ولنذهب جميعاً هؤلاء القساء ، هؤلاء الشريرين ! فليعبثوا بالناس ماشاءوا ، حسابهم عند الله ! • • تعالى يا نللى ، فلنذهب ، فلنترك هذا المكان •

لم أرها فى مثل هذه الحالة يوماً ، وما كنت لأصدق أنها يمكن أن تفعل هذا الانفعال كله . فبهض يقولوا سرجتش عن مقعده ، وسألها بصوت متقطع :

— أين تذهين يا آنا أندريفنا ؟

— أذهب إليها ، الى ابنتى ، الى ناتاشا .

قالت ذلك وهى تجر نللى نحو الباب .

— انتظرى ، قفى .

— لافائدة من الانتظار ، يامن قلبه من صخر . لقد انتظرت طويلاً ،

وانتظرت هى أيضاً طويلاً . . . وداعاً !

قالت العجوز ذلك ، ثم استدارت ، وألقت نظرة على زوجها ،

فتوقفت مشدوهة ، لقد رأت يقولوا سرجتش أمامها ، قد وضع قبعة على

رأسه ، وراحت يدها الحائرتان الضعيفتان تسربلانه بمعطفه بسرعة .

— وانت أيضاً . وانت أيضاً . . . تأتى معى .

— ناتاشا ، أين ابنتى ناتاشا ؟ أين هى ؟ أين ابنتى ؟ أعيديا الى

ناتاشا . أين هى ؟

بهذا هتف صدر الشيخ أخيراً . . . ومددت اليه عصاه ، فتناولها ،

وأمرع نحو الباب .

صاحت آنا أندريفنا :

— لقد غفر لها ، لقد عفا عنها .

ولكن الشيخ لم يصل الى العتبة . ذلك ان الباب فتح فجأة ، واذا

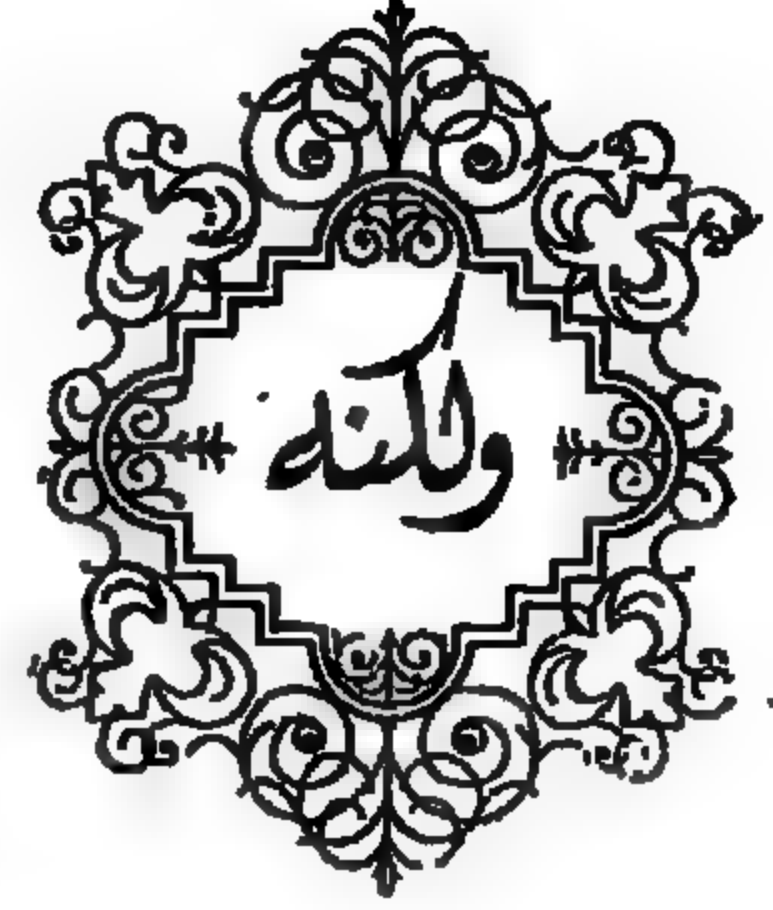
ناتاشا تدخل . . . شاحبة ، متقدة العينين ، كأن بها حمى . كان ثوبها متجعداً

بلله المطر ، وكان المنديل الذى اسبلته على رأسها قد انزلق الى كتفها . . .

وعلى خصلات شعرها المنقوشة كانت تلتبغ قطرات كثيرة من ماء المطر .

دخلت راكضة ، فلما رأت أباه ، ركعت أمامه ، ممدودة الذراعين اليه .

الفصل التاسع



تلقاها بذراعيه ! • •
أمسك بها ، وأنهبها كطفل ، وحملها الى مقعده ،
ثم هوى على ركبتيه • كان يقبل يديها ، ورجليها ،
ويسرع فيقبل وجهها ، ويلتزمها التهاماً ، كأنه
للم يصدق بعد انها معهما ، وأنه يراها ويسمعها ، هي ابنته ، فأتاشا •
وعانقت آنا أندرييفنا ابنتها باكية ، وحضنت رأسها بصدرها ، وكانت تبدو
كمن يوشك أن يغمر عليه في هذا العناق ، وخارت قواها فما تستطيع أن
تتلق بكلمة •

— صديقتي ! • حياتي ! • فرحتي ! •

بهذا كان يهتف الشيخ بصوت متقطع • كان يمسك بيد فأتاشا ؛
وكعاشق ، كان يتأمل وجهها الشاحب ، النحيل ، الجميل ، الساحر ،
ويتأمل عينيها اللتين تلتصق فيهما الدموع • وكان يردد هتافه « فرحتي ؟ •
ابنتي ! • • ثم يسكت من جديد ، ويأخذ يتأملها كالسكران من النشوة •
وقال لنا وهو يتسهم ابتسامة سريعة طفولية وما يزال راكعاً أمامها :

— من قال لي انها نحلت ؟ انها نحلت ، صحيح ، انها شاحبة ،
صحيح ، ولكن انظروا اليها قليلاً ! هل ترون ما أجملها ! انها أجمل
بما كانت أيضاً ، نعم أجمل مما كانت أيضاً !

قال جملة الاخيرة هذه ، واضطر أن يسكت رغم أنه ، تحت وطأة
هذا الألم ، النابع من الفرح ، الذي كان يحس انه سيشطر قلبه •

— انهض يا أبت ، انهض يا أبت • أنا أيضاً أريد أن أقبلك •
— يا حبيبتى ، يا حبيبتى ، يا حبيبتى ! هل سمعت يا أنا كيف تتكلم
بلطف !

قال ذلك ثم لفها بذراعيه ، وهو يرتعش • وأضاف :

— لا يا ناتاشا ، أنا الذى يجب أن أبقى عند قدميك ، الى أن يحس
قلبي أنك غفرت لى • انتى لا أستحق مغفرتك يا ناتاشا • لقد طردتك
يا ناتاشا ، ولعنتك ، هل تسمعين يا ناتاشا ؟ لقد لعنتك ، استطعت أن ألعنك !
وأنت يا ناتاشا ، كيف صدقت أنتى لعنتك ، كيف صدقت ذلك ؟ • كان
يجب ألا تصدق ذلك ، أيتها القلب الصغير القاسى ! لماذا لم تجيئى الى ؟
انك لتعرفين حق المعرفة كيف يمكن أن أستقبلك • • آه يا ناتاشا • • هل
تذكرين كم كنت أحبك ؟ اذن فاعلمى أنتى أحبك الآن وأنتى ظلمت
أحبك طوال هذه المدة ، ضعفين • • ألف ضعف • • كان حبك فى دمي !
كان يمكن أن أتزع قلبى من صدرى ، وأن ألقيه بين قدميك ! آه
يا فرحتى !

— قبلنى اذن ، أيها القاسى ، فى شفتى ، فى وجهى ، كما تفعل أمى •

هكذا صاحت ناتاشا بصوت ضعيف أليم تحجبه دموع الفرح •

— وفى عينيك أيضاً ، فى عينيك أيضاً • • هل تذكرين كيف كنت
أقبلك فى عينيك يا ناتاشا ؟

ردد العجوز هذا ، بعد عناق طويل عذب • ثم أردف يقول :

— هل كنت تحلمين بنا أحياناً يا ناتاشا ؟ أما أنا فكنت أحلم بك كل
ليلة تقريباً • كنت تجيئين الى كل ليلة ، وكنت أبكى عليك • وفى ذات
مرة ، رأيتك فى المنام صغيرة جداً ، كما كنت فى العاشرة من عمرك ،
أيام بدأت تتعلمين البيانو : كان لك ثوب صغير قصير ، وحذاءان صغيران

جميلان ، وأساور وردية .. كان لها يدان ورديتان صغيرتان .. هل تذكرين يا آنا ؟ جئت الى ، وجلست على ركبتى ، وأحطت بذرعايك . كيف ظننت أيتها الطفلة الشريرة أنني لعنتك ، واني لن أستقبلك اذا جئت ؟ . ولكن .. اسمعى يا ناتاشا ، لقد ذهبت نحو بيتك مراراً .. أمك لم تعلم بذلك ، ولا علم به أحد .. كنت أبقي تحت النوافذ أحياناً ؟ وكنت أحياناً أخرى أنتظر . وفى بعض المرات انتظرت نصف يوم بكامله ، فى الشارع ، فى أى مكان ، قرب بابك .. قائلاً لنفسى : لعلها تخرج بعد قليل ، فأراها من بعيد . وفى المساء ، يكون فى نافذتك شمعة مشتعلة غالباً ، فما أكثر ما ذهبت الى هناك ، لا لشيء الا لأرى الشمعة ، لا لشيء الا لألمح خيالك ، فأباركك مباركة المساء . وانت يا ناتاشا هل باركتى مرة مباركة الليل ؟ هل كنت تفكرين فى ؟ هل كان قلبك الصغير يحس اننى هناك ، تحت النافذة ؟ وما أكثر ما صعدت السلم شتاء ، فى ساعات متأخرة من الليل ! . فكنت أبقي وراء الباب فى الظلام ، وارهدف أذنى ، عسى أن أسمع صوتك ، أو ضحكك .. هل يمكن أن ألتصقك ، وتلك حالى ؟ وفى ذات مساء ، ذهبت اليك ، وأردت أن أغفر لك ، ولم أنكص على عقبى الا عند الباب .. آه .. يا ناتاشا !

قال ذلك ثم وقف ، فأنهضها عن المقعد ، وحضنها الى قلبه . وقال :
- انها هنا ، من جديد ، على قلبى . أحمذك اللهم على كل شيء ، على غضبك وعلى رأفتك ! . أحمذك اللهم على الشمس التى تضيئنا الآن جميعاً بعد العاصفة . أحمذك اللهم على هذه اللحظة كلها . اللهم انهم قد أذلونا وأهانونا ، ولكن هانحن أولاء عدنا فالتقينا . ألا فليظفر الآن أولئك العتاة المتعطرسون الذين حقرونا وأهانونا ! ألا فليرجمونا بالحجر ! لا تخشى شيئاً يا ناتاشا ! سامضى اليهم ، واضعاً يدي بيدك ، وسأقول لهم : « هذه

ابنتى الغالية ، هذه ابنتى الحبيبة ، هذه ابنتى البريئة ، التى أهتموها
وأذللتموها •• ولكتنى أحبها ، أنا ، أحبها وأباركها الى الابد • ،
قالت ناتاشا بصوت ضعيف وهى تمد الى يدها بينما كان أبوهة
يقبلها :

— فانيا ، فانيا !

لن أنسى ماحيت انها تذكرتنى فى تلك اللحظة ونادتنى •
قال الشيخ وهو ينظر حوله :

— أين نللى ؟

وصاحت المعجوز :

— نعم أين نللى ؟ لقد تركناها ، هذه الصغيرة العزيزة •

ولكن نللى لم تكن هناك • لقد تسلفت خلصة الى حجرة النوم •
ذهبنا الى هناك جميعاً ، فرأيناها فى ركن وراء الباب ، مخفية على خوف •

صاح المعجوز :

— مابك يا ابنتى ؟

وكان يريد أن يتناولها بذراعيه ، ولكنها ألقت عليه نظرة طويلة •
ثم قالت كالغائبة عن نفسها :

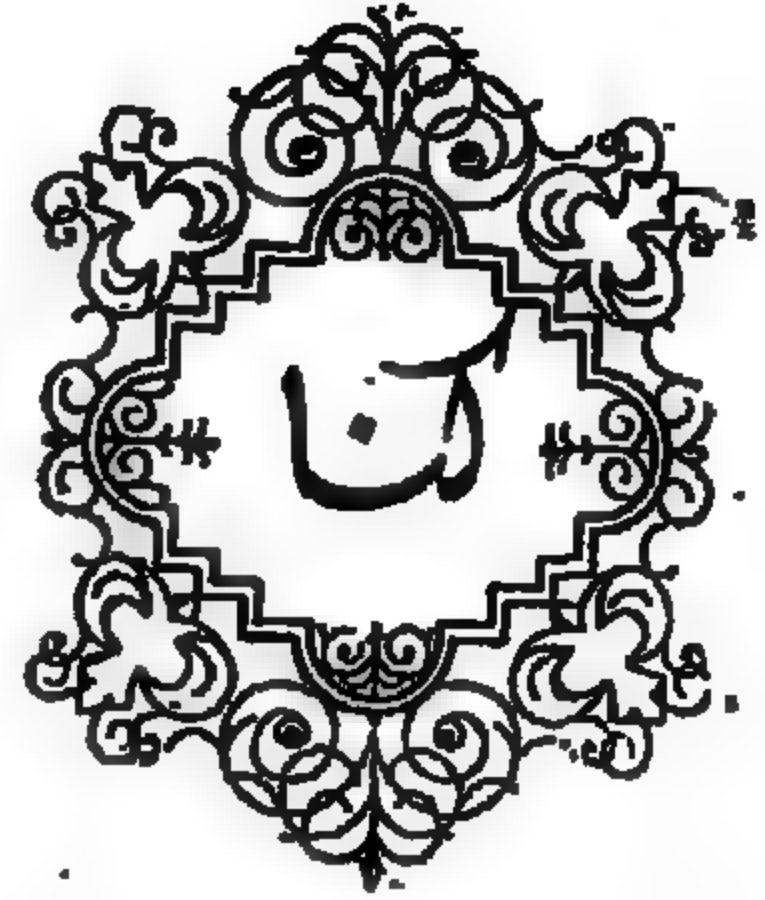
— أمى ، أين أمى ؟

ثم صرخت وهى تمد اليها ذراعيها المرتجفتين :

— أين أمى ؟

ثم اذا بصرخة فظيعة ، رهيبة ، تخرج من صدرها • وتشنج
وجهها ، وسقطت على الارض فريسة نوبة مرعبة •

ذكریات اخیرہ



فی منتصف حزیران (یونیہ) • الجو حار
خاق • استحیل علی المرء أن یبقی فی المدینة
مع القبار ، والکلس ، والینوت التي تبني ،
والبلاط المحرق ، والهواء المسسم بالروائح •
ولکن ، یا فرحتنا ! هذا هو الرعد یدوی • وأظلمت السماء شيئاً بعد
شيء • وهبت الريح زوابع ذات اعجاج • وهطلت قطرات كبيرة من
المطر علی الأرض ثقيلة • وما هي الا لحظة ، اذ السماء كأنها تتشق ،
وإذا الأمطار تنزل علی المدینة كأنها السيل ، حتی اذا أشرقت الشمس بعد
نصف ساعة ، فتحت نافذة غرفتي الصغيرة ، وتشقت الهواء الطری ملء
رئتي ، ففاضت نفسي نشوة ، فأردت أن أدع قلمي ، وأعمالي ، وإن أسرغ
إلی أصحابي هناك فی فاسيلي أوستروف • ولكنني استطعت أن أقتصر علی
نفسی رغم شدة الاغراء ، فعدت إلی أوراقی مقهوراً : يجب أن أنجز عملي
بمهما كلف الأمر • ان ناشري يطالبني بذلك ، ثم انه لن يدفع لی مالاً ،
مالم أنجز عملي • انهم ينتظرونني هناك ، ولكنني فی مساء هذا اليوم سأكون
حرّاً ، حرّاً كالهواء ، وستعوضني هذه السهرة عما لقيت من عناء فی
اليومين الأخيرين والليلتين الأخيرين اذ كتبت ثلاث صفحات ونصف
الصفحة !

وهأنذا أنجز عملي أخيراً ، فأرمني قلمي ، وانهض • انني أحس
بإلم فی ظهري وفي صدري ، وان بی لصداً • أعرف ان أعصابي فی

هذه اللحظة مهتزة أشد الاهتزاز • وخيل الى اننى مازلت أسمع الكلمات الأخيرة التى قالها لى صاحبى الطيب • لا لا ، ما من صحة يمكن أن تحتمل هذا التوتر كله • • مستحيل • • ومع ذلك لم يكن ذلك مستحيلاً حتى الآن • ان رأسى يدور ، ولا أكاد أقوى على الوقوف • ولكن فرحاً عظيماً ، فرحاً لا نهاية له ولا حدود له ، يملأ قلبى • لقد أنهزت قصتى انجازاً كاملاً • وناشرى ، رغم اننى مدين له بمال كثير ، سوف يعطينى شيئاً على كل حال ، حين يمسك فريسته بين يديه ، سوف يعطينى ولو خمسين روبلاً • وأنا لم أحمل مثل هذا المبلغ منذ مدة طويلة • لسوف أستمتع بالحرية والمال معاً ! • وفاضت نفسى حماسة ، فتناولت قبعتى ، وتأبطت مخطوطتى ، ومضيت مسرعاً ، عسى أن أجد عزيزنا الكسندر بتروفتش •

ووجدته • ولكنه كان يوشك أن يخرج • لقد عقد منذ لحظة اتفاقاً لا شأن له بالأدب ، ولكنه يدر عليه ربحاً وفيراً ، فلما فرغ من تشييع اليهودى القصير الاسمر الذى كان قد مكث معه فى حجراته ساعتين ، أكملت ، مدّ يده الى " هاشأ باشأ " وسألنى بصوته الرخو الأجلش عن صحتى ، وأظهر قلقه عليها • انه أحسن الناس طراً ؟ ولست أمزح اذا قلت ان له على " فضلاً " هل ذنبه أنه لم يكن فى الأدب خلال حياته كلها الا رجلاً من رجال الأعمال ؟ لقد فهم ان الأدب فى حاجة الى رجال الأعمال ، وأدرك ذلك فى الوقت المناسب • له العزة والمجد ، من ناحية الأعمال طبعاً •

وابتسم ابتسامة عذبة حين علم ان قصتى قد انتهت ، وان الباب الرئيسى فى العدد القادم من مجلته قد هبّ اذن • وأدهشه اننى استطعت أن أنجز شيئاً • وأخذ ينكت ويمزح بهذا الصدد • ثم مضى الى صندوقه ليأتينى بالخمسين روبلاً ، وناولنى بانتظار ذلك عدداً من مجلة تناصب

مجلته العداء ، مجلة سميكة ضخينة ، ودلتى على بضعة أسطر فى فصل النقد منها ، تتحدث عن قصتى الاخيرة •

ونظرت فرأيت ان المقالة بقلم « الناسخ » • انه لا يسبنى فى هذه المقالة ولكنه لا يغمرنى أيضاً بالأزهار : فسرت كل السرور • غير ان « الناسخ » يقول فيما يقول : ان المرء يشم فى مؤلفاتى « رائحة العرق » ، يعنى ان العرق يتصبب منى حين أكتب ، وائى أتكلف جهداً كبيراً ، وائى أسرف فى الصقل والصنعة اسرافاً يغدو منفراً •

فضحكنا أنا والناشر ضحكاً شديداً ، وأعلمته ان قصتى الاخيرة قد كتبت خلال ليلتين ، وائى كتبت قصتى هذه خلال هذين اليومين وهاتين الليلتين • لو علم بهذا ذلك « الناسخ » الذى يأخذ على افراطى فى التدقيق وبطئى !

— ولكن هذا خطأ منك أيضاً يا ايفان بتروفتش ، لماذا تأخر كل هذا التأخر حتى تضطر الى العمل ليلاً ؟

صحيح ان الكسندر بتروفتش أظرف الناس طراً ، الا ان فيه ضعفاً : هو انه يتباهى بأحكامه الادبية أمام أناس يقدّر هو نفسه انهم يعرفونه بحق المعرفة ، ولكنى لا أحب أن أناقشه فى الأدب ، فتناولت المال وقبعتى ، ونهضت • كان الكسندر بتروفتش ذاهباً الى بيته الجميل فى الجزر ، فلما علم اننى ذاهب الى فاسيلى أوستروف ، تلمظ فاقترح أن يوصلنى الى هناك فى عربته •

— هل تعلم اننى اشتريت عربة جديدة ؟ انك لم ترها بعد • انها جميلة جداً • • ونزلنا • حقاً ان العربة جميلة جداً • ان الكسندرا بتروفتش فرح بها كل الفرحة ، حتى انه ليشعر بنوع من الحاجة الى أن يركب أصدقاءه فيها •

واسترسل الكسندر بتروفتش أثناء الطريق ، عدة مرات ، فى

الحديث عن الادب المعاصر • انه لا يخرج أسمى ، بل يردد بكل هدوء الآراء التي سمعها مؤخراً من هذا أو ذاك من الكتاب الذين يثق بهم ويحترم أحكامهم • ويجب أن أذكر في هذه المناسبة انه يتفق له في بعض الأحيان أن يحترم أشياء غريبة • ويتفق له كذلك أن يفسد رأياً ينقله ، أو أن يضعه في غير موضعه : فتخرج من ذلك بلبله مابعدا بلبله • وكنت أصغى اليه دون أن أنبس بكلمة ، وأعجب للأهواء الإنسانية ما أكثر تنوعها وما أشد غرابتها ، قائلاً لنفسي : « هذا الانسان مثلاً كان ينبغي أن يكفيه جمع المال ، بهدوء • ولكن لا ، انه يريد لنفسه المجد أيضاً • المجد الادبي ، يريد أن يشتهر بأنه ناشر ممتاز ، بأنه ناقد جيد • »

لقد حاول في هذه اللحظة أن يعرض عليّ بالتفصيل رأياً سمعه مني منذ ثلاثة أيام ، وتناقشنا فيه • وها هو ذا الآن يعرضه عليّ رأياً من آرائه • الا ان نسياناً من هذا القيل كان يتفق لالكسندر بتروفتش في كل لحظة ، وجميع أصدقائه يعرفون فيه هذا الضعف البريء • ما أعظم سروره الآن ، وهو يخطب ويعظ في عربته ، ما أعظم رضاه عن نفسه ! انه يدير حديثاً أدبياً متفهماً ، وان صوته الاجش العذب الهادي يساهم في اضافة صفة العلم على كلامه • وشيئاً فشيئاً ، انتقل الى لهجة حرة طليقة ، فبعد عن اقتناعه الرئبي البريء بان أدبنا ، وكل أدب بوجه عام ، لا يملك أحد من أصحابه شيئاً من الاستقامة أو التواضع ، وانه لم يبق ثمة الا تبادل لطم ولكم • وقدرت بيني وبين نفسي أن الكسندر بتروفتش يميل حتى الى اعتبار كل كاتب مستقيم صادق شخصاً غيباً ان لم يكن معتموها ، لاستقامته وصدقه • بدنيهي ان هذا الرأي ناشئ عن ان الكسندر بتروفتش برئء الى أقصى حدود البراءة •

ولكنني لم أصغ اليه • وأنزلني في فاسيلي أوستروف • فأسرعت لأصغى الى أصدقائي • هذا هو الشاوغ الثالث • هذا هو بيتهم الصغير •

فلما رأته أنا أندريتنا لوحاً لي باصبعها تسكتي ، وحركت ذراعها نحوي قائلة « هس » ، وذلك حتى لا أحدث ضجة • وسرعان ما همست قائلة :

— لقد نامت نللي المسكينة منذ لحظة ، فأناشدك الله لا توقظها ! انها ضعيفة جداً • ونحن قلقون عليها • قال الطيب : لا خطر عليها الآن • ولكن هيا حاول أن تحصل على كلام معقول من صاحبك هذا الطيب • الا تستحي يا ايفان بتروفتش ؟ لقد انتظرناك على العشاء •• بعد أن مضى على غيابك يومان !

— قلت لك أول أمس انني لن أجيء الا بعد يومين ، لان هناك عملاً كان عليّ أن أنجزه •

— ولكنك وعدتنا بأن تتعشى اليوم معنا ، فلماذا لم تجيء ؟ لقد نهضت نللي من فراشها خصباً ، يا لها من ملاك ! فحملناها الى الكرسي الطويل ، وكانت تقول : « أريد أن أنتظر فانيا معكم » ، ولكن صاحبنا فانيا لم يظهر ! أين كنت تتسكع ؟ آه منكم أيها الغاؤون ! كانت المسكينة محطمة ، لم أعرف كيف أثبت فيها شيئاً من القوة •• ومن حسن الحظ انها نامت ، هذه الطفلة العزيزة • ثم ان يقولوا سرجتش قد نزل الى المدينة ، وسيعود وقت الشاي • لقد عرض عليه عمل يا ايفان بتروفتش • ولكن مجرد التفكير في ان هذا العمل سيكون في برم يجمد قلبي • — أين ناتاشا ؟

— في الحديقة يا عزيزي • اذهب اليها • انها هي أيضاً غريبة •• لا أفهم ماذا بها • آه ما أشد عذابي يا ايفان بتروفتش ! انها تؤكد لي انها سعيدة مسرورة ، ولكنني لا أصدق هذا الكلام •• اذهب اليها ، يا فانيا ، وستقنع عليّ بعد ذلك ما بها ، سرّاً •• أليس كذلك ؟

فهرعت الى الحديقة قبل أن تنهي أنا أندريتنا كلامها • هي خديعة

صغيرة تابعة للبيت ، يبلغ طولها عشرين قدماً ، وكذلك عرضها تقريباً ،
مخضوضرة فى كل جانب منها : فيها ثلاث شجرات واسعة الفروع ،
وبضع سدرات ، وغياض من اليلك وزهر الجبل ، وشجرة من أشجار
التوت الشوكى فى ركن صغير ، وطريدتان زرعتا بتوت الفراولة ، ولها
ممران متعرجان ، طولاً وعرضاً • ان العجوز يحب هذه الحديقة الصغيرة
حب العبادة ، ويؤكد ان الفطر لن يلبث أن ينبت فيها • ونللى خاصة ،
أحبت هذا المكان ، فكانوا يحملونها اليه على مقعدها فى كثير من الاحيان ،
اذ لقد أصبحت معبودة البيت كله • هاهى ذى ناتاشا : انها تقبل على
بإتسامة فرحة ، مادة الى يدها • ما أشد هزالها وشحوبها ! انها هى
أيضاً لم تكد تخرج من المرض •

— هل أنجزت عملك انجازاً تاماً يا فانيا ؟

— نعم •• وأنا الليلة حر تماماً •

— الحمد لله ! هل تعجلت الكتابة ؟ هل أساء هذا التعجل الى القصة ؟

— ما حيلتى ؟ على كل حال ، لا خير ! اننى حين أعمل وأنا فى
مثل هذا التوتر النفسى ، أصل الى حالة خاصة ، فيكون ذهنى أصفى ،
ويكون احساسى أعف وأعمق ، وأكون سيد أسلوبى • ان التوتر يحسّن
كتابتى •

— فانيا ، فانيا •

لقد لاحظت ان ناتاشا أصبحت فى الايام الاخيرة شديدة الاحتفال
بما أحقق من نجاح أدبى ، وبما أصيب من شهرة • انها تقراً كل ماشرته
منذ عام ، وتسألنى فى كل لحظة عن مشاريعي المقبلة ، وتتابع ما يكتب من
نقد يتناول آثارى ، فيغضبها بعض هذا النقد ، وتصر على أن أبلغ مكانة
رفيعة فى الادب • وقد انكشفت رغباتها هذه قوية عنيفة فلم يسعنى ازاءها
الا أن أدهش لهذا الميل الجديد •

قالت لى :

- انت ترهق نفسك يا فانيا ، انت ترهق نفسك ، وتحملها فوق طاقتها • ثم انك تهدم صحتك • انظر الى من ••• انه أنفق سنتين فى كتابة قصة واحدة • وانظر الى ن ••• انه لم ينشر الا رواية واحدة خلال عشرة أعوام • ولكن كتابتهما مصقولة كاملة ، لا يجد المرء فيها اهمالاً واحداً •

- نعم ، ولكن حياتهما مؤمنة ، وليس فى حاجة الى أن يكتب فى موعد معين ، أما أنا •• فحصان عربية ! على كل حال ، ليس هذا كله الا سخافات • دعينا من هذه الامور ، يا صديقتى •• والآن ، هل من جديد ؟

- نعم ، أولاً : رسالة منه •

- أيضاً ؟

- نعم •

قالت ذلك ومدت الى رسالة من اليوشا • انها الرسالة الثالثة منذ افتراقا • أما الاولى فقد وصلت من موسكو ، ويظهر انه كتبها وهو فى حالة عصية ، وفيها يقول ان الظروف تمنعه من العودة الى بطرسبرج كما كان ينوى • وأما الثانية فيعلن فيها انه عائد قريباً للزواج بناتاشا ، وان هذا قد تقرر ، وانه مامن قوة فى العالم يمكن أن تحول دونه • ومع ذلك كان واضحاً من لهجة رسالته كلها انه يائس ، وانه يرزح تحت عبء تأثيرات أخرى ، وانه يشك منذ الآن فى نفسه • وقال فيما قال ان كتابا هى التى تشد أزره ، وانها سلواه الوحيدة ومسنده الوحيد •

وأسرعت ففضضت الرسالة الثالثة • هى صفحتان كتبتا بخط متعثر ، مشوش ، متعجل ، لا يكاد يقرأ •• وعليها بقع جبر ودموع • ان اليوشا يعلن منذ البداية انه يعدل عن ناتاشا ، وينصحها بأن تنسأ ، ويحاول أن

يبرهن لها ان رواجهما مستحيل ، وان هناك مؤثرات أجنبية معاذية أقوى من كل شيء ، وانهما أخيراً لن يكونا معاً الا شقيين لانهما لا يصلح أحدهما للآخر . ولكن اليوشا لم يستمر على هذه النعمة ، فاذا هو فجأة يترك نظرياته وبراهينه بلا لف ولا دوران ، وبدلاً من أن يمزق الرسالة وان يهمل هذا القسم الاول منها ، يتابع كلامه قائلاً انه مجرم فى حق ناتاشا ، وانه رجل ضائع ، لم يملك من القوة ما يقاوم به ارادة أبيه الذى وصل اليهم منذ مدة قصيرة ، وانه لا يستطيع وصف الآلام التى يعاينها وانه يشعر بأنه قادر على اسعاد ناتاشا ، ويصرح فجأة بأن كلا منهما قد خلق للآخر جحماً ، ويأخذ يفند جججج أبيه فى عناد واضرار . ثم يرسم ، يائساً ، صورة السعادة التى كان يمكن أن تكون نصيبهما كليهما لو تزوجا ، ويأخذ يلعن نفسه لما يتصف به من جبن . ثم يودع ناتاشا الى الابد .

واضح ان كتابة هذه الرسالة كانت عذاباً له . واضح انه كان خارجاً عن طوره وهو يكتبها . واغرو رقت عيناي بالدموع ، ومدت الى ناتاشا رسالة أخرى ، من كاتيا . لقد وصلت رسالة كاتيا مع رسالة اليوشا فى ظرف واحد ، ولكنها مودعة فى غلاف مستقل . وفى هذه الرسالة تقول كاتيا ان اليوشا كان حزيناً حقاً ، وانه كان يبكى كثيراً ، وانه كان يائساً ، حتى انه مريض قليلاً ، ولكنها هى معه ، وسيكون سعيداً . وحاولت كاتيا أن تشرح لناتاشا ان عليها ألا تظن ان اليوشا سيسلوها بسهولة ، فان لوعته ليست بالشئ اليسير : « انه لن ينسك أبداً . لن يستطيع أبداً أن ينسك ، فأنت تعرفين قلبه . انه يحبك حباً لا حدود له ، وسيظل يحبك مدى الحياة . ولو سلاك ، لو أصبح يوماً لا يتألم لذكراك ، فلن أحبه أنا بعد ذلك . »

أعدت الرسالة الى ناتاشا وتبادلنا نظرة صامتة . وهذا ما حدث للرسالة الاولى فالرسالة الثانية . لقد أصبحنا نتحاشى الحديث عن الماضى ، كأننا

اتفقنا على ذلك ، ولكنها لا تريد أن تتحدث في هذا أمامي • انها حين عادت الى بيت أبيها ظلت طريحة الفراش ثلاثة أسابيع ، فكانت تعاني من الحمى ولا تكاد تنهض • وكنا لا نتحدث كذلك الا نادراً عن التغير الذي سيطراً ، رغم انها تعرف ان أباهما قد وجد عملاً ، وان علينا أن نفرق في القريب • ورغم الحنان وألوان الرعاية التي كانت تغمرني بها طوال هذه المدة ، ورغم اهتمامها بكل ما كان يتصل بي من قريب أو بعيد ، ورغم اصغائها الشديد الى كل ما كان عليّ أن أقوله لها من تلقاء نفسي (وكان يتقل عليّ ذلك في أول الامر) ، فقد كنت أشعر انها تريد أن تعوضني عما لقيت من عذاب ، لا أكثر من ذلك ولا أقل • غير ان هذا الشعور المؤلم لم يلبث أن زال • ولم ألبث ان فهمت ان لها رغبة أخرى ، لم ألبث ان فهمت انها تحبني بكل بساطة ، تحبني حباً لا حدّ له ، وانها لا تستطيع أن تعيش دون أن يقلقها كل ما يتصل بي من أمر • يقيني انه هامن أخت أحبب أخاها يوماً كما تحبني ناتاشا • كنت أعرف ان فراقنا القريب يسحق قلبها سحقاً ، وانها تتألم أشد الألم • وكانت تعلم هي أيضا انني لا أستطيع أن أعيش بدونها • ولكننا كنا لا نتحدث في هذا ، رغم اننا تحدثنا تفصيلاً عن الاحداث التي تنهيا •

سألتها عن أنباء نيقولا سرجتش ، فأجابتنى :

— أظن أنه عائد بعد قليل ، فلقد وعد بأن يكون هنا في موعد

ناتشاي •

— ألا يزال يقوم بمساعٍ للحصول على ذلك المركز ؟

— نعم • • • وسيحصل عليه من غير شك •

ثم أضافت حالة :

— لم يكن اليوم في حاجة الى الخروج • • • كان يمكنه أن يرجي •

ذلك الى الغد •

— فلماذا خرج اذن ؟

— لأننى تلقيت هذه الرسالة •

وأضافت بعد صمت :

— انه مريض بحبى يا فانيا ، وهذا يؤلمنى • يقينى أنه لا يحلم
الا بى • يقينى أنه لا يهتم الا بشىء واحد : ما يحدث لى ، ما أفكر فيه •
كل هم من همومى ترجع اصداؤه فى نفسه • انه فى بعض الاحيان
يحاول السيطرة على نفسه ، ولكن فى غير طائل • يحاول أن يتظاهر بأنه
غير قلق ، بأنه مرح ، يحاول أن يضحك وأن يضحكنا • وأمى أيضاً
تبدل فى مثل تلك اللحظات •• انها لا تصدق هذه الحماسة فى أبى •
فتأخذ تنهد • يا لها من خرقاء ! انها مستقيمة مسرفة فى الاستقامة (قالت
ناتاشا ذلك وهى تضحك) • وهكذا ، حين تلقيت هذه الرسالة اليوم •
أحس أبى بحاجة ملحة الى الخروج ، وذلك حتى لا يلتقى نظره بنظرى ••
اننى أحبه أكثر من نفسى ، أحبه أكثر من أى شىء فى العالم ، أحبه
يا فانيا حتى أكثر مما أحبك • (قالت عبارتها الاخيرة هذه وهى تنفض
طرفها ، وتشد على يدي) •

ودرنا الحديقة مرتين قبل أن تستأنف ناتاشا كلامها • قالت :

— زارنا اليوم ماسلوبوف •

— نعم ، لقد تعود فى هذه المدة الاخيرة أن يزورك •

— وهل تعلم ، هل تعلم لماذا يجىء الينا ؟ ان أمى تثق به ثقة مطلقة •
انها تعتقد أنه من العلم بكل شىء (بالقوانين وسائر الامور) بحيث يستطيع
أن ينجح فى حل أية قضية من القضايا • هل تعرف ما الذى يصدع
رأسها الآن ؟ انها فى أعماق نفسها يؤسفها ألا أكون أميرة • وهى من
حزنها على كل ذلك لاتنام • واغلب ظنى انها فاتحت ماسلوبوف فى
هذا الامر • انها لاتجرؤ أن تتحدث فى هذا الموضوع الى أبى ، وهى

تعتقد أن مسلوبويف يستطيع أن يساعدها باللجوء الى القانون •
وماسلوبويف لا يعارضها طبعاً ، فتدله بالشراب (أضافت ناتاشا ذلك
وهى تطلق ضحكة صغيرة) •

— لا أستغرب ذلك على هذا المشعبد ! ولكن كيف عرفت كل
ذلك ؟

— امى نفسها ألمحت اليه •

— ونللى ؟ كيف حالها ؟

— استغرب يافانيا انك لم تسألنى عن انبائها الى الآن :

قالت ناتاشا ذلك بلهجة اللوم •

كانت نللى معبودة البيت كله • كانت ناتاشا تحبها كثيراً ، وكانت
نللى قد فتحت قلبها لها أخيراً • مسكينة هذه الطفلة • انها لم يدر فى
خلدها يوماً انها ستلقى مثل هؤلاء الناس ، وأنها ستجد كل هذا الحب !
كنت ألاحظ ، فرحاً ، ان قلبها الحائق قد رق ، وان نفسها انفتحت لنا
جميعاً ، فكانت ترد على الحب الذى تحاط به ، كانت ترد عليه بحماسة
مرضية تتناقض كل التناقض مع العناد والعداء والحذر الذى كان يملأ
نفسها فى الماضى • على أن نللى كانت قد عندت مدة طويلة فأخفت عنه
دموع الرضا الذى كان يتجمع فى قلبها ، ثم اسلمت نفسها أخيراً • وقد
تعلقت بناتاشا تعلقاً شديداً ، ثم تعلقت بالمعجوز ايضاً • اما أنا فقد أصبحت
لاستغنى عنى لحظة ، حتى ان صحتها كانت تزداد سوءاً حين أتغيب مدة.
من أجل أن أنجز العمل الذى أهملته • ظلمت أنصحها وأعطيها مدة
طويلة • • بكلام مغطى ، طبعاً • كانت نللى ما تزال تشعر بشئ من الحياء
من اظهار عاطفتها صريحة حرة • •

كنا نشعر جميعاً بكثير من القلق عليها • لقد كان من المتفق عليه
ضمناً أن تظل فى بيت نيقولا سرجتش • ولكن سفرهم يقترب ، وصحتها

تزداد سوءاً يوماً بعد يوم • لقد مرضت فى ذلك اليوم نفسه الذى أخذتها فيه الى العجوزين ، فى ذلك اليوم نفسه الذى تم فيه الصلح بينهما وبين ناتاشا • على انها ، ماذا أقول ؟ كانت مريضة قبل ذلك كثيراً ، ولكن مرضها يتفاقم الآن بسرعة لا تصدق • لا أدري ماذا كان مرضها على وجه الدقة ، ولا أستطيع أن أعينه وان أحده • صحيح ان نوباتها ازدادت ، ولكن التهدم وانهاى القوى والتوتر والحمى ، هذه الامور خاصة هى التى كانت تلزمها فراشها فى الايام الاخيرة • والشئ الغريب ان نللى كانت تزداد نعومة ورقة وحناناً وثقة فى معاملتنا ، كلما الح عليها المرض •

لقد مرت قرب سريرها الصغير منذ ثلاثة أيام ، فاذا هى تتناول يدى وتجذبني اليها • كنا وحدنا فى الغرفة • وكان وجهها يحترق من شدة الحمى (ولقد هزلت هزلاً رهيباً) ، وكانت عيناها تتقدان • تناولت نحوى بحركة عنيفة جامحة ، حتى اذا انحنيت عليها أحاطتنى بذراعيها الصغيرين الأسمرين الناحلين ، وقبلتنى بحرارة • ثم ما لبثت أن طلبت ناتاشا ، فناديتها • كانت نللى تصر على أن تجلس على سريرها وأن تنظر اليها • قالت لها :

— أنا أيضاً أحب أن أنظر اليك • لقد حلمت بك أمس ، وسأحلم بك الليلة • انتى أحلم بك كثيراً ، كل ليلة •

كان واضحاً انها تريد أن تفصح عن شئ ، أن تفضى بعاطفة تتوء يحملها ، ولكنها كانت لاتفهم ماتحسه ، ولا تعرف كيف تعبر عنه •

وكانت نللى تحب نيقولا سرجتش أكثر من أى شخص آخر بعدى • • • ويجب أن نذكر ان نيقولا سرجتش يحضنها من الحب مثل ما يحض ناتاشا تقريباً • وكان يملك قدرة مذهشة على افراحها واضحاكها ، فمايكاد يدخل غرفتها حتى يبدأ الضحك والبث • كانت المريضة الصغيرة تضحك كطفلة ، وتعايب العجوز ، وتهزأ به ، وتقص عليه أحلامها ، وتخترع

وتلفق ، ثم تجبره على أن يحكى هو أيضا ، فكان الشيخ يبلغ من الفرح والسرور وهو ينظر الى « ابنته الصغيرة نللى » ان نشوته بمجالستها تزداد يوما بعد يوم •

قال لى مرة وهو يترك نللى بعد أن رسم عليها اشارة الصليب فى الليل على عادته :

— ان الله هو الذى بعث بها إلينا تعويضاً عما لقينا من آلام ••

كنا فى المساء نجلس معاً (وكان ماسلوبوف يأتى أيضا ، كل مساء تقريباً) ، وكان الطيب العجوز الذى تعلق بأسرة اخمينيف تعلقاً شديداً ينضم إلينا فى بعض الاحيان • كنا نحمل نللى على مقعدها الى قرب المائدة المستديرة • ونفتح باب الشرفة ، فنطل على الحديقة الصغيرة كلها وقد أغرقتها أشعة الشمس الغاربة • وكانت رائحة الحضرة الطرية والليلك المتفتح تنعش صدورنا • كانت نللى تنظر إلينا جميعاً من على مقعدها ، وتصفى الى حديثنا ، وقد فاض وجهها عاطفة وحناناً • وكانت تتحسس من حين الى حين فتقول بضع كلمات •• ولكننا نصفى الى كلامها قلقين ، لأن فى ذكرياتها أموراً يجب ألا تُمس •• وكنا نشعر ، أنا وناثانها والعجوز واخمينيف ، اننا أذنبنا فى حقها كثيراً يوم حملناها على أن تروى لنا حياتها كلها ، وهى ترتعش متعبة مرهقة • وكان الطيب خاصة يعارض فى ايقاظ هذه الذكريات ويحاول عادةً أن يغير مجرى الحديث • وكانت نللى تحاول أن تخفى انها تلاحظ جهودنا ، وتأخذ تضاحك الدكتور أو يقولوا سرجتش •

وفى أثناء ذلك كانت صحتها تزداد سوءاً • وأصبحت سريعة التأثير الى أقصى الحدود • فكان قلبها يخفق خفوقاً غير مطرد • حتى لقد قال لى الطيب انها قد تموت قريباً جداً •

لم أخبر العجوزين بذلك حتى لا أفزعهما •• وكان يقولوا سرجتش يعتقد انها مستشفى قبل السفر •

— هذا أبى ، فلنعد يا فانيا •

ذلك ما قالته لى ناتاشا ، وقد سمعت صوت أبيها •

ما كاد يقولوا سرجتش يجتاز العتبة حتى أخذ يتكلم بصوت عال ، على عادته • فلوحث له آنا آندريفنا بذراعيها ، فما لبث أن هدأ ، حتى اذ لمحنا آنا وناتاشا أخذ يقص علينا نتيجة مساعيه بصوت خافت واهتمام كبير : ان المركز الذى يسعى الى احتلاله قد 'ضمن له ، وهو سعيد بذلك كل السعادة • قال وهو يفرك يديه ويلقى على ناتاشا نظرة قلقة :

— نستطيع أن نساfer بعد خمسة عشر يوماً •

ولكن ناتاشا أجابته بابتسامة وقبلته ، فتبددت شكوكه فوراً • قال فرحاً :

— فلنسافر ، يا أعزائى ، فلنسافر • لا تشق على مفارقة أحد غيرك يا فانيا ••

(يجب أن ألفت نظر القارئ الى ان يقولوا سرجتش لم يقترح على مرة واحدة أن أصبحهم • وهذا أمر ما كان ليفوته أن يفعله ، بحكم طبعه ، فى ظروف أخرى ، أى لولا انه علم بحبى لناتاشا •) ولكن ما العمل ، يا أعزائى ، ما العمل ؟ ان فراقك يحز فى نفسى يا فانيا • ولكن تغير مكان الإقامة سيرد الينا الحياة جميعاً • من غير بلده فقد غير كل شىء فى حياته •

قال عبارته الاخيرة هذه وهو ينظر مرة أخرى الى بيته •

كان يؤمن بهذا وكان يسعده أن يؤمن به •

قالت آنا آندريفنا :

- ونللى ؟

- نللى ؟ انها مريضة الآن قليلا ، ولكنها مستشفى قبل أن تسافر .
صحتها قد تحسنت منذ الآن ، ألا ترى ذلك يا فانيا (قال ذلك وقد ظهر
في وجهه الرعب ، والقى على نظرة قلقة ، كأن على أنا أن أبدد مخاوفه)
كيف هي الآن ؟ هل نامت نوما هادئا ؟ ألم يحدث شيء ؟ لا بد انها
استيقظت . أنا آندريفنا : منضع المائدة على الشرفة ، وتأتين بالسماور ،
ويجيء أصدقاءنا ، ونجلس هناك جميعاً ، وتأتى نللى أيضاً . . . هذه فكرة
حسنة . . . ولكن ألم تستيقظ ؟ سارى . . . سأنظر اليها فقط . . . لن
أوقظها . . . لا تقلقى ! (أضاف ذلك اذ رأى أنا آندريفنا عادت تلوح له) .
كانت نللى قد استيقظت . وما هي الا ربع ساعة حتى كنا نجلس
جميعاً قرب سماور المساء على عادتنا .

حملت نللى على مقعدها . وجاء الطيب . ووصل ماسلوبوف .
وقد وصل يحمل باقة كبيرة من اليلك لنللى ، ولكن وجهه كان يدل على
هم وكدر .

يجب أن أذكر بهذه المناسبة ان ماسلوبوف كان يأتي كل يوم
تقريباً . وقد سبق أن ذكرت انهم أحبوه جميعاً ، ولا سيما أنا آندريفنا ،
ولكن أحداً ما كان يتحدث صراحة عن الكسندرا سيمينوفنا . وماسلوبوف
نفسه ما كان يذكر اسمها . ان أنا آندريفنا ، حين علمت منى ان
الكسندرا سيمينوفنا لم تظهر بعد بأن تصبح زوجته الشرعية ، قد رأت
بينها وبين نفسها ان من الواجب ألا تستقبل وألا يذكر اسمها . وقد
طبقنا جميعاً هذا القرار ، وعلى رأسنا أنا آندريفنا . ولكن يجب أن أشير
الى ان أنا آندريفنا ما كانت لتزمت هذه التزمت كله لو لم تكن ناتاشا
هنا ، ولو لم يقع ما وقع .

كانت نللى تبدو في ذلك المساء أشد حزناً وقلقاً . لكأنها رأت حلماً

سيئاً ما تزال تفكر فيه • ولكنها 'سرت' كثيراً بهدية ماسلوبوف ، فكانت تتأمل الازهار التى وضعت فى آنية الى جانبها ، فرحةً بها • قال العجوز :
- أنت تحبين الازهار كثيراً يا نللى ، أليس كذلك ؟

تم أضاف بحرارة وحماسة :

- انتظرى •• غداً •• ترين ! ••

أجابته نللى بقولها :

- نعم أحبها ، وأذكر اننا قدما فى ذات مرة أزهاراً الى أمى • كنت يومئذ هناك (أصبحت كلمة هناك تعنى البلد الأجنبى) ، وكانت أمى مريضة خلال شهر يكامله ، فقررتا أنا وهنرى أن نزين جميع الحجرات بالازهار متى نهضت من فراشها أول مرة لتخرج من غرفتها بعد أن أقامت فيها لا تبرحها مدة شهر كامل • وهذا ما فعلناه • قالت لنا أمى ذات مساء انها ستناول طعام الافطار معنا فى الغد ، فاستيقظنا فى غد مع الفجر ، ومضى هنرى فجاء بأزهار كثيرة ، فزينا الغرفة بأوراق خضر وأكاليل : كان هناك لبلاب ، وأوراق غريضة نسيت الآن اسمها ، وأوراق أخرى علقناها فى كل مكان ، وأزهار كبيرة بيضاء ، ونرجس (والنرجس أحب الازهار الى) ، وورود ، وورود رائحة ، وكثير جداً من الازهار الاخرى : علقناها كلها أكاليل أكاليل ، وربناها فى آنية • وكان هناك أيضاً أزهار تشبه أن تكون أشجاراً ، فى صناديق كبيرة : وضعناها فى أركان الغرفة وقرب مقعد أمى • فلما خرجت أمى من غرفتها دهشت ، وسرها هذا ، وسر هنرى •• أذكر ذلك •

كانت نللى فى ذلك المساء قد ازدادت ضعفاً ، وازدادت عصية •• فكان الطبيب ينظر اليها قلقاً • ولكنها كانت تشتهى كثيراً ان تتكلم • فطلت مدة طويلة ، حتى الليل ، تحدثنا عن حياتها هناك • ولم تقاطعها • لقد قامت هناك ، مع امها وهنرى ، بأسفار كثيرة • وذكرياتها تستيقظ

الآن واضحة زاهية • حديثنا بحرارة عن السماء الزرقاء ، عن الجبال الشاهقة التي تغطيها الثلوج ، عن كتل الجليد التي رأتها واجتازتها ، عن السيول ، عن بحيرات إيطاليا ووديانها ، عن الازهار والاشجار ، عن سكان القرى ، عن ملابسهم ، عن وجوههم السمراء وعيونهم السوداء ، عن الاشخاص الذين لقوهم ، عن الحوادث التي وقعت لهم • ثم وصفت المدن الكبرى ، والقصور ، وكنيسة ذات قبة تشتعل فجأة بنيران من كل لون ، ثم وصفت مدينة حارة من مدن الجنوب ، سماؤها زرقاء ، والبحر قريبا أزرق ••• لم تقص علينا نللي ذكرياتها بمثل هذا التفصيل قبل اليوم • وكنا نصغى اليها بانتباه شديد • كنا حتى تلك اللحظة لانعرف الا ذكرياتها الاخرى ، تلك التي بقيت لها من مدينة مظلمة كالحة ، ذات قصور ثمينة موشخة بالوحل ، وشمس كابية بخيلة ، وسكان أشرار أشباه مجانين ، كنا لا نعرف الا ذكرياتها عن هذه المدينة التي تأملت فيها هي وأمها كثيراً • وكنت أتصورهما كليهما في قبورها الوسخ ذاك ، ذات مساء مظلم رطب ، قابعتين على سريرهما الرديء وقد تشبثت كل منهما بالآخرى ، وراحتا تتذكران الماضي ، هنرى الذى مات ، وعجائب البلاد الاخرى • وكنت أيضاً أتصور نللي ، وهي تستعيد هذه الذكريات كلها ، وحيدة بلا أم ، عند بونوقا التي تريد بالضرب والصفع والقسوة الحيوانية أن تجهز عليها ، وان تكرها على •••

وساءت حال نللي أخيراً ، فحملوها الى سريرها • وذعر العجوز ، وندم على أنها تركت تتحدث هذا الحديث الطويل كله • وباغتتها نوبة هي نوع من الاغماء ••• لقد وقع لها ذلك قبل الآن مرات • فلما صحت طلبت أن ترانى على انفراد • كان فى صدرها شئ تريد أن تفضي به الى ، وبلغت من الالحاح فى طلبها ان الطيب نفسه أمر فى هذه المرة بتليته ، فخرجوا جميعاً ، وبقيت معها وحدى ، فقالت لى :

— فانيا ، أعرف أنهم يظنون أنتى سأسافر معهم ، ولكننى لن أسافر ،
لأنتى لا أستطيع ذلك : سأبقى معك .. هذا ما أردت أن أقوله لك •

فأخذت أقنعها بضرورة سفرها قائلاً أنهم يحبونها جميعاً ، وإن
العجوزين يعدانها ابنةً لهما ، وأنهما سيتألمان كثيراً إذا هى رفضت أن
تصحبهم فى سفرهم ، وإن الحياة ستكون شاقة ، وإن علينا أن نفرق
رغم كل ما أحمل لهما من عاطفة • فأجابتنى بلهجة جازمة تقول :

— لا ، هذا مستحيل • انتى أرى أُمى كثيراً فى المنام ، وهى تطلب
الىّ فى كل مرة ألا أذهب معهم ، وأن أبقى هنا ؟ وتقول لى انتى اقترفت
اثماً كبيراً بترك جدى وحده ، وهى تقول ذلك باكية • أريد أن أبقى هنا
وأن أعنى بجدى • فقلت لها دهشاً :

— ولكنك تعلمين أن جدك مات •

فشرد فكرها ونظرت الىّ نظرة ثابتة ، ثم قالت :

— حدثنى مرة أخرى كيف مات • • • قص على كل شيء ، ولا تغفل
شيئاً •

شدهت من هذا الطلب ، ولكننى أخذت أقص عليها الحادث
تفصيلاً • كنت أعتقد أنها تهذى ، أو أنها على الأقل لم تسترد صفاء عقلها
بعد نوبتها الأخيرة •

كانت تصنى الىّ باتباه ، وأذكر الآن أن عينيها السوداوين الملتمعتين
ببريق المرض والحمى كانتا لا تفارقانى لحظة طوال مدة الحديث • وكانت
الغرفة قد أظلمت • قالت لى بلهجة قاطعة بعد أن أصغت الى حديثى حتى
النهاية ، وبعد أن فكرت لحظة أيضاً :

— لا يا فانيا ، انه لم يمت • ان أُمى تحدثنى دائماً عن جدى ، وحين
قلت لها أمس ان جدى مات ، أحزنها ذلك كثيراً ، وأخذت تبكى ، وقالت

ان هذا غير صحيح ، وانه قيل لي عمداً ، وان جدى مايزال يعيش ، وانه يتجول فى الشوارع يستجدى الناس « كما نستجدى ، أنا وانت فى الماضى ، وانه يعود الى المكان الذى لقيناه فيه أول مرة ، حين جثوت بين قدميه ، فعرفنى آزور ، »

قلت لها :

- يا نللى ، هذا حلم ، هذا حلم مريض .. انك مازلت مريضة يا نللى !

- أنا أيضا قلت لنفسى ان هذا حلم ، فلم أحدث به أحداً . كنت أريد ألا أقص شيئا من هذا كله الا عليك .. ولكننى اليوم ، حين نمت ، لانك لم تأت ، رأيت جدى أيضا .. كان جالسا فى غرفته ينتظرنى ، وكان مخيفا جداً ، كان نحيلاً نحولاً رهيباً .. قال لي انه لم يأكل شيئا منذ يومين ، لا هو ولا آزور .. غضب منى ، وأنحى على باللائمة . وقال لي أيضا ان تبغ الذى يتشقه قد نفد ، وانه لا يستطيع أن يعيش بدون هذا التبغ . وهذا صحيح يا فانيا ، لقد قال لي ذلك مرة قبل موت امى ، فى يوم ذهبت فيه اليه . كان يومئذ مريضا تماما ، لا يكاد يفهم شيئا . فلما سمعته يقول هذا الكلام اليوم قلت لنفسى : « سأذهب الى الجسر اطلب الصدقة ، ثم اشترى له شيئا من الخبز ومسحوق البطاطس والتبغ . » وخیّل الى اننى ذهبت الى هناك ، وتسولت ، وان جدى كان ينتظرنى غير بعيد عني ، ثم جاء الى ، فرأى كم جمعت ، فأخذ ما جمعته قائلا : « هذا للخبز ، فاجمعي الآن شيئا للتبغ » . ففعلت ما امرنى به ، فجاء واخذ ما جمعته . فقلت له انه لا حاجة به الى ذلك ، فسأعطيه كل شيء ، ولن احتفظ لنفسى بشيء . فأجابنى بقوله : « بل انت تسرقينى . فقد قالت لي بونوفا انك سارقة ، ولهذا لن آخذك ابداً الى » . اين وضعت قطعة الخمس كوبيكات ؟ ، فأخبت ابكى لانه لا يصدقنى ، ولكنه لم يصنع

الى بل استمر يصرخ قائلاً « سرقت منى خمس كوبيكات ! » واخذ يضربنى على الجسر ضرباً موجعاً • لقد بكيت كثيراً ، لذلك اعتقد الآن انه ما يزال حياً ، وانه يتجول فى مكان ما ، وانه ينتظرنى ••

حاولت مرة اخرى ان ارجعها الى صوابها ، وان اردتها عن اوهامها • وخیل الى اننى نجحت فى ذلك • قالت لى انها تخاف أن تنام ، لأنها مشرى جدها مرة اخرى • واخيراً احاطتتى بذراعيها ، وقالت وهى تضع خدها على خدى :

— ومع ذلك لا استطيع ان اتركك •• هب جدى لم يمت فسأبقى معك الى الابد ••

ذعر جميع من فى البيت من النبوة التى اصابته نللى • وقصصت على الطبيب احلام الطفلة همساً ، وسأله عما يظن انه مرضها • فقال لى شارد الفكر :

— لا اعرف مرضها بعد • اننى احاول ان اعرفه ، اننى افكر ، وألاحظ ، واراغب ، ولكننى لم اعرف شيئاً بعد • وعلى كل حال ، يستحيل ان تشفى • انها ستموت • لقد اوصيتى بان لا اقول لهم ذلك • فعلت بوصيتك ، ولكن هذا يؤلمنى ، وسأقترح عليهم غداً استشارة احد الاطباء • مسكينة هذه الطفلة ، اننى اشفق عليها كأنها ابنتى •• ما اروعها ما ألطف روحها الفكهة ! ••

وكان يقولون سرجتش متأثراً اشد التأثير • قال :

— تراودنى فكرة يافانيا ، انها تحب الازهار كثيراً ، فلنهيئ لها غداً • عند الصباح ، مفاجأة كالتى هيأتها لامها مع هنرى ، كما حدثنا بذلك اليوم •• لقد قصت علينا هذا منفعلة •

— نعم ، ولكن الانفعالات تؤذيها الآن •

— صحيح ، غير ان الانفعالات الفرحة شيء آخر • صدقنى يا عزيزى ، اتنى اعرف بالتجربة ان الانفعالات الفرحة لا تضر ، حتى لقد تحسن الى صحتها ، فتشفيها •

والخلاصة انه بلغ من فرط الاقتان بفكرته أن الحماسة استبدت به ، فلا سبل الى كبجها • لم اقو على الاعتراض • واستشرت الطبيب ••• ولكن ما ان اخذ الطبيب يفكر فى الامر ، حتى كان العجوز قد تناول بقبته وخرج لتنفيذ ما عقد النية عليه • قال لى وهو يذهب :

— ليس المكان بعيداً • ها هنا مزرعة رائعة •• تباع أزهارها بأسعار زهيدة جداً ، أسعار زهيدة تبعث على الدهشة • قل كلمتين فى هذا لآنا • أندريفنا ، حتى لا يسيئها هذا الانفاق •• اتفقنا •• ها ، نعم • كنت أريد أن أسألك يا صديقى العزيز ، الى أين أنت ذاهب الآن ؟ لقد فرغت من عملك ، لقد أنجزت عملك ، ولا شيء يستحقك على العودة الى بيتك • ابق هنا هذه الليلة • سنضعك فوق ، فى الغرفة التى تحت السقف ، كما فى الماضى ، هل تتذكر ؟ سريرك لا يزال فى مكانه ، لم يمسه احد • ستنام هنالك كملك • اتفقنا ؟ تبقى ؟ وسنستيقظ غداً مبكرين قليلاً ، فتعاون على تزيين الغرفة فى الساعة الثامنة • وستساعدنا تاماشا ايضاً : ان ذوقها احسن من ذوقنا •• موافق ؟ تقضى الليلة هنا ؟

وكان للعجوز ما اراد ، فقرروا أن ابقى • استأذن الطبيب • ماسلوبوف بالانصراف ، وانصرفا • كان من عادة اسرة اخمينف ان لا تتأخر فى السهر ، وهى تنام فى نحو الساعة الحادية عشرة • وبدأ على ماسلوبوف ، حين ذهب ، ان فى ذهنه شيئاً كان يريد أن يفصح به الى ، ولكنه ارجأ ذلك الى مرة اخرى • وصعدت الى غرفتى التى تحت السقف بعد ان حيت اصدقائى تحية المساء ، فما كان اشد اشدهاى حين وجدت فيها ماسلوبوف • قال لى :

— عدت ادراجى يا فانيا لانتى أريد ان اتحدث اليك حالا . انها قصة غيبة ، ومؤسفة .

— ما هو الامر ؟

— صاحبك الامير الوغد هو الذى اثار حنقى منذ خمسة عشر يوماً ، ومازلت الى الآن حانقاً .

— كيف هذا ؟ امازلت على صلة به ؟

— هو . . . تظل تسأل « كيف هذا » كأننى قد اقترفت لا ادرى اى اثم . . . انك مثل الكسندرا سيمينوفنا تماماً . . . ومثل جميع هاته النسوة اللواتى لا 'يحتملن' . . . اننى لا اطيق النساء . . . يكفى ان يسمعن نعيق غراب حتى يأخذن يسألن : « ما هذا ، ولماذا ؟ » . . .
— لاتزعل .

— لست ازعل ، ولكن يجب ان 'ينظر الى الامور بالمنظار الصحيح' .
فما 'تضخم' . . . هذا كل شئ .

وسكت لحظة ، كأنه لا يزال حانقاً على ، فلم اقطع عليه سكوته ، فاستأنف يقول :

— اسمع يا فانيا ، لقد وقفت على سر . . . أو قل اننى لم افق على سر . . . ولكننى استتجت من بعض الامور ان نللى . . . ربما كانت . . . الابنة الشرعية للأمير .

— ماذا تقول ؟

— هو ! . . . عدنا الى اسئلتك « ماذا تقول ، ماذا تقول ؟ » . ان من المستحيل حقاً أن يتحدث المرء مع هؤلاء الناس ؟ هل ذكرت لك هذا

على انه حقيقة لا سبيل الى الشك فيها ؟ .. هل قلت لك ان من الثابت انها الابنة الشرعية للأمير ؟ ما هذا الطيش ! ..

بهذا صاح منزعجاً ، فقاطعته وقد اضطربت اضطراباً شديداً :

- اسمع يا عزيزي • ناشدتك الله لا تصرخ • واشرح ما عندك شرحاً واضحاً • أوكد لك اننى سأفهمك ، ولكن تذكر خطورة الموضوع وتصور النتائج التى تترتب ••

- نتائج ماذا ؟ اين البراهين ؟ ان الامور لا تعالج بهذه الطريقة ، وانا اقول لك الآن هذا الكلام على انه سر يجب ان لا يفشى ، وسأشرح لك فيما بعد ما قصدت اليه من مواجهة هذا الموضوع • كان لابد من ذلك • اسكت الآن ، واصنع الى ، ولا تنس ان هذا كله سر •• اليك ماحدث • فى هذا الشتاء ، قبل موت سميت ، ما كاد الامير يعود من فارسوفيا ، حتى بدأ يتابع القضية •• الحق انه كان يتابعها منذ مدة طويلة ، منذ السنة الماضية • ولكنه كان يومئذ يلاحق هدفاً ، وهو اليوم يلاحق هدفاً آخر • المهم انه قد فقد الحيط الذى كان يمسك به • لقد ترك ابنة سميت باريز منذ ثلاثة عشر عاماً ، ولكنه ظل يراقبها طوال ذلك • فكان يعرف انها تعيش مع هنرى الذى جاء ذكره اليوم ، وكان يعرف انها ولدت نللى ، وانها مريضة • اى كان يعرف كل شئ ، ولكنه فقد الحيط فجأة • وقد فقدته بعد موت هنرى بقليل ، فيما أعتقد ، أى حين رجعت ابنة سميت الى بطرسبرج • كان فى وسعه ان يعثر عليها بطرسبرج بسرعة ، مهما يكن الاسم الذى انتحلته عائدة الى روسيا ، ولكن جواسيسه فى الخارج بعثوا اليه بتقارير خاطئة • لقد أكدوا له انها تعيش فى مدينة صغيرة مجهولة بجنوب المانيا • وكانوا يعتقدون هم انفسهم بذلك ، نتيجة اهمال ، فقد تشابهت عليهم مع امرأة أخرى • وانقضى على ذلك عام او يزيد • وفى خلال هذه السنة ساورت الامير شكوك : وكان قد تراءى

له قبل ذلك من بعض الدلائل ان تلك التى يراقبونها امرأة اخرى • فتسأل عندئذ : ترى اين هى ابنة سميت ؟ وخطر بباله (هكذا ، دون الاستناد الى اية معلومات) انها ببطرسبرج • فكلف بعضهم باجراء تحقيق فى الخارج ، وبدأ باجراء تحقيق آخر هنا • فتعرف الى ، لانتى زكيت له ، وقيل له انتى أعنى بمثل هذه الامور ، وانتى من هواتها ، وانتى كيت كيت ••

فعرض على القضية ، ولكنه عرضها عرضاً غامضاً مظلماً ملتبساً ، هذا الشيطان بن الشيطان • وكان يخطئ ، فيصوّر الامور صوراً مختلفة فى آن واحد •• ان الانسان مهما يمكر ، لا يستطيع اخفاء جميع الخيوط ، هذا امر مسلم به ! فاندفعت فى خدمة الامير بكل ما فى نفسى من سذاجة ، واخلصت له اخلاص العبد لسيد • ولكننى ، وفقاً لقاعدة كنت قد اخذت بها الى الابد ، ووفقاً لقانون من قوانين الطبيعة ايضا (ذلك ان هذا قانون من قوانين الطبيعة) تساءلت اولاً : هل الامر الذى حدثنى فيه الامير هو ما يحتاج اليه حقاً ، وثانياً : ألا تخفى وراء هذه الحاجة التى افصح عنها حاجة اخرى لم يكشف الا عن جزء منها • ذلك ان الامير ، ان صرح ان هنالك حاجة اخرى ، وابت تفهم هذا من تلقاء نفسك مادمت تملك دماغ شاعر ، يكون قد سرقنى : فاذا كان اجر حاجة من الحاجات روبلاً واحداً مثلاً ، وكان اجر حاجة اخرى اربعة روبلات ، فانتى تكون غيباً لو أعطيت بروبيل واحد ما يساوى اربعة روبلات • لذلك أخذت أتعق الموضوع وأتقصى وأنبش ، الى أن وقعت على عدة أمور : الامر الاول اكتشفته بواسطته ، والثانى بواسطة شخص آخر لا شأن له بالقضية ، والثالث وصلت اليه بذكائى وحده • فاذا سألتنى كيف خطر ببالى ان اتصرف فى الامر هذا التصرف ، اجبتك بأن السبب الوحيد الذى دفعنى الى ذلك هو ملاحظته فى الامير من اضطراب شديد وقلق عميق •

فساءلت : ما الذى يخشاه الامير ؟ لقد انتزع فتاة من أبيها ، ثم حملت منه ، ثم هجرها .. اى غرابة فى هذا ! انها شطارة لا أكثر من ذلك ولا أقل . ان امرأاً كالامير لا يمكن أن يضطرب هذا الاضطراب كله لأمر تافه كهذا .. أما وانه خائف ، فلا بد ان يكون ثمة امور اخرى . هكذا راودتنى الشكوك ، فمضيت ابحث ، حتى عثرت على آثار هامة ترجع الى هنرى . لقد مات هنرى طبعاً ، ولكن احدى قريباته (وهى الان زوجة خبازٍ هنا ببطرسبرج) وكانت تحبه فى الماضى حباً جامحاً ، وظلت تحبه خلال خمسة عشر عاماً ، رغم خبازها السمين الذى انجبت منه ثمانية اولاد دون ان تتبه الى ذلك ، اقول ان قريته هذه قد كشفت لى ، بعد مداورات كثيرة متنوعة من جهتى ، عن امر هام . لقد كان هنرى يكتب اليها ، على عادة الالمان ، وكان يبعث اليها بيومياته . وقبل موته بمدة قصيرة ارسل اليها بعض الاوراق . لم تفهم الحمقاء قيمة هذه الاوراق ، وكانت لا تعنيها فيها الا الفقرات التى يدور فيها الحديث على القمر وما الى ذلك .. اما انا فقد عثرت فى هذه الاوراق على معلومات كنت فى حاجة اليها ، واطلعتنى هذه الرسائل على امور جديدة . عرفت ، فيما عرفت ، وجود سميت ، ورأس المال الذى سرقة منه ابنته ، وعرفت ان الامير استولى على المال ، ولمحت أخيراً من خلال كثير من اشارات التعجب ومن اللف والدوران والتلميحات والرموز ، لمحت فى هذه الرسائل الجوهر الحقيقى فى هذه القضية : ولكن ، افهمنى حق الفهم يا فانيا ، لست ادعى ان ما لمحته هو الحقيقة الثابتة التى لا شك فيها .. لقد كان هذا السخيف هنرى يعتمد الاخفاء ويكتفى بالاشارات ، ولكن ما يترأى لى من هذه الاشارات ومن كل هذه الاشياء ، ينسجم فى نظرى انسجماً تاماً ، ويدل على ان الامير قد تزوج ابنة سميت . فاذا سألتى اين تم ذلك الزواج ، ومتى تم ؟ هل تم فى الخارج أم تم فى بطرسبرج ؟ وأين هى الوثائق التى

تثبته ؟ لم أستطع أن أجيبك بشيء .. يستحيل أن تعرف هذه الامور ..
لقد بحثت يا عزيزي فانيا ، ثم بحثت ، ليل نهار ، فلم اعثر على شيء ،
فكنت اشد شعري حسرة وأسفا .

واكتشفنا سميت اخيراً ، ولكنه مات فجأة . حتى انني لم استطع
ان اراه حياً . ثم علمت ، صدفة ، ان امرأة كانت تحوم حولها شكوكي ،
قد ماتت في فاسيلي أوستروف . فهرعت الى فاسيلي أوستروف ، وكان
ذلك في اليوم التي لقيتك فيه ، هل تتذكر ؟ واكتشفت يومئذ اشياء
كثيرة .

واوجز فأقول ان نللي قد ساعدتني في تلك اللحظة بمساعدة كبيرة .
- اسمع ، هل تعتقد ان نللي تعرف ..
- ماذا ؟

- انها ابنة الامير ؟

- انك تعرف ذلك ، فلماذا تسألني هذه الاسئلة الزائدة ، ايها
الطاش ؟

قال لي ذلك وهو ينظر الى نظرة لوم مأكرة . ثم اضاف يقول :
- المهم ليس هذا .. المهم هو ان نللي ليست ابنة الامير فحسب ،
بل هي ابنته الشرعية ايضا .. هل تفهم ؟

فصرخت قائلاً :

- هذا مستحيل !

- انا ايضاً كنت في اول الامر اقول لنفسي « هذا مستحيل ! » ..
ومازلت الى الآن اقول لنفسي احياناً « هذا مستحيل » ، ولكن الواقع هو
ان ذلك ليس مستحيلاً ، بل أغلب الظن انه هو الواقع .
- لا ، يا ماسلوبوفيت ، لا ، انك تذهب بعيداً جداً .. انها لا تجهل

ذلك فحسب ، بل هي ابنة غير شرعية ايضاً • والا ، فكيف كان يمكن ان تحمل امها ذلك المصير القاسي الذي عاشته ببطرسبرج ، لو كانت تملك اى دليل ، وكيف كان يمكن عدا ذلك ان تترك ابنتها على هذه الحالة ؟ انت تمزح يا ماسلوبوف • هذا مستحيل •

— انا ايضا خطر ببالي ذلك ، وما زالت الشكوك تراودنى الى اليوم • ولكن مما لاشك فيه ان ابنة سميت كانت امرأة مجنونة لا تضارعها فى جنونها امرأة • فكّر فى الظروف والملابسات : لقد كانت حياتها رومانسية عجيبة •• ان اخيلتها وشذوذها وتهاويلها قد بلغت حدوداً غريبة لا تصدق • فكر فى هذا فقط : لقد كانت تحلم ، اول الامر ، بنوع من الجنة على الارض ، كانت تحلم بملائكة ، ثم احبت حبا جامحا محموماً ، فمحضت ذلك الذى أحبه ثقه ليس لها حدود ، وأنا على يقين من انها 'جنّت' لانه اصبح لا يحبها ، ولا لانه هجرها ، بل لانها خدعت فى امره ، لانه كان قادراً على ان يخونها وان يهجرها ، لان ملاكها قد استحال وحلا ، فلطخها ووسخها • ان روحها الرومانسية الطائشة لم تستطع ان تطيق هذه الاستحالة • وهناك فوق ذلك كله الاهانة : هل تفهم اية اهانة ؟ انها ، فى سورة من حنقها ومن كبريائها خاصة ، قد انصرفت عنه باحتقار شديد ، فحطمت جميع الصلات ، ومزقت جميع الاوراق ، واستخفت بالمال ، حتى لقد نسيت انه ليس مالها بل مال أبيها ، ورفضته كأنه تراب او وحل ، كل ذلك من اجل ان تسحق هذا الذى أغواها ، أن تسحقه بأنفتها وشممها ، من أجل أن تستطيع اعتباره لصاً ، من اجل ان يحق لها احتقاره مدى الحياة ولاشك انها رأت فى تلك اللحظة ان من العار عليها ان تدعى زوجته • ان الطلاق عندنا لا وجود له ، ولكنها طلقته عملاً • فكيف يمكن ، والحالة هذه ، ان يطلب المعونة ؟ تذكر : ما قالته هذه المجنونة لابنتها وهي على فراش

الموت : « لا تذهبى اليهم ، اعملى ، واهلكى ، ولكن لا تذهبى اليهم ، كائناً من كان الشخص الذى يدعوك » (كانت تتوقع ان يدعوها احد ، وأن يتاح لها أن تنتقم مرة أخرى ، وأن تسحق بالاحتقار ذلك الذى سيدعوها . والخلاصة انها كانت تتغذى بأحلام الانتقام ، بدلاً من الحبز) .
لقد امدتني بمعلومات كثيرة . وما ازال استمد منها بعض المعلومات من حين الى حين . لقد كانت امها مريضة ، مريضة بالسل . وهذا المرض يجعل المريض شديد التأذى ، ويولد فيه جميع انواع السخط والغيط والحق . ومع ذلك فأنا أعلم علم اليقين ، بواسطة أشيئة بوبنوفا ، انها كتبت الى الأمير ، نعم ، الى الأمير نفسه !

فصرخت نافذ الصبر :

- صحيح ؟ وهل وصله كتابها ؟

- لا أعرف أوصله ام لا . ولكننى أعرف ان ابنة سميث قد اتفقت مع اشبيئة بوبنوفا (ألا تتذكر تلك المرأة المبهرجة التى رأيتها عند بوبنوفا؟ انها الآن فى السجن) على أن تحمل اليه الرسالة : وكتبت الرسالة ولكنها لم تدعها لها ، بل استردتها منها ، وهذه الواقعة ذات دلالة : اذا كانت قد قررت ارسال الرسالة ، فليس يضير انها استردتها . . . اذ يمكن أن تكون قد أرسلتها بعد ذلك . ولكننى لا أعرف هل أرسلتها أو لا . ومن حقنا أن نقدر أنها لم ترسلها ، لأن الأمير لم يعلم بوجود ابنة سميث فى بطرسبرج الا بعد موتها . ولاشك ان ذلك سره كثيراً .

- نعم أتذكر ان اليوشا قد حدثنى عن رسالة سرّت أباه كثيراً . . . ولكن ذلك حدث منذ وقت غير بعيد ، منذ شهرين أو ثلاثة أشهر فى أكثر تقدير . طيب ، وبعد ، ما أنت صانع بالامير ؟

- أنا ؟ اسمع . انتى فى قرارة نفسى متيقن كل التيقن . ولكن ليس

ثمة برهان قاطع : ليس ثمة أى برهان ، رغم كل ما أنفقت من جهد ، وتحملت من عناء • ان الموقف حرج • ينبغي القيام ببعض التحريات فى الخارج • ولكن أين ؟ ما من احد يعرف • لقد قدرت طبعاً اتنى سأغلب ، وان كل ما استطيعه هو ان اخيفه ببعض التلميحات ، وان اتظاهر بمعرفة اشياء لا أعرفها فى الواقع !!
- ثم ؟

- لم يقع فى الفخ • ولكنه ، من جهة اخرى ، خاف كثيراً ، خاف خوفاً شديداً ما يزال يرتجف منه الى اليوم • التقينا عدة مرات ، فكان يصطنع مظهر من يستحق أن يرثى لحاله ، وفى ذات مرة ، اخذ يقص على من تلقاء نفسه كل شيء ، كصديق ، وذلك حين قدر اتنى اعرف كل شيء • كان يتحدث حديثاً بارعاً ، لا يخلو من لهجة العاطفة والصدق ، ولكنه كان يكذب طبعاً • • عندئذ ادركت مدى خوفه منى • اصطنعت امامه ، خلال لحظة من اللحظات ، وضع شخص غر يتظاهر بالانكر ، وتعمدت الغباء فى تخويفه • وأغلظت له القول بعد ذلك عن قصد • واخذت اهدده • كل ذلك من اجل ان يعدنى غيا ابله ، وان يلقي بما عنده • ولكن الوغد ادرك ما ارمى اليه • وفى مرة تظاهرت بالسكر فلم يفلح ذلك ايضاً • انه خيى • هل تستطيع ان تفهم هذا يا فانيا : كنت اريد ان اعرف اولاً مدى خوفه منى • وان اشعره ثانياً بأننى واقف على امور لست واقفاً عليها فى الواقع •

- والى ماذا اتيهتما ؟

- لم تنته الى شيء • كنت فى حاجة الى براهين ، ولم يكن لدى أى برهان • كل ما رآه هو اتنى استطيع ان افصحه • هذا هو الشيء الوحيد الذى يخشاه ، خاصة وانه بدأ يعقد هنا صلات • هل تعرف انه سيتزوج ؟

— لا •

— سيتزوج فى السنة القادمة • لقد اختار خطيبة منذ عام • لم يكن سنّها فى العام الماضى الا اربعة عشر عاماً ، وهى الآن فى الخامسة عشرة • اعتقد انها ما تزال فى « المريّلة » ، هذه الطفلة الشقية • وابواها مفتونان بالخطبة ! الآن تفهم كم كان فى حاجة الى ان تموت زوجته ! ان الفتاة ابنة جنرال • انها تملك مالاً كثيراً ، كثيراً جداً • لا انا ولا انت يمكن ان تتزوج زواجاً كهذا • ولكن الشئ الذى لن اغفره له مدى الحياة ، هو اننى وقعت فى احبيله منذ خمسة عشر يوماً ، هذا الوجد الحقيقى •• قال ماسلوبوف جملته الأخيرة وهو يضرب المائدة بقبضة يده ضربة قوية •

— كيف كان كذلك ؟

— نعم : لاحظت انه فهم اننى لا املك شيئاً راهنا دامتاً ، وشعرت اخيراً انه سيدرك عجزى اذا طال الامر ، فقبلت منه الفى روبل •
— قبضت منه الفى روبل ؟

— روبل فضة ، يا عزيزى • اخذتها منه وانا اشد على اسنانى من الحق • الفا روبل من اجل قضية كهذه ؟ يا له من ذل •• لكأنه اغرقنى بالبصاق ! قال لى : « اننى لم أدفع لك بعد اتعابك ياماسلوبوف (وكان قد اعطانى مائة وخمسين روبلاً ، مقدماً ، حسب الاتفاق) ، وانا الآن مسافر ، فاليك هذين الالفين • ارجو ان تكون قضيتنا قد انتهت تماماً ، • فأجبتة بقولى : « نعم لقد انتهت تماماً ايها الامير • • حتى اننى لم اجرؤ ان انظر الى وجهه ، قائلاً لنفسى : اننى لو نظرت الى وجهه لقرأت فيه قوله : « هاءنت ذا تقبض المبلغ الضخم ، ولكنتى لا اعطيك هذا المبلغ الا رافة بك أيها الغبى » • ولا اذكر الآن كيف خرجت من عنده !

صحت قائلاً :

— ولكن هذا جبن يا ماسلوبوف • ما انت صانع بنلى ؟

— ليس هذا جبناً فحسب ، بل هو حقارة يستحق صاحبها الشنق
•• هذا •• هذا •• ما من كلمة يمكن ان يوصف بها هذا العمل ••
— رحماك يا رب ! ولكن كان يجب على الاقل ان يؤمن مصير
نلى ! ••

— نعم ، كان يجب •• ولكن كيف تجبره على ذلك ؟ بتخويله ؟
لا يمكن ان ينجح التخويل •• لقد قبلت المال • انا نفسى اعترفت بأن
كل الخوف للنس يمكن ان أبته فيه لا يساوى أكثر من الفى روبل • انا
نفسى قدرت نفسى بهذا الثمن ! فكيف تريد ان تخوفه الآن ؟

فصحت ، شبه يائس :

— هل يمكن ان تكون قضية نلى خاسرة ؟

فهتف ماسلوبوف فائراً محتداً وهو يرتعش من قمة رأسه الى
أخمص قدميه :

— مستحيل • لن ادع الامور تمر هكذا • سأشرع فى عمل آخر
يا فانيا ، لقد قررت ذلك • لاضير فى اتنى قبضت الفى روبل • اتنى
لا أقيم وزنا لهذا • لقد اعتبرت المبلغ اهانة ، لقد عبث بى هذا الحقير ،
لقد سخر منى • انه يخدعنى ، ثم يستخف بى • لا ، لا ، اتنى لا يستطيع
احتمال ذلك ! •• ونلى هى التى سأبدأ بها الآن •• اتنى مقتنع اقتناعاً تاماً ،
على اساس بعض الملاحظات التى لاحظتها ، انها هى التى ستحل العقدة •
انها تعرف كل شىء •• لقد قصت عليها امها كل شىء • قصت عليها ذلك
اثناء الحمى ، اثناء الهذيان •• لم يكن هناك احد تشكو اليه أمرها • لم
يكن هناك الا نلى ، فأفضت اليها بأسرارها • حتى لقد نجد بعض الاوراق

(قال هذا وهو يفرك يديه تهللاً وطرباً) • هل فهمت الآن لماذا احوم هنا ؟ اولا للصداقة التى بينى وبينك طبعاً • ولكن ثانياً وخاصة لألاحظ نللى ، وثالثاً ، يا صديقى ، يجب عليك أن تساعدنى ، شئت أم أبيت ، لأن لك سلطاناً على نللى ؟

فهمت اقول !

— طبعاً سأساعدك ، أقسم لك ، ولكن ارجو يا ماسلوبوف ان تستهدف من كل هذا مصلحة نللى ، هذه اليتيمة الشقية المهانة ، لا أن تستهدف مصلحتك انت وحدها •

— المهم ان نصل الى غايتنا ، كائناً من كان الشخص الذى اعمل لمصلحته • لا شك ان الصغيرة هى اهم ما فى الامر ، فالانسانية تقضى بذلك ، ولكن لا تحكم علىّ حكماً قاطعاً لا يقبل النقض اذا رأيتنى أهتم قليلاً بنفسى ، يا صغيرى فانى • أنا رجل فقير ، ولا يخطرنبّ ببال ذلك الوغد أن يهين الفقراء ! هل تعتقد أن علىّ أن أوفر حقيراً كهذا الحقير أكثر مما فعلت ؟ ••

لم ينجح عيد الازهار الذى هيأناه للغد ، ذلك ان حالة نللى ساءت فلم تستطع ان تخرج من غرفتها •

وأصبح يجب عليها ان لا تخرج ابداً •

وماتت بعد ذلك بخمسة عشر يوماً ! وخلال هذين الاسبوعين اللذين استغرقهما الاختصار لم تستطع ان تعود الى صوابها مرة واحدة ، ولا أن تتخلص من اخيلتها الغريبة • كان يبدو ان عقلها اختل • ظلت مقتنعة اقتناعاً جازماً ، الى ان ماتت ، بأن جدها يدعوها ، بأنه حانق عليها لتأخرها عنه ، بأنه يضرب الارض بعصاه ، ويأمرها ان تذهب فى طلب

الصدقة ليشتري خبزاً وتيناً • وكثيراً ما كانت تبكي اثناء النوم ، حتى اذا استيقظت ذكرت أنها رأت أمها •

وفي بعض الاحيان كان يبدو ان عقلها عاد اليها • ففي ذات مرة كنا وحدنا ، فأنحنت على ، وتناولت يدي بيدها الهزيلة المحترقة بالحمل، وقالت لي :

— حين اموت يا فانيا ، تزوج ناتاشا •

يخيل الى أن هذه الفكرة كانت تحاصرها منذ مدة طويلة • فابتسمت لها دون ان اجيب ، فابتسمت هي ايضا ، ولوحت لي باصبعها الصغيرة المعروقة مهددة ، ونظرت الى نظرة متخابثة ، وقبلتني •

وقبل موتها بثلاثة أيام ، وكان ذلك في مساء جميل من أمانى الصيف ، أمرت بازاحة الستارة وفتح النافذة التى تطل على الحديقة ، ونظرت طويلاً الى الحضرة الكثيفة ، والى أشعة الشمس الغاربة ، ثم طلبت فجأة ان يتركونا وحدنا ، انا وهى •

قالت لي بصوت لا يكاد يسمع لأنها كانت ضعيفة جداً :

— يا فانيا ، سأموت قريباً ، قريباً جداً • وقد اردت ان أطلب منك ان لا تنساني • وهذا ما اتركه لك على سبيل الذكرى (قالت ذلك وارتنى كيساً صغيراً كان يتدلى من عنقها مع صليبيها) • لقد تركت لي امانى هذا وهى تموت • فاذا مت انا ، فاخلع هذا الكيس ، وخذ به لك ، وستقرأ ما فيه • سأقول لهم اليوم أن لا يعطوا الكيس لأحد غيرك • حتى اذا قرأت ما هو مكتوب فى الكيس ، فاذهب اليه ، وقل له اننى مت ، واننى لم أغفر له • وقل له ايضاً اننى قرأت الانجيل منذ مدة قصيرة ، وفيه يقول المسيح « اغفروا حتى لاعدائكم » ، قل له اننى قرأت هذا الكلام ، ومع ذلك لم

اغفر له ، وان الكلمات الأخيرة التى نطقت بها امى قبل ان تموت ، قبل ان تعجز عن الكلام هى : « اتنى ألغه » • وقل له اتنى ألغه انا ايضاً ، لا من اجلى ، بل من اجل امى • اذكر له كيف ماتت امى ، وقص عليه كيف بقيت وحدى مع بوبنوفا • اخبره بأنك رأيتى عند بوبنوفا ، أنبشه بكل شيء ، وقل له اتنى آثرت ان ابقى عند بوبنوفا على ان اذهب اليه •

قالت نللى ذلك ، واصفر وجهها اصفراراً شديداً ، واتقدت عيناها ، وأخذ قلبها يخفق خفقاناً قويا حتى انها هوت على الوسائد وظلت بضع دقائق لا تستطيع ان تقول شيئاً •

قالت اخيراً بصوت ضعيف :

— نادهم يا فانيا ، اريد ان اودعهم جميعاً ، وداعاً يا فانيا !

وشدتنى بذراعيها شداً قوياً ، مرة اخيرة الى الابد • ودخل اصدقاءنا جميعاً • كان العجوز لا يستطيع ان يصدق انها ستموت • كان لا يستطيع ان يسلم بهذه الفكرة • وظل الى آخر لحظة يتشاجر معنا فى هذا ، ويؤكد انها ستشفى لا محالة • • • لقد اضواء القلق ، وكان يقضى اياماً برمتها امام سرير نللى • وفى الليالى الاخيرة ، لم يغمض له جفن • • • اقول لم يغمض له جفن ، واعني ذلك حرفاً حرفاً • كان يسارع الى تحقيق ايسر نزوة من نزواتها ، وايسر رغبة من رغباتها • • • وكان اذا خرج من عندها ، يبكى بكاء مرأ • ولكنه ما يلبث بعد دقيقة ان يسترد آماله ، فيؤكد انها ستسترد عافيتها • لقد ملأ غرفتها بالازهار • وفى ذات يوم ، اشترى لها باقة ضخمة من ارووع الورود البيضاء والحمراء ، ذهب يشترىها من مكان بعيد ليقدمها هدية الى صغيرته نللى • • • وكان هذا كله يحدث فى الطفلة اضطراباً كبيراً • كان لا يمكنها ان لا تستجيب من اعماق قلبها لهذه العاطفة التى يحيطها بها كل من فى البيت • وفى ذلك

المساء ، فى ذلك المساء الذى ودعنا فيه ، لم يشأ الشيخ ان يكون ذلك هو الوداع الاخير • فابتسمت له نللى ، وحاولت طوال السهرة ان تبدو مرحة ، فكانت تمازحه ، حتى لقد كانت تضحك •• وحين تركناها ، كان قد تحرك فينا شيء من الامل ، ولكنها اصبحت فى الصباح ، فاذا هى عاجزة عن الكلام • وماتت بعد يومين •

ما زلت الى الآن ارى العجوز وهو يزين تابوتها الصغير بالازهار ، وينظر ، وقد هده اليأس ، الى وجهها الهزيل الذى لا حياة فيه والى ابتسامتها الجامدة ، والى يديها المتصلبتين فوق صدرها • لقد بكأها كما يبكي اب ابنته • وحاولنا ، انا وناتاشا والجميع ، ان نواسيه ، ولكن لم يكن ثمة سبيل الى مواساته ، حتى لقد مرض بعد دفن نللى مرضاً خطيراً.

اعطتني آنا آندريفنا الكيس الصغير الذى انتزعته من عنق نللى • كان الكيس يحتوى على الرسالة التى كتبها أم نللى الى الامير • وقد قرأتها يوم موت نللى ، فرأيتها تلعن الامير ، وتقول انها لا تستطيع ان تغفر له ، وتصف له الفترة الاخيرة من حياتها ، وتتوسل اليه ان يعمل شيئاً من اجل نللى • « هذه ابتك » وانت تعلم انها ابتك حقاً • لقد قلت لها ان تذهب اليك بعد موتى ، وان تعطيك هذه الرسالة •• فاذا انت لم تطرد نللى ، فقد اغفر لك هناك ، فى العالم الآخر ، يوم الحساب الكبير • سأقف يومئذ امام عرش الله اتوسل الى عدائه الالهية ان تذهب عنك خطاياك • ان نللى تعرف ما فى هذه الرسالة • لقد قرأتها لها ، وقصصت عليها كل شيء ، كل شيء •••••

ولكن نللى لم تنفذ وصية امها • كانت تعرف كل شيء ، ولكنها لم تذهب الى الامير وماتت دون ان تصالحه •

حين فرغنا من دفن نللى ، مضيت الى الحديقة مع ناتاشا • كان يوماً

حاراً مضيئاً • سيسافرون بعد اسبوع • القت على " ناتاشا نظرة طويلة غريبة • وقالت :

ـ فانيا ، فانيا ، كان هذا كله حلماً ، اليس كذلك ؟

ـ ما الذى كان حلماً ؟

وقرأت فى عينيها :

• " كان يمكن ان تسعد معاً الى الأبد ، •

حواش

صفحة

- ٢٤ - ارنست تيودور آميدى هوفمان (١٧٧٦ - ١٨٢٢) ، كاتب رومانسى ألماني ، مؤلف « حكايات خيالية » .
- ٢٦ - « حبيبى أوغسطين » ، أغنية هزلية ألمانية ، كانت رائجة جدا في ذلك الزمان .
- ٢٧ - موريتس جوتليب زافير (١٧٩٥ - ١٨٥٨) ، فكاھى نمسوى ولد في المجر من أصل يهودى .
- ٢٧ - دورفبارير (حلاق القرية) ، جريدة فكاھية ألمانية كانت تصدر بمدينة لايبزغ في زمن دوستويفسكى .
- ٣٩ - « الفونس ودالند » ، حكاية أخلاقية للأطفال ، نشرت في مجلة نوفيكونف « قراءة الطفل » سنة ١٧٨٧ بعنوان « الفونس ودالند » أو « معجزات الفن والطبيعة » .
- ٥٦ - الكسندر سوماروكوف (١٧١٨ - ١٧٧٧) ، كاتب مسرحيات تراجيدية وجنرال في الجيش .
- ٥٦ - جابرييل درجافين (١٧٤٣-١٨١٦) ، شاعر كبير ، نظم قصائد تتغنى بعهد كاترين الثانية .
- ٥٦ - ميشيل لومونوسوف (١٧١١ - ١٧٦٥) ، هو ابن فلاح أصبح عالما محيطا وكاتبا مرموقا ، وقد أسس جامعة موسكو .
- ٥٩ - روسلافليف ويورى ميلوسلافسكى ، بطلان من أبطال الروايات الوطنية التي كتبها زاجوسكين ومنها رواية : « روسلافليف أو الروس سنة ١٨١٢ » التي ظهرت عام ١٨٣١ ورواية « يورى ميلوسلافسكى أو الروس سنة ١٦١٢ » التي ظهرت عام ١٨٢١ .
- ٦١ - « تحرير موسكو » ، رواية تاريخية أصبحت الآن منسية؛ ظهرت

صفحة

- سنة ١٨٤٠ بعنوان : « الأمير بوجارسكى والمواطن الصغير أو تحرير موسكو » ، وهى كرواية زاجوسكين تصف الكفاح ضد البولونيين بعد احتلالهم موسكو .
- ٦٣ - كان الكاتب الشهير جوجول يتقاضى مساعدة من صندوق الامبراطور نيقولا الاول طوال مدة اقامته بايطاليا .
- ٦٤ - « آبادونا » (الملاك الساقط) ، قصة رومانسية للكاتب نيقولا بوليفوى ، ظهرت سنة ١٨٣٤ .
- ٦٤ - الناقد ب . . . هو الناقد الشهير بيلنسكى الذى كانت تهاجمه الجريدة الرجعية « نحلة الشمال » .
- ٩٣ - كان مؤلف المسرحيات الهزلية ، أوجين سكريب ، ذائع الصيت فى روسيا ، يقدره الناس تقديرا عظيما .
- ١١١ - « القديس اسحاق » ، حين بنى بطرس الاكبر مدينة سان بطرسبرج اهدى فيها كنيستين ، احدهما للقديس بطرس وبولس والثانية للقديس اسحاق الدماسى الذى يقع عيداه فى ٣٠ أيار (مايو) عيد ميلاد القيصر . وجاء الكسندر الاول فبنى كاتدرائية القديس اسحاق وفقا لتصميم وضعه المهندس الفرنسى ريشار مونفران .
- ١٢٣ - ايفان الزهيب ، قيصر روسيا من سنة ١٥٣٣ الى سنة ١٥٨٤ ؛ الكسى ميخائيلوفتش قيصر روسيا من سنة ١٦٥٤ الى سنة ١٦٧٦ ، وهو أبو بطرس الاكبر ، « تاريخ روسيا » ، ألفه نيقولا كرامازين ، وظهر فى ١٢ مجلدا بين سنة ١٨١٦ و ١٨٢٦ .
- ١٤٣ - هذه الأبيات مستمدة من قصيدة للشاعر جاك بولونسكى (١٨٢٠ - ١٨٩٧) ، نشرت سنة ١٨٥٤ فى مجلة « المعاصر » بعنوان : « الجرس الصغير » .
- ١٦٩ - كان « استحضار الأرواح » رائجا فى أوساط المجتمع الراقى فى ذلك الزمان .

صفحة

- ١٦٩ - « غط قلمك » : فى مسرحية من مسرحيات جوجول نرى عمّة البطل المشلولة توقع وصيتها بكلمة Obmokni (غط قلمك) بدلا من أن تذيل الوصية باسمها .
- ٢٠٢ - ان الشوارع العرضانية فى فاسيلى أوستروف تسمى بأرقام من صفر الى عشرين .
- ٢٠٥ - « الجادة الصغرى » (أو « الشارع الصغير ») هى احد الشوارع الرئيسية فى فاسيلى أوستروف .
- ٢١٧ - « سيزوبريوخوف » ، اسم نحتة دوستويفسكى من كلمتين هما سيزو ، ومعناها الكرش ، وبريوخو ومعناها المزرق ، ويطلق المؤلف هذا الاسم البشع على ابن التاجر سخرية .
- ٢١٨ - « وهو يبدو بمعطفه المخمل من المتعصبين للسلافية » ، كان دعاة السلافية سنة ١٨٤٠ يحبون أن يرتدوا ملابس الشعب الروسى التى هجرتها طبقة النبلاء منذ عهد بطرس الأكبر .
- ٢١٨ - « النادى الانجليزى » ، أنشئ بسان بطرسبرج فى عهد كاترين الثانية ، وكان ملتقى الطبقة الارستقراطية .
- ٣٥١ - « الطفولة والمراهقة » ، كتبها ليون تولستوى ، وظهرت سنة ١٨٥٢ - ١٨٥٣ فى مجلة « المعاصر » ، وظهرت سنة ١٨٥٦ فى طبعة مستقلة .
- ٤٠٢ - « انكم لا تتحدثون الا عن اليأس ، والمعاطف الضائعة ، وناظرى المحطات ٠٠٠ » : الاشارة هنا الى قصة « المعطف » التى كتبها جوجول ، والى قصة ناظر المحطة التى كتبها بوشكين ، والى أمثال هذه القصص .
- ٥٤٣ - « أنظر الى س ٠٠٠ » : الاشارة هنا الى الكونت ليون تولستوى الذى كتب ثلاثيته التى يعرض فيها قصة حياته على فترات تبلغ كل منها سنتين ، « وانظر الى ن ٠٠٠ » : الاشارة هنا الى الى جونتشاروف الذى نشر « حلم أوبلوموف » سنة ١٨٤٩ ثم لم ينتجز كتابة رواية « أوبلوموف » الا سنة ١٩٥٩ .

فهرس

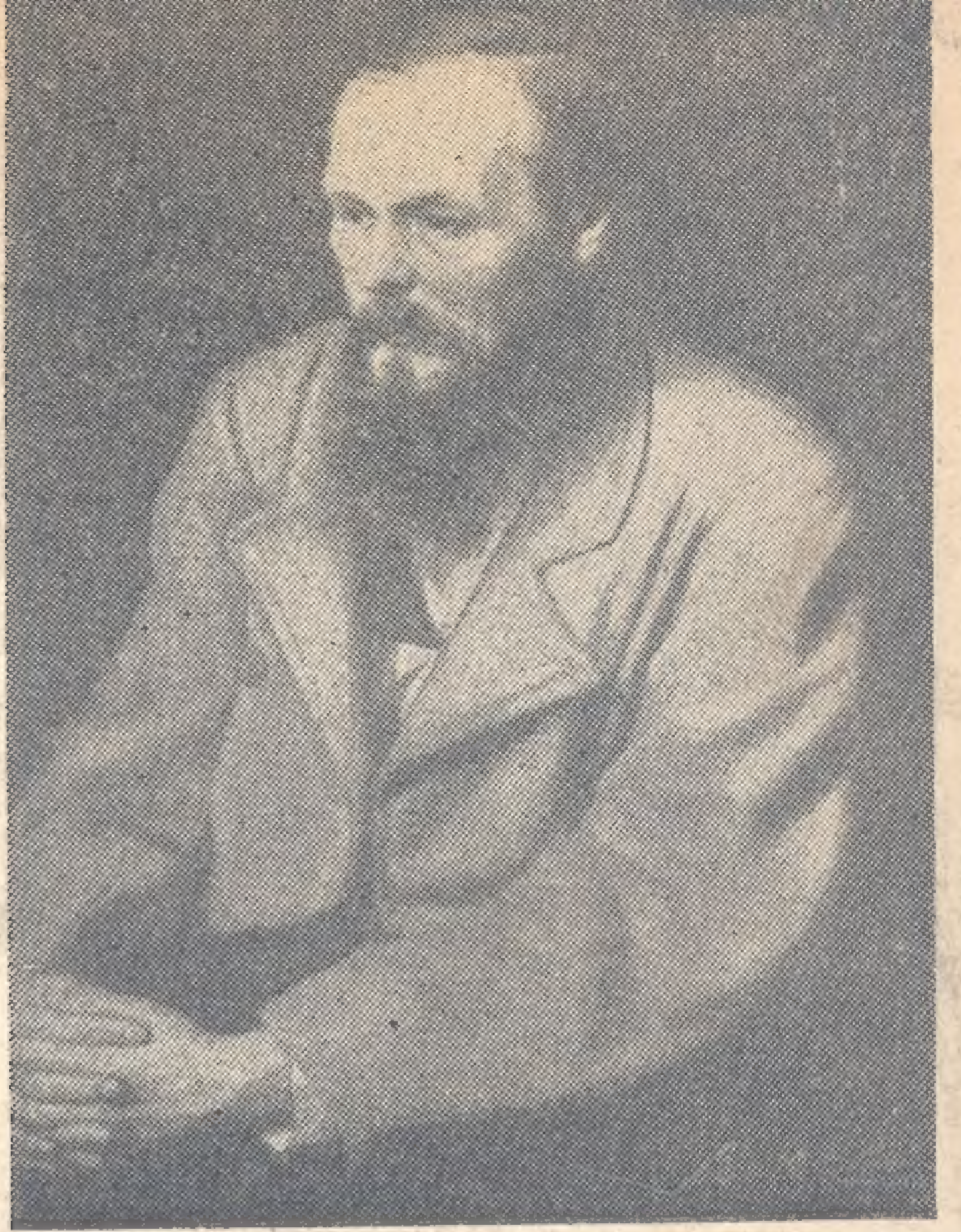
الموضوع	الصفحة
تقديم	١١
الجزء الأول :	
الفصل الأول	٢١
الفصل الثاني	٣٧
الفصل الثالث	٤١
الفصل الرابع	٤٥
الفصل الخامس	٥٣
الفصل السادس	٥٩
الفصل السابع	٧١
الفصل الثامن	٧٥
الفصل التاسع	٨٧
الفصل العاشر	٩٩
الفصل الحادى عشر	١٠٧
الفصل الثانى عشر	١١٥
الفصل الثالث عشر	١٢٧
الفصل الرابع عشر	١٣٧
الفصل الخامس عشر	١٤١
الجزء الثانى	
الفصل الأول	١٦١
الفصل الثانى	١٧٩
الفصل الثالث	١٩٧
الفصل الرابع	٢٠٥
الفصل الخامس	٢١٣

الموضوع	الصفحة
الفصل السادس	٢٢٥
الفصل السابع	٢٣٣
الفصل الثامن	٢٤٣
الفصل التاسع	٢٥٥
الفصل العاشر	٢٦٥
الفصل الحادى عشر	٢٧٧
الجزء الثالث	
الفصل الاول	٢٩٣
الفصل الثانى	٣٠٣
الفصل الثالث	٣٢١
الفصل الرابع	٣٣١
الفصل الخامس	٣٣٩
الفصل السادس	٣٥٣
الفصل السابع	٣٧١
الفصل الثامن	٣٧٥
الفصل التاسع	٣٨١
الفصل العاشر	٤٠١
الجزء الرابع	
الفصل الاول	٤٣١
الفصل الثانى	٤٣٥
الفصل الثالث	٤٤٥
الفصل الرابع	٤٥٣
الفصل الخامس	٤٦٩
الفصل السادس	٤٨٥
الفصل السابع	٥٠٧
الفصل الثامن	٥٢١
الفصل التاسع	٥٣٣
ذكریات أخيرة	٥٣٧
حواش	٥٧٣

أعمال دوستويفسكى الأدبية الكاملة

المجلد ٧	المجلد ١
المقامر	الفقراء
الزوج الأبدى	المثل
المجلد ٨	قلب ضعيف
الجريمة والعقاب ١	المجلد ٢
المجلد ٩	نيتوتشكا نرفانوفنا
الجريمة والعقاب ٢	الليالى البيضاء
المجلد ١٠	بروخارتشين
الأهبل ١	الجارة
المجلد ١١	المهرج
الأهبل ٢	السارق الشريف
المجلد ١٢	البطل الصغير
الجن ١	قصة فى تسع رسائل
المجلد ١٣	شجرة عيد الميلاد والزواج
الجن ٢	زوجة آخر، ورجل تحت السرير
المجلد ١٤	المجلد ٣
المراهق ١	قرية ستيباتشيكوفو وسكانها
المجلد ١٥	حلم العم
المراهق ٣	المجلد ٤
المجلد ١٦	مذلون مهانون
الأخوة كارامازوف ١	المجلد ٥
المجلد ١٧	ذكريات من منزل الأموات
الأخوة كارامازوف ٢	المجلد ٦
المجلد ١٨	فى قبوى
الأخوة كارامازوف ٣	قصة أليمة
المجلد ١٩	ذكريات صيف عن مشاعر شتاء
من « يوميات كاتب »	التمساح
رسائل	

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالمشامة



«... ليس مجانين دوستريفيكي مجانين
إلى الحد الذي نتوهمه لأول وهلة .
كل ما هنالك أنهم ما لا نجرؤ أن
نكونه . إنهم يعملون ويقولون ما لا
نجرؤ أن نعله وأن نقوله . إنهم
يُظهرون إلى النور ما نكسبه نحن في
ظلمات اللا شعور . إنهم نحن إذا لومنا
ورصدنا من داخل»
هنري ترويا